السيرة الحلبية

في

سيرة الأمين المأمون

إنسان العيون

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

المجلد الأول

دار المعرفة

بيروت - لبنان

السيرة الحلبية

في

سيرة الأمين المأمون

إنسان العيون

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن نضر وجوه أهل الحديث، وصلاة وسلاما على من نزل عليه أحسن الحديث، وعلى آله وأصحابه أهل التقدم فى القديم والحديث ، صلاة وسلاما دائمين ما سارت الأئمة فى جمع سير المصطفى السير الحثيث .

وبعد : فيقول أفقر المحتاجين ، وأحوج المفتقرين ، لعفو ذى الفضل والطول المتين ، [على بن برهان الدين الحلبى الشافعى] : إن سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من أهم ما اهتم به العلماء الأعلام ، وحفاظ ملة الإسلام ، كيف لا وهو الموصل لعلم الحلال والحرام ، والحامل على التخلق بالأخلاق العظام ، وقد قال الزهرى رحمه الله : فى علم المغازى خير الدنيا والآخرة ، وهو أول من ألف فى السير .

قال بعضهم : أول سيرة ألفت فى الإسلام سيرة الزهرى ، وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال : كان أبى يعلمنا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه فيقول : يابنى هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها، وأحسن ما ألف فى ذلك وتداولته الأكياس ، سيرة الحافظ أبى الفتح ابن سيد الناس ، لما جمعت من تلك الدرارى والدرر ، ومن ثم سماها [عيون الأثر] غير أنه أطال بذكر الاسناد الذى كان للمحدثين به مزيد الاعتداد ، وعليه لهم كثير الاعتماد ، إذ هو من خصائص هذه الأمة ، ومفتخر الأئمة ، لكنه صار الآن لقصور الهمم لا تقبله الطباع ، ولا تمتد إليه الأطماع . وأما سيرة الشمس الشامى ، فهو وإن أتى فيها بما يعد فى صفائح وجوه الصحائف حسنات ، لكنه أتى فيها بما هو فى أسماع ذوى الأفهام كالمعادات .

ولا يخفى أن السير تجمع الصحيح والسقيم ، والضعيف والبلاغ ، والمرسل والمنقطع والمعضل دون الموضوع ؛ ومن ثم قال الزين العراقى رحمه الله :

وليعلم الطالب أن السيرا   تجمع ما صح وما قد أنكرا

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة : إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا وإذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا . وفى الأصـــل : والذى ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخص فى الرقائق ، ومالا حكم فيه من أخبار المغازى وما يجرى مجرى ذلك ، وأنه يقبل منها مالا يقبل فى الحلال والحرام ، لعدم تعلق الأحكام بها ، فلما رأيت السيرتين المذكورتين على الوجه الذى لا يكاد ينظر إليه لما اشتملتا عليه، عنّ لى أن ألخص من تينك السيرتين أنموذجا لطيفا يروق الأحداق ، ويحلو الأذواق ، يقرأ مع ما أضمه إليه بين يدى المشايخ على غاية الانسجام ، ونهاية الانتظام ، ولا زلت فى ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكونى لست من أهل هذا الشان ، ولا ممن يسابق فى ميدانه على خيل الرهان ، حتى أشار علىّ بذلك ، وبسلوك تلك المسالك ، مَن إشارته واجبة الاتباع ، ومخالفة أمره لاتستطاع . ذو البديهة المطاوعة ، والفضائل البارعة، والفواضل الكثيرة النافعة ، من إذا سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف ، لاتراه يتوقف ، ولا يخرج عن صوب الصواب ولا يتعسف ، ولا أخبر فى كثير من الأوقاف عن شىء من المغيبات وكاد أن يتخلف، وهو الأستاذ الأعظم والملاذ الأكرم ، مولانا الشيخ أبوعبدِ الله وأبوالمواهب [محمد فخر الإسلام البكرى الصديقى] كيف لا وهو محل نظر والده ، من نشر ذكره ملأ المشارق والمغارب ، وسرى سره فى سائر المسارى والمسارب ، ولى الله ، والقائم بخدمته فى الإسرار والإعلان ، والعارف به الذى لم يتمار فى أنه القطب الفرد الجامع اثنان مولانا : الأستاذ أبو عبد الله ، وأبو بكر محمد البكرى الصديقى .

ولا بدع فانه نتيجة صدر العلماء العاملين ، وأستاذ جميع الأستاذين ، والمعدود من المجتهدين ، صاحب التصانيف المفيدة فى العلوم العديدة ، مولانا الأستاذ [محمد أبوالحسن] تاج العارفين البكرى الصديقى ، أعاد الله تعالى علىّ وعلى أحبابى من بركاتهم ، وجعلنا فى الآخرة من جملة أتباعهم ؛ فلما أشار علىّ ذلك الأستاذ بتلك الإشارة ورأيتها منه أعظم بشارة ، شرعت معتمدا فى ذلك على من يبلغ كل مؤمل أمله ، ولم يخيب من قصده وأمله وقد يسر الله تعالى ذلك على أسلوب لطيف ، ومسلك شريف ، لا تمله الأسماع ، ولاتنفر منه الطباع ، والزيادة التى أخذتها من سيرة الشمس الشامى على سيرة أبى الفتح ابن سيد الناس، الموسومة بـ [عيون الأثر] إن كثرت ميزتها بقولى فى أولها قال، وفى آخرها انتهى :

وإن قلت أتيت بلفظه: أى وجعلت فى آخر القولة دائرة هكذا [ ] بالحمرة(١) وربما أقول وفى السيرة الشامية ، وربما عبرت عن الزيادة القليلة بقال ، وعن الكثيرة بأى ، وما ليس بعده تلك الدائرة فهو من الأصل ؛ أعنى [عيون الأثر] غالبا ، وقد يكون من زيادتى على الأصل والشامى كما يعلم بالوقوف عليهما ؛ وربما ميزت تلك الزيادة بقولى فى أولها أقول ، وفى آخرها والله أعلم ، وقد يكون من الزيادة ما أقول . وفى السيرة الهشامية بتقديم الهاء على الشين : وحيث أقول قال فى الأصل أو ذكر فى الأصل أو نحو ذلك فالمراد به عيون الأثر ، ثم عنّ لى أن أذكر من أبيات [القصيدة الهمزية] المنسوبة لعالم الشعراء وأشعر العلماء وهو الشيخ شرف الدين البوصيرى ناظم القصيدة المعروفة [بالبردة] ماتضمنته تلك الأبيات ، وأشارت إليه من ذلك السياق ، فإنه أحلى فى الأذواق ، وربما أحل ذلك النظم بما يوضح معناه ، ويظهر تركيب مبناه ، وربما أذكر أيضا من أبيات [تائية الإمام السبكى] ما يناسب المقام ؛ وربما أذكر أيضا بعض أبيات من كلام صاحب الأصل من قصائده النبوية المجموعة بديوانه المسمى ، بـ [بشرى اللبيب بذكرى الحبيب] . وقد سميت مجموع ذلك :

إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون

وأسأل من لامسئول إلا إياه ، أن يجعل ذلك وسيلة لرضاه آمين .

(١) اى بنسخة المؤلف .

باب نسبه الشريف

صلى الله عليه وسلم

هو محمد صلى الله عليه وسلم (ابن عبد الله) ومعنى عبد الله: الخاضع الذليل له تعالى ، وقد جاء « أحب أسمائكم ، وفى رواية : أحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبد الرحمن » وجاء « أحب الأسماء إلى الله ماتعبد به » وقد سمى صلى الله عليه وسلم بعبد الله فى القرآن ، قال الله تعالى (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وعبد الله هـذا هو (ابن عبد المطلب) ويدعى شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له : أى لأنه كان مفزع قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور ، فكان شريف قريش وسيدها كمالا وفعالا من غير مدافع . وقيل: قيل له شيبة الحمد؛ لأنه ولد وفى رأسه شيبة : أى وفى لفظ كان وسط رأسه أبيض ، أو سمى بذلك تفاؤلا بأنه سيبلغ سن الشيب [ ] قيل اسمه عامر ، وعاش مائة وأربعين سنة : أى وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية [ ] وكان مجاب الدعوة ، وكان يقال له الفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال . قال : وكان من حلماء قريش وحكمائها ، وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق تهامة ، فأغرى عليه حرب من قتله ، فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب ، ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودى حفظا لجواره ، ثم نادم عبد الله بن جدعان انتهى ملخصا .

وقيل له عبد المطلب ، لأن عمه المطلب لما جاء به صغيرا من المدينة أردفه خلفه : أى وكان بهيئة رثة : أى ثياب خلقة ، فصار كل من يسأل عنه ويقول من هذا ؟ يقول عبدى أى حياء أن يقول ابن أخى ، فلما دخل مكة أحسن من حاله وأظهر أنه ابن أخيه وصار يقول لمن يقول له عبد المطلب : ويحكم إنما هو شيبة ابن أخى هاشم [ ] لكن غلب عليه

الوصف المذكور فقيل له عبد المطلب : أى وقيل لأنه تربى فى حجر عمه المطلب ، وكان عادة العرب أن تقول لليتيم الذى يتربى فى حجر أحد هو عبده وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيئات الأمور .

وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبهم عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب فى ذلك ، ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسىء بإساءته : أى فالمظلوم شأنه فى الدنيا ذلك ، حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهى معدة له فى الآخرة ، ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ، ووحد الله سبحانه وتعالى . وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها : منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا ، وأن لا يطوف بالبيت عريان كذا فى كلام سبط ابن الجوزى (ابن هاشم) وهاشم : هو عمرو العلا أى لعلو مرتبته ، وهو أخو عبد شمس وكانا توءمين ، وكانت رجل هاشم أى أصبعها ملصقة بجبهة عبد شمس ، ولم يمكن نزعها إلا بسيلان دم ، فكانوا يقولون سيكون بينهما دم ، فكان بين ولديهما أى بين بنى العباس وبين بنى أمية سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة ، ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، لأن هاشما لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف حسده أمية ابن أخيه ، فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز ، فعيرته قريش وقالوا له أتتشبه بهاشم ، ثم دعا هاشما للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره ، فلم تدعه قريش فقال هاشم لأمية : أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى أمية بذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى وكان بعسفان ، فخرج كل منهما فى نفر ، فنزلوا على الكاهن ، فقال قبل أن يخبروه خبرهم « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » فنصر هاشم على أمية ، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل ، وأطعم الناس ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية ، وتوارث ذلك بنوهما ، وكان يقال لهاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل أقداح النضار : أى الذهب ، ويقال لهم المجيرون لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب .

قال بعضهم : ولا يعرف بنو أب تباينوا فى محالّ موتهم مثلهم ؛ فإن هاشما مات بغزة : أى كما سيأتى ، وعبد شمس مات بمكة ، وقبره بأجياد ، ونوفلا مات بالعراق ، والمطلب مات ببرعاء من أرض اليمن : أى وقيل له هاشم ، لأنه أول من هشم الثريد بعد جده إبراهيم ، فإن إبراهيم أول من فعل ذلك: أى ثرد الثريد وأطعمه المساكين [ ] وفيه أن أول من ثرد الثريد ، وأطعمه بمكة بعد إبراهيم جد هاشم قصى . ففى الإمتاع : وقصى أول من ثرد الثريد وأطعمه بمكة . وفيه أيضا هاشم عمرو العلا ، أول من أطعم الثريد بمكة ، وسيأتى أن أول من فعل ذلك عمرو بن لحى ، فليتأمل .

وقد يقال : لامنافاة لأن الأولية فى ذلك إضافية ، فأولية قصى لكونه من قريش ، وأولية عمرو بن لحى لكونه من خزاعة ، وأولية هاشم باعتبار شدة مجاعة حصلت لقريش وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله :

وأطعم فى المحل عمرو العلا فللمسنتين به خصب عام

وقال أيضا :

عمرو العلا ذو الندى من لايسابقه مر السحاب ولا ريح تجاريه
جفانه كالجوابى للوفود إذا لبوا بمكة ناداهم مناديه
أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت قوتا لحاضره منهم وباديه

وقد قيل فيه :

قل للذى طلب السماحة والندى هلا مررت بآل عبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلمّ للأضياف

وعن بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله تعالى عنه على باب بنى شيبة فمر رجل وهو يقول :

يا أيها الرجل المحوّل رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال: أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذى بعثك بالحق ، ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن اقراف

الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يعود فقيرهم كالـكافى

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هكذا سمعت الرواة ينشدونه ، وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السقاية والرفادة ، فكان يعمل الطعام للحجاج ، يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ، ويقال لذلك الرفادة .

واتفق أنه أصاب الناس سنة جدب شديد فخرج هاشم إلى الشام ، وقيل بلغه ذلك وهو بغزة من الشام ، فاشترى دقيقا وكعكا وقدم به مكة فى الموسم ، فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريدا ، وأطعم الناس حتى أشبعهم ؛ فسمى بذلك هاشما . وكان يقال له أبو البطحاء وسيد البطحاء .

قال بعضهم : لم تزل مائدته منصوبة لاترفع فى السراء والضراء .

قال ابن الصلاح : روينا عن الإمام سهل الصعلوكى رضى الله عنه أنه قال فى قوله صلى الله عليه وسلم « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » أراد فضل ثريد عمرو العلا ، الذى عظم نفعه وقدره ، وعم خيره وبره ، وبقى له ولعقبه ذكره . وقد أبعد سهل فى تأويل الحديث .

والذى أراه أن معناه تفضيل الثريد من الطعام على باقى الطعام ، لأن سائر بمعنى باقى أى فالمراد أى ثريد لاخصوص ثريد عمرو العلا حتى يكون أفضل من ثريد غيره . وكان هاشم يحمل ابن السبيل ، ويؤمن الخائف .

قال : وقد ذكر أنه كان إذا هل هلال ذى الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب يقول فى خطبته : يامعشر قريش إنكم سادة العرب،أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما أى عقولا ، وأوسط العرب : أى أشرفها أنسابا ، وأقرب العرب بالعرب أرحاما . يامعشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى ، أكرمكم الله تعالى بولايته ، وخصكم بجواره دون بنى إسمعيل ، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره ،فإنهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ؟ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لايخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيبا ، لم يؤخذ ظلما ،

ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصبا ، فكانوا يجتهدون فى ذلك ، ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة انتهى .

وقيل فى تسمية شيبة الحمد عبد المطلب غير ماتقدم . فقد قيل : إنما سمى شيبة الحمد عبد المطلب ، لأن أباه هاشما قال للمطلب الذى هو أخو هاشم وهو بمكة حين حضرته الوفاة أدرك عبدك يعنى شيبة الحمد بيثرب ، فمن ثم سمى عبد المطلب كذا فى المواهب ، وقدمه على ماتقدم .

وفيه أنه حكى غير واحد أن هاشما خرج تاجرا إلى الشام ، فنزل على شخص من بنى النجار بالمدينة وتزوج بنته على شرط أنها لاتلد ولدا إلا فى أهلها : أى ثم مضى لوجهه قبل أن يدخل بها ثم انصرف راجعا فبنى بها فى أهلها ثم ارتحل بها إلى مكة ، فلما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة ومضى إلى الشام فمات بغزة ، قيل وعمره حينئذ عشرون سنة ، وقيل أربع ، وقيل خمس وعشرون . وولدت شيبة الحمد فمكث بالمدينة سبع سنين وقيل ثمان ، فمر رجل على غلمان يلعبون أى ينتضلون بالسهام وإذا غلام فيهم إذا أصاب قال أنا ابن سيد البطحاء ، فقال له الرجل : ممن أنت ياغلام ؟ فقال أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف ، فلما قدم الرجل مكة وجد المطلب جالسا بالحجر فقص عليه مارأى ، فذهب إلى المدينة ، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ففاضت عيناه وضمه إليه خفية من أمه .

وفى لفظ أنه عرفه بالشبه وقال لمن كان يلعب معه : أهــذا ابن هاشم ؟ قالوا نعم ، فعرفهم أنه عمه ، فقالوا له : إن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه ، فإنها إن علمت بك لم تدعك وحالت بينك وبينه ، فدعاه المطلب وقال ياأخى أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك ، وأناخ ناقته فجلس على عجز الناقة ، فانطلق به ولم تعلم به أمه حتى كان الليل فقامت تدعوه ؛ فأخبرت أن عمه قد ذهب به وكساه حلة يمانية ، ثم قدم به مكة ، فقالت قريش : هذا عبد المطلب : أى فإن هذا السياق يدل على أن عبد المطلب إنما ولد بعد موت أبيه هاشم بغزة ، وكون عمه المطلب كساه حلة لاينافى ماسبق أنه دخل به مكة وثيابه رثة خلقة ، لأنه يجوز أن تكون هذه الحلة ألبست له عند أخذه ثم نزعت عنه فى السفر : أى أو أن هذه الحلة اشتراها بمكة كما يصرح به كلام بعضهم . وما وقع هنا

من تصرف الراوى على أنه يجوز أن يكون اشترى له حلتين واحدة ألبسها له بالمدينة وأخرى اشتراها بمكة وألبسها له [ ] .

وفى السيرة الهشامية أن أم عبد المطلب كانت لاتنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقته : أى وإنها لاتلد ولدا إلا فى أهلها كما تقدم ، وأن عمه المطلب لما جاءه لأخذه قالت له لست بمرسلته معك ،فقال لها المطلب : إنى غير منصرف حتى أخرج به معى ، إن ابن أخى قد بلغ وهو غريب فى غير قومه ،ونحن أهل بيت شرف فى قومنا ، وقومه وعشيرته وبلده خير من الإقامة فى غيرهم ، فقال شيبة لعمه : إنى لست بمفارقها إلا أن تأذن لى ، فأذنت له ودفعته إليه ، فأردفه خلفه على بعيره . ويحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله ، فقالت قريش عبد المطلب ابتاعه : أى ظنا منهم أنه اشتراه من المدينة فإن الشمس أثرت فيه وعليه ثياب أخلاق ،فقال لهم : ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم . ولا يخالف هذا ماسبق ، من أنه صار يقول لمن يسأله عنه من هذا ؟ فيقول عبدى ، لأنه يجوز أن يكون بعض الناس قال من عند نفسه هذا عبد المطلب ظنا منه ، وبعضهم سأله فأجابه بقوله هذا عبدى كما تقدم، ولما دخل مكة قال لهم ويحكم إلى آخره. وهاشم (بن عبد مناف) وعبد مناف اسمه المغيرة. أي وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله ، وهذا هو الجد الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان ، والجد التاسع لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنهما .

ووجد كتاب فى حجر : أنا المغيرة بن قصى ، أوصى قريشا بتقوى الله جل وعلا ، وصلة الرحم . ومناف أصله مناة اسم صنم كان أعظم أصنامهم ، وكانت أمه جعلته خادما لذلك الصنم . وقيل وهبته له لأنه كان أول ولد لقصى على ماقيل ،لأن عبد مناف بن قصى أى ويسمى قصى زيدا .

وعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه أن اسمه يزيد، ويدعى مجمعا أيضا. وقيل له قصى لأنه قصى : أى بعد عن عشيرته إلى أخواله بنى كلب فى ناديهم . وقيل بعد إلى قضاعة مع أمه لأنها كانت منهم .

أقول : لامنافاة ، لجواز أن تكون أم قصى من بنى كلب وأبوها من قضاعة ، وأنها رحلت بعد موت عبد مناف إلى بنى كلب، ثم لما تزوجت من قضاعة رحلت إليها ، ولعل قضاعة كانت جهة الشام ، فلا يخالف ماقيل .

وقيل له قصي لأنه بعد مع أمه إلى الشام ، لأن أمه تزوجت بعد موت أبيه وهو فطيم بشخص يقال له ربيعة بن حزام . وقيل حزام بن ربيعة العذرى ، فرحل بها إلى الشام وكان قصي لايعرف له أبا إلا زوج أمه المذكور ، فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر : أى فإنه ناضل رجلا منهم فنضله قصي أى غلبه ، فغضب ذلك الرجل وعير قصيا بالغربة وقال له : ألا تلحق بقومك وببلادك فإنك لست منا .

وفى لفظ : لما قيل له ذلك ، قال ممن أنا ؟ قيل له سل أمك فشكا ذلك إلى أمه . فقالت له : بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم أبا منهم ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام تفد إليه العرب ، وقد قالت لى كاهنة رأتك صغيرا إنك تلى أمرا جليلا ، فلما أراد الخروج إلى مكة قالت له أمه : لاتعجل حتى يدخل الشهر الحرام فتخرج مع حجاج قضاعة ، فإنى أخاف عليك ، فشخص مع الحجاج ، فقدم قصي مكة على قومه مع حجاج قضاعة ، فعرفوا له فضله وشرفه ، فأكرموه وقدموه عليهم ، فساد فيهم ثم تزوج بنت حليل بالحاء المهملة المضمومة الخزاعى وكان أمر مكة والبيت إليه ، وهو آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة من خزاعة ، فجاء منها بأولاده الآتى ذكرهم ، فلما انتشر ولده وكثر ماله وعلم شرفه مات حليل ، فرأى قصي أنه أولى بأمر مكة من خزاعة ، لأن قريشا أقرب إلى إسمعيل من خزاعة ، فدعا قريشا وبنى كنانة إلى إخراج خزاعة من مكة فأجابوه إلى ذلك وانضم له قضاعة ، جاء بهم أخو قصي لأمه فأزاح قصي بنى خزاعة وولى أمر مكة .

وقيل إن حليلا جعل أمر البيت لقصي . ولا منافاة لجواز أن تكون خزاعة لم ترض بما فعله حليل من أن يكون أمر البيت لقصي فحاربهم وأخرجهم من مكة .

وقيل إن حليلا أوصى بذلك لأبى غبشان بضم الغين المعجمة بعدأن أوصى بذلك لأبنته زوج قصي وقالت له لاقدرة لى على فتح البيت وإغلاقه ، وأن قصيا أخذ ذلك منه بزق خمر ، فقالت العرب : أخسر صفقة من أبى غبشان .

وقيل إن أبا غبشان أعطى ذلك لبنت حليل زوج قصي ، وأعطاه قصي أثوابا وأبعرة ، فكان أبو غبشان آخر من ملك أمر مكة والبيت من خزاعة .

ولا يخالف ذلك ماتقدم من أن حليلا آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة ، لجواز أن يكون المراد آخر من ولى ذلك ، واستمر كذلك إلى أن مات . قال بعضهم : وكان

أبو غبشان خالا لقصى ، وكان فى عقله شيء ، فخدعه قصى فاشترى منه أمر مكة والبيت بأذواد من الإبل .

والجمع بين هذه الروايات من أن قصيا أخذه من أبى غبشان بزق خمر ، وبين أنه أخذ ذلك بأثواب وأبعرة ، وبين أنه أخذ ذلك بأذواد من الإبل ممكن ، لجواز أن يكون جمع بين الخمر والأثواب والإبل فوقع الاقتصار على بعضها من بعض الرواة تأمل . ثم جمع قصى قريشا بعد تفرقها فى البلاد وجعلها اثنتى عشرة قبيلة كما سيأتى ، ومن ثم قيل له مجمع . وفى كلام بعضهم : ولذلك سماه النبى صلى الله عليه وسلم مجمعا ، وإلى ذلك يشير قول الشاعر :

قصى لعمرى كان يدعى مجمعا ٭ به جمع الله القبائل من فهر

وهذا البيت من قصيدة مدح بها عبد المطلب مدحه بها حذافة بن غانم ، فإن ركبا من جذام فقدوا رجلا منهم غالته بيوت مكة ، فلقوا حذافة فأخذوه فربطوه ثم انطلقوا به ، فتلقاهم عبد المطلب مقبلا من الطائف معه ابنه أبو لهب يقوده وقد ذهب بصره ، فلما نظر إليه حذافة هتف به ، فقال عبد المطلب لأبى لهب : ويلك ماهذا؟ قال : هذا حذافة بن غانم مربوطا مع ركب ، قال الحقهم واسألهم ماشأنهم ، فلحقهم فأخبروه الخبر ، فرجع إلى عبد المطلب ، فقال مامعك ؟ قال : والله مامعى شيء ، قال : الحقهم لاأم لك وأعطهم ما بيدك وأطلق الرجل ، فلحقهم أبو لهب فقال : قد عرفتم تجارتى ومالى ، وأنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهبا وعشرا من الإبل وفرسا ، وهذا ردائى رهنا بذلك ، فقبلوه منه وأطلقوا حذافة فأقبل به ، فلما سمع عبد المطلب صوت أبى لهب قال : وأبى إنك لعاص ؟ ارجع لا أم لك ، قال : ياأبتاه هذا الرجل معى ، فناداه ياحذافة أسمعنى صوتك فقال : هاأنا ذا بأبى أنت ياساقى الحجيج أردفنى ، فأردفه خلفه حتى دخل مكة . فقال حذافة هذه القصيدة ومطلعها :

بنو شيبة الحمد الذى كان وجهه ٭ يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

هى القصيدة جيدة .

فإن قيل : كيف قبل القوم من أبى لهب رهن ردائه على ما ذكره لهم فى أن يخلوا عن الرجل مع أن رداءه لا يقع موقعا من ذلك ؟

أجيب : بأن سنة العرب وطريقتهم أن الواحد منهم إذا رهن غيره ولو شيئا حقيرا

على أمر جليل لايغدر ، بل يحرص على وفاء مارهن عليه ، ومن ثم لما أجدبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارد رضي الله تعالى عنه إلى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى ، فقال له كسرى : أنتم قوم غدر ، وأخاف على الرعايا منكم ، فقال له حاجب : أنا ضامن أن لاتفعل قومي شيئا من ذلك ، فقال له كسرى : ومن لى بوفائك ؟ قال : هذه قوسي رهينة ، فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه ، فقيل له : العرب لو رهن أحدهم شيئا لابد أن يفى به ، فلما أخصبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم لما وفد إليه جماعة منهم وأسلموا ومات حاجب ، أمر عطارد رضي الله عنه قومه بالذهاب إلى بلادهم ، وجاء عطارد رضي الله عنه إلى كسرى فطلب قوس أبيه ، فقال : إنك لم تسلم إلىّ شيئا فقال : أيها الملك ، أنا وارث أبي وقد وفينا بالضمان ، فان لم تدفع إلى قوس أبي صار عارا علينا وسبة ، فدفعها له وكساه حلة ، فلما وفد عطارد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم دفعها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يقبلها وقال « إنما يلبس هذه الحلة من لاخلاق له » فكانت بنو تميم تعد ذلك القوس من مفاخرهم ، وإلى هذا أشار بعض الشعراء وقد أحسن وأجاد وتلطف بقوله :

تزهو علينا بقوس حاجبها تيه تميم بقوس حاجبها

وصار قصي رئيسا لقريش على الإطلاق حين أزاح يد خزاعة عن البيت ، وأجلاهم عن مكة بعد أن لم يسلموا لقصي فى ولاية أمر البيت ، ولم يجيزوا مافعل حليل وأبوغبشان على ما تقدم ، وذلك بعد أن اقتتلوا آخر أيام منى بعد أن حذرتهم قريش الظلم والبغى ، وذكرتهم ما صارت إليه جرهم حين ألحدوا فى الحرم بالظلم ، فأبت خزاعة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وكثر القتل والجراح فى الفريقين إلا أنه فى خزاعة أكثر ، ثم تداعوا للصلح واتفقوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يعمر بن عوف وكان رجلا شريفا ، فقال لهم : موعدكم فناء الكعبة غدا ، فلما اجتمعوا قام يعمر ، فقال : ألا إنى قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمىّ هاتين ، فلا تباعة لأحد على أحد فى دم . وقيل قضى بأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع ، وأن ما أصابته خزاعة من قريش فيه الدية ، وقضى لقصىّ بأنه أولى بولاية مكة ، فتولاها. قيل : وكان يعشر من دخل مكة من غير أهلها ، أى بتجارة ، وكانت خزاعة قد أزالت يد جرهم عن ولاية

البيت ، فان مضاض بن عمرو الجرهمي الأكبر ولى أمر البيت بعد ثابت بن إسمعيل عليه الصلاة والسلام ، فإنه كان جدا لثابت وغيره من أولاد إسمعيل لأمهم ، واستمرت جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لاينازعهم ولد إسمعيل فى ذلك لخئولتهم ، وإعظاما لأن يكون بمكة بغى .

ثم إن جرهما بغوا بمكة ، وظلموا من يدخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها ، حتى إن الرجل منهم كان إذا أراد أن يزنى ولم يجد مكانا دخل البيت فزنى فيه ، فأجمعت — أى عزمت — خزاعة لحربهم وإخراجهم من مكة ، ففعلوا ذلك بعد أن سلط الله تعالى على جرهم دواب تشبه النغف بالغين المعجمة والفاء : وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم ، فهلك منهم ثمانون كهلا فى ليلة واحدة سوى الشباب . وقيل سلط الله عليهم الرعاف فأفنى غالبهم : أى وجاز أن يكون ذلك الدم ناشئا عن ذلك الدود فلا مخالفة ، وذهب من بقى إلى اليمن مع عمرو بن الحرث الجرهمى آخر من ملك أمر مكة من جرهم ، وحزنت جرهم على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا وقال عمرو أبياتا منها :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيتَ والخير ظاهر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والدهور البواتر

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم قال : كنت أكتب بين يدى الوزير يحيى بن خالد البرمكى أيام الرشيد فأخذه النوم ، فنام برهة ثم انتبه مذعورا فقال: الأمر كما كان، والله ذهب ملكنا ، وذل عزنا ، وانقضت أيام دولتنا . قلت : وما ذاك أصلح الله الوزير ؟ قال : سمعت منشدا أنشدنى : كأن لم يكن بين الحجون البيت ، وأجبته من غير روية : بلى نحن كنا أهلها البيت ، فلما كان اليوم الثالث وأنا بين يديه على عادتى إذ جاءه إنسان وأكب عليه ، وأخبره أن الرشيد قتل جعفرا الساعة قال : أو قد فعل ؟ قال نعم ، فما زاد أن رمى القلم من يده وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة .

ومما يؤثر عن يحيى هذا : ينبغى للانسان أن يكتب أحسن ما يسمع ، ويحفظ أحسن ما يكتب ، ويحدث بأحسن ما يحفظ . وقال : من لم يبت على سرور الوعد لم يجد للصنيعة طعما .

وصارت خزاعة بعد جرهم ولاة البيت والحكام بمكة كما تقدم . وكان كبير خزاعة عمرو بن لحى . وهو ابن بنت عمرو بن الحارث الجرهمى آخر ملوك جرهم المتقدم ذكره. وقد بلغ عمرو بن لحى فى العرب من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية . وهو أول من أطعم الحج بمكة سدائف الإبل ولحمانها على الثريد . والسدائف : جمع سديف ، وهو شحم السنام ، وذهب شرفه فى العرب كل مذهب حتى صار قوله دينا متبعا لايخالف .

وفى كلام بعضهم : صار عمرو للعرب ربا ، لايبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، وربما نحر لهم فى الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة .

وهو أول من غير دين إبراهيم : أى فقد قال بعضهم : تضافرت نصوص العلماء على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه : أى من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو ابن لحى ، فهو أول من غير دين إبراهيم ، وشرع للعرب الضلالات ، فعبد الأصنام وسيب السائبة وبحر البحيرة .

وقيل أول من بحر البحيرة رجل من بنى مدلج كانت له ناقتان فجدع أذنيهما وحرم ألبانهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيته فى النار يخبطانه بأخفافهما ، ويعضانه بأفواههما » .

وعمرو أول من وصل الوصيلة ، وحمى الحامى ، ونصب الأصنام حول الكعبة وأتى بهبل من أرض الجزيرة ونصبه فى بطن الكعبة فكانت العرب تستقسم عنده بالأزلام على ما سيأتى . وأول من أدخل الشرك فى التلبية ، فإنه كان يلبى بتلبية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وهى « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك » فعند ذلك تمثل له الشيطان فى صورة شيخ يلبى معه ، فلما قال عمرو لبيك لاشريك لك ، قال له ذلك الشيخ : إلا شريكا هولك ، فأنكر عمرو ذلك ، فقال له ذلك الشيخ : تملكه وما ملك ، وهذا لابأس به ، فقال ذلك عمرو ، فتبعته العرب على ذلك : أى فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده ، قال تعالى توبيخا لهم (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وهو أول من أحل أيضا أكل الميتة ، فإن كل القبائل

من ولد إسمعيل لم تزل تحرم أكل الميتة حتى جاء عمرو بن لحى فزعم أن الله تعالى لايرضى تحريم أكل الميتة ، قال : كيف لاتأكلون ما قتل الله وتأكلون ماقتلتم ؟ .

وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ، ورأيت عمرا يجر قصبه فى النار » وفى رواية « أمعاءه » أى وهى المراد بالقصب بضم القاف . وفى رواية « رأيته يؤذى أهل النار بريح قصبه » ويقال للأمعاء الأقتاب واحدها قتب بكسر القاف وسكون المثناة الفوقية آخره باء موحدة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار » والاندلاق : الخروج بسرعة . وقال صلى الله عليه وسلم لأكثم بن الجون الخزاعى واسمه عبد العزى وأكثم بالثاء المثلثة : وهو فى اللغة واسع البطن « يا أكثم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه من رجل منك به ولا بك منه ، فقال أكثم : فعسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ، قال لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسمعيل فنصب الأوثان » أى ودين إسمعيل هو دين إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فان العرب من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام استمرت على دينه لم يغيره أحد إلى عهد عمرو المذكور كما تقدم . وفى كلام بعضهم أن أكثم هذا هو أبو معبد زوج أم معبد التى مرّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهجرة ، وأكثم هذا هو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت الدجال ، فإذا أشبه الناس به أكثم بن عبد العزى ، فقام أكثم فقال : أيضرنى شبهى إياه ؟ فقال : لا ، أنت مؤمن وهو كافر » ورده ابن عبدالبر حيث قال : الحديث الذى فيه ذكر الدجال لايصح إنما يصح ما قاله فى ذكر عمرو ابن لحى .

وإنما كان عمرو بن لحى أول من نصب الأوثان ، لأنه خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فرأى بأرض البلقاء العماليق ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، ورآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم ، ما هذه ؟ قالوا هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة فنصبه فى بطن الكعبة على بئرها ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده ، وكان عند هبل سبع قداح : قدح فيه مكتوب العقل إذا اختلفوا فيمن

يحمله منهم ضربوا به فعلى من خرج حمله . وقدح مكتوب فيه نعم . وقدح مكتوب فيه لاوذلك للأمر الذى يريدونه . وقدح فيه منكم . وقدح فيه ملصق من غيركم إذا اختلفوا فى ولد هل هو منهم أو لا . وقدح فيه بها . وقدح فيه ما بها إذا أرادوا أرضا يحفرونها للماء وكان هبل من العقيق على صورة إنسان .

وعاش عمرو بن لحى هذا ثلثمائة سنة وأربعين سنة ، ورأى من والده وولد ولده ألف مقاتل : أى ومكث هو وولده من بعده فى ولاية البيت خمسمائة سنة ، وكان آخرهم حليل الذى تزوج قصىّ ابنته كما تقدم .

وقيل : وكان لعمرو تابع من الجن ، فقال له : اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التى كانت تعبد فى زمن نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام ، وهى ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فذهب وأتى بها إلى مكة ودعا إلى عبادتها ، فانتشرت عبادة الأصنام فى العرب ، فكان ود لـكلب ، وسواع لهمدان ، وقيل لهذيل ، ويغوث لمذحج بالذال المعجمة على وزن مسجد أبوقبيلة من اليمن ، ويعوق لمراد . وقيل لهمدان ، ونسر لحمير أى وكانوا هؤلاء على صور عباد ماتوا ، فحزن أهل عصرهم عليهم فصوّر لهم إبليس اللعين أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم ، فجعلوها فى مؤخر المسجد ، فلما هلك أهل ذلك العصر قال اللعين لأولادهم : هذه آلهة آبائـكم تعبدونها ، ثم إن الطوفان دفنها فى ساحل جدة فأخرجها اللعين .

وفى كلام بعضهم أن آدم كان له خمسة أولادصلحاء،وهم: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فمات ودّ فحزن الناس عليه حزنا شديدا ، واجتمعوا حول قبره لايكادون يفارقونه ، وذلك بأرض بابل ، فلما رأى إبليس ذلك من فعلهم جاء إليهم فى صورة إنسان وقال لهم : هل لـكم أن أصور لـكم صورته إذا نظرتم إليها ذكرتموه ؟ قالوا نعم ، فصوّر لهم صورته ، ثم صار كلما مات واحد منهم صور صورته وسموا تلك الصور بأسمائهم ، ثم لما تقادم الزمان وماتت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال لمن حدث بعدهم إن الذين كانوا قبلـكم يعبدن هذه الصور فعبدوها ، فأرسل الله لهم نوحا ، فنهاهم عن عبادتها فلم يجيبوه لذلك ، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق . فأول ما حدثت عبادة الأصنام فى قوم نوح ، فأرسله الله تعالى إليهم فنهاهم عن ذلك .

ويقال إن عمرو بن لحى هو الذى نصب مناة على ساحل البحر مما يلى قديد ، وكانت الأزد يحجون إليه ويعظمونه ، وكذلك الأوس والخزرج وغسان .

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى تفسيره لبعض الآيات القرآنية عند قوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض) أن أصل وضع الأصنام إنما هو من قوة التنزيه من العلماء الأقدمين ، فإنهم نزهوا الله تعالى عن كل شىء وأمروا بذلك عامتهم ، فلما رأوا أن بعض عامتهم صرح بالتعطيل وضعوا لهم الأصنام وكسوها الديباج والحلى والجواهر ، وعظموها بالسجود وغيره ليتذكروا بها الحق الذى غاب عن عقولهم ، وغاب عن أولئك العلماء أن ذلك لايجوز إلا بإذن من الله تعالى ، هذا كلامه .

وكان فى زمان جرهم رجل فاجر يقال له إساف فجر بامرأة يقال لها نائلة فى جوف الكعبة أى قبلها فيها كما فى تاريخ الأزرق .

وقيل زنى بها فمسخا حجرين ، فأخرجا منها ونصبا على الصفا والمروة ليكونا عبرة ، فلما كان زمن عمرو بن لحى أخذهما ونصبهما حول الكعبة أى على زمزم وجعلا فى وجهها وصار من يطوف يتمسح بهما يبدأ بإساف ويختم بنائلة ، وذلك قبل أن يقدم عمرو بهبل وبتلك الأصنام ، وكانت قريش تذبح ذبائحها عندهما .

وذكر أنه صلى الله عليه وسلم لما كسر نائلة عند فتح مكة خرجت منها امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها وهى تنادى بالويل والثبور ، وكان عمرو يخبر قومه بأن الرب يشتى بالطائف عند اللات ويصيف عند العزى ، فكانوا يعظمونهما وكانوا يهدون إلى العزى كما يهدون إلى الكعبة .

وقصى هو الذى أمر قريشا أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم حول البيت وقال لهم إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم ، فبنوا حول البيت من جهاته الأربع وجعلوا أبواب بيوتهم جهته لكل بطن منهم باب ينسب الآن إليه ، كباب بنى شيبة ، وباب بنى سهم ، وباب بنى مخزوم ، وباب بنى جمح ، وتركوا قدر الطواف بالبيت ، فبنى قصى دار الندوة وهى أول دار بنيت بمكة ، واستمر الأمر على أنه ليس حول الكعبة إلا قدر المطاف ، وليس حوله جدار زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن ولاية الصديق رضى الله عنه فلما كان زمن ولاية عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه اشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ، ثم لما كان زمن ولاية عثمان رضى الله تعالى عنه اشترى دورا أخر

وغالى فى ثمنها وهدمها وزاد فى سعة المسجد، ثم إن ابن الزبير رضى الله عنهما زاد فى المسجد زيادة كثيرة ، ثم إن عبد الملك بن مروان رفع جداره وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة ولم يزد فيه شيئا ، ثم إن الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل إليه أعمدة الرخام ، ثم زاد فيه المهدى والد الرشيد مرتين ، واستقر بناؤه على ذلك إلى الآن .

وكانت قريش قبل ذلك : أى قبل بناء منازلهم فى الحرم يحترمون الحرم ولا يبيتون فيه ليلا ، وإذا أراد أحدهم قضاء حاجة الإنسان خرج إلى الحل .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة إذا أراد حاجة الإنسان خرج إلى المغمس بكسر الميم أفصح من فتحها ، وهو على ثلثى فرسخ من مكة ، وهابت قريش قطع شجر الحرم التى فى منازلهم التى بنوها ، فقد كان بمكة شجر كثير من العضاه والسلم ، وشكوا ذلك إلى قصى فأمرهم بقطعها ، فهابوا ذلك ، فقالوا نكره أن ترى العرب أنا استخففنا بحرمنا ، فقال قصى : إنما تقطعونه لمنازلكم وما تريدون به فسادا ، بهلة الله : أى لعنته على من أراد فسادا ، فقطعها قصى بيده وبيد أعوانه .

وفى كلام السهيلى عن الواقدى : الأصح أن قريشا حين أرادوا البنيان قالوا لقصى كيف نصنع فى شجر الحرم ، فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة فى ذلك ، فكان أحدهم يحدق بالبنيان حول الشجرة حتى تكون فى منزله .

قال : وأول من ترخص فى قطع شجر الحرم للبنيان عبد الله بن الزبير حين ابتنى دورا بقعيقعان ، لكنه جعل فداء كل شجرة بقرة فليتأمل الجمع .

وأنزل قصى القبائل من قريش : أى فإنه جعلها اثنتى عشرة قبيلة كما تقدم فى نواحى مكة بطاحها وظواهرها ، ومن ثم قيل لمن سكن البطاح قريش البطاح ، ولمن سكن الظواهر قريش الظواهر ، والأولى أشرف من الثانية ، ومن الأولى بنو هاشم ، وإلى ذلك يشير صاحب الأصل فى وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله :

من بنى هاشم بن عبد مناف ... وبنو هاشم بحار الحياء
من قريش البطاح من عرف النا ... س لهم فضلهم بغير امتراء

قال بعضهم : كان قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكا ولما حضر الحج قال لقريش : قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتم وهم لكم معظمون ، ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام ، فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجا ففعلوا ، فجمع من

ذلك شيئا كثيرا ، فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزورا ونحر بمكة ، وجعل الثريد واللحم ، وسقى الماء المحلى بالزبيب وسقى اللبن . وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة ليلة النفر .

ومما يؤثر عن قصي : من أكرم لئيما أشركه في لؤمه . ومن استحسن قبيحا نزل إلى قبحه . ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان . ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان . والحسود العدو الخفي .

ولما احتضر قال لأولاده : اجتنبوا الخمرة ، فإنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان .

وحاز قصي شرف مكة كله ، فكان بيده السقاية والرفادة والحجابة والندوة واللواء والقيادة .

وكان عبد الدار أكبر أولاد قصي وعبد مناف أشرفهم : أي لأنه شرف فى زمان أبيه قصي ، وذهب شرفه كل مذهب ، وكان يليه فى الشرف أخوه المطلب ، كان يقال لهما البدران ، وكانت قريش تسمى عبد مناف الفياض لكثرة جوده ، فأعطى قصي ولده عبد الدار جميع تلك الوظائف التى هى السقاية والرفادة والحجابة والندوة واللواء والقيادة : أى فإنه قال له : أما والله يابنى لألحقنك بالقوم يعنى أخويه عبد مناف والمطلب وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لايدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له : أى بسببه الحجابة للبيت ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك : أى وهذا هو المراد باللواء ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، وهـذا هو المراد بالسقاية ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك : أى وهـذا هو المراد بالرفادة ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك يعنى دار الندوة : أى ولا يكون أحد قائد القوم إلا أنت وذلك بسبب القيادة .

فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف أراد بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ، وهؤلاء إخوة لأب وأم ، أمهم عاتكة بنت مرة ، ونوفل أخوهم لأبيهم ، أمه واقدة بنت حرمل أن يأخذوا تلك الوظائف من بنى عمهم عبد الدار ، وأجمعوا على المحاربة : أى وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند باب الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها ، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا المطيبين : أى أخرجتها لهم أم حكيم البيضاء بنت

عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم وتوءمة أبيه ، ووضعتها فى الحجر وقالت : من تطيب بهذا فهو منا ، فتطيب منها مع بنى عبد مناف بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ، فالمطيبون من قريش خمس قبائل . وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم ، وهم : بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدى بن كعب ، على أن لايتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما من دم جزور نحروها ثم قالوا : من أدخل يده فى دمها فلعق منه فهو منا وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا لعقة الدم .

وقيل الذين لعقوا الدم فسموا لعقة الدم بنو عدى خاصة ، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف ، والحجابة واللواء لبنى الدار ، ودار الندوة بينهم بالاشتراك ، وتحالفوا على ذلك هذا .

والذى رأيته (فى المشرق فيم يحاضر به من آداب المشرق) : ولما شرف عبد مناف ابن قصى فى حياة أبيه ، وذهب شرفه كل مذهب ، وكان قصى يحب ابنه عبد الدار أراد أن يبقى له ذكرا فأعطاه الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة ، وجعل عبد الدار الحجابة لولده عثمان ، وجعل دار الندوة لولده عبد مناف ابن عبد الدار ، ثم وليها عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، ثم وليها ولده من بعده .

والسقاية كانت حياضا من أدم توضع بفناء الكعبة ، وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل فى المزاود والقرب قبل حفر زمزم ، وربما قذف فيها التمر والزبيب فى غالب الأحوال لسقى الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا ، وهذه السقاية قام بها وبالرفادة بعد عبدمناف ولده هاشم ، وبعده ولده عبد المطلب ، وكان شريفا مطاعا جوادا ، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده ، فلما كبر عبد المطلب فوّض إليه أمر السقاية والرفادة ، فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف وغصبه أركاحا : أى أفنية ودورا ، فسأل عبد المطلب رجالا من قومه النصرة على عمه نوفل فأبوا وقالوا : لاندخل بينك وبين عمك فكتب إلى أخواله بنى النجار بالمدينة بما فعله معه عمه نوفل ، فلما وقف خاله أبو سعد ابن عدى بن النجار على كتابه بكى ، وسار من المدينة فى ثمانين راكبا حتى قدم مكة فنزل الأبطح . فتلقاه عبد المطلب وقال له المنزل يا خال ، فقال : لا والله حتى ألقى نوفلا ، فقال : تركته فى الحجر جالسا فى مشايخ قريش . فأقبل أبو سعد حتى وقف

عليهم ، فقام نوفل قائما وقال : يا أبا سعد ، أنعم صباحا فقال له أبو سعد : لا أنعم الله لك صباحا ، وسل سيفه وقال : ورب هذه البنية لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأملأن منك هذا السيف ، فقال : قد رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثا ثم اعتمر ورجع إلى المدينة .

ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بنى أخيه عبد شمس على بنى هاشم ، وحالفت بنو هاشم خزاعة على بنى نوفل وبنى عبد شمس : أى فإن خزاعة قالت : نحن أولى بنصرة عبد المطلب ، لأن عبد مناف جد عبد المطلب أمه حبى بنت حليل سيد خزاعة كما تقدم ، فقالوا لعبد المطلب : هلم فلنحالفك ، فدخلوا دار الندوة وتحالفوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم كتابا : باسمك اللهم ، هذا ما تحالف عليه بنو هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصرة والمواساة مابل بحر صوفة ، وما أشرقت الشمس على ثبير ، وهب بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان ، والمراد من ذلك الأبد .

وعبد المطلب لما حفر زمزم صار ينقل الماء منها لتلك الأحواض ويقذف فيها التمر والزبيب ، ثم بعده قام بها ولده أبو طالب ، ثم اتفق أن أبا طالب أملق : أى افتقر فى بعض السنين ، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم الآخر ، فصرفها أبو طالب فى الحجيج عامه ذلك فيما يتعلق بالسقاية ، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شىء، فقال لأخيه العباس أسلفنى أربعة عشر ألفا أيضا إلى العام المقبل لأعطيك جميع مالك ، فقال له العباس : بشرط إن لم تعطنى تترك السقاية لأكفلها ؟ فقال نعم ، فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب ما يعطيه لأخيه العباس فترك له السقاية ، فصارت للعباس ، ثم لولده عبد الله بن عباس ، واستمر ذلك فى بنى العباس إلى زمن السفاح ، ثم ترك بنو العباس ذلك .

والرفادة : إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا ، فإن قريشا كانت على زمن قصى تخرجه من أموالها فى كل موسم فتدفعه إلى قصى ، فيصنع به طعاما للحاج يأكل منه من لم يكن معه سعة ولا زاد كما تقدم حتى قام بها بعده ولده عبد مناف ثم بعد عبد مناف ولده هاشم ثم بعد هاشم ولده عبد المطلب ، ثم ولده أبو طالب وقيل ولده العباس ، ثم استمر ذلك إلى زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء بعده ثم استمر ذلك فى الخلفاء إلى أن انقرضت الخلافة من بغداد ثم من مصر .

وأما القيادة : وهى إمارة الركب ، فقام بها بعد عبد مناف ولده عبد شمس ثم كانت بعد عبد شمس لابنه أمية ثم لابنه حرب ، ثم لابنه أبى سفيان ، فكان يقود الناس فى غزواتهم ، قاد الناس يوم أحد ويوم الأحزاب ، ومن ثم لما قال الوليد بن عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية : لست فى العير ولا فى النفير ، قال : له ويحك ، العير والنفير عيبتى : أى وعائى ، لأن العيبة ما يجعل فيه الثياب ، جدى أبوسفيان صاحب العير ، وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير .

ودار الندوة كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة فى أمورها ، ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين ، وكانت الجارية إذا حاضت تدخل دار الندوة ثم يشق عليها بعض ولد عبدالدار درعها ثم يدرعها إياه وانقلب بها فتحجب ، وهذه كانت سنة قصى ، فكان لاينكح رجل امرأة من قريش إلا فى دار قصى التى هى دار الندوة ، ولا يعقد لواء حرب إلا فيها ، ولا تدرع جارية من قريش إلا فى تلك الدار فيشق عنها درعها ويدرعها بيده ، فكانت قريش بعد موت قصى يتبعون ما كان عليه فى حياته كالدين المتبع ، ولا زالت هذه الدار فى يد بنى عبد الدار إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم ، فلامه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وقال أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم ؟ فقال حكيم رضى الله عنه : ذهبت المكارم إلا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر ، وقد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله تعالى فأينا المغبون ؟

قيل وقصى : هو جماع قريش ، فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى ، ونسب هذا القول لبعض الرافضة ، وهو قول باطل ، لأنه توصل به إلى أن لايكون سيدنا أبوبكر وسيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما من قريش فلا حق لهما فى الامامة العظمى التى هى الخلافة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » ولقوله صلى الله عليه وسلم لقريش « أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه » لأنهما لم يلتقيا مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا فيما بعد قصى ، لأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه يجتمع معه فى مرة كما سيأتى ، لأن تيم بن مرة بينه وبين أبى بكر رضى الله عنه خمسة آباء ، وعمر رضى الله عنه يجتمع معه فى كعب كما سيأتى ، وبين عمر رضى الله عنه وكعب سبعة آباء [ ]

(وقصى بن كلاب) أى واسمه حكيم ، وقيل عروة ، ولقب بكلاب لأنه كان يحب

الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب ، وهو الجد الثالث لآمنة أمه صلى الله عليه وسلم ، ففى كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه (ابن مرة) وهو الجد السادس لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ، والإمام مالك رضى الله تعالى عنه يجتمع معه صلى الله عليه وسلم فى هذا الجد الذى هو مرة أيضا (ابن كعب) أى وهو الجد الثامن لعمر رضى الله تعالى عنه ، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة : أى يوم الرحمة الذى هو يوم الجمعة ، ويقال إنه أول من سماه يوم الجمعة لاجتماع قريش فيه إليه ، لكن فى الحديث كان أهل الجاهلية يسمون يوم الجمعة يوم العروبة ، واسمه عند الله تعالى يوم الجمعة . قال ابن دحية : ولم تسم العروبة الجمعة إلا منذ جاء الإسلام ، وسيأتى فى ذلك كلام فكانت قريش تجتمع إلى كعب ثم يعظهم ويذكرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعلمهم بأنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، ويقول : سيأتى لحرمكم نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم ، وينشد أبياتا آخرها :

على غفلة يأتى النبى محمد فيخبر أخبارا صدوق خبيرها

وينشد أيضا :

يا ليتنى شاهد فحواء دعوته حين العشيرة تبغى الحق خذلانا

وكان بينه وبين مبعثه صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وستون سنة . وفى الإمتاع : وعشرون سنة ، لأن الحق أن الخمسمائة والستين إنما هى بين موت كعب والفيل الذى هو مولده صلى الله عليه وسلم كما ذكره أبو نعيم فى الدلائل النبوية .

وقيل إن كعبا أول من قال « أما بعد » فكان يقول : أما بعد فاسمعوا وافهموا ، وتعلموا واعلموا ، ليل داج . وفى رواية : ليل ساج ، ونهار صاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، الدار أمامكم ، والظن غير ماتقولون : أى وقيل له كعب لعلوه وارتفاعه ، لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب ، ومن ثم قيل للكعبة كعبة ولعلوه وارتفاع شأنه أرّخوا بموته حتى كان عام الفيل أرخوا به ثم أرخوا بعد عام الفيل بموت عبد المطلب (وكعب بن لؤى) أى بالهمزة أكثر من علمها . أى وفى سبب تصغيره خلاف (ابن غالب بن فهر) سماه أبوه فهرا ، وقيل هو لقب واسمه قريش ، والمناسب أن يكون لقبا لقولهم : إنما سمى قريشا لأنه كان يقرش : أى يفتش على خلة حاجة المحتاج

فيسدها بماله ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم ، فسموا بذلك قريشا . قال بعضهم : وهو جماع قريش عند الأكثر ، قال الزبير بن بكار : أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشا إنما تفرقت عن فهر ، وفهر هذا هو الجد السادس لأبى عبيدة بن الجراح . ولما جاء حسان بن عبد كلال من اليمن فى حمير وغيرهم لأخذ أحجار الكعبة إلى اليمن ليبنى بها بيتا ، ويجعل حج الناس إليه ونزل بنخلة ، خرج فهر إلى مقاتلته بعد أن جمع قبائل العرب ، فقاتله وأسره ، وانهزمت حمير ومن انضم إليهم واستمر حسان فى الأسر ثلاث سنين ثم افتدى نفسه بمال كثير ، وخرج فمات بين مكة واليمن ، فهابت العرب فهرا وعظموه وعلا أمره .

ومما يؤثر عن فهر قوله لولده غالب : قليل ما فى يديك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك [ ] (وفهر هو ابن مالك) قيل له ذلك لأنه ملك العرب (ابن النضر) أى ولقب به لنضارته وحسنه وجماله ، واسمه قيس ، وهو جماع قريش عند الفقهاء ، فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى [ ] ويقال لكل من أولاده الذين منهم مالك وأولاده قرشى ، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قريش ؟ فقال من ولد النضر » أى وعلى أن جماع قريش فهر كما تقدم ، فمالك وأولاده والنضر جده وأولاده ليسوا من قريش [ ] (والنضر بن كنانة) قيل له كنانة ، لأنه لم يزل فى كن من قومه . وقيل لستره على قومه وحفظه لأسرارهم ، وكان شيخا حسنا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله . وكان يقول : قد آن خروج نبى من مكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفا وعزا إلى عزكم ، ولا تعتدوا أى تكذبوا ما جاء به فهو الحق .

قال ابن دحية رحمه الله : كان كنانة يأنف أن يأكل وحده ؛ فإذا لم يجد أحدا أكل لقمة ورمى لقمة إلى صخرة ينصبها بين يديه أنفة من أن يأكل وحده .

ومما يؤثر عنه : رب صورة تخالف المخبرة ، قد غرت بجمالها ، واختبر قبح فعالها فاحذر الصور واطلب الخبر (وكنانة بن خزيمة بن مدركة) ومدركة اسمه عمرو ، وقيل له مدركة لأنه أدرك كل عز وفخر كان فى آبائه ، وكان فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ولعل المراد ظهوره فيه (ومدركة بن إلياس) بهمزة قطع مكسورة ، وقيل مفتوحة أيضا ، وقيل همزة وصل . ونسب للجمهور ، قيل سمى بذلك ، لأن أباه مضر

كان قد كبر سنه ولم يولد له ولد فولد له هذا الولد فسماه إلياس ، وعظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته ، وكانت لاتقضى أمرا دونه .

وهو أول من أهدى البدن إلى البيت ، وأول من ظفر بمقام إبراهيم لما غرق البيت فى زمن نوح عليه السلام فوضعه فى زاوية البيت كذا فى حياة الحيوان فليتأمل ، وجاء فى حديث « لاتسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا » وقيل إنه جماع قريش : أى فلا يقال لأولاد من فوقه قرشى . وكان إلياس يسمع من صلبه تلبية النبى صلى الله عليه وسلم المعروفة فى الحج . قيل وكان فى العرب مثل لقمان الحكيم فى قومه. وهو أول من مات بعلة السل ، ولما مات حزنت عليه زوجته خندف حزنا شديدا ، لم يظلها سقف بعد موته حتى ماتت . ومن ثم قيل : أحزن من خندف (وإلياس بن مضر) قيل هو جماع قريش فلا يقل لأولاد من فوق مضر قرشى . ففى جماع قريش خمسة أقوال : قيل قصى ، وقيل فهر ، وقيل النضر ، وقيل إلياس ، وقيل مضر ، ويقال له مضر الحمراء ، قيل لأنه لما اقتسم هو وأخوه ربيعة مال والدهما أعنى نزارا أخذ مضر الذهب فقيل له مضر الحمراء ، وأخذ ربيعة الخيل ومن ثم قيل له ربيعة الفرس . وجاء فى حديث « لاتسبوا ربيعة ولا مضر فإنهما كانا مؤمنين » أى وفى رواية « لاتسبوا مضر فإنه كان على ملة إبراهيم » وفى حديث غريب « لاتسبوا مضر فإنه كان على دين إسمعيل » . ومما حفظ عنه : من يزرع شرا يحصد ندامة .

أقول : سيأتى فى بنيان قريش الكعبة أنهم وجدوا فيها كتبا بالسريانية من جملتها كتاب فيه : من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، إلى آخر ما يأتى . وعن أبى عبيدة البكرى أن قبر مضر بالروحاء يزار ، والروحاء على ليلتين من المدينة . والله أعلم .

وكان مضر من أحسن الناس صوتا ، وهو أول من حدا الإبل ، فإنه وقع فانكسرت يده فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من المرعى ، فلما صح وركب حدا . وقيل أول من سن الحداء للإبل عبد له ضرب مضر يده ضربا وجيعا فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من مرعاها : أى لأن الحداء مما ينشط الإبل لاسيما إن كان بصوت حسن ، فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى وتسرع فى سيرها وتستخف الأحمال الثقيلة ، فربما قطعت المسافة البعيدة فى زمن قصير .

وربما أخذت ثلاثة أيام فى يوم واحد ، وفى ذلك حكاية مشهورة ، ولأجل ما ذكر ذكر أئمتنا أنه مستحب .

وفى الأذكار للإمام النووى رضى الله تعالى عنه : باب استحباب الحداء ، للسرعة فى السير ، وتنشيط النفوس وترويحها ، وتسهيل السير عليها فيه أحاديث كثيرة مشهورة (ومضر بن نزار) بكسر النون كان يرى نور النبى صلى الله عليه وسلم بين عينيه . وهو أول من كتب الكتاب العربى على الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه يجتمع معه صلى الله عليه وسلم فى هذا الجد الذى هو نزار بن (معد بن عدنان) هذا هو النسب المجمع عليه فى نسبه صلى الله عليه وسلم عند العلماء بالأنساب ، ومن ثم لما قال فقهاؤنا : شرط الإمام الأعظم أن يكون قرشيا ، فإن لم يوجد قرشى جامعا للشروط التى ذكروها فكنانى . قال بعضهم : وقياس ذلك أن يقال : فإن لم يوجد كنانى فخزيمى فإن لم يوجد خزيمى فمدركى ، فإن لم يوجد مدركى فإلياسى ، فإن لم يوجد إلياسى فمضرى، فإن لم يوجد مضرى فنزارى ، فإن لم يوجد نزارى فمعدى ، فإن لم يوجد معدى فعدنانى ، فإن لم يوجد عدنانى فمن ولد إسمعيل ، لأن من فوق عدنان لايصح فيه شىء ، ولا يمكن حفظ النسب فيه منه إلى إسمعيل .

وقيل له معد لأنه كان صاحب حروب وغارات على بنى إسرائيل ، ولم يحارب أحدا إلا رجع بالنصر والظفر . قال بعضهم: ولا يخرج عربى فى الأنساب عن عدنان وقحطان.

وقيل وولد عدنان يقال لهم قيس ، وولد قحطان يقال لهم يمن . ولما سلط الله بختنصر على العرب أمر الله تعالى أرمياء أن يحمل معه معدّ بن عدنان على البراق كيلا تصيبه النقمة ، وقال : فإنى سأخرج من صلبه نبيا كريما أختم به الرسل ، ففعل أرمياء ذلك ، واحتمله معه إلى أرض الشام ، فنشأ مع بنى إسرائيل ، ثم عاد بعد أن هدأت الفتن : أى بموت بختنصر . وكان عدنان فى زمن عيسى عليه السلام ، وقيل فى زمن موسى عليه السلام . قال الحافظ ابن حجر ، وهو أولى : أى ومما يضعف الأول مافى الطبرانى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلا وقعوا فى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام فانتهبوه فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام ، فأوحى الله تعالى إليه : لا تدع عليهم فإن منهم النبى الأمى البشير النذير » الحديث ، إذ يبعد بقاء معد إلى زمن عيسى

عليه الصلاة والسلام ، ومعلوم أنه لاخلاف فى أن عدنان من ولد إسمعيل نبى الله تعالى : أى أرسله الله تعالى إلى جرهم وإلى العماليق وإلى قبائل اليمن فى زمن أبيه إبراهيم ، وكذا بعث أخوه إسحق إلى أهل الشام ، وبعث ولده يعقوب إلى الكنعانيين فى حياة إبراهيم ، فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وذكر بعضهم أن من العماليق فرعون موسى عليه الصلاة والسلام ، ومنهم الريان بن الوليد فرعون يوسف عليه الصلاة والسلام .

وكان إسمعيل بكر أبيه جاء له وقد بلغ أبوه من العمر سبعين سنة ، وقيل ستا وثمانين سنة . ولد بين الرملة وإيليا ، وكان بين عدنان وإسمعيل أربعون أبا . وقيل سبعة وثلاثون .

وفى النهر لأبى حيان رحمه الله أن إبراهيم هو الجد الحادى والثلاثون لنبينا صلى الله عليه وسلم ، هذا كلامه .

ولا يخفى أن إسمعيل أول من تسمى بهذا الاسم من بنى آدم ، ومعناه بالعبرانية مطيع الله . وأول من تكلم بالعربية أى البينة الفصيحة ، وإلا فقد تعلم أصل العربية من جرهم ، ثم ألهمه الله العربية الفصيحة البينة فنطق بها . وفى الحديث « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسمعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » .

وفى كلام بعضهم : « لما خرج إبراهيم بهاجر وولدها إسمعيل إلى مكة على البراق واحتمل معه قربة ماء ومزودا فيه تمر ، فلما أنزلهما بها وولى راجعا تبعته هاجر وهى تقول : آلله أمرك أن تدعنى وهذا الصبى فى هـذا المحل الموحش الذى ليس به أنيس ؟ قال نعم ، فقالت : إذن لايضيعنا ، ولا زالت تأكل من التمر وتشرب من الماء إلى أن نفد المـاء» الحديث . وكان إنزاله لهما بموضع الحجر ، وذلك لمضى مائة سنة من عمر إبراهيم .

وكون إسمعيل أول من تكلم بالعربية البينة لا ينافى ماقيل : أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان ، وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن . وأول من قيل له : أنعم صباحا . ويعرب هذا قيل له أيمن ، لأن هودا نبى الله عليه الصلاة والسلام قال له أنت أيمن ولدى ؛ وسمى اليمن يمنا بنزوله فيه . وهو أول من قال القريض والرجز ؛ وقيل سمى اليمن يمنـا لأنه على يمين الكعبة . وقيل إن أول من كتب الكتاب العربى إسمعيل . والصحيح أن أول من كتب ذلك نزار بن معد كما تقدم ، وكذا كون إسماعيل أول من تكلم

بالعربية البينة لاينافى ماقيل : أول من تكلم بالعربية آدم فى الجنة فلما أهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية. قيل وسميت سريانية، لأن الله تعالى علمها آدم سرا من الملائكة وأنطقه بها .

وقيل إن أول من كتب الكتاب العربى والفارسى والسريانى والعبرانى وغيرها من بقية الاثنى عشر كتابا ، وهى الحميرى ، واليونانى ، والرومى، والقبطى والبربرى ، والأندلسى ، والهندى ، والصينى آدم عليه الصلاة والسلام ، كتبها فى طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه ، فأصاب إسمعيل الكتاب العربى : أى وأما ماجاء : أول من خط بالقلم إدريس فالمراد به خط الرمل .

وفى كلام بعضهم : أول من تكلم بالعربية المحضة ، وهى عربية قريش التى نزل بها القرآن إسمعيل . وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسمعيل ؛ ويقال لمن يتكلم بلغة هؤلاء العرب العاربة ؛ ويقال لمن يتكلم بلغة إسمعيل العرب المستعربة وهى لغة الحجاز وما والاها .

وجاء « من أحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية فإنه يورث النفاق» .

وقد ذكر بعضهم أن أهل الكهف كلهم أعجام ، ولا يتكلمون إلا بالعربية ، وأنهم يكونون وزراء المهدى . واشتهر على ألسنة الناس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » قال جمع : لا أصل له ، ومعناه صحيح لأن المعنى أنا أفصح العرب لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد ولا توجد فى غير لغتهم .

وإسمعيل عليه الصلاة والسلام أول من ركب الخيل وكانت وحوشا : أى ومن ثم قيل لها العراب ، أو لما سيأتى . وقد قال صلى الله عليه وسلم « اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسمعيل عليه الصلاة والسلام » .

وفى رواية « أوحى الله تعالى إلى إسمعيل : أن اخرج إلى أجياد » الموضع المعروف؛ سمى بذلك لأنه قتل فيه مائة رجل من العمالقة من جياد الرجال « فادع يأتك الكنز ، فخرج إلى أجياد فألهمه الله تعالى دعاء فدعا به فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته وأمكنته من نواصيها ، وذللها الله تعالى له ، فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين ، وهى ميراث أبيكم إسمعيل » .

وذكر الحافظ السيوطى رحمه الله أن له كتابا فى الخيل سماه [جر الذيل فى علم الخيل] وفى العرائس «أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب : إنى خالق منك

خلقا ، فأجعله عزا لأوليائى ، ومذلة على أعدائى ، وجمالا لأهل طاعتى ، فقالت : افعل ماتشاء ، فقبض قبضة فخلق فرسا فقال لها : خلقتك عربيا ، وجعلت الخير معقودا بناصيتك ، والغنائم مجموعة على ظهرك ، وعطفت عليك صاحبك ، وجعلتك تطيرى بلا جناح ، فأنت للطلب وأنت للهرب » .

وعن وهب أنه قيل لسليمان صلوات الله وسلامه عليه : إن خيلا بلقالها أجنحة تطير بها وتردماء كذا ، فقال للشياطين علىّ بها فصبوا فى العين التى تردها خمرا ، فشربت فسكرت فربطوها وساسوها حتى تأنست .

قيل ويجوز أن يكون المراد من تلك الخيل الفرس الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم « أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق جاءنى به جبريل عليه الصلاة والسلام » .

وجاء « إن الله تعالى لما عرض على آدم عليه الصلاة والسلام كل شىء مما خلق قال له اختر من خلقى ماشئت ، فاختار الفرس ، فقيل له : اخترت عزك وعز ولدك ، خالدا ماخلدوا وباقيا مابقوا أبد الآبدين ودهر الداهرين » وهذا صريح فى أن الخيل خلقت قبل آدم .

وقد سئل الإمام السبكى : هل خلقت الخيل قبل آدم أو بعده ؟ وهل خلقت الذكور قبل الإناث أو الإناث قبل الذكور ؟ فأجاب بأنا نختار أن خلق الخيل قبل آدم عليه الصلاة والسلام ، لأن الدواب خلقت يوم الخميس ، وآدم خلق يوم الجمعة بعد العصر وأن الذكور خلقت قبل الإناث لأمرين : أحدهما أن الذكر أشرف من الأنثى . والثانى حرارة الذكر أقوى من الأنثى ، ولذلك كان خلق آدم قبل خلق حواء فليتأمل .

وقد ذكر الإمام السهيلى أن فى الفرس عشرين عضوا كل عضو منها يسمى باسم طائر، ذكرها وبينها الأصمعى . فمنها النسر ، والنعامة ، والقطاة ، والذباب ، والعصفور والغراب ، والصرد ، والصقر . قالوا : وفى الحيوان أعضاء باردة يابسة كالعظام نظير السوداء ، وأعضاء باردة رطبة كالدماغ نظير البلغم . وأعضاء حارة يابسة كالقلب نظير الصفراء . وأعضاء حارة رطبة كالكبد نظير الدم .

وعن أنس رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن شىء أحب إليه بعد النساء من الخيل » وجاء « مامن ليلة إلا والفرس يدعو فيها ويقول : رب إنك سخرتنى لابن آدم ، وجعلت رزقى فى يده اللهم فاجعلنى أحب إليه من أهله وولده » وقيل لبعض

الحكماء : أى المال أشرف ؟ قال فرس يتبعها فرس ، وفى بطنها فرس . ومن ثم قيل : ظهر الخيل حرز ، وبطنها كنز .

وفى الحديث « لما أراد ذو القرنين أن يسلك فى الظلمة إلى عين الحياة سأل أى الدواب فى الليل أبصر ؟ فقالوا الخيل ، فقال : أى الخيل أبصر ؟ فقالوا الإناث ، قال : فأى الإناث أبصر ؟ قالوا البكارة ، فجمع من عسكره ستة آلاف فرس كذلك » .

وأعطى الله إسمعيل القوس العربية ، وكان لايرمى شيئا إلا أصابه . وفى الحديث ارموا بنى إسمعيل ، فإن أباكم كان راميا» أى قال ذلك لجماعة مر عليهم وهم ينتضلون ، فقال « حسن هذا اللهو مرتين أو ثلاثا » زاد فى بعض الروايات «ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك الفريق الآخر ، فقال لهم ، مابالكم لاترمون ؟ فقالوا يارسول الله كيف نرمى وأنت معهم ؟ إذن ينتضلونا قال : ارموا وأنا معكم كلكم » أخرجه البخارى فى صحيحه . زاد البيهقى فى دلائل النبوة«فرموا عامة يومهم ذلك، ثم تفرقوا على السواء مانضل بعضهم بعضا» . وقد جاء « أحب اللهو إلىّ إجراء الخيل والرمى ، ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » وقد جاء « أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمى »وجاء « كل شىء يلهو به الرجل باطل ، إلا رمى الرجل بقوسه ، أو تأديبه فرسه ، أو ملاعبته امرأته فإنهن من الحق » وجاء « علموا أولادكم السباحة والرمى » وفى رواية «الرماية » وفى رواية « علموا بنيكم الرمى ، فإنه نكاية العدو » وقد جاء « تعلموا الرمى ؟ فإن مابين الهدفين روضة من رياض الجنة » وروى مرفوعا « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » وجاء « من تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا » وفى رواية « فهو نعمة جحدها » .

قال الحافظ السيوطى رضى الله عنه والأحاديث المتعلقة بالرمى كثيرة . قال : وقد ألفت كتابا فى الرمى سميته [غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب] وفى العرائس : كان إسمعيل مولعا بالصيد ، مخصوصا بالقنص والفروسية والرمى والصراع، والرمى سنة إذا نوى به التأهب للجهاد ، لقوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) وقوله صلى الله عليه وسلم « القوة الرمى » على حد قوله « الحج عرفة » وإلا فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) قال : الرمى والسيوف والسلاح . وسئل الحافظ السيوطى رضى الله عنه هل ٧ ماذكره الطبرى والمسعودى فى تاريخيهما أن أول من

رمى بالقوس العربية آدم عليه الصلاة والسلام ، وذلك لما أمره الله تعالى بالزراعة حين أهبط من الجنة وزرع ، أرسل الله تعالى له طائرين يخرجان مابذره ويأكلانه ، فشكا إلى الله تعالى ذلك ، فهبط عليه جبريل وبيده قوس ووتر وسهمان ، فقال آدم : ماهـــذا ياجبريل ؟ فأعطاه القوس وقال : هذه قوة الله تعالى ، وأعطاه الوتر وقال : هذه شدة الله تعالى ، وأعطاه السهمين وقال : هذه نـكاية الله تعالى ، وعلمه الرمى بهما فرمى الطائرين فقتلهما ، وجعلهما ، يعنى السهمين، عدة فى غربته ، وأنسا عند وحشته ثم صار القوس العربية إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ثم إلى ولده إسمعيل ، وهو يدل على أن قوس إبراهيم هى القوس التى هبطت على آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ، وأنه ادخرها لإبراهيم ، وهو خلاف قول بعضهم إنها غيرها أهبطت إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الجنة . فأجاب الحافظ السيوطى رضى الله عنه بقوله : راجعت تاريخ الطبرى فى تاريخ آدم وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فلم أجده فيه ؛ ولا تبعد صحته ، فإن الله تعالى علم آدم علم كل شىء .

وذكر أن ابن أبى الدنيا ذكر فى كتاب الرمى من طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « أول من عمل القسى إبراهيم ، عمل لإسمعيل ولإسحق قوسين فكانا يرميان بهما » وتقدم أن إسحق جاء لإبراهيم بعد إسمعيل بثلاث عشرة ، وقيل بأربع عشرة سنة : أى حملت به أمه سارة فى الليلة التى خسف الله تعالى بقوم لوط فيها . ولها من العمر تسعون سنة .

وفى جامع ابن شداد يرفعه «كان اللواط فى قوم لوط فى النساء قبل الرجال بأربعين سنة ، ثم استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال ، فخسف الله تعالى بهم» قيل ولا يعمل عمل قوم لوط من الحيوان إلا الحمار والخنزير . وكان أول من اتخذ القسى الفارسية نمروذ فليتأمل الجمع .

وقد يقال : لامنافاه ، لجواز أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من عمل القسى بعد ذهاب تلك القوس ، فالأولية إضافية . ومعلوم أن إسمعيل بن إبراهيم خليل الله تعالى عليهما الصلاة والسلام : أى ولم يبعث بشريعة مستقلة من العرب بعد إسمعيل إلا محمد صلى الله عليه وسلم . وأما خالد بن سنان وإن كان من ولد إسمعيل على ماقيل، فقال بعضهم : لم يكن فى بنى إسمعيل نبى غيره قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه لم يبعث

بشريعة مستقلة ، بل بتقرير شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام : أى وكان بينه وبين عيسى ثلاثمائة سنة ، وخالد هـــذا هو الذى أطفأ النار التى خرجت بالبادية بين مكة والمدينة ، كادت العرب أن تعبدها كالمجوس ، كان يرى ضوءها من مسافة ثمان ليال ، وربما كان يخرج منها العنق فيذهب فى الأرض فلا يجد شيئا إلا أكله ، فأمر الله تعالى خالد بن سنان بإطفائها ، وكانت تخرج من بئر ثم تنتشر ، فلما خرجت وانتشرت أخذ خالد بن سنان يضربها ويقول : بدا بدا بدا كل هدى وهى تتأخر حتى نزلت إلى البئر ، فنزل إلى البئر خلفها فوجد كلابا تحتها فضربها وضرب النار حتى أطفأها ، ويذكر أنه كان هو السبب فى خروجها فإنه لما دعا قومه وكذبوه وقالوا له إنما تخوفنا بالنار ، فإن تسل علينا هذه الحرة نارا اتبعناك ، فتوضأ ثم قال : اللهم إن قومى كذبونى ولم يؤمنوا بى إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة نارا فأسلها عليهم نارا ، فخرجت ، فقالوا : ياخالد ارددها فإنامؤمنون بك ، فردها .

قيل وكان خالد بن سنان إذا استسقى يدخل رأسه فى جيبه فيجىء المطر ولا يقلع إلا إن رفع رأسه . قيل « وقدمت ابنته وهى عجوز على النبى صلى الله عليه وسلم ، فتلقاها بخير وأكرمها ، وبسط لها رداءه وقال لها : مرحبا بابنة أخى ، مرحبا بابنةنبى ضيعه قومه فأسلمت » وهذا الحديث مرسل رجاله ثقات . وفى البخارى « أنا أولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة ، وليس بينى وبينه نبى » قال بعضهم : وبه يرد على من قال كان بينهما خالد بن سنان . وقد يقال مراده صلى الله عليه وسلم بالنبى الرسول الذى يأتى بشريعة مستقلة . وحينئذ لايشكل هذا لما علمت أنه لم يأت بشريعة مستقلة ، ولا ماجاء فى رواية أخرى « ليس بينى وبينه نبى ولا رسول » ولا مافى كلام البيضاوى تبعا للكشاف من أن بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أربعة أنبياء : ثلاثة من بنى إسرائيل ، وواحد من العرب وهو خالد بن سنان ، وبعده حنظلة بن صفوان عليهما الصلاة والسلام ، أرسله الله تعالى لأصحاب الرس بعد خالد بمائة سنة لأنه يجوز أن يكون كل من هؤلاء الثلاثة لم يبعث بشريعة مستقلة ، بل كان مقررا لشريعة عيسى عليه الصلاة والسلام أيضا كخالد بن سنان .

والرس : البئر الغير المطوية : أى الغير المبنية . كذا فى الكشاف . والذى فى القاموس كالصحاح المطوية بإسقاط غير ، فإنهم قتلوا حنظلة ودسوه فيها : أى وحين

دسوه فيها ، غار ماؤها ، وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم بعد أن كان ماؤها يرويهم ويكفى أرضهم جميعا ، وتبدلوا بعد الأنس الوحشة ، وبعد الاجتماع الفرقة لأنهم كانوا ممن يعبد الأصنام : أى وكان ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم ذى عنق طويل كان فيه من كل لون ، فكان ينقضّ على صبيانهم يخطفهم إذا أعوزه الصيد ، وكان إذا خطف أحدا منهم أغرب به : أى ذهب به إلى جهة المغرب ، فقيل له لطول عنقه ولذهابه إلى جهة المغرب عنقاء مغرب ، فشكوا ذلك إلى حنظلة عليه الصلاة والسلام ، فدعا على تلك العنقاء ، فأرسل الله تعالى عليها صاعقة فأهلكتها ولم تعقب ، وكان جزاؤه منهم أن قتلوه وفعلوا به ما تقدم .

وذكر بعضهم أن حنظلة هذا كان من العرب من ولد إسمعيل أيضا عليه الصلاة والسلام : ثم رأيت ابن كثير ذكر أن حنظلة هذا كان قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه لما ذكر أن فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فتحت تستّر المدينة المعروفة وجدوا تابوتا ، وفى لفظ : سريرا عليه دانيال عليه الصلاة والسلام ، ووجدوا طول أنفه شبرا ، وقيل ذراعا ، ووجدوا عند رأسه مصحفا فيه مايحدث إلى يوم القيامة ، وأن من وفاته إلى ذلك اليوم ثلاثمائة سنة ، وقال : إن كان تاريخ وفاته القدر المذكور فليس بنبى بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ليس بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى بنص الحديث فى البخارى .

أقول : قد علمت الجواب عن ذلك ، بأن المراد بالنبى الرسول . وفيه أن هذا يبعده عطف الرسول على النبى المتقدم فى بعض الروايات ، إلا أن يجعل من عطف التفسير ، والله أعلم .

والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة ، وقيل بزيادة عشرين سنة . قالت عائشة رضى الله عنها : ماوجدنا أحدا يعرف ماوراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصا أى كذبا لأن الخراص الكذاب كذا قيل .

أقول : لعل المراد بالكذب الغير المقطوع بصحته ، لأن الخرص حقيقته الحزر والتخمين ، وكل من تكلم كلاما بناه على ذلك قيل له خراص ، ثم قيل للكذاب خراص توسعا ، وحينئذ كان القياس أن يقال إلا خرصا : أى حزرا وتخمينا . وعلى هـذا كأن الصديقية رضى الله تعالى عنها أرادت المبالغة للتنفير عن الخوض فى ذلك . والله اعلم .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم انتسب حتى بلغ النضر بن كنانة ثم قال : فمن قال غير ذلك » أى مما زاد على ذلك « فقد كذب » .

أقول : إطلاق الكذب على من زاد على كنانة إلى عدنان يخالف ماسبق من أن المجمع عليه إلى عدنان إلا أن يقال : لامخالفة ، لأنه يجوز أن يكون عمرو بن العاص لم يسمع مازاد على النضر بن كنانة إلى عدنان مع ذكره صلى الله عليه وسلم له الذى سمعه غيره . وفى إطلاقه الكذب على ذلك التأويل السابق . وأخرج الجلال السيوطى فى الجامع الصغير عن البيهقى أنه صلى الله عليه وسلم انتسب فقال « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » إلى أن قال : ابن مضر بن نزار » وهذا هو الترتيب المألوف ، وهو الابتداء بالأب ثم بالجد ثم بأب الجد وهكذا . وقد جاء فى القرآن على خلافه فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) قال بعضهم : والحكمة فى ذلك أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء ، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التى اتبعها ، فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولا فأولا على الترتيب ، والله أعلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان بن أدد ، ثم يمسك ويقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثا » .

قال البيهقى : والأصح أن ذلك : أى قوله « كذب النسابون » من قول ابن مسعود رضى الله عنه : أى لامن قوله صلى الله عليه وسلم .

أقول : والدليل على ذلك ماجاء : كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله) قال : كذب النسابون ، يعنى الذين يدعون علم الأنساب ، ونفى الله تعالى علمها عن العباد . ولا مانع أن يكون هذا القول صدر منه صلى الله عليه وسلم أولا ثم تابعه ابن مسعود عليه .

وقد يقال : هذه الرواية تقتضى إما الزيادة على المجمع عليه ، وإما النقص عنه : أى زيادة أدد أو نقص عدنان ، فهى مخالفة لما قبلها .

وفى كلام بعضهم أن بين عدنان وأدد أد . فيقال عدنان بن أد بن أدد قيل له أدد لأنه كان مديد الصوت ، وكان طويل العز والشرف .

قيل وهو أول من تعلم الكتابة : أى العربية من ولد إسمعيل . وتقدم أن الصحيح أن أول من كتب نزار .

وانظر هل يشكل على ذلك ماروواه الهيثم بن عدى أن الناقل لهذه الكتابة يعنى العربية من الحيرة إلى الحجاز حرب بن أمية بن عبد شمس . وقد يقال : الأولية إضافية : أى من قريش وعدنان ، سمى بذلك ، قيل لأن أعين الإنس والجن كانت إليه ناظرة .

قال بعضهم : اختلف الناس فيما بين عدنان وإسمعيل من الآباء ، فقيل سبعة ، وقيل تسعة ، وقيل خمسة عشر ، وقيل أربعون ، والله أعلم ، قال الله عز وجل (وقرونا بين ذلك كثيرا) أى لايكاد يحاط بها ، فقد جاء « كان مابين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون ، وبين نوح وإبراهيم عليهما السلام عشرة قرون » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن مدة الدنيا : أى من آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة : أى وقد مضى منها قبل وجود النبي صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف وسبعمائة وأربعون سنة . وعن أبى خيثمة وثمانمائة سنة .

قلت : وفى كلام بعضهم من خلق آدم إلى بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة وثلاثون سنة .

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من طرق صحاح أنه قال « الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم منها » .

وفى كلام الحافظ السيوطى : دلت الأحاديث والآثار على أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف سنة ، ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة أصلا ، وإنما تزيد بنحو أربعمائة سنة تقريبا وما اشتهر على ألسنة الناس أن النبى صلى الله عليه وسلم لايمكث فى قبره أكثر من ألف سنة باطل لاأصل له ، هذا كلامه . وقوله لاتبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، هل يخالفه ماأخرجه أبو داود « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم يعنى خمسمائة سنة » .

وفى كلام بعضهم قد أكثر المنجمون فى تقدير مدة الدنيا . فقال بعضهم عمرها سبعة آلاف سنة بعدد النجوم السيارة أى وهى سبعة . وبعضهم اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج . وبعضهم بثلثمائة ألف وستون ألفا بعدد درجات الفلك ، وكلها تحكمات عقلية لادليل عليها .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى : أكمل الله خلق الموجودات من الجمادات والنباتات والحيوان بعد انتهاء خلق العالم الطبيعى بإحدى وسبعين ألف سنة ، ثم خلق الله الدنيا بعد أن انقضى من مدة خلق العالم الطبيعى أربع وخمسون ألف سنة . ثم خلق الله تعالى

الآخرة يعني الجنة والنار بعد الدنيا بتسعة آلاف سنة ، ولم يجعل الله تعالى للجنة والنار أمدا ينتهى إليه بقاؤهما فلهما الدوام . قال : وخلق الله تعالى طينة آدم بعد أن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة ألف سنة ، ومن عمر الآخرة التى لانهاية لها فى الدوام ثمانية آلاف سنة وخلق الله تعالى الجان فى الأرض قبل آدم بستين ألف سنة : أى ولعل هــذا هو المعنى بقول بعضهم : خلق الله قبل آدم خلقا فى صورة البهائم، ثم أماتهم قبل، وهم الجن واللبن والطم والرم والحس والبس فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء كما سيأتى .

قال الشيخ محيى الدين : وقد طفت بالكعبة مع قوم لا أعرفهم ، فقال لى واحد منهم : أما تعرفنى ؟ فقلت لا ، قال : أنا من أجدادك الأول ، فقلت له : كم لك منذ مت ؟ قال لى بضع وأربعون ألف سنة فقلت : ليس لآدم هــذا القدر من السنين ، فقال لى : عن أى آدم تقول عن هذا الأقرب إليك ، أم عن غيره؟ فتذكرت حديثا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق مائة ألف آدم » فقلت : قد يكون ذلك الجد الذى نسبنى إليه من أولئك ، والتاريخ فى ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك هذا كلامه .

وفى كلام الشيخ عبد الوهاب الشعرانى : وكان وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه يقول : سأل بنو إسرائيل المسيح عليه الصلاة والسلام أن يحيى لهم سام بن نوح عليهما الصلاة والسلام ، فقال : أرونى قبره ، فوقف على قبره وقال : ياسام قم بإذن الله تعالى، فقام وإذا رأسه ولحيته بيضاء ، فقال إنك مت وشعرك أسود ، فقال : لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة فشاب رأسى ولحيتى الآن ، فقال له عيسى عليه السلام : كم لك من السنين ميت ؟ قال خمسة آلاف سنة ، إلى الآن لم تذهب عنى حرارة طلوع روحى .

وسبب الاختلاف فيما بين عدنان وآدم أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها ، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ، ولعله لا يخالفه ماتقدم من أن أول من كتب معد أو نزار .

وفى كلام سبط بن الجوزى أن سبب الاختلاف المذكور اختلاف اليهود ، فإنهم اختلفوا اختلافا متفاوتا فيما بين آدم ونوح وفيما بين الأنبياء من السنين . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه لعلمه : أى لو أراد أن يعلم ذلك للناس لعلمه لهم . وهذا أولى من يعلمه بفتح الياء وسكون العين .

وذكر ابن الجوزى أن بين آدم ونوح شيثا وإدريس ، وبين نوح وإبراهيم هود وصالح ، وبين إبراهيم وموسى بن عمران إسمعيل وإسحق ولوط وهو ابن أخت إبراهيم وكان كاتبا لإبراهيم ، وشعيب وكان يقال له خطيب الأنبياء ويعقوب ويوسف ، ولد يوسف ليعقوب ، وله من العمر إحدى وتسعون سنة ، وكان فراقه له وليوسف من العمر ثمانى عشرة سنة وبقيا مفترقين إحدى وعشرين سنة ، وبقيا مجتمعين بعد ذلك سبع عشرة سنة هذا .

وفى الإتقان : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، ولقى أباه بعد الثمانين ، وعاش مائة وعشرين سنة ، وكان كاتبا للعزيز .

قيل وسبب الفرقة بين سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما السلام أن سيدنا يعقوب ذبح جديا بين يدى أمه فلم يرض الله تعالى له ذلك ، فأراه دما بدم ، وفرقة بفرقة ، وحرقة بحرقة ، وموسى بن عمران بن منشاء . وبين موسى بن عمران وهو أول أنبياء بنى إسرائيل وداود يوشع ، وكان يوشع كهرون يكتب لموسى . ويذكر أن مما أوصى به داود ولده سليمان عليهما السلام لما استخلفه : يابنى إياك والهزل فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ، أى ومن ثم قيل : لا تمازح الصبيان فتهون عليهم ، ولا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا تمازح الدنىء فيجترئ عليك ، ولكل شىء بذر ، وبذر العداوة المزاح .

وقد قيل المزاح يذهب بالمهابة ويورث الضغينة . وقيل آكد أسباب القطيعة المزاح .

وقد قيل : من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه ، واقطع طمعك من الناس فإن ذلك هو الغنى . وإياك وما تعتذر فيه من القول أو الفعل ، وعود لسانك الصدق ، والزم الإحسان ولا تجالس السفهاء ، وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض : أى وقد جاء فى الحديث « إذا جهل على أحدكم جاهل ، فإن كان قائما جلس ، وإن كان جالسا فليضطجع » .

وممن مات من الأنبياء فجأة داود وولده سليمان وإبراهيم الخليل عليهم أفضل الصلاة والسلام ، ثم بعد يوشع كالب بن يوفنا ، وهو خليفة يوشع ، ثم حزقيل وهو خليفة كالب ، ويقال له ابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى أن يرزقها ولدا بعد ما كبرت وعقمت فجاءت به ، وهو ذوالكفل لأنه تكفل بسبعين نبيا وأنجاهم من القتل .

وإلياس ثم طالوت الملك : أى فإن شمويل عليه السلام لما حضرته الوفاة سأله بنو إسرائيل أن يقيم فيهم ملكا فأقام فيهم طالوت ملكا ، ولم يكن من أعيانهم بل كان راعيا . وقيل سقاء ، وقيل غير ذلك . وبين داود وعيسى عليهما السلام وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل: أيوب ثم يونس ثم شعياء ثم (٧) أحصياء ثم زكرياء ويحيى عليهم السلام .

وفى النهر لأبى حيان فى تفسير قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) كان بينه وبين عيسى من الرسل يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعياء وأرمياء وعزير : أى وهو من أولاد هرون بن عمران ، وحزقيل وإلياس ويونس وذكرياء ويحيى . وكان بين موسى وعيسى ألف نبى : هذا كلامه . وكان يحيى يكتب لعيسى . وتقدم الكلام على من بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ومما يدل على شرف هذا النسب وارتفاع شأنه وفخامته وعلو مكانه ما جاء عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال « قيل يارسول الله قتل فلان لرجل من ثقيف ، فقال أبعده الله : إنه كان يبغض قريشا » .

وفى الجامع الصغير « قريش صلاح الناس ، ولا يصلح الناس إلا بهم : كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح . قريش خالصة لله تعالى . فمن نصب لها حربا سلب ، ومن أرادها بسوء خزى فى الدنيا والآخرة» .

قال : وعن سعد بن أبى وقاص أيضا أن رسول الله صلى الله عليهم وسلم قال : « من يرد هوان قريش أهانه الله تعالى » اه أى وأشد الإهانة ما كان فى الآخرة . وحينئذ إما أن يراد بالإرادة العزم والتصميم ، أو المراد المبالغة . أو يكون ذلك من خصائص قريش . فلا ينافى أن حكم الله المطرد فى عدله أن لا يعاقب على مجرد الإرادات ، إنما يعاقب ويجازى على الأفعال والأقوال الواقعة . أو ماهو منزل منزلة الواقعة كالتصميم ، فإن من خصائص هذه الأمة عدم مؤاخذتها بما تحدث به نفسها .

وعن أم هانىء بنت أبى طالب رضى الله تعالى عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل قريشا » أى ذكر تفضيلهم « بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم . ولا يعطاها أحد بعدهم : النبوة فيهم . والخلافة فيهم . والحجابة فيهم . والسقاية فيهم . ونصروا على الفيل » أى على أصحابه « وعبدوا الله سبع سنين » وفى لفظ عشر سنين « لم يعبده أحد غيرهم . ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش » وتسمية

لإيلاف قريش سورة يرد ما قيل إن سورة الفيل ولإيلاف قريش سورة واحدة ، ولينظر مامعنى عبادتهم الله تعالى دون غيرهم فى تلك المدة .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه « حب قريش إيمان وبغضهم كفر » .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « الناس تبع لقريش ، مسلمهم تبع لمسلمهم ، وكافرهم تبع لكافرهم » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم فى قريش » أى وقال « الأئمة من قريش » وقد جمع الحافظ بن حجر طرق هذا الحديث فى كتاب سماه [لذة العيش فى طرق حديث « الأئمة من قريش »] .

وفى الحديث « عالم قريش يملأ طباق الأرض علما » وفى رواية « لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علما » وفى رواية « اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما » قال جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد : هـذا العالم هو الشافعى رضى الله تعالى عنه ، لأنه لم ينتشر فى طباق الأرض من علم عالم قريشى من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعى .

وفى كلام بعضهم : ليس فى الأئمة المتبوعين فى الفروع قرشى غيره . وفيه أن الإمام مالك بن أنس من قريش . ويجاب بأنه إنما يكون قرشيا على القول الباطل من أن جماع قريش قصى .

وقد ذكر السبكى أنهم ذكروا أن من خواص الشافعى رضى الله تعالى عنه من بين الأئمة أن من تعرض إليـه أو إلى مذهبه بسوء أو نقص هلك قريبا ، وأخذوا ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « من أهان قريشا أهانه الله تعالى » هـذا كلامه . قال الحافظ العراقى : إسناد هذا الحديث يعنى « لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علما » لا يخلو عن ضعف ، وبه يرد مازعمه الصغانى من أنه موضوع ، وحاشا الإمام أحمـد أن يحتج بحديث موضوع أو يستأنس به على فضل الشافعى .

وقال ابن حجر الهيتمى : هو حديث معمول به فى مثل ذلك أى فى المناقب ، وزعم وضعه حسد أو غلط فاحش : أى وعن الربيع قال : رأيت فى المنـام كأن آدم مات ، فسألت عن ذلك ؟ فقيل لى هذا موت أعلم أهل الأرض ، لأن الله علم آدم الأسماء كلها ، فما كان إلا يسير حتى مات الشافعى رضى الله تعالى عنه ورضى عنا به .

ومما يؤثر عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : من أطراك فى وجهك بما ليس

فيك فقد شتمك؛ ومن نقل إليك نقل عنك ، ومن نمّ عندك نم عليك . ومن إذا أرضيته قال فيك ماليس فيك إذا أسخطته قال فيك ماليس فيك. وقال صلى الله عليه وسلم «قدموا قريشا ولاتقدموها» أي لاتتقدموها. وفى رواية «ولاتعالموها : أى لاتغالبوها بالعلم ولا تكاثروها فيه» . وفى رواية « ولاتعلموها » أى لاتجعلوها فى المقام الأدنى الذى هومقام المتعلم بالنسبة للمعلم . وقال صلى الله عليه وسلم « أحبوا قريشا ، فإنه من أحبهم أحبه الله تعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بالذى لها عند الله عز وجل » .

وفى السنن المأثورة عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه رواية المزنى عنه . قال الطحاوى: حدثنا المزنى قال : حدثنا الشافعى رضى الله تعالى عنه «أن قتادة بن النعمان وقع بقريش وكأنه نال منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا ياقتادة لا تشتم قريشا فإنك لعلك ترى منهم رجالا إذا رأيتهم عجبت بهم ، لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بالذى لها عند الله تعالى » أى لولا أنها إذا علمت مالها عند الله من الخير المدخر لها تركت العمل ، بل ربما ارتكبت مالا يحل اتكالا على ذلك لأعلمتها به ، لكن فى رواية « لأخبرتها بما لمحسنها عند الله من الثواب » . وهذا دليل على علو منزلتها وارتفاع قدرها عند الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يا أيها الناس إن قريشا أهل أمانة ، ، من بغاها العواثر » أى من طلب لها المكايد « أكبه الله تعالى لمنخريه » أى أكبه الله على وجهه « قال ذلك ثلاث مرات » وعن سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان بالمسجد فمر عليه سعيد بن العاص فسلم عليه ، فقال له : والله ياابن أخى ماقتلت أباك يوم بدر ، ومالى أن أكون أعتذر من قتل مشرك ، فقال له سعيد بن العاص : لو قتلته كنت على الحق وكان على الباطل ، فعجب عمر من قوله وقال : قريش أفضل الناس أحلاما ، وأعظم الناس أمانة ، ومن يرد بقريش سوءا يكبه الله لفيه. هذا كلامه .

والذى قتل العاص والد سعيد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه . وقيل سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه ، فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه قال : قتلت يوم بدر العاص وأخذت سيفه ذا الكثيفة وقال صلى الله عليه وسلم « شرار قريش خير شرار الناس » وفى رواية « خيار قريش خيار الناس . وشرار قريش شرار الناس » أى ولعله سقط من هذه الرواية قبل شرار الثانية لفظ خيار لتوافق الرواية قبلها المقتضى لذلك المقام . ويحتمل إبقاء ذلك على ظاهره لأنه ممن يقتدى به . فكانوا أشر الأشرار ، ويكون هذا هو المراد بوصفهم بأنهم خيار شرار الناس .

ثم رأيت فى كتاب السنن المأثورة عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه مارواه المزنى عنه « خيار قريش خيار الناس ، وشرار قريش خيـــار شرار الناس » وفى الحديث «ولاةهذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم» ومن ثم قال الطحاوى : قريش أهل أمانة ، هكذا قرأه علينا المزنى أهل أمانة أى بالنون ، وإنما هو أهل إمامة أى بالميم . وفى كلام فقهائنا « قريش قطب العرب وفيهم الفتوة » .

ومما يدل على شرف هذا النسب أيضا ماجاء عن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه «إن الله اختار العرب على الناس ، واختارنى على من أنا منه من أولئك العرب » وما جاء عن واثلة بن الأسقع رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وســـلم يقول «إن الله اصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

أقول : وجاء بلفظ آخر عن واثلة بن الأسقع وهو « إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم عليهما السلام . واتخذه خليلا ، واصطفى من ولد إبراهيم إسمعيل ، ثم اصطفى من ولد إسمعيل نزارا ، ثم اصطفى من ولد نزار مضر ، ثم اصطفى من ولد مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشا ، ثم اصطفى من قريش بنى هاشم ، ثم اصطفى من بنى هاشم بنى عبد المطلب ثم اصطفانى من بنى عبد المطلب» والله أعلم . قال وفى رواية « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسمعيل ، واصطفى من ولد إسمعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وما جاء عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتانى جبريل فقال لى : يامحمد إن الله بعثنى فطفت شرق الأرض ومغربها وسهلها وجبلها ، فلم أجد حيا خيرا من مضر ، ثم أمرنى فطفت فى مضر فلم أجد حيا خيرا من كنانة ، ثم أمرنى فطفت فى كنانة فلم أجد حيا خيرا من قريش ، ثم أمرنى فطفت فى قريش فلم أجد حيا خيرا من بنى هاشم . ثم أمرنى أن أختار فى أنفسهم » أى أختار نفسا من أنفسهم « فلم أجد نفسا خيرا من نفسك » انتهى .

وفى الوفاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبى صلى الله عليه وسلم مضرها وربيعتها ويمانيها . وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار إلى خيار » انتهى . وقوله واختار من مضر قريشا يدل على أن مضر ليس جماع قريش وإلا كانت أولاده كلها قريشا .

وعن أبى هريرة يرفعه بسند حسنه الحافظ العراقى « إن الله حين خلق الخلق بعث جبريل فقسم الناس قسمين : قسم العرب قسما ، وقسم العجم قسما ، وكانت خيرة الله فى العرب . ثم قسم العرب إلى قسمين ، فقسم اليمن قسما وقسم مضر قسما وكانت خيرة الله فى مضر ، وقسم مضر قسمين فكانت قريش قسما وكانت خيرة الله فى قريش ، ثم أخرجنى من خيار من أنا منه » .

قال بعضهم : وما جاء فى فضل قريش فهو ثابت لبنى هاشم والمطلب ، لأنهم أخص وما ثبت للأعم يثبت للأخص ولا عكس .

وفى الشفاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين فجعلنى من خيرهم قسما فذلك قوله تعالى (أصحاب اليمين وأصحاب الشمال) فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرها ثلثا ، فذلك قوله تعالى (فأصحاب الميمنة — وأصحاب المشأمة — والسابقون السابقون) فأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى من خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الآية فأنا أبر ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ، وجعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا ولا فخر ، فذلك قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) الآية » هذا كلام الشفاء ، فليتأمل . وإلى شرف هذا النسب يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

وبدا للوجود منك كريم   من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه   قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سودد وفخار   أنت فيه اليتيمة العصماء

أى يظهر لهذا العالم منك كريم : أى جامع لكل صفة كمال ، وهذا على حد قولهم : لى من فلان صديق حميم ، وذلك الكريم الذى ظهر وجد من أب كريم سالم من نقص الجاهلية آباؤه الشامل للأمهات جميعهم كرماء : أى سالمون من نقائص الجاهلية : أى

ما يعد فى الإسلام نقصا من أوصاف الجاهلية ، وهـذا نسب لا أجل منه ، ولجلالته إذا تأملته تظن بسبب ماتحلى به من الكمالات : أى معاليها جعلت الجوزاءنجومها التى يقال لها نطاق الجوزاء قلادة لتلك المعالى ، وهذهالقلادةنعم هى قلادة سيادة وتمدح موصوفة بأنك فى تلك القلادة الدرة اليتيمة التى لامشابه لها المحفوظة عن الأعين لجلالتها .

لايقال : شمول الآباء للأمهات لايناسب قوله نسب ، لأن النسب الشرعى فى الآباء خاصة . لأنا نقول : المراد بالنسب ما يعم اللغوى أو قد يقال سلامة آبائه من النقائص إنما هو من حيث أبيه : أى كونه متفرعا عنه ، وذلك يستلزم أن تكون أمهاته كذلك : وسيأتى « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » وسيأتى الكلام على ذلك مستوفى .

وقال الماوردى فى كتاب [أعلام النبوة] : وإذا اختبرت حال نسبه صلى الله عليه وسلم وعرفت طهارة مولده صلى الله عليه وسلم علمت أنه سلالة آباء كرام ليس فيهم مسترذل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب وطهارة المولدمن شروط النبوة ، هذا كلامهومن كلام عمه أبى طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد منـاف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها فـفى هاشم أشرافها وقديمهـا
وإن فخرت يوما فإن محمـدا هو المصطفى من سرها وكريمها

بالرفع عطفا على المصطفى ، وسر القوم : وسطهم ؛ فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفخاذ فخذه .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » .

وعن سلمان الفارسى رضى اللهتعالى عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليهوسلم « ياسلمان لاتبغضنى فتفارق دينك ، قلت يارسول الله كيف أبغضك وبك هدانى الله تعالى ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى » .

وعن على رضى الله تعالى عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبغض العرب إلا منافق » :

وفى الترمذى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » قال الترمذى : هــذا حديث غريب ، وقال صلى الله عليه وسلم « ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فيبغضى أبغضهم » وقال صلى الله عليه وسلم « أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، وكلام أهـل الجنة عربى » وقال صلى الله عليه وسـلم « إن لواء الحمد يوم القيامة بيدى وإن أقرب الخلق من لوائى يومئذ العرب » وقال صلى الله عليـه وسلم « إذا ذلت العرب ذل الإســلام » وفى كلام فقهائنا : العرب أولى الأمم ، لأنهم المخاطبون أولا والدين عربى .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « خير العرب مضر ، وخير مضر عبد مناف ، وخير بنى عبد مناف بنو هاشم ، وخير بنى هاشم بنو عبد المطلب ، والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله تعالى آدم إلا كنت فى خيرهما » .

أقول : وفى لفظ آخر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله حين خلقنى جعلنى من خير خلقه ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وأنا خيرهم نسبا » وفى لفظ آخر عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلنى فى خيرهم قسما ، ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرها ثلثا ، ثم جعل الثلث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة ، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خــيرها بيتا » وتقدم عن الشفاء مثل ذلك مع زيادة الاستدلال بالآيات ، وتقدم الأمر بالتأمل فى ذلك ، والله أعلم . وفيه أنه ورد النهى فى الأحاديث الكثيرة عن الانتساب إلى الآباء فى الجاهلية على سبيل الافتخار ، من ذلك « لاتفتخروا بآبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية ، فوالذى نفسى بيده ما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية » أى والذى يدحرجه الجعل وهو النتن . وجاء فى الحديث « ليدعن الناس فخرهم فى الجاهلية . أو ليكونن أبغض إلى الله تعالى من الخنافس » وجاء « آفة الحسب الفخر » أى عاهة الشرف بالآباء التعاظم بذلك .

وأجاب الإمام الحليمى بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك الفخر ، إنما أراد تعريف منازل أولئك ومراتبهم : أى ومن ثم جاء فى بعض الروايات قوله ولا فخر : أى فهو من التعريف بما يجب اعتقاده وإن لزم منه الفخر ، وهو أشار إلى نعمة الله تعالى عليه ، فهو

من التحدث بالنعمة وإن لزم من ذلك الفخر أيضا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « فى قوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) قال : من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبيا » أى وجدت الأنبياء فى آبائه فسيأتى « أنه قذف بى فى صلب آدم ، ثم فى صلب نوح ، ثم فى صلب إبراهيم عليهما الصلاة والسلام » بدليل مايأتى فيه . وفى لفظ آخر عنه « مازال النبى صلى الله عليه وسلم يتقلب فى أصلابِ الأنبياء » أى المذكورين أو غيرهمْ « حتى ولدته أمه » أى وهذا كما لا يخفى لا ينافى وقوع من ليس نبيا فى آبائه ، فالمراد وقوع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى نسبه عليه الصلاة والسلام كما علمت ، ضرورة أن آباءه كلهم ليسوا أنبياء ، لكن قال غيره : لازال نوره صلى الله عليه وسلم ينقل من ساجد إلى ساجد . قال أبو حيان : واستدل بذلك ، أى بما ذكر من الآية المذكورة : أى المفسرة بما ذكر الرافضة على أن آباء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين : أى لأن الساجد لا يكون إلا مؤمنا ، فقد عبر عن الإيمان بالسجود ، وسيأتى مزيد الكلام فى ذلك ، وهو استدلال ظاهرى ، وإلا فالآية قيل معناها وتصفحك أحوال المتهجدين من أصحابك لأنه لما نسخ فرض قيام الليل عليه وعليهم بناء على أنه كان واجبا عليه وعلى أمته وهو الأصح .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان واجبا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله صلى الله عليه وسلم « طاف صلى الله عليه وسلم تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر حالهم » أى هل تركوا قيام الليل لكونه نسخ وجوبه بالصلوات الخمس ليلة المعراج حرصا على كثرة طاعتهم فوجدوها كبيوت الزنابير : أى لأن الله عز وجل افترض عليه صلى الله عليه وسلم : أى وعلى أمته قيام الليل أو نصفه أو أقل أو أكثر فى أول سورة المزمل ، ثم نسخ ذلك فى آخر السورة بما تيسر : أى وكان نزول ذلك بعد سنة ، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ليلة المعراج كما سيأتى . وجعل بعضهم ذلك من نسخ الناسخ فيصير منسوخات ، لما علمت أن آخر هذه السورة ناسخ لأولها ومنسوخ بفرض الصلوات الخمس .

واعترض بأن الأخبار دالة على أن قوله تعالى (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) إنما نزل بالمدينة يدل على ذلك قوله تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) لأن القتال فى سبيل الله إنما كان بالمدينة ، فقوله تعالى (فاقرءوا ماتيسر) اختيار لا إيجاب .

وقيل معنى (وتقلبك فى الساجدين) وتقلبك فى أركان الصلاة قائما وقاعدا وراكعا وساجدا فى الساجدين : أى فى المصلين ، فـفى الساجدين ليس متعلقا بتقلبك بل بساجد المحذوف .

لا يقال : يعارض جعل الساجدين عبارة عن المؤمنين أن من جملة آبائه صلى الله عليه وسلم آزر والد إبراهيم الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم وكان كافرا .

لأنا نقول : أجمع أهل الكتاب على أن آزر كان عمه ، والعرب تسمى العم أبا كما تسمى الخالة أما فقد حكى الله عن يعقوب عليه السلام أنه قال « وآبائى إبراهيم وإسماعيل » ومعلوم أن إسماعيل إنما هو عمه : أى ويدل لذلك أن أبا إبراهيم كان اسمه تارخ بالمثناة فوق والمعجمة كما عليه جمهور أهل النسب ، وقيل بالمهملة وعليه اقتصر الحافظ فى الفتح لا آزر ، لكن ادعى بعضهم أنه لقب له ، لأن آزر اسم صنم كان يعبده فصار له اسمان : آزر وتارخ كيعقوب وإسرائيل .

قال بعضهم : وقد تساهل من أخذ بظاهر الآية كالقاضى البيضاوى وغيره فقال : إن أبا إبراهيم مات على الكفر وما قيل إنه عمه فعدول عن الظاهر من غير دليل .

ويوافقه مافى النهر نقلا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن آزر كان اسم أبيه ، ويرد ذلك قول الحافظ السيوطى رحمه الله : يستنبط من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ربنا اغفرى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وكان ذلك بعد موت عمه بمدة طويلة ، أن المذكور فى القرآن بالكفر والتبرى من الاستغفار له : أى فى قوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) هو عمه لا أبوه الحقيقى . قال : فلله الحمد على ما ألهم : أى ولا يخفى أن هذا لايتم إلا إذا كان أبوه الحقيقى حيا وقت التبرى منه ، وأن التبرى سببه الموت : أى موت عمه على الكفر لاالوحى بأنه يموت كافرا فليتأمل ، وحينئذ يكون أبوه الحقيقى هو المعنى بقول أبى هريرة : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم . أن قال لما رأى ولده وقد ألقى فى النار أى على تلك الحالة أى فى روضة خضراء وحوله النار : لم تحرق منه إلا كتافه نعم الرب ربك يا إبراهيم ،وكان سنه حين ألقى فى النار ست عشرة سنة كما فى الكشاف . وفى كلام غيره كان سنه ثلاثين سنة بعد ماسجن ثلاث عشرة سنة .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « إن قريشا كانت نورا بين يدى الله تعالى

قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بألفى عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور فى صلبه ، قال صلى الله عليه وسلم : فأهبطنى الله تعالى إلى الأرض فى صلب آدم ، وجعلنى فى صلب نوح ، وقذفنى فى صلب إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من بين أبوى لم يلتقيا على سفاح قط » .

أقول : قوله صلى الله عليه عليه وسلم « فأهبطنى » ينبغى أن لا يكون معطوفا على ماقبله من قوله «إن قريشا كانت نورا بين يدى الله تعالى الخ » فيكون نوره صلى الله عليه وسلم من جملة نور قريش ، وإنه صلى الله عليه وسلم انفرد عن نور قريش وأودع فى صلب نوح عليه الصلاة والسلام الخ ، بل على ما يأتى من قوله « كنت نوارا بين يدى ربى قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام » اللازم لذلك أن يكون نوره سابقا على نور قريش ، ويكون نور قريش من نوره صلى الله عليه وسلم .

وحكمة اقتصاره صلى الله عليه وسلم على من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تخفى . وهى أنهم آباء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمن ذرية نوح هود وصالح عليهما الصلاة والسلام ، ومن ذرية إبراهيم إسمعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وهرون بناء على أنه شقيق موسى أو لأبيه وإلا فسيأتى أن نوره انتقل إلى شيث ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم من ذرية إسمعيل.

وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كنت نورا بين يدى ربى قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأربعة عشر ألف عام » ورأيت فى كتاب التشريفات فى الخصائص والمعجزات لم أقف على اسم مؤلفه ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ياجبريل كم عمرت من السنين ؟ فقال يارسول الله لست أعلم ، غير أن فى الحجاب الرابع نجما يطلع فى كل سبعين ألف سنة مرة ، رأيته اثنين وسبعين ألف مرة فقال : ياجبريل وعزة ربى جل جلاله أنا ذلك الكوكب » رواه البخارى ، هذا كلامه ، فلما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام جعل ذلك النور فى ظهره : أى فهو حالة كونه نورا سابق على قريش حالة كونها نورا ، بل سيأتى ما يدل على أن نوره صلى الله عليه وسلم سابق على سائر المخلوقات ، بل وتلك المخلوقات خلقت من ذلك النور آدم وذريته وحينئذ يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره صلى الله عليه وسلم ، وجعل نوره

صلى الله عليه وسلم فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام ، فقد تقدم فى الخبر «لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور فى ظهره» أى فكان يلمع فى جبينه فيغلب على سائر نوره الخ مايأتى ، ثم انتقل إلى ولده شيث الذى هو وصيه ، وكان من جملة ماأوصاه به أنه يوصى من انتقل إليه ذلك النور من ولده أنه لايضع ذلك النور الذى انتقل إليه إلا فى المطهرة من النساء ، ولم تزل هذه الوصية معمولا بها فى القرون الماضية إلى أن وصل ذلك النور إلى عبد المطلب : أى وهذا السياق يدل على أن ذلك النور كان ظاهرا فيمن ينتقل إليه من آبائه ، وهو قد يخالف ما تقدم من تخصيص بعض آبائه بذلك ، ولم تلد حواء ولدا مفردا إلا شيثا كرامة لهذا النور ، قيل مكث فى بطنها حتى نبتت أسنانه وكان ينظر إلى وجهه من صفاء بطنها وهو الثالث من ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، وكانت تلد ذكرا وأنثى معا : أى فقد قيل إنها ولدت لآدم أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، وقيل ولدت مائة وعشرين ولدا ، وقيل مائة وثمانين ولدا ، وقيل خمسمائة . ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما مات بكى عليه من ولده وولد ولده أربعون ألفا ، ولم يحفظ من نسل آدم إلا ما كان من صلب شيث دون إخوته : أى فإنهم لم يعقبوا أصلا فهو أبو البشر .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال «قلت يارسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ؟ قال : ياجابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث ، وفيه أنه أصل لكل موجود ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واختلف الناس فى عد طبقات أنساب العرب وترتيبها ، والذى فى الأصل عن الزبير بن بكار أنها ست طبقات ، وأن أولها شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة بكسر العين المهملة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة قال : وقد نظمها الزين العراقى فى قوله :

للعرب العربا طباق عدة فصلها الزبير وهى ستة
أعم ذاك الشعب فالقبيلة عمارة بطن فخذ فصيلة

أى فالشعب أصل القبائل ، والقبيلة أصل العمارة ، والعمارة أصل البطون ، والبطن أصل الفخذ ، والفخذ أصل الفصيلة ، فيقال : مضر شعب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى وقيل شعبه خزيمة ، وكنانة قبيلته صلى الله عليه وسلم ، وقريش عمارته صلى الله عليه وسلم ، وقصى بطنه صلى الله عليه وسلم ، وهاشم فخذه صلى الله عليه وسلم ،

وبنو العباس فصيلته صلى الله عليه وسلم . وقيل بعد الفصيلة العشيرة ، وليس بعد العشيرة شيء . وقيل بعدها الفصيلة قال : ثم الرهط . وزاد بعضهم الذرية والعترة والأسرة ، ولم يرتب بينها . وقد ذكرها محمد بن سعد اثنى عشر فقال : الجذم ، ثم الجمهور ، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة ، ثم الرهط ، ثم الأسرة ، ثم الذرية ، وسكت عن العترة .

وفى كلام بعضهم : الأسباط بطون بنى إسرائيل ، والشعب فى لسان العرب : الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان والأوراق ، والقبائل بطون العرب والشعوب بطون العجم ، فيتأمل .

باب تزويج عبد الله أبى النبى صلى الله عليه وسلم آمنة أمه صلى الله عليه وسلم وحفر زمزم وما يتعلق بذلك

قيل خرج عبد المطلب ومعه ولده عبد الله ، وكان أحسن رجل فى قريش خلقا ، وخلقا ، وكان نور النبى صلى الله عليه وسلم بينا فى وجهه . وفى رواية أنه كان أحسن رجل رئاء بكسر الراء وبضمها ثم همزة مفتوحة : منظرا فى قريش . وفى رواية أنه كان أكمل بنى أبيه ، وأحسنهم وأعفهم ، وأحبهم إلى قريش ؛ وقد هدى الله تعالى والده فسماه بأحب الأسماء إلى الله تعالى . ففى الحديث « أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن » وهو الذبيح .

وذلك لأن أباه عبد المطلب حين أمر فى النوم بحفر زمزم بئر إسمعيل عليه السلام : أى لأن الله تعالى أخرج زمزم لإسمعيل بواسطة جبريل كما يأتى إن شاء الله تعالى فى بناء الكعبة ، أخرج زمزم مرتين : مرة لآدم ، ومرة لإسمعيل عليهما الصلاة والسلام ، وكانت جرهم قد دفنتها : أى فإن جرهما لما استخفت بأمر البيت الحرام ، وارتكبوا الأمور العظام ، قام فيهم رئيسهم مضاض بكسر الميم وحكى ضمها ، ابن عمرو خطيبا : ووعظهم فلم يرعووا فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا فى الكعبة وما وجد فيها من الأموال : أى السيوف والدروع على ما سيأتى التى كانت تهدى إلى الكعبة ودفنها فى بئر زمزم .

وفى مرآة الزمان أن هاتين الغزالتين أهداهما للكعبة وكذا السيوف ساسان أول ملوك الفرس الثانية . ورد بأن الفرس لم يحكموا على البيت ولا حجوه هذا كلامه . وفيه أن هذا لا ينافى ذلك ، فيتأمل . وكانت بئر زمزم نضب ماؤها : أى ذهب فحفرها مضاض بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك : أى ودفن الحجر الأسود أيضا كما قيل ، وطم البئر ، واعتزل قومه فسلط الله تعالى عليهم خزاعة ، فأخرجتهم من الحرم ، وتفرقوا وهلكوا كما تقدم ، ثم لازالت زمزم مطمومة لا يعرف محلها مدة خزاعة ومدة قصى ، ومن بعده إلى زمن عبد المطلب . ورؤياه التى أمر فيها بحفرها . قيل وتلك المدة خمسمائة سنة : أى وكان قصى احتفر بئرا فى الدار التى سكنتها أم هانىء أخت على رضى الله تعالى عنهما ، وهى أول سقاية احتفرت بمكة .

فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال احفر طيبة ، فقلت : وما طيبة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر برة ، فقلت : وما برة فذهب وتركنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى وقال احفر المضنونة ، فقلت : وما المضنونة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر زمزم ، فقلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف ، ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل . وقوله لاتنزف : أى لايفرغ ماؤها ، ولايلحق قعرها .

وفيه أنه ذكر أنه وقع فيها عبد حبشى فمات بها وانتفخ فنزحت من أجله ، ووجدوا قعرها فوجدوا ماءها يفور من ثلاثة أعين ، أقواها وأكثرها التى من ناحية الحجر الأسود .

وقوله ولا تذم بالذال المعجمة : أى لا توجد قليلة الماء ، من قولهم : بئر ذمة أى قليلة الماء قيل وليس المراد أنه لايذمها أحد ، لأن خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق من جهة الوليد بن عبد الملك ذمها وسماها أم جعلان ، واحتفر بئرا خارج مكة باسم الوليد بن عبد الملك ، وجعل يفضلها على زمزم ويحمل الناس على التبرك بها .

وفيه أن هذا جراءة منه على الله تعالى وقلة حياء منه ، وهو الذى كان يعلن ويفصح بلعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه على المنبر ، فلا عبرة بذمه .

وقيل لزمزم طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم ، وقيل لها برة لأنها فاضت

للأبرار ، وقيل لها المضنونة لأنها ضن بها على غير المؤمنين ، فلا يتضلع منها منافق . وقد جاء فى رواية «يقول الله تعالى ضننت بها على الناس إلا عليك» ولعل المراد إلا على أتباعك ، فيكون بمعنى ما قبله . وفى رواية أنه قيل لعبد المطلب احفر زمزم ، ولم يذكر له علامتها فجاء إلى قومه وقال لهم : إنى قد أمرت أن أحفر زمزم ، قالوا : فهل بين لك أين هى ؟ قال لا ، قالوا فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فإن يكن حقا من الله تعالى بين لك ، وإن يكن من الشيطان فلن يعود إليك ، فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتاه فقال احفر زمزم إنك إن حفرتها لن تندم ، وهى ميراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم » فقال عبد المطلب : أين هى؟ فقال : هى بين الفرث والدم ، عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم غدا : أى والأعصم ، قيل أحمر المنقار والرجلين ، وقيل أبيض البطن ، وعلى هذا اقتصر الإمام الغزالى حيث قال فى قوله صلى الله عليه وسلم « مثل المرأة الصالحة فى النساء مثل الغراب الأعصم بين مائة غراب » يعنى الأبيض البطن ، هـــذا كلامه . وقيل الأعصم أبيض الجناحين ، وقيل أبيض إحدى الرجلين ، فلما كان الغد ذهب عبد المطلب وولده الحارث ليس له ولد غيره ، فوجد قرية النمل ، ووجد الغراب ينقر عندها بين الفرث والدم : أى فى محلهما وذلك بين إساف ونائلة : الصنمين اللذين تقــدم ذكرهما ، وتقدم أن قريشا كانت تذبح عندهما ذبائحها : أى التى كانت تتقرب بها ، وهذا يبعد ما جاء فى رواية أنه لما قام بحفرها رأى مارسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ، ولم ير الفرث والدم فبينما هو كذلك ندت بقرة من ذابحها فلم يدركها حتى دخلت المسجد فنحرها فى الموضع الذى رسم له .

وقد يقال لا يبعد لأنه يجوز أن يكون فهم أن يكون الفرث والدم موجودين بالفعل فلا يلزم من كون المحل المذكور محلهما وجودهما فيه فى ذلك الوقت ، فلم يكتف بنقرة الغراب فى محلهما ، فأرسل الله له تلك البقرة ليرى الأمر عيانا .

وذكر السهيلى رحمه الله لذكر هذه العلامات الثلاث حكمة لا بأس بها ، ولعل إسافا ونائلة نقلا بعد ذلك إلى الصفا والمروة بعد أن نقلهما عمرو بن لحى من جوف الـكعبة إلى المحل المذكور ، فلا يخالف ماذكره القاضى البيضاوى وغيره أن إسافا كان على الصفا ونائلة على المروة ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما : أى ومن ثم لما جاء الاسلام

وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف أى السعى بينهما ، وقالوا يارسول الله هذا كان شعارنا فى الجاهليـة لأجل التمسح بالصنمين ، فأنزل الله تعالى - إن الصفا والمروة من شعائر الله -الآية . ويقال إن بقرة نحرت بالحزورة بوزن قسورة فانفلتت ودخلت المسجد فى موضع زمزم فوقعت مكانها ، فاحتمل لحمها ، فأقبل غراب أعصم فوقع فى الفرث فليتأمل الجمع .

وقد يقال : لامنافاة ، لأن قوله فى الرواية الأولى : فندت بقرة من ذابحها : أى ممن شرع فى ذبحها ولم يتمه حتى دخلت المسجد فنحرها : أى تمم ذبحها ، فقد نحرت بالحزورة وبالمسجد أو يراد بنحرها فى الحزورة ذبحها ، وبنحرها فى المسجد سلخها وتقطيع لحمها فقد رأينا الحيوان بعد ذبحه يذهب إلى موضع آخر ثم يقع به ، وعند ذلك جاء عبد المطلب بالمعول وقام ليحفر ، فقامت إليـه قريش ، فقالوا له : والله لانتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لولده الحرث ذد عنى : أى امنع عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به ، فلما رأوه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الطى : أى البناء ، فكبر وقال هـذا طى إسمعيل عليه السلام : أى بناؤه ، فعرفت قريش أنه أصاب حاجته ، فقاموا إليـه وقالوا والله ياعبد المطلب إنها بئر أبينا إسمعيل ، وإن لنافيها حقا فأشركنا معك ، فقال : ما أنا بفاعل ، إن هـذا الأمر قد خصصت به دونكم ، فقالوا نخاصمك فيها ، فقال : اجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم وكانت بأعالى الشام : أى ولعلها التى لما حضرتها الوفاة طلبت شقا وسطيحا وتفلت فى فيهما ، وذكرت أن سطيحا يخلفها فى كهانتها ثم ماتت فى يومها ذلك ، وسطيح سيأتى ترجمته . وأما شق فقيل له ذلك ، لأنه كان شق إنسان ، يدا واحدة ، ورجلا واحدة ، وعينا واحدة ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، وكان إذ ذاك مابين الحجاز والشام مفازات لاماء بها ، فلما كان عبد المطلب ببعض تلك المفاوز فنى ماؤه وماء أصحابه ، فظمئوا ظمأ شديدا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستقوا ممن معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا نخشى على أنفسنا مثل ماأصابكم ، فقال عبد المطلب لأصحابه ماترون ؟ قالوا ، مارأينا إلا تبع لرأيك ، فقال : إنى أرى أن يحفر كل أحد منكم حفيرة يكون فيها إلى أن يموت فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلا

واحدا فضيعة رجل واحد : أى يترك بلا مواراة أيسر من ضيعة ركب جميعا ، فقالوا نعم ما أمرت به فحفر كل حفيرة لنفسه ثم قعدوا ينتظرون الموت ، ثم قال عبد المطلب لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا إلى الموت لعجز ، فلنضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ، فانطلقوا ، كل ذلك وقومهم ينظرون إليهم ماهم فاعلون . فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه وملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا لعبد المطلب قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب ، والله لانخاصمك فى زمزم أبدا ، إن الذى سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشدا ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، فلما جاء وأخذ فى الحفر وجد فيها الغزالتين من الذهب اللتين دفنتهما جرهم ، ووجد فيها أسيافا وأدراعا ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شرك ، فقال : لا ، ولكن هلموا إلى أمر نصف بينى وبينكم . والنصف : بكسر النون وسكون الصاد المهملة وبفتحها النصفة بفتحات نضرب عليها بالقداح قالوا : كيف تصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له ، قالوا أنصفت ، فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوها لصاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل : أى وجعلوا الغزالتين قسما والأسياف والأدراع قسما آخر ، وقام عبد المطلب يدعو ربه بشعر مذكور فى الإمتاع ، فضرب صاحب القداح ، فخرج الأصفران على الغزالتين ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع ، وتخلف قدحا قريش ، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالتين ، فكان أول ذهب حليت به الكعبة ذلك . ومن ثم جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : والله إن أول من جعل باب الكعبة ذهبا لعبد المطلب .

وفى شفاء الغرام أن عبد المطلب علق الغزالتين فى الكعبة ، فكان أول من علق المعاليق بالكعبة ، وسيأتى الجمع بين كونهما علقا بالكعبة وبين جعلهما حليا لباب الكعبة وقد كان بالكعبة بعد ذلك معاليق ؛ فإن عمر رضى الله تعالى عنه لما فتحت مدائن كسرى كان مما بعث إليه منها هلالان فعلقا بالكعبة ، وعلق بها عبد الملك بن مروان شمستين وقدحين من قوارير ، وعلق بها الوليد بن يزيد سريرا

وعلق بها السفاح صحفة خضراء ، وعلق بها المنصور القارورة الفرعونية ، وبعث المأمون ياقوتة كانت تعلق كل سنة فى وجه الكعبة فى زمن الموسم فى سلسلة من ذهب .

ولما أسلم بعض الملوك فى زمنــه أرسل إليها بصنمه الذى كان يعبده ، وكان من ذهب متوجا ومكللا بالجواهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد ، فجعل فى خزانة الكعبة .

ثم إن الغزالتين سرقتا وأبيعتا من قوم تجار قدموا مكة بخمر وغيرها ، فاشتروا بثمنها خمرا .

وقد ذكر أن أبا لهب مع جماعة نفدت خمرهم فى بعض الأيام ، وأقبلت قافلة من الشام معها خمر ، فسرقوا غزالة واشتروا بها خمرا ، وطلبتها قريش ، وكان أشدهم طلبا لهــا عبد الله بن جدعان ، فعلموا بهم فقطعوا بعضهم وهرب بعضهم ؛ وكان فيمن هرب أبو لهب : هرب إلى أخواله من خزاعة فمنعوا عنه قريشا ، ومن ثم كان يقال لأبى لهب سارق غزالة الكعبة .

وقد قيل منافع الخمر المذكورة فيها أنهم كانوا يتغالون فيها إذا جلبوها من النواحى لكثرة مايربحون فيها لأنه كان المشترى إذا ترك المماكسة فى شرائها عدوه فضيلة له ومكرمة فكانت أرباحهم تتكثر بسبب ذلك .

وماقيل فى منافعها أنها تقوى الضعيف ، وتهضم الطعام ، وتعين على الباه ، وتسلى المحزون ، وتشجع الجبان ، وتصفى اللون ، وتنعش الحرارة الغريزية ، وتزيد فى الهمة والاستعلاء ، فذلك كان قبل تحريمها ، ثم لما حرمت سلبت جميع هذه المنافع ، وصارت ضررا صرفا ، ينشأ عنها الصداع والرعشة فى الدنيا لشاربها ، وفى الآخرة يسقى عصارة أهل النــار .

وفى كلام بعضهم : من لازم شربها حصل له خلل فى جوهر العقل ، وفساد الدماغ والبخر فى الفم ، وضعف البصر والعصب ، وموت الفجاءة ومميتة للقلب ، ومسخطة للرب ، ومن ثم جاء أنها أى الخمرة ليست بدواء ولكنها داء . وجاء «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » أى كان مغلقا . وجاء « الخمر أم الفواحش » وفى رواية « أم الخبائث » وجاء فى الخمر « لا طيب الله من تطيب بها ، ولا شفى الله من استشفى بها » .

وقد قيل لا منافاة بين كون الغزالتين علقتا فى الكعبة وسرقتا أو سرقت إحداهما ،

وبين كون عبد المطلب جعلهما حليا للباب ، لأنه يجوز أن يكون عبد المطلب استخلص الغزالتين أو الغزالة من التجار ، ثم جعلهما حليا للباب بعد أن كان علقهما .

وفى الإمتاع : وكان الناس قبل ظهور زمزم تشرب من آبار حفرت بمكة ، وأول من حفر بها بئرا قصى كما تقدم ، وكان الماء العذب بمكة قليلا . ولما حفر عبد المطلب زمزم بنى عليها حوضا وصار هو وولده يملآنه فيكسره قوم من قريش ليلا حسدا فيصلحه نهارا حين يصبح ، فلما أكثروا من ذلك وجاء شخص واغتسل به غضب عبد المطلب غضبا شديدا فأرى فى المنام أن قل : اللهم إنى لا أحلها لمغتسل وهى لشاربه حل وبل : أى حلال مباح ثم كفيتهم ، فقام عبد المطلب حين اختلفت قريش فى المسجد ونادى بذلك ، فلم يكن يفسد حوضه أحد ، أو اغتسل إلا رمى فى جسده بداء .

ثم إن عبد المطلب لما قال لولده الحرث ذد عنى : أى امنع عنى حتى أحفر ، وعلم أنه لاقدرة له على ذلك نذر إن رزق عشرة من الولد الذكور يمنعونه ممن يتعالى عليه ليذبحن أحدهم عند الكعبة .

أى وقيل إن سبب ذلك أن عدى بن نوفل بن عبد مناف أبا المطعم قال له : يا عبد المطلب تستطيل علينا وأنت فذ لاولد لك: أى متعدد ، بل لك ولدا واحدا ولامال لك ، وما أنت إلا واحد من قومك ، فقال له عبد المطلب : أتقول هذا ، وإنما كان نوفل أبوك فى حجر هاشم : أى لأن هاشما كان خلف على أم نوفل وهو صغير ، فقال له عدى : وأنت أيضا قد كنت فى يثرب عند غير أبيك كنت عند أخوالك من بنى النجار ، حتى ردك عمك المطلب ؛ فقال له عبد المطلب : أو بالقلة تعيرنى ، فلله على النذر لئن آتانى الله عشرة من الأولاد الذكور لأنحرن أحدهم عند الكعبة . وفى لفظ : أن أجعل أحدهم لله نحيرة .

قيل إن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله له حفر زمزم ، فعن معاوية رضى الله عنه أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولد ، فلما صاروا عشرة : أى وحفر زمزم أمر فى اليوم بالوفاء بنذره : أى قيل له قرّب أحد أولادك : أى بعد أن نسى ذلك وقد قيل له قبل ذلك : أوف بنذرك ، فذبح كبشا أطعمه الفقراء ثم قيل له فى النوم : قرب ماهو أكبر من ذلك فذبح ثورا ، ثم قيل له فى النوم قرب ماهو أكبر من ذلك فذبح جملا ، ثم قيل له فى النوم قرب ماهو أكبر من ذلك

فقال : وما هو أكبر من ذلك ؟ فقيل له قرب أحد أولادك الذى نذرت ذبحه ، فضرب القداح على أولاده بعد أن جمعهم وأخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء وأطاعوه .

ويقال إن أول من أطاعه عبد الله وكتب اسم كل واحد على قدح ، ودفعت تلك القداح للسادن والقائم بخدمة هبل ، وضرب بتلك القداح ، فخرجت على عبد الله : أى وكان أصغر ولده ، وأحبهم إليه مع ما تقدم من أوصافه ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به على إساف ونائلة وألقاه على الأرض ، ووضع رجله على عنقه ؛ فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر فى وجهه شجة لم تزل فى وجه عبد الله إلى أن مات ، كذا قيل .

وفيه أن العباس لما ولد صلى الله عليه وسلم كان عمره ثلاث سنين ونحوها ، فعنه رضى الله عنه : أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أونحوها فجيء به حتى نظرت إليه وجعلت النسوة يقلن لى قبل أخاك فقبلته ، وقيل منعه أخواله بنو مخزوم وقالوا له : والله ما أحسنت عشرة أمه ، وقالوا له أرض ربك وافد ابنك ، ففداه بمائة ناقة ، وفى رواية « وأعظمت قريش ذلك » أى وقامت سادة قريش من أنديتها إليه ومنعوه من ذلك وقالوا له : والله لا نفعل حتى تستفتى فيه فلانة الكاهنة أى لعلك تعذر فيه إلى ربك لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه أى ويكون سنة ، ولعل المراد إذا وقع له مثل ما وقع لك من النذر وقال له بعض عظماء قريش لا تفعل إن كان فداؤه بأموالنا فديناه ، وتلك الكاهنة قيل اسمها قطبة وقيل غير ذلك كانت بخيبر فأتها فاسألها فإن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته ، فأتاها أى مع بعض قومه وفيهم جماعة من أخوال عبد الله بن مخزوم ، فسألها وقص عليها القصة فقالت : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتى تابعى فأسأله ، فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبر كم الدية فيكم ؟ فقالوا عشرة من الإبل ، فقالت تخرج عشرة من الإبل وتقدح ، وكلما وقعت عليه يزاد الإبل حتى تخرج القداح عليها ، فضرب على عشرة فخرجت عليه فما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها ، فقالت قريش ومن حضره قد انتهى رضا ربك ، فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات : أى ففعل ذلك وذبح الإبل عند الكعبة لايصد عنها أحد ، أى من آدمى ووحش وطير . قال الزهرى : فكان

عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل : أى بعد أن كانت عشرة كما تقدم وقيل أول من سن ذلك أبو يسار العدوانى . وقيل عامر بن الظرب ، فجرت فى قريش : أي وعلى ذلك فأولية عبد المطلب إضافية ثم فشت فى العرب ، وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأول من ودى بالإبل عن العرب زيد بن بكر من هوازن قتله أخوه : أى وأما ما قيل إن القدح بعد المائة خرج على عبد الله أيضا ، ولا زال يخرج عليه حتى جعلوا الإبل ثلثمائة ، فخرج على الإبل فنحرها عبد المطلب فضعيف جدا .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ابن عباس رضى الله عنهما سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل أخذا من هذه القصة ثم سألت عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن ذلك فلم يفتها بشىء فبلغ مروان بن الحكم وكان أميرا على المدينة ، فأمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير بدل ذبح ولدها وقال : إن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما لم يصيبا الفتيا ، ولا يخفى أن هذا نذر باطل عندنا معاشر الشافعية فلا يلزمها به شىء .

وعند أبى حنيفة ومحمد يلزمها ذبح شاة فى أيام النحر فى الحرم أخذا من قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال القاضى البيضاوى : وليس فيه ما يدل عليه .

وفى الكشاف أنه صلى الله عليه وسلم قال « أنا ابن الذبيحين » أى عبد الله وإسمعيل وعن بعضهم قال : كنا عند معاوية رضى الله تعالى عنه فتذاكر القوم الذبيح هل هو إسمعيل أو إسحق ، فقال معاوية على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابى : أى يشكو جدب أرضه ، فقال : يارسول الله خلفت البلاد يابسة هلك المال وضاع العيال ، فعد على مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه ، فقال القوم من الذبيحان يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الله وإسمعيل . قال الحافظ السيوطى : هذا حديث غريب ، وفى إسناده من لا يعرف حاله

قال بعضهم : لما أحب إبراهيم ولده إسمعيل بطبع البشرية أى لاسيما وهو بكره ووحيده إذ ذاك ، وقد أجرى الله العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالد : أى وخصوصا إذا كان لا ولد له غيره ، أمره الله بذبحه ليخلص سره من حب غيره بأبلغ الأسباب الذى هو الذبح للولد ، فلما امتثل وخلص سره له ورجع عن عادة الطبع

فداه بذبح عظيم ، لأن مقام الخلة يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة ، فلما خلصت الخلة من شائبة المشاركة لم يبق فى الذبح مصلحة فنسخ الأمر وفدى هذا .

وجاء مما يدل على أن الذبيح إسحق حديث « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أىّ النسب أشرف » وفى رواية « من أكرم الناس ؟ فقال : يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله عليهم الصلاة والسلام » كذا روى .

قال بعضهم والثابت : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وما زاد على ذلك من الراوى .

وما ذكر أن يعقوب لما بلغه أن ولده بنيامين أخذ بسبب السرقة كتب إلى العزيز وهو يومئذ ولده يوسف : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، إلى عزيز مصر . أما بعد : فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فربطت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليذبح ، ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلىّ فذهب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به ، وإنك حبسته ، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا ، فإن رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام لم يثبت .

فى كلام القاضى البيضاوى ، وما روى أن يعقوب كتب ليوسف من يعقوب ابن إسحق ذبيح الله لم يثبت : أى ولعله لم يثبت أيضا ما فى (أنس الجليل) أن موسى لما أراد مفارقة شعيب وذهابه إلى وطنه بمملكة فرعون بسط شعيب يديه وقال : يارب إبراهيم الخليل ، وإسمعيل الصفى ، وإسحق الذبيح ، ويعقوب الكظيم ، ويوسف الصديق رد على قوتى وبصرى فأمّن موسى على دعائه ، فرد الله عليه بصره وقوّته .

وذكر أن يعقوب رأى ملك الموت فى منامه ، فقال له : هل قبضت روح يوسف؟ فقال لا والله هو حى وعلمه ما يدعو به وهو : ياذا المعروف الدائم الذى لاينقطع معروفه أبدا ، ولايحصيه غيره فرج عنى .

وذكر أن سبب ذبح إسحق أى على القول بأنه الذبيح أن الخليل قال لسارة إن

جاءنى منك ولد فهو لله ذبيح ، فجاءت سارة بإسحق ، وكان بينه وبين ولادة هاجر لإسمعيل ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة ، وإسحق اسمه بالعبرانية الضحاك . وجاء فى حديث راويه ضعيف « الذبيح إسحق » وأن داود سأل ربه فقال أى ربى اجعلنى مثل آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فأوحى الله إليه إنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر ، وابتليت إسحق بالذبح فصبر ، وابتليت يعقوب : أى بفقد ولده يوسف فصبر الحديث .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وبشرناه باسحق نبيا) قال بشربه نبيا حين فداه الله تعالى من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده : أى لما صبر الأب على ما أمر به وسلم الولد لأمر الله تعالى جعلت المجازاة على ذلك بإعطاء النبوة . قال الحافظ السيوطى : وجزم بهذا القول عياض فى الشفاء ، والبيهقى فى التعريف والإعلام ، وكنت ملت إليه فى علم التفسير ، وأنا الآن متوقف عن ذلك أى كون إسحق هو الذبيح ، هذا كلامه . وقد تنبأ كل من إسمعيل وإسحق ويعقوب فى حياة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فبعث الله إسمعيل لجرهم ، وإسحق إلى أرض الشام ، ويعقوب إلى أرض كنعان . ولا ينافى ذلك أى كون إسحق هو الذبيح تبسمه صلى الله عليه وسلم من قول القائل له يا ابن الذبيحين ولم ينكر عليه ، لأن العرب كما تقدم تسمى العمّ أبا .

وفى الهدى : إسمعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجها . ونقل عن الإمام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم الذى هو التوراة ، فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره . وفى لفظ وحيده ، وقد حرفوا ذلك فى التوراة التى بأيديهم اذبح إبنك إسحق ، أى ومن ثم ذكر المعافى بن زكريا أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلا أسلم من علماء اليهود أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلمون أنه إسمعيل ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم للفضل الذى ذكره الله تعالى عنه ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم ، ولى رسالة فى ذلك سميتها [القول المليح فى تعيين الذبيح] رجحت فيها القول بأن الذبيح إسماعيل جوابا عن سؤال رفعه إلى بعض الفضلاء .

وعلى أن الذبيح إسمعيل فحل الذبح بمنى . وعلى أنه إسحق فحله معروف بالأرض المقدسة على ميلين من بيت المقدس .

وفى كلام ابن القيم تأييد كون الذبيح إسمعيل لا إسحاق ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة .

واستشكل كون أولاد عبد المطلب عند إرادة ذبح عبد الله كانوا عشرة بأن حمزة ثم العباس إنما ولدا بعد ذلك ، وإنما كانوا عشرة بهما ، وحينئذ يشكل قول بعضهم : فلما تكامل بنوه عشرة وهم الحرث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله هذا كلامه .

وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون له حينئذ أى عند إرادة الذبح ولدا ولد : أى فقد ذكر أن لولده الحرث ولدين أبو سفيان ونوفل ، وولد الولد يقال له ولد حقيقة ، هذا .

وذكر بعضهم أن أعمامه صلى الله عليه وسلم كانوا اثنى عشر ، بل قيل ثلاثة عشر ، وأن عبد الله ثالث عشرهم ، وعليه فلا إشكال ، ولا يشكل كون حمزة أصغر من عبد الله والعباس أصغر من حمزة ، وكلاهما أصغر من عبد الله ، على ما تقدم من أن عبد الله كان أصغر بنى أبيه وقت الذبح ، لأنه يجوز أن يكون المراد أنه كان أصغرهم حين أراد ذبحه : أى لا بقيد كونهم عشرة أو بذلك القيد . ولا ينافيه كونه ثالث عشرهم ، لأن المراد به واحد من الثلاثة عشر . وكان عبد الله كما تقدم أحسن فتى يرى فى قريش وأجملهم ، وكان نور النبى صلى الله عليه وسلم يرى فى وجهه كالكوكب الدرى : أى المضىء المنسوب إلى الدر ، حتى شغفت به نساء قريش ، ولقى منهن عناء ، ولينظر ما هـذا العناء الذى لقيه منهن .

قيل إنه لما تزوج آمنة لم تبق امرأة من قريش من بنى مخزوم وعبد شمس وعبد مناف إلا مرضت : أى أسفا على عدم تزوجها به ، فخرج مع أبيه ليزوجه آمنة بنت وهب ابن عبدمناف بن زهرة ، بضم الزاى وإسكان الهاء . وأما الزهرة التى هى النجم فبضم الزاى وفتح الهاء . والزهرة فى الأصل هى البياض : أى وأم وهب اسمها قيلة بنت أبى كبشة : أى وكان عمر عبد الله حينئذ نحو ثمان عشرة سنة [ ] فمر على امرأة من بنى أسد ابن عبد العزى أى يقال لها قتيلة ، وقيل رقية ؛ وهى أخت ورقة بن نوفل وهى عند

الكعبة ، وكانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن فى هذه الأمة نبى أى وأن من دلائله أن يكون نورا فى وجه أبيه ، أو أنها ألهت ذلك ، فقالت لعبد الله : أى وقد رأت نور النبوة فى غرته [ ] أين تذهب ياعبد الله ؟ قال : مع أبى ، قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن ، قال أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ، وأنشد :

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لاحـل فأستبينه
يحمى الكريم عرضه ودينه ... فكيف بالأمن الذى تبغينه

قال : ومن شعر عبد الله والده صلى الله عليه وسلم كما فى تذكرة الصلاح الصفدى :

لقد حكم البادون فى كل بلدة ... بأن لنا فضلا على سادة الأرض
وأن أبى ذوالمجد والسودد الذى ... يشار به مابين نشز إلى خفض

أى ارتفاع وانخفاض .

وعن أبى يزيد المدينى أن عبد المطلب لما خرج بابنه عبد الله ليزوجه ، فمر به على امرأة كاهنة من أهل تبالة : بضم التاء المثناة فوق بلدة باليمن قد قرأت الكتب ، يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله ، فقالت له : يافتى هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله ماتقدم اهـ .

أقول : قال الكلبى : كانت أى تلك الكاهنة من أجمل النساء وأعفهن ، فدعته إلى نكاحها فأبى . ولامنافاة ، لأنه جاز أن تكون أرادت بقولها وقع على الآن أى بعد النكاح وفهم عبد الله أنها تريد الأمر من غير سبق نكاح ، فأنشد الشعر المتقدم الدال على طهارته وعفته ، وهـذا بناء على اتحاد الواقعة ، وأن المرأة فى هاتين الواقعتين واحدة ، وأنه اختلف فى اسمها ، وأنه مر على تلك المرأة فى ذهابه مع أبيه ليزوجه آمنة ، ويدل لذلك « فأتى المرأة التى عرضت عليه ماعرضت » .

وظاهر سياق المواهب يقتضى أنهما قضيتان ، وأن الأولى عند انصرافه مع أبيه ليزوجه آمنة .

وقوله قد قرأت الكتب : أى فجاز أنها رأت فى تلك الكتب أن النبى صلى الله عليه وسلم المنتظر يكون نورا فى وجه أبيه ، وأنه يكون من أولاد عبد المطلب ، أو أنها ألهمت ذلك فطمعت أن يكون ذلك النبى منها ، ويؤيد الثانى ما سيأتى عنها ، والله أعلم .

فأتى عبد المطلب عم آمنة وهو وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وكانت فى حجره لموت أبيها وهب بن عبد مناف .

وقيل أتى عبد المطلب إلى وهب بن عبد مناف فزوجه ابنته آمنة ، وقدم هذا فى الاستيعاب ، فزوجها لعبد الله وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ، فدخل بها عبد الله حين أملك عليها مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل ذلك النور إليها .

قيل وقع عليها يوم الاثنين فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى .

أقول فيه : أنه سيأتى فى فتح مكة أنه نزل بالحجون ، بفتح الحاء المهملة عند شعب أبى طالب بالمكان الذى حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب .

ويمكن أن يقال : ذلك الشعب الذى كان فى الحجون كان محلا لسكن أبى طالب فى غير أيام منى ، وهذا الشعب الذى عند الجمرة الوسطى كان ينزل فيه أبو طالب أيام منى فلا مخالفة ، والله أعلم .

ثم أقام عندها ثلاثة أيام ، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته أى عند أهلها أى فهى وأهلها كانوا بشعب أبى طالب ، ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التى عرضت عليه ماعرضت ، فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ماعرضت بالأمس؟ فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى اليوم بك حاجة .

قال : وفى رواية أنه لما مر عليها بعد أن وقع على آمنة قال لها : مالك لا تعرضين على ماعرضت بالأمس ؟ قالت : من أنت ؟ قال : أنا فلان ، قالت له : ما أنت هو ، لقد رأيت بين عينيك نورا ما أراه الآن ، ماصنعت بعدى ؟ فأخبرها ، فقالت : والله ما أنا بصاحبة ريبة ، ولكن رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون فى ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، إذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض اه .

أقول : وفى رواية أن المرأة التى عرضت نفسها عليه هى ليلة العدوية ، وأن عبد الله كان فى بناء له وعليه الطين والغبار ، وأنه قال : حتى أغسل ماعلى وأرجع إليك ، وأنه رجع إليها بعد أن وقع على آمنة وانتقل منه النور إليها ، وقال لها : هل لك فيما قلت ، قالت : لا ، قال : ولم ؟ قالت : لقد دخلت بنور وماخرجت به .

أى وفى سيرة ابن هشام مررت بى وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها ، ولئن كنت أى وحيث كنت ألممت بآمنة لتلدن ملكا .

ولا يخفى أن تعدد الواقعة ممكن ، وأن هـــذا السياق يدل على أن هذه المرأة كان عندها علم بأن عبد الله تزوج آمنة ، وأنه يريد الدخول بها ، وأنها علمت أنه كائن نبي يكون له الملك والسلطان . وغير خاف أن عرض عبد الله نفسه على المرأة لم يكن لريبة ، بل ليستبين الأمر الذى دعاها إلى بذل القدر الكثير من الإبل فى مقابلة هذا الشيء على خلاف عادة النساء مع الرجال ، ولا يخالف ذلك ، بل يؤكده مافى الوفاء من قوله : ثم تذكر الخثعمية وجمالها وماعرضت عليه ، فأقبل إليها الحديث، والله أعلم .

وعن الكلبي أنه قال : كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم : أى من قبل أمه وأبيه ، فما وجدت فيهن سفاحا ، والمراد بالسفاح الزنا : أي فإن المرأة كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد [ ] ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية أى من نكاح الأم : أى زوجة الأب ، لأنه كان فى الجاهلية يباح إذا مات الرجل أن يخلفه على زوجته أكبر أولاده من غيرها . وفى كلام بعضهم : كان أقبح مايصنعه أهل الجاهلية الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوج بإمرأة الأب ويسمونه الضيزن. والضيزن: الذى يزاحم أباه فى امرأته . ويقال له نكاح المقت : وهو العقد على الرابة ، وهى امرأة الأب ، والراب : زوج الأم .

وما قيل إن هذا أى نكاح امرأة الأب وقع فى نسبه صلى الله عليه وسلم لأن خزيمة أحد آبائه صلى الله عليه وسلم لما مات خلف على زوجته أكبر أولاده وهو كنانة فجاء منها بالنضر فهو قول ساقط غلط ؛ لأن الذى خلف عليها كنانة بعد موت أبيه ماتت ولم تلد منه ، ومنشأ الغلط أنه تزوج بعدها بنت أخيها ، وكان اسمها موافقا لاسمها فجاء منها بالنضر .

وبهذا يعلم أن قول الإمام السهيلى نكاح زوجة الأب كان مباحا فى الجاهلية بشرع متقدم ولم يكن من المحرمات التى انتهكوها ولا من العظائم التى ابتدعوها ، لأنه أمر كان فى عمود نسبه صلى الله عليه وسلم ، فكنانة تزوج امرأة أبيه خزيمة ، وهى برة بنت مرة فولدت له النضر بن كنانة .

وهاشم أيضا قد تزوج امرأة أبيه واقدة فولدت له ضغيفة ، ولكن هذا خارج من عمود نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنها أى واقدة لم تلد جدا له صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا من نكاح لامن سفاح » ولذلك قال الله تعالى :

(ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف) أى إلا ماقد سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام .

وفائدة هذا الاستثناء أن لايعاب نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم أنه لم يكن فى أجداده صلى الله عليه وسلم من كان من بغية ولا من سفاح . ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن : أى مما لم يبح لهم إلا ماقد سلف نحو قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا) ولم يقل إلا ماقد سلف (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) ولم يقل إلا ماقد سلف ؛ ولا فى شىء من المعاصى التى نهى عنها إلا فى هذه . وفى الجمع بين الأختين ، لأن الجمع بين الأختين قد كان مباحا أيضا فى شرع من كان قبلنا .

وقد جمع يعقوب عليه السلام بين راحيل وأختها ليا ، فقوله « إلا ماقد سلف » التفات هذا المعنى ، هذا كلامه ، فلا التفات إليه ولا معوّل عليه. على أن قوله إن يعقوب جمع بين الأختين ينازعه قول القاضى البيضاوى : إن يعقوب عليه السلام إنما تزوج ليا بعد موت أختها راحيل .

وفى أسباب النزول للواحدى أن فى البخارى عن أسباط . قال المفسرون : كان أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها فألقى ثوبه على تلك المرأة وصار أحق بها من نفسها ومن غيرها ، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها من غير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت ، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضارّها لتفتدى منه ؛ فمات بعض الأنصار فجاء ولد من غيرها وطرح ثوبه عليها ، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ليضارها لتفتدى منه ، فأتت تلك المرأة وشكت حالها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى الآية (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) الآية .

وقيل توفى أبو قيس فخطب ابنه قيس امرأة أبيه ، فقالت : إنى أعدك ولدا ، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره ، فأتته فأخبرته ، فأنزل الله تعالى الآية .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : لقيت خالى يعنى أبا الدرداء رضى الله تعالى عنه ومعه الراية ، فقلت : أين تريد ؟ قال « أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أضرب عنقه » زاد فى رواية أحمد « وآخذ ماله » .

وذكر بعضهم أن فى الجاهلية كان إذا أراد الشخص أن يتزوج يقول خطب ، ويقول أهل الزوجة نكح ، ويكون ذلك قائما مقام الإيجاب والقبول .

ومن نكاح الجاهلية الجمع بين الأختين ، فإنه كان مباحا عندهم : أى مع استقباحهم له كما تقدم .

وذكر بعضهم أن قبل نزول التوراة كان يجوز الجمع بين الأختين : أى ثم حرم ذلك بنزولها . قال : وقد افتخر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجداته أى تحدث بنعمة ربه قاصدا به التنبيه على شرف هؤلاء النسوة وفضلهن على غيرهن ، فقال «أنا ابن العواتك والفواطم » .

فعن قتادة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرى فرسه مع أبى أيوب الأنصارى فسبقته فرس المصطفى ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنا ابن العواتك ، إنه لهو الجواد البحر يعنى فرسه » .

وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته أى فى غزوة حنين وفى غزوة أحد « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، أنا ابن العواتك » . وجاء « أنا ابن العواتك من سليم » والعاتكة فى الأصل المتلطخة بالطيب أو الطاهرة .

وعن بعض الطالبيين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى يوم أحد « أنا ابن الفواطم » أى ولا ينافيه ماسبق أنه قال فى ذلك اليوم « أنا ابن العواتك » لأنه يجوز أن يكون قال كلا من الكلمتين فى ذلك اليوم .

واختلف الناس فى عدد العواتك من جداته صلى الله عليه وسلم ، فمن مكثر ومن مقلّ .

وقد نقل الحافظ ابن عساكر أن العواتك من جداته صلى الله عليه وسلم أربع عشرة وقيل إحدى عشرة : أى وأولهن أم لؤى بن غالب واللواتى من بنى سليم . منهن عاتكة بنت هلال أم عبد مناف ، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم هاشم ، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم أبى أمه وهب : أى وقيل أراد بالعواتك من سليم ثلاثة من بنى سليم أبكارا أرضعنه كما سيأتى فى قصة الرضاع ، وكل واحدة منهن تسمى عاتكة . قال وعن سعد أن الفواطم من جداته عشرة اهـ .

أقول : وقيل خمس ، وقيل ست ، وقيل ثمان ، ولم أقف على من اسمه فاطمة من

جداته من جهة أبيه إلا على اثنين : فاطمة أم عبد الله ، وفاطمة أم قصى ، إلا أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يرد الأمهات التى فى عمود نسبه صلى الله عليه وسلم، بل أراد الأعم حتى يشمل فاطمة أم أسد بن هاشم ، وفاطمة بنت أسد التى هى أم على بن أبى طالب كرم الله وجهه وفاطمة أمها . وهؤلاء الفواطم غير الثلاث الفواطم اللاتى قال صلى الله عليه وسلم فيهن لعلى وقد دفع إليه ثوبا حريرا وقال له « اقسم هذا بين الفواطم الثلاث » فإن هؤلاء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاطمة بنت حمزة ، وفاطمة بنت أسد .

ثم رأيت بعضهم عدّ فيهن أم عمرو بن عائذ، وفاطمة بنت عبد الله بن رزام وأمها فاطمة بنت الحارث ، وفاطمة بنت نصر بن عوف أمّ أم عبد مناف ، والله أعلم .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله تعالى عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خرجت من نكاح غير سفاح » أى زنا ، فقد تقدم أن المرأة كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد ، فكانت العرب تستحل الزنا إلا أن الشريف منهم كان يتورع عنه علانية وإلا بعض أفراد منهم حرمه على نفسه فى الجاهلية : أى وفى حديث غريب ، «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء، ماولدنى إلا نكاح الإسلام» .

قال : وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماولدنى بغىّ قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تزل تتنازعنى الأمم كابرا عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة » اهـ .

أقول : والبغايا كنّ فى الجاهلية ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا والدها بالذى يرون به شبهه ، فالتاط : أى تعلق والتحق به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، والله أعلم .

قال : وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ بفتح الفاء وقال : أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا ، ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلها نكاح » وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما «كنكاح الإسلام » أى يخطب الرجل إلى الرجل موليته فيصدقها ثم يعقد عليها اهـ .

وعن الإمام السبكى : الأنكحة التى فى نسبه صلى الله عليه وسلم منه إلى آدم كلها مستجمعة شروط الصحة كأنكحة الإسلام ، ولم يقع فى نسبه صلى الله عليه وسلم منه إلى آدم إلا نكاح صحيح مستجمع لشرائط الصحة كنكاح الإسلام الموجود اليوم . قال : فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ، ولا تزل عنه فتخسر الدنيا والآخرة .

قال بعضهم : وهذا من أعظم العناية به صلى الله عليه وسلم ، أن أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آبائه من آدم إلى أن أخرجه من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته صلى الله عليه وسلم ولم يكن كما كان يقع فى الجاهلية إذا أراد الرجل أن يتزوج قال خطب وتقول أهل الزوجة نكح كما تقدم ، ويكون ذلك قائما مقام الإيجاب والقبول .

والمراد بنكاح الإسلام مايفيد الحل حتى يشمل التسرّى ، بناء على أن أم إسماعيل كانت مملوكة لإبراهيم حين حملت بإسمعيل ، ولم يعتقها ولم يعقد عليها قبل ذلك .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كما فى البخارى : « إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : نكاح كنكاح الناس اليوم » أى بإيجاب وقبول شرعيين دون أن يقول الزوج خطب ويقول أهل الزوجة نكح ، وحينئذ يزيد على ذلك النكاح الذى كان يقال فيه ذلك « ونكاح البغايا . ونكاح الاستبضاع . ونكاح الجمع » أى ومن أنكحة الجاهلية نكاح زوجة الأب لأكبر أولاده والجمع بين الأختين على ما تقدم ، وحينئذ يكون المراد ليس فى نسبه صلى الله عليه وسلم نكاح زوجة الأب ، خلافا لما تقدم عن السهيلى ، ولا الجمع بين الأختين ، ولا نكاح البغايا ، وهو أن يطأ البغىّ جماعة متفرقين واحدا بعد واحد ، فإذا حملت وولدت ألحق الولد بمن غلب عليه شبهه منهم ؛ ولا الاستبضاع ، وذلك أن المرأة كانت فى الجاهلية إذا طهرت من حيضها يقول لها زوجها أرسلى إلى فلان استبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ؛ وليس فيه نكاح الجمع ، وهو أن تجتمع جماعة دون العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات كلهم يطؤها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان ، تسمى من أحبت منهم ، فيلحق به ولدها ؛ لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل إن لم يغلب شبهه عليه .

فنكاح البغايا قسمان ، وحينئذ يحتمل أن تكون أم عمرو بن العاص رضى الله عنه من القسم الثانى من نكاح البغايا ، فإنه يقال إنه وطئها أربعة : وهم العاص ، وأبو لهب ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، وادعى كلهم عمرا فألحقته بالعاص . وقيل لها لم اخترت العاص ؟ قالت : لأنه كان ينفق على بناتى . ويحتمل أن يكون من القسم الأول ويدل عليه ماقيل إنه ألحق بالعاص لغلبة شبهه عليه ، وكان عمرو يعير بذلك ، عيره بذلك علىّ وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة رضى تعالى عنهم ، وسيأتى ذلك فى قصة قتل عثمان عند الكلام على بناء مسجد المدينة .

قال : وجاء ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » أى وفى رواية « لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة » .

وروى البخارى « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت فى القرن الذى كنت فيه » اهـ ، وقد تقدم فى قوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) قيل من ساجد إلى ساجد ، وتقدم مافيه ، ومن جملته قول أبى حيان إن ذلك استدل به بعض الرافضة على أن آباء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين أى متمسكين بشرائع أنبيائهم .

ثم رأيت الحافظ السيوطى قال : الذى تلخص أن أجداده صلى الله عليه وسلم من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم : أى فى الأحاديث وأقوال السلف ، وبقى بين مرة وعبد المطلب أربعة أجداد لم أظفر فيهم بنقل ، وعبد المطلب سيأتى الكلام فيه .

وقد ذكر فى عبد المطلب ثلاثة أقوال :

أحدها وهو الأشبه أنه لم تبلغه الدعوة : أى لأنه سيأتى أنه مات وسنه صلى الله عليه وسلم ثمان سنين .

والثانى أنه كان على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام : أى لم يعبد الأصنام .

والثالث أن الله تعالى أحياه له بعد البعثة حتى آمن به ثم مات ، وهذا أضعف الأقوال وأوهاها ، لم يرد قط فى حديث ضعيف ولا غيره ، ولم يقل به أحد من أئمة السنة وإنما حكى عن بعض الشيعة .

قال بعضهم : وقوله صلى الله عليه وسلم « من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » دليل على أن آباء النبى صلى الله عليه وسلم وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر ، لأن

الكافر لايوصف بأنه طاهر . وفيه أن الطاهرية فيه يجوز أن يكون المراد بها ماقابل أنكحة الجاهلية المتقدمة . وقد أشار إلى إسلام آبائه وأمهاته صاحب الهمزية بقوله :

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمهـات والآباء

أى لأن الكافر لا يقال إنه مختار لله .

والسبب الذى دعا عبد المطلب لاختيار بنى زهرة ماحدث به ولده العباس رضى الله تعالى عنه قال : قال عبد المطلب : قدمنا اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور : أى الكتاب ، ولعل المراد به التوراة فقال : من الرجل ؟ قلت: من قريش ، قال من أيهم ؟ قلت من بنى هاشم قال : أتأذن لى أن أنظر بعضك ؟ قلت نعم مالم يكن عورة ، قال : ففتح إحدى منخرىّ فنظر فيـه ثم نظر فى الأخرى فقال : أنا أشهد أن فى إحدى يديك وهو مراد الأصل بقوله فى منخريك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وإنما نجد ذلك : أى كلا من الملك والنبوة فى بنى زهرة ، فكيف ذاك ؟ قلت : لا أدرى ، قال : هل لك من شاعة ؟ قلت : وما الشاعة ؟ قال : الزوجة ، أى لأنها تشايع أى تتابع وتناصر زوجها ، قلت : أما اليوم فلا : أى ليست لى زوجة من بنى زهرة إن كان معه غيرها ، أو مطلقا إن لم يكن معه غيرها ، فقال : إذا تزوجت فتزوج منهم : أى وهذا الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه ، فيحكم على صاحبها بطريق الفراسة يقال له حزاء بالمهملة وتشديد الزاى آخره همزة منونة .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن شيخه سيدى على الخواص نفعنا الله تعالى ببركاتهما أنه كان إذا نظر لأنف إنسان يعرف جميع زلاته السابقة واللاحقة إلى أن يموت على التعيين من صحة فراسته هذا كلامه .

أى ومن ذلك أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما تزوج امرأة ولم يدخل بها ، فقال لزوجته ميسون أم ابنه يزيد اذهبى فانظرى إليها ، فأتتها فنظرت إليها ثم رجعت إليه وقالت : هى بديعة الحسن والجمال ما رأيت مثلها ، لكن رأيت خالا أسود تحت سرتها ، وذلك يدل على أن رأس زوجها يقطع ويوضع فى حجرها ، فطلقها معاوية رضى الله تعالى عنه ثم تزوجها النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه وكان واليا على حمص ، فدعا لابن الزبير وترك مروان ثم خاف من أهل حمص لما تبعوا مروان ففر هاربا فتبعه جماعة منها فقطعوا رأسه ووضعوها فى حجر تلك المرأة ، ثم بعثوا بتلك الرأس

إلى مروان ، وقتل النعمان هذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن أمه لما ولدته وكان أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة على ماسيأتى حملته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بتمرة فمضغها ثم وضعها فى فيه فحنكه بها ، فقالت : يارسول الله ادع الله تعالى أن يكثر ماله وولده ، فقال : «أما ترضين أن يعيش حميدا ويقتل شهيدا ويدخل الجنة» وهو الذى أشار على يزيد بن معاوية بإكرام آل البيت لما قتل الحسين ممن كان مع الحسين من أولاده وأولاد أخيه وأقاربه ، وقال له : عاملهم بما كان يعاملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآهم على هذه الحالة ، فرق لهم يزيد وأكرمهم ، ورده معهم ، وأمره بإكرامهم على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ومما يروى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله ، والفخر بعطاء الله ، والتكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله » .

وقد ذكر أن حمص نزل بها تسعمائة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم سبعون بدريا .

وفى حياة الحيوان أن حمص لاتعيش بها العقارب ، وإذا طرحت فيها عقرب غريبة ماتت لوقتها ، قيل لطلسم بها .

وفى حديث ضعيف أن حمص من مدن الجنة ، وقيل الحزاء هو الكاهن ، وقيل هو الذى يحزر الأشياء ويقدرها بظنه ، ويقال للذى ينظر فى النجوم فإنه ينظر فيها بظنه فربما أخطأ: أى لأن من علوم العرب الكهانة والعيافة والقيافة والزجر والخط : أى الرمل والطب ، ومعرفة الأنواء ومهاب الرياح .

فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف فولدت له حمزة وصفية وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب أخى وهيب فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فكانت قريش تقول فلج عبد الله على أبيه : أى فاز وظفر لأن الفلج بالفاء واللام المفتوحتين والجيم الفوز والظفر ، أى فاز وظفر بما لم ينله أبوه من وجود هذا المولود العظيم الذى وجد عند ولادته ما لم يوجد عند ولادة غيره .

أى وفى كلام ابن المحدث أن عبد المطلب خطب هالة بنت وهيب عم آمنة فى مجلس خطبة عبد الله لآمنة وتزوجا وأولما ثم ابتنيا بهما . ثم رأيت فى أسد الغابة ما يوافقه ،

وهو أن عبد المطلب تزوّج هو وعبد الله فى مجلس واحد ، قيل : وفيه تصريح بأن عبد الله كان موجودا حين قال الحبر لعبد المطلب إن النبوة موجودة فيه ، وكيف تكون موجودة فيه مع انتقالها لعبد الله ؟ وقد يقال ، من أين أن عبد المطلب تزوج هالة عقب مجيئه من عند الحبر حتى يكون قول الحبر لعبد المطلب صادرا بعد وجود عبد الله ؟ جاز أن يكون ذلك صدر من الحبر لعبد المطلب قبل ولادة عبد الله . وفيه أن هذا لا يحسن إلا لو كانت أم عبد الله من بنى زهرة ؛ إلا أن يقال يجوز أن يكون عبد الله وجد من بنى زهرة لجواز أن يكون عبد المطلب تزوج من بنى زهرة غير هالة فأولدها عبد الله .

ثم إن قول الحبر لعبد المطلب : إنه يجد فى إحدى يديه الملك وإنه يكون فى بنى زهرة مشكل أيضا ، لأن الملك لم يكن إلا فى أولاد ولده العباس ، ولا يستقيم إلا لو كانت أم العباس من بنى زهرة . أما هالة التى هى أم حمزة أو غيرها وأم العباس ليست من بنى زهرة ، خلافا لما وقع فى كلام بعضهم أن العباس ولدته هالة فهو شقيق حمزة لأنه خلاف ما اشتهر عن الحفاظ ، إلا أن يقال جاز أن يكون الملك والنبوة اللذان عناهما الحبر هما نبوته وملكه صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم أعطيهما : أى كلا من الملك والنبوة المنتقلين إليه من أبيه عبد الله ، بناء على أن أم عبد الله من بنى زهرة ، ولعله لا ينافيه قول بعضهم : تزوج عبد المطلب فاطمة بنت عمرو وجعل مهرها مائة ناقة ومائة رطل من الذهب ، فولدت له أبا طالب وعبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه يجوز أن تكون فاطمة هذه من بنى زهرة ، وحينئذ لا يشكل قول الحبر : إذا تزوجت فتزوج منهم : أى من بنى زهرة بعد قوله : ألك شاعة .

وقيل الذى دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عمة وهب والد آمنة أمه صلى الله عليه وسلم كان من أمرها أنها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أى سوداء وكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة ، أى يدفنونها حيه ، ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة : أى لأنه سيأتى أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهنّ أحياء خصوصا كندة قبيلة من العرب خوف العار أو خوف الفقر والإملاق .

وكان عمرو بن نفيل يحيى الموؤودة لأجل الإملاق يقول للرّجل إذا أراد أن يفعل ذلك لا تفعل أنا أكفيك مئونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مئونتها .

وكان صعصعة جد الفرزدق يفعل مثل ذلك فأمر أبوها بوأدها وأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك ، فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفا يقول : لاتئد الصبية وخلها فى البرية فالتفت فلم ير شيئا ، فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر فى المعنى فرجع إلى أبيها وأخبره بما سمع ، فقال : إن لها لشأنا وتركها ، فكانت كاهنة قريش ، فقالت يوما لبنى زهرة : فيكم نذيرة أو تلد نذيرا ،فاعرضوا علىّ بناتكنّ فعرضن عليها ، فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب ، فقالت : هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان منير : أى فاختيار عبد المطلب لآمنة من بنى زهرة عبد الله واضح من سياق قصة هذه الكاهنة .

وأما اختياره لتزوجه بعض نساء بنى زهرة ، فسببه ما تقدم عن الحبر ، بناء على أن أم عبد الله كانت من بنى زهرة . وأما جعل الشمس الشامى ما تقدم عن الحبر سببا لتزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بنى زهرة ففيه نظر ظاهر ، إذ كيف يتأتى ذلك مع قوله إذا تزوجت فتزوج منهم بعد قوله : ألك شاعة ، أى زوجة.

ثم رأيت ابن دحية رحمه الله تعالى ذكر فى التنوير عن البرقى : أن سبب تزويج عبد الله آمنة أن عبد المطلب كان يأتى اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم فنزل عنده مرة فإذا عنده رجل ممن قرأ الكتب ، فقال له ائذن لى أن أفتش منخرك ، فقال دونك فانظر ، فقال : أرى نبوّة وملكا ، وأراهما فى المنافين عبد مناف بن قصى وعبد مناف بن زهرة ، فلما انصرف عبد المطلب انطلق بابنه عبد الله فتزوج عبدالمطلب هالة بنت وهيب فولدت له حمزة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا واضح لأنه أسقط قول الحبر لعبد المطلب هل لك من شاعة إلى آخره ، فاحتاط عبد المطلب فتزوج من بنى زهرة وزوّج ولده عبد الله منهم ، وحينئذ كان المناسب للبرقى رحمه الله تعالى أن يزيد بعد قوله إن سبب تزويج عبد الله آمنة قوله وتزوج عبد المطلب هالة .

باب ذكر حمل أمه به صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين

عن الزهرى رحمه الله تعالى قال : قالت آمنة : لقد علقت به صلى الله عليه وسلم فما وجدت له مشقة حتى وضعته . وعنها أنها كانت تقول: ما شعرت بفتح أوله وثانيه: أى ما علمت بأنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلا بفتح القاف كما تجد النساء إلا أنى أنكرت رفع حيضتى بكسر الحاء : الهيئة التى تلزمها الحائض من التجنب . وأما بالفتح فالمرة الواحدة من دفعات الحيض : أى والذى ينبغى أن يكون الثانى هو المرادواستعملت المرة فى مطلق الدم الذى تراه الحائض ، وربما يؤيده أن هذا هو المراد أن بعضهم نقل أن الحيضة بالكسر اسم للحيض ، قالت : وربما ترفعنى وتعود : أى فلم يكن رفعها دليلا على الحمل : أى وهذا ربما يفيد أن حيضها تكرر قبل حملها به صلى الله عليه وسلم ولم أقف على مقدار تكرره

وقد ذكر أن مريم عليها السلام حاضت قبل حملها بعيسى عليه الصلاة والسلام حيضتين ، قالت آمنة : وأتانى آت أى من الملائكة وأنا بين النائمة واليقظانة ، وفى رواية بين النائم : أى الشخص النائم واليقظان ، فقال : هل شعرت بأنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ؟ أى وفى رواية بسيد الأنام: أى اعلمى ذلك، وأمهلنى حتى دنت ولادتى أتانى فقال قولى أى إذا ولدتيه : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد

أى ثم سميه محمدا فإن اسمه فى التوراة والإنجيل أحمد ، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، وفى القرآن محمد أى والقرآن كتابه ، وسيأتى عن محمد الباقر رضى الله تعالى عنه أن تسميه أحمد . قال بعضهم : ويذكر بعد هذا البيت أبيات لا أصل لها . وإذا ثبت أنها قالت له ذلك بعد ولادته كان دليلا لما يقوله بعض الناس أن آمنة رقت النبى صلى الله عليه وسلم من العين .

أقول : ظاهر هذا السياق أنها لم تعلم بحملها إلا من قول الملك لأنها لم تجد ما تستدل به على ذلك لأنها لم تجد ثقلا ، وعادتها أن حيضها ربما عاد بعد عدم وجوده فى زمنه المعتاد لها : أى ولم تعول على مفارقة النور لعبد الله وانتقال النور إلى وجهها على ما ذكر

بعضهم . ففى كلام هذا البعض : لما فارق النور وجه عبد الله انتقل إلى وجه آمنة ، ولا على خروج النور منها مناما أو يقظة بناء على أنه غير الحمل على ما يأتى لخفاء دلالة ما ذكر على ذلك، ولعل أباه صلى الله عليه وسلم عبد الله لم يبلغها قول المرأة التى عرضت نفسها عليه اذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض ، والثقل فى ابتداء الحمل الذى حمل عليه بعض الروايات كما سيأتى يجوز أن يكون بعد إخبار الملك لها . لكن فى المواهب فى رواية عن كعب رضى الله تعالى عنه أن مجىء الملك لها كان بعد أن مضى من حملها ستة أشهر فليتأمل ، فإن الستة أشهر لايقال إنها ابتداء الحمل .

ونص الرواية : كانت آمنة تحدث وتقول : أتانى آت حين مر بى من حملى ستة أشهر فى المنام وقال لى : يا آمنة إنك حملت بخير العالمين ، فإذا ولدتيه فسميه محمدا واكتمى شأنك ، إلا أن يقال يجوز تعدد الملك أو تكرر مجىء الملك لها فليتأمل ، والله أعلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة أى التى حمل فيها : أى فى اليوم قبلها برسول الله صلى الله عليه وسلم أى بناء على ماهو الظاهر مما تقدم أنه حين وقع عليها انتقل إليها ذلك النور وقالت : حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا : أى ومثل هذا لايقال من قبل الرأى .

أقول : دلالة الأول على مطلق الحمل به صلى الله عليه وسلم لاعلى خصوص حمل آمنة به صلى الله عليه وسلم حينئذ واضحة .

وأما دلالة الثانى عليه فقد يتوقف فيها إلا أن يقال إن ذلك كان من علامة الحمل به فى الكتب القديمة مع أن المدعى فى كلام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما هو خصوص حمل آمنة به . على أن السياق يدل على أن المراد علم أمه بحملها به ، والله أعلم .

وعن كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه أن فى صبيحة تلك الليلة أصبحت أصنام الدنيا منكوسة : أى ولعل ذلك كان من علامة حمل أمه به فى الكتب القديمة ، وقول الصادق لايتخلف ، وسيأتى أن عند ولادته أيضا تنكست الأصنام ، ولا مانع من التعدد .

قال : وروى الحاكم وصححه « أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا :

يارسول الله أخبرنا عن نفسك، فقال: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور » وفي لفظ « سراج » وفي لفظ « شهاب أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » قال الحافظ العراقي : وسيأتي أنها رأت النور خرج منها عند الولادة ، وهو أولى لكون طرقه متصلة . ويجوز أن يكون خرج منها النور مرتين : مرة حين حملت به ، ومرة حين وضعته : أي وكلاهما يقظة ، ولا مانع من ذلك ، أو هذه أي رؤية النور حين حملت به كانت مناما كما تصرح به الرواية الآتية وتلك يقظة ، فلا تعارض بين الحديثين اه .

أقول : الرواية الآتية هي رواية شداد بن أوس، ولفظها أنها رأت في المنام أن الذي في بطنها خرج نورا : أي وهي تفيد أن ذلك النور هو نفس حملها،فهو بعد تحقق الحمل ووجوده ، والرواية التي هنا تفيد أن النور غيره ، وأنه كان وقت ابتداء وجود الحمل، فلا يصح حمل إحداهما على الأخرى ، إلا أن يقال المراد بحين حملت زمن حملها ، وأن النور كان هو ذلك الحمل ، لكن الذي ينبغي أن تكون رواية شداد التي حملت عليها الرواية الأولى حاصلة قبيل الولادة ، فتكون رأت النور عند الولادة مناما ويقظة تأنيسا لها .

على أنه يجوز إبقاء الروايات الثلاث على ظاهرها وأنها رأت مناما أنها خرج منها نور عند ابتداء الحمل ، ثم رأت كذلك عند قرب ولادتها أن الذي في بطنها خرج نورا ، ثم رأت يقظة عند وضعه خروج النور . وسيأتي في رواية عن أمه أنها قالت لما وضعته : خرج معه نور ، وهي لاتخالف هذه الرواية الثالثة حتى تكون الرابعة ، فبصرى أول بقعة من الشام خلص إليها نور النبوة .

وعلى أنه مرتين ناسب قدومه صلى الله عليه وسلم لها مرتين مرة مع عمه أبي طالب ومرة مع ميسرة غلام خديجة رضي الله تعالى عنها كما سيأتي ، وبها مبرك الناقة التي يقال إن ناقته صلى الله عليه وسلم بركت فيه ، فأثر ذلك فيه ، وبني على ذلك المحل مسجد ، ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام في الإسلام،وكان فتحها صلحا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه على يد خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ، وبها قبر سعد بن عبادة ، وهي من أرض حوران ، والله أعلم .

ووقع الاختلاف في مدة حمله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عايذ أي بالياء المثناة

تحت والذال المعجمة « أنه صلى الله عليه وسلم بقى فى بطن أمه تسعة أشهر كملا لا تشكو وجعا ولا مغصا ولا ريحا ولا مايعرض لذوات الحمل من النساء » أى وقد ولد عند وجود المشترى وهو كوكب نير سعيد ، فقد كانت ولادته صلى الله عليه وسلم عند وجود السعد الأكبر ، والنجم الأنور ، وكانت أمه صلى الله عليه وسلم تقول : مارأيت من حمل هو أخفّ منه ولا أعظم بركة منه .

وروى ابن حبان رحمه الله عن حليمة رضى الله تعالى عنها عن آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت « إن لابنى هذا شأناً ، إنى حملت به فلم أجد حملا قط كان أخف علىّ ولا أعظم منه بركة » وقيل بقى عشرة أشهر ، وقيل ستة أشهر ، وقيل سبعة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر : أى ويكون ذلك آية ، كما أن عيسى عليه السلام ولد فى الشهر الثامن كما قيل به مع نص الحكماء والمنجمين على أن من يولد فى الشهر الثامن لايعيش ، بخلاف التاسع والسابع والسادس الذى هو أقل مدة الحمل : أى فقد قال الحكماء فى بيان سبب ذلك إن الولد عند استكماله سبعة أشهر يتحرك للخروج حركة عنيفة أقوى من حركته فى الشهر السادس ، فإن خرج عاش ، وإن لم يخرج استراح فى البطن عقب تلك الحركة المضعفة له ، فلا يتحرك فى الشهر الثامن ولذلك تقل حركته فى البطن فى ذلك الشهر ، فإذا تحرك للخروج وخرج فقد ضعف غاية الضعف فلا يعيش لاستيلاء حركتين مضعفتين له مع ضعفه .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله تعالى : لم أر للثمانية صورة نجوم المنازل ، ولهذا كان المولود إذا ولد فى الشهر الثامن يموت ولا يعيش . وعلى فرض أن يعيش يكون معلولا لاينتفع بنفسه ، وذلك لأن الشهر الثامن يغلب فيه على الجنين البرد واليبس وهو طبع الموت : أى وقيل بل كان حمله ووضعه فى ساعة واحدة ، وقيل فى ثلاث ساعات : أى وقيل بذلك فى عيسى عليه السلام : أى وكانت تلك السنة التى حمل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لها سنة الفتح والابتهاج ، فإن قريشا كانت قبل ذلك فى جدب وضيق عظيم ، فاخضرت الأرض ، وحملت الأشجار ، وأتاهم الرغد من كل جانب فى تلك السنة وفى حديث مطعون فيه « قد أذن الله تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكورا كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم » أى ولم أقف على مايجرى على ألسنة المداح من أنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله فى بطن أمه ، كما نقل عن عيسى عليه السلام

أنه كان يكلم أمه إذا خلت عن الناس ويسبح الله ويذكره إذا كانت مع الناس وهي تسمع.
وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال « بينا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ كبير من بني عامر هو مدرة قومه» أي المقدم فيهم «يتوكأ على عصا فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده ، فقال : ياابن عبد المطلب إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء إلا أنك فهت بعظيم ، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء » أي معظمهم «في بيتين من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، فالك وللنبوة ، ولكن لكل حق حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك؟ قال : فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته ثم قال : ياأخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ ومجلسا فاجلس فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير ، فاستقباه النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال : ياأخا بني عامر إن حقيقة قولي وبدء شأني أني دعوة أبي إبراهيم عليه السلام : أي حيث قال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) أي وعند ذلك قيل له قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان » كذا في تفسير ابن جرير .

قال في ينبوع الحياة : أجمعوا على أن الرسول المذكور ههنا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

أقول : وفيه أن جبريل عليه السلام أعلم إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بأنه يوجد نبي من العرب من ذرية ولده إسمعيل . فقد جاء أن إبراهيم لما أمر بإخراج هاجر أم ولده إسمعيل عليه السلام حمل هو وهي وولدها على البراق ، فلما أتى مكة قال له جبريل : انزل فقال: حيث لازرع ولا ضرع ؟ قال : نعم ههنا يخرج النبي الأمي من ذرية ولدك يعني إسمعيل عليه السلام الذي تتم به الكلمة العليا ، إلا أن يقال الغرض من دعائه صلى الله عليه وسلم بذلك تحقيق حصوله ، وتقدم أن أم إسمعيل قالت لإبراهيم ماقاله لجبريل ، والله أعلم ، ثم قال « وبشرى أخي عيسى » وفي رواية «إن آخر من بشر بي عيسى عليه السلام » أي آخر نبي بشر بي من الأنبياء عيسى ، بدليل الرواية الأخرى « وكان آخر من بشر بي عيسى » لأن الأنبياء بشرت به قومها ، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله :

ما مضت فترة من الرسل إلا   بشرت قومها بك الأنبياء

وبشرى عيسى فى قوله تعالى (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصـــدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) أى والمبشر بهم من الأنبياء قبل وجودهم أيضا أربعة : إسحق ويعقوب ويحيى وعيسى ، قال الله تعالى فى حق سارة (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) قيل بشرت بأن تبقى إلى أن يولد يعقوب لولدها إسحق ، وقال فى حق زكريا (إن الله يبشرك بيحيى) وقال : فى حق مريم (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح) ثم قال «وإنى كنت بكر أبى وأمى وإنها حملتنى كأثقل ماتحمل النساء ، وجعلت تشكو إلى صواحبها ثقل ماتجد، ثم إنها رأت فى المنام أن الذى فى بطنها خرج نورا ، قالت فجعلت أتبع بصرى النور والنور يسبق بصرى حتى أضاءت له مشارق الأرض ومغاربها » الحديث ، وستأتى تتمته فى الرضاع : أى وقال ابن الجوزى : ممن روى عن أمه صلى الله عليه وسـلم هو صلى الله عليه وسلم لمـا قيل له يارسول الله ماكان بدء أمرك ؟ قال « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى ، قالت خرج منى نور أضاءت له قصور الشام » .

قال الحافظ أبو نعيم: الثقل الذى وقع فى هذه الرواية كان ابتداء الحمل ، والخفة التى جاءت فيما سبق من الروايات كانت عنـد استمرار الحمل ليكون ذلك خارجا عن المعتاد كـذا قال .

أقول : قد قدمنا أنه يجوز أن يكون هـذا الثقل الواقع فى ابتداء الحمل كان بعد إخبار الملك لهـا بالحمل ، فلا يخالف ماسبق . وفيـه ما سبق والجواب عنه لـكن تقـدم عن الزهرى قال : قالت آمنة لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته .

ويمكن أن يكون المراد بالمشقة ما تقدم فى بعض الروايات « لم تشك وجعا ولا مغصا ولا ريحا ، ولا مايعرض لذوات الحمل من النساء » أى فمع وجود الثقل لم يحصل لهـا المشقة المذكورة وحينئذ لا ينافى ذلك شكواها ما تجده من ثقله ، والله تعالى أعلم .

باب وفاة والده

صلى الله عليه وسلم

عن ابن إسحق : لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفى وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به : أى كما عليه أكثر العلماء [ ] وصححه الحافظ الدمياطى ، وسيأتى فى بعض الروايات مايدل على أن ذلك من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم فى الكتب القديمة قيل وإن موت والده صلى الله عليه وسلم كان بعد أن تم لها من حملها شهران ، وقيل قبل ولادته بشهرين ، وقيل كان فى المهد حين توفى أبوه ابن شهرين . وذكر السهيلى أن عليه أكثر العلماء ، فليتأمل مع ماقبله ، وقيل كان ابن سبعة أشهر . أى وقيل ابن تسعة أشهر ، قيل وعليه الأكثرون . والحق أنه قول كثيرين لا الأكثرين [ ] وقيل ابن ثمانية عشر شهراً وقيل : ابن ثمانية وعشرين شهرا : أى وما يأتى فى الرضاع من أن المراضع أبته ليتمه يخالفه لتمام زمن الرضاع وكذا يخالف القول الذى قبله ، لأنه لم يبق من زمن الرضاع إلا شهران ، وكانت وفاته بالمدينة خرج إليها ليمتار تمرا أو لزيارة أخواله بها : أى أخوال أبيه عبد المطلب [ ] بنى عدى بن النجار : أى ولا مانع من قصد الأمرين معا ، وقيل خرج إلى غزة فى عير من عيرات قريش ، والعيرات بكسر العين وفتح المثناة تحت جمع عير : وهى التى تحمل الميرة ، خرجوا للتجارة ففرغوا من تجارتهم وانصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله مريض ، فقال أنا أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، والنجار هذا اسمه تيم وقيل له النجار لأنه اختتن بقدوم : أى وهو آلة النجار ، وقيل لأنه نجر وجه رجل بقدوم فأقام عندهم مريضا شهرا : أى وهذا أثبت من الأول [ ] ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم أبوه عبد المطلب عنه ، فقالوا خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض ، فبعث إليه أخاه الحارث وهو من أكبر أولاد عبد المطلب كما تقدم : أى ومن ثم كان يكنى به ، ولم يدرك الإسلام فوجده قد توفى .

أى وفى أسد الغابة أن عبد المطلب أرسل إليه ابنه الزبير شقيق عبد الله فشهد وفاته ، ودفن فى دار التابعة بالتاء المثناة فوق والباء الموحدة والعين المهملة : أى وهو رجل من بنى عدى بن النجار : أى فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ونظر إلى

تلك الدار عرفها وقال « هاهنا نزلت بى أمى ، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار » .

ومن هـذا ومما جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم « أنه صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه يسبحون فى غدير أى فى الجحفة ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه: ليسبح كل رجل منكم إلى صاحبه ،فسبح كل رجل إلى صاحبه وبقى النبى عليه الصلاة والسلام وأبو بكر فسبح النبى عليه الصلاة والسلام إلى أبى بكر رضى الله عنه حتى اعتنقه وقال أنا وصاحبى أنا وصاحبى » وفى رواية « أنا إلى صاحبى أنا إلى صاحبى » يعلم رد قول بعضهم وقد سئل هل عام صلى الله عليه وسلم ؟ الظاهر لا ، لأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسـلم سافر فى بحر ولا بالحرمين بحر ، قال : وقيل قد توفى ودفن أبوه بالأبواء : محل بين مكة والمدينة اهـ .

أقول سيأتى أن الذى بالأبواء قبر أمه صلى الله عليه وسـلم على الأصح ، فلعل قائل ذلك اشتبه عليه الأمر ، لأنه يجوز أن يكون سمعه صلى الله عليه وسلم يقول وهو بالأبواء « هذا قبر أحد أبوى » .

وقد ذكر بعضهم فى حكمة تربيته صلى الله عليه وسـلم يتيما مالا نطيل به ، وقد جاء « ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء ، فإنى كنت فى الصغر يتيما ، وفى الـكبر غريبا » وقد جاء « إن الله لينظر كل يوم إلى الغريب ألف نظرة » والله أعلم .

وأورد الخطيب عن عائشة رضى الله تعالى عنهـا أن الله أحيا له أباه وآمن به وفى المواهب « أحيا الله له أبويه حتى آمنا به » قال السهيلى : وفى إسناده مجاهيل . وقال الحافظ ابن كثير : إنه حديث منكر جدا وسنده مجهول . وقال ابن دحية : هو حديث موضوع. قال: ويرده القرآن والإجماع وعلى ثبوته يكون ناسخا أى معارضا لقوله صلى الله عليه وسـلم وقد سأله رجل « أين أبى ؟ فقال فى النار ، فلما قفا أى ولى دعاه وقال له إن أبى وأباك فى النار » وفيه أن هـذا رواه مسلم فلا يكون ذلك الحديث ناسخا أى معارضا له .

أقول : هو على تقدير ثبوته يكون معارضا على أن حديث مسلم هـذا لم تتفق الرواة على قوله فيه إن أبى وأباك فى النار ، وهذه اللفظة إنما رواها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وخالفه معمر عن ثابت عن أنس، فروى بدل ذلك إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار »

وقد نصوا على أن معمرا أثبت من حماد، فإن حماد اتكلم فى حفظه، ووقع فى أحاديثه مناكير. ذكروا أن ربيعة دسها فى كتبه، وكان حماد لا يحفظ فحدث بها فوهم فيها. وأما معمر فلم يتكلم فى حفظه ولا استنكر شىء من حديثه. وأيضا ما رواه معمر ورد من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه، فقد أخرج البزار والطبرانى والبيهقى من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عائذ بن سعد عن أبيه « أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أين أبى ؟ فقال، فى النار، قال : فأين أبوك ؟ قال حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » وهذا الاسناد على شرط الشيخين، فاللفظ الأول من تصرف الراوى رواه بالمعنى بحسب ما فهم فأخطأ.

وذكر الحافظ السيوطى أن مثل هذا وقع فى الصحيحين فى روايات كثيرة، من ذلك حديث مسلم عن أنس فى نفى قراءة البسملة، والثابت من طريق آخر نفى سماعها ففهم منه الراوى نفى قراءتها، فرواه بالمعنى على ما فهمه فأخطأ، كذا أجاب إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه عن حديث نفى قراءة البسملة. والذى ينبغى أن يقال : يجوز أن يكون هذا أى ما فى الصحيح كان قبل أن يسأل الله تعالى أن يحييه له فأحياه وآمن به كما أشار إليه الأصل : أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل، بدليل أنه لم يتدارك صلى الله عليه وسلم إلا بعد ماقفا، فظهر له صلى الله عليه وسلم من حاله أنه تعرض له فتنة : أى يرتد عن الإسلام، فأتى له بما هو شبيه بالمشاكلة مريدا بأبيه عمه أبا طالب لا عبد الله، لأنه كان يقال لأبى طالب : قل لابنك يرجع عن شتم آلهتنا، وقالوا له : أعطنا ابنك وخذ هذا مكانه، فقال أعطيكم ابنى تقتلونه، إلى غير ذلك مما يأتى. على أنه تقدم أن العرب تسمى العم أبا.

لا يقال على ثبوت هذا الحديث وصحته التى صرح بها غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه : كيف ينفع الإيمان بعد الموت.

لأنا نقول : هذا من جملة خصوصياته صلى الله عليه وسلم، لكن قال بعضهم : من ادعى الخصوصية فعليه الدليل : أى لأن الخصوصية لا تثبت بمجرد الاحتمال، ولا تثبت بحديث صحيح. وفى كلام القرطبى : قد أحيا الله سبحانه وتعالى على يديه صلى الله عليه وسلم جماعة من الموتى.

وإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة فى كرامته

وفضيلته صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن إحياء أبويه نافعا لإيمانهما وتصديقهما لما أحييا كما أن رد الشمس لو لم يكن نافعا فى بقاء الوقت لم ترد ، والله أعلم .

قال الواقدى : المعروف عندنا وعند أهل العلم أن آمنة وعبد الله لم يلدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونقل سبط ابن الجوزى أن عبد الله لم يتزوج قط غير آمنة ، ولم تتزوج آمنة قط غيره . ونقل إجماع علماء النقل على أن آمنة لم تحمل بغير النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعنى قولها : لم أحمل حملا أخف منه المفيد أنها حملت بغيره صلى الله عليه وسلم أنه خرج على وجه المبالغة اهـ .

أقول : هذه الرواية لم أقف عليها ، والذى تقدم مارأيت من حمل هو أخف منه . وفى رواية أخرى : حملت به فلم أجد حملا قط أخف منه على وحمل الرؤية والوجدان على العلم الحاصل بإخبار غيرها من ذوات الحمل لها عن حالهن ممكن ، فلا يقتضى ذلك أنها حملت بغيره . ولا ينافيه قولها أخف على لأن المراد على فيما علمت ، والله أعلم .

قال : والحافظ ابن حجر نسب سبط ابن الجوزى فى نقل الإجماع إلى المجازفة فقال : وجازف سبط ابن الجوزى كعادته فى نقل الإجماع ، ولا يمتنع أن تكون آمنة أسقطت من عبد الله سقطا فأشارت بقولها المذكور إليه اهـ

أقول : وحينئذ تكون حملت بذلك السقط بعد ولادته صلى الله عليه وسلم ، بناء على أن والده صلى الله عليه وسلم لم يمت وهو حمل ، بل بعد وضعه ، وأنها وجدت المشقة فى حمل ذلك السقط ، وأن إخبارها بذلك تأخر عن حملها بذلك السقط ، وأنها رأت فى حملها بذلك السقط من الشدة مالم تجده فى حمله صلى الله عليه وسلم .

وأما حملها بذلك السقط قبل حملها به صلى الله عليه وسلم فلا يتأتى ، لمخالفته لما تقدم من أن عبد الله دخل بها حين أملك عليها ، وانتقل إليها النور عند ذلك ، ولأنه يخرج بذلك عن كونه بكر أبيه وأمه .

وأما رواية حملت الأولاد فما وجدت حملا ، فقال فيها الواقدى : لانعرف عند أهل العلم كما بينا ذلك فى الكوكب المنير . على أن إمكان حملها بسقط لايقدح فى نقل الإجماع على أنها لم تحمل بغيره صلى الله عليه وسلم ، لإمكان أن مراده حملا تاما .

وفى الخصائص الصغرى للجلال السيوطى : ولم يلد أبواه غيره صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال : وترك عبد الله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، أسلمت قديما هى وولدها أيمن وكان من عبد حبشى يقال له عبيد اهـ .

أقول : فى كلام ابن الجوزى أنه صلى الله عليه وسلم أعتقها حين تزوج خديجة ، وزوّجها عبيدا الحبشى بن زيد من بنى الحرث فولدت أيمن . ولا ينافيه مافى الإصابة : كانت أم أيمن تزوجت فى الجاهلية بمكة عبيدا الحبشى بن زيد ، وكان قدم مكة وأقام بها ، ثم نقل أم أيمن إلى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها ، فرجعت إلى مكة ، فتزوجها زيد بن حارثة قاله البلاذرى ، والله أعلم .

قال : وقد زوجها صلى الله عليه وسلم أى بعد النبوة مولاه زيد بن حارثة : أى وإنما رغب زيد فيها لما سمعه صلى الله عليه وسلم يقول « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأم أيمن » فجاءت منه بأسامة فكان يقال له الحب ابن الحب .

وقيل أعتقها عبد الله قبل موته . وقيل كانت لأمه صلى الله عليه وسلم ، وترك : أى عبد الله خمسة أجمال وقطعة من غنم ، فورث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه اهـ أى فهو صلى الله عليه وسلم يرث ولا يورث . قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركناه صدقة » .

ودعوى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يرث بناته اللاتى متن فى حياته ، فعلى تقدير صحته جاز أن يكون صلى الله عليه وسلم ترك أخذ ميراثه تعففا وسيأتى . وقال ابن الجوزى وأصاب أم أيمن هذه عطش فى طريقها لما هاجرت : أى إلى المدينة على قدميها وليس معها أحد وذلك فى حر شديد ، فسمعت شيئا فوق رأسها ، فتدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فشربت منه حتى رويت ، وكانت تقول : ماأصابنى عطش بعد ذلك ولو تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر ماعطشت : أى وفى مزيل الخفاء قال الواقدى : كانت أم أيمن عسرة اللسان ، فكانت إذا دخلت على قوم قالت سلام لاعليكم : أى بدل سلام الله عليكم ، فرخص لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقول : سلام عليكم أو السلام عليكم ، هذا كلامه فليتأمل ، فإن هذا يقتضى أن الصيغة الأصلية فى السلام سلام الله عليكم ، مع أن الصيغة فى السلام إما السلام عليكم أو سلام عليكم ، وكذا عليكم السلام ، ولم تذكر أئمتنا تلك الصيغة .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وأم أيمن عنده ، فقالت : يارسول الله اسقنى ، فقلت لها ألرسول الله صلى الله عليه وسلم تقولين هـــذا ؟ فقالت : ماخدمته أكثر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدقت ، فسقاها » .

وذكر بعض المؤرخين أن بركة هذه من سبي الحبشة أصحاب الفيل وكانت سوداء : أي لونها أسود ، ولهذا خرج ابنها أسامة في السواد : أي وكان أبوه زيد أبيض ، ومن ثم كان المنافقون يطعنون في نسب أسامة ، ويقولون : هــذا ليس هو ابن زيد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشوش من ذلك .

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت « دخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم مسرورا ، فقال : ألم ترى أن مجززا المدلجي قد دخل على فرأى أسامة وزيدا عليهما قطيفة قد غطيا رءوسهما وقد بدت أقدامهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » وقد جعل أئمتنا ذلك أصلا لوجوب الأخذ بقول القائف في إلحاق النسب .

قال الأبي رحمه الله : والمعروف أن الحبشية إنما هي بركة أخرى جارية أم حبيبة ، قدمت معها من الحبشة ، وكانت تكنى أم يوسف ، كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم أي وهي التي شربت بوله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي .

قيل وورث صلى الله عليه وسلم من أبيه مولاه شقران ، وكان عبدا حبشيا فأعتقه بعد بدر . وقيل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف وأعتقه . وقيل بل وهبه عبد الرحمن ابن عوف له صلى الله عليه وسلم .

باب ذكر مولده

صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا أي مقطوع السرة . وجاء « أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ولد نزل جبريل عليه السلام وقطع سرته ، وأذن في أذنه ، وكساه ثوبا أبيض » وولد نبينا صلى الله عليه وسلم مختونا : أي على صورة المختون : أي ومكحولا ونظيفا مابه قذر .

أقول : أي لم يصاحبه قذر وبلل ، فلا ينافي جواز وجود البلل والقذر بعده : أي في زمن إمكان النفاس ، فلا يستدل بذلك على أن أمه صلى الله عليه وسلم لم تر نفاسا ، فإن النفاس عندنا معاشر الشافعية هو البلل الحاصل بعد الولادة في زمن إمكانه ، وهو قبل مضي خمسة عشر يوما لا الحاصل مع الولد ، والله أعلم .

قال : وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ، ولم ير أحد سوأتي » أي لئلا يرى أحد سوأتي عند الختان . قال الحاكم : تواترت الأخبار بأنه صلى الله عليه وسلم ولد مختونا . وتعقبه الذهبي فقال : ما أعلم صحة ذلك ، فكيف يكون متواترا : أي وأجيب بأنه أراد بالتواتر الاشتهار ، فقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك . قال الحافظ ابن كثير : فمن الحفاظ من صححها ، ومنهم من ضعفها ، ومنهم من رآها من الحسان : أي وقد يدعى أنه لا مخالفة بين هذه الأقوال الثلاثة ، لأنه يجوز أن يكون من قال صحيحة أراد صحيحة لغيرها ، والصحيحة لغيرها قد تكون حسنة لغيرها ، ومن قال ضعيفة أراد في حد ذاتها .

وفي الهدى أن الشيخ جمال الدين بن طلحة صنف في أنه ولد مختونا مصنفا أجلب فيه من الأحاديث التي لا خطام لها ولا زمام . ورد عليه في ذلك الشيخ جمال الدين بن العديم وذكر أنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب .

وولد من الأنبياء على صورة المختون أيضا غير نبينا صلى الله عليه وسلم ستة عشر نبيا ، وقد نظم الجميع بعضهم فقال :

وفي الرسل مختون لعمرك خلقة ثمان وتسع طيبون أكارم
وهم زكريا شيث إدريس يوسف وحنظلة عيسى وموسى وآدم
ونوح شعيب سام لوط وصالح سليمان يحيى هود يس خاتم

وليس هذا من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل غيرهم من الناس يولد كذلك .

ومن خرافات العامة أن يقولوا لمن يولد كذلك : ختنه القمر : أي لأن العرب تزعم أن المولود في القمر تنفسخ قلفته فيصير كالمختون ، وربما قالت العامة ختنته الملائكة وبهذا يرد على ما ذكره الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولادته مختونا .

وقيل ختن صلى الله عليه وسلم : أي ختنه الملك الذي هو جبريل كما صرح به بعضهم يوم شق قلبه صلى الله عليه وسلم عند ظئره : أي مرضعته حليمة . قال الذهبي : إنه خبر منكر . وقيل ختنه جده يوم سابع ولادته صلى الله عليه وسلم . قال العراقي ، وسنده غير صحيح اه : أي لما عق عنه صلى الله عليه وسلم بكبش كما سيأتي .

أقول : وقد يجمع بأنه يجوز أن يكون ولد مختونا غير تام الختان كما هو الغالب فى ذلك ، فتمم جده ختانه ، لكن ينازع فيه ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كرامتى على ربى أنى ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتى » أى لأجل الختان كما هو الظاهر إن صح كما قدمنا .

وفى كلام بعضهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام ختن بآلة . وعلى صحته يجمع بنحو ماتقدم . والظاهر أن المراد بالآلة التى ختن بها عيسى والتى ختن بها صلى الله عليه وسلم بناء على أن جده ختنه كانت بالآلة المعروفة التى هى الموسى وإلا لنقلت ، لأن ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله .

لايقال عدم وجود القلفة نقص من أصل الخلقة الإنسانية ، فقد قالوا فى حكمة وجود العلقة السوداء التى هى حظ الشيطان فيه ولم يخلق بدونها ، بل خلق بها تكملة للخلق الإنسانى . لأنا نقول : إنما لم يخلق بتلك القلفة ليحصل كمال الخلقة الإنسانية ، لأن هذه القلفة لما كانت تزال ولابد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة ، كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال ، بخلاف العلقة السوداء .

وكره الحسن أن يختن الولد يوم السابع ، لأن فيه تشبها باليهود ، أى لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ختن ولده إسحق عليه الصلاة والسلام يوم سابع ولادته ، اتخذه بنو إسرائيل فى ذلك اليوم سنة ، وختن ولده إسمعيل عليه الصلاة والسلام لثلاث عشرة سنة . قال أبو العباس بن تيمية ، فصار ختان إسمعيل عليه الصلاة والسلام ، أى فى ذلك الوقت سنة فى ولده يعنى العرب ، ويؤيده قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كانوا لايختنون الغلام حتى يدرك : أى لأن الثلاثة عشر هى مظنة الإدراك ، ومن ثم لما سئل ابن عباس عن سنه حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وأنا يومئذ مختون ، أى فى أوائل زمن الختان ، والله أعلم .

ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده يشير بالسبابة كالمسبح بها .

أقول : وفى رواية عن أمه أنها قالت « لما خرج من بطنى نظرت إليه ، فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المبتهل » ولا مخالفة ، لجواز أن يراد بأصبعيه السبابتان من اليدين ، والله أعلم . وفى سجوده إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب من الحضرة الإلهية

قال وروى ابن سعد « أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد وقع على يديه رافعا رأسه إلى السماء» وفى رواية « وقع على كفيه وركبتيه شاخصا ببصره إلى السماء » اهـ .

أقول : وفى رواية « وقع جاثيا على ركبتيه » ولا يخالف هذا ماسبق من أنها نظرت إليه ، فإذا هو ساجد ، لجواز أن يكون سجوده بعد رفع رأسه وشخوص بصره إلى السماء . ولا مخالفة بين كونه وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ووقوعه على كفيه ، لجواز أن يكون قبض أصابعه ماعدا السبابة بعد ذلك . ولا ينافيه قوله مقبوضة المنصوب على الحال لقرب زمنها من الوقوع على الأرض ، والاقتصار على الركبتين لا ينافى الجمع بينهما وبين الكفين .

ورأيت فى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم ولد واضعا إحدى يديه على عينيه والأخرى على سوءتيه فليتأمل ، والله أعلم .

وإلى رفع رأسه صلى الله عليه وسلم وشخوص بصره إلى السماء يشير صاحب الهمزية بقوله :

رافعا رأسه وفى ذلك الرفـ ـع إلى كل سودد إيماء

رامقا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

أى وضعته حال كونه رافعا رأسه إلى السماء ، وفى ذلك الرفع الذى هو أول فعل وقع منه بعد بروزه صلى الله عليه وسلم إلى هذا العالم إشارة إلى حصول كل رفعة وسيادة ووضعته حالة كونه رامقا ببصره إلى السماء ، وسر ذلك الإشارة إلى علو مرماه ، إذ مرمى عين الذى قصده ارتفاع مكانه الرفعة والشرف . قال : وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم قبض قبضة من تراب ، وأهوى ساجدا ، فبلغ ذلك رجلا من بنى لهب ، فقال لصاحبه : لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض » : أى لأنه قبض عليها وصارت فى يده . والفأل بالهمز وبدونه ؛ يقال فيما يسر والتطير فيما يسوء فالفأل ضد الطيرة بكسر الطاء . وقد جاء « إنى أتفاءل ولا أتطير » وقيل له صلى الله عليه وسلم « ماالفأل ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » وقال صلى الله عليه وسلم « لاعدوى ولاطيرة ويعجبنى الفأل الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة » وفى رواية «وأحب الفأل الصالح» .

وفرق بعضهم بين الفأل والتفاؤل بأن الأول يكون فى سماع الآدميين . والثانى يكون فى الطير بأسمائها وأصواتها وممرها . وقوله : لاعدوى معارض لما جاء أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم « إنا قد بايعناك فارجع فرجع

ولم يصافحه» وجاء «لاتديموا النظر للمجذومين» وسيأتى الجواب عنه بما يحصل به الجمع بينه وبين ماجاء «أنه أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة وقال : كل بسم الله عز وجل وتوكلا عليه» وبنو لهب بكسر اللام وسكون الهاء : حى من الأزد أعلم الناس بالزجر : أى زجر الطير والتفاؤل بها وبغيرها .

فقد كان فى الجاهلية إذا أراد الشخص أن يخرج لحاجة جاء إلى الطير وأزعجها عن أوكارها ، فإن مر الطائر على اليمين سمى سانحا واستبشر مريد الحاجة بقضائها ، وإن مر على اليسار سمى بارحا بالموحدة والراء والحاء المهملة ، وقعد مريد الحاجة عنها تفاؤلا بعدم قضائها : أى وهذا مافسر به إمامنا الشافعى الحديث الآتى «أقروا الطير فى مكامنها» فعن سفيان بن عيينة قال : قلت للشافعى رضى الله تعالى عنه : يا أبا عبد الله مامعنى هذا الحديث ؟ فقال : علم العرب كان فى زجر الطير ، كان الرجل منهم إذ أراد سفرا جاء إلى الطير فى مكامنها فطيرها الحديث .

ويحكى عن وائل بن حجر وكان زاجرا حسن الزجر أنه خرج يوما من عند زياد بالكوفة ، وهو الذى ألحقه معاوية بأبيه أبى سفيان ، وهو والد عبيد الله بن زياد الذى قاتل الحسين ، وكان أميرها المغيرة بن شعبة فرأى غرابا ينغق بالغين المعجمة : أى يصيح فرجع إلى زياد وقال له هذا غراب يرحلك من ههنا إلى خير ، فقدم رسول معاوية إلى زياد من يومه بولاية البصرة .

وقد ذكر أن أباذؤيب الهذلى الشاعر كان مسلما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجتمع به قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل ، ولما كان وقت السحر هتف بى هاتف وأنا نائم وهو يقول :

قبض النبى محمـــد فعيوننا تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال : فقمت من نومى فزعا ، فنظرت فى السماء فلم أر إلا سعد الذابح ، فتفاءلت به وعلمت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قبض ، فركبت ناقتى وحثتها حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطير فأخبرنى بوفاته صلى الله عليه وسلم ، فلما قدمت المدينة فإذا فيها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاج فسألت ، فقيل لى : قبض رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو مسجى وقد خلا به أهله ، وأبو هذيل هذا هو القائل :

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

ومن زجر الطير ما حكاه بعضهم قال : جاء أعرابى إلى دار القاضى أبى الحسين الأزدى المالكى ، فجاء غراب فقعد على نخلة فى تلك الدار وصاح ثم طار ، فقال الأعرابى هذا الغراب يقول إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام ، فصاح الناس عليه وزجروه فقام وانصرف ، فى سابع يوم مات هذا القاضى .

وقد جاء النهى عن ذلك : أى عن الزجر والطيرة فى قوله صلى الله عليه وسلم « أقروا الطير على مكامنها » أى لا تزجروها . وجاء « الطير شرك » وجاء « من أرجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » أى حيث اعتقد أنها تؤثر . وجاء « إذا رأى أحدكم من الطيرة ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولاحول ولا قوة إلا بك » وفى رواية « اللهم لا طير إلاطيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ثم يمضى لحاجته » وقد جاء « لاعدوى ولاطيرة ولا هام » وفى لفظ « ولا هامة » بالتخفيف زاد فى رواية « ولا صفر » والهامة هو أنه كان أهل الجاهلية يزعمون أنه إذا قتل القتيل ولم يؤخذ بثأره يخرج له طائر يقول عند قبره اسقونى من دم قاتلى ، اسقونى من دم قاتلى ، ولا يزال يقول ذلك حتى يؤخذ بثأر القتيل ، كانت العرب تسميه الهامة بالتخفيف . وأما الهامة بالتشديد فواحدة الهوام ، وهى الحيات والعقارب وماشاكلها ، ومن ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى تعويذه للحسن والحسين « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة ثم يقول : هكذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعوذ إسمعيل وإسحاق » ، وقوله « ولا صفر » ذكر الإمام النووى أن المراد به حية صفراء تكون فى جوف الانسان إذا جاع تؤذيه ، كذا كانت العرب تزعم ذلك قال : وهذا التفسير هو الصحيح الذى عليه عامة العلماء ، وقد ذكره مسلم عن جابر راوى الحديث ، فتعين اعتماده .

وروى ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأت أمى حين وضعتنى سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى » وفى رواية « أنها قالت لما وضعته خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، فأضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى » .

وفى الخصائص الصغرى « ورأت أمه عند ولادته نورا خرج منها أضاء له قصور الشام » وكذلك أمهات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرين اهـ ، ولعل المراد يرين مطلق النور لا الذى تضىء منه قصور الشام . وقوله «قصور الشام» الخ ظاهر فى أن المراد جميع الإقليم لا خصوص بصرى ، ولعل الاقتصار على بصرى فى الروايات لكون النور كان بها أتم ، ومن ثم قالت « حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى » أو رأت مرة وصول النور إلى بصرى خاصة ومرة جاوزها تأمل ؛ وإلى هذا النور يشير عمه العباس رضى الله تعالى عنه بقوله فى قصيدته التى امتدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ؛ وقد قال له فى مرجعه من تلك الغزوة « يا رسول الله إنى أريد أن أمتدحك ، فقال له رسول الله : قل ، لا يفضض الله فاك ؛ فقال قصيدة منها :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ... ـور سبل الرشاد نخترق»

وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله :

وتراءت قصور قيصر بالرو ... م يراها من داره البطحاء

أى رؤيت قصوره ملك الروم فى بلاد الروم يبصرها الذى داره بمكة قال : وهذا ظاهر فى أنها رأت ذلك النور يقظة ، وتقدم فى حديث شداد أنها رأته مناما ، وقد تقدم الجمع اهـ : أى وتقدم ما فى ذلك الجمع .

وذكر أن أم إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه رأت وهى حامل به أن النجم المسمى بالمشترى خرج من فرجها فوقع فى مصر ثم وقع فى كل بلدة منه شظية ، فتأول ذلك أصحاب تأويل الرؤيا بأنها تلد عالما يكون علمه بمصر أولا ثم ينتشر إلى سائر البلدان .

وروى السهيلى على الواقدى « أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد تكلم ، فقال : جلال ربى الرفيع » وروى « أن أول ما تكلم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا » ولا مانع من أنه صلى الله عليه وسلم تكلم بكل ذلك والأولوية فى الرواية الثانية إضافية لما لا يخفى .

وقد وقع الاختلاف فى وقت ولادته صلى الله عليه وسلم : أى هل كان ليلا أو نهارا وعلى الثانى فى أى وقت من ذلك النهار وفى شهره وفى عامه وفى محله ؟ فقيل ولد يوم الاثنين ، قال بعضهم : لا خلاف فيه والله ؛ بل أخطأ من قال ولد يوم الجمعة : أى

فعن قتادة رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين ؛ فقال ذلك يوم ولدت فيه » وذكر الزبير بن بكار والحافظ ابن عساكر أن ذلك كان حين طلوع الفجر ويدل له قول جده عبد المطلب : ولد لى الليلة مع الصبح مولود . وعن سعيد بن المسيب « ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إبهار النهار » أى وسطه « وكان ذلك اليوم لمضى اثنى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول » أى وكان ذلك فى فصل الربيع ؛ وقد أشار إلى ذلك بعضهم بقوله :

يقول لنا لسان الحال منه　　　وقول الحق يعذب للسميع

فوجهى والزمان وشهر وضعى　　　ربيع فى ربيع فى ربيع

قال : وحكى الإجماع عليه وعليه العمل الآن ، أى فى الأمصار خصوصا أهل مكة فى زيارتهم موضع مولده صلى الله عليه وسلم ، وقيل لعشر ليال مضت من ربيع وصحح اه أى صححه الحافظ الدمياطى : أى لأن الأول قال فيه ابن دحية : ذكره ابن إسحاق مقطوعاً دون إسناد ؛ وذلك لا يصح أصلا ، ولو أسنده ابن إسحاق لم يقبل منه لتجريح أهل العلم له فقد قال كل من ابن المدينى وابن معين أن ابن إسحاق ليس بحجة ووصفه مالك رضى الله تعالى عنه بالكذب . قيل وإنما طعن فيه مالك لأنه بلغه عنه أنه قال : هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله ، فعند ذلك قال مالك : وما ابن إسحاق إنما هو رجل من الدجاجلة أخرجناه من المدينة . قال بعضهم : وابن إسحاق من جملة من يروى عنه شيخ مالك يحيى بن سعيد . وقال بعضهم : ابن إسحاق فقيه ثقة لكنه مدلس وقيل ولد لسبع عشرة ليلة خلت منه . وقيل لثمان مضت منه . قال ابن دحية : وهو الذى لا يصح غيره وعليه أجمع أهل التاريخ .

وقال القطب القسطلانى : وهو اختيار أكثر أهل الحديث : أى كالحميدى وشيخه ابن حزم . وقيل لليلتين خلتا منه ، وبه جزم ابن عبد البر . وقيل لثمان عشرة ليلة خلت منه ، رواه ابن أبى شيبة ، وهو حديث معلول . وقيل لاثنتى عشرة بقين منه . وقيل لاثنى عشرة . وقيل لثمان ليال خلت من رمضان وصححه كثير من العلماء ؛ وهذا هو الموافق لما تقدم من أن أمه صلى الله عليه وسلم حملت به فى أيام التشريق أو فى يوم عاشوراء وأنه مكث فى بطنها تسعة أشهر كوامل ، لكن قال بعضهم ، إن هذا القول غريب جداً ومستند قائله أنه أوحى إليه صلى الله عليه وسلم فى رمضان فيكون مولده فى

رمضان، وعلى أنها حملت به فى أيام التشريق الذى لم يذكروا غيره يعلم مافى بقية الأقوال. قال ، وقيل ولد فى صفر . وقيل فى ربيع الآخر ، وقيل فى محرم ، وقيل فى عاشوراء أى كما ولد عيسى عليه السلام ، وقيل لخمس بقين منه اهـ . أى وذكر الذهبى أن القول بأنه ولد صلى الله عليه وسلم فى عاشوراء من الإفك : أى الكذب ، وفيه إن كان ذلك لأنه لايجامع أنها حملت به صلى الله عليه وسلم فى أيام التشريق ؛ وأنه مكث فى بطنها تسعة أشهر كوامل لا يختص الإفك بهذا القول ؛ بل يأتى فيما عدا القول بأنه ولد فى رمضان ؛ ثم رأيت بعضهم حكى أنه حمل فى شهر رجب ؛ وحينئذ يصح القول المشهور ولادته فى ربيع الأول .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ولد يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وهاجر إلى المدينة يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وتوفى يوم الاثنين فى ربيع الأول . قال بعضهم : وهذا غريب جدا .

وقيل لم يولد نهارا ، بل ولد ليلا . فعن عثمان بن أبى العاص عن أمه رضى الله تعالى عنهما أنها شهدت ولادة النبى صلى الله عليه وسلم ليلا ، قالت : فما شىء أنظر إليه من البيت إلا نورا ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقعن على . قال ابن دحية وهو حديث مقطوع . قال بعضهم : ولا يصح عندى بوجه أنه ولد ليلا، لقوله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه بنقل العدل عن العدل « أنه سئل عن صوم يوم الاثنين فقال : فيه ولدت » واليوم إنما هو النهار بنص القرآن . وأيضا الصوم لايكون إلا نهارا .

وأفاد البدر الزركشى أن هذا الحديث : أى المتقدم عن أم عثمان بن أبى العاص على تقدير صحته لادلالة فيه على أنه ولد ليلا ، قال : فإن زمان النبوة صالح للخوارق . ويجوز أن تسقط النجوم نهارا : أى فضلا عن أن تكاد تسقط سيما إن قلنا ولد عند الفجر لأن ذلك ملحق بالليل ، وإلى التردد فى وقت ولادته صلى الله عليه وسلم هل هو فى الليل أو النهار أشار صاحب الهمزية بقوله :

ليلة المولد الذى كان للد ... ين سرور بيومه وازدهاء

فهنيئا به لآمنة الفضـ ... ـل الذى شرفت به حواء

من لحواءأنها حملت أحـ ـمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار مالم تنله النساء

أى ليلة المولد الذى وجد فيه الفرح والافتخار للدين بيومه ، وقد أضاف كلا من الليل واليوم للولادة مراعاة للخلاف فى ذلك ، فهنيئا لآمنة الفضل الذى حصل لها بسبب ولادتها له صلى الله عليه وسلم : أى لايشوب ذلك الفضل كدر ولا مشقة الذى شرفت بذلك الفضل حواء التى هى أم البشر ، ومن يشفع لحواء فى أنها حملت به وأنه أصابها نفاس به يوم أعطيت آمنة بنت وهب بسبب وضعه من الفخار ، وهو مايتمدح به من الخصال العلية ، والشيم المرضية ، مالم يعطها غيرها من النساء .

أى وقد أقسم الله بليلة مولده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (والضحى والليل) وقيل أراد بالليل ليلة الإسرى ، ولا مانع أن يكون الاقسام وقع بهما ، أى استعمل الليل فيهما . ويدل لكون ولادته صلى الله عليه وسلم كانت ليلا قول بعض اليهود ممن عنده علم الكتاب لقريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا : لانعلم قال : ولد الليلة نبى هـذه الأمة الأخيرة ، إلى آخر مايأتى ، وسيأتى مايدل على ذلك ، وهو وضعه تحت الجفنة .

وولادته صلى الله عليه وسلم قيل كانت فى عام الفيل ، قيل فى يومه . فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل . وعن قيس ابن مخرمة : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل ضحا فنحن لدتان ، قال الحافظ ابن حجر المحفوظ لفظ العام : أى بدل لفظ اليوم ، وقد يراد باليوم مطلق الوقت فيصدق بالعام ، كما يقال يوم الفتح ويوم بدر ، وعليه فلدان معناه متقاربان فى السن بالموحدة ، وعلى أن المراد باليوم حقيقته يكون بالنون .

وفى تاريخ ابن حبان : ولد عام الفيل فى اليوم الذى بعث الله تعالى الطير الأبابيل فيه على أصحاب الفيل .

وعند ابن سعد : ولد يوم الفيل يعنى عام الفيل اهـ : أى لما تقدم عن ابن حجر ، وعليه فيكون قول ابن حبان فى اليوم تفسيرا للعام . على أن المراد باليوم مطلق الوقت الصادق بالعام .

وقيل ولد بعد الفيل بخمسين يوما ، كما ذهب إليه جمع منهم السهيلى . قال بعضهم :

وهو المشهور . قال : وقيل بخمسة وخمسين يوما . وقيل بأربعين يوما ، وقيل بشهر ، وقيل بعشر سنين ، وقيل بثلاث وعشرين سنة ، وقيل بثلاثين سنة ، وقيل بأربعين سنة، وقيل بسبعين سنة اهـ: أى وعلى أنه بعدالفيل بخمسة وخمسين يوما اقتصر الحافظ الدمياطى رحمه الله . وعبارة المواهب : حكاه الدمياطى فى آخرين ، وكونه فى عام الفيل قال الحافظ ابن كثير : هو المشهور عند الجمهور . وقال إبراهيم بن المنذر شيخ البخارى رحمه الله لايشك فيه أحد من العلماء ، ونقل غير واحد فيه الإجماع . وقال : كل قول يخالفه وهم: أى وقيل قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة . قال بعضهم : وهذا غريب منكر وضعيف أيضا .

أقول : والقول بأنه ولد قبل عام الفيل أو فيه أو بعده بعشر سنين يقتضى تضعيف ماذكره الحافظ أبو سعيد النيسابورى أن نور النبى صلى الله عليه وسلم كان يضىء فى غرة جده عبد المطلب ، وكانت قريش إذا أصابها قحط أخذت بيد عبد المطلب إلى جبل ثبير يستسقون به، فيسقيهم الله تعالى ببركة ذلك النور ، وأنه لما قدم صاحب الفيل لهدم الكعبة لتكون كنيسته التى بناها . ويقال إنها القليس كجميز لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لأنها فى أعلى الرءوس مكان الكعبة فى الحج إليها .

وقد اجتهد أبرهة فى زخرفتها ، فجعل فيها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، كان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وجعل فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنوس ، وشدد على عمالها بحيث إذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ العامل فى عمله قطع يده ، فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس ، فجاءت معه أمه وهى امرأة عجوز، فتضرعت إليه فى أن لايقطع يد ولدها فأبى إلا قطع يده ، فقالت له اضرب بمعولك اليوم،فاليوم لك وغدا لغيرك، فقال لها: ويحك ماقلت ؟ فقالت نعم كما صار هذا الملك من غيرك إليك فكذلك يصير منك إلى غيرك ، فأخذته موعظتها فعفا عنه ، ورجع عن هذا الأمر ، فعند ذلك ركب عبد المطلب فى قريش إلى جبل ثبير فاستدار ذلك النور ، فى وجه عبد المطلب كالهلال ، وألقى شعاعه على البيت الحرام مثل السراج ، فلما نظر عبد المطلب لذلك قال : يامعشر قريش ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر فوالله مااستدار هذا النور منى إلا أن يكون الظفر لنا فرجعوا فلما دخل رسول صاحب الفيل إلى مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخر مغشيا عليه

فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خر ساجدا لعبد المطلب : أى فإن صاحب الفيل أمره أن يقول لقريش : إن الملك إنما جاء لهدم البيت، فإن لم تحولوا بينه وبينه لم يزد على هدمه، وإن أحلتم بينه وبينه أتى عليكم، فقال له عبد المطلب ؟ ماعندنا منعة ولا ندفع عن هذا البيت ، وله رب إن شاء منعه : أى وفى لفظ قال عبد المطلب ، والله مانريد حربه وما لنا منه بذلك طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت إبراهيم خليل الله ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن لم يحل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه وأمر أبرهة رسوله أيضا أن يأتى له بسيد القوم ، فقال لعبد المطلب : قد أمرنى أن آتيه بك ، فقال عبد المطلب أفعل ، فجاءه راعى إبله وخيله ، وأخبره أن الحبشة أخذت الإبل والخيل التى كانت ترعى بذى المجاز .

وفى سيرة ابن هشام بل وفى غالب السير الاقتصار على الإبل ، وأنها كانت مائتى بعير ، وقيل أربعمائة ناقة . فركب عبد المطلب صحبة رسول صاحب الفيل وركب معه ولده الحارث فاستؤذن له على أبرهة أى قيل له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكه يعنى زمزم ، وهو يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأذن له . فلما دخل ورآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وأجلسه معه على البساط وقال لترجمانه اسأله عن حاجته ، فذكر إبله وخيله ، فذكر الترجمان له ذلك ، فقال للترجمان بلسان الحبشة قل له كنت أعجبتنى إذ رأيتك ثم قد زهدت فيك إذ سألتنى إبلا وخيلا ، وتركت أن تسأل عن البيت الذى هو عزك ، فقال له الترجمان ذلك ، فقال عبد المطلب أنا رب الإبل والخيل التى سألتها الملك ، وأما البيت فله رب إن شاء أن يمنعه من الملك ، فقال أبرهة ما كان ليمنعه منى ، فرد عليه ما كان أخذ له وانصرف . وأبرهة بلسان الحبشة : الأبيض الوجه .

ثم إن الفيل لما نظر إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجدا ، وأنطق الله سبحانه وتعالى الفيل ، فقال : السلام على النور الذى فى ظهرك ياعبد المطلب .

وفى كلام بعضهم أن أبرهة لما بلغه مجىء عبد المطلب إليه أمر أن عبد المطلب قبل دخوله عليه أن يذهب به إلى الفيلة ليراها ويرى الفيل العظيم وكان أبيض اللون .

أقول : رأيت أن ملك الصين كان فى مربطه ألف فيل أبيض ، وكان مع الفرس فى قتال أبى عبيد بن مسعود الثقفى أمير الجيش فى خلافة الصديق أفيلة كثيرة عليها الجلاجل ،

وقدّموا بين أيديهم فيلا عظيما أبيض ، وصارت خيول المسلمين كلما حملت وسمعت حس الجلاجل نفرت ، فأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة فقتلوها عن آخرها ، وتقدم أبو عبيد لهذا الفيل العظيم الأبيض فضربه بالسيف فقطع زلومه ، فصاح الفيل صيحة هائلة ، وحمل على أبي عبيد فتخبطه برجله ووقف فوقه فقتله ، فحمل على الفيل شخص كان أبو عبيد أوصى أن يكون أميرا بعده فقتله ، ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف كان قد نص أبو عبيد عليهم واحدا بعد واحد ، وهذا من أغرب الاتفاقيات والله أعلم . وإنما أرى عبد المطلب الفيلة إرهابا له وتخويفا فإن العرب لم تكن تعرف الأفيال ، وكانت الأفيال كلها ماعدا الفيل الأعظم تسجد لأبرهة .

وأما الفيل الأعظم فلم يسجد إلا للنجاشي ، فلما رأت الفيلة عبد المطلب سجدت حتى الفيل الأعظم . وقيل إن أبرهة لم يخرج إلا بالفيل الأعظم ، ولما بلغ أبرهة سجود الفيلة لعبد المطلب تطير ثم أمر بإدخال عبد المطلب عليه ، فلما رآه ألقيت له الهيبة فى قلبه ، فنزل عن سريره تعظيما لعبد المطلب . ثم رأيت العلامة ابن حجر فى شرح الهمزية حاول الجواب عن هذا الذى تقدم عن الحافظ النيسابورى ، من أن النور استدار فى وجه عبد المطلب إلى آخره : أى وقول الفيل : السلام على النور الذى فى ظهرك ياعبد المطلب مع أن ولادته صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت ، يلزمها أن يكون النور انتقل من عبد المطلب إلى عبد الله ، ثم انتقل من عبد الله إلى آمنة ، بأن النور وإن انتقل من عبدالمطلب ، لكن الله سبحانه وتعالى أكرم عبد المطلب فأحدث ذلك النور فى ظهره ، وفى وجهه وأطلع الفيل عليه هذا كلامه فليتأمل .

وذكر بعضهم أن الفيل مع عظم خلقته صوته ضئيل أى ضعيف ، ويفرق أى يخاف من السنور الذى هو القط ويفزع منه .

وفى المواهب : والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد الفيل ، لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته ومقدمة لظهوره وبعثته ، هذا كلامه . وفيه أنه قد يقال الإرهاصات إنما تكون بعد وجوده وقبل مبعثه الذى هو دعواه الرسالة ، لا قبل وجوده بالكلية الذى هو المراد بظهوره . وحينئذ فقول القاضى البيضاوى : إنها من الإرهاصات ، إذ روى أنها وقعت فى السنة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى بعد وجوده . ومن ثم قال ابن القيم فى الهدى : إن مما جرت به عادة الله تعالى أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة

مقدمات تكون كالمدخل لها ، فمن ذلك قصة مبعثه صلى الله عليه وسلم تقدمها قصة الفيل ، هذا كلامه .

قال : فلما شرع أبرهة فى الذهاب إلى مكة وصل الفيل إلى أول الحرم ، والمواهب أسقط هذا ، وهو يوهم أنهم دخلوا مكة ، وأن الفيل برك دون البيت فليتأمل ، وعند وصوله إلى أول الحرم برك ، فصاروا يضربون رأسه ويدخلون الكلاليب فى مراق بطنه فلا يقوم ، فوجهوا وجهه إلى جهة اليمن ، فقام يهرول ،وكذا إلى جهة الشام فعل ذلك مرارا فأمر أبرهة أن يسقى الفيل الخمر ليذهب تمييزه فسقوه فثبت على أمره .

ويقال إنما برك لأن نفيل بن حبيب الخثعمى قام إلى جنب الفيل فعرك أذنه وقال : ابرك محمودا وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك .

قال السهيلى رحمه الله : الفيل لايبرك ، فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه على الأرض لما جاءه من أمر الله سبحانه . ويحتمل أن يكون فعل البرك وهو الذى يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك .

قال : وقد سمعت من يقول إن فى الفيلة صنفا منها يبرك كما يبرك الجمل ، وعند ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الطير الأبابيل ، خرجت من البحر أمثال الخطاطيف . ويقال إن حمام الحرم من نسل تلك الطير فأهلكتهم .

وقد يقال إن هـذا اشتباه ، لأن الذى قيل إنه من نسل الأبابيل إنما هو شىء يشبه الزرازير يكون بباب إبراهيم من الحرم . وإلا فسيأتى أن حمام الحرم من نسل الحمام الذى عشش على فم الغار على ماسيأتى فيه . وفى حياة الحيوان أن الطير الأبابيل تعشش وتفرخ بين السماء والأرض .

ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزت قريش وهابتهم الناس كلهم ، وقالوا : أهل الله لأن الله معهم . وفى لفظ : لأن الله سبحانه وتعالى قاتل عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم الذى لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة ، وغنموا أموال أصحاب الفيل : أى ومن حينئذ مزقت الحبشة كل ممزق ، وخرب ماحول تلك الكنيسة التى بناها أبرهة ؛ فلم يعمرها أحد ، وكثرت حولها السباع والحيات ومردة الجن ؛ وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئا أصابته الجن ؛ واستمرت كذلك إلى زمن السفاح الذى هو أول خلفاء بنى العباس ،

فذكر له أمرها؛ فبعث إليها عامله على اليمن فخربها وأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التى تساوى قناطير من الذهب ؛ فحصل له منها مال عظيم ؛ وحينئذ عفا رسمها وانقطع خبرها ؛ واندرست آثارها .

وقد كان عبد المطلب أمر قريشا أن تخرج من مكة وتكون فى رءوس الجبال خوفا عليهم من المعرة ؛ وخرج هو وإياهم إلى ذلك بعد أن أخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش ؛ يدعون الله سبحانه وتعالى ؛ ويستنصرونه على أبرهة وجنده ؛ وقال :

لاهم إن العبـد يمـ ... ـنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غـدوا محالك

أى فإنهم كانوا نصارى . ولا هم : أصله اللهم ؛ فإن العرب تحذف الألف واللام ؛ وتكتفى بما يبقى ؛ وكذلك تقول : لاه أبوك ؛ تريد لله أبوك ؛ والحلال بكسر الحاء المهملة : جمع حلة ؛ وهى البيوت المجتمعة . والمحال بكسر الميم : القوة والشدة ؛ والغدو بالغين المعجمة أصله الغد : وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك الذى أنت فيه . ويقال إن عبد المطلب جمع قومه وعقد راية وعسكر بمنى .

وجمع ابن ظغر بينه وبين ماتقدم من أنه خرج مع قومه إلى رءوس الجبال ، بأنه يحتمل أنه أمر أن تكون الذرية فى رءوس الجبال : أى وخرج معهم تأنيسا لهم ثم رجع وجمع إليه المقاتلة : أى ويؤيد ذلك قول المواهب : ثم إن أبرهة أمر رجلا من قومه يهزم الجيش ، فلما وصل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع إلى آخر ماتقدم . فإسقاط المواهب كون قريش جيشت جيشا مع قومه ، ثم إن أبرهة أرسل رجلا من قومه ليهزم الجيش لايحسن . ثم ركب عبدالمطلب لما استبطأ مجىء القوم إلى مكة ينظر ماالخبر فوجدهم قد هلكوا : أى غالبهم ، وذهب غالب من بقى ، فاحتمل ماشاء من صفراء وبيضاء ، ثم آذن : أى أعلم أهل مكة بهلاك القوم فخرجوا فانتهبوا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى : وسبب غنى عثمان بن عفان أن أباه عفان وعبد المطلب وأبا مسعود الثقفى لما هلك أبرهة وقومه كانوا أول من نزل مخيم الحبشة ، فأخذوا من أموال أبرهة وأصحابه شيئا كثيرا ودفنوه عن قريش ، فكانوا أغنى قريش وأكثرهم مالا . ولما مات عفان ورثه عثمان رضى الله تعالى عنه .

أى ومن جملة من سلم من قوم أبرهة ولم يذهب بل بقى بمكة سائس الفيل وقائده .

فعن عائشة رضى الله تعالى عنها : أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس .

وأورد على هذا أن الحجاج خرّب الكعبة بضرب المنجنيق ولم يصبه شىء؟ .

ويجاب بأن الحجاج لم يجئ لهدم الكعبة ولا لتخريبها ولم يقصد ذلك ؛ وإنما قصد التضييق على عبدالله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما ليسلم نفسه ؛ وهذا أولى من جواب المواهب كما لايخفى ؛ والله أعلم .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم بمكة فى الدار التى صارت تدعى لمحمد بن يوسف أخى الحجاج : أى وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبى طالب؛ ولم تزل بيد أولاده بعد وفاته إلى أن باعوها لمحمد بن يوسف أخى الحجاج بمائة ألف دينار قاله الفاكهى : أى فأدخلها فى داره وسماها البيضاء : أى لأنها بنيت بالجص ثم طليت به ؛ فكانت كلها بيضاء ؛ وصارت تعرف بدار ابن يوسف ؛ لكن سيأتى فى فتح مكة أنه قيل له صلى الله عليه وسلم « يارسول الله تنزل فى الدور ؟ قال : هل ترك لنا عقيل من رباع أو دور » فإن هـذا السياق يدل على أن عقيلا باع تلك الدار فلم يبق بيده ولا بيد أولاده بعده . إلا أن يقال المراد باع ماعدا هذه الدار التى هى مولده صلى الله عليه وسلم : أى لأنه كما سيأتى فى الفتح باع دار أبيه أبى طالب ؛ لأنه وطالبا أخاه ورثا أبا طالب ؛ لأنهما كانا كافرين عند موت أبى طالب؛ دون جعفر وعلى رضى الله تعالى عنهمافإنهما كانا مسلمين؛ وعقيل أسلم بعد دون طالب ؛ فإن طالبا اختطفته الجن ولم يعلم به؛ وإن عقيلا باع دار رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى دار خديجة : أى التى يقال لها مولد فاطمة رضى الله تعالى عنها ؛ وهى الآن مسجد يصلى فيه ؛ بناه معاوية رضى الله تعالى عنه أيام خلافته . قيل وهو أفضل موضع بمكة بعد المسجد الحرام : أى واشتهر بمولد فاطمة رضى الله تعالى عنها لشرفها ؛ وإلا فهو مولد بقية إخوتها من خديجة ؛ ولعل معاوية رضى الله تعالى عنه اشترى تلك الدار ممن اشتراها من عقيل .

ويدل لما قلناه قول بعضهم : لم يتعرض صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة لتلك الدار التى أبقاها فى يد عقيل : أى التى هى دار خديجة ؛ فإنه لم يزل بها صلى الله عليه وسلم حتى هاجر فأخذها عقيل .

وفى كلام بعضهم : لما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ضرب مخيمه بالحجون ؛

فقيل له : ألا تنزل منزلك من الشعب فقال « وهل ترك لنا عقيل منزلا » وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنازل إخوته حين هاجروا من مكة ؛ ومنزل كل من هاجر من بنى هاشم .

وفى كلام بعضهم : كان عقيل تخلف عنهم فى الإسلام والهجرة ؛ فإنه أسلم عام الحديبية التى هى السنة السادسة وباع دورهم ؛ فلم يرجع النبى صلى الله عليه وسلم فى شىء منها ؛ وهى أى تلك الدار التى ولد بها صلى الله عليه وسلم عند الصفا ؛ قد بنتها زبيدة زوجةالرشيد أم الأمين مسجدا لما حجّت .

وفى كلام ابن دحية أن الخيزران أم هرون الرشيد لما حجت أخرجت تلك الدار من دار ابن يوسف وجعلتها مسجدا . ويجوز أن تكون زبيدة جددت ذلك المسجد الذى بنته الخيزران فنسب لكل منهما ؛ وسيأتى أن الخيزران بنت دار الأرقم مسجدا ، وهى عند الصفا أيضا ، ولعل الأمر التبس على بعض الرواة لأن كلا منهما عند الصفا . وقيل ولد صلى الله عليه وسلم فى شعب بنى هاشم .

أقول : قد يقال لامخالفة ، لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بنى هاشم ، ثم رأيت التصريح بذلك . ولا ينافيه ماتقدم فى الكلام على الحمل من أن شعب أبى طالب وهو من جملة بنى هاشم كان عند الحجون ، لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب ، والله أعلم .

قال : وقيل ولد صلى الله عليه وسلم فى الردم : أى ردم بنى جمح ، وهم بطن من قريش ، ونسب لبنى جمح لأنه ردم على من قتلوا فى الجاهلية من بنى الحارث ، فقد وقع بين بنى جمح وبين بنى الحارث فى الجاهلية مقتلة ، وكان الظفر فيها لبنى جمح على بنى الحارث فقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وردم على تلك القتلى بذلك المحل . وقيل ولد بعسفان انتهى .

أقول : مما يردّ القول بكونه ولد بعسفان ماذكره بعض فقهائنا ، أن من جملة مايجب على الولى أن يعلم موليه إذا ميز أنه صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ودفن بالمدينة ، إلا أن يقال ذاك بناء على ماهو الأصح عندهم . والردم : هو المحل الذى كانت ترى منه الكعبة قبل الآن ، ويقال له الآن المدعى ، لأنه يؤتى فيه بالدعاء الذى يقال عند رؤية الكعبة ، ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم وقف به ، ولعله لم يكن مرتفعا فى زمنه صلى الله

عليه وسلم ، لأنه إنما رفعه وبناه سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فى خلافته ، لما جاء السيل العظيم الذى يقال له سيل أم نهشل ، وهى بنت عبيدة بن سعيد بن العاص ، فإنه أخذها وألقاها أسفل مكة فوجدت هناك ميتة ، ونقل المقام إلى أن ألقاه بأسفل مكة أيضا فجيء به وجعل عند الكعبة ، وكوتب عمر رضى الله عنه بذلك فحضر وهو فزع مرعوب ، ودخل مكة معتمرا فوجد محل المقام دثر ، وصار لا يعرف ، فهاله ذلك ثم قال : أنشد الله عبداً عنده علم من محل هذا المقام ، فقال المطلب بن رفاعة رضى الله تعالى عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندى علم بذلك ، فقد كنت أخشى عليه مثل ذلك ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم بحفاظ ، فقال له اجلس عندى وأرسل ، فأرسل فجيء بذلك الحفاظ فقيس به ووضع المقام بمحله الآن ، وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . فعند ذلك بنى هذا المحل الذى يقال له الردم بالصخرات العظيمة ورفعه فصار لايعلوه السيل ، وصارت الكعبة تشاهد منه ، والآن قد حالت الأبنية فصارت لا ترى ، ومع ذلك لا بأس بالوقوف عنده والدعاء فيه تبركا بمن سلف ، ولعل هذا محمل قول من قال : أول من نقل المقام إلى محله — وكان ملصقا بالكعبة — عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فلا ينافى أن الناقل له هو صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، لكن رأيت ابن كثير قال : وقد كان هذا الحجر أى الذى هو المقام ملصقا بباب الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فأخره عنه لئلا يشغل المصلين عنده الطائفون بالبيت هذا كلامه .

وقوله من قديم الزمان ظاهره من عهد إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فليتأمل .

وعن كعب الأحبار : إنى أجد فى التوراة : عبدى أحمد المختار ، مولده بمكة : أى وهو ظاهر فى أن كعب الأحبار كان قبل الإسلام على دين اليهودية .

قال : وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه عن أمه الشفاء : أى بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء ، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصوراً قالت : لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدى : أى فهى دايته صلى الله عليه وسلم . ووقع فى كلام ابن دحية أن أم أيمن دايته صلى الله عليه وسلم .

وقد يقال إطلاق الداية على أم أيمن ، لأنها قامت بخدمته صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم قيل لها حاضنته ، وللشفاء قابلته .

وقد قيل : فى اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء ، وفى اسم الحاضنة البركة والنماء ، وفى اسم مرضعته أولا التى هى ثويبة الثواب ، وفى اسم مرضعته المستقلة برضاعه التى هى حليمة السعدية الحلم والسعد . قالت أم عبد الرحمن : فاستهل ، فسمعت قائلا يقول : يرحمك الله تعالى ، أو رحمك ربك : أى أو يرحمك ربك ، ولهذا القول الذى لا يقال إلا عند العطاس : أى الذى هو التشميت بالشين المعجمة والمهملة ، حمل بعضهم الاستهلال الذى هو فى المشهور صياح المولود أول ما يولد : يقال استهل المولود : إذا رفع صوته على العطاس مع الاعتراف بأنه لم يجئ فى شىء من الأحاديث تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لما ولد عطس انتهى : أى فقد قال الحافظ السيوطى : لم أقف فى شىء من الأحاديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد عطس بعد مراجعة أحاديث المولد من مظانها : أى وعطس بفتح الطاء يعطس بالكسر والضم وحكى الفتح ، ولعله من تداخل اللغتين ؛ لكن فى الجامع الصغير « استهلال الصبى العطاس » وحينئذ يكون استهلال المولود له معنيان : هما مجرد رفع الصوت والعطاس ، وحمل هنا على العطاس بقرينة الجواب الذى لايقال إلا عند العطاس ، وقد أشار إلى التشميت صاحب الهمزية رحمه الله بقوله :

شمته الأملاك إذ وضعته ... وشفتنا بقولها الشفاء

أى قالت له الأملاك : رحمك الله ، أو رحمك ربك وقت وضع أمه له ، وفرحتنا بقولها المذكور الشفاء التى هى أم عبد الرحمن بن عوف .

أقول : قال بعضهم : ولعله صلى الله عليه وسلم حمد الله بعد عطاسه لما استقر من شرعه الشريف أنه لا يسن التشميت : إلا لمن حمد الله تعالى ، هذا كلامه . ويدل لما ترجاه ما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم حين خروجه من بطن أمه قال « الحمد لله كثيرا » .

وفى كلام بعض شراح الهمزية : ويجوز أن يكون شمت من غير حمد ، تعظيما لقدره صلى الله عليه وسلم . وقد جاء « العاطس إن حمد الله تعالى فشمتوه ، وإن لم يحمد فلا تشمتوه » وجاء « إذا عطس فحمد الله تعالى فحق على كل من سمعه أن يشمته » وفى الصحيح « أن رجلا عطس عند النبى صلى الله عليه وسلم وحمد الله فشمته . وعطس آخر فلم يحمد الله فلم يشمته » وفى حديث حسن « إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه ، فإذا زاد على ثلاث فهو مزكوم فلا يشمت بعد ثلاث » وتمسك بذلك : أى بالأمر بالتشميت بصيغة افعل التى الأصل فيها الوجوب ، وبقوله حتى أهل الظاهر على وجوب التشميت على كل من سمع .

وذهب بعض الأئمة إلى وجوبه على الكفاية ، وهو منقول عن مشهور مذهب مالك رضى الله تعالى عنه : أى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ليس على إبليس أشد من تشميت العاطس .

وعن سالم بن عبيد الله الأشجعى وكان من أهل الصفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا عطس أحدكم فليحمد الله عز وجل ، وليقل من عنده يرحمك الله ، وليردّ عليه بقوله : يغفر الله لى ولكم » .

ومن لطيف ما اتفق أن الخليفة المنصور وشى عنده ببعض عماله ، فلما حضر عنده عطس المنصور فلم يشمته ذلك العامل ، فقال له المنصور : مامنعك من التشميت ؟ فقال إنك لم تحمد الله ، فقال حمدت فى نفسى ، فقال قد شمتك فى نفسى ، فقال له ارجع إلى عملك فإنك إذا لم تحابنى لا تحابى غيرى .

قال بعضهم : والحكمة فى قول العاطس ما ذكر أنه ربما كان العطاس سببا لالتواء عنقه فيحمد الله على معافاته من ذلك . وقال غيره : لأن الأذى وهى الأبخرة المحتقنة تندفع به عن الدماغ الذى فيه قوة التذكر والتفكر : أى فهو بحران الرأس ، كما أن العرق بحران بدن المريض ، وذلك نعمة جليلة ، وفائدة عظيمة ، ينبغى أن يحمد الله تعالى عليها : أى ولأن الأطباء كما زعمه بعضهم نصوا على أن العطاس من أنواع الصرع ، أعاذنا الله تعالى من الصرع . وقد ينازع فيـــه ما تقدم ، وما ذكره بعض الأطباء أن العطاس للدماغ كالسعال للرئة .

قال : والعطاس أنفع الأشياء لتخفيف الرأس ، وهو مما يعين على نقص المواد المحتبسة ويسكن ثقل الرأس فيحصل منه النشاط والخفة .

وفى نوادر الأصول للترمذى قال صلى الله عليه وسلم « هذا جبريل يخبركم عن الله تعالى : مامن مؤمن يعطس ثلاث عطسات متواليات إلا كان الإيمان فى قلبه ثابتا » .

وفى الجامع الصغير « إن الله تعالى يحب العطاس ، ويكره التثاؤب » والعطسة الشديدة من الشيطان . وفى الحديث « العطاس شاهد عدل » وفى حديث حسن « أصدق الحديث ما عطس عنده » .

وقد جاء أن روح آدم عليه السلام لما نزلت إلى خياشيمه عطس ، فلما نزلت إلى فمه ولسانه قال الله تعالى له قل (الحمد لله رب العالمين) فقالها آدم عليه السلام ، فقال الحق

يرحمك الله يا آدم ، ولذلك خلقتك » وفى رواية « وللرحمة خلقتك » أى للموت .

وقد روى الترمذى مرفوعا بسند ضعيف « العطاس والنعاس والتثاؤب فى الصلاة من الشيطان » وروى ابن أبى شيبة موقوفا بسند ضعيف أيضا « إن الله يكره التثاؤب ، ويحب العطاس فى الصلاة » أى فمع كون كل واحد من العطاس والتثاؤب فى الصلاة من الشيطان العطاس فيها أحب إلى الله تعالى من التثاؤب فيها ، والتثاؤب فيها أكره إلى الله تعالى من العطاس فيها ، لأن الكراهة مقولة بالتشكيك .

ويمكن حمل كون العطاس من الشيطان على شدته ورفع الصوت به كما تقدم التقييد بذلك فى الرواية السابقة ؛ ومن ثم جاء « إذا عطس أحدكم » أى هم بالعطاس « فليضع كفيه على وجهه ، وليخفض صوته » أى ولاينافى وجود الشفاء ووجود أم عثمان بن العاص عند أمه صلى الله عليه وسلم عند ولادته مازوى عنها أنها قالت « لما أخذنى ما يأخذ النساء » أى عند الولادة «وإنى لوحيدة فى المنزل رأيت نسوة كالنخل طولا كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بى » وفى كلام ابن المحدّث « ودخل علىّ نساء طوال كأنهن من بنات عبد المطلب ، ما رأيت أضوأ منهن وجوها ، وكأنّ واحدة من النساء تقدمت إلىّ فاستندت إليها ، وأخذنى المخاض ، واشتد علىّ الطلق ، وكأنّ واحدة منهن تقدمت إلىّ وناولتنى شربة من الماء أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من الشهد ، فقالت لى اشربى فشربت ، ثم قالت الثالثة : ازدادى فازددت ، ثم مسحت بيدها على بطنى وقالت : بسم الله اخرج باذن الله تعالى ، فقلن لى : أى تلك النسوة : ونحن آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وهؤلاء من الحور العين » لجواز وجود الشفاء وأم عثمان عندها بعد ذلك ، وتأخر خروجه صلى الله عليه وسلم عن القول المذكور حتى نزل على يد الشفاء ، لما تقدم من قولها « وقع على يدىّ »ولعل حكمة شهود آسية ومريم لولادته كونهما تصيران زوجتين له صلى الله عليهوسلم فى الجنة مع كلثم أخت موسى .

ففى الجامع الصغير : « إن الله تعالى زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران ، وامرأة فرعون وأخت موسى » وسيأتى عند موت خديجة أنه صلى الله عليه وسلم قال لها « أشعرت أن الله تعالى قد أعلمنى أنه سيزوجنى » وفى رواية « أما علمت أن الله تعالى قد زوجنى معك فى الجنة مريم ابنة عمران وكلثم أخت موسى . وآسية امرأة فرعون ؟ فقالت : آلله أعلمك بهذا ؟ قال نعم . قالت بالرفاء والبنين » وقد حمى الله هؤلاء النسوة عن أن يطأهن أحد .

فقد ذكر أن آسية لما ذكرت لفرعون أحب أن يتزوجها فتزوجها على كره منها ومن أبيها مع بذله لها الأموال الجليلة ، فلما زفت له وهم بها أخـذه الله عنها وكان ذلك حاله معها ، وكان قد رضى منها بالنظر إليها .

وأما مريم فقيل إنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها ، وإنما تزوجها ليرفقها إلى مصر لما أرادت الذهاب إلى مصر بولدها عيسى عليه والسلام ، وأقاموا بها اثنتى عشرة سنة ، ثم عادت مريم وولدها إلى الشام ونزلا الناصرة .

وأخت موسى عليه الصلاة والسلام لم يذكر أنها تزوجت ، وهذا يفيد أن بنات عبد مناف أو بنات عبد المطلب على ما تقدم كنّ متميزات عن غيرهن من النساء فى إفراط الطول .

وقد رأيت أن على بن عبد الله بن عباس وهو جد الخليفتين السفاح والمنصور أول خلفاء بنى العباس أبو أبيهما محمد كان مفرطا فى الطول ، كان إذا طاف كان الناس حوله وهو راكب ، وكان مع هذا الطول إلى منكب أبيه عبد الله بن عباس ، وكان عبد الله ابن عباس إلى منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب .

لكن ابن الجوزى اقتصر فى ذكر الطوال على عمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، وقيس بن سعد ، وحبيب بن سلمة ، وعلى بن عبد الله بن العباس . وسكت عن عبد الله ابن عباس ، وعن أبيه العباس ، وعن أبيه عبد المطلب .

وفى المواهب أن العباس كان معتدلا ، وقيل كان طوالا . ورأيت أن عليا هذا جد الخلفاء العباسيين كان على غاية من العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل ، حتى قيل : إنه كان أجمل شريف على وجه الأرض ، وكان يصلى فى كل ليلة ألف ركعة ولذلك كان يدعى السجاد ، وأن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو الذى سماه عليا وكناه أبا الحسن .

فقد روى أن عليا رضى الله تعالى عنه افتقد عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فى وقت صلاة الظهر ، فقال لأصحابه ما بال أبى العباس يعنى عبد الله لم يحضر ؟ فقالوا ولد له مولود ، فلما صلى علىّ كرم الله وجهه قال امضوا بنا إليه ، فأتاه فهنأه ، فقال : شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب . زاد بعضهم . ورزقت بره ، وبلغ أشده ، ما سميته ؟ قال : أو يجوز لى أن أسميه حتى تسميه ؟ فأمر به فأخرج إليه

فأخذه فحنكه ، ودعا له ثم رده إليه وقال : خذ إليك أبا الأملاك ، قد سميته عليا ، وكنيته أبا الحسن ، فلما ولى معاوية الخلافة قال لابن عباس : ليس لكم اسمه ولا كنيته يعنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه كراهة فى ذلك ، وقد كنيته أبامحمد فجرت عليه .

وقد يخالف ذلك ما ذكر بعضهم أن عليا المذكور لما قدم على عبد الملك بن مروان قال له غير اسمك أو كنيتك ، فلا صبر لى على اسمك وهو علىّ وكنيتك وهى أبوالحسن، قال : أما الاسم فلا أغيره . وأما الكنية فأكتنى بأبى محمد ، وإنما قال عبد الملك ذلك كراهة فى اسم على بن أبى طالب وكنيته .

وعلىّ هذا دخل هو وولدا ولده محمد وهما السفاح والمنصور وهما صغيران يوما على هشام بن عبد الملك بن مروان وهو خليفة ، فأكرمه هشام ، فصار يوصيه عليهما ويقول له : سيليان هذا الأمر يعنى الخلافة ، فصار هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه فى ذلك إلى الحمق . ويقال إن الوليد بن عبد الملك : أى لما ولى الخلافة وبلغه عنه أنه يقول ذلك ضربه بالسياط على قوله المذكور ، وأركبه بعيرا ، وجعل وجهه مما يلى ذنب البعير ، وصائح يصيح عليه : هذا على بن عبد الله بن عباس الكذاب ، قال بعضهم : فأتيته وقلت له ما هذا الذى يسنده إليك من الكذب ؟ قال: بلغهم عنى أنى أقول إن هذا الأمر يعنى الخلافة ستكون فى ولدى ، والله لتكوننّ فيهم ، فكان الأمر على ما ذكر فقد ولى السفاح الخلافة ثم المنصور .

وفى دلائل النبوة للبيهقى أن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قدم على معاوية رضى الله تعالى عنه ، فأجازه وأحسن جائزته ، ثم قال : يا أبا العباس هل تكون لكم دولة ؟ قال اعفنى يا أمير المؤمنين ، قال لتخبرنى ، قال نعم ، قال فمن أنصاركم ؟ قال : أهل خراسان : أى وهو أبو مسلم الخراسانى ، يجىء بجيشه معه رايات سود يسلب دولة بنى أمية ؛ ويجعل الدولة لبنى العباس . يقال إن أبا مسلم هذا قتل ستمائة ألف رجل صبرا غير الذى قتله فى الحروب ، وهذه الرايات السود غير التى عناها صلى الله عليه وسلم بقوله « إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها ، فإن فيها خليفة الله المهدى » فإن تلك الرايات تأتى قبيل قيام الساعة . ثم صارت الخلافة فى أولاد المنصور . وقول علىّ فى ولدى واضح ، لأن ولد الولد ولد .

وقد حكى فى مرآة الزمان عن المأمون ، أنه قال : حدثنى أبى يعنى هرون الرشيد ،

عن أبيه المهدى ، عن أبيه المنصور ، عن أبيه محمد بن على ؛ عن أبيه على ، عن أبيه عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «سيد القوم خادمهم » وذكر أنه مما يؤثر عن المأمون أنه كان يقول : استخدام الرجل ضيفه لؤم .

وكان يقول : لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالجرائم ، وإنى أخاف أنى لا أوجر على العفو ، أى لأنه صار لى طبيعة وسجية .

قالت أمه صلى الله عليه وسلم : ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات : علما بالمشرق ، وعلما بالمغرب ، وعلما على ظهر الكعبة ، والله أعلم .

ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعت عليه جفنة بفتح الجيم ، فانفلقت عنه فلقتين قال : وهذا مما يؤيد أنه صلى الله عليه وسلم ولد ليلا . فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كان فى عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل وضعوه تحت الإناء لاينظرون إليه حتى يصبحوا ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعوه تحت برمة . زاد فى لفظ ضخمة . والبرمة : القدر ؛ فلما أصبحوا أتوا البرمة ، فإذا هى قد انفلقت ثنتين وعيناه إلى السماء ، فتعجبوا من ذلك .

وعن أمه أنها قالت : فوضعت عليه الإناء فوجدته قد تفلق الإناء عنه وهو يمص إبهامه يشخب أى يسيل لبنا اه .

أى وفى العرائس أن فرعون لما أمر بذبح أبناء بنى إسرائيل جعلت المرأة : أى بعض النساء كما لايخفى إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا إلى واد أو غار فأخفته فيه ، فيقيض الله سبحانه وتعالى له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس ؛ وكان الذى أتى السامرى لما جعلته أمه فى غار من الملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام ؛ فكان أى السامرى يمص من إحدى إبهاميه سمنا ومن الأخرى عسلا ؛ ومن ثم إذا جاع المرضع يمص إبهامه فيروى من المص ، قد جعل الله له فيه رزقا . والسامرى هذا كان منافقا يظهر الإسلام لموسى عليه الصلاة والسلام ويخفى الكفر .

وفى رواية أن عبد المطلب هو الذى دفعه للنسوة ليضعوه تحت الإناء .

أقول : هذا هو الموافق لما سيأتى عن ابن إسحاق من أن أمه صلى الله عليه وسلم لما ولدته أرسلت إلى جده : أى وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها : أى فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب ، فذعر عبد المطلب وقال : أليس بشرا

سويا؟ فقالت نعم ، ولكن سقط ساجدا ، ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء ؛ فأخرجته له ونظر إليه . وأخذه ودخل به الكعبة ثم خرج فدفعه إليها ؛ وبه يظهر التوقف فى قول ابن دريد : أكفئت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده ، فجاء جده والجفنة قد انفلقت عنه ؛ إلا أن يقال يجوز أن يكون جده أخذه بعد انفلاق الجفنة ثم دخل به الكعبة ، ثم بعد خروجه به من الكعبة دفعه لها وللنسوة ليضعوه تحت جفنة أخرى إلى أن يصبح ، فانفلقت تلك الجفنة الأخرى حتى لا ينافى ذلك ما تقدم عن أمه : فوجدت الإناء قد تفلق وهو يمص إبهامه .

وعن إياس الذى يضرب به المثل فى الذكاء قال : أذكر الليلة التى وضعت فيها وضعت أمى على رأسى جفنة وقال لأمه ماشىء سمعته لما ولدت؟ قالت يابنى طست سقط من فوق الدار إلى أسفل ففزعت فولدتك تلك الساعة .

وقال بعضهم : يولد فى كل مائة سنة رجل تام العقل ، وإن إياسا منهم ولعل هذا هو المراد بما جاء فى الحديث « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » والمراد برأسها آخرها بأن يدرك أوائل المائة التى تليها بأن تنقضى تلك المائة وهو حى ، إلا أنى لم أقف على أن إياسا هذا كان من المجددين والله أعلم .

وفى تفسير ابن مخلد الذى قال فى حقه ابن حزم . ماصنف مثله أصلا : أن إبليس رنأى صوّت بحزن وكآبة أربع رنات : رنة حين لعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى وهو المراد بقول بعضهم يوم بعثه ، ورنة حين أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب ، وإلى رنته حين ولادته صلى الله عليه وسلم أشار صاحب الأصل بقوله .

لمولده قد رنّ إبليس رنة   فسحقا له ماذا يفيد رنينه

وعن عطاء الخراسانى لما نزل قوله تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) صرخ إبليس صرخة عظيمة اجتمع إليه فيها جنوده من أقطار الأرض قائلين : ما هذه الصرخة التى أفزعتنا ؟ قال : أمر نزل بى لم ينزل قط أعظم منه ، قالوا : وما هو ؟ فتلا عليهم الآية وقال لهم : فهل عندكم من حيلة ؟ قالوا ما عندنا من حيلة ، فقال : اطلبوا فإنى سأطلب ؛ قال : فلبثوا ما شاء الله ، ثم صرخ أخرى فاجتمعوا إليه وقالوا : ما هذه الصرخة التى لم نسمع منك مثلها إلا التى قبلها ؟ قال : هل وجدتم

شيئا ؟ قالوا : لا ، قال : لكني قد وجدت ؛ قالوا : وما الذي وجدت ؟ قال أزين لهم البدع التي يتخذونها دينا ثم لا يستغفرون : أي لأن صاحب البدعة يراها بجهله حقاً وصوابا ولا يراها ذنبا حتى يستغفر الله منها .

وقد جاء في الحديث «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته» أي لا يثيبه على عمله مادام متلبسا بتلك البدعة .

وعن الحسن قال : بلغني أن إبليس قال : سوّلت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقطعوا ظهري بالاستغفار ، فسوّلت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء أي البدع .

وقد جاء في الحديث « أخاف على أمتي بعدي ثلاثا : ضلالة الأهواء» الحديث ، وأهل الأهواء هم أهل البدع .

وعن عكرمة أن إبليس لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى تساقط النجوم قال أي لجنوده ؟ لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا ، وهذا يدل على أن تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقال له جنوده : لو ذهبت إليه فخبلته ، فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الله جبريل عليه الصلاة والسلام فركضه برجله ركضة وقع بعدن . وكون تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا صلى الله عليه وسلم ، مشكل مع قول بعضهم ، لما رجمت الشياطين ومنعت من مقاعدها في السماء لاستراق السمع شكوا ذلك لإبليس ، فقال لهم : هذا أمر حدث في الأرض ، وأمرهم أن يأتوه بتربة من كل أرض ، فصار يشمها إلى أن أتى بتربة من أرض تهامة ، فلما شمها قال : من ههنا الحدث ، هكذا ساقه بعضهم عند ولادته صلى الله عليه وسلم . إلا أن يقال : لا إشكال لأن تساقط النجوم وإن كان علامة وجود نبينا صلى الله عليه وسلم لكن في أي أرض ! على أن بعضهم أنكر كون ما ذكر كان عند الولادة . وقد تقدم أن المذكور في كلام غيره إنما هو عند مبعثه صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ، ولعله من خلط بعض الرواة .

وعبارة بعضهم : روى أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ثم تجاوز سماء الدنيا إلى غيرها ، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام ، منعوا من مجاوزة سماء الدنيا وصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا حتى ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنعوا من التردد

إلى السماء إلا قليلا : أى فصاروا يسترقون السمع فى سماء الدنيا فى بعض الأحايين ، وفى أكثر الأحايين يسترقون دونها حتى بعث النبى صلى الله عليه وسلم فنعوا أصلا فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون سماء الدنيا ، ثم رأيتنى نقلت فى [الكوكب المنير فى مولد البشير النذير] عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات ، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها مما سيقع فى الأرض فيلقونها على الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام حجبوا عن ثلاث سموات . وعن وهب عن أربع سموات ، ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حجبوا ء الكل ، وحرست بالشهب فما يريد أحد منهم استراق السمع إلا رمى بشهاب ، وسيأتى عند المبعث إيضاح هذا المحل .

وقد أخبرت الأحبار والرهبان بليلة ولادته صلى الله عليه وسلم . فعن حسان بن ثابت رضى الله عنه قال : إنى لغلام يفعة ، أى غلام مرتفع ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل ما رأيت وسمعت ، إذ بيهودى بيثرب يصيح ذات يوم غداة على أطمة : أى محل مرتفع : يا معشر يهود فاجتمعوا إليه وأنا أسمع وقالوا ويلك ، مالك ؟ قال : طلع نجم أحمد الذى ولد به فى هذه الليلة : أى الذى طلوعه علامة على ولادته صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة فى بعض الكتب القديمة ، وحسان هذا سيأتى أنه ممن عاش فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام مثلها ، وكذا عاش هذا القدر وهو مائة وعشرون سنة أبوه وجده ووالد جده . قال بعضهم : ولا يعرف أربعة تناسلوا وتساوت أعمارهم سواهم . وكان حسان رضى الله عنه يضرب بلسانه أرنبة أنفه وكذا ابنه وأبوه وجده .

وعن كعب الأحبار رضى الله عنه : رأيت فى التوراة أن الله تعالى أخبر موسى عن وقت خروج محمد صلى الله عليه وسلم أى من بطن أمه ، وموسى عليه الصلاة والسلام أخبر قومه أن الكوكب المعروف عندكم اسمه كذا إذا تحرك وسار عن موضعه فهو وقت خروج محمد صلى الله عليه وسلم : أى وصار ذلك مما يتوارثه العلماء من بنى إسرائيل .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يهودى يسكن مكة ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مجلس من مجالس قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ ، فقال القوم : والله ما نعلمه ، قال : احفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة : أى وهو منكم معاشر قريش ، على كتفه أى عند كتفه

علامة : أى شامة فيها شعرات متواترات ، أى متتابعات كأنهن عرف فرس : أى وتلك العلامة هى خاتم النبوة أى علامتها ، والدليل عليها لايرضع لليلتين ، وذلك فى الكتب القديمة من دلائل نبوته ، أى وعدم رضاعه لعله لتوعك يصيبه . وفى كلام الحافظ ابن حجر وأقره تعليلا لعدم رضاعه : لأن عفريتا من الجن وضع يده على فيه .

وعند قول اليهودى ما ذكر تفرق القوم من مجالسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم آ له وفى لفظ أهله ، فقالوا : لقد ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا ، فالتقى القوم حتى جاءوا لليهودى وأخبروه الخبر : أى قالوا له أعلمت ، وله فينا مولود ؟ قال : اذهبوا معى حتى أنظر إليه ، فخرجوا حتى أدخلوه على أمه ، فقال أخرجى إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا ويلك مالك ؟ قال : والله ذهبت النبوة من بنى إسرائيل أفرحتم به يا معشر قريش ؟ أما والله ليسطونّ عليكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب .

أى وعن الواقدى رحمه الله أنه كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، لما كان اليوم أى الوقت الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يامعشر قريش قد ولد نبى هذه الأمة الليلة فى بحرتكم ، أى ناحيتكم هذه ، وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل ، فقيل له : قد ولد لابن عبد المطلب : أى لعبد الله غلام ، فقال ، هو نبىّ والتوراة .

وكان بمرّ الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيصا ، وقد كان آتاه الله علما كثيرا وكان يلزم صومعة له ، ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول : يوشك أى يقرب أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ، أى تذل وتخضع ، ويملك العجم : أى أرضها وبلادها هذا زمانه ، فمن أدركه أى أدرك بعثته واتبعه أصاب حاجته : أى ما يؤمله من الخير ، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته ، فكان لايولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول ما جاء بعد أى الآن ، فلما كان صبيحة اليوم أى الوقت الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصل صومعته فناداه ، فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد المطلب : أى وقيل الجائى له عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم بناء على أنه لم يمت وأمه حامل به : أى ولعل قائله أخذ ذلك من قول الراهب

لما قيل له ما ترى عليه ، أى على ذلك المولود ، فقال : كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه وأن نجمه أى الذى طلوعه علامة على وجوده طلع البارحة ، وعلامة ذلك أى أيضا أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثا ثم يعافى .

أقول : أى ولا يرضع فى تلك الثلاث ليلتين ، فلا يخالف ما سبق من قول الآخر لا يرضع ليلتين ، ولا دلالة فى قوله كن أباه على أن الجائى للراهب عبد الله ، لأن عبد المطلب كان يقال له أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقال للنبى صلى الله عليه وسلم ابن عبد المطلب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا ابن عبد المطلب » كما تقدم والله أعلم ثم قال له فاحفظ لسانك : أى لا تذكر ما قلته لك لأحد من قومك ، فإنه لم يحسد حسده أحد ، ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . قال فما عمره ؟ قال : إن طال عمره لم يبلغ السبعين يموت فى وتر دونها فى إحدى وستين أو ثلاث وستين . زاد فى رواية وذلك جلّ أعمار أمته .

وعند ولادته صلى الله عليه وسلم تنكست الأصنام أى أصنام الدنيا ، وتقدم أيضا أنها تنكست عند الحمل به ، وتقدم أنه لا مانع من تعدد ذلك .

وجاء أن عيسى عليه السلام لما وضعته أمه خر كل شيء يعبد من دون الله فى مشارق الأرض ومغاربها ساجدا لوجهه وفزع إبليس .

فعن وهب بن منبه : لما كانت الليلة التى ولد فيها عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم أصبحت الأصنام فى جميع الأرض منكسة على رءوسهم ، وكلما ردوها على قوائمها ، انقلبت ، فحارت الشياطين لذلك ولم تعلم السبب فشكت إلى إبليس ، فطاف إبليس فى الأرض ثم عاد إليهم ، فقال : رأيت مولودا والملائكة قد حفت به فلم أستطع أن أدنوا إليه ، وما كان نبى قبله أشد على وعليكم منه ، وإنى لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدى به .

أقول : قد علمت أن تنكيس الأصنام تكرر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند الحمل وعند الولادة ، فالخاص به ما كان عند الحمل لا ما كان عند الولادة ، لمشاركة عيسى عليه السلام فى ذلك ، وبهذا يعلم ما فى قول الجلال السيوطى فى خصائصه الصغرى إن من خصائصه صلى الله عليه وسلم تنكيس الأصنام لمولده .

وعن عبد المطلب قال : كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت

سجدا ، وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول : ولد المصطفى المختار الذى تهلك بيده الكفار ، ويطهر من عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة الملك العلام .

ولا يقال : قال إبليس فى حق عيسى عليه السلام لاأستطيع أن أدنو إليه ، وتقدم فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم أن إبليس دنا منه فركضه جبريل عليه السلام . لأنا نقول يجوز أن يكون الدنو فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم دنوا إلى محله الذى هو فيه لا إلى جسده ، والدنو المنفى فى حق عيسى عليه السلام دنو إلى جسده .

فإن قيل : جاء فى الحديث « مامن مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها » رواه الشيخان : أى لقول أم مريم (إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وفى رواية « كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن » الحجاب » وهى المشيمة التى يكون فيها الولد ، ولعل المراد بجنبه جنبه الأيسر .

وعن قتادة « كل مولود يمسه الشيطان بأصبعه فى جنبه فيستهل صارخا إلا عيسى ابن مريم وأمه مريم ضرب الله عليهما حجابا ، فأصابت الطعنة الحجاب فلم ينفذ إليهما منه شىء » ولعل هذا الحجاب هو المشيمة . ويحتمل أن يكون غيرها .

قلت : وجاء عن مجاهد « أن مثل عيسى فى عدم طعن الشيطان فى جسده حين يولد سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وذلك لايقال من قبل الرأى . وعلى تقدير صحة ذلك يكون تخصيص عيسى وأمه بالذكر كان قبل أن يعلم صلى الله عليه وسلم بأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كعيسى وأمه .

وهذا الكلام يرد بيان القاضى عياض للضرر المنفى فى قوله صلى الله عليه وسلم « من قال إذا أراد أن يأتى أهله بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فإنه إن قدر بينهما فى ذلك الوقت ولد من ذلك الجماع لم يضره الشيطان أبدا » بأن المراد أنه لايطعن فيه عند ولادته ، بخلاف غيره ، وهذا : أى عدم قربه من نبينا صلى الله عليه وسلم يجوز أن يكون فى حق خصوص إبليس ، فلا ينافى ماتقدم عن الحافظ ابن حجر أن عدم ارتضاعه صلى الله عليه وسلم فى ليلتين بوضع عفريت من الجن يده فى فيه على تسليم صحته .

وصاحب الكشاف أخرج المس ومثله الطعن عن حقيقته وقال : المراد به طمع الشيطان

إغوائه ، وتبعه القاضي على ذلك ، وسيأتى فى شق صدره صلى الله عليه وسلم كلام يتعلق بذلك .

وفى كلام الشيخ محيي الدين بن العربى : اعلم أنه لابد لجميع بنى آدم من العقوبة والألم شيئا بعد شيء إلى دخولهم الجنة ، لأنه إذا نقل إلى البرزخ فلابد له من الألم، أدناه سؤال منكر ونكير ، فإذا بعث فلابد له من ألم الخوف على نفسه أو غيره، وأول الألم فى الدنيا استهلال المولود حين ولادته صارخا ، لما يجده من مفارقة الرحم وسخونته ، فيضربه الهواء عند خروجه من الرحم ، فيحس بألم البرد فيبكى ، فإن مات فقد أخذ حظه من البلاء . وقال بعد ذلك فى قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام (والسلام على يوم ولدت) : معناه السلامة من إبليس الموكل بطعن الأطفال عند الولادة حين يصرخ الولد إذا خرج من طعنته ، فلم يصرخ عيسى عليه السلام بل وقع ساجدا لله حين خرج ، فليتأمل هـذا مع قوله إن استهلال المولود وصراخه حين يولد لحسه ألم البرد الذى يجده بعد مفارقة سخونة الرحم . وقوله : بل وقع ساجدا يدل على أن سجود نبينا صلى الله عليه وسلم حين ولد ليس من خصائصه والله أعلم .

وذكر أن نفرا من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله ابن جحش كانوا يجتمعون إلى صنم ، فدخلوا عليه ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوه منكسا على وجهه ، فأنكروا ذلك ، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب انقلابا عنيفا فردوه فانقلب كذلك الثالثة ، فقالوا : إن هـذا الأمر حدث ، ثم أنشد بعضهم أبياتا يخاطب بها الصنم ويتعجب من أمره : ويسأله فيها عن سبب تنكسه ، فسمع هاتفا من جوف الصنم بصوت جهير أى مرتفع يقول :

تردى لمولود أضاءت بنوره جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب

الأبيات .

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء

أى تتابعت بشارة الهواتف جمع هاتف ، وهو مايسمع صوته ، ولا يرى شخصه : بأن قد ولد المصطفى المختار على الخلق كلهم ، وثبت لهم الفرح والسرور .

وليلة ولادته صلى الله عليه وسلم تزلزلت الكعبة ، ولم تسكن ثلاثة أيام ولياليهن

وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتجس : أى اضطرب وانشق إيوان كسرى أنو شروان . ومعنى أنوشروان : مجدد الملك : أى وكان بناء محكما مبنيا بالحجارة الكبار والجص بحيث لاتعمل فيه الفؤوس ؟ مكث فى بنائه نيفا وعشرين سنة : أى وسمع لشقه صوت هائل ، وسقط من ذلك الإيوان أربع‌عشرة شرفة بضم الشين المعجمة وسكون الراء ، أى وليس ذلك لخلل فى بنائه ، وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وسلم باقية على وجه الأرض .

أى وقد ذكر أن الرشيد أمر وزيره يحيى بن خالد البرمكى : أى والد جعفر والفضل بهدم إيوان كسرى ، فقال له يحيى : لاتهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه ، قال : بلى يامجوسى ، ثم أمر بنقضه ، فقدر له نفقة على هدمه ، فاستكثرها الرشيد ، فقال له يحيى ليس يحسن بك أن تعجز عن هدم شيء بناه غيرك .

هذاوالذى رأيته فى بعض المجاميع أن المنصور لما بنى بغداد أحب أن ينقض إيوان كسرى . فإن بينه وبينها مرحلة ويبنى به ، فاستشار خالد بن برمك ، فنهاه وقال : هو آية الإسلام ومن رآه علم أن من هذا بناؤه لايزول أمره ، وهو مصلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه والمئونة فى نقضه أكثر من الإنفاق عليه ، ولا مانع من تكرر طلب نقضه من المنصور ومن ولد ولده الرشيد .

وإنما قال الرشيد ليحيى بن خالد يامجوسى ، لأن جده والد خالد البرمكى وهو برمك كان من خراسان ؛ وكان أولا مجوسيا ثم أسلم ، وكان كاتبا عارفا محصلا لعلوم كثيرة ، جاء إلى الشام فى دولة بنى أمية ، فاتصل بعبد الملك بن مروان ، فحسن موقعه عنده وعلا قدره . ثم لما أن زالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس صار وزيرا للسفاح ، ثم لأخيه المنصور من بنى العباس ، ورأيت عن برمك هذا حكاية عجيبة ، وهى أنه سار إلى زيارة ملك الهند ، فأكرمه وأنس به وأحضر له طعاما وقال كل ، فأكلت حتى انتهيت ، فقال لى كل ، فقلت لا أقدر والله أيها الملك ، فأمر بإحضار قضيب فأخذه الملك وأمرّ به على صدرى فكأنى لم آكل شيئاً قط ، ثم أكلت أكلا كثيرا حتى انتهيت ، فقال لى كل ، فقلت لا والله لاأقدر أيها الملك ؛ فأمرّ بالقضيب على صدرى فكأنى لم آكل شيئا قط ، فأكلت حتى انتهيت ، فقال لى كل ، فقلت والله ما أقدر على ذلك ، فأراد أن يمر بالقضيب على صدرى ، فقلت أيها الملك إن الذى دخل يحتاج إلى أن يخرج ، فقال :

صدقت ، وأمسك عنى ، فسألته عن القضيب ، فقال : تحفة من تحف الملوك .

ومما يحفظ عن يحيى بن خالد هذا زيادة على ما تقدم عنه : إذا أحببت إنسانا من غير سبب فارج خيره ؛ وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شره .

ومما يحفظ عنه أيضا وقد قال له ولده وأظنه الفضل ، وقد كان معه مقيدا فى حبس الرشيد بعد قتله لولده جعفر وصلبه ونهبه أموال البرامكة ومن يلوذ بهم : يا أبت بعد العز ونفوذ الكلمة صرنا إلى هذه الحالة ، فقال : ياولدى دعوة مظلوم سرت ليلا غفلنا عنها وما غفل الله عنها : أى فقد قال أبو الدرداء : إياكم ودمعة اليتيم ودعوةالمظلوم، فإنها تسرى بالليل والناس نيام.

أى ولأن الله تعالى يقول « أنا أظلم الظالمين إن غفلت عن ظلم الظالم » وقد قال صلى الله عليه وسلم « اتق دعوة المظلوم فإنما يسأل الله حقه ،وإن الله تعالى لن يمنع ذا حق حقه» وجاء « اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » وجاء « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » والمراد بالغمام: الغمام الأبيض الذى فوق السماء السابعة ، المعنىّ بقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) أى لا تقوى على حمله إذا سقط . ونصر دعوة المظلوم : استجابتها ولو بعدزمن طويل ، فهو سبحانه وتعالى وإن أمهل الظالم لا يهمله . وجاء « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » أى تصعد إلى السماء السابعة فما فوقها.وجاء « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب » .

وقد قال القائل :

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ومما قيل فى يحيى بن خالد هذا من المدح البليغ :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء؟ قال لا بل وراثة ... توارثنى من والد بعد والد

ومما يحفظ عن والده خالد : التهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمولود . ومما يحفظ عن جعفر ولد يحيى قوله : شر المال ما لزمك الإثم فى كسبه ، وحرمت الأجر فى إنفاقه ، وقوله : المسىء لا يظن فى الناس إلاسوءا لأنه يراهم بعين طبعه . ومما قيل فى جعفر من المدح قول الشاعر :

تروم الملوك ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسع

وخمدت نار فارس أى مع إيقاد خدامها لها : أى كتب له صاحب فارس : إن بيوت النار خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف عام . وغاضت أى غارت بحيرة ساوة أى بحيث صارت يابسة كأن لم يكن بها شىء من الماء مع شدة اتساعها : أى كتب له بذلك عامله باليمن ، وإلى هذا يشير صاحب الأصل بقوله :

لمولده إيوان كسرى تشققت مبانيه وانحطت عليه شؤونه
لمولده خرت على شرفاته فلا شرف للفرس يبقى حصينه
لمولده نيران فارس أخمدت فنورهم إخماده كان حينه
لمولده غاضت بحيرة ساوة وأعقب ذاك المدّ جور يشينه
كأن لم يكن بالأمس ريا لناهل وورد العين المستهام معينه

وإلى ذلك أيضا يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله :

وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لنيرانهم بها إطفاء

أى ومن العجائب التى ظهرت ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم انهدام إيوان كسرى أنوشروان الذى كان يجلس به مع أرباب مملكته ، وكان من أعاجيب الدنيا سعة وبناء وإحكاما ، ولولا وجود علامة صادرة عنك إلى الوجود ماتهدّم هذا البناء العجيب الإحكام .

ومن ذلك أيضا أنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التى كانوا يعبدونها خامدة نيرانه والحال أن فى ذلك البيت غما وبلاء عظيما من أجل سكون لهب تلك النيران التى كانوا يعبدونها فى وقت واحد .

ومن ذلك أيضا غور ماء عيون الفرس فى الأرض حتى لم يبق منها قطرة . وحينئذ يستفهم توبيخا وتقريعا لهم ، فيقال : هل تلك المياه التى غارت كان بها إطفاء لتلك النيران ؟ ويقال فى جوابه ، لا بل إطفاؤها إنما هو لوجود هذا النبى العظيم وظهوره .

ورأى الموبذان: أى القاضى الكبير . وفى كلام ابن المحدث ، هو خادم النار الكبير

ورئيس حكامهم ، وعنه يأخذون مسائل شرائعهم ، ورأى فى نومه إبلا صعابا تقود خيلا عرابا : أى وهى خلاف البراذين ، قد قطعت دجلة ، أى وهى نهر بغداد ، وانتشرت فى بلادها ، أى والإبل كناية عن الناس ، ورأى كسرى ما هاله وأفزعه أى الذى هو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته ، فلما أصبح تصبر : أى لم يظهر الانزعاج لهذا الأمر الذى رآه تشجعا ، ثم رأى أنه لايدخر ذلك : أى هذا الأمر الذى هاله وأفزعه عن مرازبته بضم الزاى : أى فرسانه وشجعانه ، فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم ، فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيما بعثت إليكم ؟ قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، أى وورد عليه كتاب من صاحب إيليا يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة . وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة . وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره أن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية ، فازداد غما إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله : أى وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته ، فقال الموبذان ، فأنا — أصلح الله الملك — قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه فى الإبل ، فقال أى شىء يكون هذا ياموبذان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية العرب ، فابعث إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان .

فكتب كسرى عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد : فوجه إلىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح الغسانى : أى وهو معدود من المعمرين ، عاش مائة وخمسين سنة فلما ورد عليه قال : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ، قال ليسألنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى علم منه ، وإلا أخبرته بمن يعلمه ، فأخبره بالذى وجه إليه فيه ، قال علم ذلك عند خالى يسكن مشارف الشام بالفاء : أى أعاليها : أى وهى الجابية المدينة المعروفة ، يقال له سطيح ، قال فأته فاسأله عما سألتك عنه ، ثم ائتنى بتفسيره ، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى أى أشرف على الضريح . أى الموت : أى احتضر ، وعمره إذ ذاك ثلثمائة سنة ، وقيل سبعمائة سنة : أى ولم يذكره ابن الجوزى فى المعمرين ، وكان جسدا ملقى لاجوارح له ، وكان لايقدر على الجلوس إلا إذا غضب فانه ينتفخ فيجلس ، وكان وجهه فى صدره ؛ ولم يكن له رأس ولا عنق . وفى كلام غير واحد : لم يكن له عظم سوى عظم رأسه

وفى لفظ لم يكن له عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفين ، ولم يتحرك منه إلا اللسان ، قيل لكونه مخلوقا من ماء امرأة لأن ماء الرجل يكون منه العظم والعصب : أى كما سيأتى عنه صلى الله عليه وسلم من قوله « نطفة الرجل يخلق منها العظم والعصب ، ونطفة المرأة يخلق منها اللحم والدم » . قال صلى الله عليه وسلم ذلك لما سأله اليهود فقالوا له : مم يخلق الولد ؟ فلما قال لهم ما ذكر ، قالوا له : هكذا كان يقول من قبلك : أى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام على تسليم أنه خلق من نطفة وهى نطفة أمه كان فيه العظم والعصب .

فقد قيل : تمثل لها الملك فى صفة شاب أمرد حتى انحدرت شهوتها إلى أقصى رحمها، وقيل لم يخلق من نطفة أصلا . وقد صرح بالأول الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله حيث قال : أنكر الطبيعيون وجود ولد من ماء أحد الزوجين دون الآخر ، وذلك مردود عليهم بعيسى عليه السلام فإنه خلق من ماء أمه فقط ، وذلك أن الملك لما تمثل لها بشرا سويا لشدة اللذة بالنظر إليه ، فنزل الماء منها إلى الرحم ، فتكون عيسى عليه السلام من ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة منها ، فهو من ماء أمه فقط هذا كلامه .

أى وكون سطيح كان وجهه فى صدره لم يختص سطيح بهذا الوصف . فقد رأيته أن عمرا ذا الأذعار إنما قيل له ذلك لأنه سبى أمة وجوهها فى صدورها فذعرت الناس منهم وعمرو هذا كان فى زمن سليمان بن داود عليهما السلام ، وقيل قبله بقليل ، وملكت بعده بلقيس بعد قتلها له .

وكان لسطيح سرير من الجريد والخوص إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجليه إلى ترقوته . وفى لفظ إلى جمجمته كما يطوى الثوب ، فيوضع على ذلك السرير فيذهب إلى حيث يشاء ، وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرك كما يحرك وطب المخيض : أى سقاء اللبن الذى يخض ليخرج زبده ، فينتفخ ويمتلىء ويعلوه النفس ، فيسأل فيخبر عما يسأل عنه ، وكانت جمجمته إذا لمست أثر اللمس فيها للينها .

قيل وهو أول كاهن كان فى العرب ، وهذا يدل على أنه سابق على شق . وقد تقدم فى حفر زمزم أن الكاهنة التى ذهب إليها عبد المطلب وقريش ليتحاكموا عندها تفلت فى فم سطيح وفم شق ، وذكرت أن سطيحا يخلفها ، ومن ثم قال بعضهم : لم يكن أحد أشرف فى الكهانة ، ولا أعلم بها ولا أبعد فيها صيتا من سطيح وكان فى غسان .

وذكر بعضهم أن سطيحا كان فى زمن نزار بن معد بن عدنان، وهو الذى قسم الميراث بين بنى نزار وهم مضر وإخوته ، وهو يؤيد ما تقدم من أنه عمر سبعمائة سنة ، ثم شق وعبد المسيح ، وهؤلاء كانوا رءوس الكهنة وأهل العلم الغامض منهم بالكهانة: أى وإلا فنهم أى من أهل العلم الغامض : مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة ، وسجاح كانت فى بنى تميم ، وسجاح أخرى كانت فى بنى سعد . والكهانة : هى الإخبار عن الغيب ، والكهانة من خواص النفس الإنسانية ، لأن لها اسـتعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها .

فسلم عبد المسيح على سطيح وكلمه ، فلم يرد عليه سطيح جوابا ، فأنشأ عبد المسيح يقول : أصم أم يسمع غطريف اليمن : أى سيدهم إلى آخر أبيات ذكرها ، فلما سمع سطيح شعر عبد المسيح رفع رأسه .

أقول : قد يقال لامنافاة بين إثبات الرأس هنا ، ونفيه فى قوله : ولم يكن له رأس ، لأنه يجوز أن يكون المراد بالرأس المثبت الوجه ، لكن قد تقدم أنه لم يكن له عظم سوى مافى رأسه أو الجمجمة ، ففى ذلك إثبات الرأس .

وقد يقال : لما كان رأسه وتلك الجمجمة يؤثر فيها اللمس للينهما لمخالفتهما لرأس غيره ساغ إثبات الرأس له ونفيه عنه والله أعلم . وعند رفع رأسه قال : عبد المسيح ؛ على جمل مشيح : أى سريع إلى سطيح ، وقد وافى على الضريح : أى القبر ؛ والمراد به الموت كما تقدم . بعثك ملك ساسان ، لارتجاس الإيوان ؛ وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها ياعبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، أى تلاوة القرآن ، وظهر صاحب الهراوة ؛ وغاضت بحيرة ساوة ؛ وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه : أى مات من ساعته .

والهراوة بكسر الهاء : وهى العصا الضخمة : أى وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يمسك العصا كثيرا عند مشيه . وكان يمشى بالعصا بين يديه وتغرز له فيصلى إليها التى هى العنزة . وفى الحديث « حمل العصا علامة المؤمن ، وسنة الأنبياء » وفى الحديث « من بلغ أربعين سنة ولم يأخذ العصا عدله » أى عدم أخذ العصا « من الكبر والعجب » .

وقد يقال : مراد سطيح بالعصا العنزة التى تغرز ويصلى إليها فى غير المسجد ، لأنه لم يحفظ أن ذلك كان لمن قبله من الأنبياء .

وذكر الطبرى أن أبرويز بن هرمز جاء له جاء فى المنام فقيل له : سلم مافى يدك إلى صاحب الهراوة ، فلم يزل مذعورا من ذلك حتى كتب إليه النعمان بظهور النبى صلى الله عليه وسلم بتهامة ، فعلم أن الأمر سيصير إليه .

وعند موت سطيح نهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول شعرا منه :

شمر فإنك ماضى العزم شمير ... ولا يغرنك تفريق وتغيير
والناس أولاد علات فمن علموا ... أن قد أقل فمحقور ومهجور
وهم بنو الأم أما إن رأوا نشبا ... فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان فى قرن ... فالخـــير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره بما قاله سطيح ، قال له كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه : أى فقد ذكر أن آخر من هلك منهم كان فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه [ ] .

أى وكانت مدة ملكهم ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وأربعا وستين سنة .

ومن ملوك بنى ساسان سابورد والأكتاف ، قيل له ذلك ، لأنه كان يخلع أكتاف من ظفر به من العرب . ولما جاء لمنازل بنى تميم وجدهم فروا منه ومن جيشه ، ووجد بها عمير بن تميم وهو ابن ثلثمائة سنة ، وكان معلقا فى قفة لعدم قدرته على الجلوس ، فأخذ وجىء به إليه ، فاستنطقه فوجد عنده أدبا ومعرفة ، فقال للملك : أيها الملك لم تفعل فعلك هذا بالعرب ؟ فقال : يزعمون أن ملكنا يصير إليهم على يد نبى يبعث فى آخر الزمان فقال له عمير : فأين حلم الملوك وعقلهم ؟ إن يكن هذا الأمر باطلا فلن يضرك ، وإن يكن حقا ألفوك ولم تتخذ عندهم يدا يكافئونك عليها ويعظمونك بها فى دولتك ، فانصرف سابور وترك تعرضه للعرب ، وأحسن إليهم بعد ذلك .

وقول سطيح يملك منهم ملوك وملكات ، لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهى بوران ولما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك قال « لايفلح قوم ملكتهم امرأة » فملكت سنة ثم هلكت .

وذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أمه صلى الله عليه وسلم لما ولدته أرسلت خلف جده عبد المطلب إنه قد ولد لك غلام فانظر إليه ، فأتاه ونظر إليه وحدثته بما رأته ، فأخذه عبدالمطلب ودخل به الكعبة : أي وقام يدعو الله : أي وأهله يؤمنون ويشكر له ماأعطاه . ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقد تقدم الوعد بذلك وتقدم مافيه .

قال وتكلم صلى الله عليه وسلم فى المهد فى أوائل ولادته . وأول كلام تكلم به أن قال : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا اه .

أقول : وتقدم أنه قال حين ولد : جلال ربى الرفيع ، كماأورده السهيلى عن الواقدى وأنه روى أنه تكلم حين خروجه من بطن أمه ، فقال : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا .

ولا مانع من تكرر ذلك حين خروجه وحين وضعه فى المهد وأنه زاد فى المرة الثالثة وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وحينئذ يكون تكلمه حين خروجه من بطن أمه لم يشاركه فيه غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا الخليل وإلا نوح كما سيأتى ، بخلاف تكلمه فى المهد .

على أنه سيأتى أنه يجوز أن يكون المراد بالتكلم فى المهد التكلم فى غير أوان الكلام ويقال : إنه قال ذلك عند فطامه ، وتقدم أنه قال : الحمد لله لما عطس على الاحتمال الذى أبداه بعضهم كما تقدم بما فيه .

ولا مانع من وجود هذه الأمور الثلاثة التى هى : جلال ربى الرفيع ، والله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا حين ولادته ، وعلم ترتيبها يتوقف على نقل ، وحينئذ تكون الأولية فى الواقعة فى بعض ذلك إما حقيقية أو إضافية .

وقدمنا أن الأولية فى قوله جلال ربى الرفيع بالنسبة لقوله : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً إضافية .

قال وقد تكلم جماعة فى المهد نظمهم الجلال السيوطى رحمه الله تعالى فى قوله :

تكلم فى المهد النبى محمد ... ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف ... وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالأمة التى ... يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها ... وفى زمن الهادى المبارك يختم اهـ

قال بعضهم لكن هو صلى الله عليه وسلم حصر من تكلم فى المهد فى ثلاثة ولم يذكر نفسه ،أى فقد روى عن أبى هريرة مرفوعاً « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب جريج ، وابن المرأة التى مر عليها بامرأة يقال لها إنها زنت » وقد يقال : هذا الحصر إضافى أى ثلاثة من بنى اسرائيل ، أوأن ذلك كان قبل أن يعلم مما زاد .

وذكر أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد وهو ابن ليلة . وقيل وهو ابن أربعين يوما أشار بسبابته وقال بصوت رفيع إنى عبد الله لما مر بنو إسرائيل على مريم عليها السلام وهى حاملة له صلى الله عليه وسلم وأنكروا عليها ذلك ، وأشارت إليهم أن كلموه وضربوا بأيديهم على وجوههم تعجباً و (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) قال لهم ماقصه الله سبحانه وتعالى ، ثم رأيتنى فى الكلام على قصة الإسراء والمعراج ذكرت ذلك ، وأن عيسى تكلم يوم ولادته ، قال لابن خال أمه يوسف النجار وقد خرج فى طلب أمه وقد خرجت لما أخذها مايأخذ النساء من الطلق عند الولادة خارج بيت المقدس ، وجلست تحت نخلة يابسة ، فاخضرت النخلة من ساعتها وتدلت عراجينها وجرت من تحتها عين ماء ووضعته تحتها : أبشر يايوسف وطب نفسا وقر عينا ، فقد أخرجنى ربى من ظلمة الأرحام إلى ضوء الدنيا ، وسآتى بنى إسرائيل وأدعوهم إلى طاعة الله ، فانصرف يوسف إلى زكريا عليه الصلاة والسلام وأخبره بولادة مريم وقول ولدها ماذكر صلى الله عليه وسلم .

وفى النطق المفهوم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كلم يوسف المذكور وهو فى بطن أمه .

فقد قيل : إنه أول من علم بحمل مريم عليها السلام ، فقال لها مقرعا لها : يامريم هل تنبت الأرض زرعها من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير فحل ؟ فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى بطن أمه : قم فانطلق إلى صلاتك ، واستغفر الله مما وقع فى قلبك .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ثلاث مرات ثم لم يتكلم حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الصبيان عادة : أى ولعل المرة الثالثة هى التى حمد الله فيها بحمد لم تسمع الأذان مثله ، فقال : اللهم أنت القريب فى علوك المتعالى فى دنوك ، الرفيع على كل شىء من خلقك ، حارت الأبصار دون النظر اليك .

ومبرى جريج تكلم كذلك أى فى بطن أمه ، قيل له : من أبوك ، فقال الراعى عبد بنى فلان ، وتكلم بعد خروجه من بطن أمه ، فقد تكلم مرتين مرة فى بطن أمه ومرة وهو طفل كذا فى [النطق المفهوم] ولم أقف على وقت كلامه ، ولا على ماتكلم به حينئذ .

وأما يحيى عليه الصلاة والسلام فتكلم وهو ابن ثلاث سنين ، قال لعيسى : أشهد أنك عبدالله ورسوله .

والخليل تكلم وقت ولادته ، وسيأتى ماتكلم به ، وفى كون ابن ثلاث سنين وفى كون من تكلم وقت ولادته يكون فى المهد نظر ، إلا أن يكون المراد بالتكلم فى المهد التكلم فى غير أوان الكلام .

ولم أقف على سن من تكلم فى المهد حين تكلم غير من ذكر وغير الطفل الذى لذى الأخدود ، فإنه لما جىء بأمه لتلقى فى نار الأخدود لتكفر وهومعها مرضع : فتقاعست قال لها : ياأماه اصبرى فانك على الحق : قال ابن قتيبة : كان سنه سبعة أشهر . وفى [النطق المفهوم] أن شاهد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام كان عمره شهرين وكان ابن داية زليخا .

وفى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم بكلام الصبيان فى المراضع ، وشهادتهم له بالنبوة ، ذكر ذلك البدر الدماميني رحمه الله ، هذا كلامه ، وفيه نظر ، لأنه لم يشهد له بالنبوة من هؤلاء إلا مبارك اليمامة حسبما وقفت عليه .

ورأيت فى الأجوبة المسكتة لابن عون رحمه الله : « أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ألست لم تزل نبيا ؟ قال نعم ، قالوا : فلم لم تنطق فى المهد كما نطق عيسى ؟ قال : إن الله خلق عيسى من غير فحل ، فلولا أنه نطق فى المهد لما كان لمريم عذر وأخذت بما يؤخذ به مثلها ، وأنا ولدت بين أبوين » هذا كلامه ، وهو يخالف ما تقدم من أنه صلى الله عليه وسلم تكلم فى المهد إلا أن يقال مرادهم لم لم تنطق فى المهد بمثل الذى نطق به عيسى ، أو أن ذلك منه صلى الله عليه وسلم إرخاء للعنان فليتأمل .

ثم رأيت أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما سقط على الأرض استوى قائما على قدميه وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، الحمد لله الذى هدانا لهذا .

قال فى [النطق المفهوم] ولد بالغار الذى ولد به نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام ويقال لهذا الغار فى التوراة غار النور ، ويضم لهؤلاء ماذكره الشيخ محيي الدين بن العربى رحمة الله قال : قلت لبنتى زينب مرة وهى فى سن الرضاعة قريباً عمرها من سنة ماتقولين فى الرجل يجامع حليلته ولم ينزل ؟ فقالت يجب عليه الغسل فتعجب الحاضرون من ذلك ، ثم إنى فارقت تلك البنت وغبت عنها سنة فى مكة وكنت أذنت لوالدتها فى الحج ، فجاءت مع الحج الشامى ، فلما خرجت لملاقاتها رأتنى من فوق الجمل وهى ترضع ، فقالت بصوت فصيح قبل أن ترانى أمها هذا أبى ، وضحكت وأرمت نفسها إلى .

قال : وقد رأيت أى علمت من أجاب أمه بالتشميت وهو فى بطنها حين عطست وسمع الحاضرون كلهم صوته من جوفها شهد عندى الثقات بذلك ، قال : وهذا واحد يخصه الله بعلمه وهو فى بطن أمه ولا يحجبك قوله تعالى(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) لأنه لا يلزم من العالم حضوره مع علمه دائما .

و[فى النطق المفهوم] أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه تكلم فى بطن أمه فقال : أنا المفقود والمغيب عن وجه أبى زمناً طويلا ، فأخبرت أمه والده بذلك ؛ فقال لها : اكتمى أمرك .

وفيه أن نوحا عليه الصلاة والسلام تكلم عقب ولادته ، فإن أمه ولدته فى غار خوفا على نفسها وعليه فلما وضعته وأرادت الانصراف قالت وانوحاه ، فقال لها لا تخافى أحدا على يا أماه ؛ فإن الذى خلقنى يحفظنى .

وفيه أن أم موسى عليه الصلاة والسلام لما وضعت موسى استوى قاعدا وقال : ياأماه لا تخافى ، أى من فرعون ، إن الله معنا .

ومبارك اليمامة قال بعض الصحابة ، دخلت دارا بمكة فرأيت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت فيها عجبا : جاءه رجل بصبى يوم ولد وقد لفه فى خرقة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ، يا غلام من أنا ؟ قال الغلام بلسان طلق : أنت رسول الله ، قال صدقت بارك الله فيك . ثم إن الغلام لم يتكلم بشىء فكنا نسميه مبارك اليمامة . وكانت هذه القصة فى حجة الوداع ، وكان صلى الله عليه وسلم يناغى القمر وهو فى مهده : أى يحدثه يقال ناغت المرأة الصبى إذا كلمته بما يسره ويعجبه ، وعد ذلك من خصائصه . ففى حديث فيه مجهول ، وقيل فيه إنه غريب المتن والإسناد ، عن عمه العباس رضى الله عنه

أنه قال يارسول الله دعانى إلى الدخول فى دينك إشارة أى عـلامة نبوتك ، رأيتك فى المهد تناغى القمر : أى تحدثه ، فتشير إليه بأصبعك ، فحيثما أشرت إليه مال قال : كنت أحدثه ويحدثنى ؛ ويلهينى عن البكاء ، وأسمع وجبته : أى سقطته حين يسجد تحت العرش أى ولم أقف على سنه صلى الله عليه وسلم حـين ذلك ، وكان مهده صلى الله عليه وسلم يتحرك بتحريك الملائـكة ؛ وعده ابن سميع رحمه الله تعالى من خصائصه .

باب تسميته صلى الله عليه وسلم
محمدا وأحمد

لايخفى أن جميع أسمائه صلى الله عليه وسلم مشتقة من صفات قامت به توجب له المدح والـكمال ، فله من كل وصف اسم . قال : وكما أن لله عز وجل ألف اسم للنبى صلى الله عليه وسلم ألف اسم . عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو الباقر ، من بقر العلم ، أتقنه قال : أمرت آمنة أى فى المنام وهى حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه أحمد وعن ابن إسحاق رحمه الله أن تسميه محمدا وقد تقدم قال : والثانى هو المشهور فى الروايات أى وعلى الأول اقتصر الحافظ الدمياطى رحمه الله .

والمسمى له بمحمد جده عبد المطلب . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقّ عنه : أى يوم سابع ولادته جده بكبش وسماه محمدا ؟ فقيل له : يا أبا الحرث ما حملك على أن تسميه محمدا ولم تسمه باسم آبائه . وفى لفظ : وليس من أسماء آبائك ولا قومك ؟ قال : أردت أن يحمده الله فى السماء وتحمده الناس فى الأرض » اهـ .

أقول : وهذا هو الموافق لما اشتهر أن جده سماه محمدا بإلهام من الله تعالى تفاؤلا بأن يكثر حمد الخلق له ، لـكثرة خصاله الحميدة التى يحمد عليها ، ولذلك كان أبلغ من محمود وإلى ذلك يشير حسان رضى الله عنه بقوله :

فشق له من اسمه ليجلّه ‏ ‏ ‏ فذو العرش محمود وهذا محمد

وهذا الإلهام لاينافى أن تـكون أمه قالت له إنها أمرت أن تسميه بذلك ، وقد حقق

الله رجاءه بأنه صلى الله عليه وسلم تكاملت فيه الخصال المحمودة والخلال المحبوبة فتكاملت له صلى الله عليه وسلم المحبة من الخالق والخليقة ، فظهر معنى اسمه على الحقيقة .

وفى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم باشتقاق اسمه من اسم الله تعالى وبأنه صلى الله عليه وسلم سمى أحمد ولم يسم به أحد قبله ، ولإفادته الكثرة في معناه ، لأنه لايقال إلا لمن حمد المرة بعد المرة ، لما يوجد فيه من المحاسن والمناقب .

ادّعى بعضهم أنه من صيغ المبالغة : أى الصيغ المفيدة للمبالغة بالمعنى المذكور استعمالا لاوضعا لأن الصيغ الموضوعة لإفادة المبالغة منحصرة فى الصيغ الخمسة وليس هذا منها .

وهذا السياق يدل على أن تسميته صلى الله عليه وسلم بذلك كانت فى يوم العقيقة ، وأن العقيقة كانت فى اليوم السابع من ولادته ، وتقدم : ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا ، وهو يدل على أن تسميته صلى الله عليه وسلم بذلك كانت فى ليلة ولادته أو يومها .

وقد يقال : لا مُنافاة ، لأنه يجوز أن يكون قوله هنا : وسماه محمدا ، معناه أظهر تسميته بذلك لعموم الناس ، وهذا التعليل للتسمية بهذا الاسم يرشد إلى ما قيل : اقتضت الحكمة أن يكون بين الاسم والمسمى تناسب فى الحسن والقبح واللطافة والكثافة ، ومن ثم غير صلى الله عليه وسلم الاسم القبيح بالحسن وهو كثير ، وربما غير الاسم الحسن بالقبيح للمعنى المذكور كتسميته لأبى الحكم بأبى جهل ، وتسميته لأبى عامر الراهب بالفاسق .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه ادع لى إنسانا يحلب ناقتى ، فجاءه بإنسان ، فقال له ما اسمك ؟ فقال له حرب ، فقال اذهب . فجاءه بآخر فقال : ما اسمك ؟ فقال يعيش ، فقال احلبها » .

ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم طلب شخصا يحفر له بئرا ، فجاءه رجل ، فقال له ما اسمك ؟ قال مرة ، فقال اذهب » وليس هذا من الطيرة التى كرهها ونهى عنها ، وإنما هو من كراهة الاسم القبيح ، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يكتب لأمرائه « إذا أبردتم لى بريدا فأبردوه » أى إذا أرسلتم لى رسولا فأرسلوه « حسن الاسم حسن الوجه » ومن ثم لما قال له سيدنا عمر رضى الله عنه لما قال لمن أراد أن يحلب له ناقته أو يحفر له البئر ما تقدم « لا أدرى أقول أم أسكت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ، قال :

قد كنت نهيتنا عن التطير ، فقال له صلى الله عليه وسلم ما تطيرت ولكن آثرت الاسم الحسن » وللجلال السيوطى كتاب فيمن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه ، ولم أقف عليه .

ورأيت فى كلام بعضهم «أن حزن بن أبى وهب أسلم يوم الفتح وهو جد سعيد بن المسيب أراد النبى صلى الله عليه وسلم تغيير اسمه وتسميته سهلا فامتنع وقال لا أغير اسما سمانيه أبواى ، قال سعيد : فلم تزل الحزونة فينا » والله أعلم .

أى وفى حديث « أنه صلى الله عليه وسلم عق عن نفسه بعد ما جاءته النبوة » قال الإمام أحمد ، هذا منكر : أى حديث منكر ، والحديث المنكر من أقسام الضعيف لا أنه باطل كما قد يتوهم ، والحافظ السيوطى لم يتعرض لذلك وجعله أصلا لعمل المولد ، قال لأن العقيقة لاتعاد مرة ثانية ، فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله النبى صلى الله عليه وسلم إظهارا للشكر على إيجاد الله تعالى إياه رحمة للعالمين ، وتشريعا لأمته ، كما كان يصلى على نفسه لذلك . قال : فيستحب لنا إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وسلم هذا كلامه .

ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها : أى فى منامه ، رأى كأن سلسلة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه محمدا : أى مع ماحدثته به أمه بما رأته على ما تقدم .

وعن أبى نعيم عن عبد المطلب قال : بينما أنا نائم فى الحجر ، إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعا شديدا ، فأتيت كاهنة قريش ، فلما نظرت إلى عرفت فى وجهى التغير فقالت : ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شىء ؟ فقلت لها بلى ، فقلت لها ، إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نورا أزهر منها ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخرهم شاب

لم أر قط أحسن منه وجها ولا أطيب منه ريحا ، فيكسر أظهرهم ، ويقلع أعينهم ، فرفعت يدى لأتناول منها نصيبا فلم أنله ، فانتبهت مذعورا فزعا ، فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ، ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ، وتدين له الناس ، وعند ذلك قال عبد المطلب لابنه أبي طالب : لعلك أن تكون هذا المولود ، فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد صلى الله عليه وسلم ويقول : كانت الشجرة هي محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى الإمتاع : لما مات قثم بن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وهو ابن تسع سنين وجدعليه وجدا شديدا ، فلما ولد رسول الله صلى اللهعليه وسلم سماه قثم حتى أخبرته أمه آمنة أنها أمرت فى منامها أن تسميه محمدا ، فسماه محمدا : أى ولا مخالفة بين هذه الروايات على تقدير صحتها كما لايخفى ، لأنه يجوز أن يكون نسى تلك الرؤية ثم تذكرها ، ويكون معنى سؤاله : ما حملك على أن تسميه محمدا وليس من أسماء قومك ؟ أى لم استقر أمرك على أن تسميه محمدا ؟

وذكر بعضهم أنه لايعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم : يعنى محمدا قبله إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب الأول ، وأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم : أى بالحجاز وبقرب زمنه وباسمه المذكور الذى هو محمد ، وهو يدل على أن اسمه فى بعض الكتب القديمة محمد ، وكان كل واحد منهم قد خلف زوجته حاملا فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد ذكر أن يسميه محمدا ، ففعلوا ذلك .

وفى الشفاء أن فى هذين الاسمين محمداً وأحمد من بدائع آياته : أى المصطفى وعجائب خصائصه أن الله تعالى حماهما عن أن يسمى بهما أحد قبل زمانه : أى قبل شيوع وجوده . أما أحمد الذى أتى فى الكتب القديمة وبشرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمنع الله تعالى بحكمته أن يتسمى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفى حياته . زاد الزين العراقى : ولا فى زمن أصحابه رضى الله تعالى عنهم حتى لايدخل لبس أوشك على ضعيف القلب : أى فالتسمية به من خصائصه صلى الله عليه وسلم على جميع الناس ممن تقدمه ، خلافا لما يوهمه كلام الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى أنه من خصائصه على الأنبياء فقط .

ومن ثم ذهب بعضهم إلى أفضليته على محمد . وقال الصلاح الصفدى : أحمد أبلغ

من محمد ، كما أن أحمر وأصفر أبلغ من محمر ومصفر ، ولعله لكونه منقولا عن أفعل التفضيل ، لأنه صلى الله عليه وسلم أحمد الحامدين لرب العالمين،لأنه يفتح عليه فى المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله .

وفى الهدى : لو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه لكان الأولى أن يسمى الحماد كما سميت بذلك أمته ، وأما هذا فهو الذى يحمده أهل السماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة ، لكثرة خصاله المحمودة التى تزيد على عدد العادين وإحصاء المحصين : أى أحق الناس وأولاهم بأن يحمد ، فهو كمحمد فى المعنى ، فهو مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول لاالواقع من الفاعل. وحينئذ فالفرق بين محمد وأحمد أن محمدا من كثر حمد الناس له ، وأحمد من يكون حمد الناس له أفضل من حمد غيره . وسيأتى عن الشفاء أنه أحمد المحمودين ، وأحمد الحامدين ، فيجوز أن يكون أحمد مأخوذا من الفعل الواقع على المفعول ، كما يجوز أن يكون مأخوذا من الفعل الواقع من الفاعل .

وفى كلام السهيلى : ثم إنه لم يكن محمدا حتى كان قبل أحمد ، فبأحمد ذُكِرَ قبل أن يذكر بمحمد ، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له ، وأطال فى بيان ذلك .

وفى كلام بعض فقهائنا معاشر الشافعية : أنه ليس فى أحمد من التعظيم ما فى محمد ، لأنه أشهر أسمائه الشريفة وأفضلها فلذلك لايكفى الإتيان به فى التشهد بدل محمد . وقد جاء « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » قال بعضهم : وعبد الله أحب من عبد الرحمن لإضافة العبد إلى الله المختص به تعالى اتفاقا والرحمن مختص به على الأصح ومن ثم سمى نبينا صلى الله عليه وسلم فى القرآن بعبد الله فى قوله تعالى (وإنه لما قام عبد الله يدعوه) وعلى ما ذكر هنا يكون بعد عبد الرحمن المذكور فى القرآن فى قوله تعالى (وعباد الرحمن) أحمد ثم محمد : أى وبعدهما إبراهيم خلافا لمن جعله بعد عبدالرحمن .

وذكر بعضهم أن أول من تسمى بأحمد بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ولد لجعفر ابن أبى طالب ، وعليه يشكل ما تقدم عن الزين العراقى . وقيل والد الخليل : أى ولعل المراد به الخليل بن أحمد صاحب العروض . ثم رأيت الزين العراقى صرح بذلك حيث قال : وأول من تسمى فى الإسلام أحمد والد الخليل بن أحمد العروضى .

ويشكل على ذلك وعلى قوله لم يسمَّ به أحد فى زمن الصحابة تسمية ولد جعفر بن أبى طالب بذلك ، إلا أن يقال لم يصح ذلك عند العراقى ، أو يقال مراد العراقى أصحابه

الذين تخلفوا عنه بعد وفاته ، فلا يرد جعفر لأنه مات فى حياته صلى الله عليه وسلم وهو خامس خمسة كل يسمى الخليل بن أحمد ، وزاد بعضهم سادسا ، وكذلك محمد أيضا لم يتسم به أحد قبل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده إلا بعد أن شاع أن نبيا يبعث اسمه محمد بالحجاز وقرب زمنه ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، وحمى الله تعالى هؤلاء أن يدعى أحد منهم النبوة أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه شيء من سماتها ، أى علاماتها حتى تحققت له صلى الله عليه وسلم .

وفى دعوى أن الذى فى الكتب القديمة إنما هو أحمد مخالفة لما سبق ، وما يأتى عن التوراة والإنجيل : أى فالمراد بالكتب القديمة غالبها ، فلا ينافى أن فى بعضها اسمه محمد ، وفى بعضها اسمه أحمد ، وفى بعضها الجمع بين محمد وأحمد .

قال بعضهم : سمعت محمد بن عدى وقد قيل له : كيف سماك أبوك فى الجاهلية محمدا ؟ قال : سألت أبى ، أى عما سألتنى عنه ، قال : خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام ، فنزلنا عند غدير عند دير ، فأشرف علينا الديرانى وقال : إن هذه للغة قوم ماهى لغة أهل هذه البلد ، فقلنا له : نحن قوم من مضر ، فقال : من أى المضاير ؟ فقلنا : من خندف ، فقال لنا : إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا : أى سريعا فسارعوا إليه ، وخذوا حظكم ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين ، فقلنا له : ما اسمه ؟ قال محمد ، ثم دخل ديره ، فوالله ما بقى أحد منا إلا زرع قوله فى قلبه ، فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاما سماه محمدا ، رغبة فيما قاله : أى فنذر كل واحد منا ذلك ، فلا يخالف ما سبق . قال : فلما انصرفنا ولد لكل واحد منا غلام فسماه محمدا رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

أقول : يجوز أن يكون هؤلاء الأربعة منهم الثلاثة الذين وفدوا على بعض الملوك . وحينئذ تكرر لهم هذا القول من الملك ومن صاحب الدير ، وإضمار ذلك لا ينافى نذره المتقدم ، فالمراد بإضماره نذره كما قدمناه . ويجوز أن يكونوا غيرهم فيكونوا سبعة .

وذكر ابن ظفر أن سفيان بن مجاشع نزل على حى من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهى تقول : العزيز من والاه ، والذليل من خالاه ، فقال لها سفيان : من تذكرين لله أبوك ؟ فقالت : صاحب هدى وعلم وحرب وسلم ، فقال سفيان : من هو لله أبوك ؟ فقالت نبى مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث للأحمر

والأسود اسمه محمد ، فقال سفيان : أعربى أم عجمى ؟ فقالت: أما والسماء ذات العنان والشجر ذوات الأفنان ، إنه لمن معدّ بن عدنان ، حسبك فقد أكثرت يا سفيان ، فأمسك عن سؤالها ومضى إلى أهله وكانت امرأته حاملا فولدت له ولدا فسماه محمدا ، رجاء منه أن يكون هو النبي الموصوف ، والله أعلم .

وقد عدّ بعضهم ممن سمى بمحمد ستة عشر ، ونظمهم فى قوله :

إن الذين سموا باسم محمد   من قبل خير الخلق ضعف ثمان

ابن البراء مجاشع بن ربيعة   ثم ابن مسلم يحمدى حرمانى

ليثى السليمى وابن أسامة   سعدى وابن سواءة همدانى

وابن الجلاح مع الأسيدى يافتى   ثم الفقيمى هكذا الحمرانى

قال بعضهم : وفاته آخران لم يذكرهما ، وهما : محمد بن الحارث ، ومحمد بن عمر بن مغفل بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام. ووقع النزاع الكثير والخلاف الشهير فى أول من سمى بذلك الاسم منهم .

أقول : وفى شرح الكفاية لابن الهائم. ويمكن أن يكون من زاد على أولئك الأربعة أو السبعة سمع ذلك من بعضهم فاقتدى به فى ذلك ، طمعا فيما طمع فيه .

ومثل ذلك وقع لبنى إسرائيل ، فإن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما حضرته الوفاة أعلم بنى إسرائيل بحضور أجله ، وكان أول أنبيائهم ، فقالوا له : يا نبى الله إنا نحب أن تعلمنا بما يئول إليه أمرنا بعد خروجك من بين أظهرنا فى أمر ديننا فقال لهم : إن أموركم لم تزل مستقيمة حتى يظهر فيكم رجل جبار من القبط ، يدعى الربوبية ، يذبح أبناءكم ويستحيي نساءكم ، ثم يخرج من بنى إسرائيل رجل اسمه موسى بن عمران فينجيكم الله به من أيدى القبط ، فجعل كل واحد من بنى إسرائيل إذا جاء له ولد يسميه عمران رجاء أن يكون ذلك النبى منه . ولا يخفى أن بين عمران أبى موسى وعمران أبى مريم أم عيسى — وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل — ألف وثمانمائة سنة ، والله أعلم .

والذى أدرك الإسلام ممن تسمى باسمه عليه الصلاة والسلام محمد بن ربيعة ومحمد بن الحارث ، ومحمد بن مسلمة . وادعى بعضهم أن محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من خمسة عشر سنة .

أى وقد ذكر ابن الجوزى أن أول من تسمى فى الإسلام بمحمد محمد بن حاطب .

وعن ابن عباس « اسمى فى القرآن أى كالتوراة محمد ، وفى الإنجيل أحمد » .

وأما فضل التسمية بهذا الاسم : أعنى محمدا ، فقد جاء فى أحاديث كثيرة ، وأخبار شهيرة : أى منها أنه صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى « وعزتى وجلالى لاأعذب أحدا تسمى باسمك فى النار » أى باسمك المشهور وهى محمد أو أحمد . ومنها « مامن مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد ومحمد » أى وفى رواية « فيها اسمى إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين » ومنها قال « يوقف عبدان أى اسم أحدهما أحمد والآخر محمد بين يدى الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة ، فيقولان ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنة ؟ فيقول الله تعالى : ادخلا الجنة ، فإنى آليت على نفسى أن لايدخل النار من اسمه أحمد أو محمد » لكن قال بعضهم : ولم يصح فى فضل التسمية بمحمد حديث ، وكل ماورد فيه فهو موضوع ، قال بعض الحفاظ : وأصحها أى أقربهما للصحة « من ولد له مولود فسماه محمدا حبالى وتبركا باسمى كان هو ومولوده فى الجنة » .

وعن أبى رافع عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سميتموه محمدا فلا تضربوه ولا تحرموه » وفى رواية طعن فيها بأن بعض رواتها متهم بالوضع « فلا تسبوه ، ولا تجبهوه ، ولا تعنفوه ، وشرّفوه ، وعظموه ؛ وأكرموه ، وبروا قسمه ، وأوسعوا له فى المجلس ، ولا تقبحوا له وجها ، بورك فى محمد ، وفى بيت فيه محمد ، وفى مجلس فيه محمد » وفى رواية « تسمونه محمدا ثم تسبونه » وفى رواية طعن فيها « أما يستحى أحدكم أن يقول يامحمد ثم يضربه » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « من ولد له ثلاثة أولاد فلم يسم أحدهم محمدا فقد جهل » أى وفى رواية « فهو من الجفاء » وفى أخرى « فقد جفانى » .

وذكر بعضهم وإن لم يرد فى المرفوع « من أراد أن يكون حمل زوجته ذكرا فليضع يده على بطنها وليقل إن كان هذا الحمل ذكرا فقد سميته محمدا فإنه يكون ذكرا » .

وجاء عن عطاء قال « ماسمى مولود فى بطن أمه محمدا إلا كان ذكرا » قال ابن الجوزى فى الموضوعات : وقد رفع هذا بعضهم : أى وروى « ما اجتمع قوم قط فى مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه فى مشورتهم إلا لم يبارك فيه » أى فى الأمر الذى اجتمعوا له ، وفى رواية « فيهم رجل اسمه محمد أو أحمد فشاوروه إلا خير لهم : أى إلا حصل لهم الخير فيما تشاوروا فيه « وماكان اسم محمد فى بيت إلا جعل الله فى ذلك البيت بركة » واتهم راوى ذلك بأنه مجروح .

وروى « ماقعد قوم قط على طعام حلال فيهم رجل اسمه اسمى إلا تضاعفت فيهم البركة » أى اسمه المشهور وهو أحمد أو محمد كما تقدم .

وفى الشفاء « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض عبادتهم » أى بالباء الموحدة « كل دار فيها اسم محمد » أى حراسة أهل كل دار فيها اسم محمد . وقد ذكر الحافظ السيوطى أن هذا الحديث غير ثابت .

وعن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما قال « من كان له حمل فنوى أن يسميه محمدا حوّله الله تعالى ذكرا وإن كان أنثى » قال بعض رواة الحديث فنويت سبعة كلهم سميتهم محمدا. وعنه صلى الله عليه وسلم « من كان له ذو بطن فأجمع أن يسميه محمدا رزقه الله تعالى غلاما » .

وشكت إليه صلى الله عليه وسلم امرأة بأنها لايعيش لها ولد، فقال لها « اجعلى لله عليك أن تسميه — أى الولد الذى ترزقينه — محمدا ، ففعلت فعاش ولدها » .

وعن على رضى الله تعالى عنه مرفوعا « ليس أحد من أهل الجنة إلا يدعى باسمه — أى ولا يكنى — إلا آدم صلى الله عليه وسلم فإنه يدعى أبا محمد تعظيما له وتوقيرا للنبى صلى الله عليه وسلم » أى لأن العرب إذا عظمت إنسانا كنته ، ويكنى الإنسان بأجلّ ولده قاله الحافظ الدمياطى . وفى رواية « ليس أحد — أى من أهل الجنة — يكنى إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد » أى وفى حديث معضل « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يامحمد قم فادخل الجنة بغير حساب ، فيقوم كل من اسمه محمد يتوهم أن النداء له ، فلكرامة محمد صلى الله عليه وسلم لايمنعون » .

وفى الحلية لأبى نعيم عن وهب بن منبه قال : كان رجل عصى الله مائة سنة — أى فى بنى إسرائيل — ثم مات فأخذوه وألقوه فى مزبلة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن أخرجه فصل عليه ، قال: يارب إن بنى إسرائيل شهدوا أنه عصاك مائة سنة ، فأوحى الله إليه : هكذا، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد قبله ووضعه على عينيه ، فشكرت له ذلك وغفرت له وزوجته سبعين حوراء » .

ومن الفوائد أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضعه صلى الله عليه وسلم أن يقوموا تعظيما له صلى الله عليه وسلم ، وهذا القيام بدعة لاأصل لها : أى لكن هى بدعة حسنة ، لأنه ليس كل بدعة مذمومة . وقد قال سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فى اجتماع الناس لصلاة التراويح : نعمت البدعة . وقد قال العز ابن عبد السلام : إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة ، وذكر من أمثلة كل ما يطول ذكره .

ولا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » وقوله صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا — أى شرعنا — ماليس منه فهو رد عليه » لأن هـــذا عام أريد به خاص . فقد قال : إمامنا الشافعى قدس الله سره : ماأحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة الضلالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة . وقد وجد القيام عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم من عالم الأمة ومقتدى الأئمة دينا وورعا الإمام تقى الدين السبكى ، وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام فى عصره ، فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكى اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره فأنشد منشد قول الصرصرى فى مدحه صلى الله عليه وسلم :

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على ورق من خط أحسن من كتب

وأن تنهض الأشراف عند سماعه قياما صفوفا أو جثيا على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكى رحمه الله وجميع من فى المجلس ، فحصل أنس كبير بذلك المجلس ، ويكفى مثل ذلك فى الاقتداء .

وقد قال ابن حجر الهيتمى : والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها ، وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك أى بدعة حسنة ، ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووى : ومن أحسن ماابتدع فى زماننا مايفعل كل عام فى اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور ، فإن ذلك مع مافيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه فى قلب فاعل ذلك ، وشكر الله على مامنّ به من إيجاد رسوله الله صلى عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين ، هذا كلامه .

قال السخاوى : لم يفعله أحد من السلف فى القرون الثلاثة ، وإنما حدث بعد ، ثم لازال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ؛ ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم . قال ابن الجوزى : من خواصه أنه أمان فى ذلك العام ، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام .

وأول من أحدثه من الملوك صاحب أربل وصنف له ابن دحية كتابا فى المولد سماه [التنوير بمولد البشير النذير] فأجازه بألف دينار ، وقد استخرج له الحافظ ابن حجر

أصلا من السنة ، وكذا الحافظ السيوطى ، وردا على الفاكهانى المالكى فى قوله إن عمل المولد بدعة مذمومة .

باب ذكر رضاعه صلى الله عليه وسلم

وما اتصل به

يقال إنه صلى الله عليه وسلم ارتضع من ثمانية من النساء ، وقيل من عشرة بزيادة : خولة بنت المنذر ، وأم أيمن عزيزة قالت : أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثويبة : أى بعد إرضاع أمه له كما سيأتى ، قال : وثويبة هى جارية عمه أبى لهب ، وقد أعتقها حين بشرته بولادته صلى الله عليه وسلم : أى فإنها قالت له : أما شعرت أن آمنة ولدت ولدا . وفى لفظ غلاما لأخيك عبد الله، فقال لها : أنت حرة ، فجوزى بتخفيف العذاب عنه يوم الاثنين ، بأن يسقى ماء فى جهنم فى تلك الليلة : أى ليلة الاثنين ، فى مثل النقرة التى بين السبابة والإبهام اهـ : أى أن سبب تخفيف العذاب عنه يوم الاثنين ما يسقاه تلك الليلة فى تلك النقرة .

ويذكر أن بعض أهل أبى لهب : أى وهو أخوه العباس رضى الله تعالى عنه رآه فى النوم فى حالة سيئة؛ فعن العباس رضى الله تعالى عنه قال : مكثت حولا بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم ، ثم رأيته فى شر حال : فقلت له : ماذا لقيت . فقال له أبو لهب : لم أذق بعدكم رخاء . وفى لفظ : فقال له بشر خيبة ، بفتح الخاء المعجمة ، وقيل بكسر الخاء : وهى سوء الحال ، غير أنى سقيت فى هذه وأشار إلى النقرة المذكور بعتاقى ثويبة ، ذكره الحافظ الدمياطى .

والذى فى المواهب : وقد رؤى أبولهب بعد موته فى النوم : فقيل له : ما حالك ؟ فقال فى النار ، إلا أنه يخفف عنى كل ليلة اثنين، وأمص من بين أصبعى هاتين ماء ، وأشار برأس أصبعيه ، وأن ذلك بإعتاقى لثويبة عند مابشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم وبإرضاعها له فليتأمل .

وقيل إنه إنما أعتقها لما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة : أى فإن خديجة رضى الله تعالى عنها كانت تكرمها وطلبت من أبى لهب أن تبتاعها منه لتعتقها فأبى أبو لهب ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أعتقها أبو لهب .

أقول : قد يقال : لا منافاة لجواز أن يكون لما أعتقها لم يظهر عتقها وإباؤه بيعها لكونها كانت معتوقة ثم أظهر عتقها بعد الهجرة والله أعلم . وإرضاعها له صلى الله عليه وسلم كان أياماً قلائل قبل أن تقدم حليمة ؛ وكان بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وهو بضم الميم وسين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة ثم حـاء مهملة ، كذا فى النور . وفى السيرة الشامية بفتح الميم ، وكانت قد أرضعت قبله أبا سفيان ابن عمه صلى الله عليه وسلم الحارث .

وفى كلام بعضهم كان تربا له صلى الله عليه وسلم ، وكان يشبهه ، وكان يألفه إلفا شديدا قبل النبوة فلما بعث صلى الله عليه وسلم عاداه وهجره وهجا أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فإنه كان شاعرا مجيداً وسيأتى إسلامه رضى الله تعالى عنه عند توجهه صلى الله عليه وسلم لفتح مكة وأرضعت ثويبة رضى الله تعالى عنها قبلهما عمه صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ، وكان أسنّ منه صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وقيل بأربع سنين .

أقول : هذا يخالف ما تقدم من أن عبد المطلب تزوج من بنى زهرة هالة وأتى منها بحمزة ، وأن عبد الله تزوج من بنى زهرة آمنة وذلك فى مجلس واحد ، وأن آمنة حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخول عبد الله بها ، وأنه دخل بها حـين أملك عليها فكيف يكون حمزة أسنّ منه صلى الله عليه وسلم بسنتين ، إلا أن يقال ليس فيما تقدم تصريح بأن عبد المطلب وعبد الله دخلا على زوجتيهما فى وقت واحد .

وعبارة السهيلى : هالة بنت وهيب عبد بن مناف بن زهرة عم آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم تزوجها عبد المطلب ، وتزوج ابنه عبد الله آمنة فى ساعة واحدة ، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة ، وولدت آمنة لعبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرضعتهما ثويبة ، هذا كلامه ، وليس فيه كقول [أسد الغابة] المتقدم أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله فى مجلس واحد تصريح بأنهما دخلا بزوجتيهما فى وقت واحد ، لإمكان حمل التزوج على الخطبة المصرح بها فيما تقدم عن ابن المحدث : أن عبد المطلب خطب هالة فى مجلس خطبة عبد الله لآمنة ، والله أعلم .

ثم رأيت فى الاستيعاب قال : كان أى حمزة أسنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع سنين ، وهذا لا يصح عندى لأن الحديث الثابت أن حمزة أرضعته ثويبة مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن تكون أرضعتهما فى زمانين ، هـذا لفظه ، وفيه مـا علمت ، وفيه أيضا على تسليم أنها أرضعتهما فى زمانين ، لكن بلبن ابنها مسروح كما سيأتى .

ويبعد بقاء لبن ابنها مسروح أربع سنين ثم أرضعت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى الجواب عنه .

وأرضعت ثويبة رضى الله تعالى عنها بعده صلى الله عليه وسلم أبا سلمة بن عبد الأسد أى ابن عمته الذى كان زوجاً لأم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها . فقد أرضعت ثويبة حمزة ثم أبا سفيان ابن عمه الحرث ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبا سلمة ، وهو مخالف بظاهره لقول المحب الطبرى . وأرضعته ثويبة جارية أبى لهب وأرضعت معه حمزة بن عبد المطلب وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بلبن ابنها مسروح ، هذا كلامه ، وفيه ما علمت .

وقد يجاب بأنه ممكن بأن تكون لم تحمل على ولدها مسروح فى المدة المذكورة فاستمر لبنها .

وأيضا هى أرضعت بين حمزة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه أبا سفيان الحارث كما علمت .

وذكر بعضهم أن أبا سلمة أول من يدعى للحساب اليسير ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً ؛ فعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا سررت به قال « لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف علىّ خيرا منها إلا فعل به » قال الترمذى حسن غريب . ويدل لكون أبى سلمة أخاه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ماجاء عن أم حبيبة قالت « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : هل لك فى أختى بنت أبى سفيان » أى وهى عزة بعين مهملة ثم زاى : أى وفى رواية « هل لك فى أختى حمنة بنت أبى سفيان » والذى فى مسلم « انكح أختى عزة » أى وفى البخارى «أنكح أختى بنت أبى سفيان ، قال : أو تحبين ذلك ؟ قالت نعم ، لست لك بمخلية » بضم الميم وسكون الخاء وكسر اللام وبالتحتية : أى لست لك بتاركة عدم أخذها ، وأحب من شاركنى

فى خير أختى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فإن ذلك لا يحل لى ، قالت : فوالله إنى أنبئت » أى وفى لفظ « إنا لنتحدث أنك تخطب درة » أى وفى لفظ « تريد أن تنكح درة بنت أبى سلمة » أى بضم الدال المهملة ، وأما ضبطه بفتح الذال المعجمة قال بعضهم : هو تصحيف لا شك فيه ، تعنى بدرة بنتها من أبى سلمة « قال : ابنة أبى سلمة ؟ قلت نعم ، فقال : والله لم تكن ربيبتى فى حجرى ماحلت لى ، إنها لابنة أخى من الرضاعة : أرضعتنى وإياه ثويبة » أى وفى رواية « لولا أنى لم أنكح أم سلمة يعنى أم حبيبة التى هى أمها لم تحل لى ، إن أباها أخى من الرضاعة »أى وأختك على فرض أن لا تكون بنت أخى من الرضاعة لايحل لى أن أجمعها معك « فلا تعرضن علىّ بناتكن ولا أخواتكن » قيل وفى هذا : أى وفى قوله لولم تكن ربيبتى فى حجرى » وفى قوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) حجة لداود الظاهرى أن الربيبة لا تحرم إلا إذا كانت فى حجر زوج أمها ، فإن لم تكن فى حجره فهى حلال له : أى وقيل لها ربيبة لأنها مأخوذة من الرب وهو الإصلاح ، لأن زوج أمها يقوم بإصلاح أحوالها . قال : ولك أن تقول : كان الظاهر الاقتصار على الأخوات ، لأن أم حبيبة هى التى عرضت أختها ولم تعرض بنتها التى هى درة .

وقد يجاب بأنه صلى الله عليه وسلم جعل خطاب أم حبيبة خطابا لجميع زوجاته صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا الحكم لا يختص بواحدة دون أخرى اه .

أقول : فيه أن هذا واضح لو كان فى زوجاته صلى الله عليه وسلم من عرض عليه بنته ، إلا أن يقال المراد فلا تعرضن لاينبغى لكن أن تعرضن ، وذلك لا يستلزم وقوع العرض بالفعل .

ثم رأيت الإمام النووى رحمه الله ذكر أن هذا من أم حبيبة : أى من عرض أختها محمول على أنها لم تكن تعلم تحريم الجمع بين الأختين عليه صلى الله عليه وسلم . قال : وكذا لم تعلم من عرض بنت أم سلمة تحريم الربيبة ، هذا كلامه ، وهو يقتضى أن بعض الناس عرض عليه بنت أم سلمة . وإذا كان من عرضها عليه إحدى نسائه اتجه قوله « فلا تعرضن علىّ بناتكن » تأمل .

وبهذا الحديث استدل من قال : إنه لا يجوز له صلى الله عليه وسلم أن يجمع بين المرأة وأختها ، وهو الراجح من وجهين .

ومقابله يقول : خص بجواز ذلك له ، ولا يجمع بين المرأة وبنتها ، خلافا لوجه حكاه

الرافعى ، وهذا الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم « لو لم أنكح أم سلمة لم تحل لى » يردّ هذا الوجه .

وعبارة الخصائص الصغرى : وله صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وأختها وعمتها وخالتها فى أحد الوجهين ، وبين المرأة وابنتها فى وجه حكاه الرافعى وتبعه فى الروضة . وجزموا بأنه غلط ، والله أعلم .

ومما يدل أيضا على أن عمه صلى الله عليه وسلم حمزة أخوه من الرضاعة ماجاء عن على رضى الله تعالى عنه قال « قلت : يارسول الله مالك لاتتوق فى قريش » أى بمثناتين فوق مفتوحتين ثم واو مشددة ثم قاف : أى لا تتشوق إليهم ، مأخوذ من التوق الذى هو الشوق . وفى رواية بالتاء والنون : أى لا تختار ولا تتزوج منهم . قال : أو عندك ؟ قلت نعم ابنة حمزة : أى عمه ، وهى أمامة وهى أحسن فتاة فى قريش ، قال « تلك ابنة أخى من الرضاعة » أى وهذا ، من علىّ رضى الله تعالى عنه محمول على أنه لم يكن يعلم بتحريم بنت الأخ من الرضاعة عليه صلى الله عليه وسلم ، أو أنه لم يكن يعلم أن عمه حمزة أخ له صلى الله عليه وسلم من الرضاعة .

وفيه أنه جاء رواية « أليس قد علمت أنه أخى من الرضاعة ؛ وأن الله قد حرم من الرضاعة ماحرم من النسب » إلا أن يراد بقوله « قد علمت » أى أعلم . قال : ولعله لم يقل أرضعتنى وإياه ثويبة كما قال ذلك فى أبى سلمة ، لأن ثويبة أرضعت حمزة ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبا سلمة لأن حمزة رضيعه أيضا من امرأة من بنى سعد غير حليمة ، كان حمزة رضى الله تعالى عنه مسترضعا عندها فى بنى سعد ، أرضعته صلى الله عليه وسلم يوما وهى عند حليمة : أى فهو رضيعه صلى الله عليه وسلم من جهة ثويبة ، ومن جهة تلك المرأة السعدية ، ولم أقف على اسم تلك المرأة اه : أى ولو اقتصر على ثويبة لأوهم أنه لم يرتضع معه على غيرها . وذكر فى الأصل أن بعضهم ذكر من مراضعه صلى الله عليه وسلم خولة بنت المنذر .

أقول : وتقدم ذلك ، ونسب هذا البعض فى ذلك للوهم ، وأن خولة بنت المنذر التى هى أم بردة إنما كانت مرضعة لولده إبراهيم .

وقد يجاب عنه بأنه يجوز أن تكون خولة بنت المنذر اثنتان : واحدة أرضعته صلى الله عليه وسلم ، وواحدة أرضعت ولده إبراهيم ، وأن خولة التى أرضعته صلى الله عليه

وسلم هى السعدية التى كانت ترضع حمزة التى قال فيها الشمس الشامى : لم أقف على اسم تلك المرأة ، والله أعلم ، ولم يذكر إسلام ثويبة إلا ابن منده .

قال الحافظ ابن حجر : وفى طبقات ابن سعد ماتدل على أنها لم تسلم ،ولكن لايدفع نقل ابن منده به. وفى الخصائص الصغرى: لم ترضعه صلى الله عليه وسلم مرضعة إلاأسلمت ولم أقف على إسلام ابنها مسروح .

أقول : ومما يدل على عدم إسلامه ماجاء بسند ضعيف « إذا كان يوم القيامة أشفع لأخ لى فى الجاهلية » قال الحافظ السيوطى : يعنى أخاه من الرضاعة لأنه لم يدرك الإسلام .

لا يقال : من أين أنه مسروح جاز أن يكون ابن حليمة ، وهو عبد الله الذى كان يرضع معه صلى الله عليه وسلم ، بناء على أنه لم تدرك الإسلام ، لأنه لم يعرف له إسلام ؛ لأنا نقول : سيأتى عن شرح الهمزية لابن حجر أن عبد الله ولد حليمة أسلم ، والله أعلم .

أى وقد يدل على عدم إسلام ثويبة وابنها المذكور الذى هو مسروح ماجاء « أنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث لها بصلة وكسوة وهى بمكة ، حتى جاءه خبر وفاتها مرجعه صلى الله عليه وسلم من خيبر سنة سبع ، فقال : مافعل ابنها مسروح ، فقيل مات قبلها » أى ولو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة .

أقول : وهذا بظاهره يدل على أن مسروحا أدرك الإسلام . وقد ينافى علم وفاتهما مرجعه صلى الله عليه وسلم من خيبر ماذكر السهيلى أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلها من المدينة ، فلما افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح ، فأخبر أنهما ماتا .

وقد يقال : لامنافاة ، لأنه يجوز أن يكون سؤاله الثانى للتثبت لوصوله محل إقامتهما.

والقول بأنهما لو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة . يقال عليه : يجوز أن تكون الهجرة تعذرت عليهما لعارض عرض لهما ، والله أعلم . قال : وجاء أن أمه أرضعته صلى الله عليه وسلم تسعة أيام .

أقول : وعن عيون المعارف للقضاعى سبعة أيام . وفى الإمتاع أنها أرضعته صلى الله عليه وسلم سبعة أشهر ، ثم أرضعته ثويبة أياما قلائل ، هذا كلامه . وقوله ثم أرضعته ثويبة يخالف ماتقدم ، من أن أول من أرضعه ثويبة ، إلا أن يقال المراد أول من أرضعه غير أمه ثويبة فلا مخالفة .

وبهذا يرد نقل ابن المحدث عن الأصل أن أول لبن نزل جوفه صلى الله عليه وسلم لبن ثويبة ، فإنه فهم ذلك من قول الأصل : أول من أرضعه ثويبة ، لما علمت أن الأولية إضافية لاحقيقة ، إلا أن يدعى ذلك فى نقل ابن المحدث أيضا : أى أول لبن نزل جوفه صلى الله عليه وسلم بعد لبن أمه والله أعلم .

قال : وأرضعه صلى الله عليه وسلم ثلاث نسوة : أى أبكار من بنى سليم ، أخرجن ثديهن فوضعنها فى فمه فدرت فى فيه فرضع منهن ، وأرضعته صلى الله عليه وسلم أم فروة اهـ. أى وهؤلاء النسوة الأبكار كل واحدة منهن تسمى عاتكة ، وهن اللاتى عناهن صلى الله عليه وسلم بقوله « أنا ابن العواتك من سليم » على ماتقدم .

وما تقدم من أن أم أيمن أرضعته صلى الله عليه وسلم ذكره فى الخصائص الصغرى . ردّ بأنها حاضنته لا مرضعته .

وعلى تقدير صحته ينظر بلبن أى ولد لها كان ، فإنه لايعرف لها ولد إلا أيمن وأسامة ، إلا أن يقال جاز أن لبنها در له صلى الله عليه وسلم من غير وجود ولد كما تقدم فى النسوة الأبكار .

وأرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة بنت أبى ذؤيب ، وتكنى أم كبشة : أى باسم بنت لها اسمها كبشة ، ويكنى بها أيضا والدها الذى هو زوج حليمة : أى وكانت من هوازن أى من بنى سعد بن بكر بن هوازن ، وسيأتى الكلام على إسلامها .

وعنها أنها كانت تحدّث أنها خرجت من بلدها معها ابن لها ترضعه اسمه عبد الله ، ومعها زوجها . قال : وهو الحارث بن عبد العزى ، ويكنى أبا ذؤيب : أى كما يكنى أبا كبشة أدرك الإسلام وأسلم .

فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن السائب أنه بلغه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلسه بين يديه » .

وعن ابن إسحاق : بلغنى أن الحارث إنما أسلم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يؤيد قول بعضهم : لم يذكر الحارث كثير ممن ألف فى الصحابة اهـ .

أقول : يدل للأول ظاهر ماروى « أن الحارث هذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد نزول القرآن عليه صلى الله عليه وسلم » فقالت له قريش : أو تسمع

ياحارث مايقول ابنك ؟ فقال : وما يقول ؟ قالوا : يزعم أن الله يبعث من فى القبور ، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ، ويكرم فيهما من أطاعه : أى يعذب فى إحداهما من عصاه وهى النار ، ويكرم فى الأخرى من أطاعه وهى الجنة ؛ فقد شتت أمرنا ، وفرق جماعتنا ، فأتاه فقال : أى بنى ، مالك ولقومك ، يشكونك ويزعمون أنك تقول كذا : أى أن الناس يبعثون ، بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار « فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم أنا أقول ذلك » وفى لفظ « أنا أزعم ذلك ، ولو قد كان ذلك اليوم ياأبت فلآخذن بيدك حتى أعرّفك حديثك اليوم » فأسلم الحرث بعد ذلك وحسن إسلامه : أى وقد كان يقول حين أسلم : لو أخذ ابنى بيدى فعرفنى ماقال لم يرسلنى حتى يدخلنى الجنة ؛ وإنما قلنا ظاهر ، لأنه قد يقال قوله بعد ذلك يصدق بما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فلا دلالة فى ذلك على أنه أسلم فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وفى شرح الهمزية لابن حجر : ومن سعادتها يعنى حليمة توفيقها للإسلام هى وزوجها وبنوها ، وهم : عبد الله ، والشيما ، وأنيسة ، هذا كلامه .

وفى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا — أى على ثوب — فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه صلى الله عليه وسلم فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه » ورجاله ثقات ، ولعل المراد بجلوسه بين يديه جلوسه مقابله ، وحينئذ ففاعل جلس النبى صلى الله عليه وسلم ، وضمير يديه راجع لأخيه : أى قام صلى الله عليه وسلم عن محل جلوسه على الثوب ، وأجلس أخاه على الثوب مكانه وجلس صلى الله عليه وسلم قبالة أخيه ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ليكون أخوه هو وأبواه جميعا على الثوب ، والله أعلم .

قالت : وخرجت فى نسوة من بنى سعد : أى ابن بكر بن هوازن عشرة يطلبن الرضعاء فى سنة شهباء : أى ذات جدب وقحط لم تبق شيئا ، على أتان قمراء بفتح القاف والمد : أى شديد البياض ، ومعنى شارف أى ناقة مسنة ، ماتبض بالضاد المعجمة ، وربما روى بالمهملة : أى ماترشح بقطرة لبن ، قالت : وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، مافى ثديى . وفى رواية ثديى مايغنيه ، وما فى شارفنا مايغذيه بمعجمتين ، وقيل بمعجمة ثم مهملة ، وقيل باسكان العين المهملة وكسر الذال المعجمة

وضم الباء الموحدة : أى مايكفيه بحيث يرفع رأسه وينقطع عن الرضاعة . قالت حليمة : ولكنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أدمت بالدال المهملة وتشديد الميم بالركب : أى حبسته بتأخرها عنه لشدة عنائها وتعبها لضعفها وهزالها ، حتى شق ذلك عليهم ، حتى قدمنا مكة نلتمس: أى نطلب الرضعاء جمع رضيع ، وأدمّ مأخوذ من الماء الدائم ، يقال أدم بالركب : إذا أبطأ حتى حبسهم ، ويروى بالمعجمة : أى جاء بما يذم عليه وهو هنا لابطاء .

أقول : لأنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة فى غير قبيلتهم ، ليكون أنجب للولد، وأفصح له . وقيل لأنهم كانوا يرون أنه عار على المرأة أن ترضع ولدها انتهى : أى تستقل برضاعه .

ويدل للأول ماجاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه « أنا أعربكم » أى أفصحكم عربية «أنا قرشى، واسترضعت فى بنىسعد » وجاء « أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما قال له صلى الله عليه وسلم : مارأيت أفصح منك يارسول الله ، فقال له : مايمنعنى وأنا من قريش ، وأرضعت فى بنى سعد؟ » فهذا كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات .

ومن ثم نقل عن عبد الملك بن مروان أنه كان يقول : أضر بناحب الوليد ، يعنى ولده ، لأنه لمحبته له أبقاه مع أمه فى المصر ولم يسترضعه فى البادية مع الأعراب ، فصار لحانا لاعربية له . وأخوه سليمان استرضع فى البادية مع الأعراب فصار عربيا غير لحان .

قالت حليمة : فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها يتيم ، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول: يتيم ماعسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك؛ فما بقيت امرأة معى إلا أخذت رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق : أى عزمنا عليه ، قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك الرضيع فلآخذنه ، قال: لاعليك : أى لابأس عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليه فأخذته ،

أقول : وهـذا السياق قد يخالف قول بعضهم : إن عبد المطلب خرج يلتمس له المراضع فجاءت له حليمة ابنة أبى ذؤيب ، إلا أن يقال : جاز أن يكون التماسه للمراضع

غير حليمة كان عند قدومهن ، وأبين أن يقبلن ، ثم طلب من حليمة ذلك بعد أن لم يجد رضيعا . ويدل لذلك قول صاحب [شفاء الصـــدور] إن حليمة قالت : استقبلنى عبد المطلب فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا امرأة من بنى سعد قال : ما اسمك ؟ قلت حليمة ، فتبسم عبد المطلب وقال : بخ بخ ، سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد ، ياحليمة إن عندى غلاما يتيما ، وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلن وقلن : ماعند اليتيم من الخير ، إنما نلتمس الكرامة من الآباء ؛ فهل لك أن ترضعيه ، فعسى أن تسعدى به ؟ فقلت : ألا تذرنى حتى أشاور صاحبى ، فانصرفت إلى صاحبى فأخبرته ، فكأنّ الله قذف فى قلبه فرحا وسرورا ، فقال لى : ياحليمة خذيه ، فرجعت إلى عبد المطلب فوجدته قاعدا ينتظرنى ،فقلت: هلمّ الصبى ، فاستهل وجهه فرحا،فأخذنى وأدخلنى بيت آمنة ، فقالت لى أهلا وسهلا ، وأدخلتنى فى البيت الذى فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، راقد على قفاه يغط ، يفوح منه رائحة المسك ، فأشفقت : أى خفت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكا وفتح عينيه إلىّ ،فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر ، فقبلته بين عينيه وأخذته ، وما حملنى على أخذه : أى أكد أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، وإلا فما ذكرته من أوصافه مقتض لأخذه : أى وهذه الرواية ربما تدل على أنها لم تره قبل ذلك ، وأن إباءها كان قبل رؤيتها له ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى : أى من الثدى الأيمن ، وعرضت عليه الأيسر فأباه. قالت حليمة: وكانت تلك حالته بعد : أى بعد ذلك : لايقبل إلا ثديا واحدا وهو الأيمن ؛

وفى السبعيات للهمدانى: أن أحد ثديى حليمة كان لايدر اللبن منه ، فلما وضعته فى فم رسول الله صلى الله عليه وسلم در اللبن منه . قالت : وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وماكنا ننام معه قبل ذلك : أى فعدم نومه من الجوع ، فقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل : أى ممتلئة الضرع من اللبن ، فحلب منها ماشرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة، يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قلت : والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته صلى الله عليه وسلم معى عليها فوالله لقطعت بالركب : أى صيرته خلفها مايقدر عليها : أى على

مرافقتها ومصاحبتها شيء من حمرهن ، حتى أن صواحبي يقلن لى : يابنت أبى ذؤيب ، ويحك ، اربعى : اى اعطفى علينا بالرفق وعدم الشدة فى السير ، أليس هذا أتانك التى كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى ؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهى ، فيقلن : والله إن لها لشأنا : أى وقالت حليمة فكنت أسمع أتانى تنطق وتقول : والله إن لى لشأنا ثم شأنا ، شأنى بعثنى الله بعد موتى ، ورد لى سمنى بعد هزالى ، ويحكن يانساء بنى سعد إنكن لفى غفلة ، وهل تدرين من على ظهرى؟ على ظهرى خير النبيين ، وسيد المرسلين ، وخير الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، ذكره فى النطق المفهوم .

وذكرت أنها لما أرادت فراق مكة رأت تلك الأتان سجدت : أى خفضت رأسها نحو الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت . قالت : ثم قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أراضى الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا : أى غزيرات اللبن ، فنحلب ونشرب . و لفظ : فنحلب ، ماشئنا ، والله مايحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضر : أى المقيم فى المنازل من قومنا يقول لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب يعنوننى ، فتروح أغنامهم جياعا ماتبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبا لايشبه الغلمان ، فلم يقطع سنتيه حتى كان غلاما جفرا : أى غليظا شديدا .

وعن حليمة رضى الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ شهرين كان يجىء إلى كل جانب : أى وهذا يضعف ماتقدم عن الامتناع من أن أمه صلى الله عليه وسلم أرضعته سبعة أشهر . قالت حليمة : فلما بلغ صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر كان يتكلم بحيث يسمع كلامه ، ولما بلغ تسعة أشهر كان يتكلم الكلام الفصيح ، ولما بلغ عشرة أشهر كان يرمى السهام مع الصبيان .

وعنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت ، إنه لفى حجرى ذات يوم إذ مرت به غنيماتى ، فأقبلت واحدة منهن حتى سجدت له وقبلت رأسه ثم ذهبت إلى صواحبها .

أقول : وقد سجدت له صلى الله عليه وسلم الغنم ، وكذا الجمل بعد بعثته والهجرة . فعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا : أى بستانا للأنصار ومعه أبوبكر وعمر ورجال من الأنصار وفى الحائط غنم ، فسجدت

له ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله كنا أحق بالسجود لك من هذه الغنم؟ فقال : إنه لاينبغى فى أمتى أن يسجد أحد لأحد ، ولو كان ينبغى لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » زاد فى رواية « ولو أن رجلا أمر زوجته أن تنقل من جبل إلى جبل لكان نولها : أى حقها أن تفعل » « وحرب جمل بكسر الراء : أى اشتد غضبه ، فصار لايقدر أحد يدخل عليه ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : افتحوا عنه ، فقالوا : إنا نخشى عليك يارسول الله ، فقالوا : افتحوا عنه ففتحوا عنه فلما رآه الجمل خرّ ساجدا : أى فأخذ بناصيته ثم دفعه لصاحبه وقال استعمله وأحسن علفه ، فقال القوم : يارسول الله كنا أحق أن نسجد لك من هذه البهيمة ، فقال كلا » الحديث . وفى هذا دلالة على عظيم حق الزوج على زوجته .

وجاء مما يدل على ذلك أيضا ما روى « أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء ، مقصورات مخدرات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوا بالجماعات ، وشهود الجنائز والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا لهم أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، فقال : انصرفى يا أسماء ، واعلمى بأنك من النساء ، إنّ حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال » أى من حضور الجماعات وشهود الجنائز والجهاد ، فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم. والتبعل : ملاعبة المرأة لزوجها، والله أعلم .

قالت حليمة : وكان ينزل عليه صلى الله عليه وسلم كل يوم نور كنور الشمس ثم ينجلى عنه،وإلى قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم يشير صاحب الهمزية بقوله:

وبدت فى رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات قلن ما فى اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتاة قد أبتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها وبنيها ألبانهن الشاء

أصبحت شولا عجافاوأمست　　ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل　　إذ غدا للنبي منها غذاء
يا لها منة لقد ضوعف الأجر　　عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناسا　　لسعيد فإنهم سعداء

أى وظهرت فى رضاعه ؟ وفى زمن رضاعه صلى الله عليه وسلم أمور خارقة للعادة لوضوحها لاتخفى على العيون .

فمن ذلك أن المراضع أبين أن يأخذنه صلى الله عليه وسلم لأجل يتمه ، فبعد أن تركته أتته فتاة من آل سعد قد أبتها أهل الرضعاء لفقرها فسقته لبنها فسقتها وبنيها الشاء ألبانها ، وكانت تلك الشياه لا لبن بها بل هزيلات ، فصارت ذات ألبان وسمن .

ومن ذلك أن العيش كثر عندها بعد شدة المحل لأجل حصول غذاء النبي صلى الله عليه وسلم : يالها أى لتلك الخصلة الصادرة من حليمة وهى سقيها له لبنها نعمة منها عليه ، لقد كرر الثواب والجزاء على تلك النعمة من جنس تلك النعمة ، لأن الجزاء من جنس العمل فلما سقت اللبن سُقيته ، ولا بدع فإن الله تعالى إذا سخر أناسا لمحبة سعيد والقيام بخدمته فإنهم بسبب ذلك سعداء .

أقول : لم أقف على رواية فيها أن حليمة أبتها أهل الرضعاء لفقرها وكأن الناظم أخذ ذلك من قولها : فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ولا دلالة فى ذلك .

واستفتى الحافظ ابن حجر عن بعض الوعاظ يذكر عند اجتماع الناس للمولدحادثات أى وقائع تتعلق به صلى الله عليه وسلم جاءت بها الأخبار هى مخلة بالتعظيم حتى يظهر من السامعين لها حزن ، فيبقى صلى الله عليه وسلم فى حيز من يرحم لا فى حيز من يعظم .

من ذلك أنهم يقولون إن المراضع حضرن ولم يأخذنه لعدم ماله ونحو ذلك ، فما قولكم فى ذلك ؟

فأجاب بما نصه : ينبغى لمن يكون فطنا أن يحذف من الخبر : أى الحديث ما يوهم فى المخبر عنه نقصا ولا يضره ذلك ، بل يجب كما وقع لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه حيث قال فى بعض نصوصه « وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لها شرف فكلم فيه ، فقال : لو سرقت فلانة لامرأة شريفة لقطعتها ، يعنى فاطمة بنت النبى صلى

الله عليه وسلم » فلم يصرح باسمها تأدبا معها أن تذكر في هذا المعرض — وإن كان صلى الله عليه وسلم ذكرها — لأن ذلك منه صلى الله عليه وسلم حسن دلّ على أن الخلق عنده صلى الله عليه وسلم فى الشرع سواء ، فهذا من كمال أدب الإمام رضى الله تعالى عنه وأرضاه،ونفعنا ببركاته : أى فإذا جاز حذف بعض الحديث الموهم نقصا فى بعض أهل بيته ، فما بالك بما يوهم النقص فيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا من الحافظ يدل على أن إباء المراضع له صلى الله عليه وسلم وارد حيث أقره ولم ينكره ، والله أعلم .

قال : وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «كان أول كلام تكلم به صلى الله عليه وسلم حين فطمته حليمة رضى الله تعالى عنها ، الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا » أى وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم تكلم بهذا عند خروجه من بطن أمه . وفى رواية « أوّل كلام تكلم صلى الله عليه وسلم به فى بعض الليالى : أى وهو عند حليمة : لا إله إلا الله قدوسا قدوسا نامت العيون والرحمن لاتأخذه سنة ولانوم» وكان صلى الله عليه وسلم لايمس شيئا إلا قال بسم الله .

وعن حليمة رضى الله عنها « لما دخلت به صلى الله عليه وسلم إلى منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك ، وألقيت محبته صلى الله عليه وسلم : أى واعتقاد بركته فى قلوب الناس ، حتى إنّ أحدهم كان إذا نزل به أذى فى جسده أخذ كفه صلى الله عليه وسلم فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعا . وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة انتهى .

قالت حليمه : فقدمنا مكةعلى أمه صلى الله عليه وسلم : أى بعد أن بلغ سنتين ونحن أحرص شىء على مكثه فينا لمانرى من بركته صلى الله عليه وسلم، فكلمنا أمه وقلت لها : لوتركتى بنىّ عندى حتى يغلظ .

وفى كلام ابن الأثير : قلنا لها دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإنى أخشى عليه وباء مكة : أى مرضها ووخمها فلم نزل بها حتى ردّته صلى الله عليه وسلم معنا .

وقيل إن أمه صلى الله عليه وسلم آمنة قالت لحليمة : ارجعى بابنى ، فإنى أخاف عليه وباء مكة ، فوالله ليكونن له شأن أى ولا مخالفة بينهما لجواز أن حليمة لما قالت لها ما تقدم قالت لحليمة ارجعى بابنى على الفور فإنى أخاف عليه وباء مكة : أى كما تخافين عليه ذلك. قالت حليمة: فرجعنا به صلى الله عليه وسلم فوالله إنه بعد مقدمنا به صلى الله عليه وسلم

بأشهر . عبارة ابن الأثير : بعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه يعنى من الرضاعة ، لنى بهم لنا ، ولعل هذا لا ينافيه قول المحب الطبرى : فلما شب وبلغ سنتين لأنه ألغى أى ذلك الكسر ، فبيناهو صلى الله عليه وسلم وأخوه فى بهم لناخلف بيوتنا . والبهم : أولاد الضأن ، إذ أتى أخوه يشتد . أى يعدو ، فقال لى ولأبيه ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه فهما يسوطانه : أى يدخلان يديهما فى بطنه ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه . وفى لفظ لونه أى متغير أى صار لونه كلون النقع الذى هو الغبار وهو صفة ألوان الموتى ، وذلك لما ناله من الفزع أى من رؤية الملائكة ، لا من مشقة نشأت عن ذلك الشق ، لما يأتى فى بعض الروايات : فلم أجد لذلك حسا ولا ألما ، ومن ثم قال ابن الجوزى : فشقة وما شق عليه ، وإطلاقه شامل لهذه المرة التى هى الأولى ، وقد قال بعضهم : إنه لم ينتقع لونه إلا وهو صلى الله عليه وسلم صغير فى بنى سعد .

قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يابنى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض أى وهما جبريل وميكائيل : أى وهما المراد بقوله فى رواية : فأقبل إلىّ طيران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال نعم ، فأقبلا يبتدرانى ، فأخذانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا أى طلباه ، فوجداه فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو : أى وسيأتى أن هذا الذى قال صلى الله عليه وسلم فيه وما أدرى ما هو أنه علقة سوداء استخرجاها من قلبه بعد شق بطنه ، ففى هذه الرواية طى ذكر القلب وشقه ، وسيأتى ذكر ذلك فى بعض الروايات .

وفى رواية غريبة : نزل عليه كركيان ، فشق أحدهما بمنقاره جوفه ، ومجّ الآخر فيه بمنقاره ثلجا أو بردا . وقد يقال إن الطيرين تارة شبها بالنسرين وتارة شبها بالكركيين . وفى كون مجىء جبريل وميكائيل على صورة النسر لطيفة لأن النسر سيد الطيور . فقد جاء فى الحديث «هبط علىّ جبريل فقال : يامحمد إن لكل شىء سيدا ، فسيد البشر آدم وأنت سيد ولد آدم وسيد الروم صهيب ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الشجر السدر ، وسيد الطير النسر » وفى بحر العلوم « وسيد الملائكة إسرافيل ، وسيد الشهداء هابيل ، وسيد الجبال جبل موسى ، وسيد الأنعام الثور ، وسيد الوحوش الفيل ، وسيد السباع الأسد » زاد بعضهم وسيد الشهور رمضان ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الكلام العربية ، وسيد العربية القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة » .

قالت حليمة : فرجعنا به صلى الله عليه وسلم إلى خبائنا : أى محل الإقامة وقال لى أبوه

ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك .
وفى رواية : قال الناس ياحليمة رديه على جده واخرجى من أمانتك. وفى رواية وقال :
زوجى أرى أن تردية على أمه لتعالجه، والله إن أصابه ماأصابه إلا حسد من آل فلان لما يرون
من عظيم بركته . قالت : فحملناه فقدمنا به مكة على أمه . قال الواقدى وكان ابن عباس
يقول : رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين أى وزاد فى الاستيعاب ويومين من مولده صلى
الله عليه وسلم، وكان غيره أى غير ابن عباس يقول: رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين .
وذكر الأموى أنه رجع إلى أمه وهو ابن ست سنين انتهى .

أقول سياق ما قبله يدل على أن قدوم حليمة به على أمه كان عقب الواقعة المذكورة،
وتقدم أن سنه حينئذ كان سنتين وأشهر، وسيأتى مافيه والله أعلم .

وعن ابن عباس أن حليمة كانت تحدث أنه صلى الله عليه وسلم لما ترعرع كان يخرج
فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم، فقال لى يوما : ياأماه مالى لاأرى إخوتى بالنهار يعنى
إخوته من الرضاعة وهم أخوه عبد الله وأختاه أنيسة والشيماء بفتح المعجمة وسكون التحية
أولاد الحارث، قلت فدتك نفسى، إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل، قال ابعثينى
معهم، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج مسرورا ويعود مسرورا : أى وهذا لايخالف قولها
السابق كان مع أخيه فى بهم لنا خلف بيوتنا ، ولا قوله صلى الله عليه وسلم الآتى « فبينما
أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا» ولا قوله «فبينما أنا ذات يوم منتبذا من أهلى فى بطن
وادمع أتراب لى من الفتيان» كما لا يخفى .

قالت حليمة : فلما كان يوما من ذلك خرجوا ، فلما انتصف النهار إذا أتانى أخوه ، أى
وفى رواية إذأتى ابنى ضمرة يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادى ياأبت وياأمه الحقا أخى
محمدا فماتلحقانه إلا ميتا. قالت : وما قضيته ، قال : بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه من
وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه حتى شق صدره إلى عانته ولا أدرى ما فعل به.

أقول : ولعل ضمرة هذا هو أخوه عبد الله المتقدم ذكره، لقب بذلك لخفة جسمه،
ولا يخالف ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الآتى إن أترابه الذين كانوا معه انطلقوا هربا
مسرعين إلى الحى يؤذونهم ويستصرخونهم ولأنه يجوز أن يكون ضمرة سبقهم، والله أعلم.

قالت حليمة : فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعيا فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا
ببصره إلى السماء يتبسم ويضحك فأكببت عليه وقبلته بين عينيه ، وقلت له : فدتك نفسى،

ما الذى دهاك؟ قال خيرا كذا بالنصب ياأماه ، بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى رهط ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة ، وفى يد الآخر طست من زمردة خضراء والزمردة بالضم والزاى المعجمة . الزبرجد ، وهو معرب ، فأخذونى وانطلقوا بى إلى ذروة الجبل فأضجعونى على الجبل إضجاعا لطيفا » وفيه أن هذا يخالف قوله صلى الله عليه وسلم الآتى «فأخذونى حتى أتوا بى شفير الوادى ، فعمد أحدهم فأضجعنى إلى الأرض ثم شق من صدرى إلى عانتى» وسيأتى الجمع بينهما . وقوله «ثم شق من صدرى إلى عانتى» هو المراد ببطنه فيما تقدم وما يأتى . قال « وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حسا ولا ألما » الحديث وفى هذه الرواية طى ذكر القلب وشقه أيضا .

أقول : ولا منافاة فى تلك الرواية بين قولها فوجدناه قائما وبين قولها فى هذه الرواية : فاذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل ، لجواز أن تكون أرادت بقولها قائما كونه حيا وبكونه قاعدا كونه ماكثا ، كما لا منافاة بين قولها فى تلك الرواية منتقعا وجهه ، وبين قولها فى هذه الرواية يتبسم ويضحك ، لأن ذلك لا ينافى الفزع : أو لجواز أن يكون تبسمه وضحكه تعجبا لما رأى من الحالة التى عليها أمه من التعب والشدة والله أعلم .

قال : وذكر ابن إسحاق أن حليمة لما قدمت به صلى الله عليه وسلم مكة لترده على أمه أى بعد شق صدره صلى الله عليه وسلم وقد بلغ أربع سنين أو خمسا أو ستا على ماتقدم أضلته فى أعالى مكة فأتت جده عبد المطلب ، فقالت : انى قدمت بمحمد هذه الليلة ؛ فلما كنت بأعالى مكة أضلنى ، فوالله ما أدرى ، أين هو ؟ فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده عليه . وفى مرآة الزمان أنه أنشد :

يارب ردلى ولدى محمدا ... اردده ربى واصطنع عندى يدا

وسيأتى أن هذا البيت أنشده عبد المطلب حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم ليرد إبلا له ضلت .

وقد يقال : لا مانع من تكرر ذلك منه فسمع هاتفا من السماء يقول : أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد ربا لن يخذله ولا يضيعه ، فقال عبد المطلب : من لنا به ، فقال : إنه بوادى تهامة عند الشجرة اليمنى ، فركب عبد المطلب نحوه ، وتبعه ورقة بن نوفل ، وسيأتى بعض ترجمة ورقة ، فوجداه صلى الله عليه وسلم قائما تحت شجرة يجذب غصنا من أغصانها ، فقال له جده : من أنت ياغلام؟ فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال وأنا عبد المطلب جدك فدتك نفسى ، واحتمله وعانقه وهو يبكى ، ثم رجع إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ، ونحر الشياه والبقر ، وأطعم أهل مكة .

أقول : وقول جده له من أنت ياغلام؟ لعله لكونه وجده على حالة لاتوجد لمن يكون فى سنه عادة كما تقدم عن حليمة من قولها : كان يشب شبابا لايشبه الغلمان .

وفى السيرة الهشامية أن الذى وجده هو ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب : أى ويقال إن عمرو بن نفيل رآه وهو لا يعرفه ، فقال له : من أنت ياغلام ؟ فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى أتى به عبد المطلب .

وفى كلام بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ضللت عن جدى عبد المطلب وأنا صبى وصار ينشد وهو متعلق بأستار الكعبة * يارب رد ولدى محمدا * البيت ، فجاء أبو جهل بين يديه على ناقة وقال لجدى ألا تدرى ماوقع من ابنك ؟ فسأله فقال : أنخت الناقة وأركبته من خلفى ، فأبت أن تقوم ، فأركبته من أمامى فقامت » ويحتاج إلى جمع على تقادير صحة كل مما ذكر .

وقد يقال : لامانع من تعدد ذلك ، ويدل لذلك أن بعض المفسرين قال فى تفسير قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) قيل ضل عن حليمة مرضعته . وقيل ضل عن جده عبد المطلب وهو صغير .

قالت حليمة : فقالت أمه : ماأقدمك به ياظئر ، أى يامرضعة ؟ ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك . قلت : قد بلغ والله ، وقضيت الذى علىّ وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين ، فقالت : ماهـذا شأنك فاصدقينى خبركِ ؟ قالت : فلم تدعنى حتى أخبرتها ، قالت : أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت نعم ، قالت : كلا والله ماللشيطان عليه سبيل ، وإن لابنى شأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام ؛ ثم حملت به فوالله مارأيت : أى ماعلمت من حمل قط كان أخف على ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقى راشدة .

قال : وعن حليمة أنه مر عليها جماعة من اليهود فقالت : ألا تحدثونى عن ابنى هذا ، حملته كذا ووضعته كذا ، ورأيت كذا كما وصفت لها أمه : أى فإنها ذكرت لها ذلك مرتين عند دفعه لها وعند أخذه منها انتهى .

أقول : ولا ينافى ذلك قول آمنة لحليمة : أولا أخبرك خبره ، وقول حليمة لها بلى ، لجواز أن تكون أمه لم تكن متذكرة أنها أخبرتها بذلك قبل ذلك ، وأن حليمة كذلك ، أو جوّزت حليمة أنها تخبرها بزيادة عما أخبرتها به أولا ؛ بناء على اتحاد ماأخبرتها به أولا وثانيا ، والله أعلم .

قالت : ولما أخبرت أولئك اليهود بذلك قال بعضهم لبعض اقتلوه ، فقالوا : أيتيم هو ؟ فقالت لا ، هذا أبوه وأنا أمه ، فقالوا لو كان يتيما قتلناه .

أقول : وهذا يدل على أن ماذكرته أمه لحليمة من أنها حين حملت به خرج منها نور إلى آخر ماتقدم ؛ وأن يكون لاأب له مذكورا فى بعض الكتب القديمة أنه من علامة نبوة النبى المنتظر ، والله أعلم .

قال : وعنها أنها نزلت به سوق عكاظ : أى وكان سوقا للجاهلية بين الطائف ونخلة المحل المعروف ، كانت العرب إذا حجت أقامت بهذا السوق شهر شوال ، فكانوا يتفاخرون فيه ؛ وللمفاخرة فيه سمى عكاظ ، يقال : عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه فى المفاخرة .

وفى كلام بعضهم كان سوق عكاظ لثقيف وقيس غيلان ، فرآه كاهن من الكهان فقال ياأهل سوق عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكا ، فزاغت : أى مالت به وحادت عن الطريق ، فأنجاه الله تعالى : أى وفى الوفاء : لما قامت سوق عكاظ انطلقت حليمة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عرّاف من هذيل يريه الناس صبيانهم ، فلما نظر إليه صاح : يامعشر هذيل ، يامعشر العرب ، فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم ، فقال اقتلوا هذا الصبى ، فانسلت حليمة به ، فجعل الناس يقولون : أى صبى ، فيقول هذا الصبى ، فلا يرون شيئا ، فيقال له ماهو ؟ فيقول : رأيت غلاما والآلهة ليقتلنّ أهل دينكم ، وليكسرن آلهتكم ، وليظهرن أمره عليكم فطلب فلم يوجد .

وعنها رضى الله عنها أنها لما رجعت به مرت بذى المجاز : وهو سوق للجاهلية على فرسخ من عرفة : أى وهذا السوق قبله سوق يقال له سوق مجنة ، كانت العرب تنتقل إليه بعد انقضاضهم من سوق عكاظ فتقيم فيه عشرين يوما من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى هذا السوق الذى هو سوق ذى المجاز فتقيم به إلى أيام الحج ، وكان بهذا السوق عراف : أى منجم يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

أى نظر إلى خاتم النبوة وإلى الحمرة فى عينيه صاح : يامعشر العرب اقتلوا هذا الصبى ، فليقتلن أهل دينكم ، وليكسرن أصنامكم ، وليظهرن أمره عليكم ، إن هذا لينظر أمرا من السماء ، وجعل يغرى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يلبث أن وله فذهب عقله حتى مات اه .

أى وفى السيرة الهشامية أن نفرا نصارى من الحبشة رأوه صلى الله عليه وسلم مع أمه السعدية حين رجعت به إلى أمه بعد فطامه ، فنظروا إليه وقلبوه : أى رأوا خاتم النبوة بين كتفيه وحمرة فى عينيه ، وقالوا لها هل يشتكى عينيه ؟ قالت ، لا ولكن هذه الحمرة لاتفارقه ، ثم قالوا لها : لتأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلادنا ، فإن هذا الغلام كائن لنا وله شأن ، نحن نعرف أمره ، فلم تكد تنفلت به صلى الله عليه وسلم منهم وأتت به إلى أمه .

وعنه صلى الله عليه وسلم «واسترضعت فى بنى سعد ، فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، أى وقيل هذا حظ الشيطان منك ياحبيب الله» . وفى رواية « فاستخرجا منه علقتين سوداوين » أى ولا مخالفة ، لجواز أن تكون تلك العلقة انفلقت نصفين . وفى رواية « فاستخرجا منه مغمز الشيطان » أى وهو المعبر عنه فى الرواية قبلها بحظ الشيطان .

ولا ينافى ذلك قوله فى الرواية السابقة « ولا أدرى ماهو » لجواز أن يكون إخباره صلى الله عليه وسلم بهذا بعد أن علمه ، والمراد بمغمز الشيطان محل غمزه : أى محل مايلقيه من الأمور التى لاتنبغى ؛ لأن تلك العلقة خلقها الله تعالى فى قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها فأزيلت من قلبه فلم يبق فيه مكان لأن يلقى الشيطان فيه شيئا فلم يكن للشيطان فيه حظ ، وليست هى محل غمزه عند ولادته صلى الله عليه وسلم كما يوهمه كلام غير واحد .

وفيه أن هذا يقتضى أن يكون قبل إزالة ذلك كان للشيطان عليه سبيل . أجاب السبكى بأنه لا يلزم من وجود القابل لما يلقيه الشيطان حصول الإلقاء ، أى بالفعل فليتأمل .

وسئل السبكى رحمه الله تعالى : فلم خلق الله ذلك القابل فى الذات الشريفة وكان من الممكن أن لايخلقه الله فيها ؟ وأجاب بأنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة

للخلق الإنسانى ، ثم نزعت تكرمة له صلى الله عليه وسلم : أى وليظهر للخلق بذلك التكرمة ليتحققوا كمال باطنه كما تحققوا كمال ظاهره : أى لأنه لو خلق صلى الله عليه وسلم خاليا عنها لم تظهر تلك الكرامة .

وفيه أنه يرد على ذلك ولادته صلى الله عليه من غير قلفة. وأجيب بالفرق بينهما بأن القلفة لما كانت تزال ولابد من كل أحد مع مايلزم على إزالتها من كشف العورة كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال ، وقد تقدم كل ذلك .

وذكر السهيلى رحمه الله مايفيد أن هذه العلقة هى محل مغمز الشيطان عند الولادة حيث قال : إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما لم يخلق من منى الرجال وإنما خلق من نفخة روح القدس أعيذ من مغمز الشيطان .

قال : ولايدل هذا على فضل عيسى عليه الصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نزع منه ذلك الغمز هذا كلامه ، وقد علمت أنه إنما هو محل مايلقيه الشيطان من الأمور التى لاتنبغى ، وأن ذلك مخلوق فى كل واحد من الأنبياء عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره ، ولم تنزع إلا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم « ثم غسلا قلبى بذلك الثلج » أى الذى فى ذلك الطست « حتى أنقياه أى وملآه حكمة وإيمانا » كما فى بعض الروايات : أى و رواية « ثم قال أحدهما لصاحبه ائتنى بالسكينة ، فأتى بها فذراها فى قلبى » وهذه السكينة يحتمل أن تكون هى الحكمة والإيمان . ويحتمل أن تكون غيرهما وهذه الرواية فيها أن الطست كان من ذهب ، وكذا فى الرواية الآتية . وفى الرواية قبل هذه « كانت من زمردة خضراء » ويحتاج إلى الجمع وسنذكره فى هذه الرواية وكذا الرواية الآتية أن الثلج كان فى الطست . وفى الرواية قبل هذه « كان فى يد أحدهما إبريق فضة » ويحتاج إلى الجمع لأن الواقعة لم تتعدد ، وهو عند حليمة ، وفى غسله بالثلج إشعار بثلج اليقين وبرده على الفؤاد ، ذكره السهيلى رحمه الله .

وذكر فى حكمة كون الطست من ذهب كلاما طويلا قال صلى الله عليه وسلم « وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن » وفى الروايات السابقة طى ذكر الخاتم .

وتتمة الجواب الذى أجاب به صلى الله عليه وسلم أخا بنى عامر التى وعدنا بذكرها هنا هو قوله صلى الله عليه وسلم « وكنت مسترضعا فى بنى سعد ، فبينا أنا ذات يوم منتبذا

أى منفردا « من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى » أى المقاربين بالموحدة أو النون « لى فى السن من الصبيان ، إذ أتى رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هرابا حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا ، ما أربكم ؟ أى ماحاجتكم إلى هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا ، يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لابد قاتلوه أى إن كان لابدّ لكم من قتل واحد فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه ، فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لايجيبون جوابا انطلقوا هرابا مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم » أى يعلمونهم « ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلىّ فأضجعنى على الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق بطنى ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه ، فلم أجد لذلك مسا » أى أدنى مشقة « واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها » أى بالغ فى غسلها « ثم أعادها مكانها » أى وقد طوى ذكر استخراج الأحشاء وغسلها فى الروايات السابقة . ولا يخفى أن من جملة الأحشاء ظاهر القلب « ثم قال الثانى منهم لصاحبه تنح عنه ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى ، فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء » تقدم التعبير عنها بالعلقة السوداء « ثم رمى بها ، ثم قال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئا ، وإذا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبى » أى بعد التئام شقه « فامتلأ نورا وذلك نور النبوة والحكمة » وقد تقدم « وملآه حكمة وإيمانا » وإن السكينة ذرت فيه ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم فى قلبى دهرا ، وفى رواية « فأنا الساعة أجد برد الخاتم فى عروقى ومفاصلى » .

أقول : نقل شيخ بعض مشايخنا الشيخ نجم الدين الغيطى عن مغازى ابن عائذ فى حديثه صلى الله عليه وسلم لأخى بنى عامر « وأقبل أى الملك وفى يده خاتم له شعاع فوضعه بين كتفيه وثدييه » فليتأمل ، وقوله « فصدعه » يدل بظاهره على أن صدعه كان بيد الملك ، فلم يشقه بآلة ، وحينئذ يكون المراد بالشق الصدع بلا آلة . وقد طوى فى هذه الرواية ذكر ملء قلبه حكمة وإيمانا ، وأنه ذرّ فيه السكينة . وذكر فى هذه الرواية أن الختم كان لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وفى الرواية قبلها « أنه كان بين كتفيه » وفى رواية ابن عائذ « وبين ثدييه » ويحتاج إلى الجمع . والظاهر أن متعاطى الختم جبريل ، ويدل عليه قوله

صاحب الهمزية رحمه الله فى هذه القصة ، ختمته يمنى الأمين . وسيأتى التصريح بذلك لكن فى غير هذه القصة والله أعلم. قال صلى الله عليه وسلم « ثم قال الثالث لصاحبه تنح عنه فنحاه عنى فأمرّ يده ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى ، وختم عليه » وفى رواية « قال أحدهما للآخر خطه فخاطه وختم عليه » .

أقول : وقد يقال معنى خطه ألحمه ، فخاطه « أى لحمه » أى مرّ بيده عليه فالتحم أى فلا يخالف ما سبق ، ولا ينافيه ما فى الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم ، لجواز أن يكون المراد يرون أثرا كأثر المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم ، وهو أثر مرور يد جبريل عليه الصلاة والسلام ، وهذا طوى ذكره فى الروايات السابقة ، وقوله ختم عليه يقتضى أن الختم كان فى صدره صلى الله عليه وسلم وهو الموافق لما تقدم عن ابن عائذ أنه بين ثدييه لكنه زاد بين كتفيه ، وتقدم أن الختم كان بقلبه .

وقد يقال فى الجمع ، لامانع من تعدد الختم فى المحالّ المذكورة أى فى قلبه وصدره وبين كتفيه ، فختم القلب لحفظ مافيه ، وختم الصدر وبين الكتفين مبالغة فى حفظ ذلك لأن الصدر وعاؤه القريب ، وجسده وعاؤه البعيد ، وخص بين الكتفين لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد ، ولعله أولى من جواب القاضى عياض رحمه الله بأن الذى بين كتفيه هو أثر ذلك الختم الذى كان فى صدره ، إذ هو خلاف الظاهر من قوله « وجعل الخاتم بين كتفىّ » وفيه السكوت عن ختم قلبه ، ولا يحسن أن يراد بالصدر القلب من باب تسمية الحالّ باسم محله ، لأنه يصير ساكتا عن ختم الصدر .

وأولى من جواب الحافظ ابن حجر رحمه الله أيضا بأنه يجوز أن يكون الختم لقلبه ظهر من وراء ظهره عند كتفه الأيسر ، لأن القلب فى ذلك الجانب لما علمت ، وفيهما أن الذى عند الأيسر خاتم النبوة : أى الذى هو علامة على النبوة الذى ولد صلى الله عليه وسلم به على ما هو الصحيح .

وفى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم بجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره وسائر الأنبياء كلهم كان الخاتم فى يمينهم .

أى فقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن وهب بن منبه قال « لم يبعث الله نبيا إلا وقد كان عليه شامات النبوة فى يده اليمنى إلا نبينا صلى الله عليه وسلم فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه هذا كلامه ، ولم أقف على بيان تلك الشامات التى كانت للأنبياء ماهى .

وكتب الشهاب القسطلانى على هامش الخصائص قوله « وجعل خاتم النبوة بظهره الخ » مشكل إذ مفهومه أن موضع الدخول لقلوب الأنبياء غير نبينا لم يختم ، ولا يخفى مافيه من المحظور ، فما أشنعها من عبارة وأخطأها من إشارة ، هذا كلامه .

ولك أن تقول : المراد بغيره فى قوله حيث يدخل الشيطان لغيره من غير الأنبياء ، لما علم وتقرر فى النفوس من عصمة الأنبياء من الشيطان واختص نبينا صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالختم فى المحل المذكور مبالغة فى حفظه من الشيطان وقطع أطماعه فليتأمل .

لايقال : كل من جواب القاضى والحافظ ابن حجر يجوز أن يكون مبنيا على أن خاتم النبوة هو أثر هذا الختم ، وهو موافق لما تمسك به القائل بأن خاتم النبوة لم يولد به ، وإنما حدث بعد الولادة .

لأنا نقول : على تسليم أنه حدث بعد الولادة فقد وجد عقبها ، فعن أبى نعيم فى الدلائل أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه فى الماء الذى أنبعه ثلاث غمسات ، ثم أخرج صرة من حرير أبيض فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة ، وبذلك يعلم أن خاتم النبوة ليس أثرا لهذا الخاتم .

وكلام السهيلى يقتضى أنه هو حيث قال : إن هذا الحديث الذى فى شق صدره فى الرضاعة فيه فائدة من تبيين العلم ، وذلك أن خاتم النبوة لم يدر أنه خلق به أو وضع فيه بعد ماولد ، أو حين نبئ ، فبين فى هذا الحديث متى وضع وكيف وضع ومن وضعه زادنا الله تعالى علما ، وأوزعنا شكر ماعلم هذا كلامه .

ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر مايوافقه حيث قال : ومقتضى الأحاديث التى فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجودا حين ولادته ، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليمة ، خلافا لمن قال ولد به أو حين وضع هذا كلامه .

ولا يخفى أن ماقلناه من أن هذا الخاتم غير خاتم النبوة أولى ، لأن به يجتمع القولان ، وتندفع المخالفة . والجمع أولى من التضعيف ، لما صح من أنه صلى الله عليه وسلم ولد به ، وعلى أنه هو يلزم أن يكون خاتم النبوة تعدد محله ، فوجد بين كتفيه وفى صدره وفى قلبه .

لايقال : قد أشير إلى الجواب عن ذلك بأن الموجود بين كتفيه إنما هو أثر مافى صدره وقلبه .

لأنانقول يبطله ماتقدم عن الدلائل لأبى نعيم ، وما تقدم عن بعض الروايات « فأقبل الملك وفى يده خاتم فوضعه بين كتفيه وثدييه » وأيضا يلزم عليه أن يكون خاتم النبوّة تكرر الإتيان به ثانيا فى قصة المبعث ، وثالثا فى قصة الإسراء . فى قصة المبعث « فأكفأنى كما يكفأ الإناء ثم ختم فى ظهرى » وفى قصة الإسراء « ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة » وكل منهما يبطل كون مافى ظهره أو بين كتفيه أثرا لذلك الختم الذى وجد فى صدره أو قلبه .

إلا أن يقال مافى قصة المبعث وقصة الإسراء غير خاتم النبوّة وإن خاتم النبوة إنما هو الأثر الحاصل من ختم صدره وقلبه فى قصة الرضاعة ، وإنه تكرر الختم على ذلك الأثر فى المبعث وفى قصة الإسراء ، وفيه أنه لامعنى لتكرر الختم فى محل واحد .

ولا يقال : الغرض منه المبالغة فى الحفظ ، لأن ذلك إنما يكون عند تعدد محل الختم لا عند إعادته ثانيا وثالثا فى محل واحد . وأيضا هو خلاف ظاهر كلامهم من أنه فى المحال الثلاثة خاتم النبوّة ، ويؤيده أن المتبادر من القول فى قصة الإسراء « ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة » أنه جعل خاتم النبوّة بين كتفيه ، وإلا فما معنى كون الخاتم بمعنى الطابع : أى خاتم النبوّة .

فإن قلت : على دعوى الغيرية يحتاج إلى الجواب عن قوله بخاتم النبوّة . قلت : قد يقال هذا ليس برواية عن الشارع ، وإنما وقعت تلك العبارة عن بعضهم . ويجوز أن يكون الباء فى كلامهم بمعنى مع : أى مع خاتم النبوّة فتأمل ، والله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضا لطيفا ، ثم قال الأول للذى شق صدرى زنه بعشرين من أمته فوزننى فرجحتهم ، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزننى فرجحتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى فرجحتهم ، ثم قال دعه فلو وزنتموه بأمته كلهم لرجحهم كلهم ، ثم ضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ثم قالوا ياحبيب الله لم ترع ، إنك لو تدرى مايراد بك من الخير لقرت عيناك » .

أقول فى بعض الروايات « زنه بعشرة ثم قال زنه بمائة » ففى هذه الرواية طى ذكر وزنه بعشرين ، وفى تلك الرواية طى ذكر وزنه بعشرة والله أعلم .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وبينا نحن كذلك إذا بالحى قد أقبلوا بحذافيرهم — أى بأجمعهم — وإذا بظئرى — أى مرضعتى — أمام الحى تهتف — أى تصيح بأعلى صوتها — وتقول : واضعيفاه ، فأكبوا علىّ — يعنى الملائكة الذين هم أولئك الرهط الثلاثة — وضمونى إلى صدورهم وقبلو رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا حبذا أنت من ضعيف ، ثم قالت ظئرى ياوحيداه ، فأكبوا على فضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ، وقالوا حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت ظئرى يايتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ، فأكبوا علىّ وضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى وقالوا حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله او تعلم ما أريد بك من الخير لقرّت عينك ، فوصلوا يعنى الحى إلى شفير الوادى : فلما أبصرتنى أمى وهى ظئرى قالت : لا أراك إلا حيا بعد ، فجاءت حتى أكبت علىّ ثم ضمتنى إلى صدرها فوالذى نفسى بيده إنى لنى حجرها قدضمتنى إليها ويدى فى أيديهم يعنى الملائكة ، وجعل القوم لا يعرفونهم — أى لايبصرونهم — فأقبل بعض القوم يقول إن هذا الغلام قد أصابه لم : أى طرف من الجنون أو طائف من الجن أى وهى اللمة فانطلقوا به إلى كاهن حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت ياهذا ما بى مما تذكر ، إن آرابى أى أعضائى سليمة وفؤادى صحيح ليس بى قلبة أى علة يقلب بها إلى من ينظر فيها ، فقال أبى وهو زوج ظئرى : ألاترون كلامه صحيحا إنى لأرجو أنه لايكون بابنى بأس ، واتفقوا على أن يذهبوا بى إليه : أى إلى الكاهن ، فلما انصرفوا بى إليه فقصوا عليه قصتى ، فقال اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم ، فسألنى فقصصت عليه أمرى من أوّله إلى آخره فوثب قائما إلى وضمنى إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : ياللعرب ياللعرب من شرّ قدا قترب ، اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ، فواللات والعزى لئن تركتموه فأدرك مدرك الرجال ليبدلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله » وفى رواية « ليسفهن أحلامكم أى عقولكم وليكذبن أوثانكم وليدعونكم إلى رب لم تعرفونه ودين تنكرونه فعمدت ظئرى وانتزعتنى من حجره وقالت لأنت أعته وأجن ولو علمت أن هذا قولك ما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فأنا غير قاتلى هذا الغلام ثم احتملونى إلى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعلوا ، يعنى الملائكة بى » أى من حلى من بين أترابى وإلقائى إلى الأرض ، لا من خصوص الشق لما تقدم « وأصبح

أثر الشق مابين صدرى إلى منتهى عانتى أى ، أثر التئام الشق الناشئ عن إمرار يد الملك كأنه الشراك اهـ .

أقول : الشراك أحد سيور النعل الذى هو المداس الذى يكون على وجهها ، ولعل حكمة بقائه ليدل على وجود الشق .

واعلم أنه حيث كانت قصة شق صدره الشريف فى زمن الرضاع عند حليمة واحدة يكون هذه الروايات المراد منها واحد ، وأن بعضها وقع فيها الاختصار عما وقعت به الإطالة فى بعضها ، وأن إخباره صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة كانوا ثلاثة لا ينافى إخباره بأنهم كانوا اثنين ، ونسبة الأخذ والإضجاع والشق للبطن أو الصدر إلى الثلاثة أو إلى الاثنين ، لا ينافى أن متعاطى ذلك واحد منهم كما أُخبر به أخوه ، وجاء التصريح به فى بعض الروايات ، وأن التعبير فى بعضها بشق البطن هو المراد بشق الصدر إلى منتهى العانة فى بعضها ، وأنه ليس المراد بشق البطن أو شق الصدر شق القلب ، لما تقدم فى الرواية «واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها ثم أعادها مكانها ، ثم قال لصاحبه تنح عنه ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى فصدعه الحديث» وأنه يجوز أن يكون الطست كان متعددا واحدا من زمردة خضراء وواحدا من ذهب ، وأن الأول كان فارغا معدا لأن يلقى فيه ماء يغسل به باطنه أى مع أحشائه ومنها أى من جملة الأحشاء ظاهر قلبه من الإبريق الفضة وأن الثانى كان مملوءا ثلجا معدا لأن يغسل به قلبه : أى داخل قلبه .

وحينئذ يكون فى بعض الروايات اقتصر على القلب ، وفى بعضها جمع بينه وبين الأحشاء فى ذلك ويحتاج إلى الجمع بين كون الشق فى ذروة الجبل وكونه فى شفير الوادى ، وكون المخرج علقة وكونه مضغة .

وقد يقال جاز أن تكون ذروة الجبل قريبة من شفير الوادى ، وأنه عبر عن الذى أخرجه وألقاه تارة بالعلقة وتارة بالمضغة ، ولعل تلك المضغة كانت قريبة من العلقة ولا يخفى أن هذه العلقة يحتمل أنها غير حبة القلب التى أخذت منها المحبة وهى علقة سوداء فى صميمه المسماة بسويداء القلب .

ويحتمل أنها هى والله أعلم ، وقد أشار إلى هذة القصة صاحب الهمزية بقوله :

وأتت جده وقد فصلته ... وبها من فصاله البرحاء
إذ أحاطت به ملائكة الله ... فظنت بأنهم قرناء

ورأى وجدها به ومن الوجـ ـد لهيب تصلى به الأحشاء
فارقتـه كرها وكان لديها ثاويا لايمـل منـه الثواء
شق عن قلبه وأخرج منه مضغة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمير وقد أو دع مالم يذع له أنباء
صان أسراره الختام فلا الفـ ـض ملمّ به ولا الإفضاء

أى وأتت حليمة به جده والحال أنها فطمته والحال أنه لحق بها من أجل فطامه ، ورده التألم الزائد ، وردها له لأجل أنه أحدقت به ملائكة الله فظنتهم شياطين ، ورأى شدة محبتها له وتعلقها به ، وقد حصل لها من الوجد الذى بها لهب تحترق الأحشاء به ، وهى ماتحويه الضلوع ، وفارقته بعد ردهاله كارهة لفراقه والحال أنه كان مقيما عندها لاتملّ ذلك منه ، وقد شق عن قلبه وأخرج من ذلك القلب عند غسله مضغة سوداء ختمت على ذلك القلب يمين الأمين جبريل بخاتم ، والحال أن ذلك القلب الشريف قد أودع من الأسرار الإلهية مالم تنشره أخبار ، لأن تلك الأسرار لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، حفظ ذلك الختام أسراره التى أودعت فيه ، فلا الكسر واقع بذلك الخـتم ولا الإشاعة واقعة لتلك الأسرار .

أقول : قدعامت أن صدره الشريف شق مرّتين غير هذه المرّة : مرّة عند مجىء الوحى ، ومرّة عند المعراج : وزاد بعضهم أنه شق عند بلوغه عشر سنين كما مسلم .

ولما بلغ عمره صلى الله عليه وسلم عشرين سنة : أى ولعلها هى المعنية بقول صاحب المواهب وروى خامسة ولم تثبت وستأتى تلك الخامسة عن الدرّ المنثور ، وسيأتى مافيها ، والله أعلم .

قال : وفى المرة التى كان ابن عشر سنين : أى وأشهر قال صلى الله عليه وسلم « جاءنى رجلان ، فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعنى لحلاوة القفا ، ثم شقا بطنى فكان أحدهما يختلف بالماء فى طست من ذهب ، والآخر يغسل جوفى ، ثم شق قلبى فقال أخرج الغل والحسد منه ، فأخرج منه العلقة » .

والمتبادر أن أل فى العلقة للعهد ، وهى العلقة السوداء ، التى تقدم أنها حظ الشيطان وأنها مغمزه فهى محل الغلّ والحسد .

وفيه أنه تقدم أيضا أن تلك العلقة أخرجت وألقيت قبل هذه المرة وتكرر نبذها

مستحيل إلا أن تحمل العلقة على جزء بقى من أجزائها بناء على جواز أنها تجزأت أكثر من جزءين ، المعبر عنهما فيما تقدم عن بعض الروايات علقتين سوداوين ، إلا أن يقال المراد بقوله فأخرج منه العلقة أى أخرج ماهو كالعلقة : أى شيئا يشبه العلقة كما سيأتى التصريح بذلك فى بعض الروايات « فأدخل شيئا كهيئة الفضة ، ثم أخرج ذرورا كان معه فذره عليه أى على شق القلب ليلتحم به ثم نقر إبهامى ثم قال اغد واسلم » .

أقول : لم يذكر فى هذه المرة الختم . وظاهر هذه الرواية أن الصدر التحم بمجرد ذر الذرور . وتقدم فى قصة الرضاع أن ذلك كان من إمرار يد الملك واستمر أثر التئام الشق يشاهد كالشراك .

وفى الدر المنثور عن زوائد مسند الإمام أحمد عن أبى بن كعب ، عن أبى هريرة قال : « يارسول الله ماأول مارأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : لقد سألت يا أبا هريرة إنى لفى صحراء ابن عشرين سنة وأشهر ، إذا بكلام فوق رأسى ، وإذا برجل يقول لرجل أهو هو ، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى ، لاأجد لأخذهما مسا فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ، فأضجعانى بلا قصر ولا هصر » أى من غير إتعاب « فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقه فيما أرى بلادم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذى أخرج » أى ليدخله شبه الفضة « ثم نقر إبهام رجلى اليمنى وقال اغد واسلم فرجعت أغدو بها رأفة على الصغير ورحمة على الكبير » ولم يذكر فى هذه المرة الغسل فضلا عما يغسل به ، ولم يذكر الختم ، ولكن قول الرجل للآخر أهو هو يدل على أن الرجلين ليسا جبريل وميكائيل لأنهما يعرفانه ، وقد فعلا به ذلك فى قصة الرضاع . وقد يدعى أن هذه الرواية هى عين الرواية قبلها ، وذكر عشرين سنة غلط من الراوى ، وإنما هى عشر سنين .

ثم رأيت مايصرح بذلك وهو كان سنه عشر حجج ، وقد تحمل هذه المرة أى كونه ابن عشرين سنة ، على أن ذلك كان فى المنام وإن كان خلاف ظاهر السياق .

وقال صلى الله عليه وسلم فى المرة التى هى عند ابتداء الوحى « جاءنى جبريل وميكائيل فأخذنى جبريل وألقانى لحلاوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ، ثم استخرج منه حاشاه الله أن يستخرج » ولم يبين ذلك ماهو « ثم غسله فى طست مع ماء زمزم ثم أعاده

مكانه ثم لأمه : أى بذلك الذرور : أى بإمرار يده أو بهما جميعا ثم أكفأنى كما يكفى الإناء ثم ختم فى ظهرى » .

يحتمل أن يكون المراد فى غير المحل الذى ختمه فى قصة الرضاع وهو بين كتفيه . ويحتمل أن المراد بظهره المحل الذى ختمه فى قصة الرضاع .

وفيه أنه لامعنى لوضع الختم على الختم كما تقدم ويمكن أن تكون الحكمة فى الجمع بين جبريل وميكائيل أن ميكائيل ملك الرزق الذى به حياة الأجساد والأشباح ، وجبريل ملك الوحى الذى به حياة القلوب والأرواح ، والمرة التى هى عند المعراج سيأتى الكلام عليها . وفيها أن الختم وقع بين كتفيه وفيه ماعلمت .

وقد علمت أن شق الصدر والبطن غير شق القلب ، وأن شق القلب وإخراج العلقة السوداء التى هى حظ الشيطان ومغمزه مما اختص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وما فى بعض الآثار أن التابوت أى تابوت بنى إسرائيل كان فيه الطست الذى غسلت فيه قلوب الأنبياء المراد ظاهر قلوبهم ، لأن القلب من جملة الأحشاء التى غسلت بغسل الصدر أو البطن كما تقدم على أن ابن دحية ذكر أنه أثر باطل .

وقد يطلق الصدر على القلب من باب تسمية الحال باسم محله . ومنه ماوقع فى قصة المعراج « ثم أتى بطست ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغ فى صدره » ومنه قول الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى : إن شق صدره الشريف من خصائصه صلى الله عليه وسلم على الأصح من القولين : أى شق قلبه . وسيأتى الكلام على ذلك فى الكلام على المعراج بما هو أبسط مما هنا .

وعن حليمة رضى الله تعالى عنها : أنها كانت بعد رجوعها به صلى الله عليه وسلم من مكة لاتدعه أن يذهب مكانا بعيدا : أى عنها ، فغفلت عنه صلى الله عليه وسلم يوما فى الظهيرة فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته أى من الرضاعة وهى الشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها أى ولذلك تدعى أم النبى أيضا [ ] أى وكانت ترقصه بقولها :

هذا أخ لى لم تلده أمى ... وليس من نسل أبى وعمى

فأنمه اللهم فيما تنمى

فقالت فى هذا الحر : أى لاينبغى أن يكون فى هذا الحر ، فقالت أخته : يا أمه

ماوجد أخى حرا ، رأيت غمامة تظل ّعليه ، إذا وقف وقفت ،وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع ، فجعلت تقول: أحقا يابنية ؟ قالت : إى والله ، فجعلت تقول : أعوذ بالله مع شر ّ مايحذر على ابنى : أى وفى كلام بعضهم : ورأت يعنى حليمة الغمامة تظله ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت .

وقد يقال الرؤية فى حق حليمة علمية ، وفى حق أخته بصرية فلا مخالفة ، أو أنها أبصرتها بعد الإخبار بها كما يدل على ذلك القول بأنه أفزعها ذلك من أمره أى وفى كونها فزعت من ذلك بعد إخبار أخته لها بذلك شىء ، فقدمت به على أمه .

أقول : عن الواقدى أن حليمة لما قدمت به صلى الله عليه وسلم إلى مكة لترده لأمه رأت غمامة تظله فى الطريق ، إن سار سارت ، وإن وقف وقفت . وسياق هذه الرواية يقتضى أنها ردته إلى أمه عقب مجيئها به من مكة ، وأن ذلك كان قبل شق ّ صدره عندها .

وحينئذ تكون هذه قدمة ثانية لحليمة إلى مكة كانت قبل شق صدره ، فى القدمة الأولى كان سنه صلى الله عليه وسلم سنتين ، وفى هذه القدمة كان سنه صلى الله عليه وسلم سنتين وأشهرا وتكون هذه المرة الثانية محمل قول حليمة : فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر . وقول ابن الأثير بشهرين أو ثلاثة .

وأما فى القدمة الثالثة وهى التى بعد شق صدره وتركها له صلى الله عليه وسلم عند أمه كان سنه أربع سنين ، وفيها كانت وفاتها على مايأتى ، وقيل خمس سنين قاله ابن عباس ، وقيل ست سنين ، ويكون بعض الرواة اشتبه عليه الأمر ، وظن أن هذه القدمة الثانية التى قبل شق صدره هى الثالثة التى بعد شق صدره صلى الله عليه وسلم فلزم الإشكال ، فتأمل ذلك تأملا جيدا ، ولا تكن ممن يفهم تقليدا ، والله أعلم .

ووفدت عليه صلى الله عليه وسلم حليمة بعد تزوجه خديجة تشكو إليه ضيق العيش ، فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات ، جمع بكرة: وهى الثنية من الإبل: أى وفى رواية أربعين شاة وبعيراً اهـ .

ووفدت عليه يوم حنين فبسط لها رداءه فجلست عليه ، أى فقد قال بعضهم : لم تره بعد أن ردته إلا مرتين: إحداهما بعد تزو ّجه خديجة: أى وعليه تكون هذه المرة هى التى قدمت فيها مع زوجها وولدها وأجلسهم على ردائه أى ثوبه الذى كان جالسا عليه كما تقدم ، والمرة الثانية يوم حنين .

وفى كلام القاضى عياض: ثم جاءت أبابكر ففعل ذلك : أى بسط لها رداءه ، ثم جاءت عمر ففعل كذلك [ ] .

وفى كلام ابن كثير أن حديث مجىء أمه صلى الله عليه وسلم إليه فى حنين غريب وإن كان محفوظا ، فقد عمرت دهرا طويلا لأن من وقت أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقت الجعرانة : أى بعد رجوعه من حنين أزيد من ستين سنة . وأقل ما كان عمرها حين أرضعته عليه الصلاة والسلام ثلاثين سنة وكونها وفدت على أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما تزيد المدة على المائة .

وعن أبى الطفيل قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة : أى بعد رجوعه من حنين ، كما تقدم ، والطائف وأنا غلام شاب فأقبلت امرأة ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه ، فقيل : من هذه؟ قيل : أمه التى أرضعته صلى الله عليه وسلم » وفى رواية « استأذنت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم قد كانت ترضعه ، فلما دخلت عليه قال : أمى أمى وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه » اه . وتقدم عن شرح الهمزية لابن حجر أن من سعادة حليمة توفيقها للإسلام هى وزوجها وبنوها .

وفى الأصل ومع الناس من ينكر إسلامها ، وأشار بذلك إلى شيخه الحافظ الدمياطى فإنه من جملة المنكرين حيث قال : أى فى سيرته : حليمة لا يعرف لها صحبة ولا إسلام ، وقد وهم غير واحد فذكروها فى الصحابة وليس بشىء ، وكان الأنسب أن يقول ذكروا إسلامها وليس بشىء ويوافقه قول الحافظ ابن كثير الظاهر أن حليمة لم تدرك البعثة . ورده بعضهم فقال : إسلامها لا شك فيه عند جماهير العلماء ، ولا يعول على قول بعض المتأخرين إنه لم يثبت . فقد روى ابن حبان حديثا صحيحا دالا على إسلامها ، وأنكر الحافظ الدمياطى وفودها عليه فى حنين وقال : الوافدة عليه فى ذلك إنما هى أخته من الرضاعة وهى الشيماء .

أقول : وعلى صحة ما قاله الحافظ الدمياطى لا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم « أمى أمى » لأنه كان يقال لأخته الشيماء أم النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنها كانت تحضنه مع أمها كما تقدم ، ولا قول بعض الصحابة أمه التى أرضعته ، لأنه يجوز أنه لما قيل أمه حملها على المرضعة له صلى الله عليه وسلم لتيقن موت أمه من النسب . وعلى كون الوافدة عليه فى حنين أخته اقتصر فى الهدى والله أعلم .

أقول: قال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد عدة آثار فى مجىء أمه من الرضاعة إليه صلى الله عليه وسلم فى حنين ، وفى تعدد هذه الطرق ما يقتضى أن لها أصلا أصيلا ، وفى اتفاق الطرق على أنها أمه رد على من زعم أن التى قدمت عليه أخته اه .

أقول : لارد فى ذلك ، لأنه علم أن أخته المذكورة كان يقال لها أم النبى صلى الله عليه وسلم ، ووصف بعض الصحابة لها بأنها أمه من الرضاعة تقدم أنه يجوز أن يكون بحسب مافهم .

ومما يعين أنها أخته ماسيأتى أنها لما أخذت فى حنين من جملة سبى هوازن قالت للمسلمين : أنا أخت صاحبكم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له : يارسول الله أنا أختك ، قال : وما علامة ذلك ، قالت عضة عضيتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة ؛ فقام لها قائما وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، ودمعت عيناه إلى آخر مايأتى .

وكلام المواهب يقتضى أنهما قضيتان : واحدة كانت فيها أخته ، و الآخرى كانت فيها أمه من الرضاعة حيث قال « وقد روى أن خيلا له صلى الله عليه وسلم أغارت على هوازن ، فأخذوها يعنى أخته من الرضاعة التى هى الشيماء ، فقالت أنا أخت صاحبكم إلى أن قال فبسط لها رداءه وأجلسها عليه فأسلمت » ثم قال : وجاءته يعنى أمه من الرضاعة التى هى حليمة يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها وجلست عليه .

وهذا كما ترى يوهم أن الخيل التى أغارت على هوازن التى كانت فيها أخته لم تكن فى حنين ، وأن أمه لم تكن يوم حنين فى سبى هوازن مع أن القصة واحدة ، وأن سبى هوازن كان يوم حنين . فيلزم أن يكون جاء إليه يوم حنين كل من أمه وأخته من الرضاعة الأولى فى غير السبى والثانية فى السبى . وأنه فرش لكل رداءه ، وهو تابع فى ذلك لابن عبد البر حيث قال فى الاستيعاب : حليمة السعدية أم النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة جاءت إليه يوم حنين ، فقام لها وبسط لها رداءه فجلست عليه وروت عنه : وروى عنها عبدالله بن جعفر ، ثم قال حذافة أخت النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة يقال لها الشيماء ، أغارت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم على هوازن ، فأخذوها فيما أخذوا من السبى الحديث ، وكون عبد الله بن جعفر روى عن حليمة .

قال الحافظ ابن حجر : لايتهيأله السماع منها إلا بعد الهجرة بسبع سنين فأكثر ، لأنه قدم

من الحبشة مع أبيه الذى هو جعفر بن أبى طالب فى خيبر سنة سبع ، وتبعد حياتها وبقاؤها إلى ذلك الزمن .

وفيه أن حنينا بعد خيبر ، وأبعد من ذلك وقوفها على أبى بكر وعمر ، وقد تقدم مايشعر باستبعاد ذلك عن ابن كثير .

والذى يتجه أن الوافدة عليه فى حنين أخته لا أمه كما يقول الحافظ الدمياطى ، والله أعلم . قال : قال أبو الفرج بن الجوزى : ثم قدمت، أى حليمة، عليه بعد النبوة فأسلمت وبايعت أى فلا يقال : سلمنا أن حليمة هى القادمة عليه : أى بعد النبوة ، فما الدليل على إسلامها اه .

أقول : كان من حقه أن يقول بدل هذه العبارة التى ذكرها وإنما قال يعنى ابن الجوزى فأسلمت بعد قوله قدمت عليه بعد النبوة لأنه لا يلزم من قدومها عليه بعد النبوة إسلامها. وفى كون قول ابن الجوزى فأسلمت دليلا على إسلامها نظر ؛ بل هى دعوى تحتاج إلى دليل ، إلا أن يقال : قول ابن الجوزى فأسلمت دليل لنا على إسلامها : والله أعلم .

وذكر الذهبى أن التى وفدت عليه صلى الله عليه وسلم فى الجعرانة يجوز أن تكون ثويبة ، ونظر فيه بأن ثويبة توفت سنة سبع : أى من الهجرة أى مرجعه من خيبر على ماتقدم .

أقول ذكر فى النور أن الحافظ مغلطاى له مؤلف فى إسلام حليمة سماه : التحفة الجسيمة فى إسلام حليمة .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم ترضعه مرضعة إلا وأسلمت، لكن هذا البعض قال: ومرضعاته صلى الله عليه وسلم أربع : أمه وحليمة السعدية وثويبة وأم أيمن أيضا .

وهو يؤيد ما تقدم عن ابن منده من إسلام ثويبة : وأما إسلام آمنة فسنذكره، وكون أم أيمن أرضعته صلى الله عليه وسلم تقدم ما فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب وفاة أمه صلى الله عليه وسلم وحضانة أم أيمن له وكفالة جده عبد المطلب إياه

أى اختصاصه بذلك .

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتت أمه لما بلغ ست سنين. وقيل كان سنه أربع سنين ، وبه صدر فى المواهب : أى وهو يرد القول بأن حليمة لما ردته إلى أمه كان عمره خمس أوست سنين : قال : وقيل كان سنه صلى الله عليه وسلم سبع سنين ، وقيل ثمان ، وقيل تسع ، وقيل اثنتي عشرة وشهرا وعشرة أيام اهـ .

ووفاتها كانت بالأبواء ، وهو محل بين مكة والمدينة : أى وهو إلى المدينة أقرب . وسمى بذلك لأن السيول تتبوأه : أى تحل فيه ودفنت به . فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه ، فأتاه وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه صلى الله عليه وسلم وقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت وكان موتها وهى راجعة به صلى الله عليه وسلم من المدينة من زيارة أخواله : أى أخوال جده عبد المطلب ، لأن أم عبد المطلب من بنى عدى بن النجار كما تقدم ، بعد أن مكثت عندهم شهرا ومرضت فى الطريق ومعها أم أيمن بركة الحبشية التى ورثها من أبيه عبد الله على ما تقدم ، فحضنته وجاءت به إلى جده عبد المطلب : أى بعد خمسة أيام من موت أمه ، فضمه إليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده .

هذا وفى كلام بعضهم : وبقى النبى صلى الله عليه وسلم بعد موت أمه بالأبواء حتى أتاه الخبر إلى مكة : وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله فاحتملته ، وذلك لخامسة من موت أمه فليتأمل .

وكون موت أمه صلى الله عليه وسلم كان فى حياة عبد المطلب هو المشهور الذى لا يكاد يعرف غيره ، وبه يرد قول من قال إن موت عبد المطلب كان قبل موت أمه صلى الله عليه وسلم بسنتين .

أى وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأم أيمن « أنت أمى بعد أمى » ويقول « أم أيمن أمى بعد أمى » وفى القاموس : دار رابغة — بالغين المعجمة — بمكة فيها مدفن أمه صلى الله عليه وسلم ،

ولم أقف على محل تلك الدار من مكة قال : وقيل توفيت : أى دفنت بالحجون بشعب أبى ذؤيب ، وغلط قائله .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت «حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه ، ثم إنه طفق » أى شرع يقول « : ياحميراء استمسكى ، فاستندت إلى جنب البعير ، فمكث عنى طويلا ثم عاد إلىّ وهو فرح متبسم ، فقلت له : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، نزلت من عندى وأنت باك حزين مغتم فبكيت لبكائك ، ثم إنك عدت إلىّ وأنت فرح متبسم فم ذاك ؟ قال ذهبت لقبر أمى فسألت ربى أن يحييها ، فأحياها فآمنت وردها الله تعالى » .

وهذا الحديث قد حكم بضعفه جماعة ، منهم الحافظ أبو الفضل بن ناصر الدين ، والجوزقانى وابن الجوزى ، والذهبى فى الميزان ، وأقره على ذلك الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان جعله ابن شاهين ومن تبعه ناسخا لأحاديث النهى عن الاستغفار : أى لها .

منها ما جاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة » أى ولعله فى عمرة القضاء ، لأنه لم يقدم مكة نهارا « مع أصحابه قبل حجة الوداع إلا فى ذلك أتى رسم قبر أمه فجلس إليه فناجاه طويلا ثم بكى ، قال ابن مسعود فبكينا لبكائه صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ثم دعانا ، فقال : ما أبكاكم ؟ قلنا بكينا لبكائك ، فقال : إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة » الحديث .

وفى رواية « أتى قبر أمه فجلس إليه ، فجعل يخاطبه ، ثم قام مستعبرا ، فقال بعض الصحابة : يارسول الله قد رأينا ماصنعت ، قال : إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى » وفى رواية « إن جبريل عليه الصلاة والسلام ضرب فى صدره صلى الله عليه وسلم وقال : لاتستغفر لمن مات مشركا ، فما رؤى باكيا أكثر منه يومئذ » وفى رواية « استأذنته فى الدعاء لها : أى بالاستغفار ، فلم يأذن لى وأنزل على (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد » قال القاضى عياض : بكاؤه صلى الله عليه وسلم على مافاتها من إدراك أيامه والإيمان به أى النافع إجماعا ، وكونه ناسخا لذلك غير جيد ، لأن أحاديث النهى عن الاستغفار بعض طرقها صحيح رواه مسلم وابن حبان فى صحيحهما . ونص مسلم « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ،

فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة » وفى لفظ « تذكركم الموت » وهذا الحديث : أى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها على تسليم ضعفه أى دون وضعه لايكون ناسخا للأحاديث الصحيحة .

أقول : ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن آيتى (ماكان للنبى والذين آمنوا — وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) نزلتا لما استغفر صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب بعد موته فقال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذى قرابتنا ؟ هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لعمه ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه : أى فنزولها كان عقب موت أبى طالب .

لايقال جاز أن تكون آية (ماكان للنبى) تكرر نزولها لما استغفر صلى الله عليه وسلم لعمه ولما استغفر لأمه ، لأنا نقول كونه يعود للاستغفار بعد أن نهى عنه فيه ما فيه ، أو المراد بالنسخ المعارضة ، يعنى قول ابن شاهين إنه ناسخ أحاديث النهى عن الاستغفار : أى معارض لها ، إذ لامعنى للنسخ هنا ، على أنه لامعارضة ، لأن النهى عن الاستغفار لها كان قبل أن تؤمن .

وإذا ثبت ما تقدم عن عائشة رضى الله تعالى عنها وما بعده كان دليلا لمن يقول قبر أمه صلى الله عليه وسلم بمكة . وعلى كونها دفنت بالأبواء اقتصر الحافظ الدمياطى فى سيرته ، وكذا ابن هشام فى سيرته. وفى الوفاء عن ابن سعد: أن كون قبرها بمكة غلط وإنما قبرها بالأبواء .

وقد يقال : على تقدير صحة الحديثين : أى أنها دفنت بالأبواء وأنها دفنت بمكة يجوز أنها تكون دفنت أولا بالأبواء ثم نقلت من ذلك المحل إلى مكة ، فعلم أن بكاءه صلى الله عليه وسلم كان قبل أن يحييها الله له وتؤمن به . ومن ثم قال الحافظ السيوطى إن هذا الحديث : أى حديث عائشة قيل إنه موضوع ، لكن الصواب ضعفه لا وضعه هذا كلامه .

ويجوز أن يكون قوله لشخصين « أمى وأمكما فى النار » على تقدير صحته التى ادعاها الحاكم فى المستدرك كان قبل إحيائها وإيمانها به كما تقدم نظير ذلك فى أبيه صلى الله عليه وسلم .

وقولنا على تقدير صحة الحديث إشارة لما تقرر فى علوم الحديث أنه لايقبل تفرد

الحاكم بالتصحيح فى المستدرك ، لما عرف من تساهله فيه فى التصحيح . وقد بين الذهبى ضعف هذا الحديث ، وحلف على عدم صحته يمينا . وتقدم الجواب عما يقال كيف ينفع الإيمان بعد الموت ، وتقدم مافيه . على أن هذا : أى منع الاستغفار لها إنما يأتى على القول أن من بدّل أو غيّر أو عبد الأصنام من أهل الفترة معذب ، وهو قول ضعيف مبنى على وجوب الإيمان والتوحيد بالعقل .

والذى عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنه لايجب ذلك إلا بإرسال الرسل . ومن المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسمعيل ، وأن إسمعيل انتهت رسالته بموته كبقية الرسل ، لأن ثبوت الرسالة بعد الموت من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فعليه أهل الفترة من العرب لاتعذيب عليهم وإن غيروا أو بدلوا أو عبدوا الأصنام ؛ والأحاديث الواردة بتعذيب من ذكر أى من غيّر أو بدل أو عبد الأصنام مؤولة ، أو خرجت مخرج الزجر للحمل على الإسلام .

ثم رأيت بعضهم رجح أن التكليف بوجوب الإيمان بالله تعالى وتوحيده : أى بعدم عبادة الأصنام يكفى فيه وجود رسول دعا إلى ذلك وإن لم يكن ذلك الرسول مرسلا لذلك الشخص بأن لم يدرك زمنه ، حيث بلغه أنه دعا إلى ذلك أو أمكنه علم ذلك ، وأن التكليف بغير ذلك من الفروع لابد فيه من أن يكون ذلك الرسول مرسلا لذلك الشخص وقد بلغته دعوته .

وعلى هذا فمن لم يدرك زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ولا زمن من قبله من الرسل معذب على الاشراك بالله بعبادة الأصنام لأنه على فرض أن لاتبلغه دعوة أحد من الرسل السابقين إلى الإيمان بالله وتوحيده ، لكنه كان متمكنا من علم ذلك فهو تعذيب بعد بعث الرسل لاقبله .

وحينئذ لايشكل ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسندصحيح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما بعث الله نبيا إلى قوم ثم قبضه إلا جعل بعده فترة يملأ من تلك الفترة جهنم » ولعل المراد المبالغة فى الكثرة ، وإلا فقد أخرج الشيخان عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول (هل من مزيد) حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيرتد بعضها إلى بعض وتقول قط قط » أى حسبى بعزتك وكرمك ، وأما بالنسبة لغير الإيمان والتوحيد من الفروع فلا تعذيب على

تلك الفروع ، لعدم بعثة رسول إليهم فأهل الفترة وإن كانوا مقرين بالله إلا أنهم أشركوا بعبادة الأصنام .

فقد حكى الله تعالى عنهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقد جاء النهى عن ذلك على ألسنة الرسل السابقين .

ووجه التفرقة بين الإيمان والتوحيد وغير ذلك : أن الشرائع بالنسبة للإيمان بالله وتوحيده كالشريعة الواحدة لاتفاق جميع الشرائع عليه .

قيل وهو المراد من قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا) فقد قال بعضهم : المراد من الآية استواء الشرائع كلها فى أصل التوحيد : أى ومن ثم قال فى تمام الآية (ولا تتفرقوا فيه) وقال (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ومن ثم قاتل بعض الأنبياء غير قومه على الشرك بعبادة الأصنام ، ولو لم يكن الإيمان والتوحيد لازما لهم لم يقاتلهم ، بخلاف غيره من الفروع فإن الشرائع فيها مختلفة .

قال بعضهم : سبب اختلاف الشرائع اختلاف الأمم فى الاستعداد والقابلية . والدليل على أن الأنبياء متفقون على الإيمان والتوحيد ماجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « الأنبياء أولاد علات » أى أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع شرائعهم ، لأن العلات الضرائر ، فأولادهم أخوة من الأب وأماتهم مختلفة . وقد جاء هذا التفسير فى نفس الحديث . فنى بعض الروايات « الأنبياء إخوة من علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » وبه يعلم مافى كلام العلامة ابن حجر الهيتمى حيث ذكر أن الحق الواضح الذى لاغبار عليه أن أهل الفترة جميعهم ناجون ، وهم من لم يرسل لهم رسول يكلفهم بالإيمان بالله عز وجل ، فالعرب حتى فى زمن أنبياء بنى إسرائيل أهل فترة لأن تلك الرسل لم يؤمروا بدعايتهم إلى الله تعالى وتعليمهم الإيمان قال : نعم ، من ورد فيه حديث صحيح من أهل الفترة بأنه من أهل النار ، فإن أمكن تأويله فذاك ، وإلا لزمنا أن نؤمن بهذا الفرد بخصوصه .

قال : وأما قول الفخر الرازى : لم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد معلومة ، فجوابه أن كل رسول إنما أرسل إلى قوم مخصوصين ، فمن لم يرسل إليه لايعذب . وجواب ماصح من تعذيب أهل الفترة أنها أخبار آحاد ، فلا تعارض القطع ، أو يقصر التعذيب على ذلك الفرد بخصوصه : أى حيث لايقبل التأويل ، كما تقدم ، هذا كلامه .

هذا وقد جاء أنهم: أى أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة. فقد أخرج البزار عن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ، فيسألهم ربهم فيقولون : ربنا لم ترسل لنا رسولا ولم يأتنا لك أمر ، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع عبادك ، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأن تطيعونى؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا فقالوا: ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما» .

قال الحافظ ابن حجر : فالظن بآله صلى الله عليه وسلم ، يعنى الذين ماتوا قبل البعثة أنهم يطيعون عند الامتحان إكراما له صلى الله عليه وسلم لتقرّ عينه ويرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة فى جماعة من يدخلها طائعا إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن به أى بعد أن طلب منه الإيمان .

ومما استدل به الحافظ السيوطى على أن أبويه صلى الله عليه وسلم ليسا فى النار قال : لأنهما لو كانا فى النار لكانا أهون عذابا من أبى طالب ، لأنهما أقرب منه وأبسط عذرا لأنهما لم يدركا البعثة ، ولا عرض عليهما الإسلام فامتنعا بخلاف أبى طالب . وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه أهون أهل النار عذابا ، فليسا أبواه صلى الله عليه وسلم من أهلها . قال : وهذا يسمى عند أهل الأصول دلالة الإشارة .

وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته : أى ولا أحد من أشراف قريش إجلالا له ، فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر : أى شديد قوى حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب : إذا رأى : أى علم ذلك منهم دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه عليه معه ، ويمسح ظهره ويسرّه مايراه يصنع .

قال : وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : دعوا ابنى يجلس ، فإنه يحس من نفسه بشىء : أى بشرف ، وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه به عربى قبله ولا بعده . وفى رواية : دعوا ابنى إنه ليؤنس ملكا : أى يعلم من نفسه أن له ملكا . وفى لفظ : ردوا ابنى إلى مجلسى ، فإنه تحدثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت ، أبى يقول: كان لعبد المطلب مفرش فى الحجر لايجلس عليه غيره ، وكان حرب بن أمية فمن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على المفرش ، فجذبه رجل فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالمطلب وذلك بعد ما كف بصره مالا بنى يبكى، قالوا له : أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه ، فقال عبد المطلب: دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف : أى يتيقن فى نفسه شرفا ، وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولا بعده : أى فكانوا بعد ذلك لايردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب : أى ولعل هذا كان فى آخر الأمر ، فلا ينافى ماتقدم الدال ظاهرا على تكرر ذلك منه صلى الله عليه وسلم ، من اختلاف قول عبد المطلب ، وإلا فيحتمل أن اختلاف قول عبد المطلب جاء من اختلاف الرواة .

وقال لعبد المطلب قوم من بنى مدلج : أى وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات: احتفظ به ، فإنا لم نرقد ما أشبه بالقدم التى فى المقام منه : أى وهى قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

أقول : أى فإن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، أثرت قدماه فى المقام : وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت كما سيأتى ، وهو الذى يزار الآن بالمكان الذى يقال له مقام إبراهيم : أى وقد أشار إلى ذلك عمه أبو طالب فى قصيدته بقوله مقسما :

وبالحجر المسود إذ يلثمونه　　إذا اكتنفوه فى الضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة　　على قدميه حافيا غير ناعل

قال الحافظ ابن كثير: يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لامنتعلة .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه : رأيت فى المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبيه وأخمص قدميه غير أن مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك: أى ومشابهة قدمه صلى الله عليه وسلم لقدم سيدنا إبراهيم تدل على أن تلك الأقدام بعضها من بعض كما تقدم فى قول مجزز المدلجى فى زيد بن أسامة رضى الله عنهما وقد ناما وغطيا رءوسهما وبدت أقدامهما: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك صلى الله عليه وسلم لأن فى ذلك رد على من كان يطعن فى نسب أسامة بن زيد كما تقدم .

وذكر بعضهم أن نبينا صلى الله عليه وسلم أثر قدمه فى الحجر أيضا، فقد أثر فى صخرة بيت المقدس ليلة الإسراء ، وإن ذلك الأثر موجود إلى الآن .

وذكر الجلال السيوطى أنه لم يقف لذلك: أى لتأثير قدمه صلى الله عليه وسلم فى الحجر على أصل ولا سند. قال: ولا رأيت من خرجه فى شيء من كتب الحديث . وقال مثل ذلك فيما أشتهر على الألسنة من أن مرفقه الشريف لما ألصقه بالحائط غاص فى الحجر وأثر فيه وبه يسمى ذلك المحل بمكة بزقاق المرفق .

ومن العجب أن الجلال السيوطى مع قوله المذكور قال فى الخصائص الصغرى : ولا وطىء على صخر إلا وأثر فيه هذا كلامه، ولعله ظهر له صحة ذلك بعد إنكاره. ودعوى أنه صلى الله عليه وسلم ماوطىء على صخر إلا وأثر فيه قد يتوقف فيه . ثم رأيت الإمام السبكى ذكر تأثير قدمه الشريف فى الأحجار حيث قال فى تائيته :

وأثر فى الأحجار مشيك ثم لم يؤثر برمل أو ببطحاء رطبة

قال شارحها: ولعل عدم تأثير قدمه الشريف فى الرمل كان ليلة ذهابه صلى الله عليه وسلم إلى الغار: أى فليس كان هذا شأنه فى كل رمل مشى عليه « وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع قدمه عن الرمل يقول لأبى بكر ضع قدمك موضع قدمى فإن الرمل لا ينم » أراد به إخفاء أثر سيره ليتحير المشركون فى طلبه .

وفيه أن هذا التعليل مقتض لتأثير قدمه الشريف فى الرمل لا لعدم تأثيره فى ذلك . ويؤيد ذلك أنه سيأتى أنهم قصوا أثره إلى أن انقطع الأثر عند الغار : أى وقال لهم القاص هذا أثر قدم ابن أبى قحافة ، وأما القدم الآخر فلا أعرفه إلا أنه يشبه القدم الذى فى المقام يعنى مقام إبراهيم ، فقالت قريش : ماوراء هذا شيء أى محل كما سيأتى .

وفيه أن هذا أى تميز قدمه الشريف من قدم سيدنا أبى بكر ربما ينافيه قوله لأبى بكر « ضع قدمك موضع قدمى فإن الرمل لاينم » .

وقد يقال : لامنافاة لأنه يجوز أن يكون قدم أبى بكر لم يكن مساويا لقدمه صلى الله عليه وسلم ولايضر فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « فإن الرمل لا ينم » لجواز أن يكون المراد لا يظهر فيه قدمى ظهور أبينا فصح قول القائل هذا أثر قدم ابن أبى قحافة ، وأما القدم الآخر إلى آخره ، ولم يعترض هذا الشارح على تأثير قدمه صلى الله عليه وسلم فى الحجارة بل أبدى لذلك حكما لابأس بها فلتراجع .

وقوله فى الأحجار يدل على أنه تكرر تأثير قدمه الشريف فى الأحجار ولكن لم يكن ذلك شأنه صلى الله عليه وسلم فى كل حجر مشى عليه كما دلت عليه عبارة الجلال السيوطى، والله أعلم .

قال : وبينا عبد المطلب يوما فى الحجر وعنده أسقف نجران . والأسقف : رئيس النصارى فى دينهم اشتق من السقف بالتحريك وهو طول الانحناء لأنه يتخاشع : أى يظهر الخشوع وذلك الأسقف يحادثه ويقول له إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسمعيل وهذا البلد مولده ، ومن صفته كذا وكذا ، وأتى برسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه الأسقف إلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمه ، وقال : هو هــذا ما هــذا منك قال : هذا ابنى ؛ قال : مانجد أباه حيا ، قال : هو ابن ابنى ، وقد مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فقال عبد المطلب لبنيه تحفظوا بابن أخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟ انتهى .

وعن أم أيمن « كنت أحضن النبى صلى الله عليه وسلم أى أقوم بتربيته وحفظه فغفلت ، عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسى يقول يابركة . قلت لبيك ؛ قال : أتدرين أين وجدت ابنى؟ قلت لاأدرى ، قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة لاتغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب أى ومنهم سيف بن ذى يزن كما سيأتى يزعمون أنه نبى هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم ، وكان لايأكل يعنى عبد المطلب طعاما إلا يقول علىّ بابنى أى أحضروه ، قال : وكان عبد المطلب إذا أتى بطعام أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه انتهى .

وعن بعضهم أى وهو حيدة بن معاوية العامرى كان من المعمرين ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم . قال بعضهم : مات وهو عم ألف رجل وامرأة ، قال : حججت فى الجاهليه ، فبينا أنا أطوف بالبيت إذا رجل . وفى رواية : إذا شيخ طويل يطوف بالبيت وهو يقول ، رد إلى راكبى محمدا ، وفى رواية :

يارب رد راكبى محمدا   اردده ربى واصطنع عندى يدا

فقلت من هذا ؟ قالوا : عبد المطلب بن هاشم ، بعث ابن ابنه فى طلب إبل له ضلت وما بعثه فى شىء إلا جاء به ، قال وفى رواية هذا سيد قريش عبد المطلب له إبل كثيرة فإذا ضل منها شىء بعث فيه بنيه يطلبونها ، فإذا غابوا بعث ابن ابنه ولم يبعثه حاجة

إلا أنجح فيها ، وقد بعثه فى حاجة أعيا عنها بنوه وقد أبطأ عليه انتهى ، فما برحت : أى مازلت عن مكانى حتى جاء بالإبل معه ، فقال له : يابنى حزنت عليك حزنا لا يفارقنى بعده أبدا ، وتقدم عن بعض المفسرين مالايحتاج إلى إعادته هنا .

وعن رقيقة بنت أبى صيفى : أى ابن هاشم بن عبد مناف زوجة عبد المطلب، ذكرها ابن سعد فى المسلمات المهاجرات أقوال . وقال أبو نعيم: لا أراها أدركت الإسلام . وقال ابن حبان: يقال إن لها صحبة والله أعلم. قالت تتابعت على قريش سنون: أى أزمنة قحط وجدب ذهبت بالأموال ، وأشفين : أى أشرفن على الأنفس ، قالت فسمعت قائلا يقول فى المنام: يامعشر قريش إن هذا النبى المبعوث منكم هذا إبان أى وقت خروجه وبه يأتيكم الحيا أى بالقصر المطر العام والخصب ، فانظروا رجلا من أوساطكم : أى أشرافكم نسباطوالا عظاما أى طويلا عظيما أبيض مقرون الحاجبين أهدب الأشفار أى طويل شعر الأجفان ، أسيل الخدين: أى لانتوءبها رقيق العرنين أى الأنف. وقيل أوله فليخرج هووجميع ولده وليخرج منكم من كل بطن رجل فيتطهروا ويتطيبوا، ثم استلموا الركن ، ثم ارقوا إلى رأس أبى قبيس ، ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى وتؤمنون ، فانكم تسقون ، فأصبحت وقصت رؤياها عليهم، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب فاجتمعوا عليه ، وأخرجوا من كل بطن رجلا ففعلوا ماأمرتهم به ، ثم علوا على أبى قبيس ومعهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فتقدم عبد المطلب فقال : لاهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك ، وقد نزل بنا ماترى ، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر : أى الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، فأشفت على الأنفس : أى أشرفت على ذهابها فأذهب عنا الجدب ، وائتنا بالحيا والخصب فابرحوا حتى سالت الأودية .

قال : وفى رواية أخرى عن رقيقة قالت: تتابعت على قريش سنون جدبة أقحلت ، أى أيبست الجلد، وأدقت العظم، فبينا أنانائمة أومهومة أى بين اليقظانة والنائمة إذ هاتف هو الذى يسمع صوته ولايرى شخصه كما تقدم يصرخ بصوت صحل : أى فيه بحوحة وهى خشونة الصوت وغلظه يقول : يامعشر قريش إن هذا النبى المبعوث منكم قد أظلتكم أيامه : أى قربت منكم ، وهذا إبان مخرجه فحيعلا بالحيا والخصب، ألا فانظروا رجلا منكم وسطا عظاما أبيض بضا أى شديد البياض ، أوطف الأهداب أى كثير شعر العينين

أسهل الخدين ، أشم العرنين أى مرتفع الأنف، له فخر يكظم عليه أى يسكت عليه ولا يظهره وسنن يهتدى إليها أى يرشد إليها ، فليخلص هو وولده وولد ولده وليدلف أى يتقدم إليه من كل بطن رجل فليسنوا من الماء : أى يفرغوه على أجسادهم أى يغتسلوا به ، وليمسوا من الطيب ، ثم يلتمسوا الركن وليطوفوا بالبيت العتيق سبعا ، ثم ليرقوا أبا قبيس فليستسق الرجل وليؤمن القوم ألا وفيهم الطيب الطاهر فغثتم إذا ماشئتم أى جاءكم الغيث على ما تريدون . قالت : فأصبحت مذعورة قد اقشعر جلدى ووله أى ذهب عقلى ، واقتصيت رؤياى أى ذكرتها على وجهها فنمت أى فشت وكثرت فى شعاب مكة ، فما بقى أبطحى إلا قال هذا شيبة الحمد يعنى عبد المطلب وقامت عنده قريش وانقض إليه من كل بطن رجل فسنوا من الماء ، ومسوا من الطيب واستلموا وطافوا .

ثم ارتقوا أبا قبيس ، فطفق القوم يدنون حوله ما إن يدركه بعضهم مهلة وهى التؤدة والتأنى ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أيفع أى ارتفع أو كرب أى قرب من ذلك ، فقام عبد المطلب فقال اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل ، وهذه عبيدك وإماؤك بغدرات حرمك أى أفنيته يشكون إليك سنتهم التى أقحلت أى أيبست الظلف والخف : أى الإبل والبقر فأمطرن ، اللهم غيثا سريعا مغدقا فما برحوا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى : أى ضاق بثجيجه أى بسيله فلسمعت شيخان قريش وهى تقول لعبد المطلب : هنيئالك يا أبا البطحاء ، بك عاش أهل البطحاء انتهى : أى والظاهر أن القصة واحدة فليتأمل الجمع . وقد يدعى أن الاختلاف من الرواة منهم من عبر بالمعنى .

وفى سقيا الناس بعبد المطلب وأن ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم تقول رقيقة :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا ... وقد عدمنا الحيا واجلوذ المطر

أى امتد زمن تأخره . * فجاد بالماء جونى له سبل دان * أى مطرها طل كثير الهطل قريب ، فعاشت به الأنعام والشجر * منا من الله بالميمون طائره * أى المبارك حظه * وخير من بشرت يوما به مضر *

مبارك الاسم يستسقى الغمام به ... مافى الأنام له عدل ولا خطر

أى لا معادل ولا مماثل له .

ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر فاجتمع عظماؤهم وقالوا قد أصبحنا

فى جهد وجدب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب، فاقصدوه لعله يسأل الله تعالى فيكم فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام. فقال لهم: أفلحت الوجوه وقام خطيبهم ، فقال : قد أصابتنا سنون مجدبات ، وقد بان لنا أثرك ، وصح عندنا خبرك ، فاشفع لنا عند من شفعك وأجرى الغمام لك ، فقال عبد المطلب : سمعا وطاعة ، موعدكم غدا عرفات ، ثم أصبح غاديا إليها وخرج معه الناس وولده ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنصب لعبد المطلب كرسى فجلس عليه وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى حجره ثم قام عبد المطلب ورفع يديه ، ثم قال : اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف، رب الأرباب، ومابين الصعاب، هذه قيس ومضر ، من خير البشر ، قد شعثت رؤوسها ، وحدبت ظهورها تشكو إليك شدة الهزال وذهاب النفوس والأموال . اللهم فأتح لهم سحابا خوارة . وسماء خرارة لتضحك أرضهم ويزول ضرهم ، فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة دكناء لها دوى وقصدت نحو عبد المطلب، ثم قصدت نحو بلادهم ، فقال عبد المطلب : يامعشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم فرجعوا وقد سقوا .

وذكر بعضهم أنهم كانوا فى الجاهلية يستسقون إذا أجدبوا فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار ، وهى سلع وعشر وشبرق ، من كل شجرة شيئا من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة وربطوا بها على ظهر ثور صعب وأضرموا فيها النار ويرسلون ذلك الثور ، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط ، وقد يهلك ذلك الثور فيسقون .

وفى حياة الحيوان كانت العرب إذا أرادت الاستسقاء جعلت النيران فى أذناب البقر وأطلقوها فتمطر السماء ، فإن الله يرحمها بسبب ذلك . قال : وذكر ابن الجوزى أنه صلى الله عليه وسلم فى سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد ، فعولج بمكة فلم يغن ، فقيل لعبد المطلب إن فى ناحية عكاظ راهبا يعالج الأعين فركب إليه ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداه وديره مغلق فلم يجبه ، فتزلزل ديره حتى خاف أن يسقط عليه ، فخرج مبادرا . فقال : ياعبد المطلب إن هذا الغلام نبى هذه الأمة ولولم أخرج إليك لخر على ديرى ، فارجع به واحفظه لايقتله بعض أهل الكتاب ، ثم عالجه وأعطاه مايعالجه به .

هذا ورأيت فى كتاب سماه مؤلفه [كريم الندماء ونديم الكرماء] أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم رمد وهو صغير ، فمكث أياما يشكو ، فقال قائل لجده عبد المطلب : إن بين مكة والمدينة راهبا يرقى من الرمد ، وقد شفى على يديه خلق كثير ، فأخذه جده وذهب به إلى ذلك الراهب ، فلما رآه الراهب دخل إلى صومعته فاغتسل ولبس ثيابه ثم أخرج صحيفة فجعل ينظر إلى الصحيفة وإليه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هو والله خاتم النبيين ، ثم قال : ياعبد المطلب هو أرمد ؟ قال نعم ، قال : إن دواءه معه ، ياعبد المطلب خذ من ريقه وضعه على عينيه فأخذ عبد المطلب من ريقه صلى الله عليه وسلم ووضعه على عينيه صلى الله عليه وسلم فبرأ لوقته ثم قال الراهب ياعبد المطلب وتالله هذا هو الذى أقسم على الله به فأبرى المرضى وأشفى الأعين من الرمد فليتأمل ، فإن تعدد الواقعة لايخلو عن بعد ، والله أعلم .

باب وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبى طالب له صلى الله عليه وسلم

ثم لما كان سنه صلى الله عليه وسلم ثمان سنين : أى بناء على الراجح من الأقوال المتكثرة ، ويرجحه مايأتى : توفى عبد المطلب وله من العمر خمس وتسعون سنة ، وقيل مائة وعشرون ، وقيل وأربعون : أى ولعل ضعف هذا القول اقتضى عدم ذكر ابن الجوزى لعبد المطلب فى المعمرين . قال : وقيل اثنان وثمانون : أى وعليه اقتصر الحافظ الدمياطى ، قال : وقيل مائة وأربعة وأربعون اهـ . وقد قيل له صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال نعم وأنا يومئذ ابن ثمان سنين» .

وعن أم أيمن أنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبكى خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين . ودفن بالحجون عند جده قصى .

وجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك ، وأبهة الأشراف .

ولما حضرته الوفاة أوصى به صلى الله عليه وسلم إلى عمه شقيق أبيه أبى طالب : أى وكان أبو طالب ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية كأبيه عبد المطلب كما تقدم ، واسمه على الصحيح عبد مناف . وزعمت الروافض أن اسمه عمران ، وأنه المراد من قوله تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) قال الحافظ ابن كثير

وقد أخطأوا فى ذلك خطأ كبيرا ، ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان ، فقد ذكر بعد هذه قوله تعالى (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا) وحين أوصى به جده لأبى طالب أحبه حبا شديدا لايحبه لأحد من ولده ، فكان لاينام إلا إلى جنبه ، وكان يخصه بأحسن الطعام : أى وقيل اقترع أبو طالب هو والزبير شقيقه فيمن يكفله صلى الله عليه وسلم منهما ، فخرجت القرعة لأبى طالب ، وقيل بل هو صلى الله عليه وسلم اختار أبا طالب لما كان يراه من شفقته عليه وموالاته له قبل موت عبد المطلب ، فسيأتى أنه كان مشاركا له فى كفالته .

وقيل كفله الزبير حين مات عبد المطلب ، ثم كفله أبو طالب : أى بعد موت الزبير ، وغلط قائله بأن الزبير شهد حلف الفضول ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر نيف وعشرون سنة كذا فى [أسد الغابة] مقدما للاقتراع على ماقبله .

وفى كون عمره صلى الله عليه وسلم فى حلف الفضول كان نيفا وعشرين سنة نظر ، لما سيأتى أن عمره إذا ذاك كان أربع عشرة سنة .

وفى كلام بعضهم : فلما مات عبد المطلب كفله عماه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب ، ثم مات عمه الزبير وله من العمر أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب ، وكفالة جده وعمه له صلى الله عليه وسلم بعد موت أبيه وأمه مذكورة فى الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم .

فنى خبر سيف بن ذى يزن : يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه : أى وفى سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة : صفية ، وهى أم الزبير بن العوام وبرة وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء : أى وهى جدة عثمان بن عفان لأمه ، وأميمة وأروى ، فقال لهن : ابكين على حتى أسمع ماتقلن فىّ قبل أن أموت ، فقالت كل واحدة منهن شعرا فى وصفه مذكور فى تلك السيرة ، ولما سمع جميع ذلك أشار برأسه أن هكذا فابكينى . ويقال إنه إنما أشار بذلك لما سمع قول أميمة وقد أمسك لسانه وكان من قولها :

أعينىّ جودا بدمع درر ... على ماجد الخيم والمعتصر
على ماجد الجد وارى الزناد ... جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذى المكرمات ... وذى المجد والعز والمفتخر

وذى الحلم والفضل فى النائبات كثير المفاخر جمّ الفخر

له فضل مجد على قومه متين يلوح كضوء القمر

قال ابن هشام رحمه الله : لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر إلا أنه : أى ابن إسحاق لما رآه عن ابن المسيب كتبه . قال بعضهم : ولم يبك أحد بعد موته مابكى عبد المطلب بعد موته ، ولم يقم لموته بمكة سوق أياما كثيرة .

وروى أبو نعيم والبيهقى : أن سيف بن ذى يزن الحميرى لما ولى على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئه : أى بهلاك ملوك الحبشة وبولايته عليهم : أى لأن ملك اليمن كان لحمير ، فانتزعته الحبشة منهم ، واستمر فى يد الحبشة سبعين سنة ثم إن سيف بن ذى يزن الحميرى استنقذ ملك اليمن من الحبشة ، واستقر فيه على عادة آبائه ، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب ، وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب وأمية بن عبد شمس ، وغالب وجهائهم أى كعبد الله بن جدعان بضم الجيم وإسكان الدال المهملة وبالعين المهملة التيمى ، وهو ابن عم عائشة رضى الله تعالى عنها ، وكأسد بن عبد العزى ، ووهب بن عبد مناف ، وقصى ابن عبد الدار ، فأخبر بمكانهم : أى وكان فى قصره بصنعاء ، وهو مضمخ بالمسك ، وعليه بردان ، والتاج على رأسه وسيفه بين يديه ، وملوك حمير عن يمينه وشماله ، فأذن لهم فدخلوا عليه ، ودنا منه عبد المطلب .

وفى الوفاء وجدوه جالسا على سرير من الذهب ، وحوله أشراف اليمن على كراسى من الذهب ، فوضعت لهم كراسى من الذهب فجلسوا عليها إلا عبد المطلب فإنه قام بين يديه واستأذنه فى الكلام ، فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك ، فقال : إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلا رفيعا شامخا : أى مرتفعا باذخا : أى عاليا منيعا ، وأنبتك نباتا طالت أرومته ، وعظمت جرثومته : أى والأرومة والجرثومة هما الأصل ، وثبت أصله وبسق : أى طال فرعه فى أطيب موضع وأكرم معدن ، وأنت أبيت اللعن أى أبيت أن تأتى من الأمور مايلعن عليه ، ملك العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، وكهفها الذى تلجأ إليه العباد سلفك خير سلف . وأنت لنا فيهم خير خلف ، فلن يهلك ذكر من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه ، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا : أى أحضرنا إليك الذى أبهجنا من كشف الكرب

الذى فدحنا أى أثقلنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة أى التعزية ، فعند ذلك قال له الملك من أنت أيها المتكلم ؟ قال عبد المطلب بن هاشم ، قال: ابن أختنا بالتاء المثناة فوق ، لأن أم عبد المطلب من الخزرج وهم من اليمن ، قال نعم ، قال ادنه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا وملكا ربحلا : أى كثير العطاء ، يعطى عطاء جزلا. قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فإنكم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء : أى العطاء إذا ظعنتم ، ثم انهضوا إلى دار الضيافة والوفود ، وأجرى عليهم الأنزال ، فأقاموا بذلك شهرا لايصلون إليه ، ولا يؤذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة ،فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه، ثم قال له : ياعبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى أمرا لو غيرك يكون لم أبح له به ، ولكن رأيتك معدنه فأطلعتك طلعه أى عليه ، فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه ، إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى ادخرناه لأنفسنا واحتجبناه : أى كتمناه دون غيرنا خبرا عظيما ، وخطرا جسيما فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة، فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سرّ وبرّ ، فما هو فداك أهل الوبر زمرا بعد زمر ؟ قال إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ولكم به الزعامة أى السيادة إلى يوم القيامة ، فقال له عبد المطلب : أيها الملك أبت ، أى رجعت بخير ماآب بمثله وافد قوم ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من مساره : أى من مساررته إياى بما أزداد به سرورا، فقال له الملك : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا : وجاعل له منا أنصارا يعزبهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض أى جميعا، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن؛ ويدحض: أى يزجر الشيطان ، ويخمد النيران ، ويكسر الأوثان . قوله فصل ، وحكمه عدل ، ويأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله : قال له عبد المطلب : جد جدك ، ودام ملكك ، وعلا كعبك، فهل الملك سارّى بإفصاح ، فقد وضح لى بعض الإيضاح ، قال : والبيت ذِى الحجب ، والعلامات على النقب : أى الطرق ، إنك لجده ياعبد المطلب غير كذب ، قال: فخرّ عبد المطلب ساجدا ، فقال له ارفع رأسك، ثلج صدرك ، وعلا كعبك ، فهل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟ قال ، نعم أيها الملك ، إنه كان لى ابن ،

وكنت به معجبا وعليه رقيقا ، وإنى زوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فجاءت بغلام فسميته محمدا ، مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه : يعنى أبا طالب ، وهذا يدل على أن وفود عبد المطلب على سيف بن ذى يزن كان بعدموت أمه صلى الله عليه وسلم .

وحينئذ لاينافى ذلك ماتقدم أن عمره صلى الله عليه وسلم كان سنتين ؛ لأن ذلك كان سنه صلى الله عليه وسلم حين ولى سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وتأخر وفود عبدالمطلب عليه بعد موت أمه صلى الله عليه وسلم . ويدل على أن أبا طالب كان مشاركا لعبد المطلب فى كفالته صلى الله عليه وسلم فى حياة عبد المطلب ، ثم اختص هو بذلك بعد موته : أى وعبارة سيف بن ذى يزن صادقة بالحالين . فقال له : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ على ابنك ، واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا : أى ، فحفظه والخوف عليه منهم من باب الاحتياط والإعلام بقدره

قال واطوما ذكرته لك عن هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تداخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة ، فينصبون له الحبائل ، ويبغون له الغوائل ، وهم فاعلون ذلك ، وأبناؤهم من غير شك . ولولا أعلم أن الموت مجتاحى : أى مهلكى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه . فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق أن يثرب دار ملكه ، واستحكام أمره ، وأجل نصرته ، وموضع قبره . ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه أمره ، وأعليت على أسنان العرب كعبه ، ولكن سأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك .

ثم دعا بالقوم ، وأمر لكل واحد منهم بعشرة أعبد أسود ، وعشرة إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وعشرة أرطال ذهبا ، وعشرة أرطال فضة ، ومائة من الإبل ، وكرش مملوء عنبرا . وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك ، وقال : إذا جاء الحول فأتنى بخبره وما يكون من أمره ، فمات الملك قبل أن يحول عليه الحول ، وكان عبد المطلب كثيرا ما يقول لمن معه : لايغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره وفخره ، فإذا قيل له ماهو ؟ قال سيعلم ما أقول ولو بعد حين اه .

وهذا القصر الذى كان فيه الملك سيف بن ذى يزن يقال له بيت عمدان، يقال إنه كان هيكلا للزهرة تعبد فيه الزهرة . وكان سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه يقول لاأفلحت العرب مادام فيها عمدانها ، فلما ولى عثمان رضى الله تعالى عنه الخلافة هدمه .

وكان أبو طالب مقلا من المال ، فكان عياله إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم النبى صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم يقول لهم ، كما أنتم حتى يأتى ابنى ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم ، فيفضلون من طعامهم ، وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ، ثم تتناول العيال القعب : أى القدح الذى من الخشب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم: أى جميعهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا واحدا . فيقول أبو طالب : إنك لمبارك .

أقول : وفى الإمتاع وكان أى أبو طالب يقرب إلى الصبيان يصبحهم أو البكرة فيجلسون وينتهبون فيكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده لاينتهب معهم. فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه على حدة ، هذا كلامه : ولا ينافى ماقبله ، لأنه يجوز أن يكون ذلك خاصا بما يحضر فى البكرة الذى يقال له الفطور دون الغداء والعشاء ، فإنه كان يأكل معهم وهو المقدم ، والله أعلم .

وكان الصبيان يصبحون شعثار مصاً بضم الراء وإسكان الميم ثم صاد مهملة ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا .

قالت أم أيمن: مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جوعا قط ولاعطشا لافى صغره ولا فى كبره .

وكان صلى الله عليه وسلم يغد وإذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول أنا شبعان : أى فى بعض الأوقات ، فلاينا فى ماسبق .

وكان يوضع لأبى طالب وسادة يجلس عليها فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فجلس عليها ، فقال : إن ابن أخى ليخبر بنعيم : أى بشرف عظيم .

قال : واستسقى أبو طالب برسول الله صلى الله عليه وسلم . قال جلهمة بن عرفطة : قدمت مكة وقريش فى قحط فقائل منهم يقول اعتمدوا اللات والعزى. وقائل منهم يقول اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأى أنى تؤفكون: أى

كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية إبراهيم ، وسلالة إسمعيل عليهما السلام ؟ أى فكيف تعدلون عنه إلى مالا يجدى . قالوا : كأنك عنيت أباطالب ، قال : إيها ، فقاموا بأجمعهم وقمت معهم ، فدققنا عليه بابه فخرج إلينا رجل حسن الوجه ، عليه إزار قد اتشح به فثاروا أى قاموا إليه ، فقالوا ، يا أباطالب ، أقحط الوادى ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق لنا ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة بدال مهملة فجيم مضمومتين أى ظلمة . وفى رواية كأنه شمس دجن : أى ظلام تجلت عنه سحابة قتماء أى من القتام بالفتح وهو الغبار وحوله أغيلمة جمع غلام ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ أى طاف بأصبعه الغلام ، زاد فى بعض الروايات ، وبصبصت الأغيلمة حوله : أى فتحت أعينها ، ومافى السماء قزعة : أى قطعة من سحاب ، فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق : أى كثر مطره ، وانفجر له الوادى ، وأخصب النادى والبادى .

وفى ذلك يقول أبو طالب من قصيدة يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم أكثر من ثمانين بيتا :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أى ملجأ وغياثا لليتامى ، ومانع الأرامل من الضياع . والأرامل : المساكين من من النساء والرجال ، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالا .

أقول : وأخذت الشيعة من هذه القصيدة القول بإسلام أبى طالب : أى لأنه صنفها بعد البعثة وسيأتى الكلام فى إسلامه .

وأما مانقله الدميرى فى شرح المنهاج عن الطبرانى وابن سعد أن هذه القصيدة التى منها هذا البيت من إنشاء عبد المطلب فهو وهم ، لما درج عليه أئمة السير أن المنشئ لهـــا هو أبو طالب ، واحتمال توارد كل من أبى طالب وعبد المطلب على هذه القصيدة بعيد جدا .

ومما يصرح بالوهم ما يأتى عن النبى صلى الله عليه وسلم من نسبة هذا البيت لأبى طالب ، والله أعلم .

قال : وعن أبى طالب قال : كنت بذى المجاز : أى وهو موضع على فرسخ من عرفة كان سوقا للجاهلية كما تقدم مع ابن أخى يعنى النبى صلى الله عليه وسلم فأدركنى العطش فشكوت إليه فقلت يا ابن أخى قد عطشت وماقلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئا إلا الجزع :

أى لم يحملني على ذلك إلا الجزع : وعدم الصبر . قال : فثنى وركه : أى نزل عن دابته . ثم قال : ياعم عطشت . قلت نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض . وفى رواية : إلى صخرة فركضها برجله وقال شيئا ، فإذا أنا بالماء لم أر مثله ، فقال اشرب ، فشربت حتى رويت ، فقال أرويت ؟ قلت نعم ، فركضها ثانية فعادت كما كانت وسافر : أى وقد أتت عليه صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة مع عمه الزبير بن عبد المطلب شقيق أبيه كما تقدم إلى اليمن ، فمروا بواد فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز ، فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكلكله : أى صدره فنزل صلى الله عليه وسلم عن بعيره وركب ذلك الفحل ، وسار حتى جاوز الوادى ثم خلى عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بواد مملوء ماء يتدفق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتبعونى ثم أقتحمه فاتبعوه فأيبس الله عز وجل الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك ، فقال الناس : إن لهذا الغلام شأنا اهـ .

أى وفى السيرة الهشامية أن رجلا من لهب كان قائفا . وكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويقتاف لهم فيهم ، فأتى أبو طالب بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو غلام مع من يأتيه فنظر إليه صلى الله عليه وسلم ، ثم شغل عنه بشىء ، فلما فرغ قال علىّ بالغلام ، وجعل يقول ويلكم ردوا علىّ الغلام الذى رأيت آنفا فوالله ليكونن له شأن ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه وانطلق به ، والله أعلم .

باب ذكر سفره صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب إلى الشام

عن ابن إسحق لما تهيأ أبو طالب للرحيل صبّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الصاد المهملة وتشديد الباء الموحدة . والصبابة : رقة الشوق ، قاله فى الأصل .

قال : وعند بعض الرواة : فضبث به أى بفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثلثة كضرب لزمه وقبض عليه ، يقال ضبثت على الشىء : إذا قبضت عليه .

فقد جاء : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل للملأ من بنى إسرائيل لايدعونى والخطايا بين أضباثهم : أى قبضاتهم : أى وهم يحملون الأوزار غير مقلعين عنها : أى وعلى ماعند بعض الرواة اقتصر الحافظ الدمياطى ، فلفظه : لما تهيأ يعنى أبا طالب للرحيل

ضبث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجنّ به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا .

أقول : رأيت بعضهم نقل عن سيرة الدمياطى : وضبث به أبو طالب ضباثة لم يضبث مثلها لشيء قط وإنه ضبث بالضاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثلثة . قال وهو القبض على الشيء ، وهذا لا يناسب قوله ضباثة لم يضبث مثلها لشيء قط ، لأن ذلك إنما يناسب صب بالصاد المهملة : أى الذى هو الرقة كما لا يخفى . على أن مصدر ضبث إنما هو الضبث ، ومن ثم لم أجد ذلك فى السيرة المذكورة . والذى رأيته فيها ماقدمته عنها ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم مسك بزمام ناقة أبى طالب ، وقال : ياعم إلى من تكلنى؟ لاأب لى ولا أم . وكان سنه صلى الله عليه وسلم تسع سنين على الراجح . وقيل اثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام : أى وهذا القيل صدر به فى الإمتاع وقال إنه أثبت : أى ومن ثم اقتصر عليه المحب الطبرى .

وذكر أنه لما سار به أردفه خلفه فنزلوا على صاحب دير ، فقال صاحب الدير ماهذا الغلام منك؟ قال ابنى ، قال : ماهو بابنك ، وماينبغى أن يكون له أب حى هذا نبى : أى لأن من كانت هذه الصفة صفته فهو نبى : أى النبى المنتظر .

ومن علامة ذلك النبى فى الكتب القديمة أن يموت أبوه وأمه حامل به كما تقدم وسيأتى أو بعد وضعه بقليل من الزمن : أى ومن علامته أيضا فى تلك الكتب موت أمه وهو صغير كما تقدم فى خبر سيف بن ذى يزن . ولاينافى ذلك الاقتصار من بعض أهل الكتب القديمة على الأول الذى هو موت أبيه وهو حمل.

قال أبو طالب لصاحب الدير وما النبى ؟ قال : الذى يأتى إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض . قال أبو طالب الله أجل مما تقول ، قال : فاتق عليه اليهود ، ثم خرج حتى نزل براهب أيضا صاحب دير ، فقال له : ما هذا الغلام منك؟ قال ابنى ، قال : ما هو بابنك ، وما ينبغى أن يكون له أب حى . قال ولم ؟ قال : لأن وجهه وجه نبى وعينه عين نبى : أى النبى الذى يبعث لهذه الأمة الأخيرة ، لأن ماذكر علامته فى الكتب القديمة . قال أبو طالب : سبحان الله ! الله أجل مما تقول . ثم قال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم : ياابن أخى ألا تسمع مايقول ؟ قال : أى عم لاتنكر لله قدرة ، والله أعلم .

فلما نزل الركب بصرى وبها راهب يقال له بحيرا ، بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة وسكون

المثناة التحتية آخره راء مقصورة ، واسمه جرجيس ، وقيل سرجيس . وحينئذ يكون بحيرا لقبه فى صومعة له . وكان انتهى إليه علم النصرانية : أى لأن تلك الصومعة كانت تسكون لمن ينتهى إليه علم النصرانية ، يتوارثونها كابرا عن كابر ، عن أو صياء عيسى عليه الصلاة والسلام . وفى تلك المدة انتهى علم النصرانية إلى بحيرا ، وقيل كان بحيرا من أحبار اليهود يهود تيما [ ] .

أقول: لامنافاة لأنه يجوز أن يكون تنصر بعد أن كان يهوديا كما وقع لورقة بن نوفل كما سيأتى .

هذا وقال ابن عساكر : إن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفو ، بينها وبين بصرى ستة أميال. وقيل كان يسكن البلقاء من أرض الشام بقرية ، يقال لها ميفعة ، ويحتاج إلى الجمع.

وقد يقال يجوز : أنه كان يسكن فى كلّ من القريتين كل واحدة يسكن فيها زمنا ، وكان فى بعض الأحايين يأتى لتلك الصومعة فليتأمل . وقد سمع مناد قبل وجوده صلى الله عليه وسلم ، ينادى ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : رباب بن البراء ، وبحيرا الراهب ، وآخر لم يأت بعد . وفى لفظ : والثالث المنتظر يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ذكره ابن قتيبة .

قال ابن قتيبة : وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لايزال يرى عندهما طش : وهو المطر الخفيف ، والله أعلم .

وكانت قريش كثيرا ماتمر على بحيرا فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام صنع لهم طعاما كثيرا ؛ وقد كان رأى وهو بصومعته رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ثم لما نزلوا فى ظلّ شجرة نظر إلى الغمامة قد أظلت الشجرة وتهصرت : أى مالت [ ] أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية وأخضلت : أى كثرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استظلّ تحتها: أى وقد كان صلى الله عليه وسلم وجدهم سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس صلى الله عليه وسلم مال فىء الشجرة عليه ، ثم أرسل إليهم : إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم. فقال له رجل منهم لم أقف على اسم هذا الرجل: يابحيرا إن لك اليوم لشأنا ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيرا فما شأنك اليوم ؟ فقال له بحيرا صدقت؛ قد كان ماتقول ولكنكم ضيف وقد أحببت

أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم : أى تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا فى القوم ولم ير الصفة : أى لم ير فى أحد منهم الصفة التى هى علامة للنبى المبعوث آخر الزمان التى يجدها عنده : أى ولم ير الغمامة على أحد من القوم ، ورآها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامعشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامى . فقالوا : يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا . قال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الغلام معكم أى وقال : فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم فقال القوم : هو والله أوسطنا نسبا ، وهو ابن أخى هذا الرجل ، يعنون أبا طالب ، وهو من ولد عبد المطلب ، فقال رجل من قريش : واللات والعزى إن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه : أى وجاء به [ ] وأجلسه مع القوم : أى وذلك الرجل هو عمه الحارث بن عبد المطلب ، ولعله لم يقل هو ابن أخى مع كونه أسن من أبى طالب ، لأن أبا طالب كان شقيقا لأبيه عبدالله كما تقدم دون الحارث مع كون أبى طالب هو المقدم فى الركب . وقيل الذى جاء به صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه وقدمه ابن المحدث على ماقبله فليتأمل .

ولما سار به من احتضنه لم تزل الغمامة تسير على رأسه صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه صلى الله عليه وسلم بحيرا ، فقال له : أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما : أى وفى الشفاء أنه اختبره بذلك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغض شيئا قط بغضهما ، فقال بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له سلنى عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته : أى صفة النبى المبعوث آخر الزمان التى عنده : أى ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة على الصفة التى عنده فقبل موضع الخاتم ، فقالت قريش : إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا . فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك؟ قال ابنى ، قال : ما هو ابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال : فإنه ابن أخى ،

قال: فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت: أى ثم قال مافعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا ، قال صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت لتبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم أى نجده فى كتبنا ورويناه عن آبائنا .

واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة فاسرع به إلى بلده . وفى لفظ لما قال له ابن أخى قال له بحيرا أشفيق عليه أنت ؟ قال نعم ، قال : فو الله لئن قدمت به إلى الشام أى جاوزت هذا المحل ووصلت إلى داخل الشام الذى هو محل اليهود لتقتلنه اليهود ، فرجع به إلى مكة . ويقال إنه قال لذلك الراهب : إن كان الأمر كما وصفت فهو فى حصن من الله عز وجل .

وقد يقال : لامخالفة لأن ماصدر من بحيرا كان على ماجرت به العادة من طلب التوقى ، فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام . وفى الهدى فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة ، فليتأمل .

وذكر أن نفرا من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى بحيرا وأرادوا به سوءا فردهم عنه بحيرا ، وذكرهم الله وما يجدونه فى الكتاب من ذكره وصفاته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا لا يخلصون إليه ، فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه .

وفى رواية أخرى : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب بحيرا ، وكانوا قبل ذلك يمرون عليه فلا يخرج إليهم ولايلتفت إليهم ، فجعل وهم يحلون رحالهم يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال الأشياخ من قريش : ماأعلمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدا ، ولا يسجد إلا لنبى: أى وإن الغمامة صارت تظلله دونهم ، وإنى لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة . أى والغضروف تقدم أنه رأس لوح الكتف ، ثم رجع وصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به كان النبى صلى الله عليه وسلم فى رعية الإبل ، فأرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة : فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، فقال الراهب : انظروا إلى فىء هذه الشجرة مال عليه :

فبينما هو قائم عليهم وهو يعاهدهم أن لايذهبوا به إلى أرض الروم : أى داخل الشام ، فإنهم إن عرفوه قتلوه ، فالتفت فإذا سبعة من الروم قد أقبلوا ، فاستقبلهم ، فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا جئنا إلى هذا النبي الذى هو خارج فى هذا الشهر : أى مسافر فيه ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هـذا . قال : أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا لا ، فبايعوه : أى بايعوا بحيرا على مسالمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم أخذه وأذيته على حسب ماأرسلوا فيه،وأقاموا عند ذلك الراهب خوفا على أنفسهم ممن أرسلهم إذا رجعوا بدونه . قال بحيرا لقريش : أنشدكم الله : أى أسألكم بالله أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه بلالا . وفى لفظ : وبعث معه أبو بكر رضى الله تعالى عنه بلالا ، وزوده بحيرا من الكعك والزيت : أى وإذا كانت القصة واحدة فالاختلاف فى إيرادها من الرواة كما تقدم نظيره . فبعض الرواة قدم فى هذه الرواية وأخر .

على أنه فى الهدى قال : وقع فى كتاب الترمذى وغيره أن عمه :أى وأبا بكر رضى الله عنه بعث معه بلالا ، وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا ، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر ه

وذكر فى الأصل أن فى هذه الرواية أمورا منكرة حيث قال : قلت ليس فى إسناد هذا الحديث إلا من خرّج له فى الصحيح ، ومع ذلك : أى مع صحة سنده ، فنى متنه نكارة : أى أمور منكرة : وهى إرسال أبى بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم بلالا ، فإن بلالا لم ينتقل لأبى بكر إلا بعد هذه السفرة بأكثر من ثلاثين عاما ، ولأن أبا بكر لم يبلغ العشر سنين حينئذ ، لأنه صلى الله عليه وسلم أسن منه بأزيد من عامين بقليل : أى بشهر . ولا ينافى مايأتى : وتقدم أن سنه صلى الله عليه وسلم حينئذ تسع سنين على الراجح أى فيكون سن أبى بكر نحو سبع سنين وكان بلال أصغر من أبى بكر رضى الله عنهما ، فلا يتجه هذا بحال : أى لأن أبا بكر حينئذ لم يكن أهلا للإرسال عادة ، وكذا بلال لم يكن أهلا لأن يرسل .

وكون النبي صلى الله عليه وسلم أسن من أبى بكر هو ماعليه الجمهور من أهل العلم بالأخبار والسير والآثار .

وما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر فقال له : من الأكبر أنا أو أنت؟

فقال له أبو بكر : أنت أكرم وأكبر وأنا أسن . قيل فيه إنه وهم وإن ذلك إنما يعرف عن عمـــه العباس رضى الله تعالى عنه ؛ وكون بلال أصغر من أبى بكر ينازعه قول ابن حبان : بلال كان تربا لأبى بكر : أى قرينه فى السن ، وبه يرد قول الذهبى : بلال لم يكن خلق .

قال : وذكر الحافظ ابن حجر أن إرسال أبى بكر معه بلال وهّم من بعض الرواة ، وهو مقتطع من حديث آخر أدرجه ذلك الراوى فى هذا الحديث انتهى .

أقول : ولأجل هذا الوهم قال الذهبى فى الحديث أظنه موضوعا بعضه باطل : أى لم يوافق الواقع : أى فمع كون الحديث موضوعا ، بعضه موافق للواقع ، وبعضه لم يوافق الواقع . وحينئذ فمراد الأصل بالنكارة فى قوله فى متنه نـكارة البطلان كما أشرت إليه ؛ وليس هذا من قبيل قولهم : هذا حديث منكر ، الذى هو من أقسام الضعيف وهو يرجع إلى الفردية ولا يلزم من الفردية ضعف متن الحديث فضلا عن بطلانه .

وقال الحافظ الدمياطى : فى هذا الحديث وهمان أحدهما قوله فبايعوه وأقاموا معه ه والوهم الثانى قوله وبعث معه أبو بكر بلالا ، ولم يكونا معه ، ولم يكن بلال أسلم ولا ملكه أبو بكر .

وفيه أن الحافظ الدمياطى فهم أن الضمير فى بايعوه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أنه لبحيرا فلا وهم فيه .

وتوجيه الوهم الثانى بعدم وجود أبى بكر وبلال مع النبى صلى الله عليه وسلم واضح إن ثبت ذلك ، وإلا فمجرد النفى لايرد به الإثبات . وحينئذ لاحاجة معه إلى ذكر مابعده من أن بلالا لم يكن أسلم ولا ملكه أبو بكر ، إلا أن يقال هو على تسليم وجود أبى بكر وبلال مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد يقال على تسليم ذلك : إرسال أبى بكر لبلال لايتوقف على إسلام بلال ولا على ملك أبى بكر له ، جاز أن يكون سيد بلال وهو أمية بن خلف أرسله فى ذلك العير لأمر ، فأذن أبو بكر لبلال فى العود مع النبى صلى الله عليه وسلم ليكون خادما ، ويستأنس ويأمن به ، اعتمادا على رضا سيده بذلك ، إذ ليس من لازم إرساله أن يكون مملوكا له . وكون أبى بكر لم يكن فى سن من يرسل عادة تقدم مافيه ، والله أعلم .

قال : وروى ابن منده بسند ضعيف عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبى صلى الله عليه وسلم

ابن عشرين سنة : أى فالنبى صلى الله عليه وسلم أسن من أبى بكر بعامين : أى وشهر كما تقدم . ولقلة هذه الزيادة على العامين التى هى الشهر الواردة مبهمة فى الرواية السابقة لم يذكرها ابن منده ، وهم يريدون الشام فى تجارتهم، حتى إذا نزل منزلا وهو سوق بصرى من أرض الشام ، وفى ذلك المحل سدرة فقعد صلى الله عليه وسلم فى ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شىء ، فقال : من الرجل الذى فى ظل السدرة ؟ قال له : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال له : والله هذا نبى هذه الأمة ، مااستظل تحتها بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلا محمد عليه الصلاة والسلام : أى وقد قال عيسى : لايستظل تحتها بعدى إلا النبى الأمى الهاشمى كما سيأتى فى بعض الروايات .

قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون أى سفر أبى بكر معه صلى الله عليه وسلم فى سفرة أخرى بعد سفرة أبى طالب انتهى .

أقول : وهى سفرته مع ميسرة غلام خديجة ، فإنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم سافر إلى الشام أكثر من مرتين . ويؤيده ماتقدم من قول الراوى وهم يريدون الشام فى تجاراتهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخرج تاجرا إلا فى تلك السفرة ، وسيأتى أن هذا القول قاله الراهب نسطورا لابحيرا ، قاله لميسرة لالأبى بكر. إلا أن يقال : لامانع أن يكون قال ذلك لميسرة ولأبى بكر ، لكن ربما يبعده ماسيأتى أن سنه صلى الله عليه وسلم حين سافر مع ميسرة كان خمسا وعشرين سنة على الراجح لاعشر سنين . وعلى هذا فالشجرة لم تكن إلا عند صومعة الراهب نسطورا لاعند صومعة الراهب بحيرا ، وذكر بحيرا موضع نسطورا ، وهو ماوقع فى شرف المصطفى للنيسابورى وهم من بعض الرواة سرى إليه من اتحاد محلهما وهو سوق بصرى . إلا أن يقال : يجوز أن يكون الراهب نسطورا خلف بحيرا فى ذلك الصومعة لموته مثلا ، وهو أقرب من دعوى تعدد الشجرة، فتكون واحدة عند صومعة بحيرا ، وواحدة عند صومعة نسطورا ، وكلاهما قال فيها عيسى ماذكرا .

ومن دعوى اتحادها وأنها بين صومعة بحيرا وصومعة نسطورا وأن العير الذى كان فيه أبو طالب نزل جهة صومعة بحيرا ، والعير الذى كان فيه أبو بكر وميسرة نزل جهة صومعة نسطورا ، وسيأتى أن بحيرا ونسطورا ونحوهما ممن صدّق بأنه صلى الله عليه وسلم نبى هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام ، لأنهما لم يدركا البعثة : أى الرسالة

بناء على اقترانهما بالنبوة ، أو أن المراد بها النبوة : أى لم يدركا النبوة فضلا عن الرسالة بناء على تأخرها عن النبوة .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر قال فى بحيرا : ما أدرى أدرك البعثة أم لا ؟ هذا كلامه فى الإصابة ، وليس هذا بحيرا الراهب الصحابى الذى هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة .

فعنه رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا شرب الرجل كأسا من خمر» الحديث ، ومن قال : إن هذا الحديث منكر ظن أن بحيرا هذا هو بحيرا المذكور هنا الذى لقى النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، والله أعلم .

باب ما حفظه الله تعالى به فى صغره

صلى الله عليه وسلم من أمر الجاهلية

أى من أقذارهم ومعايبهم : أى بحسب ما آل إليه شرعه ، لما يريد الله تعالى به من كرامته ، حتى صار أحسنهم خلقا ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزيها وتكريما : أى حتى كان صلى الله عليه وسلم أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا فسموه الأمين ، لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة ، من الحلم والصبر ،والشكر والعدل ،والزهد والتواضع والعفة والجود ، والشجاعة والحياء والمروءة .

فمن ذلك ما ذكره ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لقد رأيتنى — أى رأيت نفسى — فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم : أى من الملائكة ما أراها لكمة وجيعة » وفى لفظ « لكمنى لكمة شديدة » .

وقد يقال : لامنافاة ، لأنها مع شدتها لم تكن وجيعة له صلى الله عليه وسلم « ثم قال شدّ عليك إزارك ، فأخذته فشددته علىّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى » أى وقد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك : أى نقل الحجارة عاريا عند إصلاح أبى طالب لزمزم .

فعن ابن إسحاق وصححه أبو نعيم قال: «كان أبو طالب يعالج زمزم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة وهو غلام ، فأخذ إزاره واتقى به الحجارة فغشى عليه ، فلما أفاق سأله أبو طالب ، فقال أتانى آت عليه ثياب بيض ، فقال لى استتر » فما رؤيت عورته صلى الله عليه وسلم من يومئذ .

وفى الخصائص الصغرى : ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعرّى وكشف العورة من قبل أن يبعث بخمس سنين . وقد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك : أى نهيه عن التعرى عند بنيان الكعبة كما سيأتى ، وسيأتى ما فيه .

ومن ذلك ما جاء عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما هممت بقبيح مما همّ به أهل الجاهلية » أى ويفعلونه « إلا مرتين من الدهر ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل منهما » أى من فعلهما « قلت امتى كان معى من قريش بأعلى مكة فى غنم لأهله يرعاها » أى وفى لفظ « قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن فى رعاية غنم أهلها » لم أقف على اسم هذا الفتى « أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال نعم » وأصل السمر : الحديث ليلا «فخرجت ، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : فلان قد تزوج بفلانة » لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش « فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتنى عيناى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس » أى وفى لفظ « فجلست أنظر — أى أسمع — وضرب الله على أذنى ، فو الله ما أيقظنى إلا حر الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك » .

أقول : المناسبة لقوله عصمنى الله مافى الرواية الثانية لاما ذكر فى الرواية الأولى ، إلا أن يحمل قوله فى الرواية الأولى فلهوت على أردت أن ألهو ، والله أعلم ، فقال صلى الله عليه وسلم: «والله ما هممت بغيرهما بسوء مما تعمله أهل الجاهلية»: أى ما هممت بسوء مما يعمله أهل الجاهلية غيرهما ، وفى لفظ « فو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشىء من ذلك » أى مما يعمله أهل الجاهلية « ولا هممت به حتى أكرمنى الله تعالى بنبوّته » .

ومن ذلك ما جاء عن أم أيمن رضى الله عنها أنها قالت ، كان بوانة بضم الموحدة وبفتح الواو مخففة بعدها ألف ونون ، صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك - أى تذبح له - وتحلق عنده ، وتعكف عليه يوما إلى الليل فى كل سنة ، فكان أبو طالب يحضر مع قومه

ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك ، حتى قالت رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، ويقلن ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ، فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقلن : مادهاك؟ قال إني أخشى أن يكون بي لمم : أي لمة وهي اللمس من الشيطان ، فقلن : ماكان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها : أي من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة تمثل لي رجل أبيض طويل ، أي وذلك من الملائكة يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

أقول : ظاهر هذا السياق أن اللمم يكون من الشيطان ، وحينئذ يكون بمعنى اللمة : وهي المس من الشيطان كما قدمناه ، فقد أطلق اللمم على اللمة ، وإلا فاللمم نوع من الجنون كما تقدم في قصة الرضاع : قد أصابه لمم أو طائف من الجن ؛ إذ هو يدل على أن اللمم يكون من غير الشيطان كمرض . وعبارة الصحاح : اللمم طرف من الجنون ، وأصاب فلانا من الجن لمة : وهي المس أي فقد غاير بينهما ، والله أعلم .

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ماذبح لغير الله تعالى : أي فكان يقول لقريش : الشاة خلقها الله عز وجل ، وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض الكلأ ثم تذبحونها على غير اسم الله ، فما ذقت شيئا ذبح على النصب — أي الأصنام — حتى أكرمني الله تعالى برسالته » أي وزيد بن عمرو كان قبل النبوة زمن الفترة على دين إبراهيم عليه السلام ، فإنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح للأوثان ، ونهى عن الوأد ، وتقدم أنه كان يحييها إذا أراد أحد ذلك ، أخذ الموءودة من أبيها وتكفلها ، وكان إذا دخل الكعبة يقول : لبيك حقا ، تعبدا وصدقا . وقيل: ورقا عاذت بما عاذبه إبراهيم ،ويسجد للكعبة ، قال صلى الله عليه وسلم « إنه يبعث أمة وحده » أي يقوم مقام جماعة انتهى : أي فإن ولده سعيدا قال « يارسول الله إن زيدا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له ؛ قال نعم أستغفر له فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وفى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم الوحى وقد قدمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم سفرة — أى فيها شاة ذبحت لغير الله عز وجل أو قدمها النبى صلى الله عليه وسلم إليه — فأبى أن يأكل منها وقال: إنى لست آكل ماتذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ماذكر اسم الله عليه » ولعل هذا كان قبل ماتقدم عنه صلى الله عليه وسلم ، وأن ذلك كان هو السبب فى ذلك .

قال الإمام السهيلى : وفيه سؤال كيف وفق الله عز وجل زيد إلى ترك ماذبح على النصب وما لم يذكر اسم الله عليه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم كان أولى بهذه الفضيلة فى الجاهلية ، لما ثبت من عصمة الله تعالى له ؟ أى فكان صلى الله عليه وسلم يترك ذلك من عند نفسه لاتبعا لزيد بن عمرو . وحينئذ لايحسن الجواب الذى أشرنا إليه بقولنا .

وأجاب أى السهيلى بأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم أكل من تلك السفرة : أى ولا من غيرها .

سلمنا أنه أكل قبل ذلك مما ذبح على النصب ، فتحريم ذلك لم يكن من شرع إبراهيم وإنما كان تحريم ذلك فى الإسلام والأصل فى الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة ، هذا كلامه .

وفيه أن هذا التسليم يبطل عدّ الشمس الشامى ذلك من أمر الجاهلية التى حفظه الله تعالى منه فى صغره، ويخالف ماذكره بعضهم من أن زيد بن عمرو هذا هو رابع أربعة من قريش فارقوا قومهم ، فتركوا الأوثان والميتة وما يذبح للأوثان . كانوا يوما فى عيد لصنم من أصنامهم ينحرون عنده ، ويعكفون عليه ، ويطوفون به فى ذلك اليوم ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ماقومكم على شىء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، فما حجر تطوف به لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولاينفع ، ثم تفرقوا فى البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، وظاهر هذا السياق أن تركهم للأوثان كان بعد عبادتهم لها ، وسيأتى عن ابن الجوزى أنهم لم يعبدوها .

وهؤلاء الثلاثة الذين زيد بن عمرو رابعهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ابن عمته صلى الله عليه وسلم أميمة ، وعثمان بن الحويرث . وزاد ابن الجوزى على هؤلاء الأربعة جماعة آخرين سيأتى الكلام عليهم عند الكلام على أول من أسلم .

وزيد بن عمرو بن نفيل هذا كان ابن أخى الخطاب والد سيدنا عمر أخاه لأمه . فأما

ورقة فلم يدرك البعثة على ماسيأتى . وكان ممن دخل فى النصرانية : أى بعد دخوله فى اليهودية كما سيأتى .

وأما عبيد الله بن جحش ، فأدرك البعثة وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين ثم تنصر هناك كما سيأتى ، وكان يمر على المسلمين ويقول لهم: فتحنا وصأصأتم: أى أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا ومات على النصرانية .

وأما عثمان بن الحويرث ، فلم يدرك البعثة ، وقدم على قيصر ملك الروم وتنصر عنده .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل هذا ، كان يوبخ قريشا ويقول لهم : والذى نفس زيد ابن عمرو بيده ماأصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، حتى إن عمه الخطاب أخرجه من مكة وأسكنه بحراء ، ووكل به من يمنعه من دخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم ، ثم خرج يطلب الحنيفية دين إبراهيم ، ويسأل الأحبار والرهبان عن ذلك حتى بلغ الموصل ، ثم أقبل إلى الشام فجاء إلى راهب به كان انتهى إليه علم أهل النصرانية فسأله عن ذلك ، فقال له: إنك لتطلب دينا ماأنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها : يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه ، فخرج سريعا يريد مكة ، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه وقتلوه ، ودفن بمكان يقال له ميفعة . وقيل دفن بأصل جبل حراء .

هذا وفى كلام الواقدى عن زيد بن عمرو أنه قال لعامر بن ربيعة وأنا أنتظر نبيا من ولد إسمعيل . ولا أرى أن أدركه ، وأنا أدين به وأصدقه ، وأشهد أنه نبى ، فإن طالت بك مدة فرأيته فسلم منى عليه ، قال عامر : فلما أسلمت بلغته صلى الله عليه وسلم عن زيد السلام قال : فرد عليه السلام وترحم عليه . وتقدم أن ولده سعيدا سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه زيد ، فقال نعم أستغفر له الحديث .

قال : وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فوجدت لزيد بن عمرو دوحتين » أى شجرتين عظيمتين . قال الحافظ ابن كثير إسناده جيد قوى: أى وقال إلا أنه ليس فى شىء من الكتب . وفى رواية « رأيته فى الجنة يسحب ذيولا » ، وعن الزهرى « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل مايذبح للجن وعلى اسمهم » وأما ماقيل عند ذبحه بسم الله واسم محمد فحلال أكله وإن كان القول المذكور حراما لإيهامه التشريك ، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى

له « لاأذكر إلا وتذكر معى » فقد جاء « أتانى جبريل فقال : إن ربى وربك يقول لك : أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ » أى على كل حال أى جعلت ذكرك مرفوعا مشرفا المذكور ذلكَ فىقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) إلى قوله (ورفعنا لك ذكرك) «قلت الله أعلم ، قال : لاأذكر إلا وتذكر معى » أى فى غالب المواطن وجوبا أو ندبا .

ومن ذلك ماروى عن على رضى الله تعالى عنه قال : « قيل للنبى صلى الله عليه وسلم هل عبدت وثنا قط ؟ قال لا ، قالوا : هل شربت خمرا قط ؟ قال لا ، وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر ، وما كنت أدرى ماالكتاب ولا الإيمان » انتهى .

أقولُ : تحريم شرب الخمر فى الجاهلية ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، بل حرّمها على نفسه فى الجاهلية جماعة كثيرون سيأتى ذكر بعضهم ، وتقدم ذكر بعض منهم وكون شرب الخمر من الكفر على ماهو ظاهر السياق بمعنى ينبغى أن يجتنب كما يجتنب الكفر ، ولعل صدور هذا منه صلى الله عليه وسلم كان بعد تحريم الخمر ، ويكون الإتيان بذلك للمبالغة فى الزجر عنها ، والتباعد منها لأنها أم الخبائث ، وقد كانت نفوس غالبهم ألفتها ، وهذا محمل ما جاء « أتانى جبريل فقال : بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئا » أى مصدقا بما جئت به « دخل الجنة » أى لابد وأن يدخل الجنة وإن دخل النار « قلت : ياجبريل وإن زنى وإن سرق ؟ قال نعم ، قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال نعم قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال نعم ، وإن شرب الخمر » والمراد بتحريمها تحريمها على الناس ، وإلا ففى الخصائص الصغرى للسيوطى : وحرمت عليه الخمر من قبل مايبعث قبل أن تحرم على الناس بعشرين سنة ، والله أعلم .

قال : وأما ماروى جابر بن عبد الله « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع ملكين خلفه ، واحد يقول لصاحبه اذهب بنا نقوم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام قبل فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم » قال الحافظ ابن حجر : أنكره الناس أى فقد قال الإمام أحمد كما فى الشفاء إنه موضوع أو يشبه الموضوع . وقال الدارقطنى : إن ابن أبى شيبة وهم فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر فلا يلتفت إليه ، والمنكر فيه قول الملك عهده باستلام الأصنام قبل ، فإن ظاهره أنه باشر الاستلام ، وليس ذلك مرادا أبدا ، بل المراد أنه شاهد مباشرة المشركين استلام أصنامهم : أى لشهوده بعض مشاهدهم التى تكون عند الأصنام .

وقال غيره : والمراد بالمشاهد التي شهدها : أي التي كان يشهدها مشاهد الحلف ونحوها كالضيافات الآتي بيانها لامشاهدة استلام الأصنام ، فإنه يرده ماتقدم عن أم أيمن انتهى : أي من قولها إن بوانة كان صنما لقريش تعظمه وتعتكف عليه يوما إلى الليل في كل سنة إلى آخره : أي ويرده أيضا ماتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم لبحيرا لما حلفه باللات والعزى : لاتسألني بهما ؟ فإني والله ماأبغضت شيئا قط بغضهما ، لأن مثل اللات والعزى غيرهما من الأصنام في ذلك ، وما سيأتي من قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله تعالى عنها « والله ماأبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط » وما جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « لما نشأت بغضت إلىّ الأوثان ، وبغض إلىّ الشعر » والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب رعيته صلى الله عليه وسلم الغنم

قال : رعيته بكسر الراء، المراد الهيئة انتهى .

أقول : المبين في هذا الباب إنما هو فعله صلى الله عليه وسلم الذي هو رعيه للغنم ، لابيان هيئة رعيه للغنم ، فرعيته بفتح الراء لابكسرها ، والله أعلم .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، قال له أصحابه : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط » أي وهي أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج الحقيرة . قال سويد ابن سعيد : يعني كل شاة بقيراط ، وقيل القراريط موضع بمكة .

فقد قال إبراهيم الحربي : قراريط موضع ، ولم يرد بذلك القراريط من الفضة أي والذهب ، قال : وأيد هذا الثاني بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الذهب والفضة بدليل أنه جاء في الصحيح « ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط » ولأنه جاء في بعض الروايات « لأهلي » ولا يرعى لأهله بأجرة : أي كما قضت بذلك العادة . وأيضا جاء في بعض الروايات بدل بالقراريط « بأجياد » فدل ذلك على أن القراريط اسم محل ، عبر عنه تارة بالقراريط وتارة بأجياد .

وردّ بأن أهل مكة لايعرفون بها محلا يقال له القراريط ، وحينئذ يكون أراد بأهله أهل مكة لاأقاربه الذين تقضي العادة بأنه لايرعى لهم بالأجرة ؛ والإضافة تأتي لأدنى ملابسة ، ويدل لذلك ماجاء في رواية البخاري « كنت أرعاها » أي الغنم « على قراريط لأهل

مكة » وذكره البخارى كذلك فى باب الإجارة ، وذلك يبعد أن المراد بالقراريط المحل ، وجعل على بمعنى الباء .

وردّ القول بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التى هى قطع الدراهم والدنانير : أى ويمنع دلالة قوله صلى الله عليه وسلم « ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط » على ذلك لجواز أن يكون المراد يذكر فيها القيراط كثيرا لكثرة التعامل به فيها، أو أن المراد بالقيراط مايذكر فى المساحة .

وجمع الحافظ ابن حجر بأنه رعى لأهله أى أقاربه بغير أجرة ؛ ولغيرهم بأجرة : والمراد بقوله « أهلى » أهل مكة : أى الشامل لأقاربه ولغيرهم . قال : فيتجه الخبران ويكون فى أحد الحديثين بين الأجرة أى التى هى القراريط ، وفى الآخر بين المكان : أى الذى هو أجياد ،فلا تنافى فى ذلك، هذا كلامه ملخصا . وعبارته تقتضى وقوع الأمرين منه صلى الله عليه وسلم ، وهو مما يتوقف على النقل فى ذلك .

قال ابن الجوزى : كان موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم رعاة غنم . وهذا يرد قول بعضهم لم يرد ابن إسحاق برعايته صلى الله عليه وسلم الغنم إلا رعايته لها فى بنى سعد مع أخيه من الرضاع : أى وقد يتوقف فى كون قول ابن الجوزى هذا بمجرده يردّ قول هذا البعض ، نعم يرده ماتقدم وما يأتى . وفى الهدى أنه صلى الله عليه وسلم آجر نفسه قبل النبوة فى رعيه الغنم .

ومن حكمة الله عز وجل فى ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم التى هى أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفا ، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى ، فيكون فى أعدل الأحوال . ووقع الافتخار بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم : أى عند النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فاستطال أصحاب الإبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم وبعثت أنا وأنا راعى غنم أهلى بأجياد » أى وهو موضع بأسفل مكة من شعابها ، ويقال له جياد بغير همزة ، ولعل المراد بقوله « راعى غنم » أى وكذا قوله « وأنا راعى غنم » أى وقد رعى الغنم ، وقد رعيت الغنم ، إذ الأخذ بظاهر الحالية بعيد، ولتنظر حكمة الاقتصار على من ذكر من الأنبياء مع قوله السابق « مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم » وما يأتى من قوله « وما من نبى إلا وقد رعاها » وقد قال صلى الله عليه وسلم « الغنم بركة والإبل عز لأهلها » وقال فى الغنم « سمنها معاشنا ، وصوفها رياشنا ، ودفؤها كساؤنا » وفى رواية

« سمنها معاش ، وصوفها رياش » أى وفى الحديث « الفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل » والسكينة والوقار فى أهل الغنم » ولعل هـذا لاينافى ماجاء فى الأمثال قالوا : أحمق . وفى لفظ : أجهل من راعى ضأن لما بين ، لأن الضأن تنفر من كل شىء فيحتاج راعيها إلى جمعها : أى وذلك سبب حمقه فليتأمل . وفى رواية « الفخر والخيلاء » وفى لفظ « والرياء فى أهل الخيل والوبر » قال : وفيما تقدم فى الباب من أمر السمر دليل على ذلك : أى على رعايته للغنم أيضا ، وما رواه جابر رضى الله تعالى عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجنى الكباث» بكاف فباء موحدة مفتوحتين فثاء مثلثة : أى وهو النضيج من ثمر الأراك، وفى الحديث « عليكم بالأسود من ثمر الأراك فإنه أطيبه ، فإنى كنت أجتنيه إذ كنت أرعى الغنم. قلنا: وكيف ترعى الغنم يارسول الله ؟ قال: نعم، ومامن نبى إلاوقد رعاها» اه .

أقول : وحينئذ لاينبغى لأحد عير برعاية الغنم أن يقول كان النبى صلى الله عليه وسلم يرعى الغنم ، فإن قال ذلك أدب ، لأن ذلك كما علمت كمال فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم ، فلا ينبغى الاحتجاج به ، ويجرى ذلك فى كل مايكون كمالا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم دون غيره كالأمية ؛ فمن قيل له أنت أمى فقال كان النبى صلى الله عليه وسلم أميا يؤدب ، والله أعلم .

باب حضوره صلى الله عليه وسلم

حرب الفجار

أى بكسر الفاء بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، وهو فجار البراض بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وضاد معجمة عن ابن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد حضرته» يعنى الحرب المذكورة «مع عمومتى ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » وكان له من العمر أربع عشرة سنة : أى وهذا الفجار الرابع .

وأما الفجار الأول فكان عمره صلى الله عليه وسلم حينئذ عشر سنين . وسببه أى هذا الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس ، فبسط يوما رجله وقال : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف ، فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأندرها : أى أسقطها وأزالها ، وقيل جرحه جرحا يسيرا . قال بعضهم : وهو الأصح ، فاقتتلوا .

وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لاتشعر وعقد زيلها بشوكة ؛ فلما قامت انكشف دبرها فضحك الناس منها فنادت المرأة يا آل عامر ، فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يابنى كنانة ، فاقتتلوا . وقوله « فسألها أن تكشف وجهها فأبت » يدل على أن النساء فى الجاهلية كن يأبين كشف وجوههن .

وسبب الفجار الثالث أنه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل من بنى كنانة فلواه به : أى مطله فجرت بينهما مخاصمة ، فاقتتل الحيان .

وقد ذكر أن عبد الله بن جدعان تحمل ذلك الدين فى ماله ، وكان ذلك سببا لانقضاء الحرب . وقيل لم يقاتل صلى الله عليه وسلم فى فجار البراض ، وعليه اقتصر فى الوفاء : أى لم يرم فيه بأسهم ، بل قال « كنت أنبل على أعمامى » أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموه .

وقد يقال : لامخالفة ، لأنه ليس فى هذه العبارة أنه لم يرم ، بل فيها أنه كان ينبل . ويجوز أن يكون أغلب أحواله صلى الله عليه وسلم ذلك أى أنه كان ينبل : أى يرد النبل ، فلا ينافى أنه رمى فى بعض الأوقات بأسهم: أى وفى كلام بعضهم : كان أبو طالب يحضر أيام الفجار : أى فجار البراض ، وكانت أربعة أيام ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فإذا جاء هزمت قيس، ولعل المراد قيس هوازن، فلا ينافى مايأتى من الاقتصار على هوازن . وإذا لم يجئ هو أى فى يوم من تلك الأيام هزمت كنانة، فقالوا : لاأبالك لاتغب عنا ففعل ، ذكره فى الإمتاع . وذكر فيه أنه صلى الله عليه وسلم طعن أبا براء ملاعب الأسنة فى تلك الحروب : أى فى بعض تلك الأيام ، وأبو براء هذا كان رئيس بنى قيس وحامل رايتهم فى تلك الحرب ، والطعن ظاهر فى الرمح محتمل للنبل . وظاهر كلامهم أنه لم يقاتل فيه بغير الرمى للأسهم على تقدير صحة تلك الرواية بذلك . ولا يبعد أن يكون رمى ولم يصب أحدا ، إذ لو أصاب أحدا لنقل لأنه مما توفر الدواعى على نقله إلا أن يقال بجواز أن يكون أصاب ثمرة لم تذكر فليتأمل . قال : وسميت الفجار ، لأن العرب فجرت فيه لأنه وقع فى الشهر الحرام اه .

أقول : ظاهره حروب الفجار الأربعة : أى التى هى فجار البراض وغيرها . وظاهر كلامه صلى الله عليه وسلم أنه لم يحضر إلا فى الفجار الرابع ، الذى هو فجار البراض ،

ثم رأيت التصريح بذلك فى الوفاء وسأذكره ، وسيأتى فى الباب الذى يلى هـذا أن حرب الفجار لم يكن فى شهر حرام ، وسيأتى فى هذا الباب مايدل على ذلك .

أى أن القتال فى ذلك لم يكن فى الشهر الحرام وإنما سببه كان فى الشهر الحرام وهو قتل البراض لعروة الرحال .

فقد قيل سبب القتال أن عروة الرحال بتشديد الحاء المهملة ، وكان من أهل هوازن أجار لطيمة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة. واللطيمة : العير التى تحمل الطيب والبز للتجارة: أى فإن المنذر كان يرسل تلك اللطيمة لتباع فى سوق عكاظ ويشترى له بثمن ذلك أدم من أدم الطائف ، ويرسل تلك اللطيمة فى جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب كان فيهم البرّاض وهو من بنى كنانة ، وعروة الرحال وهو من هوازن ، فقال البراض : أنا أجيرها على بنى كنانة يعنى قومه ، فقال له النعمان : ماأريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك ، فقال له البراض أتجيرها على كنانة ؟ فقال نعم وعلى أهل الشيح والقيصوم ، ونال من البراض ؛ فخرج عروة الرحال مسافرا وخرج البراض خلفه يطلب غفلته ، فلما استغفله وثب عليه فقتله : أى فإنه شرب الخمر وغنته القينات ، فسكر ونام ، فجاءه البراض وأيقظه ، فقال له الرحال : ناشدتك الله لاتقتلنى فإنها كانت منى زلة وهفوة ، فلم يلتفت إليه وقتله وذلك فى الشهر الحرام ، فأتى آت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن ، فقال لكنانة : إن البراض قد قتل عروة الرحال وهو فى الشهر الحرام ، فانطلقوا وهوازن لاتشعر ثم بلغهم الخبر ، فاتبعوهم فأدركوهم قبيل دخولهم الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم وعاونت قريش كنانة . ولا يخفى أن فى هذا تصريحا بأن القتال لم يكن فى الشهر الحرام ، لأنهم إذا كانوا فى الشهر الحرام لايقاتلون مطلقا أى وإن لم يدخلوا الحرام ، فكفهم عن قتالهم لمقاربتهم دخول الحرم ، وقتالهم لهم فى اليوم الثانى دليل على أن قتالهم لم يكن فى الشهر الحرام ، ومكث القتال بينهم أربعة أيام : أى كما تقدم .

أقول : قال السهيلى : الصواب ستة أيام ، والله أعلم . قال : وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك الأيام ، أخرجه أعمامه معهم : أى ويدل له ماتقدم من أنه كان إذا حضر غلبت كنانة وإذا لم يحضر هزمت ، وفى بعض تلك الأيام وهو أشدها : أي وهو اليوم الثالث قيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا العنابس : أى الأسود اهـ .

أى وحرب والد أبى سفيان وأمية أخوه ماتا على الكفر ، وأبو سفيان أسلم كما سيأتى ، ثم تواعدوا للعام المقبل بعكاظ ، فلما كان العام المقبل جاءوا للوعد : أى وكان أمر قريش وكنانة إلى عبد الله بن جدعان . وقيل كان إلى حرب بن أمية والد أبى سفيان ، لأنه كان رئيس قريش وكنانة يومئذ ، وكان عتبة بن أخيه ربيعة بن عبد شمس يتيما فى حجره ، فضن أى بخل به حرب ، وأشفق : أى خاف من خروجه معه ، فخرج عتبة بغير إذنه ، فلم يشعر أى يعلم به إلا وهو على بعير بين الصفين ينادى : يامعشر مضر علام تفانون ؟ فقالت له هوازن : ماتدعو إليه ؟ قال: الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائنا : أى فإن قريشا وكنانة كان لهم الظفر على هوازن يقتلونهم قتلا ذريعا : أى وذلك لاينافى انهزامهم بعض الأيام ، قالوا : وكيف ؟ قال : ندفع لكم رهنا منا إلى أن نوفى لكم ذلك ، قالوا : ومن لنا بهذا؟ قال أنا ، قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس ، فرضيت به هوازن وكنانة وقريش ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام ، وهو ابن أخى خديجة بنت خويلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فلما رأت هوازن الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم ، وانقضت حرب الفجار . وفى رواية : وودت قريش قتلى هوازن ، ووضعت الحرب أوزارها .

وقد يقال : على تقدير صحة هذه الرواية دماء بدرت التزمت أن تديها فكان انقضاؤها على يد عتبة بن ربيعة وهو ممن قتل كافرا ببدر ، وهو أبو هند زوج أبى سفيان أم معاوية رضى الله عنها وعن زوجها وولدها المذكور .

وكان يقال لم يسد مملق : أى فقير إلا عتبة بن ربيعة وأبو طالب ، فإنهما سادا بغير مال : أى وفى كلام بعضهم : ساد عتبة بن ربيعة ، وأبو طالب وكانا أفلس من أبى المزلق وهو رجل من بنى عبد شمس لم يكن يجد مؤنة ليلته وكذا أبوه وجده وأبو جده وجد جده كلهم يعرفون بالإفلاس .

هذا والذى فى الوفاء الاقتصار على أن حرب الفجار كان مرتين : المرة الأولى كانت المحاربة فيه ثلاث مرات . المرة الأولى سببها قضية بدر بن معشر الغفارى . والمرة الثانية كان سببها قضية المرأة ، والثالثة سببها قضية الدين ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المرات ، وأما المرة الثانية فكانت بين هوازن وكنانة ، وقد حضرها صلى الله عليه وسلم ، وقد يقال لاخلاف فى المعنى .

باب شهوده صلى الله عليه وسلم

حلف الفضول

وهو أشرف حلف فى العرب . والحلف فى الأصل : اليمين والعهد ؟ وسمى العهد حلفا لأنهم يحلفون عند عقده ، وكان عند منصرف قريش من حرب الفجار ، لأن حرب الفجار كان فى شوال : أى وقيل فى شعبان لافى الشهر الحرام : أى وإن كان سببه وهو قتل البراض لعروة الرحال كان فى الشهر الحرام كما تقدم . وكون هذا الحلف كان منصرف قريش من حرب الفجار ظاهر فى أنه كان بعد انقضاء الحرب وقبل مجىء الفريقين للموعد من قابل ، لأن عند مجيئهم من قابل للموعد لم يقع حرب ، إلا أن يقال : أطلق عليه حرب باعتبار أنهم كانوا عازمين على المحاربة ، وهــذا الحلف كان فى ذى القعدة . وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب : أى عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيــه كما تقدم [] فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى ، وذلك فى دار عبد الله ابن جدعان التيمى ، كان بنو تيم فى حياته كأهل بيت واحد يقوتهم ، وكان يذبح فى داره كل يوم جزورا ، وينادى مناديه : من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان ، وكان يطبخ عنده الفالوذج فيطعمه قريشا .

أى وسبب ذلك أنه كان أولا يطعم التمر والسويق ، ويسقى اللبن ، فاتفق أن أمية بن أبى الصلت مر على بنى عبد المدان ، فرأى طعامهم لباب البر والشهد ، فقال أمية :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بنى المـدان
البر يلبك بالشهاب طعامهم ... لا مايعللنا بنو جـدعان

فبلغ شعره عبد الله بن جدعان ، فأرسل إلى بصرى الشام يحمل إليــه البر والشهد والسمن ، وجعل ينادى مناد : ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان .

ومن مدح أمية بن أبى الصلت فى ابن جدعان قوله :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن سيمتك الحيـاء
إذا أثنى عليك المـرء يوما ... كفاه من تعرضك الثنـاء
كريم لا يغــيره صبـاح ... عن الخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة وجودا ... إذا ما الضب أجحره الشـتاء

وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن ، وإنه من جملة من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية [] أى بعد أن كان بها مغرما .

وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه ، فضحك منه جلساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا ، فحلف أن لايشربها أبدا .

وممن حرمها على نفسه فى الجاهلية عثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنه ، وقال : لا أشرب شيئا يذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى من لا أريد .

فصنع لهم عبد الله بن جدعان طعاما ، وتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه مابلّ بحر صوفة : أى الأبد .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ، ويقرى الضيف ، ويفعل المعروف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : لا ، لأنه لم يقل يوما ، وفى رواية : إنه لم يقل ساعة من ليل أو نهار رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » رواه مسلم : أى لم يكن مسلما ، لأن القول المذكور لا يصدر إلا عن مسلم ، فلا يقال مقتضى الحديث أنه لوقال ذلك لنفعه ماذكر يوم القيامة مع كونه كان كافرا ، لأنه ممن أدرك البعثة ولم يؤمن ، وحينئذ يسأل عن الحكمة عن عدوله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك عن قوله لأنه لم يؤمن بى ، أو لم يكن مسلما : أى وكان يكنى أبا زهير ، وقد قال صلى الله عليهم وسلم فى أسرى بدر « لو كان أبو زهير أو مطعم بن عدى حيا فاستوهبهم لوهبتهم له » .

وقد ذكر أن جفنة ابن جدعان كان يأكل منها الراكب على البعير : أى وسيأتى فى غزوة بدر « أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه ازدحم هو وأبو جهل وهما غلامان على مائدة لابن جدعان ، وأنه صلى الله عليه وسلم دفع أبا جهل لعنه الله فوقع على ركبته فجرحت جرحا أثر فيها » وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان فى صكة عمى » أى فى الهاجرة ؛ وسميت الهاجرة بذلك ، لأن عمى تصغير أعمى على الترخيم : رجل من العماليق أوقع بالعدو والقتل فى مثل ذلك الوقت .

وقيل هو رجل من عدوان كان فقيه العرب فى الجاهلية ، فقدم فى قومه معتمرا ، فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم فى نحر الظهيرة : من أتى مكة غدا فى مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين ، فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد فى وقت الظهيرة ، ولعل هذا لايخالفه قول ابن عباس رضى الله عنهما : عجلنا الرواح للمسجد صكة الأعمى ، فقيل ماصكة الأعمى ؟ قال : إنه لا يبالى أية ساعة خرج .

وكان عبد الله بن جدعان فى ابتداء أمره صعلوكا ، وكان مع ذلك شريرا فتاكا لايزال يجنى الجنايات ، فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته ، وطرده أبوه ، وحلف لايأويه أبدا ، فخرج هائما فى شعاب مكة يتمنى الموت ، فرأى شقا فى جبل فدخل فإذا ثعبان ، عظيم له عينان تتقدان كالسراج ، فلما قرب منه حمل عليه الثعبان فلما تأخر انساب : أى رجع عنه ، فلا زال كذلك حتى غلب على ظنه أن هـذا مصنوع ، فقرب منه ومسكه بيده فإذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان ، فكسره ثم دخل المحل الذى كان هذا الثعبان على بابه ، فوجد فيه رجالا من الملوك ، ووجد فى ذلك المحل أموالا كثيرة من الذهب والفضة ، وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد ، فأخذ منه ما أخذ ، ثم علم ذلك الشق بعلامة وصار ينقل منه ذلك شيئا فشيئا ، ووجد فى ذلك الـكنز لوحا من رخام فيه : أنا نفيلة بن جرهم بن قحطان ابن هود نبى الله ، عشت خمسمائة عام ، وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها فى طلب الثروة والمجد والملك ، فلم يكن ذلك ينجى من الموت ، ثم بعث عبد الله بن جدعان إلى أبيـه بالمال الذى دفعه فى جناياته ، ووصل عشيرته كلهم فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الـكنز ويطعم الناس ، ويفعل المعروف .

قال : وفى رواية : تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ، ولا يقر ظالم على مظلوم : أى وحينئذ فالمراد بالفضول مايؤخذ ظلما .

وقيل : إن هذا أى رد الفضول مدرج من بعض الرواة . زاد بعضهم : على مابلّ بحر صوفة ، ومارسا حراء وثبير مكانيهما اهـ : أى والمراد الأبد كما تقدم ، وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسـلم « ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار بنى جدعان حمر النعم » أى الإبل « وأنى أغدر به » بالغين المعجمة والدال المهملة : أى لا أحب الغدر به وإن أعطيت حمر النعم فى ذلك . قال : وفى رواية « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم » أى بفواته « ولو دعى به فى الإسلام لأجبت » أى لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لأجبت ، لأن الإسلام إنما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلوم .

وفيه أن الإسلام قد رفع ما كان من دعوى الجاهلية من قولهم ، يالفلان عند الحرب والتعصب .

وأجيب بأن هذا مستثنى ، فالدعوى به جائزة . وفى أخرى « ماشهدت حلفا لقريش

إلا حلف المطيبين ، شهدته مع عمومتي ، وما أحب أن لى به حمر النعم ، وأني كنت نقضته ، أى لا أحب نقضه وإن دفع لى حمر الإبل فى مقابلة نقضه .

والمطيبون : هم هاشم وزهرة : أى بنو زهرة بن كلاب وأمية ومخزوم . قال البيهقي كذا روى هذا التفسير : أى أن المطيبين هاشم وزهرة وأمية ومخزوم مدرجا ، ولا أدرى من قاله .

وعبارته فى السنن الكبرى : لا أدرى هذا التفسير من قول أبى هريرة ، أو من دونه ؟ هذا كلامه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين : أى لأنه كما تقدم وقع بين بنى عبد مناف بن قصى ، وهم هاشم ، وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل ، وبنو زهرة ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو تيم ، وبنو الحرث بن فهر ، وهم المطيبون . وبين بنى عمهم عبد الدار بن قصى وأحلافهم بنى مخزوم وغيرهم ، ويقال لهم الأحلاف كما تقدم ، وذلك قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحيث لم يدرك صلى الله عليه وسلم حلف المطيبين يصير المدرج لفظ المطيبين مع تفسيره بمن ذكر ، لا أن المدرج تفسيره فقط بمن ذكر كما يقتضيه كلام البيهقي . وحينئذ تكون الرواية « ما شهدت حلفا لقريش إلا حلفا مع عمومتي إلى آخره » ظن الراوى أن حلف الفضول هو حلف المطيبين ، فذكر لفظ المطيبين وبينهم .

وقد يقال : ذكر ابن إسحاق أنه لما قام عبد الله بن جدعان هو والزبير بن عبد المطلب فى الدعوى للتحالف ، أجابهما بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو أسد ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، هذا كلامه . ولا يخفى أن هؤلاء أجل المطيبين ، أطلق على هذا الحلف والذى هو حلف الفضول حلف المطيبين ، لأنهم العاقدون له ، فليتأمل .

وسمى بالفضول ، قيل لما تقدم من أنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ؛ وقيل لأنه يشبه حلفا وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له الفضل .

وعبارة بعضهم : لأن الداعى إليه كان ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، والضمير فى أشرافهم يتبادر رجوعه إلى قريش ، وهؤلاء الثلاثة تحالفوا على نصرة المظلوم على ظالمه ، فالفضول جمع الفضل .

وقيل لأنهم أى هؤلاء الذين تحالفوا كانوا أخرجوا فضول أموالهم للأضياف ، وقيل لأن قريشا قالوا عن هؤلاء الذين تحالفوا لقد دخل هؤلاء فى فضول من الأمر .

والسبب فى هذا الحلف والحامل عليه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ، وكان من أهل الشرف والقدر بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستدعى عليه الزبيدى الأحلاف عبد الدار ومخزوما وجمح وسهما وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص ، وانتهروه أى الزبيدى ، فلما رأى الزبيدى الشر رقى على أبى قبيس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... ياللرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

والحرام بمعنى الاحترام ، فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب : أى مع عبد الله بن جدعان كما تقدم ؛ واجتمع إليه من تقدم .

وقيل قام فيه العباس وأبو سفيان ، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه شريفا أو وضيعا ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه اهـ .

أقول : وذكر السهيلى أن رجلا من خثعم قدم مكة معتمرا أو حاجا ومعه بنت له من أوضإ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج ، فقيل له : عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ونادى : يالحلف الفضول ، فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم : أى جردوها ، يقولون : جاءك الغوث فمالك ؟ فقال : إن نبيها ظلمنى فى بنتى ، فانتزعها منى قسرا ، فساروا إليه حتى وقفوا على باب داره ، فخرج إليهم ، فقالوا له : أخرج الجارية ويحك ، فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه ، فقال : أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا : لا والله ولا شخب لقحة : أى مقدار زمن ذلك ، فأخرجها إليهم .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى : أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما ، وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان منازعة فى مال متعلق بالحسين . فقال الحسين للوليد : احلف بالله لتنصفنى من حقى ، أو لآخذن سيفى ، ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول : أى لحلف كحلف الفضول وهو نصرة المظلوم على ظالمه ، ووافقه على ذلك جماعة منهم عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لأنه كان إذ ذاك فى المدينة ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى ، والله أعلم .

باب سفره صلى الله عليه وسلم

إلى الشام ثانيا

وذلك مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة أى على الراجح من أقوال ستة ، وعليه جمهور العلماء ، وتلك أقوال ضعيفة لم تقم لها حجة على ساق ، وليس له صلى الله عليه وسلم اسم بمكة إلا الأمين ، لما تكامل فيه من خصال الخير كما تقدم .

وسبب ذلك أن عمه صلى الله عليه وسلم أبا طالب قال له : يا ابن أخى أنا رجل لامال لى وقد اشتد الزمان : أى القحط [ ] وألحت علينا: أى أقبلت ودامت [ ] سنون منكرة : أى شديدة الجدب ، وليس لنا مادة : أى مايمدنا وما يقوّمنا ولا تجارة ، وهذه عير قومك وتقدم أنها الإبل التى تحمل الميرة . وفى رواية . عيرات ، جمع عير [ ] قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيراتها ، فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ، ولكن لاتجد لك من ذلك بدّا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلها أن ترسل إلىّ فى ذلك . فقال أبو طالب : إنى أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب أمرا مدبرا فافترقا ، فبلغ خديجة رضى الله تعالى عنها ما كان من محاورة عمه أبى طالب له . فقالت : ماعلمت أنه يريد هذا ، ثم أرسلت إليه صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك. وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقى عمه أبا طالب فذكر له ذلك . فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك ، فخرج صلى الله عليه وسلم مع غلامها ميسرة : أى يريد الشام وقالت خديجة لميسرة : لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير : أى ومن حين سيره صلى الله عليه وسلم أظلته الغمامة [ ] .

فلما قدم صلى الله عليه وسلم الشام نزل فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا : أى بالقصر ، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان

يعرفه. فقال: ياميسرة من هذا الذى نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى: أى صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبىّ. ثم قال له: أفى عينيه حمرة؟ قال ميسرة نعم لاتفارقه فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج: أى يبعث، فوعى ذلك ميسرة: أى والحمرة كانت فى بياض عينيه وهى الشكلة. ومن ثم قيل فى وصفه صلى الله عليه وسلم: أشكل العينين، فهذه الشكلة من علامات نبوّته صلى الله عليه وسلم فى الكتب القديمة، أى وقد تقدم ذلك.

قال: وفى الشرف للنيسابورى: فلما رأى الراهب الغمامة تظله صلى الله عليه وسلم فزع وقال: ما أنتم عليه: أى أىّ شىء أنتم عليه؟ قال: ميسرة غلام خديجة رضى الله تعالى عنها، فدنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم سرا من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال: آمنت بك، وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة، ثم قال: يامحمد قد عرفت فيك العلامات كلها: أى العلامات الدالة على نبوتك المذكورة فى الكتب القديمة، خلا خصلة واحدة، فأوضح لى عن كتفك، فأوضح له فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ، فأقبل عليه يقبله ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبى الأمى الذى بشر بك عيسى ابن مريم، فإنه قال: لاينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمىّ الهاشمى العربى المكى، صاحب الحوض والشفاعة، وصاحب لواء الحمد انتهى.

أقول: قال فى النور: ولم أجد أحدا عدّ هذا الراهب الذى هو نسطورا فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم كما عدّ بعضهم فيها بحيرا الراهب، وينبغى أن يكون هذا مثله، هذا كلامه.

وقد قدمنا أنه سيأتى أن بحيرا ونسطورا ونحوهما ممن صدّق بأنه صلى الله عليه وسلم نبى هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام فضلا عن كونه صحابيا، لأن المسلم من أقرّ برسالته صلى الله عليه وسلم بعد وجودها إلى آخر ما يأتى.

ومن ثم ذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة أن بحيرا ممن ذكر فى كتب الصحابة غلطا، قال: لأن تعريف الصحابى لاينطبق عليه، وهو مسلم لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا به، ومات على ذلك قال: فقولى مسلم يخرج من لقيه مؤمنا به قبل أن يبعث كهذا الرجل يعنى بحيرا، هذا كلامه، ومراده ما ذكرنا، ولعل نسطورا هذا هو الذى تنسب إليه النسطورية من النصارى، فإن النصارى افترقت ثلاث فرق، نسطورية

قالوا عيسى ابن الله . ويعقوبية قالوا عيسى هو الله عز وجل هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء . وملكانية قالوا عيسى عبد الله ونبيه . زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية قالوا هو إله وأمه إله والله إله .

هذا وفي القاموس : النسطورية بالضم ويفتح أمة من النصارى تخالف بقيتهم ، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في أيام المأمون وتصرف في الإنجيل برأيه ، وقال إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة ، وهو بالرومية نسطورس ، كما افترقت اليهود ثلاث فرق فإنها افترقت إلى قرائية وربانية وسامرية .

ولا يخفى أن بقاء تلك الشجرة هذا الزمن الطويل قبل عيسى وبعده إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم على خلاف العادة ، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحت تلك الشجرة وكذلك صرف الأنبياء الذين وجدوا بعد عيسى على ما تقدم عن النزول تحت تلك الشجرة بعد عيسى الذي دلت عليه الرواية الأولى والرواية الثانية ممكن ، وإن كانت الشجرة لا تبقى في العادة هذا الزمن الطويل ، ويبعد في العادة أن تكون الشجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء ، لأن هذا الأمر مع كونه خارقا للعادة والأنبياء لهم خوارق العوائد سيما نبينا صلى الله عليه وسلم .

وبهذا يرد قول السهيلي : يريد ما نزل تحتها هذه الشجرة الساعة إلا نبي ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي لبعد العهد بالأنبياء عليهم السلام قبل ذلك وإن كان في لفظ الخبر قط فأصحبها تقدم فقد تكلم بها على جهة التأكيد للنفي ، والشجرة لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل حتى يدري أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء . ويبعد في العادة أيضا أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتى يجيء نبي ، هذا كلامه .

وقد يقال يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون فقد ذكر أن شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة ، على أن في بعض الروايات نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يابسة حول صومعة فلما جلس تحتها اخضر ما حولها وأورقت وأشرقت وتدلت عليه أغصانها ترفرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعضهم : اختلفوا في جمهور المتكلمين من أهل السنة أن كل ما جاز وقوعه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المعجزات جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي ، لأن المعجزة يعتبر فيها التحدي وأن تكون بعد النبوة ، وما قبل النبوة كما هنا يقال له إرهاص

وحينئذ لا يستبعد ما ذكر عن الشيخ رسلان رحمه الله أنه كان إذا استند إلى شجرة يابسة قد ماتت تورق ويخرج ثمرها فى الحال . على أنه سيأتى فى الكلام على غزاة الخندق أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم .

ولما رأى الراهب ما ذكر لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته ، وقال له : باللات والعزى ما اسمك ؟ فقال له : إليك عنى ، ثكلتك أمك ، ومع ذلك الراهب رق مكتوب ، فجعل ينظر فى ذلك الرق ثم قال هو هو ومنزل التوراة ، فظن بعض القوم أن الراهب يريد بالنبى صلى الله عليه وسلم مكرا ، فانتضى سيفه وصاح : يا آل غالب يا آل غالب ، فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية يقولون : ما الذى راعك ؟ فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها ، ثم أشرف عليهم فقال : يا قوم ما الذى راعكم منى ؟ فوالذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم ، يبعثه الله بالسيف المسلول ، وبالربح الأكبر ، وهو خاتم النبيين ، فمن أطاعه نجا ، ومن عصاه غوى ، ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى ، فباع سلعته التى خرج بها واشترى . قال : ولم أقف على تعيين ما باعه وما اشتراه انتهى .

وكان بينه صلى الله عليه وسلم وبين رجل اختلاف فى سلعة ، فقال الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احلف باللات والعزى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط ، فقال الرجل القول قولك ، ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به : يا ميسرة هذا نبى ، والذى نفسى بيده إنه لهو الذى تجده أحبارنا منعوتا : أى فى الكتب ، فوعى ميسرة ذلك : أى وقبل أن يصلوا إلى بصرى عيى بعيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وعلى البعيرين ، فانطلق يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البعيرين ، فوضع يده على أخفافهما وعوذهما ، فانطلقا فى أول الركب ولهما رغاء .

قال : وفى الشرف أنهم باعوا متاعهم وربحوا ربحا ما ربحوا مثله قط ، فقال ميسرة : يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما ربحنا ربحا قط أكثر من هذا الربح على وجهك انتهى .

وأقول : لايخفى مافى قول ميسرة : اتجرنا لخديجة أربعين سنة ، ولعلها مصحفة عن سفرة ، أو هو على المبالغة ، والله أعلم .

ثم انصرف أهل العير جميعا راجعين مكة ، وكان ميسرة يرى ملكين يظللانه صلى الله عليه وسلم من الشمس وهو على بعيره إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، وهذا هو المعنى بقول الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم بإظلال الملائكة له فى سفره .

ويحتمل أن المراد فى كل سفر سافره ، لكن لم أقف على إظلال الملائكة له صلى الله عليه وسلم فى غير هذه السفرة . وقد ألقى الله تعالى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قلب ميسرة ، فكان كأنه عبده ، فلما كانوا بمرّ الظهران : أى وهو واد بين مكة وعسفان ، وهو الذى تسميه العامة بطن مرو ، وهو المعروف الآن بوادى فاطمة . قال ميسرة للنبى صلى الله عليه وسلم : هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى ، لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك : أى وفى رواية : تخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك ، فركب النبى صلى الله عليه وسلم وتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى علية : أى فى غرفة مع نساء ، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه ، فأرته نساءها فعجبن لذلك ، ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبرها بما ربحوا ، وهو ضعف ما كانت تربح ، فسرت بذلك وقالت : أين ميسرة ؟ قال : خلفته فى البادية ، قالت : عجل إليه ليعجل بالإقبال وإنما أرادت أن تعلم أهو الذى رأت أم غيره ؟ فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى ، فاستيقنت أنه هو .

فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى رحمه الله فى تائيته بقوله :

وميسرة قد عاين الملكين إذ أظلاك لما سرت ثانى سفرة

وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا ، وقول الآخر الذى حالفه : أى استحلفه فى البيع : أى وقصة البعيرين . وحينئذ أعطت خديجة له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمته له : أى وماسمته له ضعف ماكانت تعطيه لرجل من قومه كما تقدم . وقول ميسرة له صلى الله عليه وسلم فيما تقدم : لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك يدل على أنها سمت له بكرتين ، وكانت تسمى لغيره بكرة . وفى كلام بعضهم : وفى الروض الباسم : استأجرته على أربع بكرات .

وفى الجامع الصغير مانصه : آجرت نفسى من خديجة سفرتين بقلوصين . ثم رأيت فى الإمتاع مايوافق ذلك ، ونصه : وأجر صلى الله عليه وسلم نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين ، وفى السفرة الأولى أرسلته مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة : أى وهو مكان بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال كانوا يبتاعون فيه ثلاثة أيام ، من أول رجب فى كل عام ، فابتاعا منه بزا ورجعا إلى مكة ، فربحا ربحا حسنا . وفى السفرة الثانية أرسلته مع عبدها ميسرة إلى الشام .

وفيه أن سفره مع ميسرة إلى الشام سفرة ثالثة . فعن مستدرك الحاكم وصححه وأقره الذهبى عن جابر : أن خديجة استأجرته صلى الله عليه وسلم سفرتين إلى جرش بضم الجيم وفتح الراء: موضع باليمن كل سفرة بقلوص، وهى الشابة من الإبل ، وهو يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سافر لها ثلاث سفرات كما تقدم ، ولعل سوق حباشة هو جرش ، وإلا لزم أن يكون صلى الله عليه وسلم سافر لها خمس سفرات : أربعة إلى اليمن ، وواحدة إلى الشام ، وما تقدم عن الروض الباسم من أنها استأجرته فى سفرة إلى الشام بأربع بكرات لا يناسب ماتقدم عن ميسرة .

قد جاء فى بعض الروايات : أن أبا طالب جاء لخديجة ، وقال لها : هل لك أن تستأجرى محمدا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرتين ، وليس نرضى لمحمد دون أربع بكرات ، فقالت خديجة : لو سألت لبعيد بغيض ، فكيف وقد سألت لحبيب قريب ؟ .

ثم لايخفى أن كون سفره صلى الله عليه وسلم مع ميسرة بسوق حباشة قبل سفره معه إلى الشام مخالف لظاهر ما تقدم من قول عمه أبى طالب ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها،وقول خديجة ماعلمت أنه يريد هذا . وإنما قلنا ظاهر ، لأنه يجوز أن يكون بعد قول أبى طالب ، وقولها المذكور أرسلته صلى الله عليه وسلم مع ميسرة إلى سوق حباشة لقرب مسافته وقصر زمنه ، ثم أرسلته مع ميسرة إلى الشام ، أو كانت خديجة لاتجوّز أن أبا طالب يرضى بسفره إلى الشام ، وأنه صلى الله عليه وسلم يوافق على ذلك فليتأمل .

وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم من حين سيره : أى من مكة صارت الغمامة تظله ، فإن كانت غير الملكين ، فالغمامة كانت تظله فى الذهاب والملكان يظلانه فى العود ، ولعل عدم ذكر ميسرة لخديجة

تظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم فى ذهابه أنه لم يفطن لها مثلا ، ولكن سيأتى فى كلام صاحب الهمزية ما يدل على أن الملكين هما الغمامة .

وفيه وقوع رؤية للبشر غير نبينا صلى الله عليه وسلم للملائكة غير جبريل ، وسيأتى رؤية جمع من الصحابة لجبريل .

وفى المنقذ من الضلال للغزالى أن الصوفية يشاهدون الملائكة فى يقظتهم : أى لحصول طهارة نفوسهم ، وتزكية قلوبهم ، وقطعهم العلائق ، وحسمهم موادّ أسباب الدنيا من الجاه والمال ، وإقبالهم على الله تعالى بالكلية علما دائما وعملا مستمرا ، والله أعلم ، قال : ولم أقف على اسم الرجل الذى حالفه : أى استحلفه .

وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على رواية صحيحة صريحة فيه بأنه : أى ميسرة بقى إلى البعثة انتهى .

ثم إن خديجة ذكرت ما رأته من الآيات وما حدثها به غلامها ميسرة لابن عمها ورقة ابن نوفل وكان نصرانيا : أى بعد أن كان يهوديا على ما يأتى ، قد تتبع الكتب ، فقال لها : إن كان هذا حقا ياخديجة إن محمدا نبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه : أى وكان صلى الله عليه وسلم يتجر قبل النبوة قبل أن يتجر لخديجة ، وكان شريكا للسائب بن أبى السائب صيفى .

ولما قدم عليه السائب يوم فتح مكة قال له : مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يدارى : أى لا يرائى ، ولا يمارى : أى يخاصم صاحبه ، وهذا يدل على أن قوله كان لا يدارى الخ من مقوله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال فقهاؤنا : والأصل فى الشركة خبر السائب بن يزيد أنه كان شريكا للنبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وافتخر بشركته بعد المبعث : أى قال : كان صلى الله عليه وسلم نعم الشريك لا يدارى ولا يمارى ولا يشاورى . والمشاراة : المشاححة فى الأمر واللجاج فيه ، وهو يدل على أن ذلك كان من مقول السائب ، ولا مانع أن يكون كل من النبى صلى الله عليه وسلم والسائب قال فى حق الآخر كان لا يدارى ولا يمارى ، وبهذا يندفع قول بعضهم : اختلفت الروايات فى هذا الكلام الذى هو كان خير شريك ، كان لا يشارى ، ولا يمارى ، فمنهم من يجعله من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى السائب ، ومنهم من يجعله من قول السائب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم .

ويمكن أن لا يكون مخالفة بين السائب بن أبي السائب صيفي وبين السائب بن يزيد ، لأنه يجوز أن يكون صيفي لقبا لوالده ولاسمه يزيد .

وفي الاستيعاب : وقع اضطراب هل الشريك كان أبا السائب ، أو ولده السائب بن أبي السائب ، أو ولد السائب وهو قيس بن السائب بن أبي السائب لا أخ السائب ، وهو عبد الله بن أبي السائب . قال : وهذا اضطراب لا يثبت به شيء ، ولا تقوم به حجة .

والسائب بن أبي السائب من المؤلفة ، أعطاه صلى الله عليه وسلم يوما الطرائف من غنائم حنين . وبه يرد قول بعضهم إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافرا .

ومما يدل على أن الشركة كانت لقيس بن السائب قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية شريكي ، فكان خير شريك : كان لا يشاربني ، ولا يماريني .

ووجه الدلالة أنه صلى الله عليه وسلم سمع قوله : كان شريكي وأقره عليه .

وذكر في الإمتاع « أن حكيم بن حزام اشترى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بزا من بز تهامة بسوق حباشة وقدم به مكة فكان ذلك سببا لإرسال خديجة له صلى الله عليه وسلم مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة ليشتريا لها بزا » .

وفي [سفر السعادة] أنه صلى الله عليه وسلم وقع منه أنه باع واشترى ، إلا أنه بعد الوحي وقبل الهجرة كان شراؤه أكثر من البيع وبعد الهجرة لم يبع إلا ثلاث مرات . وأما شراؤه فكثير . وآجر واستأجر ، والاستئجار أغلب ، ووكل وتوكل ، وكان توكله أكثر .

باب تزوجه صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ابن أسد بن عبد العزى بن قصي

فهي تجتمع معه صلى الله عليه وسلم في قصي . قال الحافظ ابن حجر : وهي من أقرب نسائه صلى الله عليه وسلم إليه في النسب ، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة ، هذا كلامه .

وعن نفيسة بنت منية رضي الله تعالى عنها : أي وهي أخت يعلى بن منية . ففي الإمتاع : منية أخت يعلى بن منية ، وعليه يكون ضمير وهي راجع لمنية لا لنفيسة . قلت : كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة : أي ضابطة جلدة : أي قوية شريفة : أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهم

شرفا ، وأكثرهم مالا : أى وأحسنهم جمالا ، وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة . وفى لفظ : كان يقال لها سيدة قريش ، لأن الوسط فى ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل ، يقال : فلان أوسط القبيلة : أعرفها فى نسبها ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل ، فأرسلتنى دسيسا : أى خفية إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال : مابيدى ما أتزوج به . قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت خديجة ، قال : وكيف لى بذلك ؟ بكسر الكاف لأنه خطاب لنفيسة . قلت : بلى وأنا أفعل ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا ، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته فزوّجه أحدهم : أى وهو أبو طالب على ما يأتى . وقال فى خطبته : وابن أخى له فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، فقال عمرو بن أسد : هذا الفحل لايقدع أنفه : أى بالقاف والدال المهملة : أى لا يضرب أنفه لكونه كريما ، لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع ، بخلاف الكريم ، وكون المزوّج لها عمها عمرو بن أسد قال بعضهم هو المجمع عليه . وقيل المزوّج لها أخوها عمرو بن خويلد .

وعن الزهرى أن المزوّج لها أبوها خويلد بن أسد وكان سكران من الخمر ، فألقت عليه خديجة حلة وهى ثوب فوق ثوب ، لأن الأعلى يحل فوق الأسفل ، وضمخته بخلوق : أى لطخته بطيب مخلوط بزعفران [ ] فلما صحا من سكره قال : ما هذه الحلة والطيب ؟ فقيل له : لأنك أنكحت محمدا خديجة وقد ابتنى بها فأنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه : أى لأن خديجة استشعرت من أبيها أنه يرغب عن أن يزوجها له ، فصنعت له طعاما وشرابا ، ودعت أباها ونفرا من قريش فطعموا وشربوا ، فلما سكر أبوها قالت له : إن محمد بن عبد الله يخطبنى فزوجنى إياه ، فزوّجها ، فخلقته وألبسته ، لأن ذلك : أى إلباس الحلة وجعل الخلوق به كان عادتهم أن الأب يفعل به ذلك إذا زوّج بنته ، فلما صحا من سكره قال : ما هذا ؟ قالت له خديجة : زوجتنى من محمد بن عبد الله ، قال : أنا أزوّج يتيم أبى طالب ؟ لا لعمرى ، فقالت له خديجة : ألا تستحى ، تريد أن تسفه نفسك عند قريش ، تخبرهم أنك كنت سكران ؟ فلم تزل به حتى رضى : أى وهذا مما

يدل على أن شرب الخمر كان عندهم مما يتنزه عنه . ويدل له أن جماعة حرّموها على أنفسهم فى الجاهلية ، منهم من تقدم ، ومنهم من يأتى . وفى رواية أنها عرضت نفسها عليه فقالت : يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، فذكر ذلك صلى الله عليه وسلم لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فزوّجها .

أقول : قال فى النور ولعل الثلاثة : أى أباها وأخاها وعمها حضروا ذلك فنسب الفعل إلى كل واحد منهم ، هذا كلامه .

وفى كون المزوج لها أبوها خويلد أو كونه حضر تزويجها نظر ظاهر ، لأن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار المتقدم ذكرها .

قال بعضهم : وهو الذى نازع تبعا : أى حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد ، وقام معه جماعة من قريش ، ثم رأى تبع فى منامه ما ردعه عن ذلك ، فترك الحجر الأسود مكانه .

وعلى كون المزوّج له عمه حمزة اقتصر ابن هشام فى سيرته . وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدقها عشرين بكرة .

وعبارة المحب الطبرى : فلما ذكر ذلك لأعمامه خرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ففعل ، وحضره أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال : الحمد لله القصة ، والله أعلم .

قال : وعن ابن إسحاق أنها قالت له : يا محمد ألا تتزوج ؟ قال : ومن ؟ قالت : أنا ، قال : ومن لى بك ؟ أنت أيّم قريش وأنا يتيم قريش ؟ قالت : اخطبنى الحديث : أى وفيه إطلاق اليتيم على البالغ ، وذلك بحسب ما كان ، والمراد به المحتاج ، وإلا فالعرف أى الشرعى واللغوى خصه بغير البالغ ممن مات أبوه الحقيقى .

وعن بعضهم قال : مررت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على أخت خديجة فنادتنى فانصرفت إليها ، ووقفت لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما لصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة ؟ فأخبرته ، فقال : بلى لعمرى ، فذكرت ذلك لها ، فقالت اغدوا علينا إذا أصبحنا ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة ، الحديث .

وفى الإمتاع بعد أن ذكر أن السفير بينهما نفيسة بنت منية ، ذكر أنه قيل : كان السفير بينهما غلامها ، وقيل مولاة مولدة . وقد يقال : لامنافاة لجواز أن يكون كل ممن ذكر كان سفيراً .

وفى الشرف أن خديجة رضى الله تعالى عنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة ، فلما جاءها ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له : يا أبا طالب تدخل على عمى فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله. فقال أبو طالب : ياخديجة لاتستهزئى ، فقالت : هذا صنع الله ، فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلى عمها ، الحديث : أى وفى رواية ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر. ولامخالفة لجواز أن يكون المراد ببنى هاشم أولئك العشرة ، وأنهم كانوا هم المراد برؤساء مضر فى ذلك الوقت .

وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره أن أبا طالب خطب يومئذ فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسمعيل ، وضئضىء معدّ : أى معدنه ، وعنصر مضر : أى أصله ، وجعلنا حضنة بيته : أى المتكفلين بشأنه ، وسوّاس حرمه : أى القائمين بخدمته ، وجعله لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ؛ وجعلنا حكام الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لايوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلّ ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشا : أى وهو عشرون درهما . والأوقية : أربعون درهما ، أى وكانت الأواقى والنش من ذهب كما قال المحب الطبرى : أى فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعى . وقيل أصدقها عشرين بكرة ، أى كما تقدم .

أقول : لامنافاة لجواز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور . وقال بعضهم : يجوز أن يكون أبو طالب أصدقها ما ذكر وزاد صلى الله عليه وسلم من عنده تلك البكرات فى صداقها فكان الكل صداقا ، والله أعلم .

قال : وما قيل إن عليا رضى الله تعالى عنه ضمن المهر فهو غلط ، لأن عليا لم يكن ولد على جميع الأقوال فى مقدار عمره ، وبه يردّ قول بعضهم : وكون علىّ ضمن المهر غلط ، لأن عليا كان صغيرا لم يبلغ سبع سنين : أى لأنه ولد فى الكعبة وعمره

صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة فأكثر ، وسنه حين تزوج خديجة كان خمسا وعشرين سنة على ما تقدم أو زيادة بشهرين وعشرة أيام . وقيل خمسة عشر يوما على ما يأتى . وقيل الذى ولد فى الكعبة حكيم بن حزام .

قال بعضهم : لامانع من ولادة كليهما فى الكعبة ، لكن فى النور : حكيم بن حزام ولد فى جوف الكعبة ، ولا يعرف ذلك لغيره . وأما ما روى أن عليا ولد فيها فضعيف عند العلماء .

قال النووى : وعند ذلك قال عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لايقدع أنفه وأنكحها منه . وقيل قائل ذلك ورقة بن نوفل : أى فإنه بعد أن خطب أبو طالب بما تقدم خطب ورقة ، فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لاينكر العرب فضلكم ، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معاشر قريش إنى قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله وذكر المهر ، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : اشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وأولم عليها صلى الله عليه وسلم: نحر جزورا ، وقيل جزورين ، وأطعم الناس ، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحا شديدا ، وقال : الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ، ودفع عنا الغموم ، وهى أول وليمة أولمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقول : ولاينافى هذا ماتقدم من قوله : فوجدناهم قد ذبحوا بقرة ، وألبسوا خديجة حلة ، لجواز أن يكون ذلك كان عند العقد ، وهذا عند إرادة الدخول . ولا ينافى ذلك ما تقدم من قوله ، وقد ابتنى بها ، لأن تلك الرواية غير صحيحة ، ولا ينافى كون المزوّج له عمه أبو طالب ما تقدم أن المزوج له عمه حمزة ، لجواز أن يكون حضر مع أبى طالب فنسب التزويج إليه أيضا ، والله أعلم .

والسبب فى ذلك : أى فى عرض خديجة رضى الله تعالى عنها نفسها عليه صلى الله عليه وسلم أيضا مع ما أراد الله تعالى بها من الخير ، ما ذكره ابن إسحاق . قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى المسجد ، فاجتمعن يوما فيه ، فجاءهن يهودى وقال أيا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكنّ نبى قرُب وجوده ، فأيتكن استطاعت أن تكونه

فراشا له فلتفعل ، فحصبته النساء : أى رمينه بالحصباء ، وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ، ووقع ذلك فى نفسها ، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ومارأته هى : أى وما قاله لها ورقة لما حدثته بما حدثها به ميسرة مما تقدم قالت : إن كان ما قاله اليهودى حقا ما ذاك إلا هذا .

وذكر الفاكهى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أبى طالب ، فاستأذن أبا طالب فى أن يتوجه إلى خديجة : أى ولعله بعد أن طلبت منه صلى الله عليه وسلم الحضور إليها وذلك قبل أن يتزوجها ، فأذن له وبعث بعده جارية له يقال له نبعة ، فقال : انظرى ما تقول له خديجة ، فخرجت خلفه ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم إلى خديجة أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ، ثم قالت : بأبى أنت وأمى ، والله ما أفعل هذا الشىء ، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذى سيبعثك لى ، فقال لها والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبدا ، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا ، فرجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك ، وكان تزويجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضى الله تعالى عنها بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوما ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة على ما هو الصحيح الذى عليه الجمهور كما تقدم . زاد بعضهم على الخمسة والعشرين سنة شهرين وعشرة أيام ، وقد أشار إلى ما تقدم صاحب الهمزية بقوله :

ورأته خديجة والتقى والزهـــ ... ـد فيــه سجية والحيـــاء
وأتاها أن الغمامــة والسر ... ح أظلتـــه منهما أفيـــاء
وأحاديث أن وعد رسول الله ... بالبعث حان منـــه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحــ ... ـسن ما يبلغ المنـــى الأذكياء

أى وعلمته خديجة رضى الله تعالى عنها ، ذات الشرف الطاهر ، والمال الوافر الظاهر ، والحسب الفاخر ، والحال أن التقى والزهد والحياء فيه صلى الله عليه وسلم سجية وطبيعة ، وأتاها الخبر بأن الغمامة والشجر أظلته : أفياء : أى أظلال حالة كون تلك الأفياء من الغمامة والشجر .

وفيه أن هذا يدل على أن الملكين هما الغمامة .

قال بعضهم : وتظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة تأسيسا لهـــا ،

وانقطع ذلك بعد النبوة ، وأتى خديجة الأحاديث والأخبار من بعض الأحبار بأن وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالبعث والإرسال إلى الخلق قرب الوفاء به منه تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فبسبب ذلك خطبته إلى أن يتزوج بها وعرضت نفسها عليه . وما أحسن بلوغ الأذكياء مايتمنونه .

وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي يومئذ بنت أربعين سنة . قال : وقيل خمس وأربعين سنة ، وقيل ثلاثين ، وقيل ثمان وعشرين اه : أي وقيل خمس وثلاثين ، وقيل خمس وعشرين .

وتزوجت قبله صلى الله عليه وسلم برجلين . أولهما عتيق بن عابد : أي بالموحدة والمهملة ، وقيل بالمثناة تحت والمعجمة [ ] فولدت له بنتا اسمها هند ، وهي أم محمد بن صيفي المخزومي . وثانيهما أبو هالة ، واسمه هند ، فولدت له ولدا اسمه هالة ، وولدا اسمه هند أيضا فهو هند بن هند : أي وكان يقول : أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا ، أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه زوج أمه ، وأمي خديجة ، وأخي القاسم ، وأختي فاطمة ، قتل هند هذا مع عليّ يوم الجمل رضي الله تعالى عنه .

وفي كلام السهيلي أنه مات بالطاعون بالبصرة ، وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفا فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته ، فلم يوجد من يحملها ، فصاحت نادبته : واهنداه بن هنداه ، واربيب رسول الله ، فلم تبق جنازة إلا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع إعظاما لربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا .

هذا وفي المواهب أنها كانت تحت أبي هالة أولا ، ثم كانت تحت عتيق ثانيا ، وستأتي بقية ترجمتها رضي الله عنها في أزواجه صلى الله عليه وسلم .

باب بنيان قريش الكعبة

شرفها الله تعالى

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة على ما هو الصحيح جاء سيل حتى أتى من فوق الردم الذي صنعوه لمنعه السيل فأخربه : أي ودخلها وصدّع جدرانها بعد توهينها من الحريق الذي أصابها .

وذلك أن امرأة بخرتها فطارت شرارة في ثياب الكعبة فاحترقت جدرانها ، فخافوا

أن تفسدها السيول : أى تذهبها بالمرة . وقيل تبخير المرأة كان لها فى زمن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما . ولا مانع من التعدد ، وكان ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن لها سقف : أى وكان الناس يلقون الحلىّ والمتاع كالطيب أى الذى يهدى إليها فى بئر داخلها عند بابها على يمين الداخل منه أعدت لذلك ، يقال لها خزانة الكعبة كما سيأتى ذلك . فأراد شخص فى أيام جرهم أن يسرق من ذلك شيئا فوقع على رأسه وانهار البئر عليه فهلك .

وفى كلام بعضهم : فسقط عليه حجر فحبسه فى تلك البئر حتى أخرج منها وانتزع المال منه ، فليتأمل الجمع .

وقد يقال على بعد: جاز أن يكون هذا الرجل تكرر منه السرقة ، وكان هلاكه فى المرة الثانية ؛ فعند ذلك بعث الله حية بيضاء سوداء الرأس والذنب رأسها كرأس الجدى ، فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة ، وكانت قد تخرج منها إلى ظاهر البيت فتشرق بالقاف أى تبرز للشمس على جدار الكعبة ، فيبرق لونها ، وربما التفت عليه فتصير رأسها عند ذنبها ، فلا يدنو منها أحد إلا كشت : أى صوّتت وفتحت فاها معطوف على كشت .

فى حياة الحيوان قال الجوهرى : كشيش الأفعى صوتها من جلدها لامن فيها ، فحرست بئره وخزانة البيت خمسمائة عام ، لايقربه أحد : أى لا يقرب بئره وخزانته إلا أهلكته : أى ولعل المراد لو قرب منه أحد أهلكته ، إذ لو أهلكت أحدا قرب من تلك البئر لنقل ، فلم تزل كذلك حتى كان زمن قريش ووجد هـذا السيل والحريق ، أرادوا هدمها وإعادة بنائها ، وأن يشيدوا بنيانها : أى يرفعوه ويرفعوا بابها ، حتى لايدخلها إلا من شاءوا واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة كل قبيلة تجمع على حدة ، وأعدوا لذلك نفقة أى طيبة ، ليس فيها مهر بغىّ ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس [] أى بعد أن قام أبو وهب عمرو بن عابد ، فتناول منها حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال عند ذلك : يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، الحديث : أى وفى لفظ أنه قال لهم : لا تدخلوا فى نفقة هـذا البيت مهر بغىّ : أى زانية ولا بيع ربا. وفى لفظ: لا تجعلوا فى نفقة هذا البيت شيئا أصبتموه غصبا ولا قطعتم فيه رحما ، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس . وأبو وهب هذا خال عبد الله أبى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان شريفا فى قومه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة .

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس رضى الله تعالى عنه ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة : أى كبقية القوم ، فإنهم كانوا يضعون أزرهم على عواتقهم ، ويحملون الحجارة ؛ ففعل صلى الله عليه وسلم فخرّ إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء : أى ونودى : عورتك ، فقال إزارى إزارى : أى شدوا علىّ إزارى ، فشدّ عليه . وفى رواية : سقط فغشى عليه ، فضمه العباس إلى نفسه ، وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه نودى من السماء أن شد عليك إزارك ، وهذا يبعد ماجاء فى رواية قال له العباس أى بعد أن أمر بستر عورته وسترها : يا ابن أخى اجعل إزارك على رأسك ، فقال : ما أصابنى ما أصابنى إلا من التعرّى .

وفى رواية : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يحمل الحجارة من أجياد وعليه نمرة فضاقت عليه النمرة فذهب يضعها على عاتقه فبدت عورته ، فنودى يامحمد خمر عورتك : أى غطها ، فلم ير عريانا أى مكشوف العورة بعد ذلك .

أى وقد يقال : هذا لا يخالف ماتقدم عن العباس رضى الله تعالى عنه ، لأنه يجوز أن يكون ذلك صادر من العباس حينئذ ، وغايته أنه سمى النمرة إزارا له .

قال : واستبعد بعض الحفاظ ذلك : أى وقوع هذا مع ما تقدم من نهيه عن ذلك : أى الذى تضمنه الأمر بالستر عند إصلاح عمه أبى طالب لزمزم قبل هذا ، قال لأنه صلى الله عليه وسلم إذا نهى عن شىء مرة لا يعود إليه ثانيا بوجه من الوجوه اهـ : أى وقد عاد إلى ذلك .

أقول : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يفهم أن أمره بستر عورته أولا عزيمة ، بل جواز الترك ، وفى الثانية علم أنه عزيمة .

لايقال : تقدم «من كرامتى على ربى أن أحدا لم ير عورتى» وتقدم أن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

ففى الخصائص الصغرى «أنه صلى الله عليه وسلم لم تر عورته قط ، ولو رآها أحد طمست عيناه» لأنه لايلزم من كشف عورته صلى الله عليه وسلم رؤيتها كما لم يلزم من حضانته وتربيته ومجامعة زوجاته ذلك . فعن عائشة رضى الله تعالى عنها «مارأيت منه صلى الله عليه وسلم» والظاهر أن بقية زوجاته كذلك ، والله أعلم .

ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر : أى خوف من أن يمنعهم الله تعالى ماأرادوا : أى بأن يوقع بهم البلاء قبل ذلك ، سيما وقد شاهدوا ماوقع لعمرو بن عائذ .

أى قال : وعند ابن إسحاق أن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه أى خافوا من أنه يحصل لهم بسببه بلاء ، فقال الوليد بن المغيرة لهم ، أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل نريد الإصلاح ، قال : فإن الله لايهلك المصلحين ، قالوا من الذى يعلوها فيهدمها ، قال أنا أعلوها وأنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع أى بالراء والعين المهملتين ، والضمير فى ترع للكعبة : أى لاتفزع الكعبة لانريد إلا الخير : أى وفى رواية لم نزغ بالنون والزاى والمعجمة : أى لم نحل عن دينك ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء هدمناها فقد رضى الله ماصنعنا فأصبح الوليد من ليلته غاديا إلى عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة : أى أسنمة الإبل . وفى لفظ كالأسنة .

قال السهيلى : وهو وهم من بعض النقلة عن ابن إسحاق ، هـذا كلامه : أى وقد يقال : هى كالأسنة فى الخضرة وكالأسنمة فى العظم .

لايقال : الأسنة زرق . لأنا نقول شديد الزرقة يرى أخضر ، أخذ بعضها ببعض ، فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منهما ليقلع بها بعضها فلما تحرك الحجر تنفضت مكة : أى تحركت بأسرها ، وأبصر القوم برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل ، فانتهوا عن ذلك الأساس . ووجدت قريش فى الركن كتابا بالسريانية فلم يدر ماهو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو : أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، لايزول أخشباها أى جبلاها ، وهما أبوقبيس وهو جبل مشرف على الصفا . وقعيقعان : وهو جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبى قبيس يبارك لأهلها فى الماء واللبن ، ووجدوا فى المقام : أى محله ، كتابا آخر مكتوب فيه : مكة بلد الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاث سبل . ووجدوا كتابا آخر مكتوب فيه : من يزرع خيرا يحصد غبطة : أى مايغبط أى يحسد حسدا محمودا عليه ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة : أى مايندم عليه . تعملون السيئات ، وتجزون الحسنات ، أجل : أى نعم ، كما يجنى من الشوك العنب أى الثمر .

أى وفى السيرة الشامية أن ذلك وجد مكتوبا فى حجر فى الكعبة . وفى كلام بعضهم : وجدوا حجرا فيه ثلاثة أسطر : الأول أنا الله ذوبكة،صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر إلى آخره. وفى الثانى:أنا الله ذوبكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته. وفى الثالث: أنا الله ذوبكة خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن كان الخير على يديه ، وويل لمن كان الشر على يديه . قال ابن المحدث : ورأيت فى مجموع أنه وجد بها حجر مكتوب عليه : أنا الله ذوبكة ، مفقر الزناة ، ومعرى تارك الصلاة ، أرخصها والأقوات فارغة ، وأغليها والأقوات ملآنة : أى فارغ محلها وملآن محلها ، هذا كلامه .

وقد يقال : لامانع من أن يكون ذلك حجرا آخر ، أو يكون هو ذلك الحجر ، وما ذكر مكتوب فى محل آخر منه : أى وفى الإصابة عن الأسود بن عبد يغوث عن أبيه أنهم وجدوا كتابا بأسفل المقام ، فدعت قريش رجلا من حمير ، فقال : إن فيه لحرفا لوحدثتكموه لقتلتمونى قال : وظننا أن فيه ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فكتمناه،وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة : أى الذى به جدة الآن ، وكان ساحل مكة قبل ذلك الذى يرمى به السفن يقال له الشعيبية بضم الشين ، فلا يخالف قول غير واحد ، فلما كانت السفينة بالشعيبية ساحل مكة انكسرت . وفى لفظ حبسها الريح ، وتلك السفينة كانت لرجل من تجار الروم اسمه باقوم وكان بانيا .

وقيل كانت تلك السفينة لقيصر ملك الروم يحمل له فيها الرخام والخشب والحديد ، سرحها مع باقوم إلى الكنيسة التى حرقها الفرس بالحبشة ، فلما بلغت مرساها من جدة ، وقيل من الشعيبية بعث الله تعالى عليها ريحا فحطمها : أى كسرها .

فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى السفينة فابتاعوا خشبها ، فأعدوه لسقف الكعبة . وقيل هابوا هدمها من أجل تلك الحية العظيمة ، فكانوا كلما أرادوا القرب منه أى البيت ليهدموه بدت لهم تلك الحية فاتحة فاها ، فبينا هى ذات يوم تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله طائرا أعظم من النسر ، فاختطفها وألقاها فى الحجون فالتقمتها الأرض ، قيل وهى الدابة التى تكلم الناس يوم القيامة . وقد جاء أن الدابة تخرج من شعب أجياد .

وفى حديث « أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الدابة التى تكلم

الناس فأخرجها له من الأرض ، فرأى منظرا هاله وأفزعه ، فقال : أى رب ردها فردها » .

فقالت قريش عند ذلك : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ماأردنا : أى بعد أن اجتمعوا عند المقام ، وعجوا إلى الله تعالى : ربنا لن نراع ، أردنا تشريف بيتك وتزيينه ، فإن كنت ترضى بذلك فأتمه واشغل عنا هذا الثعبان يعنون الحية ،وإلا فما بدا لك فافعل ، فسمعوا فى السماء صوتا ووجبة وإذا بالطائر المذكور أخذها وذهب بها إلى أجياد ، فقالوا ماذكر ، وقالوا : عندنا عامل رفيق وعندنا أخشاب ، وقد كفانا الله الحية وذلك العامل هو باقوم الرومى الذى كان بالسفينة وكان بانيا كما تقدم ، فإنهم جاءوا به معهم إلى مكة ، أو هو باقوم مولى سعيد بن العاص وكان نجارا ،وتلك الأخشاب هى التى اشتروها من تلك السفينة التى كسرت .

أقول : ومع أخذ الطائر لتلك الحية يجوز أن يقال هابوا هدمها حتى قدم عليه الوليد ابن المغيرة ، فلا مخالفة بين ماتقدم عن ابن إسحاق وبين هـــذا الظاهر فى أنهم هدموها عند أخذ الطائر لتلك الحية ولم يهابوا هدمهاحتى فعل الوليد ماتقدم، والله أعلم .

أى ثم لما أرادوا بنيانها تجزأتها قريش : أى بعد أن أشار عليهم بذلك أبو وهب عمرو ابن عائذ ، فقال لهم : إنى أرى أن تقسموا أربعة أرباع ، فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة ، وكان مابين الركنين الأسود واليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم ابنى عمرو ، وكان شق الحجر أى الجانب الذى فيه الحجر الآن لبنى عبد الدار ولبنى أسد ولبنى عدى .

والذى فى كلام المقريزى : كان لبنى عبد مناف مابين الحجر الأسود إلى ركن الحجر أى وهو شق الباب ، وصار لأسد وعبد الدار وزهرة الحجر كله : أى الجانب الذى فيه الحجر وصار لمخزوم دبر البيت،وصار لسائر قريش مابين الركن اليمانى إلى الركن الأسود هذا كلامه فليتأمل .

وفى كلام بعضهم : وسمى الركن اليمانى باليمانى ، لأن رجلا من اليمن بناه وكان البانى لها باقوم النجار : أى الذى هو مولى سعيد بن العاص .

أقول : وكان المناسب أن يكون الذى بناها باقوم الرومى الذى كان صحبة السفينة التى كسرت ، لأنه كما تقدم كان بانيا ، وسيأتى التصريح بذلك . وأما باقوم مولى سعيد بن

العاص فتقدم أنه كان نجارا ، إلا أن يقال باقوم مولى سعيد كان نجارا بناء ، واشتهر بالوصف الأول ، فكان البانى لها . وفيه يحتمل أن يكون باقوم الرومى البناء كان نجارا أيضا ، واشتهر بالوصف الأول .

ثم رأيت فى كلام بعضهم التصريح بذلك ، فقال : وكان أى باقوم الرومى نجارا بناء . فقول القائل : وكان البانى لها باقوم النجار مراده باقوم الرومى لامولى سعيد .

ثم رأيت فى بعض الروايات ما يؤيد ذلك ، وهو وصف باقوم الرومى بأنه كان نجارا . ونصها : فخرجت قريش لتأخذ خشبها : أى السفينة التى كسرت ، فوجدوا الرومى الذى فيها نجارا ، فقدموا به وبالخشب . فقد دلت الروايتان على أنه موصوف بالوصفين . ويحتمل أن يكون أحدهما بناها والآخر عمل سقفها ، أو أنهما اشتركا فيها لما علمت أن كلا منهما كان بانيا نجارا .

ثم رأيت عن ابن إسحاق : وكان بمكة قبطى يعرف نجر الخشب وتسويته ، فوافقهم على أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم ، أى الرومى ، فالقبطى هو مولى سعيد بن العاص . وحينئذ فى هذه الرواية وصف باقوم الرومى بأنه كان نجارا كالرواية التى قبلها ، وسيأتى فى الرواية التى تلى هذه أنه الذى بناها . وهى فى الإصابة اسم الرجل الذى بنى الكعبة لقريش باقوم . وكان روميا ، وكان فى سفينة حبستها الريح فخرجت إليها قريش فأخذوا خشبها وقالوا له : ابنها على بنيان الكنائس ، وإن باقوم الرومى أسلم ثم مات فلم يدع وارثا فدفع النبى صلى الله عليه وسلم ميراثه لسهيل بن عمرو .

ثم لما بنوها جعلوها مدماكا من خشب الساج ، ومدماكا من الحجارة من أسفلها إلى أعلاها ، وزادوا فيها تسعة أذرع ، فكان ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا ، ورفعوا بابها من الأرض ، فكان لايصعد إليها إلا فى درج ، وضاقت بهم النفقة عن بنيانها على تلك القواعد فأخرجوا منها الحجر ، وفى لفظ : أخرجوا من عرضها أذرعا من الحجر وبنوا عليه جدارا قصيرا علامة على أنه من الكعبة .

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى أعدّوا للقتال ، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى : أى تحالفوا على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، وقد تقدم فى حلف المطيبين ، ومكث النزاع بينهم أربع أو خمس ليال ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام . وكان أبو أمية بن المغيرة ، واسمه حذيفة أسنّ قريش كلها

يومئذ : أى وهو والد أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وهو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم ، وكان يعرف بزاد الراكب ، لأنه كان إذا سافر لايتزوّد معه أحد ، بل يكفى كل من سافر معه الزاد .

أى وذكر بعضهم أن أزواد الراكب من قريش ثلاثة : زمعة بن الأسود بن المطلب ابن عبد مناف ، قتل يوم بدر كافرا ، ومسافر بن أبى عمرو بن أمية ، وأبو أمية بن المغيرة وهو أشهرهم بذلك .

وفى كلام بعضهم : لاتعرف قريش زاد الراكب إلا أبا أمية بن المغيرة وحده ، يحتمل أن المراد لاتكاد تعرف قريش غيره بهذا الوصف لشهرته فلا مخالفة ، وأبو أمية هذا مات على دينه ، ولعله لم يدرك الإسلام ، فقال : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم : أى وهو باب بنى شيبة ، وكان يقال له فى الجاهلية باب بنى عبد شمس الذى يقال له الآن باب السلام . وفى لفظ أوّل من يدخل من باب الصفا : أى وهو المقابل لما بين الركنين اليمانى والأسود ففعلوا أى وفى كلام البلاذرى أن الذى أشار على قريش بأن يضع الركن أوّل من يدخل من باب بنى شيبة مهشم بن المغيرة ويكنى أبا حذيفة .

وقد يقال : لا مخالفة ، لأنه يجوز أن يكون اسمه حذيفة ، ويكنى بأبى حذيفة كما يكنى بأبى أمية ومهشم لقبه ، وأن الراوى عنه اختلف كلامه ، فتارة قيل عنه يقضى بينكم ، وتارة قيل عنه يضع الركن ، والمشهور الأول ، ويدل له ما يأتى ، فكان أول داخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا ، هذا محمد: أى لأنهم كانوا يتحاكمون إليه صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، لأنه كان لايدارى ولا يمارى ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلىّ ثوبا فأتى به : أى وفى رواية : فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره وبسطه فى الأرض أى ويقال إنه كساء أبيض من متاع الشام . ويقال إن ذلك الثوب كان للوليد بن المغيرة ، فأخذ صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود فوضعه فيه بيده الشريفة ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب : أى بزاوية من زواياه ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، فكان فى ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع قيس بن عدى ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو صلى الله عليه وسلم : أى ولما مات أبو أمية بن المغيرة رثاه أبو طالب بقصيدة طويلة ، ورثاه أبو جحيفة بقوله :

ألا هلك الماجد الرافد وكل قريش له حامد
ومن هو عصمة أيتامنا وغيث إذا فقد الراعد

قال : وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن : أى الحجر ذهب رجل من أهل نجد ليناول النبى صلى الله عليه وسلم حجرا يشد به الركن ، فقال العباس لا ، وناول العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شدّ به الركن ، فغضب النجدى وقال : واعجبا لقوم أهل شرف وعقول وأموال عمدوا إلى رجل أصغرهم سنا وأقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفرقنهم شيعا ، وليقسمنّ بينهم حظوظا، فكاد يثير شرا فيما بينهم ، ولعل هذا النجدى هو إبليس .

فقد ذكر السهيلى أن إبليس تمثل فى صورة شيخ نجدى حين حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الركن من يرفعه ، وصاح : يامعشر قريش أرضيتم أن يلى هذا الغلام دون أشرافكم وذوى أنسابكم ؟ انتهى .

وإنما تصوّر بصورة نجدى ، لأن فى الحديث ، نجد طلع منها قرن الشيطان . ولما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم بارك لنا فى شامنا وفى يمننا ، قالوا وفى نجدنا ، فأعاد الأول ، والثانى قال : هناك الزلازل والفتن ، وفيها يطلع قرن الشيطان » .

أقول : سيأتى أنه تصور بهذه الصورة أيضا عند دخول قريش دار الندوة ليتشاوروا فى كيفية قتله صلى الله عليه وسلم ودخل معهم ، وسيأتى . ثم فى حكمة تصوّره بذلك غير ما ذكر . ولا مانع أن يكونا حكمة لما هنا ولما يأتى .

وأعادوا الصور التى كانت فى حيطانها ، لأنه كان فى حيطانها صور الأنبياء بأنواع الأصباغ ، ومن جملتهم صورة إبراهيم وفى يده الأزلام : أى وإسمعيل وفى يده الأزلام، وصورة الملائكة وصورة مريم كما سيأتى فى فتح مكة، وكساها زعماؤهم أرديتهم وكانت من الوصائل ، ولم يكسها أحد بعد ذلك حتى كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبرات فى حجة الوداع ، والله أعلم. وهذه المرة الرابعة أى من بناء الكعبة بناء على أن أول من بناها الملائكة .

فنى بعض الآثار أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السموات والأرض كان عرشه على الماء أى العذب ، فلما اضطرب العرش كتب عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم فسكن ، فلما أراد أن يخلق السموات والأرض أرسل الريح على ذلك الماء فتموّج فعلاه دخان ، فخلق من ذلك الدخان السموات ، ثم أزال ذلك الماء عن موضع الكعبة فيبس » وفى لفظ « أرسل على الماء ريحا هفافة فصفق الريح الماء » أى ضرب بعضه بعضا « فأبرز عنه خشفة » الحديث ، وبسط الله سبحانه وتعالى من ذلك الموضع جميع الأرض طولها والعرض ، فهى أصل الأرض وسرتها . وقد يخالفه ما فى [أنس الجليل] كذا روى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : وسط الدنيا بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومعاذ بن جبل أنه أقرب إلى السماء باثنى عشر ميلا ثم بين ذلك فى أنس الجليل .

ولما ماجت الأرض وضع عليها الجبال ، فكان أول جبل وضع عليها أبو قبيس ، وحينئذ كان ينبغى أن يسمى أبا الجبال ، وأن يكون أفضلها مع أن أفضلها كما قال الجلال السيوطى استنباطا : أحد ، لقوله صلى الله عليه وسلم « أحد يحبنا ونحبه » ولما ورد أنه على باب من أبواب الجنة ، قال : ولأنه من جملة أرض المدينة التى هى أفضل البقاع : أى عنده تبعا لجمع ، ولأنه مذكور فى القرآن باسمه فى قراءة من قرأ (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) أى بضم الهمزة والحاء ، ثم فتق الأرض فجعلها سبع أرضين . وقد جاء « بدأ الله خلق الأرض فى يومين غير مدحوّة ثم خلق السموات فسواهن فى يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى وغيرها فى يومين » .

وبهذا يظهر التوقف فى قول مغلطاى : إن لفظة بعد فى قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) بمعنى قبل ، لأن خلق الأرض قبل خلق السماء ، لما علمت أن الأرض خلقت قبل السماء غير مدحوة ، ثم بعد خلق السماء دحى الأرض .

ثم رأيت بعضهم سأل ابن عباس عن ذلك ، حيث قال له : يا إمام اختلف علىّ من القرآن آيات ، ثم ذكر منها أنه قال : قال الله تعالى (أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين — حتى بلغ — طائعين) ثم قال فى الآية الأخرى (أم السماء بناها) ثم قال (والأرض بعد ذلك دحاها) فأجابه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . أما قوله (خلق الأرض فى يومين) فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخانا فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض . وأما قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) يقول : جعل

فيها جبلا، وجعل فيها نهرا، وجعل فيها شجرا، وجعل فيها بحورا. وبه يردّ قول بعضهم: خلق السماء قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار فليتأمل.

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ قال: سبع أرضين، فى كل أرض نبى كنبيكم، وآدم كآدمكم، ونوح كنوحكم، وإبراهيم كإبراهيمكم، وعيسى كعيسكم، رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد. وقال البيهقى: إسناده صحيح لكنه شاذ بالمرة: أى لأنه لايلزم من صحة الإسناد صحة المتن، فقد يكون فيه مع صحة إسناده ما يمنع صحته فهو ضعيف.

قال الحافظ السيوطى: ويمكن أن يؤول على أن المراد بهم النذر الذين كانوا يبلغون الجن عن أنبياء البشر.

ولا يبعد أن يسمى كل منهم باسم النبى الذى يبلغ عنه هذا كلامه: أى وحينئذ كان لنبينا صلى الله عليه وسلم رسول من الجن اسمه كاسمه، ولعل المراد اسمه المشهور وهو محمد فليتأمل.

ولما خاطب الله السموات والأرض بقوله ﴿ ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ كان المجيب من الأرض موضع الكعبة، ومن السماء ما حاذاها، الذى هو محل البيت المعمور.

وعن كعب الأحبار رضى الله عنه: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها، فقبض قبضة رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع قبره الشريف، وهى بيضاء منيرة لها شعاع عظيم.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة. قال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا تلك الطينة: أى وقد ذكر الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله تعالى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: أتعرف يوم يوم؟ فقال أبو بكر نعم والذى بعثك بالحق نبيا، يا رسول الله سألتنى عن يوم المقادير، يعنى يوم ـ ألست بربكم ـ ولقد سمعتك تقول حينئذ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» وقد سئل الشيخ على الخواص نفعنا الله تعالى ببركاته لم تتكلم الأنبياء بلسان الباطن الذى تكلم به الصوفية.

فأجاب بأنه إنما لم تتكلم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك لأجل عموم خطابهم للأمة، ولا يعتبر بالأصالة إلا فهم العامة دون فهم الخاصة إلا بعض تلويحات، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم للصديق رضى الله تعالى عنه «أتعرف يوم يوم؟ فقال نعم

يارسول الله » الحديث، وتلك الطينة لما تموّج الماء رمى بها من مكة إلى محل تربته صلى الله عليه وسلم ومدفنه بالمدينة .

وبهذا يندفع ما يقال : مقتضى كون أصل طينته صلى الله عليه وسلم بمكة أن يكون مدفنه بها ، لأن تربة الشخص تكون فى محل دفنه ثم عجنها بطينة آدم ، ولعل هذه الطينة هى المعبر عنها بالنور فى قوله صلى الله عليه وسلم وقد قال له جابر « يارسول الله أخبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ؟ قال : يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، ولم يكن فى ذلك الوقت لاسماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا لوح ولا قلم » الحديث .

وجاء « أول ماخلق الله نورى » وفى رواية : «أول ماخلق الله العقل » قال الشيخ علىّ الخواص : ومعناهما واحد ، لأن حقيقته صلى الله عليه وسلم يعبر عنها بالعقل الأول وتارة بالنور . فأرواح الأنبياء والأولياء مستمدة من روح محمد صلى الله عليه وسلم هذا كلامه ، وهذا هو المعنى بقول بعضهم: لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية فى الحضرة الأحدية ، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها . وفى أن هذا لايناسبه قوله « ولم يكن فى ذلك الوقت لاسماء ولا أرض » إذ كيف يأتى ذلك مع قول كعب الأحبار ، أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التى هى قلب الأرض إلى آخره ؟ ومع قول ابن عباس : أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض . إلا أن يقال إن ذلك النور بعد إيجاده أودع تلك الطينة التى هى قلب الأرض وسرتها . وحينئذ لايخالف ذلك ما جاء أن الله خلق آدم من طين العزة من نور محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم الجنس العالى لجميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس .

هذا وقد جاء فى حديث بعض رواته متروك الحديث «خلق الله آدم من تراب الجابية ، وعجنه بماء الجنة » وجاء « خلق الله آدم من تربة دحنا ومسح ظهره بنعمان الأراك » ودحنا: محل قريب من الطائف ، وتقدم أنه يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره وجعل نوره فى ظهر آدم . ولما خلق الله آدم وقبل نفخ الروح فيه ، استخرج ذلك النور من ظهره وأخذ عليه العهد (ألست بربكم) فقد خصى بذلك عن بقية خلقه من بنى آدم فإن بنى آدم ما أخرجوا من ظهر آدم وأخذ عليهم الميثاق إلا بعد نفخ الروح فى آدم .

ونقل بعضهم أن الله تعالى لما أخرج الذر وأعاده فى صلب آدم ، أمسك روح عيسى إلى أن أتى وقت خلقه . ولا يخفى أن هذا يفيد أن أخذ العهد على الصديق كان بعد نفخ الروح فى آدم ، وأخذ العهد عليه صلى الله عليه وسلم كان سابقا على ذلك ، وحينئذ فيكون المراد بقول الصديق حينئذ لما قال له صلى الله عليه وسلم « أتعرف يوم يوم » وقال نعم » إلى قوله « ولقد سمعتك تقول حينئذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » أى حين أخذ العهد على بنى آدم ، لا حين أخذ العهد عليه صلى الله عليه وسلم كما قد يتبادر فليتأمل .

ثم لما نفخت الروح فى آدم صار ذلك النور فى ظهر آدم فصارت الملائكة تقف صفوفا خلف آدم يتعجبون من ظهور ذلك النور ، فقال آدم يارب : ما بال هؤلاء ينظرون إلى ظهرى ؟ قال : ينظرون إلى نور محمد خاتم الأنبياء الذى أخرجه من ظهرك فسأل الله تعالى أن يجعله فى مقدمه لتستقبله الملائكة ، فجعله الله فى جبهته ، ثم سأل الله تعالى أن يجعله فى محل يراه ، فكان فى سبابته ، فلما أهبط آدم إلى الأرض ، انتقل ذلك النور إلى ظهره ، فكان يلمع فى جبهته ، وفى رواية : لما انتقل النور إلى سبابته قال : يارب هل بقى فى ظهرى من هذا النور شئ ؟ قال : نعم ، نور أخصاء أصحابه ، فقال : يارب اجعله فى بقية أصابعى ، فكان نور أبى بكر فى الوسطى ، ونور عمر فى البنصر ونور عثمان فى الخنصر ، ونور علىّ فى الإبهام ، فلما أكل من الشجرة عاد ذلك النور إلى ظهره كذا فى بحر العلوم عن ابن عباس .

ثم انتقل ذلك النور من آدم إلى ولده شيث ، ولما قال تعالى للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة)و(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) يعنون الجن الذين أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، غضب عليهم .

وفى لفظ : ظنت الملائكة : أى علمت أن ما قالوا ردا على ربهم ، وأنه قد غضب عليهم من فوقهم ، فلاذوا بالعرش وطافوا به سبعة أطواف يسترضون ربهم فرضى عليهم .

وفى لفظ : فنظر الله إليهم ، ونزلت الرحمة عليهم ؛ فعند ذلك قال لهم ابنوا لى بيتا فى الأرض يعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم : أى الذى هو الخليفة ، فيطوفون حوله كما فعلتم بعرشى فأرضى عنهم ، فبنوا الكعبة .

وفى هذه الرواية اختصار ، بدليل ما قيل : وضع الله تحت العرش البيت المعمور

على أربع أساطين من زبرجد يغشاهن ياقوتة حمراء ، وقال للملائكة : طوفوا بهذا البيت: أى لأرضى عنكم ، ثم قال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله وقدره : أى فعلوا ، وقدره عطف تفسير على مثاله ، فالمراد بالمثال القدر .

وفى لفظ لما قال تعالى للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) و (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) الآية خافوا أن يكون الله تعالى عابها عليهم لاعتراضهم فى علمه ، فطافوا بالعرش سبعا يسترضون ربهم ، ويتضرعون إليه ، فأمرهم أن يبنوا البيت المعمور فى السماء السابعة ، وأن يجعلوا طوافهم به فكان ذلك أهون عليهم من الطواف بالعرش ، ثم أمرهم أن يبنوا فى كل سماء بيتا ، وفى كل أرض بيتا . قال مجاهد : هى أربعة عشر بيتا متقابلة ، لو سقط بيت منها لسقط على مقابله ، والبيت المعمور فى السماء السابعة ، وله حرمة كحرمة مكة فى الأرض ، واسم البيت الذى فى السماء الدنيا بيت العزة .

وفى كلام بعضهم : فى كل سماء بيت تعمره الملائكة بالعبادة كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج فى كل عام . والاعتمار فى كل وقت ، والطواف فى كل أوان ، ولينظر مامعنى بناء الملائكة للبيوت فى السموات . وإذا لم يصح أن الملائكة بنت الكعبة تكون هذه المرة من بناء قريش هى المرة الثالثة ، بناء على أن آول من بناها آدم صلى الله عليه وسلم أى أو ولده شيث ، فقد قال بعضهم : ماتقدم من الأثرين الدالين على أن أول من بناها الملائكة لم يصح واحد منها ، وكانت قبل ذلك : أى وكان محلها قبل بناء آدم ، لها خيمة من ياقوتة حمراء ، نزلت لآدم من الجنة : أى لها بابان من زمرد أخضر شرقى ، وباب غربى من ذهب ، منظومان من در الجنة ؛ فكان آدم يطوف بها ويأنس إليها . وقد حج إليها من الهند ماشيا أربعين حجة ويجوز أن تكون تلك الخيمة هى البيت المعمور وعبر عنها بحمراء لأن سقف البيت المعمور كان ياقوتة حمراء .

قال : وذكر أن آدم لما أهبط إلى الأرض ، كان رجلاه بها ، ورأسه فى السماء .

وفى لفظ : كان رأسه يمسح السحاب فصلع ، فأورث ولده الصلع أى بعض ولده ، فسمع تسبيح الملائكة ودعاءهم ، فاستأنس بذلك ، فهابته الملائكة : أى صارت تنفر منه فشكا إلى الله تعالى ، فنقص إلى ستين ذراعا بالذراع المتعارف . وقيل بذراع آدم ، فلما فقد أصوات الملائكة حزن وشكا إلى الله تعالى ، فقال : يا آدم إنى قد أهبطت بيتا يطاف به : أى تطوف به الملائكة كما يطاف حول عرشى ، ويصلى عنده كما يصلى عند

عرشي : أى كان ذلك أى الطواف بالعرش والصلاة عنده شأن الملائكة أولا ، فلا ينافى ما تقدم أنهم بعد ذلك صاروا يطوفون بالبيت المعمور كما تقدم ، فاخرج إليه : أى طف به وصلّ عنده ، وهذا البيت هو هذه الخيمة التى أنزلت لأجله . وقد علمت أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هى البيت المعمور .

قيل أهبط آدم وطوله ستون ذراعا : أى على الصفة التى خلق عليها ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « خلق الله تعالى آدم على صورته وطوله ستون ذراعا » أى أوجده الله تعالى على الهيئة التى خلقه عليها ، لم ينتقل فى النشأة أحوالا ، بل خلقه كاملا سويا من أول مانفخ فيه الروح ، فالضمير فى صورته يرجع لآدم ، وعلى رجوعه إلى الحق سبحانه وتعالى المراد على صفته : أى حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما .

وقد يخالف هـذا قول ابن خزيمة قولهُ صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » فخرج على سبب ، وهو « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يضرب وجه رجل فقال : لاتضربه على وجهه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » أى صورة هذا الرجل ، فهو ينتقل أطوارا . ولا يخفى أن هـذا خلاف الظاهر ، ومن ثم عبر بقوله أوجده ، وهذا القيل المتقدم من أنه أهبط آدم وطوله ستون ذراعا ، يوافقه ماجاء فى الحديث المرفوع « كان طوله ستين ذراعا فى سبعة أذرع عرضا » ومن ثم قال الحافظ ابن حجر : إنما روى أن آدم لما أهبط كانت رجلاه فى الأرض ، ورأسه فى السماء فحطه الله تعالى إلى ستين ذراعا : أى الذى تقدم ظاهر الخبر الصحيح يخالفه ؛ وهو أنه خلق فى ابتداء الأمر على طول ستين ذراعا وهو الصحيح . وكان آدم أمرد . وفى الصحيحين « فكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم » وقد جاء فى صفة أهل الجنة « جرد مرد على صورة آدم » .

وفى بعض الأخبار أن آدم لما كثر بكاؤه على فراق الجنة نبتت لحيته ، ولم يصح ، ولم تنبت اللحية إلا لولده ، وكان مهبطه بأرض الهند بجبل عال يراه البحريون من مسافة أيام ، وفيه أثر قدم آدم مغموسة فى الحجر ، ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ، ولابد له فى كل يوم من مطر يغسل قدمى آدم ، وذروة هـــذا الجبل أقرب ذرا جبال الأرض إلى السماء ، ولعل هـذا وجه النظر الذى أبداه بعض الحفاظ فى قول بعضهم : إن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال بعض الحفاظ : وفيه نظر .

قيل : ونزل معه من ورق الجنة فبثه هناك فمنه كان أصل الطيب بالهند .

وعن عطاء بن أبي رباح : إن آدم هبط بأرض الهند ومعه أربعة أعواد من الجنة ، فهى هذه التى يتطيب الناس بها . وجاء أنه نزل بنخلة العجوة .

ثم لما أمر آدم بالخروج لتلك الخيمة خرج إليها ومدّ له فى خطوه، قيل كانت خطوته مسيرة ثلاثة أيام . فقد قيل لمجاهد : هل كان آدم يركب ؟ قال : وأى شىء كان يحمله ، فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام .

وفيه أن هـذا يقتضى أن آدم لم يكن يركب البراق ؛ فقول بعضهم : إن الأنبياء كانت تركبه مراده مجموعهم لا جميعهم ، وقيض الله تعالى له ما كان فى الأرض من مخاض أو بحر ، فلم يكن يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمرانا ، وصار بين كل خطوة مفازة حتى انتهى إلى مكة ، فإذا خيمة فى موضع الكعبة : أى الموضع الذى به الكعبة الآن ، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة مجوفة : أى ولها أربعة أركان بيض ، وفيها ثلاثة قناديل من ذهب ، فيها نور يلتهب من نور الجنة ، طولها ما بين السماء والأرض ، كذا فى بعض الروايات ، ولعل وصف الخيمة بما ذكر لا ينافى ما تقدم أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هى البيت المعمور ، ووصف بأنه ياقوتة حمراء ، لأن سقفه كان ياقوتة حمراء ، لأن التعدد بعيد فليتأمل ، ونزل مع تلك الخيمة الركن وهو الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من أرض الجنة ، وكان كرسيا لآدم يجلس عليه : أى ولعل المراد يجلس عليه فى الجنة .

أقول : وهذا السياق يدل على أن آدم أهبط من الجنة إلى أرض الهند ابتداء .

وذكر فى مثير الغرام عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن الله تعالى أهبط آدم إلى موضع الكعبة ، وهو مثل الفلك من شدة رعدته ، ثم قال : يا آدم تخطّ فتخطى فإذا هو بأرض الهند ، فمكث هنالك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى البيت ، فقيل له : حج يا آدم ، فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية ، وما بين ذلك مفازة حتى قدم مكة » الحديث . والسياق المذكور أيضا يدل على أن الخيمة والحجر الأسود نزلا بعد خروج آدم من الجنة .

ويدل لكون الحجر الأسود نزل عليه ما فى مثير الغرام « وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء ، فأخذه آدم فضمه إليه استئناسا به » هذا كلامه .

وفى رواية عنه « أنزل الركن والمقام مع آدم ليلة نزل آدم من الجنة ، فلما أصبح رأى الركن والمقام فعرفهما فضمهما إليه وأنس بهما » فليتأمل الجمع .

وفى رواية أن آدم نزل بتلك الياقوتة : أى فعن كعب : أنزل الله من السماء ياقوتة مجوّفة مع آدم فقال له : ياآدم هذا بيتى أنزلته معك ، يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى : أى على ماتقدم ، ونزل معه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة ؛ ثم وضع البيت : أى تلك الياقوتة عليها . وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما .

وقد يقال فى الجمع : يجوز أن تكون المعية ليست حقيقية ، والمراد أنه نزل بعده قريبا من نزوله ، فلقرب الزمن عبر بالمعية ؛ فلا ينافى ماتقدم من قوله « ياآدم إنى قد أهبطت بيتا يطاف به فاخرج إليه » وجاء «إن آدم نزل من الجنة ومعه الحجر الأسود متأبطه » أى تحت إبطه ، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة ، ولولا أن الله تعالى طمس ضوءه ما استطاع أحد أن ينظر إليه » . وكون آدم نزل بالحجر الأسود متأبطا له يخالف الرواية المتقدمة أنه نزل مع تلك الخيمة التى هى الياقوتة بعد نزوله . وحينئذ يحتاج للجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما .

وأيضا يحتاج إلى الجمع بين ذلك وبين ماروى عن وهب بن منبه رحمه الله أن آدم لما أمره الله تعالى بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة : أى التى هى الحجر الأسود مسح بها دموعه ، فلما نزل إلى الأرض لم يزل يبكى ويستغفر الله ويمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموعه ، ثم لما بنى البيت أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يجعل تلك الجوهرة فى الركن ففعل .

وفى [بهجة الأنوار] أن الحجر الأسود كان فى الابتداء ملكا صالحا . ولما خلق الله تعالى آدم أباح له الجنة كلها إلا الشجرة التى نهاه عنها ، ثم جعل ذلك الملك موكلا على آدم أن لا يأكل من تلك الشجرة ، فلما قدّر الله تعالى أن آدم يأكل من تلك الشجرة غاب عنه ذلك الملك ، فنظر الله تعالى إلى ذلك الملك بالهيبة فصار جوهرا . ألا ترى أنه جاء فى الأحاديث « الحجر الأسود يأتى يوم القيامة وله يد ولسان وأذن وعين » لأنه كان فى الابتداء ملكا .

أقول : ورأيت فى ترجمة كلام الشيخ كمال الدين الاخميمى أنه لما جاور بمكة رأى الحجر الأسود وقد خرج من مكانه وصار له يدان ورجلان ووجه ، ومشى ساعة ثم رجع إلى مكانه .

وقد جاء « أكثروا من استلام هذا الحجر ، فإنكم توشكون أن تفقدوه ؛ بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه ، إن الله عز وجل لايترك شيئا من الجنة فى الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة » أى فقد جاء « ليس فى الأرض من الجنة إلا الحجر الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ، مامسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى » وجاء « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع» وقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة ، والله أعلم .

وجاء « أن آدم أتى ذلك ، أى تلك الخيمة : أى التى هى البيت المعمور على ماتقدم ألف مرة من الهند ماشيا من ذلك ثلثمائة حجة وسبعمائة عمرة ، وأول حجة حجها جاءه جبريل وهو واقف بعرفة فقال له : يا آدم برّ نسكك ، أما إنا قد طفنا بهذا البيت قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة . وفى رواية : لما حج آدم استقبلته الملائكة بالردم : أى ردم بين جمح الذى هو محل المدعى ، فقالوا : بر حجك يا آدم ، قد حججنا هذا البيت قبلك بألف عام.

أقول : وفى تاريخ مكة للأزرقى أن آدم عليه الصلاة والسلام حج على رجليه سبعين حجة ماشيا ، وأن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا : بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام . والمأزمان: موضع بين عرفة والمزدلفة . قال الطبرى : ودون منى أيضا مأزمان ، والله أعلم بالمراد منهما هذا كلامه . وجاء « أنه وجد الملائكة بذى طوى وقالوا له : يا آدم مازلنا ننتظرك ههنا منذ ألفى سنة » وكان بعد ذلك إذا وصل إلى المحل المذكور خلع نعليه ، ويحتاج للجمع بين كون الملائكة استقبلته بالردم ، وكونها لقيته بالمأزمين ، وكونه وجدهم بذى طوى ، وبين كونهم حجوا البيت قبله بألف عام ، وكونهم حجوا قبله بألفى عام ، وبخمسين ألف عام ، وهل الملائكة خلقوا دفعة واحدة أم خلقوا جيلا بعد جيل .

ومما يدل على أنهم جيلا بعد جيل ماجاء من نحو « من قال سبحان الله وبحمده ، خلق الله ملكا له عينان وجناحان وشفتان ولسان يطير مع الملائكة ويستغفر لقائلها إلى يوم القيامة » وما جاء « إن جبريل فى كل غداة يدخل بحر النور فينغمس فيه » الحديث ، لكن فى [سفر السعادة] الحديث المنسوب إلى أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « يأمر الله تعالى جبريل كل غداة أن يدخل بحر النور ينغمس فيه انغماسة ، ثم يخرج فينتفض انتفاضه يخرج منه سبعون ألف قطرة ، يخلق الله عز وجل من كل قطرة منها ملكا » لهذا الحديث طرق كثيرة ولم يصح منها شىء ؟ ولم يثبت فى هذا المعنى حديث هذا لفظه ، والله اعلم .

وعند ذلك قال آدم للملائكة : فما كنتم تقولون حواه ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . قال آدم : زيدوا فيها : ولا حول ولا قوة إلا بالله فكان آدم إذا طاف يقولها ، وكان طوافه سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار : أى ولما فرغ من الطواف صلى ركعتين تجاه باب الكعبة ، ثم أتى الملتزم أى محله فقال : اللهم إنك تعلم سريرتى وعلانيتى فاقبل معذرتى ، وتعلم مافى نفسى وما عندى فاغفر لى ذنبى ، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى » الحديث .

أقول : قول الملائكة قد طفنا بهذا البيت لايحسن أن يعنوا به تلك الخيمة المذكورة المعنية بقوله تعالى لآدم : قد أهبطت بيتا إلى آخر ماتقدم ، أو كونها أهبطت مع آدم ، بل المراد محل ذلك البيت الذى هو الخيمة قبل أن تنزل .

ويجوز أن يكون المراد تلك الخيمة أو نفس تلك الخيمة ، بناء على أنها البيت المعمور ، وأن الملائكة طافوا بها قبل نزولها إلى الأرض كما تقدم . قال : وعن وهب بن منبه : قرأت فى كتاب من كتب الأول : ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من تحت العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر ، ثم يطوف سبعا بالبيت ، ويصلى فى جوفه ركعتين ، ثم يصعد .

أقول : يجوز أن يكون المراد بإحرامه بنية الطواف بالبيت لا لإحرامه بالعمرة بدليل قوله « ثم يطوف سبعا بالبيت » إلى آخره .

ويجوز أن يكون المراد بالبيت فى كلام وهب محل تلك الخيمة مايعم من وجد من الملائكة ومن بعث بعد ذلك . ولا يخفى أن الأول يبعده قوله حتى يستلم الحجر .

وعلى الثانى يكون فيه دلالة على أن الحجر الأسود كان فى تلك الخيمة يبتدأ الطواف بها منه . وجاء عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهما « إن الله عز وجل أوحى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض ، ابن لى بيتا ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بيتى الذى فى السماء » وفى رواية « وطف به واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى » أى على ماتقدم ، وهذا السياق بظاهره يوافق ماتقدم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن هبوط آدم كان من الجنة إلى موضع الكعبة ابتداء ؛ والله أعلم . قال « وجاء أن جبريل عليه الصلاة والسلام بعثه الله تعالى إلى آدم وحواء ؛ فقال لهما : ابنيا » أى قال لهما إن الله تعالى يقول لكما ابنيالى بيتا . فخط لهما جبريل ؛ فجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى

أجابه الماء ونودى من تحته : حسبك يا آدم » وفى رواية « حتى إذا بلغ الأرض السابعة . فقذفت فيها الملائكة الصخر ، مايطيق الصخرة ثلاثون رجلا » اه .

وفيه أنه إن كان أمر آدم ببناء البيت بعد مجيئه إلى تلك الخيمة من الهند ماشيا خالف ظاهر ما تقدم عن عطاء وسعيد بن المسيب « أوحى الله تعالى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض ابن لى بيتا» إذ ظاهره أنه أوحى إليه بذلك وهو فى الجنة ، إلا أن يقال المراد بالأرض فى قوله اهبط إلى الأرض أرض الحرم : أى اذهب إلى أرض الحرم ابن لى بيتا .

ثم لا يخفى أن قوله فقذفت فيه الملائكة الصخر ، يقتضى أن إلقاء الملائكة للصخر كان بعد حفر آدم ، وهو لا يخالف ما تقدم عن كعب . «أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم ، فقال له : يا آدم هذا بيتى أنزلته معك ، ونزل معه الملائكة ، فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت عليها » فيكون إلقاء الملائكة للصخر بعد حفر آدم « فلما تم ذلك الأس جعل ذلك البيت فوق تلك الصخور» ويكون المراد بقوله ونزل معه الملائكة : أى صحبوه من أرض الهند إلى أرض الحرم .

وجاء فى بعض الروايات إن آدم وحواء لما أسساه نزل البيت من السماء من ذهب أحمر وكل به من الملائكة سبعون ألف ملك فوضعوه على أس آدم ، ونزل الركن فوضع موضعه اليوم من البيت فطاف به آدم » أى كما كان يطوف به قبل ذلك ، وبهذا تجتمع الروايات . وحينئذ لا مانع أن ينسب بناء هذا الأساس الذى وضعت الملائكة عليه تلك الخيمة لآدم وأن ينسب للملائكة .

أما نسبته للملائكة فواضح . وأما نسبته لآدم فلأنه السبب فيه ، أو لأنه كان إذا ألقت الملائكة الصخر يضع آدم بعضه على بعض ، وعلى نسبة بناء ذلك الأس للملائكة ولآدم يحتمل القول بأن أول من بنى الكعبة الملائكة . والقول بأن أول من بنى الكعبة آدم فليتأمل.

وقد جاء أن آدم بناه من ابنان جبل بالشام ، ومن طور زيتا جبل من جبال القدس ، ومن طورسينا جبل بين مصر وإيليا .

وفى كلام بعضهم أنه جبل بالشام ، وهو الذى نودى منه موسى عليه الصلاة والسلام ، ومن الجودى وهو جبل بالجزيرة ، ومن حرا حتى استوى على وجه الأرض » .

أقول : وفى رواية بناه من ستة أجبل : من أبى قبيس ومن رضوى ومن أحد(١) » فالمتحصل من الروايتين أنه بناه من ثمانية أجبل ، ولا مانع من ذلك ، واستمر ذلك البيت

---

(١) المذكور فى هذه الرواية ثلاثة أجبل لا ستة ، فلينظر ، اه مصححه .

الذى هو الخيمة إلى زمن نوح عليه الصـــلاة والسلام ، فلما كان الغرق بعث الله تعالى سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور كما فى الـكشاف ، وكان رفعه لئلا يصيبه المـاء النجس ، وبقيت قواعده التى هى الأس . وفى العرائس : ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها فى ستة أشهر لا تستقر على شئ ، حتى أتت الحرم : فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعا .

وقد رفع الله البيت الذى كان يحجه آدم صيانة له من الغرق ، وهو البيت المعمور أى وكون حواء أسست البيت مع آدم يخالف ما جاء أن حواء أهبطت بجدة ، وحرّم الله عليها دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم وإلى شئ من مكة لأجل خطيئتها ، وأنها أرادته أن تدخل مع آدم إلى مكة فقال لهـا : إليك عنى ، قد خرجت من الجنة بسببك فتريدين أن أحرم هذا ، فكان آدم إذا أراد أن يلقاها ليلمّ بها خرج من الحرم كله حتى يلقاها بالحل .

وذكر محمد بن جرير أن الله أهبط آدم على جبل سرنديب بالهند : أى وتقدم مافيه وحواء بحدة بالحاء المهملة . وقيل بالجيم . فجاء آدم فى طلبها فتعارفا بالمحل الذى قيل له بسبب ذلك عرفة ، فاجتمعا بالمحل الذى قيل له بسبب ذلك جمع ، وزلفت إليه فى المحل الذى قيل له بسبب ذلك مزدلفة ، وهذا يدل على أن جمع غير مزدلفة ، وهو خلاف المشهور من أن جمع هو مزدلفة ، إلا أن يقال كل من المحلين من جملة البقعة ، وأطلق كل من الاسمين على جميع تلك البقعة .

وقيل سمى المحل عرفة ، لأن جبريل عليه الصلاة والسلام لمـا علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المناسك وانتهى إلى عرفة وقال له أعرفت مناسكك ؟ قال نعم . فسمى عرفة : أى والمراد مناسكه التى قبل عرفة ، وإلا فعظم المناسك بعد عرفة ، فليتأمل .

وفى الخصائص الصغرى عن رزين أنه روى « أن آدم عليه الصلاة والسلام . قال : إن الله أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أربع كرامات لم يعطنيها : كانت توبتى بمـــكة وأحدهم يتوب فى كل مكان » الحديث ، وهو يدل على أن توبته كانت بسبب طوافه بالبيت . ويذكر أن حواء عاشت بعد آدم سنة .

وجاء «أن آدم لما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالمسير إلى أن يبنى بيت المقدس ، فسار وبناه ونسك فيه » وحينئذ لايشكل قوله صلى الله عليه وسلم وقد قيل له « أى مسجد وضع فى الأرض أولا المسجد الحرام ؛ قيل ثم أىّ ؟ قال بيت المقدس ، قيل : كم كان بينهما ؟ قال أربعون سنة » وحينئذ لا حاجة لجواب الإمام البلقينى إن المراد أن المـــدة

المذكورة بين أرضيهما فى الدحو» أى دحيت أرض المسجد الحرام ، ثم بعد مضى مقدار أربعين سنة دحيت أرض بيت المقدس » .

وفيه أن الإمام البلقينى إنما أجاب بذلك بناء على أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو البانى للمسجد الحرام ، والبانى لمسجد بيت المقدس سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، فإن بينهما كما قيل أكثر من ألف عام . وكذا لا إشكال إذ كان البانى للمسجد الحرام آدم ، والبانى لمسجد بيت المقدس أحد أولاده كما قيل بذلك ، ومن ثم أجاب بعضهم بأن سليمان إنما كان مجددا لبناء بيت المقدس : وأما المؤسس له فسيدنا يعقوب ابن إسحاق بعد بناء جده إبراهيم للمسجد الحرام بالمدة المذكورة ، وأما على أن البانى لهما آدم فلا إشكال . وفى رواية أن أول من بنى الكعبة أى كلها بعد أن رفعت تلك الخيمة بعد موت آدم شيث ولد آدم بناها بالطين والحجارة : أى فهى أولية إضافية ، ثم لما جاء الطوفان انهدم وبقى محله . وقيل إنه استمر ولم يبنه أحد إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ففى رواية «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أراد بناء الكعبة جاء جبريل فضرب بجناحه الأرض ، فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة ثم بناها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على ذلك الأس» ويقال له القواعد: أى كما تقدم ، وهذا الأس كما علمت لآدم أو للملائكة أولهما ، وإنما قيل له أساس إبراهيم وقواعد إبراهيم لأنه بنى على ذلك ولم ينقضه .

ومما يدل للقيل المذكور ما جاء فى بعض الروايات عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت دثر مكان البيت أى بسبب الطوفان ، بدليل ما جاء فى رواية «قد درس مكان البيت بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وكان موضعه أكمة حمراء ، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ومادعا عنده أحد إلا استجيب له » .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « لم يحجه هود ولا صالح عليهما الصلاة والسلام ، لتشاغل هود بقومه عاد ، وتشاغل صالح بقومه ثمود » .

وجاء « إن بين المقام والركن وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا » ، وجاء « إن حول الكعبة لقبور ثلثمائة نبى ، وإن ما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود لقبور سبعين نبيا ، وكل نبى من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم وأتى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت » وجاء « ما بين الركن اليمانى والحجر الأسود روضة من رياض الجنة ، وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل فى تلك البقعة » .

أقول : ويوافق ذلك قول بعضهم : إن إسمعيل دفن حيال الموضع الذى فيه الحجر

الأسود ، لكن جاء « إن قبر إسماعيل فى الحجر » وذكر المحب الطبرى أن البلاطة الخضراء التى بالحجر قبر إسمعيل عليه الصلاة والسلام .

وقد يقال : لامنافاة بين كون هود وصالح لم يحجا البيت ، وبين كونهما دفنا فى تلك البقعة ، لأنه يجوز أن يكونا ماتا قبل وصولهما إلى البيت ، فجيء بهما ودفنا فى تلك البقعة . على أن بعضهم ضعف كونهما لم يحجا : أى ويدل له أنه قد جاء « حجه هود وصالح ومن آمن معهما » وفى بعض الروايات « لم يحجه بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء » ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ما تقدم من أن كل نبى إذا كذبه قومه إلى آخره على تقدير صحتها .

وقد يقال : لايحتاج إلى الجمع إلا أن يثبت أن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه ، على أنه لم يكن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه ، إلا هود وصالح ، وهو يؤيد القول بأنهما لم يحجا ، وتقدم ضعفه . وجاء فى حديث ، راويه متروك « إن نوحا حجت به السفينة ، فوقفت بعرفات ، وباتت بمزدلفة ، وطافت به أى بالحرم » كما تقدم أن السفينة لم تجاوز الحرم ، وهذا لايناسبه قوله « وسعت » لأن السعى بين الصفا والمروة ، إلا أن يراد بالسعى نفس الطواف ، فهو من عطف التفسير .
وفى أنس الجليل ورد حديث شريف « إن السفينة طافت ببيت المقدس أسبوعا ، واستوت على الجودى » أى وجاء « إن نوحا قال لأهل السفينة وهى تطوف بالبيت العتيق ، إنكم فى حرم الله وحول بيته ، لا يمس أحد امرأة ، وجعل بينهم وبين النساء حاجزا » ويذكر أن ولده حاما تعدى ووطىء زوجته ، فدعا عليه بأن يسود الله لون بنيه ، فأجاب الله دعاءه فى أولاده ، فجاء ولده أسود ، وهو أبو السودان .

وقيل فى سبب دعوة نوح وسوادهم غير ذلك . وقد بينت ذلك فى كتابى [إعلام الطراز المنقوش فى فضائل الحبوش] والله أعلم . وقبر آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف فى بيت المقدس : أى بعد نقل يوسف من بحر النيل كما سنذكره .

قال : وقد جاء « إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم : أن ابن لى بيتا ، فقال إبراهيم : أى رب أين أبنيه ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن اتبع السكينة : أى وهى ريح لها وجه كوجه الإنسان : أى وقيل كوجه الهر وجناحان ، ولها لسان تتكلم به : أى وفى الكشاف فى تفسير السكينة التى كانت فى التابوت الذى هو صندوق التوراة ، قيل هو صورة من زبرجد أو ياقوت ، لها رأس كرأس الهر ، وذنب كذنبه » .

وعن علي رضي الله تعالى عنه « كان لها وجه كوجه الإنسان » هذا كلام الكشاف .
وفي رواية « بعث الله ريحا يقال لها الخجوج لها جناحان ، ورأس في صورة حية ، فكشف لإبراهيم وإسمعيل صلى الله عليهما وسلم ماحول البيت من أساس البيت الأول » .

وفي رواية « أرسل الله سحابة فيها رأس ، فقال الرأس : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ، فجعل ينظر إليها ويخط قدرها ، ثم قال الرأس له : قدفعلت قال نعم، فارتفعت » فليتأمل الجمع بين هذه الروايات وبينها وبين ماتقدم أن جبريل ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس إلى آخره . وجاء « إن السكينة جعلت تسير ودليله الصرد » وهو الطائر المعروف : أي وهو طائر فوق العصفور يصيد العصافير وغيرها ، لأن له صفيرا مختلفا يصفر لكل طائر يريد صيده بلغته فيدعوه إلى القرب منه فإذا قرب منه قصمه من ساعته وأكله . ويقال له الصوام ، لأنه ورد أنه أول طائر صام عاشوراء . فعن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنه « رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يدي صرد فقال : هذا أول طير صام عاشوراء » لكن قال الذهبي هو حديث منكر . وقال الحاكم : حديث باطل .

ويذكر أن خالد بن الوليد لما قتل طليحة الكذاب الذي ادعى النبوة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقوى أمره بعد موته صلى الله عليه وسلم قال خالد لبعض أصحابه ممن أسلم : ماكان يقول لكم طليحة من الوحي ؟ فقال : كان يقول : والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام. وقد سمع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام الصرد يصوت فقال : يقول : استغفروا الله يامذنبون .

وفي الكشاف أن ذلك صياح الهدهد ، ولا مانع أن يكون ذلك صياحهما . وسمع طاوسا يصوت فقال : يقول : كما تدين تدان . وسمع هدهدا يصوت فقال : يقول : من لا يرحم لا يرحم .

ويجمع بينه وبين ماتقدم بأنه يجوز أن الهدهد تارة يقول استغفروا الله يامذنبون ، وتارة يقول من لا يرحم لا يرحم . وسمع خطافا يصوت ، فقال : يقول قدموا خيرا تجدوه . وسمع ديكا يصوت فقال : يقول : اذكروا الله ياغافلون . وسمع بلبلا يصوت فقال : يقول : إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة ، فقال : إنها تقول : ليت الخلق لم يخلقوا . وسمع رخمة تصوت فقال : تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه . وقال : الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله . والقطاة تقول : من

صكت سلم . والببغا تقول : ويل لمن الدنيا همه . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . والعقاب يقول : فى البعد عن الناس أنس .

وعن سيدنا سليمان صلوات الله وسلامه عليه : ليس من الطيور أنصح لبنى آدم وأشفق عليهم من البومة ، تقول إذا وقفت عند خربة : أين الذين كانوا يتنعمون بالدنيا ، ويسعون فيها ؟ ويل لبنى آدم ، كيف ينامون وأمامهم الشدائد ؛ تزودوا ، ياغافلون ، وتهيئوا لسفركم .

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأينا طيرا أعمى يضرب بمنقاره على شجرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتدرى ما يقول ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : إنه يقول : اللهم أنت العدل وقد حجبت عنى بصرى وقد جعت ، فأقبلت جرادة فدخلت فى فمه ، ثم ضرب بمنقاره الشجرة ، فقال عليه الصلاة والسلام : أتدرى ما يقول : قلت : لا ، قال إنه يقول : من توكل على الله كفاه » .

ويقال لما قال سليمان للهدهد ، لأعذبنك عذابا شديدا ، قال له الهدهد : اذكر يانبى الله وقوفك بين يدى الله ، فلما سمع سليمان صلوات الله وسلامه عليه ذلك ارتعد فرقا وعفا عنه : أى فإن الهدهد كان دليلا له على الماء ، فإن الهدهد يرى الماء تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة ، فلما فقد سليمان الماء تفقد الهدهد فلم يجده ، فأرسل خلفه العقاب ، فرآه الهدهد مقبلا من جهة اليمن ، فلما رآه الهدهد منقضا عليه قال له بحق من أقدرك على إلا مارحمتنى .

قيل لابن عباس : ياسبحان الله ! الهدهد يرى الماء تحت الأرض ولا يرى الفخ ؟ فقال : إذا وقع القضاء عمى البصر . قيل عنى سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام بالعذاب الشديد الذى يعذب به الهدهد التفرقة بينه وبين إلفه ، وقيل إلزامه خدمة أقرانه ، وقيل صحبة الأضداد وقد قيل : أضيق السجون عشرة الأضداد . وقيل الزوجة العجوز . قال تعالى حكاية عنه (علمنا منطق الطير) .

قال بعضهم : عبر عن أصواتها بالمنطق ؛ لما يتخيل منها من المعانى التى تدرك من النطق ، فسليمان صلوات الله وسلامه عليه مهما سمع من صوت طائر علم بقوته القدسية الغرض الذى أراده ذلك الطائر ، وهذا فى طائر لم يفصح بالعبارة ، وإلا فقد يسمع من بعض الطيور الإفصاح بالعبارة . فنوع من الغربان يفصح بقوله : الله حق .

وعن بعضهم قال : شاهدت غرابا يقرأ سورة السجدة ، وإذا وصل إلى محل السجود سجد وقال : سجد لك سوادى ، وآمن بك فؤادى ، والدرة تنطق بالعبارة الفصيحة .

وقد وقع لى أنى دخلت منزلا لبعض أصحابنا وفيه درة لم أرها ، فإذا هى تقول لى : مرحبا بالشيخ البكرى وتكرر ذلك ، فعجبت من فصاحة عبارتها .

وكان عليه السلام يعرف نطق الحيوان غير الطير ، فقد جاء أن سليمان عليه السلام سمع النملة وقد أحست بصوت جنود سليمان ، تقول للنمل (ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) فعند ذلك أمر سليمان الريح فوقفت حتى دخل النمل مساكنها ، ثم جاء سليمان إلى تلك النملة وقال لها : حذرت النمل ظلمى ، قالت : أما سمعت قولى (وهم لايشعرون) على أنى لم أرد حطم النفوس أى إهلاكها ، إنما أردت حطم القلوب خشية أن يشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح : أى فيمتن .

فقد جاء مرفوعا « آجال البهائم كلها وخشاش الأرض فى التسبيح ، فإذا انقضى تسبيحها ، قبض الله أرواحها » ويروى « مامن صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى » وفى الحديث « الثوب يسبح ، فإذا اتسخ انقطع تسبيحه » وفى رواية « إن النملة قالت له إنما خشيت أن تنظر إلى ماأنعم الله به عليك فتكفر نعم الله عليها ، فقال لها : عظينى ، قالت : هل تدرى لم جعل ملكك فى فص خاتمك ؟ قال لا ، قالت : أعلمك أن الدنيا لاتساوى قطعة من حجر » .

ومن عجيب صنع الله تعالى أن النملة تغتذى بشم الطعام ، لأنها لاجوف لها يكون به الطعام . ويذكر أن هذه النملة التى خاطبت سيدنا سليمان أهدت له نبقة فوضعتها فى كفه .

ويحكى عنها لطيفة لانطيل بذكرها . وفى فتاوى الجلال السيوطى . قال الثعالبى فى زهرة الرياض : لما تولى سليمان عليه الصلاة والسلام الملك جاءه جميع الحيوانات يهنئونه إلا نملة واحدة فجاءت تعزيه ، فعاتبها النمل فى ذلك ، فقالت : كيف أهنيه وقد علمت أن الله تعالى إذا أحب عبدا زوى عنه الدنيا وحبب إليه الآخرة . وقد شغل سليمان بأمر لايدرى ما عاقبته ، فهو بالتعزية أولى من التهنئة .

وجاء فى بعض الأيام شراب من الجنة ، فقيل له : إن شربته لم تمت ، فشاور جنده ، فكل أشار بشربه إلا القنفذ فانه قال له : لاتشربه ، فإن الموت فى عز خير من البقاء فى سجن الدنيا ، قال صدقت ، فأراق الشراب فى البحر .

قال : وصار إبراهيم وإسمعيل صلوات الله وسلامه عليهما يتبعان الصرد حتى وصلا

إلى محل البيت صارت السكينة سحابة ، وقالت : ياإبراهيم خذ قدر ظلى فابن عليه :أى وفى لفظ « لما أمر إبراهيم ببناء البيت ضاق به ذرعا فأرسل إليه السكينة وهى ريح خجوج ملتوية فى هبوبها لها رأس » الحديث فحفر إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام فأبرزا أى الحفر عن أس ثابت فى الأرض . فبنى إبراهيم وإسمعيل يناول الحجارة : أى التى تأتى بها الملائكة ، كما سيأتى حتى ارتفع البناء اه .

أقول : يحتمل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لما أوحى الله إليه بذلك كان فى مكة عند إسمعيل وإنهما كانا بمحل بعيد عن محل البيت . ويحتمل أنهما كانا بغيرها ثم جاءا .

وقد قيل فى قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) الآية : أى قائما مقام الأمة لإنفراده بعبادة الله تعالى فى أرضه ، لأنه لم يمكن على وجه الأرض من يعبدالله سواه ، والله أعلم .

قال : ثم لما ارتفع البناء جاء المقام أى وهو الحجر المعروف ، فقام عليه وهو يبنى وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وصار كلما اوتفع البناء ارتفع به المقام فى الهواء ، فأثر قدم إبراهيم فى ذلك الحجر . وقيل إنما أثر فى صخرة اعتمد عليها وهو قائم حين غسلت زوجة إسمعيل له رأسه ، لأن سارة كانت أخذت عليه عهدا حين استأذنها فى الذهاب إلى مكة لينظر كيف حال إسمعيل وهاجر ، فحلف لها إنه لا ينزل عن دابته : أى التى هى البراق ولا يزيد على السلام واستطلاع الحال ، غيرة من سارّة عليه من هاجر ،فحين اعتمد على الصخرة ألقى الله تعالى فيها أثر قدمه آية ، وفيه كيف يعتمد بقدمه على الصخرة وهو راكب دابته ؟ إلا أن يقال لما مال بشقه اعتمد عليها بإحدى رجليه مع ركوبه ، وهذا يدل على أن الموجود فى المقام أثر قدمه لا قدميه ، ووقوفه عليه فى حال البناء يدل على أن الموجود فيه أثر قدميه فلينظر ، وجعل ارتفاع البيت تسعة أذرع ، قيل وعرضه ثلاثين ذراعا . قال بعضهم : وهو خلاف المعروف ، ولم يجعل له سقفا ولا بناء بمدر ، وإنما رصه رصا وجعل له بابا : أى منفذا لاصقا بالأرض ، غير مرتفع عنها ، ولم ينصب عليه بابا : أى يقفل ، وإنما جعله تبع الحميرى بعد ذلك ، وحفر له بئرا داخله عند بابه : أى على يمين الداخل منه يلقى فيها مايهدى إليه ؛ وكان يقال لها خزانة الكعبة كما تقدم .

ولما أرادأن يجعل حجرا يجعله علما للناس : أى يبتدئون الطواف منه ويختمون به ، ذهب إسمعيل عليه الصلاة والسلام إلى الوادى يطلب حجرا ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام

بالحجر الأسود يتلألأ نورا: أى فكان نوره يضىء إلى منتهى أبواب الحرم من كل ناحية . وفى الكشاف : إنه اسودّ لما لمسته الحيض فى الجاهلية ، وتقدم أنه اسودّ من مسح آدم به دموعه . وجاء « إن خطايا بنى آدم سودته » وأما شدة سواده فبسبب إصابة الحريق له أولا فى زمن قريش ، وثانيا فى زمن عبد الله بن الزبير ، وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض زمن نوح ، بناء على أنه كان موجودا فى تلك الخيمة كما تقدم . وفى رواية : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قال لإسمعيل : يابنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا، قال : ياأبتى إنى كسلان لغب أى تعب ، قال : علىّ بذلك ، فانطلق يأتيه بحجر ، فجاءه جبريل بالحجر من الهند وهو الحجر الذى خرج به آدم من الجنة : أى كما تقدم فوضعه إبراهيم موضعه ، وقيل وضعه جبريل وبنى عليه إبراهيم ، وجاء إسمعيل بحجر من الوادى فوجد إبراهيم قد وضع ذلك الحجر : أى أو بنى عليه فقال : من أين هذا الحجر ؟ من جاءك به ؟ قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : من لا يكلنى إليك ولا إلى حجرك : أى وفى لفظ « جاءنى به من هو أنشط منك » وفى لفظ « إن إسمعيل جاءه بحجر من الجبل ، قال : غير هذا ، فرده مرارا لا يرضى مايأتيه به » وجاء « إن الله تعالى استودع الحجر أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح عليه الصلاة والسلام ، وقال : إذا رأيت خليلى يبنى بيتى فأخرجه له : أى فلما انتهى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمحل الحجر نادى أبو قبيس إبراهيم ، فقال : ياإبراهيم هذا الركن فجاء فحفر عنه فجعله فى البيت » وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه .

أقول : وفى لفظ قال « ياإبراهيم ياخليل الرحمن إن لك عندى وديعة فخذها ،فإذا هو بحجر أبيض من يواقيت الجنة » ومن ثم كان أبو قبيس يسمى فى الجاهلية الأمين لحفظه ما استودع ؛ ويسمى أبا قبيس باسم رجل من جرهم اسمه قبيس هلك فيه. وقيل باسم رجل من مذحج بنى فيه يقال له أبو قبيس . وقيل لأنه اقتبس منه الحجر الأسود فسمى بذلك، ويحتاج إلى الجمع بين ماذكر على تقدير صحته ، وما ذكر فى ترجمة إلياس أحد أجداده صلى الله عليه وسلم أنه أول من وضع الركن : أى الحجر الأسود حين غرق البيت وانهدم زمن نوح ، فكان أول من سقط عليه : أى أول من علم به ، فوضعه فى زاوية البيت فليتأمل ذلك ، والله أعلم : أى وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال عند المقام : أشهد بالله يكررها لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الركن والمقام

ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولولا أن نورهما طمس لأضاء مابين المشرق والمغرب » أى من نورهما ؛ ولعل طمس نور الحجر كان سببه ماتقدم فلا مخالفة .

وجاء « إنهما يقفان يوم القيامة وهما فى العظم مثل أبى قبيس ، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « لولا مامسهما من أهل الشرك ، مامسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى » .

وعن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : لما خلق الله الخلق ، قال لبنى آدم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، فكتب القلم إقرارهم ، ثم ألقم ذلك الكتاب الحجر ، فهذا الاستلام له إنما هو بيعة على إقرارهم الذى كانوا أقروا به . قال رضى الله تعالى عنه : وكان أبى علىّ يقول: إذا استلم الحجر يقول : اللهم أمانتى أديتها ، وميثاقى وفيت به ليشهد لى عندك بالوفاء . وفى كلام السهيلى « إن العهد الذى أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين مسح ظهره أن لايشركوا به شيئا كتبه فى صك وألقمه الحجر الأسود ، ولذلك يقول المستلم اللهم إيمانا بك ، ووفاء بعدك » وقد جاء « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » .

قال الإمام ابن فورك : وكان ذلك سببا لاشتغالى بعلم الكلام ، فإنى لما سمعت ذلك سألت فقهيا كنت أختلف إليه عن معناه فلم يحر جوابا ، فقيل لى : سل عن ذلك فلانا من المتكلمين ، فسألته فأجاب بجواب شاف ،فقلت لابد لى من معرفة هذا العلم ، فاشتغلت به ، وهذا الذى قاله السهيلى يروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فعن سيدنا عمر رضى الله عنه « أنه لما دخل المطاف قام عند الحجر وقال : والله إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ؛ ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ماقبلتك . فقال له علىّ رضى الله تعالى عنه : بلى ياأمير المؤمنين ، هو يضر وينفع . قال: ولم ؟ قلت: ذاك بكتاب الله ، قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قلت : قال الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) الآية . وكتب ذلك فى رق ، وكان هذا الحجر له عينان ولسان ، فقال له افتح فاك فألقمه ذلك الرق ،وجعله فى هذا الموضع ، فقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، فقال عمر رضى الله عنه : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم ياأبا الحسن » .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنى البيت من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودىّ وحراء .

وذكر لنا أن قواعده من حراء التي وضعها آدم مع الملائكة .

أقول : تقدم أن تلك القواعد كانت من جبل لبنان، ومن طور سيناء، ومن طور زيتا، ومن الجودى، ومن حراء، إلا أن يقال يجوز أن يكون معظم ذلك كان من حراء فليتأمل .

وذكر بعضهم أنه كان له ركنان ، وهما اليمانيان : أى لم يجعل له إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا الركنين المذكورين ، فجعلت له قريش حين بنته أربعة أركان .

وذكر الحافظ ابن حجر أن ذا القرنين الأول وهو المذكور فى القرآن فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام وهو إسكندر الرومى، قدم مكة فوجد إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام يبنيان الكعبة فاستفهمهما عن ذلك ، فقالا : نحن عبدان مأموران ، فقال لهما : من يشهد لكما ؟ فقامت خمسة أكبش شهدت : أى قلن نشهد أن إبراهيم وإسمعيل عبدان مأموران بالبناء ، فقال : رضيت وسلمت وقال لهما صدقتما .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمكة وأقبل ذو القرنين : عليهما فلما كان بالأبطح قيل له : فى هذه البلدة إبراهيم خليل الرحمن . فقال ذو القرنين : ماينبغى لى أن أركب فى بلدة فيها إبراهيم خليل الرحمن، فنزل ذوالقرنين ومشى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فسلم عليه إبراهيم واعتنقه ، فكان هو أول من عانق عند السلام .

قال الفاكهى : وأظن أن الأكبش المذكورة : أى التى شهدت أحجارا ، ويحتمل أن تكون غنما .

ووصف ذى القرنين بالأكبر احترازا من ذى القرنين الأصغر وهو الإسكندر اليونانى فإنه كان قريبا من زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، وبين عيسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام أكثر من ألفى سنة وكان كافرا والله أعلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لما فرغ إبراهيم صلى الله عليه وسلم من بناء البيت ، قال : يارب قد فرغت ، قال : أذن فى الناس بالحج، قال : أى رب ومن يبلغ صوتى ؟ قال الله جل ثناؤه : أذن وعلىّ البلاغ ، قال: أى رب كيف أقول؟ قال قل: ياأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم عز وجل، فوقف على المقام وارتفع به حتى كان أطول الجبال ، فنادى وأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه شرقا وغربا ينادى بذلك ثلاث مرات : أى وزويت الأرض له يومئذ سهلها وجبلها وبحرها وبرها

وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعا فقالوا ؟ لبيك اللهم لبيك ، وبدأ بشق اليمن ، وحينئذ يكون أول من أجاب أهل اليمن ، وسيأتى التصريح بذلك فى بعض الروايات ».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان أهل اليمن أكثر إجابة ومن ثم جاء فى الحديث « الإيمان يمان » وقال صلى الله عليه وسلم فى حق أهل اليمن « يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم » .

وروى الطبرانى بإسناده عن على رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب أهل اليمن فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى ».

ومما يؤثر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه . من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقد ذكر فى تفسير قوله تعالى (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) هو نداء إبراهيم على المقام بما ذكر .

وقيل له البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابرة لم يدعه : أى بحيث ينسب إليه جبار من الجبابرة الذين كانوا بمكة مع العمالقة وجرهم .

وقال القاضى تبعا للكشاف : لأنه أعتق من تسلط الجبابرة ، فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى . قال : وأما الحجاج فإنما كان قصده إخراج ابن الزبير عنه لما تحصن به دون التسلط عليه كذا قال .

قال بعضهم : وعن عبد الله بن عمر أنه قال : إنما سميت بكة أى بالموحدة ، لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة ، ولينظر من قصده ليهدمه من الجبابرة غير أبرهة .

ثم رأيت فى المشرف أن ثلاثة غيره قصدوا هدمه : اثنان قاتلتهما خزاعة ومنعتهما ، والثالث كان فى أول زمان قريش ، أراد هدمه حسدا على شرف الذكر لقريش به وأن يبنى عنده بيتا يصرف حجاج العرب إليه ، فلما قارب مكة أظلمت الأرض وأيقن بالهلاك ، فأقلع عن تلك النية ونوى أن يكسو البيت وينحر عنده ، فانجلت الظلمة ففعل ذلك .

وفيه أن هذا الذى حصلت له الظلمة إنما هو تبع الأول ، فإنه لما عمد إلى البيت يريد تخريبه ، أرسلت عليه ريح كتعت منه يديه ورجليه ، وأصابته وقومه ظلمة شديدة . وفى رواية أصابه داء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا : أى يثج ثجا حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه ، فدعا بالأطباء فسألهم عن دائه فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا ، فعند ذلك قال له الحبر : لعلك هممت بشىء فى حق هذا البيت ؟ فقال : نعم ؛ أردت هدمه

فقال له تب إلى الله مما نويت فإنه بيت الله وحرمه ، وأمره بتعظيم حرمته ففعل فبرأ من دائه .

وقيل لأنه أول بيت وضع فى الأرض ، وقيل لأنه أعتق من الغرق بسبب الطوفان فى زمن نوح عليه الصلاة والسلام ، كذا فى الكشاف وغيره . وفيه نظر ظاهر ؛ لما تقدم من دثوره بالطوفان ؛ ولما ذكر فى قصة نوح أنه لما بعث الحمامة من السفينة لتأتيه بخبر الأرض ؛ فوقفت بوادى الحرم . فإذا الماء قد نضب من موضع الكعبة ؛ وكانت طينتها حمراء فاختضبت رجلاها ؛ إلا أن يقال إن معنى أعتق أنه لم يذهب بالمرة ؛ بل بقى أثره.

وفى الخميس عن ابن هشام أن ماء الطوفان لم يصل للكعبة ؛ ولكن قام حولها ؛ وبقيت هى فى هواء السماء : أى بناء على الكعبة هى الخيمة التى كانت على زمن آدم عليه الصلاة والسلام . وتقدم عن الكشاف أنها رفعت إلى السماء الرابعة ؛ وأنها البيت المعمور . وهذا كما علمت يدل على أن المراد بالكعبة الخيمة التى كانت لآدم ؛ وقوله قام حولها يريد أنه لم يعل محل تلك الخيمة ؛ ولعله لاينافيه ماتقدم فى قصة نوح فليتأمل .

وفى رواية : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نادى : ياأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج » وفى لفظ « إن ربكم قد اتخذ بيتا وطلب منكم أن تحجوه فأجيبوا ربكم كرر ذلك ثلاث مرات ، فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه من كان سبق فى علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، فليس حاج يحج إلى أن تقوم الساعة إلا ممن كان أجاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فمن لبى تلبية واحدة حج حجة واحدة ومن لبى مرتين حج حجتين وهكذا » وفى لفظ « لما نادى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فما خلق الله من جبل ولا شجر ولا شىء من المطيعين له إلا أجاب : لبيك اللهم لبيك » .

أقول : لايخفى أنه يحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وسيأتى . ومعلوم أن إجابة غير العقلاء إجابة إجلال وتعظيم ، ولعل المراد بالكتب مطلق الطلب لاخصوص الوجوب ، لأنه لم يفرض الحج على هذه الأمة إلا بعد الهجرة فى السنة السادسة ، وقيل التاسعة ، وقيل العاشرة كما سيأتى . وأما بقية الأمم من بعد إبراهيم فلم أقف على وجوب الحج عليها .

وقد ذكر بعض المتأخرين من أصحابنا أن الصحيح أنه لم يجب الحج إلا على هذه الأمة واستغرب . وفى الخصائص الصغرى : وافترض عليهم أى على هذه الأمة ما افترض

على الأنبياء والرسل وهو الوضوء والغسل من الجنابة والحج والجهاد ، وهو يفيد أنه كان واجبا على الأنبياء والرسل . وفيه أن الأصل أن ما وجب فى حق نبي وجب فى حق أمته إلا أن يقوم الدليل الصحيح على الخصوصية ، وقوله وهو الوضوء سيأتى مافى الوضوء والله أعلم : أى ثم أمر بالمقام فوضعه قبله : أى ملصقا بالبيت على يمين الداخل ، فكان يصلى إليه مستقبل الباب : أى جهته ، وأول من أخره عن ذلك المحل ووضعه موضعه الآن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أى وقد تقدم ذلك عن ابن كثير .

أقول : وقيل إن أول من وضعه موضعه الآن النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة . وسيأتى الجمع بين هذين القولين ويأتى مافيه .

وذكر الطبرى أن محله أولا المنخفض : أى الذى تسميه العامة المعجنة : أى محل عجن الطين للكعبة ، وذلك المنخفض هو محل صلاة جبريل به صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس فى اليومين كما سيأتى .

ونازع فى ذلك العز بن جماعة ، وقال : لو كان ذلك لشهر عليه بالكتابة فى الحفرة . ورد بأن ذلك ليس بلازم والناقل ثقة ، وهو حجة على من لم ينقل .

وذكر ابن حجر الهيتمى أن فى رواية أخرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صعد أباقبيس. وقيل صعد ثبيرا وأذن، وأن أول من أجابه أهل اليمن : أى لما تقدم أنه بدأ بشق اليمن . ولا مانع من تعدد ذلك : أى وقوفه على تلك الأماكن التى هى المقام وأبو قبيس وثبير . ويجوز أن يكون قال فى بعض تلك الأماكن مالم يقله فى غيره مما تقدم ، فلا مخالفة بين تلك الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وجاء إنه لما فرغ من دعائه ذهب به جبريل ، فأراه الصفا والمروة وحدود الحرم ، وأمره أن ينصب عليها الحجارة، ففعل وعلمه المناسك : أى مع إسمعيل عليهما الصلاة والسلام .

فنى العرائس : خرج جبريل بهما يوم التروية إلى منى ، فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، ثم باتا بها حتى أصبحا ، فصلى بهما صلاة الصبح ، ثم غدا بهما إلى عرفة ، فقام بهما هناك حتى زالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم رجع بهما إلى الموقف من عرفة، فوقف بهما على الموقف الذى يقف عليه الناس الآن، فلما غربت الشمس دفع بهما إلى مزدلفة ، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة،

ثم بات بهما حتى طلع الفجر ، ثم صلى بهما صلاة الغداة ، ثم وقف بهما على قزح حتى إذا أسفر أفاض بهما إلى منى ، فأراهما كيف رمى الجمار ، ثم أمرهما بالذبح ، وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلق ، ثم أفاض بهما إلى البيت ، فليتأمل ذلك فإن فيه التصريح بأن إبراهيم وإسمعيل صليا مع جبريل جماعة الصلوات الخمس ، وجمعا تقديما بين الظهر والعصر ، وتأخيرا بين المغرب والعشاء للنسك ، وهو مخالف لقول أئمتنا لم تجمع الصلوات الخمس إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم .

ففى الخصائص الصغرى : وخص بمجموع الصلوات الخمس ، ولم تجتمع لأحد ، وبالعشاء ولم يصلها أحد ، وبالجماعة فى الصلاة إلا أن يدعى أن المراد الجمع على جهة المداومة على ذلك لجواز أن يكون إبراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام لم يداوما على ذلك ، وفيه مالا يخفى .

وفى الوفاء عن وهب قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه الصلاة والسلام « أنا الله ذو بكة ، أهلها جيرتى ، وزوارها وفدى وفى كنفى ، أعمره بأهل السماء وأهل الأرض ، يأتونه أفواجا شعثا غبرا ، يعجون بالتكبير عجا ، ويرجون بالتلبية ترجيجا ، ويثجون بالبكاء ثجا . فمن اعتمره لا يريد غيره فقد زارنى وضافنى ووفد إلىّ ونزل بى ، وحق لى أن أتحفه بكرامتى ، أجعل ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثناءه لنبى من ولدك يقال له إبراهيم ، أرفع له قواعده ، وأقضى على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه حله وحرمه : وأعلمه مشاعره ، ثم يعمره الأمم والقرون حتى ينتهى إلى نبى من ولدك يقال له محمد خاتم النبيين ، وأجعله من سكانه وولاته وحجابه وسقاته ، فمن سأل عنى يومئذ فأنا من الشعث الغبر ، الموفين بنذورهم ، المقبلين على ربهم » .

ولما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (وارزقهم من الثمرات) أى دعا بذلك وهو على ثنية كداء بالمد . فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) كان على الثنية العليا ذكره السهيلى ، وعند ذلك نقل له الطائف من فلسطين من أرض الشام : أى وببركة دعائه عليه الصلاة والسلام يوجد بمكة الفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، ذكره فى الكشاف .

ثم لما فرغ : أى من بناء البيت وحج وطاف بالبيت لقيته الملائكة فى الطواف فسلموا

عليه ، فقال لهم : ما تقولون فى طوافكم ؟ قالوا : كنا نقول قبل أبيك آدم : سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، فأعلمناه بذلك ، فقال : زيدوا ولاحول ولا قوة إلا بالله ، فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : زيدوا فيها العلىّ العظيم . فقالت الملائكة ذلك .

وكان بناء إبراهيم للبيت بعد مضى من عمره مائة سنة ، ثم بناه العماليق، ثم بنته جرهم، وقيل عكسه . وقد يتوقف فى بناء العماليق له .

أما فى الأول فلأن أول من نزل مكة مع هاجر وولدها إسمعيل جرهم ، وإنهم بعد إسمعيل وبعض ولده كانوا ولاة البيت . وأما فى الثانى ، فلأن ولاية البيت كانت لخزاعة بعد جرهم كما تقدم ، وكيف يبنون البيت ولا ولاية لهم عليه ، إلا أن يقال : لامانع أن يكونوا حينئذ أهل ثروة ، بخلاف جرهم وخزاعة .

ثم رأيت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن العماليق كانوا عزّ وكانت لهم أموال كثيرة ، وأن الله سلبهم ذلك لما تظاهروا بالمعاصى ، وسلط عليهم الذر حتى خرجوا من الحرم ، وتفرقوا وهلكوا ، والذر فى النمل كالزنبور فى النحل .

وفى تاريخ مكة للفاكهى أن العماليق قدموا مكة لما قدم وفد عاد للاستسقاء بالبيت . وقيل كانوا بعرفة . ولما أخرج الله تعالى زمزم لإسماعيل بواسطة جبريل. فى [ربيع الأبرار] أن جبريل أخرج ماء زمزم مرتين : مرة لآدم ، ومرة لإسمعيل ، وعند ذلك تحولوا إلى مكة . قال المقريزى : لما علموا بذلك . وقيل كانوا بعد جرهم ، ولايصح ذلك . ثم رأيت المقريزى قال : وفى كتاب أخبار مكة للفاكهى مايدل على تقدم بناء جرهم على بناء العمالقة ، ولا يصح ذلك لاتفاقهم على أن ولاية العمالقة على مكة كانت قبل ولاية جرهم ، وعلى أنه لم يل مكة بعد جرهم إلا خزاعة .

ولا يخفى أن هذا صريح فى أن العمالقة بنته ولا بد ، وأن بناءهم له كان قبل بناء جرهم له ، والعماليق من ولد عملاق أو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام . قيل وهو أول من كتب بالعربية ، وقيل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . ثم بناه قصى جده صلى الله عليه وسلم ، وسقفه بخشب الروم وجريد النخل . ثم بنته قريش كما تقدم . ثم بناه بعد قريش عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما أى ويكنى أبا خبيب ، بضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة ، وكنى بأبى خبيب لأن

خبيبا كان رجلا بالمدينة من النساك ، طويل الصلاة ، قليل الكلام : أى وعبد الله رضى الله تعالى عنه كان مشابها له فى ذلك ، فكنى به .

هذا ، وفى كلام ابن الجوزى أنه كان لعبد الله بن الزبير ولد يقال له خبيب حيث قال خبيب بن عبد الله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط فمات ، لأنه لما حدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا بلغ بنو أبى العاص أربعين رجلا ، وفى رواية ثلاثين رجلا ، وفى رواية : إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا . وفى رواية : إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا اتخذوا عباد الله تعالى خولا : أى عبيدا ، ومال الله دولا ، ودين الله دغلا. وفى رواية بدل دين الله كتاب الله . قال ابن كثير : وهذا الحديث أى ذكر بنى أميـة وذكر الأربعين منقطع . ولما بلغ الوليد ماذكر خبيب كتب لابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو والى المدينة أن يضرب خبيبا هذا مائة سوط ففعل ، ثم بَرّد ماء فى جرة وصبه أى فى يوم شات عليه وحبسه ، فلما اشتد وجعه أخرجه وندم على مافعل . فلما مات وسمع بموته سقط إلى الأرض واسترجع ؛ واستعفى من ولاية المدينة ، فكان عمر بن عبد العزيز إذا قيل له أبشر ، قال : كيف أبشر وخبيب على الطريق أى عائق لى .

وفى دلائل النبوة للبيهقى عن بعضهم قال : كنت عنـد معاوية بن أبى سفيان ومعه ابن عباس على السرير ، فدخل عليه مروان بن الحكم ، فكلمه فى حاجته وقال : اقض حاجتى ياأمير المؤمنين؛ فوالله إن مؤنتى لعظيمة ؛ فإنى أبو عشرة ، وعم عشرة ، وأخو عشرة ، فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أشهدك بالله ياابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا ، وعباد الله تعالى خولا ، وكتاب الله دغلا ؛ فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة ؟ فقال ابن عباس : اللهم نعم » ثم ذكر مروان حاجة فردّ مروان ولده عبد الملك إلى معاوية فكلمه فيها، فلما أدبر عبـد الملك قال معاوية : أنشدك الله ياابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هـذا ؟ فقال : أبو الجبابرة الأربعة ،فقال ابن عباس: اللهم نعم، فإن أربعة من ولده ولوا الخلافة ، فليتأمل هذا فإنه ربما يدل على أن عبد الملك صحابى ، إلا أن يقال ذكره قبل وجوده فهو من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم . وفى كلام ابن كثير : هذا الحديث فيه غرابة ونكارة شديدة .

هذا ، وقد رأيت عن بعض حواشي الكشاف أن أعداء عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما هم الذين كانوا يكنونه بأبي خبيب ، لأن خبيبا كان من أخس أولاده ، ويرده قول بعضهم : يغلب للشرف كالخبيبين لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب .

وذكر ابن الجوزى أيضا فيمن ضرب بالسياط من العلماء سعيد بن المسيب ، ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط ، لأنه بعث ببيعة الوليد إلى المدينة فلم يبايع سعيد ، فكتب أن يضرب مائة سوط ويصب عليه جرة ماء فى يوم شات ويلبس جبة صوف ففعل به ذلك ، أى كما فعل بخبيب .

ثم رأيت فى تاريخ الحافظ ابن كثير لما عهد عبد الملك لولده الوليد فى حياته وانتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع ، فضربه نائب المدينة ستين سوطا ، وألبسه ثيابا من شعر ، وأركبه جملا وطاف به فى المدينة ، ثم أودع السجن ، فلما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يعنف والى المدينة على ذلك ويأمره بإخراجه من الحبس ، هذا كلامه .

وفى كلام البلاذرى ، وكان جابر بن الأسود عاملا لابن الزبير على المدينة وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطا ، إذ لم يبايع لابن الزبير ، هذا كلامه . إلا أن يقال : لامانع أن يكون سعيد فعل به الأمران لأن ولاية ابن الزبير سابقة على ولاية عبد الملك والد الوليد .

ثم رأيت الحافظ ابن كثير صرح بذلك حيث ذكر أن سعيد بن المسيب ضرب بالسياط المذكورة ، وفعل به ماتقدم لما امتنع من المبايعة لابن الزبير ، وفعل به ذلك أيضا لما امتنع من البيعة للوليد .

وفى طبقات الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله تعالى فى ترجمة سعيد بن المسيب : وضربه عبد الملك بن مروان حيث امتنع من مبايعته ، وألبسه المسوح ، ونهى الناس عن مجالسته ، فكان كل من جلس إليه يقول له : قم لاتجالسنى فإنهم قد جلدونى ومنعوا الناس عن مجالستى هذا كلامه . إلا أن يقال ، المراد امتنع من قبول مبايعة عبد الملك لولده الوليد فلا مخالفة ، وإنما امتنع سعيد بن المسيب من المبايعة للوليد ، لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إنه سيكون فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد فهو شر لأمتى من فرعون لقومه » وفى رواية « هو أضر على أمتى من فرعون على قومه » زاد

فى رواية « يسد به ركن من أركان جهنم » وفى لفظ « زاوية من زوايا جهنم » فكان الناس يرون أنه الوليد بن عبد الملك . قال ابن كثير : وهو الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، لاالوليد ابن عبد الملك الذى هو عمه .

وكان سعيد بن المسيب أعبر الناس للرؤيا قال له رجل : رأيت كأنى أبول فى يدى ، فقال : تحتك ذات محرم ، فنظر فإذا بينه وبين امرأته رضاعة . وأخذ سعيد تعبير الرؤيا عن أسماء بنت أبى بكر وهى أخذت ذلك عن والدها أبى بكر رضى الله تعالى عنهما . وعن سعيد أخذ ابن سيرين ذلك .

وعن ابن سيرين . كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يعبر الرؤيا فى زمنه صلى الله عليه وسلم وفى حضرته . وعن الزهرى « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فقصها على أبى بكر . فقال : رأيت كأنى استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف . قال : يارسول الله يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة ، وأعيش بعدك سنتين ونصفا » فكان كما عبر فقد عاش بعده صلى الله عليه وسلم سنتين وسبعة أشهر وقال له « رأيتنى أردفت غنما سودا ثم أردفتها غنما بيضا حتى ماترى السود فيها ، فقال أبو بكر : يارسول الله أما الغنم السود فإن العرب يسلمون ويكثرون ، والغنم البيض الأعاجم يسلمون حتى لاترى العرب فيهم من كثرتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك عبرها الملك سحيرا » .

وسبب بناء عبد الله بن الزبير للكعبة أن يزيد بن معاوية لما وجه الجيش عشرين ألف فارس وسبعة آلاف راجل وأميرهم مسلم بن قتيبة لقتال أهل المدينة ، لما علم أنهم خرجوا عن طاعته : أى وأظهروا شتمه وأعلنوا بأنه ليس له دين ، لأنه اشتهر عنه نكاح المحارم وإدمان شرب الخمر وترك الصلاة وأنه يلعب بالكلاب : أى فقد ذكر بعض ثقات المؤرخين أنه كان له قرد يحضره مجلس شرابه ويطرح له وسادة ويسقيه فضلة كأسه ، واتخذ له أتانا وحشية قد ربضت له وصنع لها سرجا من ذهب يركب عليها ويسابق بها الخيل فى بعض الأيام ، وكان يلبس عليه قباء وقلنسوة من الحرير الأحمر .

وقد استفتى الكيا الهراسى من أكابر أئمتنا معاشر الشافعية ، كان من رءوس تلامذة إمام الحرمين نظير الغزالى عن يزيد هذا هل هو من الصحابة ؟ وهل يجوز لعنه ؟ فأجاب

بأنه ليس من الصحابة لأنه ولد فى أيام عمر بن الخطاب . وللإمام أحمد قولان : أى فى لعنه تلويح وتصريح ، وكذلك الإمام مالك وكذا لأبى حنيفة .

ولنا قول واحد التصريح دون التلويح ، وكيف لايكون كذلك ، وهو اللاعب بالنرد والمصيد بالفهود ومدمن الخمر وشعره فى الخمر معلوم ، هذا كلامه .

وسئل الغزالى هل من صرح بلعن يزيد يكون فاسقا ؟ وهل يجوز الترحم عليه ؟ فأجاب بأن من لعنه يكون فاسقا عاصيا ، لأنه لايجوز لعن المسلم ، ولا يجوز لعن البهائم ، فقد ورد النهى عن ذلك ، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صح إسلامه وما صح أمره بقتل الحسين ولا رضاه بقتله ، وما لم يصح منه ذلك لايجوز أن يظن به ذلك ، فإن إساءة الظن بالمسلم حرام ، وإذا لم يعرف حقيقة الأمر وجب إحسان الظن به ، ومع هذا فالقتل ليس بكفر بل هو معصية . وأما الترحم عليه فهو جائز بل هو مستحب ، لأنه داخل فى المؤمنين فى قولنا فى كل صلاة : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، هذا كلامه . وكان على ما أفتى به الكيا الهراسى من جواز التصريح بلعنه أستاذنا الأعظم الشيخ محمد البكرى تبعا لوالده الأستاذ الشيخ أبى الحسن .

وقد رأيت فى كلام بعض أتباع أستاذنا المذكور فى حق يزيد مالفظه : زاده الله خزيا وضعه ، وفى أسفل سجين وضعه .

وفى كلام ابن الجوزى : أجاز العلماء الورعون لعنه ، وصنف فى إباحة لعنه مصنفا .

وقال السعد التفتازانى : إنى لأشك فى إسلامه ، بل فى إيمانه ، فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه ، وعلى هذا يكون مستثنى من عدم جواز لعن الكافر المعين بالشخص .

ولما خلعوا : أى أهل المدينة بيعة يزيد ولوا عليهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وأخرجوا والى يزيد من المدينة وهو مروان بن الحكم وبنى أمية حتى قال بعضهم : ماخرجنا عليه حتى خفنا أن نرمى بحجارة من السماء ، فكانت وقعة الحرة المشهورة التى كادت تبيد أهل المدينة عن آخرهم ، قتل فيها الجم الكثير من الصحابة والتابعين . وقيل المقتول فيها من الصحابة ثلاثة : منهم عبد الله بن حنظلة ، ونهبت المدينة ، وافتض فيها ألف عذراء : أى ولم تقم الجماعة ولا الأذان فى المسجد النبوى مدة المقاتلة وهى ثلاثة أيام .

وفى كلام بعضهم : ووقع من ذلك الجيش الذى وجهه يزيد للمدينة ، من القتل ، والفساد العظيم ، والسبى ، وإباحة المدينة ، وقتل من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ومن التابعين خلق كثيرون . وكانت عدة المقتولين من قريش والأنصار ثلثمائة وستة رجال ، ومن قراء القرآن نحو سبعمائة نفس .

وفى التنوير لابن دحية : وقتل من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة ، ومن حملة القرآن سبعمائة ، وجالت الخيل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وراثت بين القبر الشريف والمنبر ، واختفت أهـل المدينة حتى دخلت الـكلاب المسجد وبالت على منبره صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض أمير ذلك الجيش من أهل المدينة إلا بأن يبايعوه ليزيد على أنهم خول : أى عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق ، حتى قال له بعض أهل المدينة : البيعة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فضرب عنقه .

وروى البخارى « أن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما لما أرجف أهل المدينة يزيد دعا بنيه ومواليه وقال لهم : إنا بايعنا هذا الرجل على بيعة الله وبيعة رسوله ، وإنه والله لايبلغنى عن أحد منكم أنه خلع يدا من طاعته إلا كان التنصل بينى وبينه ثم لزم بيته » ولزم أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه بيته أيضا ، فدخل عليه جمع من الجيش بيته ، فقالوا له : من أنت أيها الشيخ ؟ فقال : أنا أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قد سمعنا خبرك ، ولنعم ما فعلت حين كففت يدك ولزمت بيتك ، ولـكن هات المال ، فقال : قد أخذه الذين دخلوا قبلـكم علىّ وما عندى شىء ، فقالوا كذبت ونتفوا لحيته .

وأما جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، فخرج فى يوم من تلك الأيام وهو أعمى يمشى فى بعض أزقة المدينة ، وصار يعثر فى القتلى ويقول : تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له قائل من الجيش : من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أخاف المدينة فقد أخاف مابين جنبىّ ، فحمل عليه جماعة من الجيش ليقتلوه ، فأجاره منهم مروان وأدخله بيته » .

قال السهيلى : وقتل فى ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار رضى الله تعالى عنهم ألف وسبعمائة ، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان .

فقد ذكر أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من الجيش وهى ترضع صبيها وقد

أخذ ما وجده عندها ، ثم قال لها ، هات الذهب وإلا قتلتك وقتلت ولدك، فقالت له: ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا من النسوة اللاتى بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الصبى من حجرها وثديها فى فمه وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه فى الأرض ، فما خرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه وصار مثلة فى الناس .

قال السهيلى، وأحسب هذه المرأة جدة للصبى لا أما له ، إذ يبعد فى العادة أن تبايع امرأة وتكون يوم الحرة فى سن من ترضع ، أى ولدا صغيرا لها . ووقعة الحرة هذه من أعلام نبوّته صلى الله عليه وسلم .

فى الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم وقف بهذه الحرة وقال : ليقتلنّ بهذا المكان رجال هم خيار أمتى بعد أصحابى » .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه أنه قال : لقد وجدت قصة هذه الوقعة فى كتاب يهوذ بن يعقوب الذى لم يدخله تبديل ، وأنه يقتل فيها رجال صالحون ، يجيئون يوم القيامة وسلاحهم على عواتقهم ، وهذه الوقعة كانت سنة ثلاث وستين ، ويقال كان يزيد أعذر أهل المدينة قبل هذه الوقعة فيما ذكروه ، وبذل لهم من العطاء أضعاف ما يعطى الناس ، رغبة فى استمالتهم إلى الطاعة ، وتحذيرهم من الخلاف : ولكن يأبى الله إلا ما أراد .

وفى التنوير أن الله ابتلى أمير هذا الجيش الذى هو مسلم بن قتيبة بعد ثلاثة أيام من أخذه البيعة بمرض صار ينبح منه كالكلب إلى أن مات، وولى أمر الجيش بعده الحصين ابن نمير بأمر يزيد ، فإنه وصى مسلم بن قتيبة لما ولاه إمرة الجيش وقال له : إذا أشرفت على الموت أى لأنه كان مريضا بالاستسقاء فولّ أمر الجيش للحصين ، وهذا الذى وقع من يزيد فيه تصديق لقوله صلى الله عليه وسلم « لايزال أمر أمتى قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بنى أمية يقال له يزيد » .

وقد جاء عن سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه : لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرى ، وما يأتى وقت صلاة إلا سمعت الأذان والإقامة من القبر الشريف .

ومما يؤثر عن سعيد بن المسيب: الدنيا نذلة تميل إلى الأنذال، ومن استغنى بالله افتقر إليه الناس .

ومن جملة من خلع يزيد وقتل من الصحابة فى تلك الوقعة مغفل بن سنان الأشجعى رضى الله تعالى عنه . روى علقمة عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يسم لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات ، فقال ابن مسعود : لها مثل مهر نسائها لا وكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام مغفل بن سنان وقال « قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بروع بنت واشق امرأة منا مثل ما قضيت » ففرح ابن مسعود .

وسبب مقاتلة عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما ، لأنه امتنع من المبايعة ليزيد أيضا هو والحسين رضى الله تعالى عنهما لما أرسل إليهما يطلب منهما المبايعة له ، فامتنعا من ذلك وفرّا من المدينة إلى مكة .

ثم لما قتل الحسين رضى الله تعالى عنه : أى لأن الحسين أرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم ليبايعوه ، فأراد الذهاب إليهم فنهاه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وبين له غدرهم ، وقتلهم لأبيه ، وخذلانهم لأخيه الحسن رضى الله تعالى عنه . ونهاه ابن عمر وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، فأبى إلا أن يذهب ، فبكى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقال : واحبيباه . وقال له ابن عمر : أستودعك الله من قتيل . وكان أخوه الحسن قال له : إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ويسلموك فتندم ولات حين مناص ، وقد تذكر ذلك ليلة قتله ، فترحم على أخيه الحسن ، ولم يبق بمكة إلا من حزن على مسيره ، وقدم أمامه إلى الكوفة مسلم بن عقيل ، فبايعه من أهل الكوفة للحسين اثنا عشر ألفا ، وقيل أكثر من ذلك . ولما شارف الكوفة جهز إليه أميرها من جانب يزيد وهو عبد الله بن زياد عشرين ألف مقاتل ، وكان أكثرهم ممن بايع له لأجل السحت العاجل على الخير الآجل ، فلما وصلوا إليه ورأى كثرة الجيش طلب منهم إحدى ثلاث ، إما أن يرجع من حيث جاء ، أو يذهب إلى بعض الثغور ، أو يذهب إلى يزيد يفعل فيه ما أراد ، فأبوا وطلبوا منه نزوله على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد فأبى ، فقاتلوه إلى أن أثخنته الجراحة فسقط إلى الأرض ، فحزوا رأسه وذلك يوم عاشوراء عام إحدى وستين ، ووضع ذلك الرأس بين يدى عبد الله بن زياد ، ولما جاء خبر قتل

الحسين رضى الله تعالى عنه قام ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما فى الناس يعظم قتل الحسين وجعل يظاهر بعيب يزيد ، ويذكر شربه الخمر وغير ذلك ، ويثبط الناس عن بيعته . ويذكر مساوى بنى أمية ، ويطنب فى ذلك . ولما بلغ يزيد ذلك أقسم أن لايؤتى به إلا مغلولا ، فجاء إليه رجل من أهل الشام فى خيل من خيل الشام ، وتكلم مع ابن الزبير وعظم على ابن الزبير الفتنة وقال : لايستحل الحرم بسببك ، فإن يزيد غير تاركك ولا تقوى عليه ، وأقسم أن لا يؤتى بك إلا مغلولا ، وقد عملت لك غلا من فضة وتلبس فوقه الثياب وتبر قسم أمير المؤمنين ، فالصلح خير عاقبة ، وأجمل بك وبه ، فقال له : أنظر فى أمرى ، ثم دخل على أمه أسماء رضى الله تعالى عنها واستشارها فقالت : يابنى عش كريما ومت كريما ولا تمكن بنى أمية من نفسك فتلعب بك ، فامتنع وصار يبايع الناس سرا ، ثم أظهر المبايعة ، فاجتمع عليه أهل الحجاز ولحق به من انهزم من وقعة الحرة ، فلما جاء الجيش إلى مكة حاصر عبد الله وضرب بالمنجنيق ، نصبه على أبى قبيس قيل وعلى الأقر وهم أخشبا مكة فأصاب الكعبة من ناره ماحرق ثيابها وسقفها فإن الكعبة كانت فى زمن قريش مبنية ، مدماك من خشب الساج ، ومدماك من حجارة كما تقدم .

وذكر فى الشرف أن الله تعالى بعث عليهم صاعقة بعد العصر ، فأحرقت المنجنيق ، وأحرقت تحته ثمانية عشر رجلا من أهل الشام ، ثم عملوا منجنيقا آخر فنصبوه على أبى قبيس .

ويذكر أن النار لما أصابت الكعبة أنت بحيث يسمع أنينها كأنين المريض آه آه ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء إنذاره صلى الله عليه وسلم بتحريق الكعبة فعن ميمونة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف أنتم إذا مرج الدين ، فظهرت الرغبة والرهبة ، وحرق البيت العتيق» وفى العرائس : إن أول يوم تكلم الناس فى القدر ذلك اليوم ، فقيل إحراق الكعبة من قدر الله ، وقيل ليس من قدر الله ، والمتكلم بذلك حينئذ قيل أبو معبد الجهنى ، وقيل أبو الأسود الدؤلى ، وقيل غير ذلك .

وقوله أول يوم تكلم الناس فى القدر ، لعل المراد أول يوم اشتهر واستفيض فيه الكلام من الناس فى القدر ، فلا يخالف ما حكى أن شخصا قال لعلىّ رضى الله تعالى عنه وهو بصفين : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا ؟ أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال:

نعم والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، ماوطئنا موطئا ، ولا قطعنا واديا ، ولا علونا شرفا إلا بقضائه وقدره .

والتكلم فى القدر ليس من خصائص هذه الأمة ، فقد تكلمت فيه الأمم قبلها ، . وفى الحديث « ما بعث الله نبيا إلا فى أمته ذرية يشوشون عليه أمر أمته ، ألا وإن الله تعالى قد لعن القدرية على لسان سبعين نبيا » وقد جاء فى ذم القدرية زيادة على ما تقدم منها « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » وجاء « اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية » وجاء « أخاف على أمتى التكذيب بالقدر » .

وإنما كانت القدرية مجوس هذه الأمة ، لأن طائفة من القدرية تقول يأتى الخير من الله والشر من العبد ، وهؤلاء الطائفة أشبه بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من النور والشر من الظلمة وهم المانوية ؛ وإنما كان القدر شعبة من النصرانية ، لأن أكثر القدرية على أنه ليس من أفعال العبد من خير أو شر ناشئا عن إقدار الله تعالى له على ذلك ، بل هو ناشئ عن قدرة العبد واختياره ، فقد أثبتوا لله تعالى شريكا ، كما أن النصارى أثبتوا الشريك لله تعالى ، فهذه الفرقة من القدرية أشبهت النصارى ، فكان القدر شعبة من النصرانية بهذا الاعتبار ، وقد أوضحت ذلك فى تعليقى المسمى بـ [المصباح المنير على الجامع الصغير] وفيه « أخر الكلام على القدر لشرار أمتى فى آخر الزمان » فإن الحق إسناد الفعل إلى الله تعالى إيجادا وللعبد اكتسابا .

وقيل إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما للكعبة أن امرأة بخرتها فطارت شرارة فعلقت بثيابها فحصل ذلك ، ولا مانع من التعدد . وقد وقع أيضا احتراقها بتبخير المرأة فى زمن قريش ، ولا مانع من تعدد ذلك كما تقدم .

وعدّ بعضهم أن من البدع تجمير المسجد وأن مالكا كرهه . وقد روى أن مولى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان يجمر المسجد النبوى إذا جلس عمر رضى الله عنه على المنبر يخطب ، ومع حرق الكعبة حرق قرنا الكبش الذى فدى به إسماعيل فإنهما كانا معلقين بالسقف .

أقول : ولعل تعليقهما فى السقف كان بعد تعليقهما فى الميزاب . فقد ذكر بعضهم جاء الإسلام ورأس الكبش معلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة ، ويدل لتعليقهما فى السقف ما جاء عن صفية بنت شيبة قالت لعثمان بن طلحة « لم دعاك النبى صلى الله عليه وسلم بعد

خروجه من البيت ؟ قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى رأيت قرنى الكبش فى البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل مصليا » .

وذكر الجلال المحلى فى قطعة التفسير أن الكبش المذكور هو الذى قرّبه هابيل جاء به جبريل ، فذبحه السيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكبرا : أى وحينئذ تكون النار التى أنزلت فى زمن هابيل لم تأكله ، بل رفعته إلى السماء ، وحينئذ يكون قول بعضهم : فنزلت النار فأكلته على التسمح ، ويدل لما ذكر الجلال ماجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام « ماكان ذبح إبراهيم ؟ أى مذبوحه ، قال : الذى قرّب ابن آدم » قال بعضهم : وهذا الحديث لم يثبت . قيل ووصف بأنه عظيم ، لأنه رعى فى الجنة أربعين عاما ، وقيل كان الكبش اختراعا اخترعه الله هناك فى ذلك الوقت قال بعضهم : فقد فدى من الموت بصورة الموت وهذا كله بناء على أن الذى قرّبه هابيل كان كبشا . وقيل كان جملا سمينا ، وعليه اقتصر القاضى . فلينظر الجمع على تقدير صحة كل ، وانصدع الحجر من تلك النار من ثلاثة أماكن ، وعند محاصرة الجيش لعبد الله جاء الخبر بموت يزيد .

ويقال إن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أن يعلم الجيش وهم أهل الشام ، فنادى فيهم يا أهل الشام قد أهلك الله طاغيتكم يعنى يزيد ، فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فعل ، ومن أحب أن يرجع إلى شأنه فليفعل ، فانفلّ الجيش ، وبايع عبد الله بن الزبير جماعة بالخلافة ، ودخلوا فى طاعته ظاهرا .

ويقال إن أمير الجيش طلب من ابن الزبير أن يحدثه فخرج من الصفين حتى اختلفت رءوس فرسيهما وجعل فرس أمير الجيش ينفر ويكفها فقال له ابن الزبير : مالك ؟ فقال : إن حمام الحرم تحت رجليها فأكره أن أطأ حمام الحرم ، فقال تفعل هذا ، وأنت تقتل المسلمين فقال له : تأذن لنا أن نطوف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا ، فأذن لهم فطافوا ، وقال له : إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر يعنى الخلافة فارحل معى إلى الشام ، فوالله لايختلف عليك اثنان ، فلم يثق به ابن الزبير وأغلظ عليه القول ، فكرّ راجعا وهو يقول : أعده بالملك وهو يعدنى بالقتل . ومن ثمّ قيل : كان فى ابن الزبير خلال لا تصلح معها الخلافة : منها سوء الخلق ، وكثرة الخلاف . ودخل فى طاعة ابن الزبير جميع أهل البلدان إلا الشام ومصر ، فإن مروان بن الحكم تغلب عليهما بعد موت

معاوية بن يزيد بن معاوية . فإن معاوية هذا مكث فى الخلافة أربعين يوما ، وقيل عشرين يوما بعد أن كان مروان عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق .

وقد كان ابن الزبير لما ولى أخاه نائبا عنه بالمدينة أمره بإجلاء بنى أمية وفيهم مروان وابنه عبد الملك إلى الشام ، فلما أراد مروان أن يبايع ابن الزبير بدمشق ثنى عزمه عن ذلك جماعة ، وقالوا له : أنت شيخ قريش وسيدها ، وقد فعل معكم ابن الزبير ما فعل فأنت أحق بهذا الأمر ، فوافقهم ومكث تسعة أشهر فى الخلافة وهو الرابع من خلفاء بنى أمية . وقام بالأمر بعده ولده عبد الملك ، وهو أول من سمى عبد الملك فى الإسلام ، ثم عهد عبد الملك لأولاده الأربعة من بعده : الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام . وادعى عمرو بن سعيد أن مروان عهد إليه بعد ابنه عبد الملك ، فضاق عبد الملك بذلك ذرعا ؛ واستعجل أمر عمرو بدمشق ، فلم يزل به عبد الملك حتى قتله .

وفى كلام ابن ظفر أن عبد الملك لما خرج لمقاتلة عبد الله بن الزبير خرج معه عمرو بن سعيد ؛ وقد انطوى على دغل نية وفساد طوية وطماعيته فى نقل الخلافة ؛ فلما ساروا عن دمشق أياما تمارض عمرو بن سعيد واستأذن عبد الملك فى العودة إلى دمشق ، فأذن له ، فلما عاد ودخل دمشق صعد المنبر وخطب خطبة نال فيها من عبد الملك ، ودعا الناس إلى خلعه ، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها ؛ وبذل الرغائب ، وبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير ، فأشير على عبد الملك أن يرجع إلى دمشق ويترك ابن الزبير ، لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة ولا وثب له على مملكة ، فهو فى صورة ظالم له ؛ وقصده لعمرو بن سعيد فى صورة مظلوم ؛ لأنه نكث بيعته ، وخان أمانته ، وأفسد رعيته ؛ فرجع إلى دمشق فظفر بعمرو بن سعيد .

ويقال إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه للكعبة أنه جاء سيل فطبقها فكان عبد الله رضى الله تعالى عنه يطوف سباحة : أى ولامانع من وجود الأمرين الحرق والسيل ؛ فلما رأى عبد الله ما وقع فى الكعبة شاور من حضر ومن جملتهم عبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى هدمها ، فهابوا هدمها وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى ولاتهدم ، فقال : لو أن بيت أحدكم أحرق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها .

وقد حدثته خالته عائشة رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال لها « ألم ترى قومك يعنى قريشا حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين عجزت بهم النفقة ، لولا حدثان قومك بالجاهلية — أى قرب عهدهم — بها » أى وفى لفظ « لولا الناس حديثو عهد بالجاهلية » أى قريب عهدهم بها . أى وفى لفظ « لولا الناس حديثو عهد بكفر وليس عندى من النفقة مايقوى على بنائها لهدمتها وجعلت لها خلفا» أى بابا « من خلفها » أى وفى لفظ « لجعلت لها بابا يدخل منه وبابا بحياله يخرج الناس منه » وفى لفظ « وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا ، وألصقت بابها الأرض » أى كما كان عليه فى زمن إبراهيم « ولأدخلت الحجر فيها » أى وفى رواية : «لأدخلت نحو ستة أذرع » وفى رواية « ستة أذرع وشيئا » وفى رواية « وشبرا » وفى رواية « قريبا من سبعة أذرع » فقد اضطربت الروايات فى القدر الذى أخرجته قريش . وفى لفظ « لأدخلت فيها ماأخرج منها » وفى لفظ « لجعلتها على أساس إبراهيم وأزيد » أى بأن أزيد فى الكعبة من الحجر : أى ذلك ماأخرجته قريش خشى صلى الله عليه وسلم أن تنكر قلوبهم هدم بنائهم الذى يعدونه من أكمل شرفهم ، فربما حصل لهم الارتداد عن الإسلام .

وقد ذكر بعضهم أن كل من بنى الكعبة بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يبنها إلا على قواعد إبراهيم ؛ غير أن قريشا ضاقت بهم النفقة : أى الحلال الحديث ، وهذا بناء على أن من بعد إبراهيم وقبل قريش بناها كلها وليس كذلك ، بل الحاصل منهم إنما هو ترميم لها فقوله لم يبنها إلا على قواعد إبراهيم ليس على ظاهره ، بل المراد أنه أبقاها على ذلك .

قال : وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال لعبد الله : دع بناء وأحجارا أسلم عليها المسلمون وبعث عليها النبى صلى الله عليه وسلم : أى فإنه يوشك أن يأتى بعدك من يهدمها فلا يزال يهدم ويبنى ، فيتهاون الناس بحرمتها ولكن ارفعها : أى رمها فقال عبد الله : إنى مستخير ربى ثلاثا ، ثم عازم على أمرى ، فلما مضى الثلاث أجمع أمره على أن ينقضها ، فتحاماها الناس وخشوا أن ينزل بأول الناس يقصدها أمر من السماء ، حتى صعدها رجل فألقى منها حجارة فلم ير الناس أصابه شىء فتابعوه اه .

أى وقيل أول فاعل لذلك عبد الله بن الزبير نفسه رضى الله تعالى عنه وخرج ناس كثير من مكة إلى منى ومنهم ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فأقاموا بها ثلاثا مخافة أن

يصيبهم عذاب شديد بسبب هدمها ، وأمر ابن الزبير جماعة من الحبشة بهدمها رجاء أن يكون فيهم الذى أخبر به صلى الله عليه وسلم أنه يهدمها .

وفيه أن الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه يهدمها ذكر صفته حيث قال « كأنى أنظر إليه أسود أفحج ينقضها حجرا حجرا » وجاء فى وصفه أنه مع كونه أفحج الساقين أزرق العينين ، أفطس الأنف ، كبير البطن ؛ ووصف أيضا « بأنه أصلع » وفى لفظ « أجلح » وهو من ذهب شعر مقدم رأسه ، ووصف « بأنه أصعل » أى صغير الرأس ، «وبأنه أصمع » أى صغير الأذنين « معه أصحابه ينقضونها حجرا حجرا ، ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر » .

أى وقوله « ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر » لعله لم يثبت عند ابن الزبير وكذا تلك الأوصاف ، وهدم الحبشة لها يكون بعد موت عيسى عليه الصلاة والسلام ، ورفع القرآن من الصدور والمصاحف : أى وورد أن أول ما يرفع رؤيته صلى الله عليه وسلم فى المنام والقرآن . وأول نعمة ترفع من الأرض العسل ، وقيل يكون هدمها فى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام .

وجمع بأنه يهدم بعضها فى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام ، فإذا جاءهم الصريخ هربوا فإذا مات عيسى عادوا وكملوا هدمها .

فهدمها عبد الله إلى أن انتهى الهدم إلى القواعد : أى التى هى الأساس . قال وفى رواية : كشف له عن أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام فوجده داخلا فى الحجر ستة أذرع وشيئا ، وأحجار ذلك الأساس كأنها أعناق الإبل ، حجارة حمراء ، آخذ بعضها فى بعض مشبكة كتشبك الأصابع ، وأصاب فيه قبر أم إسمعيل عليه الصلاة والسلام ، وهذا ربما يدل على أنه لم يصب فيه قبر إسمعيل ، وهو يؤيد القول بأن قبره فى حيال الموضع الذى فيه الحجر الأسود ، لا فى الحجر كما ذكره الطبرى ، وأنه تحت البلاطة الخضراء التى بالحجر كما تقدم ، فدعا عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما خمسين رجلا من وجوه الناس وأشرافهم ، وأشهدهم على ذلك الأساس ، وأدخل عبد الله بن المطيع العدوى عتلة كانت بيده فى ركن من أركان البيت فتزعزعت الأركان كلها ، فارتج جوانب البيت ، ورجفت مكة بأسرها رجفة شديدة وطارت منه برقة فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيها ففزعوا اه .

أقول : تقدم فى بناء قريش أنهم أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها ببعض وأن رجلا أدخل عتلته بين حجرين منها فحصل نحو ماذكر .

وقد يقال : لا مخالفة بين كون تلك الأحجار كانت خضراء وبين كونها حمراء ، لأنه يجوز أن تكون حمرة تلك الأحجار ليست صافية ، بل هى قريبة من السواد ، ومن ثم وصفت بأنها زرق كما تقدم والأسود يقال له أخضر ، كما أن الأخضر غير الصافى يقال له أسود ، والصافى يقال له أزرق والله أعلم .

وجعل عبد الله على تلك القواعد ستورا فطاف الناس بتلك الستور حتى بنى عليها ، وارتفع البناء وزاد فى ارتفاعها على ما كانت عليه فى بناء قريش تسعة أذرع ، فكانت سبعا وعشرين ذراعا . زاد بعضهم وربع ذراع ، وبناها على مقتضى ماحدثته به خالته عائشة رضى الله تعالى عنها ، فأدخل فيه الحجر : أى لأنه يجوز أن يكون إدخال الحجر هو الذى سمعه من عائشة فعمل به دون غير ذلك من الروايات المتقدمة الدال على أن الحجر ليس من البيت ، وإنما منه ستة أذرع وشبر أو قريب من سبعة أذرع .

وفيه أن هذا أى قوله فأدخل فيه الحجر هو الموافق لما تقدم من أن قريشا أخرجت منها الحجر ، وهو واضح إن كان وجد الأساس خارجا عن جميع الحجر .

وأما إذا لم يكن خارجا عن جميع الحجر كيف يتعداه ولا يبنى عليه اعتمادا على ماحدثته به خالته عائشة رضى الله تعالى عنها . على أنه سيأتى عن نص حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لها « فإن بدا لقومك من بعد أن يبنوا فهلمى لأريك ماتركوا منه ، فأراها قريبا من ستة أذرع » فليتأمل ، وجعل لها خلفا : أى بابا من خلفها وألصقه بالأس كالمقابل له .

قال : ولما ارتفع البناء إلى مكان الحجر الأسود وكان فى وقت الهدم وجد مصدعا بسبب الحريق كما تقدم ، فشده بالفضة ، ثم جعله فى ديباجة ، وأدخله فى تابوت وأقفل عليه ، وأدخله دار الندوة ، فحين وصل البناء إلى محله أمر ابنه حمزة وشخصا آخر أن يحملاه ويضعاه محله وقال : إذا وضعتماه وفرغتما فكبرا حتى أسمعكما فأخفف صلاتى ، فإنه صلى بالناس بالمسجد اغتناما لشغلهم عن وضعه لما أحس منهم بالتناقض فى ذلك : أى أن كل واحد يريد أن يضعه وخاف الخلاف ، فلما كبر تسامع الناس بذلك ، فغضب جماعة من قريش حيث لم يحضرهم .

وكون الحجر وجد مصدعا بسبب الحريق ، وكون ابن الزبير شـــده كذلك بالفضة لاينافى ماوقع بعد ذلك من أن أبا سعيد كبير القرامطة وهم طائفة ملاحدة ظهروا بالكوفة سنة سبعين ومائتين ، يزعمون أن لاغسل من الجنابة ، وحل الخمر ، وأنه لاصوم فى السنة إلا يوم النيروز والمهرجان ، ويزيدون فى أذانهم ، وأن محمد ابن الحنفية رسول الله وأن الحج والعمرة إلى بيت المقدس وافتتن بهم جماعة من الجهال وأهـل البرارى ، وقويت شوكتهم حتى انقطع الحج من بغداد بسببه وسبب ولده أبى طاهر ، فإن ولده أبا طاهر بنى دارابالكوفة وسماها دار الهجرة ، وكثر فساده ؛ واستيلاؤه على البلاد وقتله المسلمين وتمكنت هيبته من القلوب ، وكثرت أتباعه ، رذهب إليه جيش الخليفة المقتدر بالله السادس عشر من خلفاء بنى العباس غير مامرة وهو يهزمهم .

ثم إن المقتدر سير ركب الحاج إلى مكة فوافاهم أبو طاهر يوم التروية فقتل الحجيج بالمسجد الحرام وفى جوف الكعبة قتلا ذريعا ، وألقى القتلى فى بئر زمزم ، وضرب الحجر الأسود بدبوسه فكسره ، ثم اقتلعه وأخـذه معه ، وقلع باب الكعبة ، ونزع كسوتها وشققها بين أصحابه ، وهـدم قبة زمزم وارتحل عن مكة بعد أن أقام بها أحد عشر يوما ومعه الحجر الأسود ، وبقى عند القرامطة أكثر من عشرين سنة : أى والناس يضعون أيديهم محله للتبرك ، ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا حتى أعيد فى خلافة المطيع ، وهو الرابع والعشرون من خلفاء بنى العباس ، فأعيد الحجر إلى موضعه ، وجعل له طوق فضة شدد زنته ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعون درهما ونصف .

قال بعضهم : تأملت الحجر وهو مقلوع فإذا السواد فى رأسه فقط وسائره أبيض ، وطوله قدر عظم الذراع .

وبعد القرامطة فى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة قام رجل من الملاحدة وضرب الحجر الأسود ثلاث ضربات بدبوس فتشقق وجه الحجر من تلك الضربات ، وتساقطت منه شظيات مثل الأظفار ، وخرج مكسره أسمر يضرب إلى الصفرة محببا مثل حب الخشخاش فجمع بنو شيبة ذلك الفتات وعجنوه بالمسك واللك وحشوه فى تلك الشقوق وطلوه بطلاء من ذلك ، وجعل طول الباب أحد عشر ذراعا والباب الآخر بإزائه كذلك .

فلما فرغ من بنائها خلقها من داخلها وخارجها بالخلوق أى الطيب والزعفران ، وكساها القباطى : أى وهى ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر .

وفى كلام بعضهم أول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير .

وأقول : وبناء عبد الله للكعبة من جملة أعلام النبوة لأنه من الإخبار بالمغيبات . ففى نص حديث عائشة رضى الله تعالى عنها « فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريبا من ستة أذرع » وتقدم أن هذا يرد قول بعضهم : أن ابن الزبير أدخل فى بنائه جميع الحجر .

قال بعضهم : وهذا منه صلى الله عليه وسلم تصريح بالإذن فى أن يفعل ذلك بعده صلى الله عليه وسلم عند القدرة عليه والتمكن منه .

وقد قال المحب الطبرى : وهذا الحديث يعنى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها يدل تصريحا وتلويحا على جواز التغيير فى البيت إذا كان لمصلحة ضرورية أو حاجية أو مستحسنة .

قال الشهاب ابن حجر الهيتمى : ومن الواضح البين أن ماوهى وتشقق منها فى حكم المنهدم أو المشرف على الإنهدام فيجوز إصلاحه ، بل يندب بل يجب هذا كلامه ..

وفى شعبان سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بعد صلاة العصر يوم الخميس لعشرين من الشهر المذكور هدم معظم الكعبة ، سقط به الجدار الشامى بوجهيه ، وانحدر معه فى الجدار الشرقى إلى حد الباب ، ومن الجدار الغربى من الوجهين نحو السدس ، وهدم أكثر بيوت مكة ، وأغرق فى المسجد جملة من الناس خصوصا الأطفال ، فإن الماء ارتفع إلى أن سد الأبواب .

وعند مجيء الخبر بذلك إلى مصر جمع متوليها الوزير محمد باشاه وهو الوزير الأعظم الآن : أى فى سنة ثلاث وأربعين وألف جمعا من العلماء كنت من جملتهم ، ووقعت الإشارة بالمبادرة للعمارة ، وقد جعلت للوزير المذكور فى ذلك رسالة لطيفة وقعت منه موقعا كبيرا ، وأعجب بها كثيرا ، حتى أنه دفعها لمن عبر عنها باللغة التركية ، وأرسل بها لحضرة مولانا السلطان مراد أعز الله أنصاره ، وذكرت فيها أن الحق أن الكعبة لم تبن جميعها إلا ثلاث مرات المرة الأولى : بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام . والثانية : بناء قريش ، وكان بينهما ألفا سنة وسبعمائة سنة وخمس وسبعون سنة . والثالثة : بناء عبد الله بن الزبير : أى وكان بينهما نحو اثنتين وثمانين سنة : أى وأما بناء الملائكة وبناء آدم وبناء شيث لم يصح . وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فإنما كان ترميما . ولم تبن

بعد هدمها جميعها إلا مرتين : مرة زمن قريش ، ومرة زمن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه

وحينئذ يكون ماجاء فى الحديث « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع ، وقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة » معناه قد يهدم مرتين ويرفع فى الهدم الثالث من الدنيا .

وذكر الإمام البلقينى أن كون ابن الزبير أول من كسا الكعبة الديباج أشهر من القول بأن أول من كساها الديباج أم العباس بن عبد المطلب كما سيأتى . وجاز أن يكون عبد الله بن الزبير كساها أولا القباطى ثم كساها الديباج ، والله أعلم . وكان كسوتها : أى فى زمن الجاهلية المسوح والأنطاع ؛ فإن أول من كساها تبع الحميرى ، كساها الأنطاع ثم كساها الثياب الحميرية : أى وفى رواية كساها الوصائل : وهى برود حمر فيها خطوط خضر تعمل باليمن .

وفى كلام الإمام البلقينى : ويروى أن تبعا اليمانى لما كساها الخسف انتفضت فزال ذلك عنها فكساها المسوح والأنطاع فانتفضت ، فزال ذلك عنها ، فكساها الوصائل فقبلتها قال : والوصائل ثياب موصولة من ثياب اليمن .

وفى الكشاف : كان تبع الحميرى مؤمنا ، وكان قومه كافرين ، ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا تبعا : فإنه كان قد أسلم » وعنه عليه الصلاة والسلام « ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى » .

هذا : وقد نقل الشمس الحموى فى كتابه [المناهج الزهية ، والمباهج المرضية] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان نبيا . وقيل أول من كساها عدنان بن أدد ، وكانت قريش تشترك فى كسوة الكعبة حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة سنة وحدى . وجميع قريش سنة : أى وقيل كان يخرج نصف كسوة الكعبة فى كل سنة ، ففعل ذلك إلى أن مات فسمته قريش العدل ، لأنه عدل قريشا وحده فى كسوة الكعبة . ويقال لبنيه بنو العدل ، وكانت كسوتها لاتنزع فكان كلما تجدد كسوة تجعل فوق ؛ واستمر ذلك إلى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ثم كساها النبى صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية .

وفى كلام بعضهم : أول من كسا الكعبة القباطى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكساها أبو بكر وعمر وعثمان القباطى .

وكساها معاوية الديباج والقباطى والحبرات ، فكانت تكسي الديباج يوم عاشوراء والقباطى فى آخر رمضان . والاقتصار على ذلك ربما يفيد أن عطف الحبرات على القباطى من عطف التفسير ، فليتأمل.

وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقباطى ، فكانت تكسى الأحمر يوم التروية ، والقباطى يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان قال بعضهم : وهكذا كانت تكسى فى زمن المتوكل العباسى ، ثم فى زمن الناصر العباسى كسيت السواد من الحرير ، واستمر ذلك إلى الآن فى كل سنة ، وكسوتها من غلة قريتين يقال لهما بيسوس وسنديس من قرى القاهرة ، وقفهما على ذلك الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد بن قلاون فى سنة نيف وخمسين وسبعمائة : أى والآن زادته القرى على هاتين القريتين .

والحاصل أن أول من كساها على الإطلاق تبع الحميرى كما تقدم على الراجح ، وذلك قبل الإسلام بتسعمائة سنة .

قيل وسبب كسوة أم عمه صلى الله عليه وسلم لهـا الديباج أن العباس ضل وهو صبى فنذرت إن وجدته لتكسون الكعبة فوجدته ، فكست الكعبة الديباج : أى وكانت من بيت مملكة .

وقيل أول من كساها الديباج عبد الملك بن مروان : أى وهو المراد بقول ابن إسحاق أول من كساها الديباج الحجاج ؛ لأن الحجاج كان من أمراء عبد الملك .

وقد سئل الإمام البلقينى هل تجوز كسوة الكعبة بالحرير المنسوج بالذهب ، ويجوز إظهارها فى دوران المحمل الشريف ؟ فأجاب بجواز ذلك . قال : لما فيـه من التعظيم لكسوتها الفاخرة التى ترجى بكسوتها الخلع السنية فى الدنيا والآخرة . ويجوز إظهارها فى دوران المحمل الشريف ، فإن فى ذلك المناسبة للحال المنيف ، هذا كلامه .

أى وأول من حلى بابها بالذهب جده صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ، فإنه لما حفر بئر زمزم وجد فيها الأسياف والغزالتين من الذهب ، فضرب الأسياف بابا لهـا ، وجعل فى ذلك الباب الغزالتين ، فكان أول ذهب حليته الكعبة على ما تقدم .

وأول من ذهب الكعبة فى الإسلام عبد الملك بن مروان . وقيل عبد الله بن الزبير جعل على أساطينها صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من الذهب ، وجعل الوليد بن عبد الملك الذهب على الميزاب .

يقال إنه أرسل لعامله على مكة ستة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب الكعبة وعلى الميزاب وعلى الأساطين التى داخلها وعلى أركانها من داخل .

وذكر أن الأمين بن هرون الرشيد أرسل إلى عامله بمكة بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على بابى الكعبة ، فقطع ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها ذلك ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب والعتب من الذهب وإن أمّ المقتدر الخليفة العباسى أمرت غلامها لؤلؤا أن يلبس جميع أسطوانات البيت ذهبا ففعل .

وقال عبد الله بن الزبير لما فرغ من بنائها : من كان لى عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم ، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل ، فإن لم يقدر فشاة ، ومن لم يقدر فليتصدق بما تيسر وأخرج مائة بدنة ، فلما طاف استلم الأركان الأربعة جميعا ، فلم تزل الكعبة على بناء عبدالله بن الزبير تستلم أركانها الأربعة : أى لأنها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويدخل إليها من باب ويخرج من باب ، حتى قتل : أى قتله شخص من جيش الحجاج بحجر رماه به فوقع بين عينيه فقتل وهو بالمسجد ، لأن الحجاج كان أميرا على الجيش الذى أرسله عبد الملك بن مروان لقتاله .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : أن اهدم ما زاده ابن الزبير فيها ، أى يهدم البناء الذى جعله على آخر الزيادة التى أدخلها فى الكعبة ، وكانت قريش أخرجتها بدليل قوله وردها إلى ما كانت عليه ، وسد الباب الذى فتح : أى وأن يرفع الباب الأصلى إلى ما كان عليه زمن قريش ، واترك سائرها : أى لأنه اعتقد أن ابن الزبير فعل ذلك من تلقاء نفسه : فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بأن عبد الله بن الزبير وضع البناء على أسّ قد نظر إليه العدول من أهل مكة : أى وهم خمسون رجلا من وجوه الناس وأشرافهم كما تقدم . فكتب إليه عبد الملك : لسنا من تخبيط ابن الزبير فى شئ ، فنقض الحجاج ما أدخل من الحجر وسد الباب الثانى ، أى الذى فى ظهر الكعبة عند الركن اليمانى ، ونقص من الباب الأول خمسة أذرع : أى ورفعه إلى ما كان عليه فى زمن قريش ، فبنى تحته أربعة أذرع وشبرا ، وبنى داخلها الدرجة الموجودة اليوم .

وفى لفظ أن الحجاج لما ظفر بابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ماليس فيها وأحدث فيها بابا آخر ، واستأذن فى ردّ ذلك على ما كانت عليه فى الجاهلية . فكتب إليه عبد الملك أن يسد بابها الغربى ويهدم ما زاد فيها من الحجر ، ففعل ذلك الحجاج ، فسائرها قبل وقوع هذا الهدم بالسيل الواقع فى سنة تسع وثلاثين بعد الألف ، وبنيانه على بنيان ابن الزبير إلا الحجاب الذى يلى الحجر ، فإنه من بنيان الحجاج : أى والبناء الذى تحت العتبة وهو أربعة أذرع وشبر ؛ فإن باب الكعبة كان على عهد العماليق وجرهم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لاصقا بالأرض حتى رفعته قريش كما تقدم ، وما سد به الباب الغربى والردم كان بالحجارة التى كانت داخل أرض الكعبة ، أى التى وضعها عبد الله بن الزبير : أى ولعله إنما وضع فى ذلك المحل الحجارة التى تصلح للبناء ؛ فلا ينافى ما أخبرنى به بعض الثقات أن بعض بيوت مكة كان فيها بعض الحجارة التى أخرجت من الكعبة زمن عبد الله بن الزبير .

ويقال إن ذلك البيت الذى كان فيه تلك الحجارة كان بيتا لعبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه ، وبناء الحجاج كان فى السنة التى قتل فيها عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه وهى سنة ثلاث وسبعين .

قيل ولما دخل عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه وهو محاصر ، حاصره الحجاج خمسة أشهر وقيل سبعة أشهر وسبع عشرة ليلة على أمه أسماء رضى الله تعالى عنهما قبل قتله بعشرة أيام وهى شاكية : أى مريضة فقال لها : كيف تجدينك يا أمه ؟ قالت : ما أجدنى إلا شاكية ، فقال لها : إن فى الموت لراحة فقالت : لعلك تبغيه لى ما أحب أن أموت حتى يأتى على أحد طرفيك : إما قتلت ، وإما ظفرت بعدوك فقرت عينى . ولما كان اليوم الذى قتل فيه دخل عليها فى المسجد ، فقالت له : يا بنىّ لاتقبلنّ منهم خطة تخاف فيها على نفسك ، الذى تخافه القتل ، فوالله لضربة بالسيف فى عزّ خير من ضربة سوط فى ذل .

ويقال إن الناس لازالوا يتنقلون عن ابن الزبير إلى الحجاج لطلب الأمان وهو يؤمنهم ، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف حتى كان من جملة من خرج إليه حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير وأخذ لأنفسهما أمانا من الحجاج فأمنهما .

ودخل عبد الله على أمه فشكا إليها خذلان الناس له وخروجهم إلى الحجاج حتى

أولاده وأهله ، وأنه لم يبق معه إلا اليسير ، والقوم يعطوننى ما شئت من الدنيا ،فما رأيك؟ فقالت : يابنى أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل أصحابك عليه ، ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك كم خلودك فى الدنيا ، فدنا منها وقبل رأسها وقال : والله ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته .

وبعد أن قتل وصلب على الجذع فوق الثنية ومضت ثلاثة أيام جاءت أمه أسماء رضى الله تعالى عنها تقاد ، لأن بصرها كان قد كف حتى وقفت عليه ، فدعت له طويلا ولم يقطر من عينها دمعة ، وقالت للحجاج : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ، فقال لها الحجاج المنافق : رأيت كيف نصر الله الحق وأظهر أن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وقد قال تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم .

وفى كلام سبط ابن الجوزى أن ابن الزبير لما قال لعثمان رضى الله تعالى عنه وهو محاصر إن عندى نجائب أعددتها لك فهل لك أن تنجو إلى مكة فإنهم لايستحلونك بها ، قال له عثمان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يلحد رجل فى الحرم من قريش أو بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون أنا » .

وفى رواية قال له ، لا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله عليه مثل نصف أوزار الناس » هذا كلامه .

وعندى أن المراد بعبد الله الحجاج لا ابن الزبير . ولا مانع أن يكون الحجاج من قريش على أن الذى فى الصواعق لابن حجر الهيتمى رحمه الله تعالى أن القائل لعثمان ذلك المغيرة بن شعبة .

ولما سمعت سيدتنا أسماء رضى الله تعالى عنها الحجاج يقول فى ولدها المنافق ، قالت له : كذبت ، والله ما كان منافقا ، ولكنه كان صوّاما قوّاما برا كان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة ، وسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحنكه بيده ، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحا به ؛ كان عاملا بكتاب الله ، محافظا لحرم الله ، يبغض أن يعصى الله عز وجل ، قال : انصرفى فإنك عجوز قد خرفت ، قالت : والله ما خرفت ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير »

أما الكذاب فقد رأيناه تعنى المختار بن أبي عبيد الثقفي والى العراق ، فإنه لما قتل الحسن رضى الله تعالى عنه اتفق مع طائفة من الشيعة ممن كان خذل الحسين ، ولما قتل ندموا على ذلك ، فوافقوا المختار على مقاتلة من قتل الحسين من أهل الكوفة ، فتوجهوا إليه وقتلوا جميع من قاتل الحسين وملكوا الكوفة وشكر الناس للمختار ذلك ، ثم قالت : وأما المبير فأنت المبير .

ولما بلغ عبد الملك ماقاله الحجاج لأسماء كتب إليه يلومه على ذلك: أى ومن ثم أرسل إليها الحجاج ، فأبت أن تأتيه ، فأعاد إليها الرسول وقال : إما أن تأتيني أو لأبعثنّ إليك من يسحبك بقرونك ، فأبت وقالت : والله لا آتيك حتى تبعث إلىّ من يسحبني بقروني فعند ذلك أخذ نعليه ومشى حتى دخل عليها، فقال : يا أمه إن أمير المؤمنين أوصاني بك، فهل لك من حاجة ؟ فقالت : لست لك بأمّ ولكنى أم المصلوب على رأس الثنية ، ومالى من حاجة ، ولكن انتظر حتى أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت ، فقال الحجاج : مبير للمنافقين . ومن كذب المختار أنه ادعى النبوّة وأنه يأتيه الوحي ويسر ذلك لأحبابه .

وفى دلائل النبوة للبيهقي عن بعضهم قال : كنت أقوم بالسيف على رأس المختار ابن أبي عبيد ، فسمعته يوما يقول : قام جبريل عن هذه النمرقة ، وفى رواية من على هذا الكرسي ، فأردت أن أضرب عنقه ، فتذكرت حديثا حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء الغدر يوم القيامة » فكففت عنه ، ولعل هذا مستند ما نقل عن كتاب الإملاء لإمامنا الشافعي رضى الله عنه من القول بأن المسلم يقتل بالمستأمن .

وقد كتب المختار للأحنف بن قيس وجماعته : وقد بلغني أنكم تسمونى الكذاب وقد كذب الأنبياء من قبلي ولست بخير منهم .

وقد كان يقع منه أمور تشبه الكهانة ، منها أنه لما جهز جيشا لقتال عبيد الله بن زياد المجهز للجيش لمقاتلة الحسين رضى الله تعالى عنه كما تقدم قال لأصحابه فى غد يأتى إليكم خبر النفير . وقتل ابن زياد فكان كما أخبر ، وجيء برأس ابن زياد وألقيت بين يدى المختار وكان قتله يوم عاشوراء اليوم الذى قتل فيه الحسين . ثم قتل المختار ، وكان قتل المختار على

يد مصعب بن الزبير ، جيء برأس المختار بين يدى مصعب لما ولى العراق من جانب أخيه لأبيه عبد الله بن الزبير .

ومما يؤثر عن مصعب : العجب من ابن آدم كيف يتكبر وقد جرى فى مجرى البول مرتين ، ثم قتل مصعب وقطعت رأسه ووضعت بين يدى عبد الملك بن مروان .

وعن بعضهم أنه حدّث عبد الملك فقال له : يا أمير المؤمنين دخلت القصر قصر الإمارة بالكوفة فإذا رأس الحسين على ترس بين يدى عبيد الله بن زياد وعبيد الله بن زياد على السرير . ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدى المختار والمختار على السرير . ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس المختار بين يدى مصعب بن الزبير ومصعب بن الزبير على السرير . ثم دخلت بعد ذلك بحين فرأيت رأس مصعب بن الزبير بين يديك وأنت على السرير ، فقال عبد الملك لا أراك الله الخامسة ثم أمر بهدم ذلك القصر .

وعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه أن أبا الحجاج لما دخل بأم الحجاج واقعها ، فنام فرأى قائلا يقول له فى المنام : ما أسرع ما أنجبت بالمبير .

وفى كلام سبط بن الجوزى أن أم الحجاج كانت قبل أبيه مع المغيرة بن شعبة فطلقها بسبب أنه دخل عليها يوما فوجدها تتخلل حين انقلبت من صلاة الصبح ، فقال لها : إن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لقذرة ، وإن كان من طعام اليوم إنك لنهمة ، كنت فبنت ؛ قالت : والله ما فرحنا إذ كنا ، ولا أسفنا إذ بنا ، ولا هو شيء مما ظننت ، ولكنى استكت فأردت أن أتخلل من السواك ، فندم المغيرة على طلاقها ، فخرج فلقى يوسف بن أبى عقيل والد الحجاج ، فقال له : هل لك إلى شيء أدعوك إليه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : إنى نزلت عن سيدة نساء ثقيف وهى الفارعة ، فتزوجها تنجب لك ، فتزوجها فولدت له الحجاج .

وفى حياة الحيوان إنها كانت قبل أبى الحجاج عند أميـــة بن أبى الصلت ، هذا كلامه .

وقد يقال لا مانع أنها تزوجت الثلاثة وإن تزوجها لأمية كان قبل المغيرة ، وكونها سيدة نساء ثقيف يبعد القول بأنها المتمنية التى مر بها سيـــدنا عمر رضى الله تعالى عنه وهى تنشد :

* هل من سبيل إلى خمر فأشربها *

الأبيات وأنه كان يعير بها فيقال له ابن المتمنية .

وفى مدة صلب عبد الله بن الزبير صارت أمه تقول : اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته . وذهب أخوه عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان يسأل فى إنزاله عن الخشبة فأجابه وأنزله ، قال غاسله : كنا لا نتناول عضوا من أعضائه إلا جاء معنا ، فكنا نغسل العضو ونضعه فى أكفانه ، وقامت فصلت عليه أمه وماتت بعده بجمعة ، ذكر ذلك فى الاستيعاب ، وقيل بعده بمائة يوم . قال الحافظ ابن كثير وهو المشهور . وبلغت من العمر مائة سنة ، ولم يسقط لها سن ؛ ولم ينكر لها عقل . وقتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلا ، منهم من سال دمه فى جوف الكعبة . وكان من جملة من قتل عبد الله ابن صفوان بن أمية الجمحى . قتل يوم قتل ابن الزبير وقطع رأسه ، وبعث الحجاج برأسه ورأس ابن الزبير إلى المدينة فنصبوهما وصاروا يقربون رأس عبد الله بن صفوان إلى رأس ابن الزبير كأنه يساره يلعبون بذلك ، ثم بعثوا بهما إلى عبد الملك بن مروان .

ولما وضعت رأس عبد الله بن الزبير بين يدى عبد الملك سجد وقال : والله كان أحب الناس إلى وأشدهم إلى إلفا ومودة ، ولكن الملك عقيم : أى فإن الرجل يقتل ابنه أو أخاه على الملك فإذا فعل ذلك انقطعت بينهما الرحم ، وسيأتى مدحة عبد الملك لعبد الله بن الزبير ، وتوبيخ أمير الجيش الذى أرسله يزيد لمقاتلته .

وقد كان ابن الزبير قال لعبد الله بن صفوان : إنى قد أقلتك بيعتى ، فاذهب حيث شئت ، فقال : إنما أقاتل عن دينى ، وكان سيدا شريفاً مطاعاً حليما كريماً قتل وهو متعلق بأستار الكعبة . وحينئذ يشكل كونه حرما آمنا .

ومما يدل لما تقدم من أن عبد الله بن الزبير كان عنده سوء خلق ، ما حكى أنه جاء إليه شخص فقال له : إن الناس على باب عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلبون العلم وإن الناس على باب أخيه عبيد الله يطلبون الطعام ، فأحدهما يفقه الناس ، والآخر يطعم الناس ، فما أبقيا لك مكرمة ، فدعا شخصا وقال له : انطلق إلى ابنى العباس رضى الله تعالى عنهم وقل لهما : يقول لكما أمير المؤمنين اخرجا عنى وإلا فعلت وفعلت ، فخرجا إلى الطائف : أى وقيل ما خرج عبد الله من مكة إلى الطائف إلا لأن الله تعالى يقول : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

فقد قال الشيخ محي الدين بن العربى : اعلم أن الله تعالى قد عفا عن جميع الخواطر التى لا تستقر عندنا إلا بمكة ، لأن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ فيه من يرد فيه بالحاد بظلم ، وكان هذا سبب سكنى عبد الله بن عباس بالطائف احتياطا لنفسه ، لأنه ليس فى قدرة الإنسان أن يدفع عن قلبه الخواطر .

قال بعضهم : كان يقال من أراد الفقه والجمال والسخاء فليأت دار العباس ، الجمال للفضل ، والسخاء لعبيد الله ، والفقه لعبد الله .

قال : ولما حج عبد الملك : أى وذلك فى سنة خمس وسبعين قال له الحارث : أنا أشهد لابن الزبير بالحديث الذى سمعه من خالته عائشة رضى الله تعالى عنها قال : أنت سمعته منها ؟ قال نعم ، فجعل ينكت ، بالمثناة فوق ، بقضيب كان فى يده الأرض ساعة ، ثم قال : وددت أنى كنت تركته يعنى ابن الزبير وما تحمل .

وفى رواية أن عبد الملك كتب إلى الحجاج وددت أنك تركت ابن الزبير وما تحمل وهذا هو الموافق لما فى تاريخ الأزرقى أن الحرث وفد على عبد الملك بن مروان فى خلافته فقال له عبد الملك : ما أظن أبا خبيب يعنى ابن الزبير سمع من عائشة رضى الله تعالى عنها ماكان يزعم أنه سمع منها فى بناء الكعبة . قال الحرث : أنا سمعته منها ، قال عبد الملك : أنت سمعته منها ؟ الحديث وكون عائشة حدثت ابن الزبير بما ذكر لاينافى ما فى تاريخ ابن كثير عن بعضهم .

قال : سمعت ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما يقول : حدثتنى أمى أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة « لولا قرب عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام » الحديث ، وفى رواية «أن عائشة رضى الله تعالى عنها نذرت إن فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تصلى فى البيت ركعتين ، فلما فتحت مكة ، أى وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فسألت النبى صلى الله عليه وسلم أن يفتح لها باب الكعبة ليلا ، فجاء عثمان ابن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله إنها لم تفتح ليلا قط ، قال فلا تفتحها ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وأدخلها الحجر وقال : صلى ههنا ، فإن الحطيم » أى الحجر « من البيت إلا أن قومك قصرت بهم النفقة » أى الحلال « فأخرجوه من البيت ، ولولا حدثان قومك بالجاهلية لنقضت بناء الكعبة ،

وأظهرت قواعد الخليل ، وأدخلت الحطيم فى البيت وألصقت العتبة على الأرض ، ولئن عشت إلى قابل لأفعلن ذلك » ولم يعش عليه الصلاة والسلام ولم تتفرغ الخلفاء لذلك .

وبما ذكر يعلم ما فى قول الأصل فهدمها : أى عبد الملك وبناها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد علمت أن الحجاج لم يبن إلا الحجاب الذى يليه الحجر ، والبناء الذى تحت العتبة والدرجة التى فى باطنها .

وأما التراب الذى جعل فى باطنها ، فيحتمل أن يكون هو التراب الذى أخرجه عبد الله بن الزبير استمر باقيا فأعاده الحجاج ، ويحتمل أنه غيره ، ولم أقف على بيان ذلك فى كلام أحد .

والشاذروان الذى أخرجه عبد الله بن الزبير من عرض الأساس الذى بنته قريش لأجل مصلحة استمساك البناء وثباته .

ومن العجب ما حدث به بعضهم قال : كنت أميرا على الجيش الذى بعث به يزيد ابن معاوية إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فدخلت مسجد المدينة ، فجلست بجانب عبد الملك بن مروان ، فقال لى عبد الملك : أنت أمير هذا الجيش ؟ قلت نعم ، قال ثكلتك أمك ؛ أتدرى إلى من تسير ؟ تسير إلى أول مولود ولد فى الإسلام : أى بالمدينة من أولاد المهاجرين ، وإلى ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى ابن ذات النطاقين يعنى أسماء ، وإلى من حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أما والله إن جئته نهارا وجدته صائما ، وإن جئته ليلا وجدته قائما ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله فى النار جميعا ، فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه .

وذكر بعضهم أن عبد الملك بن مروان لما رأى جيش يزيد متوجها إلى مكة قال : أعوذ بالله أيبعث الجيش إلى حرم الله ، فضرب منكبه شخص كان يهوديا وأسلم وكان يقرأ الكتب وقال له : جيشك إليه أعظم .

ويقال إن هذا اليهودى مرّ على دار مروان والد عبد الملك هذا ، فقال : ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار : أى لأن مروان كان سببا لقتل عثمان ، وعبد الملك ابنه كان سببا لقتل عبد الله بن الزبير ، ووقع من الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأمور الفظيعة .

وسبب ولاية الحجاج على الجيش أنه قال لعبد الملك بن مروان : رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فولنى قتاله فولاه ، فأرسله فى جيش كثيف من أهل الشام ، فحصر ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق . ولما رمى به أرعدت السماء وأبرقت فخاف أهل الشام ، فصاح الحجاج : هذه صواعق تهامة وأنا ابنها ، ثم قام ورمى المنجنيق بنفسه فزاد ذلك ، ولم تزل صاعقة تتبعها أخرى حتى قتلت اثنى عشر رجلا فخاف أهل الشام زيادة .

قال بعضهم : ولا زال الحجاج يحضهم على الرمى بالمنجنيق ، ولم تزل الكعبة ترمى بالمنجنيق حتى هدمت وحرقت أستارها حتى صارت كالفحم .

أى وفيه أنه لو كانت هدمت أو حرقت لأعيد بناؤها أو أصلحت بالترميم ، ولو وقع ذلك لنقل ، لأنه مما تتوفر الدواعى على نقله ، ولعل هذا اشتبه على بعض الرواة ؛ ظن أن الذى وقع من جيش يزيد واقع من الحجاج .

فإن قيل هلا أهلك الله من نصب المنجنيق على الكعبة كما أهلك أبرهة ؟ قلنا لأن من نصب المنجنيق لم يرد هدم الكعبة ، بخلاف أبرهة كما تقدم . وفيه أنه قد يشكل كونه حرما آمنا .

وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال حين وقع بينه وبين ابن الزبير : أى وأمره بأن يخرج إلى الطائف ويهدده على ما تقدم ، قلت أبوه الزبير ، وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وجده أبوبكر ، وجدته صفية . وفى رواية عنه أنه قال : أما أبوه فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الزبير ، وأما جده فصاحب الغار يريد أبا بكر ، وأما أمه فذات النطاقين يريد أسماء ، وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة ، وأما عمته فزوج النبى صلى الله عليه وسلم يريد خديجة ، وأما عمة النبى صلى الله عليه وسلم فجدته يريد صفية ، ثم عفيف فى الإسلام ، وقارئ للقرآن .

ولما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فجمع الحجاج الناس وخطبهم وقال فى خطبته : ألا إن ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة إلا أنه نازع الحق أهله ، إن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة اذكروا الله يذكركم .

ومن أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ماروى « أن عبد الله بن الزبير لما ولد نظر إليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هو هو ، فلما سمعت بذلك أمه أمسكت عن إرضاعه ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أرضعيه ولو بماء عينيك ، كبش بين ذئاب وذئاب عليها ثياب ، ليمنعن البيت أو ليقتلن دونه » .

وفى حياة الحيوان : العرب إذا أرادوا مدح الإنسان قالوا كبش ، وإذا أرادوا ذمه قالوا تيس ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم فى المحلل « التيس المستعار » .

ويقال إن الحجاج بعد قتل ابن الزبير ذهب إلى المدينة وعلى وجهه لثام ، فرأى شيخا خارجا من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال شرّ حال ، قتل ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من قتله ؟ قال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله ورسله ، من قليل المراقبة لله ، فغضب الحجاج غضبا شديدا ، ثم قال : أيها الشيخ أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال نعم ولاعرّفه الله خيرا ، ولا وقاه ضيرا ، فكشف الحجاج اللثام عن وجهه وقال : ستعلم الآن إذا سال دمك الساعة ، فلما تحقق الشيخ أنه الحجاج قال : إن هذا لهو العجب ياحجاج ، أنا فلان أصرع من الجنون فى كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : اذهب لا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه ، وخلوص هذا من يد الحجاج من العجب ، لأن إقدامه على القتل ومبادرته إليه أمر لم ينقل مثله عن أحد .

وكان يخبر عن نفسه ويقول : إن أكبر لذاته سفك الدماء . قال بعضهم : والأصل فى ذلك أنه لما ولد لم يقبل ثديا فتصور لهم إبليس فى صورة الحرث بن كلدة طبيب العرب ، وقال : اذبحوا له تيسا أسود ، وألعقوه من دمه ، واطلوا به وجهه ، ففعلوا به ذلك فقبل ثدى أمه .

وذكر أنه أتى إليه بامرأة من الخوارج ؛ فجعل يكلمها وهى لاتنظر إليه ولاترد عليه كلاما ؛ فقال لها بعض أعوانه : يكلمك الأمير وأنت معرضة ؛ فقالت : إنى أستحى أن أنظر إلى من لاينظر الله إليه ؛ فأمر بها فقتلت . وقد أحصى الذى قتل بين يديه صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا .

ولما عزى سيدتنا أسماء عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهم ؛ وأمرها بالصبر قالت : وما يمنعنى من الصبر وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل ، وقد جاء أن هذه البغى أول من يدخل النار .

ويقال إن عبد الله بن الزبير قال لأمه يوم قتل : يا أمه إنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله ، فإن ابنك لم يعمد لإتيان منكر ولا عمل فاحشة .

وفى كون عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما تأخر موته عن ابن الزبير نظر ، فقد قيل : إن عبد الله بن عمر مات قبل ابن الزبير بثلاثة أشهر . وسبب موته أن الحجاج سفه عليه ، فقال له عبد الله : إنك سفيه مسلط فغيره ذلك عليه ، فأمر الحجاج شخصا أن يسمّ زجّ رمحه ويضعه على رجل عبد الله ، ففعل به ذلك فى الطواف ، فمرض من ذلك أياما ومات .

ويذكر أن الحجاج دخل ليعوده فسأله عمن فعل به ذلك وقال له : قتلنى الله إن لم أقتله ، فقال له عبد الله : لست بقاتل له ، قال ولم ؟ قال : لأنك الذى أمرته .

وقول عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما للحجاج إنك سفيه مسلط ، يشير إلى قول أبيه عمر رضى الله تعالى عنهما ، فإنه لما بلغه أن أهل العراق حصبوا أميرهم : أى رجموه بالحجارة خرج غضبان فصلى فسها فى صلاته ، فلما سلم قال : اللهم إنهم قد لبسوا علىّ ، فألبس عليهم ، وعجل عليهم بالغلام الثقفى يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم ، وكان ذلك قبل أن يولد الحجاج .

ثم رأيت فى تاريخ ابن كثير : لما مات ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بايعه عبد الله بن عمر . ويوافقه مافى الدلائل للبيهقى أن ابن عمر وقف على ابن الزبير وهو مصلوب وقال : السلام عليك أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إن كنت ماعلمت صواما قواما وصولا للرحم .

ويذكر أنه كان لعبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما مائة غلام لكل غلام منهم لغة لايشاركه غيره فيها ، وكان يكلم كل واحد منهم بلغته ، وهذا أغرب مما استغرب . وهو أن ترجمان الواثق بالله من خلفاء بنى العباس كان عارفا بألسن كثيرة ، حتى قيل إنه يعرف أربعين لغة ، ويمارى فيها .

وقد قال الحجاج لعروة بن الزبير يوما فى كلام جرى بينهما : لا أم لك ، فقال :

إلىّ تقول هذا وأنا ابن عجائز الجنة ؟ يعنى جدته صفية وعمته خديجة وخالته عائشة وأمه أسماء .

وقال الحجاج يوما لشخص : ماتقول فى عبد الملك بن مروان ؟فقال الرجل: ماأقول فى رجل أنت سيئة من سيئاته .

وقد أطلق سليمان بن عبد الملك لما ولى الخلافة من سجن الحجاج سبعين ألفا قد حبسهم للقتل ليس لواحد منهم ذنب يستوجب به الحبس فضلا عن القتل .

وذكر أنه كان يحبس الرجال مع النساء ؛ ولم يكن لحبسه بيوت أخلية ،فكان الرجل يبول بجانب المرأة والمرأة تبول بجانب الرجل ، فتبدو العورات ، وكان كل عشرة فى سلسلة ، ويطعمهم خبز الدخن مخلوطا بالملح والرماد .

ومر يوم جمعة فسمع استغاثة ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له أهل السجن يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة .

وآخر من قتله الحجاج من التابعين سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه ، ولم يقتل بعد ابن جبير إلا رجلا واحدا .

وقال عمر بن عبد العزيز : لو جاءت كل أمة بفرعونها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم . وقال سليمان بن عبد الملك لرجل من أخصاء الحجاج بعد موت الحجاج : أبلغ الحجاج قعر جهنم ؟ فقال: ياأمير المؤمنين يجىء الحجاج يوم القيامة بين أبيك عبد الملك ، وبين أخيك هشام بن عبد الملك ؛ فضعه فى النار حيث شئت .

ومن غريب الاتفاق ماحكاه بعضهم ، قال : مات رجل ، فلما وضع على مغتسله استوى قاعدا وقال : نظرت بعينى هاتين —وأهوى بيديه إلى عينيه — الحجاج وعبدالملك فى النار يسحبان بأمعائهما ثم عاد ميتا كما كان .

والحجاج متأصل فى الظلم . فقد رأيت بعضهم حكى أنه يقال فى المثل : أظلم من ابن الجلندى ، وهو المشار إليه بقوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وإنه من أجداد الحجاج ، بينه وبينه سبعون جدا .

واستحلف الحجاج رجلا فى أمر فقال : لا والذى أنت بين يديه غدا أذل منى بين يديك اليوم ، فقال : والله إنى يومئذ لذليل .

وأول من ضرب الدراهم فى الإسلام الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان ، وكتب

عليها (قل هو الله أحد الله الصمد) أى على أحد وجهى الدراهم (قل هو الله أحد) وعلى وجهه الثانى (الله الصمد) .

ولم توجد الدراهم الإسلامية إلا فى زمن عبد الملك بن مروان ، وكانت الدراهم قبل ذلك رومية وكسروية . وفى زمن الخليفة المستنصر بالله وهو السابع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ضرب دراهم وسماها النقرة ، وكانت كل عشرة بدينار ، وذلك فى سنة أربع وعشرين وستمائة .

ولما دخل سليمان بن عبد الملك المدينة سأل هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما دخل عليه سأله فقال : ياأبا حازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فكرهتم أن تنقلوا من عمران إلى خراب ، فقال له : وكيف القدوم على الله ؟ قال : أما المحسن فكغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان وقال: ياليت شعرى، ما لنا عند الله ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله تعالى ، فقال : فى أى مكان أجده ؟ فقال : فى قوله تعالى (إن الابرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) قال سليمان : فأين رحمة الله؟ قال : قريب من المحسنين ، قال : فأى عباد الله أكرم ؟ قال : أولو المروءة .

وجاء أعرابى إلى سليمان بن عبد الملك هذا ، فقال : ياأمير المؤمنين إنى أكلمك بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ماتحب. فقال سليمان: هاته يا أعرابى، فقال الأعرابى: إنى طلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله. إنه قد اكتنفك رجال قد أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على مااستخلفك الله عليه ، فإنهم لن يبالوا بالأمانة ، وأنت مسئول عما اجترموا فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله عيبا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : أنت ما أنت بأعرابى ، فقد سللت لسانك وهو سيفك ، قال : أجل ياأمير المؤمنين لك لا عليك .

ولما حج بالناس قال لولد عمه وولى عهده عمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق ، الذى لايحصى عددهم إلا الله تعالى ، ولا يسع رزقهم غيره ؟ فقال : يا أمير المؤمنين

هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غدا خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديدا ، ثم قال : بالله أستعين ؛ وقال يوما لعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه حين أعجبه ماصار إليه من الملك : ياعمر كيف ترى مانحن فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هالك ، وفرح لولم يعقبة ترح ، ولذات لو لم تقترن بآفات ، وكرامة لو صحبتها سلامة ، فبكى سليمان رحمه الله حتى أخضلت دموعه لحيته .

وولاية عمر بن عبد العزيز بشر بها جده لأمه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . فعنه رضى الله تعالى عنه أنه قال . إن من ولدى رجلا بوجهه شين . و رواية : علامة ، يملأ الأرض عدلا ، فكان ولده عبد الله يقول كثيرا : ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر بن الخطاب فى وجهه علامة يملأ الأرض عدلا . وفى رواية عنـــه كان يقول : يا عجبا يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضى حتى يلى رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر . قال بعضهم : فإذا هو عمر بن عبد العزيز ، لأن أمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ومما يؤثر عن سليمان رحمه الله تعالى أنه لما ولى الخلافة وقام خطيبا قال : الحمد لله الذى ماشاء صنع ، وما شاء رفع ، ومن شاء وضع ، ومن شاء أعطى ، ومن شاء منع ، إن الدنيا دار غرور ، تضحك باكيا وتبكى ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا .

وقال فى خطبة من خطبه أيضا : أيها الناس أين الوليد وأبو الوليد وجد الوليد ؟ أسمعهم الداعى ، واسترد العوارى ، واضمحل ما كان كائن ، لم يكن أذهب عنهم ثابت الحياة ، وفارقوا القصور ، واستبدلوا بلين الوطىء خشن التراب ، فهم رهناء فيه إلى يوم المآب ، فرحم الله عبدا مهد لنفسه : (يوم تجـــد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا) .

ولما ولى الخلافة أبوجعفر المنصور أراد أن يبنى الكعبة على ما بناها ابن الزبير وشاور الناس فى ذلك ، فقال له الإمام مالك بن أنس : أنشدك الله : أي بفتح الهمزة وضم الشين المعجمة : أى أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس ، فصرفه عن رأيه فيه . قال : وذكر الطبرى فى مناســكه أن الذى أراد ذلك ونهاه مالك هو الرشيد اهـ .

أقول : وكونه الرشيد هو الذى ذكره المقريزى . واقتصر عليه ، ولأن المنصورمات محرما ببئر ميمونة لستة أيام خلون من ذى الحجة فلم يدخل مكة .

وقد يقال : يجوز أن يكون دخل المدينة قبل سيره إلى مكة ، واستشار الناس فى المدينة فقال له الإمام مالك ما تقدم ، وأن الرشيد أيضا أراد ذلك ، واستشار الإمام مالكا فأشار عليه بما ذكر .

ثم رأيت فى تاريخ ابن كثير : لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالكا فى ردها : أى الكعبة على الصفة التى بناها ابن الزبير ، فقال له : إنى أخشى أن تتخذها الملوك لعبة .

ورأيت فى كلام بعضهم أن المنصور حج ، وأنه لما قضى الحج والزيارة توجه إلى زيارة بيت المقدس ، ولعل هذا كان فى حجة غير هذه التى مات فيها .

ثم رأيت فى تاريخ ابن كثير أن المنصور حج وهو خليفة أربع حجات غير الحجة التى مات فيها . وكذا فى [القرى لقاصد أم القرى] للطبرى . وذكر أنه مات فى الحجة الخامسة قبل يوم التروية بيومين ، وأنه أحرم فى بعض حججه من بغداد .

وقد ذكر الشيخ الصفوى أن المنصور بلغه أن سفيان الثورى ينقم عليه فى عدم إقامة الحق ، فلما توجه المنصور إلى الحج وبلغه أن سفيان بمكة أرسل جماعة أمامه ، وقال لهم : حيثما وجدتم سفيان خذوه واصلبوه ، فنصبوا الخشب ليصلبوا سفيان عليه ، وكان سفيان بالمسجد الحرام ، رأسه فى حجر الفضيل بن عياض ، ورجلاه فى حجر سفيان ابن عيينة ، فقيل له خوفا عليه : بالله لا تشمت بنا الأعداء ، قم فاختف ، فقام ومشى حتى وقف بالملتزم وقال : ورب هذه الكعبة لا يدخلها يعنى مكة المنصور ، وكان وصل إلى الحجون فزلقت به راحلته فوقع عن ظهرها ومات من فوره ، فخرج سفيان وصلى عليه ، هذا كلامه .

وقد يقال : لا مخالفة بين هذا وبين ماتقدم أنه مات ببئر ميمونة ، لأنه يجوز أن يكون المراد بوصوله إلى الحجون وصول خيله وركبه فليتأمل .

ثم رأيت فى تاريخ ابن كثير أن المنصور لما خرج للحج وجاوز الكوفة بمراحل ، أخذه وجعه الذى مات فيه ، وأفرط به الإسهال ، ودخل مكة فنزل بها وتوفى ، ولعل هذا

لا يخالف ماسبق ، لأنه يجوز أنه أطلق مكة على المحل القريب منها ، وأنه مع انطلاق بطنه زلقت به فرسه .

قيل وآخر ماتكلم به المنصور : اللهم بارك لى فى لقائك . ومما يؤثر عنه : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه ، والله أعلم .

وتقدم أن قصيا لما أمر قريشا أن تبنى حول الكعبة بيوتها ، فبنيت بيوتها من جهاتها الأربع وتركوا قدر المطاف ، واستمر الأمر على ذلك زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فلما ولى عمر رضى الله تعالى عنه رأى أن يوسع حول الكعبة ، فاشترى دورا وهدمها ووسع حول الكعبة ، وبنى جدارا قصيرا على ذلك ، وجعل فيه أبوابا ، ثم وسعه عثمان ، ثم عبد الله بن الزبير .

ثم إن عبد الملك بن مروان رفع الجدران وسقفه بالساج ، ثم إن الوليد بن عبد الملك نقض ذلك ، ونقل إليه الأساطين الرخام ، وسقفه بالساج المزخرف ، وأزر المسجد بالرخام ، ثم زاد فيه المنصور ورخم الحجر ، ثم زاد فيه المهدى أولا وثانيا حتى صارت الكعبة فى وسط المسجد .

وفى أيام المعتضد أدخلت دار الندوة فى المسجد ، وتسمى مكة فاران ، وتسمى قرية النمل لكثرة نملها ، أو لأن الله سلط فيها النمل على العماليق لما أظهروا فيها الظلم حتى أخرجهم من الحرم كما تقدم ، ولها أسماء كثيرة قد أفردها صاحب القاموس بمؤلف .
أقول : وسيأتى عن الإمام النووى أنه قال : ليس فى البلاد أكثر أسماء من مكة والمدينة ، والله أعلم .

قال : وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « خلقت الكعبة أى موضعها قبل الأرض بألفى سنة ، كانت حشفة على الماء ، عليها ملكان يسبحان ، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض دحاها منها ، فجعلها فى وسط الأرض » انتهى .

وسئل الجلال السيوطى رضى الله تعالى عنه عن قوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) هل كانت أيام ثم موجودة قبل خلق السموات والأرض ؟ .

فأجاب : بأن خلق السموات والأرض وخلق الأيام كان دفعة واحدة من غير تقدم لأحدهما على الآخر ، واستند فى ذلك لمأثور التفسير .

وفى الحديث « إن الله حرم مكة قبل أن يخلق السموات والأرض » الحديث . وحينئذ فقوله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حرم مكة » معناه أظهر حرمتها .

باب ماجاء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن أحبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العرب على ألسنة الجان وعلى غير ألسنتهم ؛ وما سمع من الهواتف ومن بعض الوحوش ومن بعض الأشجار ؛ وطرد الشياطين من استراق السمع عند مبعثه بكثرة تساقط النجوم ؛ وماوجد من ذكره صلى الله عليه وسلم وذكر صفته فى الكتب القديمة ؛ وما وجد فيه اسمه مكتوبا من النبات والأحجار وغيرهما

قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب زمانه . أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى ، فلما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه . وأما الكهان من العرب ، فجاءهم به الشياطين فيما تسترق به من السمع ، إذ كانت لا تحجب عن ذلك كما حجبت عند الولادة والمبعث ، وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولا تلقى العرب لذلك بالا حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرونها فعرفوها . وهذا فيه تصريح بأن الملائكة كانت تذكره صلى الله عليه وسلم فى السماء قبل وجوده .

فأما أخبار الأحبار من اليهود فمنها ماتقدم ذكره . ومنها ماجاء عن سلمة بن سلامة وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فذكر أى عنده

قوم أصحاب أوثان [ ] القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يافلان ، أو ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال نعم ، والذى يحلف به ، وليودّ أى الشخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا ، فقالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال: نبيّ يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، قالوا ومن يراه ؟ فنظر إلىّ وأنا من أحدثهم سنا ، فقال : إن يستنفد : أى يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو : أى ذلك اليهودى بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر بغيا وحسدا فقلنا له : ويحك يافلان ، ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ، ولكن ليس به .

ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن عنبسة السلمى رضى الله تعالى عنه قال : رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية : أى ترك عبادتها ، قال : فلقيت رجلا من أهل الكتاب من أهل تيماء : أى وهى قرية بين المدينة والشام [ ] فقلت : إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحى ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار ، فيعين ثلاثة لقدره أى يستنجى بها ، ويجعل أحسنها إلها يعبده ، ثم لعله يجد ماهو أحسن منه شكلا قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره ، وإذا نزل منزلا سواه ورأى ماهو أحسن منه تركه وأخذ ذلك الأحسن ، فرأيت أنه إله باطل لاينفع ولا يضر ، فدلنى على خير من هذا ، قال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها . فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتى بأفضل الدين ، فلم يكن لى همة منذ قال لى ذلك إلا مكة ، آتى فأسأل هل حدث حدث ؟ فيقال لا ، ثم قدمت مرة فسألت ، فقيل لى : حدث ، رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فشددت راحلتى ثم قدمت منزلى الذى كنت أنزله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخفيا ، ووجدت قريشا عليه أشداء ، فتلطفت له حتى دخلت عليه ، فسألته: أى شئ أنت ؟ قال نبى . قلت : من نباك ؟ قال الله . قلت : وبم أرسلك ؟ قال « بعبادة الله وحده لاشريك له ، وبحقن الدماء ، وبكسر الأوثان ، وصلة الرحم ، وأمان السبيل » فقلت: نعم ما أرسلت به ، قد آمنت بك وصدقتك ، أتأمرنى أن أمكث معك أو أنصرف ؟ فقال : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به ، فلا تستطيع أن تمكث ، كن فى أهلك ؛ فإذا

سمعت بى قد خرجت مخرجا فاتبعنى ؛ فكنت فى أهلى حتى خرج صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ فسرت إليه ؛ فقدمت المدينة ؛ فقلت يا نبى الله أتعرفنى؟ قال « نعم أنت السلمى الذى أتيتنى بمكة » .

ومن ذلك ماحدث به عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهداه ماكنا نسمع من أحبار يهود . كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض مايكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن يقتلكم قتل عاد وإرم : أى يستأصلكم بالقتل [ ] فكان كثيرا مانسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله عز وجل وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا! ففى ذلك نزلت هذه الآيات فى البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .

ومن ذلك ماحدث به شيخ من بنى قريظة قال : إن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيبان أى الجبان ، قدم إلينا قبل الإسلام بسنين ، فحل بين أظهرنا ، والله مارأينا رجلا قط لايصلى الخمس أفضل منه : أى لاأظن أحدا من غير المسلمين ، لأن المسلمين يصلون الخمس فلا أصلية لازائدة ، فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر : أى احتبس قلنا له اخرج ياابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول لاوالله حتى تقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، فنقول له : كم؟ فيقول صاعا من تمر ومدين من شعير فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى لنا فوالله مايبرح من محله حتى يمر السحاب ونسقى ، قد فعل ذلك غير مرة : أى لامرة ولا مرتين ولا ثلاثا بل أكثر من ذلك ، ثم حضرته الوفاة عندنا ؛ فلما عرف أنه ميت ، قال : يامعشر يهود ماترينه أخرجنى من أهل الخمر – بالتحريك وباسكان الميم : الشجر الملتف والخمير – إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا : أنت أعلم ، قال : فإنما قدمت هذه الأرض أتوكف : أى أتوقع خروج نبى قد أظل زمانه : أى أقبل وقرب كأنه لقربه أظلهم : أى ألقى عليهم ظله وهذه البلد مهاجره ، وكنت أرجو أن يبعث فاتبعه ، فقد أظلكم زمانه ، فلا تسبقن إليه يامعشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وبسبى الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه ، فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم

وحاصر بنى قريظة ، قال لهم نفر من هدل — بفتح الهاء وفتح الدال المهملة — وقيل بسكونها إخوة بنى قريظة ؛ وهم ثعلبة بن سعية وأسد بن سعية ،ويقال أسيد بالتصغير وأسد بن عبيد وكانوا شبانا أحداثا ، يابنى قريظة والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم كما سيأتى .

قال : ومن ذلك خبر العباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه قال : خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيه أبو سفيان بن حرب ؛ فورد كتاب حنظلة بن أبى سفيان : إن محمدا قائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله ، ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن فجاءنا حبر من اليهود فقال : بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ماقال . قال العباس : فقلت نعم ، قال نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟ قلت: لا والله ولا كذب ولا خان ، وما كان اسمه عند قريش إلا الأمين . قال : هل كتب بيده ؟ فأردت أن أقول نعم ، فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ويرد علىّ ، فقلت : لايكتب ، فوثب الحبر وترك رداءه وقال : ذبحت يهود وقتلت يهود ،قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان ياأبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك فقلت: قد رأيت لعلك أن تؤمن به ،قال : لا أومن به حتى أرى الخيل فى كداء : أى بالمد . قلت ماتقول : قال كلمة جاءت على فمى ، إلا أنى أعلم أن الله لايترك خيلا تطلع على كداء ، قال العباس : فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ونظر أبو سفيان إلى الخيل قد طلعت من كداء . قلت : ياأبا سفيان تذكر تلك الكلمة قال : إى والله إنى لأذكرها انتهى .

أى ومن ذلك ماجاء عن أمية بن أبى الصلت الثقفى قال لأبى سفيان : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا فكنت أظن أنى هو ، وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة ، إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه ، فعرفت أنه غيره . قال أبو سفيان : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قلت لأمية ؛ فقال أمية : أما إنه حق فاتبعه . فقلت له : فأنت مايمنعك قال : الحياء من نساء ثقيف ،إنى كنت أخبرهن أنى هو ، ثم أصير تبعا لفتى من بنى عبد مناف ، وسيأتى ذلك بأبسط مما هنا .

وأما أخبار الرهبان من النصارى ، فمنها ماتقدم ذكره . قال : ومنها خبر طلحة ابن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : حضرت سوق بصرى ، فإذا راهب فى صومعته

يقول : سلوا أهل هذا الموسم هل فيكم أحد من أهل الحرم ؟ فقلت نعم أنا ، قال هل ظهر أحمد ؟ قلت:ومن أحمد ؟ قال:ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه ، أى الذى يبعث فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة وحرة وسباخ ، فإياك أن تسبق إليه . قال طلحة ، فوقع فى قلبى ما قال الراهب ، فلما قدمت مكة حدثت أبا بكر بذلك ، فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ؛ فسر بذلك وأسلم طلحة . فأخذ نوفل بن العدوية أبا بكر وطلحة رضى الله تعالى عنهما فشدهما فى حبل واحد ؛ فلذلك سميا القرينين اه .

أقول : يحتمل أن هذا الراهب هو بحيرا ؛ ويحتمل أن يكون نسطورا ، لأن كلا منهما كان ببصرى كما تقدم فى سفره . ويحتمل أن يكون غيرهما ، وهو أولى ، لما تقدم أن كلا من بحيرا ونسطورا لم يدرك البعثة والله أعلم .

أى ومنها ما حدث به سعيد بن العاص بن سعيد ، قال: لما قتل أبى العاص يوم بدر كنت فى حجر عمى أبان بن سعيد ، وكان يكثر السب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج تاجرا إلى الشام فمكث سنة ثم قدم ؛ فأول شىء سأل عنه أن قال : ما فعل محمد ؟ قال له عمى عبد الله بن سعيد : هو والله أعز ما كان وأعلاه ؛ فسكت ولم يسبه كما كان يسبه ، ثم صنع طعاما وأرسل إلى سراة بنى أمية أى أشرافهم ؛ فقال لهم: إنى كنت بقرية فرأيت بها راهبا يقال له بكاء لم ينزل إلى الأرض منذ أربعين سنة : أى من صومعته ؛ فنزل يوما ؛ فاجتمعوا ينظرون إليه ؛ فجئت فقلت : إن لى حاجة ؛ فقال : ممن الرجل؟ فقلت : إنى من قريش ؛ وإن رجلا هناك خرج يزعم أن الله أرسله ؛ قال : ما اسمه ؟ فقلت محمد ؛ قال : منذ كم خرج ؟ فقلت عشرين سنة ؛ قال : ألا أصفه لك ؟ قلت بلى فوصفه ؛ فما أخطأ فى صفته شيئا ؛ ثم قال لى : هو والله نبى هذه الأمة ، والله ليظهرن، ثم دخل صومعته وقال لى اقرأ عليه السلام ؛ وكان ذلك فى زمن الحديبية : أى والحديبية سيأتى أنها كانت سنة ست فالعشرون تقريب .

أى ومنها ما حدث به حكيم بن حزام بالزاى رضى الله تعالى عنه قال : دخلنا الشام لتجارة قبل أن أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ؛ فأرسل إلينا ملك الروم فجئناه ؛ فقال : من أى العرب أنتم ؟ من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال حكيم : فقلت يجمعنى وإياه الأب الخامس ؛ فقال : هل أنتم صادقىّ فيما أسألكم عنه؟

فقلنا نعم ؛ فقال : أنتم ممن اتبعه أم ممن رد عليه؟ فقلنا : ممن رد عليه وعاداه ؛ فسألنا عن أشياء مما جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه ، ثم نهض واستنهضنا معه ، فأتى محلا فى قصره وأمر بفتحه ، وجاء إلى ستر فأمر بكشفه فإذا صورة رجل ، فقال أتعرفون من هذه صورته ؟ قلنا لا ، قال : هذه صورة آدم ، ثم تتبع أبوابها ففتحها ويكشف عن صور الأنبياء ويقول : أما هذا صاحبكم ؟ فنقول لا ، فيقول لنا هذه صورة فلان ؛ حتى فتح بابا وكشف عن صورة ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم ، هذا صورة محمد بن عبد الله صاحبنا ، قال : أتدرون متى صورت هذه الصور ؟ قلنا لا ، قال : منذ أكثر من ألف سنة ؛ وإن صاحبكم لنبى مرسل فاتبعوه ، ولوددت أنى عبده فأشرب ما يغسل من قدميه .

ووقع نظير ذلك لجبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه ، وأنه رأى صورة أبى بكر آخذة بعقب تلك الصورة ،وإذا صورة عمر آخذة بعقب صورة أبى بكر ، فقال : من ذا الذى آخذ بعقبه ؟ قلنا نعم هو ابن أبى قحافة ، قال : فهل تعرف الذى آخذ بعقبه ؟ قلت نعم هو عمر بن الخطاب . قال : أشهد أن هذا رسول الله ، وأن هذا هو الخليفة بعده ، وأن هذا هو الخليفة من بعد هذا .

ومنها ما حدّث به سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جىّ بفتح الجيم وتشديد الياء : أى وفى لفظ : من قرية من قرى الأهواز يقال لها رامهرمز ، وفى لفظ : ولدت برامهرمز وبها نشأت ؛ وأما أبى فمن أصبهان ، وكان أبى دهقان قريته : أى كبير أهل قريته : أى وفى لفظ : كنت من أبناء أساورة فارس ،وكنت أحب خلق الله تعالى إلى أبى ، لم يزل حبه إياى حتى حبسنى فى بيت كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار بفتح القاف وكسر الطاء المهملة وروى بفتحها بمعنى قاطن : أى خادمها الذى يوقدها ، لا يتركها تخبا : أى تطفأ ساعة . وكانت لأبى ضيعة عظيمة فشغل فى بنيان له يوما فقال لى : يابنىّ إنى قد شغلت فى بنيان هذا اليوم ، فاذهب إليها وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى ، إن احتبست عنى كنت أهمّ إلىّ من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى ، فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته ، فلما

سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما ذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم ، وقلت : والله هذا خير من الذي نحن عليه ، فو الله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها ، ثم قلت لهم : أين أهل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أى بنيّ أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قلت: يا أبت مررت بالناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أى بنيّ ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، فقلت له : كلا ، والله إنه لخير من ديننا ، قال : فخافني أى خاف مني أن أهرب ، فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيته ، وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم ، فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني ، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة فأخبروني بهم ،فأخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ،ثم قدمت معهم إلى الشام ، فلما قدمتها قلت من أجلّ هذا الدين علما ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة ، والأسقف بتخفيف الفاء وتشديدها : هو عالم النصارى ورئيسهم في الدين، فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك ، فأخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: ادخل ، فدخلت معه ؛ فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ؛ فإذا جمعوا إليه أشياء منها اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ثم مات ، فاجتمعت النصارى ليدفنوه . فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا ، فقالوا لي : وما أعلمك بذلك ؟ فقلت : أنا أدلكم على كنزه ، فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا. وفي رواية : وجدوا ثلاثة قماقم فيها نحو نصف أردب فضة ، فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا ، فصلبوه ورموه بالحجارة : أى ولم يصلوا عليه صلاتهم مع أن هذا الراهب كان يصوم الدهر ، وكان تقيا عن الشهوات . ومن ثم قال في الفتوحات المكية : أجمع أهل كل ملة على أن الزهد في الدنيا مطلوب . وقالوا : إن الفراغ من الدنيا أحب لكل عاقل خوفا على نفسه من الفتنة التي حذرنا الله تعالى منها بقوله : (إنمـــا أموالـــكم وأولادكم فتنة) هذا كلامه .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ومن فوائد الرهبان أنهم لا يدّخرون قوت الغد ، ولا يكنزون فضة ولا ذهبا .

قال : ورأيت شخصا قال لراهب : انظر لى هذا الدينار هو من ضرب أىّ الملوك ؟ فلم يرض ،وقال: النظر إلى الدنيا منهىّ عنه عندنا .

قال : ورأيت الرهبان مرة ، وهم يسحبون شخصا ويخرجونه من الكنيسة ، ويقولون له: أتلفت علينا الرهبان ، فسألت عن ذلك ، فقالوا رأوا على عاتقه نصفا مربوطا . فقلت لهم : ربط الدرهم مذموم؟ فقالوا : نعم عندنا وعند نبيكم صلى الله عليه وسلم ، هذا كلامه .

وعند ذلك جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه : أى لا أظن أحدا غير المسلمين أفضل منه ، ولا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلا ونهارا منه ، فأحببته حبا شديداً لم أحبه شيئا قبله ، فأقمت معه زمانا حتى حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان إنى كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئا قبلك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصنى ؟ قال: أى بنىّ ، والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه ، فلما مات وغيب : أى دفن لحقت بصاحب الموصل فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبى ، فقال: أقم عندى ، فأقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبه ، فأقمت مع خير رجل. فلما احتضر ، قلت له : يا فلان إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى وبم تأمرنى ؟ قال : يا بنىّ والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنت عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به . فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين،فأخبرته خبرى،وما أمرنى به صاحبى ، فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما احتضر : أى حضرته الملائكة لقبض روحه ، قلت له : يا فلان إن فلانا أوصى بى إلى فلان ، ثم إن فلانا أوصى بى إليك ، فإلى من توصى بى وإلى من تأمرنى ؟ قال : يا بنىّ والله ما أعلم بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته . فلما مات وغيب : أى دفن لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى ، فقال : أقم عندى،

فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، فاكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة ثم نزل به أمر الله تعالى . فلما احتضر قلت له : يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلم أصبح ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل : أى أقبل وقرب زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات . يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبــوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ثم مات وغيب .

أقول : وهذا السياق يدل على أن الذين اجتمع بهم من النصارى على دين عيسى أربعة . وفى كلام السهيلى أنهم ثلاثون ، وفى النور أنهم بضعة عشر ، وأن هذا أظهر ، والله أعلم .

قال سلمان : ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتى هذه وغنمى هذه ، فقالوا نعم ، فأعطيتموها : أى أعطيتهم إياها ، وحملونى معهم حتى إذا بلغوا بى وادى القرى : وهو محل من أعمال المدينة المنورة ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى . فمكثت عنده ، فرأيت النخل ، فرجوت أن تكون البلدة التى وصف لى صاحبى ولم يحق عندى : أى لم أتحقق ذلك . فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فابتاعنى منه فحملنى إلى المدينة . فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها : أى تحققتها بصفة صاحبى ، فأقمت بها .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق . ثم هاجر إلى المدينة ، فو الله إنى لفى رأس عذق : أى نخل لسيدى أعمل له فيه بعض العمل وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه . فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قيلة : أى وهما الأوس والخزرج ، لأن قيلة أمهما . فقد جاء « إن الله أمدنى بأشد العرب ألسنا وأدرعا ، بابنى قيلة الأوس والخزرج » والله إنهم الآن لمجتمعون بقبا بالمد والقصر ، وربما قيل قباة — بتاء التأنيث والقصر — على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى ، فلما سمعتها أخذتنى العُرَواء : وهى الحمى النافض : أى الرعدة ؛ والبرحاء : الحمى الصالب حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن

النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ما تقول ؟ فغضب سيدى ولكمنى لكمة شديدة ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك ، فقلت : لا شيء ، إنما أردت أن أثبته فيما قال وقد كان عندى شيء جمعته : أى وهو محتمل لأن يكون تمرا ، ولأن يكون رطباً . فلما أمسيت أخذته ، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فدخلت عليه ، فقلت له : إنى قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم فقربته إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده ، فلم يأكل . فقلت فى نفسى هذه واحدة : أى ومن ثم لما أخذ الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما وهو طفل تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « كخ كخ ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة » رواه مسلم .

وروى أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى ثم أرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها » ووجد صلى الله عليه وسلم تمرة فقال : « لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها » وقال : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » وفى رواية « إن هذه الصدقات ، إنما هى أوساخ الناس ، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » والراجح من مذهبنا حرمة الصدقتين عليه صلى الله عليه وسلم وحرمة صدقة الفرض دون النفل على آله . وقال الثورى : لا تحل الصدقة لآل محمد لا فرضها ولا نفلها ولا لمواليهم ، لأن مولى القوم منهم ، بذلك جاء الحديث .

قال سلمان : ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا هو أيضا يحتمل أن يكون تمرا ولأن يكون رطبا .

وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته فقلت : إنى رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه فأكلوا معه ، فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان : أى ومن ثم روى مسلم « كان إذا أتى بطعام سأل عنه ، فإن قيل هدية أكل منها ، وإن قيل صدقة لم يأكل منها » .

قال سلمان : ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد ، وقد تبع

جنازة رجل من أصحابه : أى وهو كلثوم بن الهدم الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء لما قدم المدينة .

وقيل هو أوّل من دفن به ، وقيل أول من دفن به أسعد بن زرارة ، وقيل أوّل من دفن به عثمان بن مظعون .

وجمع بأن أوّل من دفن به من المهاجرين عثمان : أى وقد مات فى ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة . وأوّل من ذفن به من الأنصار كلثوم أو أسعد: أى وفى الوفيات لابن زبر: مات كلثوم ؛ ثم من بعده أبو أمامة أسعد بن زرارة فى شوّال من السنة الأولى من الهجرة ، ودفن بالبقيع هذا كلامه ، ولم يذكر الوقت الذى مات فيه كلثوم . وفى النور عن الطبرى أنه مات بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بأيام قليلة . وأوّل من مات من الأنصار البراء بن معرور ،مات قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا بشهر . ولما حضره الموت أوصى بأن يدفن ويستقبل به الـكعبة ففعلوا به ذلك ، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى على قبره هو وأصحابه وكبر أربعا ، ولم أقف على محل دفنه .

وقولهم إن أول من دفن بالبقيع كلثوم يدل على أن البراء لم يدفن بالبقيع إلا أن يراد الأوليــة بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة . والظاهر أن هذه أول صلاة صليت على القــبر .

قال سلمان : وكان عليه الصلاة والسلام عليه شملتان وهو جالس فى أصحابه فسلمت عليه ، ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف لى؟ فألقى الرداء عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحول ، فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثى. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: فأعجب رسول صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه : أى وفى شواهد النبوة لما جاء سلمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم لم يفهم النبى صلى الله عليه وسلم كلامه فطلب ترجمانا فأتى بتاجر من اليهود كان يعرف الفارسية والعربية ، فمدح سلمان النبى صلى الله عليه وسلم وذم اليهود بالفارسية فغضب اليهودى وحرف الترجمة ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم إن سلمان يشتمك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا الفارسى جاء ليؤذينا فنزل جبريل وترجم عن كلام سلمان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك: أى الذى ترجمه له جبريل لليهودى ، فقال اليهودى : يا محمد

إن كنت تعرف الفارسية فما حاجتك إلى ؟ فقال صـلى الله عليه وسلم : ما كنت أعلمها من قبل والآن علمني جبريل أو كما قال . فقال اليهودى : يا محمد قد كنت قبل هذا أتهمك والآن تحقق عندى أنك رسول الله . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : علم سلمان العربية . فقال : قل له ليغمض عينيه ويفتح فاه ففعل سلمان ، فتفل جبريل فى فيه فشرع سلمان يتكلم بالعربى الفصيح ، وهذا السياق يدل على أن ذلك كان عند مجيئه فى المرة الثالثة . وحينئذ يشكل مجيئه أولا وثانيا وقوله ماتقدم بالعربية إلا أن يقال ذاك لقلته سهل عليه أن يعبر عنه بالعربية ، بخلاف حكاية حاله لكثرته لم يحسن أن يعبر عنه بالعربية .

قال : وقد اختلفت الروايات عن سلمان فى الشىء الذى جاء به للنبى صلى الله عليه وسلم أولا وثانيا ؛ فالرواية الأولى المتقدمة ظاهرها يقتضى أنه تمر اه : أى وفيه من أين أن ظاهرها ذلك ؟ بل هى محتملة ، وقد جاء التصريح بكونه تمرا فى الأولى والثانية . فى بعض الروايات : فسألت سيدى أن يهب لى يوما ففعل ، فعملت فى ذلك اليوم على صاع أو صاعين من تمر وجئت به النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيته لا يأكل الصدقة سألت سيدى أن يهب لى يوما آخر فعملت فيه على ذلك : أى على صاع أو صاعين من تمر ، ثم جئت به النبى صلى الله عليه وسلم فقبله وأكل منه .

أى والذى فى كلام السهيلى قال سلمان : كنت عبدا لامرأة فسألت سيدتى أن تهب لى يوما ، الحديث .

وقد يقال : لامخالفة لأنه يجوز أن يكون عنى بسيدته زوجة سيده ، لأنه يقال لها سيدة فى المتعارف بين الناس ، أو أن المرأة هى التى اشترته ، ويؤيده ما يأتى ، وزوج تلك المرأة يقال له فى المتعارف بين الناس سيد . قال : وقيل إن الذى جاء به أولا وثانيا رطب .

وفى رواية : احتطبت حطبا فبعته واشتريت بذلك طعاما والطعام خبز ولحم . وفى رواية جئت بمائدة عليها بط . وفى رواية عليها رطب . وجمع بأنه أولا قدم الخبز واللحم الذى هو البط والتمر ، ثم قدم الرطب فلم يتحد المقدم . وفى مسند الإمام أحمد أن المرات ثلاث ، وأن المقدم فيها متحد اه .

أقول : تقديم الرطب فى المرة الثانية يخالفه ما تقدم أنه فى المرة الثانية كان تمرا ، والله أعلم .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد ، فكان أول مشاهده الخندق كما سيأتى ، وكان بعد ذلك يقال له سلمان الخير ، وكان معدودا من أخصائه صلى الله عليه وسلم . قال سلمان : ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتب ياسلمان ، فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أى ودية ، على وزن فعيلة : وهى النخلة الصغيرة التى يقال لها الفسيلة أحييها له ، بالتفقير بالفاء ثم القاف : أى الحفر ؟ أى ومن ثم قيل للبئر الفقير : أى احفر لها واغرسها بتلك الحفرة وتصيير حية بتلك الحفرة : أى وأتعهدها إلى أن تثمر . والودية والفسيلة : هى النخلة الصغيرة التى جرت العادة بأن تنقل من المحل الذى تنبت فيه إلى محل آخر ، لكن فى كلام بعضهم : إذا خرجت النخلة من النواة قيل لها غريسة ثم يقال لها ودية ، ثم فسيلة ، ثم إشاءة ، فإذا فاتت اليد فهى جبارة ويقال للنخلة الطويلة عوانة بلغة عمان .

وفى الحديث « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليغرسها » وعلى أربعين أوقية أى من ذهب كما سيأتى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعينوا أخاكم ، فأعانونى بالنخل الرجل بستين ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمسة عشر ، والرجل يعين بقدر ماعنده حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية » قال : وفى رواية « وأنه كوتب على أن يغرس لهم خمسمائة فسيلة » : أى يحفر لها ويغرسها أى ويتعهدها إلى أن تثمر وعلى أربعين أوقية » .

قال سلمان : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب ياسلمان ففقر : أى بالفاء . وفى رواية فنقر أى بالنون : أى احفر لها ، فإذا فرغت فائتنى أنا أضعها بيدى ففقرت. وفى رواية فنقرتها وأعانني أصحابى حتى إذا فرغت جئته صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فخرج معى إليها ، فجعلنا نقرب إليه الودى ، فيضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ما مات منها ودية واحدة ، فأديت النخل وبقى علىّ المال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة : أى وفى رواية مثل بيضة الحمامة من ذهب من بعض المعادن ، ولعل هذه البيضة كانت مترددة بين بيضة الدجاجة وبين بيضة الحمامة : أى أكبر من بيضة الحمامة وأصغر من بيضة الدجاجة ، فاختلف فيها التشبيه ، فقال صلى الله عليه وسلم

ما فعل الفارسى المكاتب ؟ فدعيت له . فقال : خذ هذه فأدها مما عليك ياسلمان : أى تكون بعضا مما عليك .

وحينئذ قد يتوقف فى جواب سلمان بقوله فأين تقع هذه يارسول الله مما علىّ لأن النبى يؤدى بعضه وإن قل ذلك البعض. إلا أن يقال العادة قاضية بأن ذلك البعض لايقبل إلا إذا كان له وقع بالنسبة لكله .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم للرد على سلمان بأن هذا الذى قلت فيه إنه لايحسن أن يكون بعضا مما عليك يوفى به الله عنك جميع ما عليك ، حيث قال : خذها فإن الله سيؤدى بها عنك ، فأخذتها فوزنت لهم منها والذى نفس سلمان بيده أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم : أى وبقى عندى مثل ما أعطيتهم . قال : وهذا أى سؤال سلمان وجوابه صلى الله عليه وسلم كالصريح فى أن الأواقى التى كاتب عليها كانت ذهبا لافضة .

وقد جاء أى مما يدل على ذلك فى بعض الروايات أن سلمان لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم وأين تقع هذه مما علىّ ؟ فقلبها صلى الله عليه وسلم على لسانه ثم قال خذها فأوفهم منها .

وأيضا أى ممايدل على ذلك أيضا أن المعلوم أن قدر بيضة الدجاجة من الذهب يعدل أكثر من أربعين أوقية من الفضة اه : أى فلا يحسن قول سلمان وأين تقع هذه مما علىّ وقد صرح بذلك أى بكونها ذهبا البلاذرى والقاضى عياض فى الشفاء ، فقالا : على . أربعين أوقية من ذهب ، وإلى القصة أشار صاحب الهمزية بقوله :

ووفى قدر بيضة من نضار ... دين سلمان حين حان الوفاء
كان يدعى قنا فأعتق لما ... أينعت من نخيله الأقناء
أفلا تعذرون سلمان لما ... أن عرته من ذكره العرواء

أى ووفى قدر بيضة من بيض الدجاج أو الحمام من ذهب دين سلمان ، وهو أربعون أوقية من ذهب حين قرب حلول الدين ، وتقدم أنه وفى دينه منها وبقى عنده منها قدر ما أعطاهم .

وسبب هذا الدين على سلمان أنه كان يدعى قنا ،أى أرقّ بالباطل كما تقدم، فكوتب على ذلك وعلى أن يغرس تلك النخيل ويتعهدها إلى أن تثمر ، وأعتق بأداء هذا الدين حين أينعت العراجين من نخيله التى غرسها : أى غرست له ، أفلا ترون لسلمان عذرا

يمنعكم من إيذائه حين أن غشيته قوة الحمى من أجل سماع ذكره صلى الله عليه وسلم . قال سلمان : وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ثم لم يفتني معه مشهد .

وعن بريدة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى سلمان أى كان سببا لشرائه أى مكاتبته من قوم اليهود بكذا وكذا درهما ، وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخل يعمل فيها سلمان حتى تدرك فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل كله إلا نخلة غرسها عمر رضى الله تعالى عنه ، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة التى غرسها عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرسها ؟ قالوا عمر ، فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فأطعمت من عامها » .

وذكر البخارى « أن سلمان رضى الله تعالى عنه غرس بيده ودية واحدة وغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرها فعاشت كلها إلا التى غرسها سلمان » قال : ويجوز أن يكون كل من سلمان وعمر غرس هذه النخلة أحدهما قبل الآخر انتهى .

أقول : وهذا الحائط الذى غرس فيه سلمان من حوائط بنى النضير وكان يقال له المثبت ، وقد آل إليه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى .

ولا يخفى أن قول صاحب الهمزية كان يدعى قنا أنه لم يرقّ حقيقة ، وقد تقدم ذلك . وفيه أنه لو لم يرق حقيقة لما أقره على الرق ، وأمره صلى الله عليه وسلم بالمكاتبة وأدى عنه وكونه فعل ذلك تطييبا لخاطر ساداته بعيد فليتأمل .

فإن قيل : إذ رقّ حقيقة كيف جاز له صلى الله عليه وسلم أن يأمر أصحابه أن يأكلوا مما جاء به صدقة ويأكل هو وهم مما جاء به هدية والرقيق لايملك وإن ملكه سيده على الأصح عندنا معاشر الشافعية ، بل وعند باقى الأئمة ؟

قلنا : يجوز أن يكون الرقيق كان فى صدر الإسلام يملك ماملكه له سيده ثم نسخ ذلك . على أن بعض أصحابنا ذهب إلى صحته ، وفى كلام السهيلى : وذكر أبو عبيد أن حديث سلمان حجة على من قال إن العبد لايملك هذا كلامه ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يعلم رقه حينئذ ، لأن الأصل فى الناس الحرية ، ولعدم تحقق رق سلمان وعدم مجىء مكاتبته على قواعد أئمتنا لم يستدلوا على مشروعية الكتابة بقصة سلمان .

وفى كلام السهيلى أن فى خبر : سلمان من الفقه : قبول الهدية ، وترك سؤال المهدى ،

وكذلك الصدقة . وفى الحديث « من قدم إليه الطعام فليأكل ، ولا يسأل» والله أعلم .

وعن سلمان رضى الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بالقصة المتقدمة : زاد أن صاحب عمورية قال له : ائت كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رجلا بين غيضتين يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزا يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى فاسأله عن هذا الدين فهو يخبرك به .

قال سلمان: فخرجت حتى جئت حيث وصفه لى فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم لايدعو لمريض إلا شفى ، وغلبونى عليه فلم أخلص حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخلها إلا منكبه فتناولته ، فقال : من هذا؟ والتفت إلىّ فقلت: يرحمك الله أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتسأل عن شىء مايسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك نبى يبعث بهذا الدين من أهل الحرم فإنه يحملك عليه ، ثم دخل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقتنى لقد لقيت عيسى ابن مريم . والغيضة : الشجر الملتف .

قال السهيلى : هـذا الحديث مقطوع ، وفيه رجل مجهول . ويقال إن الرجل هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف باجماع منهم ، وإن صح هـذا الحديث فلا نكارة فى متنه .

فقد ذكر الطبرى أن المسيح عليه الصلاة والسلام نزل بعد مارفع وأمه وامرأة أخرى أى كانت مجنونة فأبرأها المسيح عند الجذع الذى فيه الصليب يبكيان ، فأهبط إليهما فكلمهما وقال لهما علام تبكيان ؟ فقالا عليك ، فقال : إنى لم أقتل ولم أصلب ، ولكن الله رفعنى وأكرمنى ، وأخبرهما أن الله أوقع شبهه على الذى صلب وأرسل إلى الحواريين : أى قال لأمه ولتلك المرأة أبلغا الحواريين أمرى أن يلقونى فى موضع كذا ليلا ، فجاء الحواريون ذلك الموضع فإذا الجبل قد اشتعل نورا لنزوله فيه، ثم أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينه وعبادة ربهم ووجههم إلى الأمم . وإذا جاز أن ينزل مرة جاز أن ينزل مرارا لكن لانعلم أنه هو : أى حقيقة حتى ينزل النزول الظاهر « فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير » كما جاء فى الصحيح هذا كلامه .

ويروى « أنه إذا نزل تزوج امرأة من جذام قبيلة باليمن . ويولد له ولدان يسمى أحدهما

محمدا والآخر موسى ، يمكث أربعين سنة ، وقيل خمسا وأربعين ، وقيل سبع سنين » كما في مسلم ، وقيل ثمان سنين وقيل تسعا، وقيل خمسا : أى وجمع بين كون مدة مكثه أربعين سنة أو خمسا وأربعين سنة وبين كونها سبع سنين : أى وما بعد ذلك بأن المراد بالأول مجموع لبثه في الأرض قبل الرفع وبعده والسبعة : أى وما بعدها من الأقوال يكون بعد نزوله ويدفن إذا مات في روضة النبي صلى الله عليه وسلم . قال :وقيل في حجرته صلى الله عليه وسلم : أى عند قبره الشريف ، وقيل في بيت المقدس انتهى . أى وقيل يدفن معه صلى الله عليه وسلم في قبره ، ويؤيده ماورد « ويدفن معي في قبرى ،فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر » .

أقول : وكما يقتل عيسى عليه الصلاة والسلام الخنزير يقتل الدجال . فقد جاء «ينزل عيسى حكما مقسطا يحكم بشرعنا يقتل الدجال ، ونزوله يكون عند صلاة الفجر ، فيصلى خلف المهدى بعد أن يقول له المهدى تقدم ياروح الله ، فيقول له تقدم فقد أقيمت لك » وفى رواية « ينزل بعد شروع المهدى في الصلاة ، فيرجع المهدى للقهقرى ليتقدم عيسى فيضع يده بين كتفيه ويقول له تقدم » فإذا فرغ من الصلاة أخذ حربته وخرج خلف الدجال فيقتله عند باب لدّ الشرقى » وورد أن المهدى يخرج مع عيسى فيساعده على قتل الدجال . وقد جاء أن المهدى من عترة النبي صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة . قيل من ولد الحسين ، وقيل من ولد الحسن ، وقيل من ولد عمه العباس .

فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن أمه أم الفضل مرت به صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنك حامل بغلام فإذا ولدتيه فائتيني به قالت : فلما ولدته أتيته به ، فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه — أى أسقاه اللبأ من ريقه — وسماه عبد الله ، وقال اذهبي بأبى الخلفاء ، فأخبرت العباس ، فأتاه فذكر له فقال : هو ماأخبرتك هـذا أبو الخلفاء ، حتى يكون منهم السفاح ، حتى يكون منهم المهدى أى الخليفة » وهو أبو الرشيد بدليل قوله «حتى يكون منهم من يصلى بعيسى ابن مريم : أى وهو المهدى الذى يأتى آخر الزمان اسمه محمد بن عبد الله، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد » وفى رواية « إلا ليلة واحدة يطول الله ذلك حتى يبعث،وظهوره يكون بعد أن يكسف القمر في أول ليلة من رمضان،وتكسف الشمس في النصف منه مثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السموات والأرض عمره عشرون سنة ، وقيل أربعون سنة ؛ ووجهه كوكب درى على خده الأيمن خال أسود ،يخرج

فى زمان الدجال،وينزل فى زمانه عيسى ابن مريم» وأماما ورد «لامهدى إلا عيسى ابن مريم» فلا ينافى ذلك لجواز أن يكون المراد لامهدى كاملا معصوما إلا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام .

فقد جاء « لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم آخرها ، والمهدى من أهل بيتى فى وسطها » وعن العباس رضى الله تعالى عنه قال «كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال انظر هل ترى فى السماء من شىء ؟ قلت نعم ، قال ماترى ؟ قلت الثريا، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك » أى وقد اختلف الناس فى عددها المرئى فقيل سبعة أنجم ، وقيل تسعة .

وجمعنا بينهما بأن الأول يكون هو المرئى لغالب الناس ولو غير حديد البصر والثانى لمن يكون حديد البصر منهم،وأما المرئى له صلى الله عليه وسلم ، فقيل كان يرى أحد عشر نجما . وقيل اثنى عشر نجما .

وجمعنا بينهما بحمل الأول على ماإذا لم يمعن النظر . والثانى على ماإذا أمعن النظر ، وحينئذ يقتضى هذا أن تكون الخلفاء من بنى العباس اثنى عشر .

وعن سعيد بن جبير : سمعت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح والمنصور والمهدى . ورواه الضحاك عن ابن عباس مرفوعا . والمهدى فى هذه الرواية يحتمل أن المراد به أبو الرشيد ، ويحتمل أن يكون المنتظر .

وروى أبو نعيم بسند ضعيف «أنه صلى الله عليه وسلم خرج فتلقاه العباس ، فقال : ألا أسرك ياأبا الفضل ؟ قال بلى يارسول الله ، قال: إن الله فتح بى هذا الأمر وبذريتك يختمه » وفى رواية « ويختمه بولدك » .

وقد أفردت ترجمة المهدى المنتظر بالتأليف فى مجلد حافل سماه مؤلفه [الفواصم عن الفتن القواصم] .

وقد رويت قصة سلمان رضى الله تعالى عنه على غير هذا الوجه الذى تقدم . فعنه قال: كان لى أخ أكبر منى ، وكان يتقنع بثوبه ويصعد الجبل يفعل ذلك غير مامرة متنكرا ، فقلت له : أما إنك تفعل كذا وكذا فلم لاتذهب بى معك ؟ قال : أنت غلام وأخاف أن يظهر منك شىء. قلت: لاتخف ، قال: إن فى هذا الجبل قوما لهم عبادة وصلاح يذكرون الله ويذكرون الآخرة ، ويزعمون أنا على غير دين . قلت : فاذهب بى معك إليهم قال :

حتى أستأمرهم فاستأمرهم ، فقالوا جيء به فذهبت معه فانتهيت إليهم فإذا هم ستة أو سبعة ، وكأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل ، يأكلون الشجر وما وجدوا فصعدنا إليهم ، فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه ، وذكروا من مضى من الرسل والأنبياء حتى خلصوا إلى عيسى ابن مريم . قالوا : ولد بغير ذكر ، وبعثه الله رسولا ، وسخر له ما كان يفعل من إحياء الموت ، وخلق الطير ، وإبراء الأعمى والأبرص ؟ فكفر به قوم وتبعه قوم . ثم قالوا : ياغلام إن لك ربا وإن لك معادا ؛ وإن بين ذلك جنة ونارا لها تصير وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة ، لايرضى الله بما يصنعون ؛ وليسوا على دين ؛ ثم انصرفنا ثم عدنا إليهم فقالوا مثل ذلك وأحسن ؛ فلزمتهم ثم اطلع عليهم الملك فأمرهم بالخروج من بلاده ، فقلت : ما أنا بمفارقكم فخرجت معهم حتى قدمنا الموصل ، فلما دخلوا حفوا بهم ، ثم أتاهم رجل من كهف جبل فسلم وجلس فحفوا به ، فقال لهم : أين كنتم ؟ فأخبروه ، فقال : ماهذا الغلام معكم . فأثنوا على خيرا وأخبروه باتباعي إياهم ولم أرمثل إعظامهم له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر من أرسله الله من رسله وأنبيائه وما لقوا وماصنع بهم ، حتى ذكر عيسى ابن مريم ، ثم وعظهم . وقال : اتقوا الله والزموا ما جاء به عيسى ، ولا تخالفوا يخالف بكم ، ثم أراد أن يقوم . فقلت : ما أنا بمفارقك ، فقال : ياغلام إنك لا تستطيع أن تكون معي ، إني لا أخرج من كهفي هذا إلا كل يوم أحد . قلت : ما أنا بمفارقك فتبعته حتى دخل الكهف فما رأيته نائما ولا طاعما إلا راكعا وساجدا إلى الأحد الآخر ، فلما أصبحنا خرجنا واجتمعوا إليه ، فتكلم نحو المرة الأولى ، ثم رجع إلى كهفه ورجعت معه ، فلبثت ماشاء الله أن يخرج في كل يوم أحد ويخرجون إليه ويعظهم ويوصيهم ، فخرج في أحد . فقال مثل ما كان يقول . ثم قال : ياهؤلاء إني قد كبر سني ورق عظمي وقرب أجلي ، وإني لاعهد لي بهذا البيت يعني بيت المقدس منذ كذا وكذا سنة فلا بدلي من إتيانه ، فقلت : ما أنا بمفارقك ، فخرج وخرجت معه حتى أتيت إلى بيت المقدس فدخل وجعل يصلي وكان فيما يقول لي : ياسلمان إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب ، فأما أنا فشيخ كبير لا أحسبني أدركه ، فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه . فقلت : وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه . قال : وإن أمرك ، ثم خرج من بيت المقدس وعلى بابه مقعد ، فقال له ناولني

يلك فناوله يده فقال له قم باسم الله فقام كأنما نشط من عقال ؛ فقال لى المقعد : ياغلام احمل على ثيابى حتى أنطلق ، فحملت عليه ثيابه ؛ فذهب الراهب وذهبت فى أثره أطلبه كلما سألت عنه ، قالوا أمامك حتى لقينى ركب من كلب فسألتهم ، فلما سمعوا لغتى أناخ رجل بعيره وحملنى عليه ؛ فجعلنى خلفه حتى أتوا بى بلادهم فباعونى ، فاشترتنى امرأة من الأنصار فجعلتنى فى حائط لها : أى بستان ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرت به فأخذت شيئا من تمر حائط ثم أتيته ، فوجدت عنده أناسا ، فوضعته بين يديه ؛ فقال : ماهذا ؟ قلت صدقة قال للقوم كلوا ولم يأكل هو ؛ ثم لبثت ماشاء الله ؛ ثم أخذت مثل ذلك ، ثم أتيته فوجدت عنده أناسا فوضعته بين يديه ، فقال : ماهذا ؟ فقلت هدية ؛ قال : بسم الله وأكل وأكل القوم فقلت فى نفسى هذه من آياته . ويحتاج للجمع بين هذه الرواية وماتقدم على تقدير صحتهما .

وفى [الدر المنثور] وأن امرأة من جهينة اشترته وصار يرعى غنما لها ، بينما هو يوما يرعى إذ أتاه صاحب له ، فقال له : أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبى ؟ فقال له سلمان : أقم فى الغنم حتى آتيك ، فهبط سلمان إلى المدينة فاشترى بدينار ببعضه شاة فشواها وببعضه خبزا ثم أتاه به ، فقال ، ما هذا ؟ قال سلمان : هذه صدقة ، قال لاحاجة لى بها ، فأخرجها فأكلها أصحابه ، ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزا ولحما ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا ؟ قال . هذه هدية : قال فاقعد فكل ، فقعدوأكلا جميعا منها ، فدرت خلفه ففطن بى فأرخى ثوبه ، فإذا الخاتم فى ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله» وهذه الرواية تخالف ما تقدم فليتأمل ، ولينظر كيف الجمع .

ونقل بعضهم الإجماع على أن سلمان عاش مائتين وخمسين سنة ، وكان حبرا عالما فاضلا زاهدا متقشفا ، وكان يأخذ من بيت المال فى كل سنة خمسة آلاف ، وكان يتصدق بها ولا يأكل إلا من عمل يده ، وكان له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها .

قال بعضهم : دخلت عليه وهو أمير على المدائن ، وهو يعمل الخوص ، فقلت له لم تعمل هذا وأنت أمير وهو يجرى عليك رزق ؟ فقال : إنى أحب أن آكل من عمل يدى وربما اشترى اللحم وطبخه ودعا المجذومين فأكلوا معه .

وأول مشاهده الخندق كما تقدم ، قيل وشهد بدرا وأحدا قبل أن يعتق : أى وهو مكاتب ، فيكون أول مشاهده الخندق بعد عتقه ، والله أعلم .

وأما أخبار الكهان لا عن ألسنة الجان فكثيرة ، منها ما تقدم فى ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم وفى أيام رضاعه .

قال : ومنها أيضا خبر عمرو بن معد يكرب رضى الله تعالى عنه قال : والله لقد علمت أن محمدا رسول الله قبل أن يبعث ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : فزعنا إلى كاهن لنا فى أمر نزل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والريح ذات العجاج ، إن هذا لامراج ، لعله من أجيج النار وهو التهابها ولقاح ذى نتاج ، قالوا وما نتاجه ؟ قال : نتاجه ظهور نبى صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام فالق ، قالوا : وأين يظهر ؟ وإلى ماذا يدعو ! قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، ويعطل القداح ، وينهى عن الراح والسفاح ، وعن كل أمر قباح ،قالوا ممن هو ؟ قال : من ولد الشيخ الأكرم ، حافر زمزم ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد ، انتهى .

ومنها خبر قس بن ساعدة الإيادى ، وهو أول من قال : البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وأول من اتكأ على عصا أو قوس أو سيف عند الخطبة .

وقيل إن أول من تكلم بأن البينة على المدعى واليمين على من أنكر داود عليه الصلاة والسلام ، وأن ذلك فصل الخطاب .

ورد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكم يعرف القس ابن ساعدة الإيادى ؟ قالوا : كلنا يا رسول الله نعرفه ، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بعكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لاتغور ، أقسم قس قسما حاتما لأن كان فى الأمر رضا ليكونن سخطا ، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فقاموا أم تركوا هناك فناموا ؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه عليه الصلاة والسلام :

في الذاهبين الأوليـــــن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال « قدم الجارود بن عبد الله وكان سيدا في قومه، وقيل له الجارود لأنه أغار على قوم من بني بكر بن وائل فجردهم: أي أخذ جميع أموالهم ، وإلى ذلك الإشارة بقول الشاعر :

ودسناهم بالخيل من كل جانب كما جرد الجارود بكر بن وائل

فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ياجارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قالوا : كلنا نعرفه يارسول الله » قال الجارود : وأنا بين يدى القوم كنت أقفو أي أتبع أثره ، كان من أسباط العرب أي من ولد ولدهم ، شيخا عمر سبعمائة سنة : أي وقيل ستمائة سنة ؛ أدرك من الحواريين سمعان ؛ فهو أول من تأله : أي تعبد من العرب : أي ترك عبادة الأصنام ، وأول من قال أما بعد : أي وقيل أول من قال ذلك كعب بن لؤى كما تقدم ، وقيل سحبان بن وائل ، وقيل يعقوب ؛ وقيل يعرب بن قحطان ؛ وقيل داود وهو فصل الخطاب .

ورد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته : أي وبعد لفظة عربية ؛ وفصل الخطاب الذي أوتيه هو فصل الخصومة : أي وهذا يؤيد ما تقدم عنه أنه أول من قال : البينة على المدعى واليمين على من أنكر وتقدم ما فيه . وجمع بأن الأولية بالنسبة لداود حقيقية ؛ ولغيره إضافية ؛ فلكعب بن لؤى بالنسبة للعرب ولغيره بالنسبة لقبيلته . وقس أول من كتب من فلان إلى فلان . قال الجارود : كأني أنظر إليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتاب أجله ؛ وليوفين كل عامل عمله ؛ ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادكار وليـــال خلالهن نهـــار
وجبال شـــوامخ راسيات وبحـــار مياههن غـزار
ونجوم تلوح في ظلم الليـل تراها في كل يوم تدار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود، والرسل بكسر الراء : التؤدة فلست أنساه بسوق عكاظ : أى وهو سوق بين بطن نخلة والطائف ، كان سوقا لثقيف وقيس عيلان كما تقدم ، على جمل أورق : أى يضرب لونه إلى السواد ، وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه ، وفى لفظ ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه الآن ، فقال أبو بكر : يا رسول الله فإنى أحفظه كنت حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ ، فقال فى خطبته : يا أيها الناس - اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات جمع وأشتات ، وآيات بعد آيات ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ليل داج : أى مظلم ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ؛ مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا ، أقسم قس قسما حاتما ، لا حنثا فيه ولا آثما إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيا قد حان حينه ، وأظلكم زمانه ؟ فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه فعصاه ، ثم قال : تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية ، والقرون الماضية . يامعشر إياد : هى قبيلة من اليمن —أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعوّاد؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيد . وزخرف ونجد ؟ أى من زين وطوّل ، وغره المال والولد؟ أين من بغى وطغى ؟ وجمع فأوعى ؟ وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ، وأطول منكم آجالا وأبعد منكم آمالا ، طحنهم التراب بكلكله : أى بصدره ، ومزقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول الأبيات المتقدمة .

أى وفى رواية : « لما قدم وفد إياد على النبي صلى الله عليه وسلم قال « يا معشر وفد إياد ، ما فعل قس بن ساعدة الإيادى ؟ قالوا : هلك يارسول الله ، قال : لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر ، يتكلم بكلام معجب موفق ، لا أجدنى أحفظه الآن ، فقام امرؤ أعرابى من أقاصى القوم ، فقال : أنا أحفظه يارسول الله ، فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . كان يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل من مات فات ، وكل شىء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية » الحديث .

وفى رواية وأين الصعب ذو القرنين ؟ ملك الخافقين ، وأذلّ الثقلين ، وعمر ألفين ، ثم كان ذلك كلمحة عين » .

قال : وفى رواية أخرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن قس بن ساعدة كان يخطب قومه بسوق عكاظ فقال : سيأتيكم حق من هذا الوجه ؟ وأشار بيده إلى نحو مكة ، قالوا له : وما هذا الحق ؟ قال : رجل أبلج أحور ، من ولد لؤى بن غالب ، يدعوكم إلى كلمــة الإخلاص ، وعيش ونعيم لا ينفدان ، فإذا دعاكم فأجيبوه ، ولو علمت أنى أعيش إلى مبعثه لـكنت أول من يسعى إليه . وقد رويت هـذه القصة من طرق متعددة .

قال الحافظ ابن كثير : هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقال الحافظ ابن حجر : طرق هذا الحديث كلها ضعيفة ، وهو يردّ قول ابن الجوزى فى موضوعاته : حديث قس بن ساعدة من جميع جهاته باطل اهـ .

أقول : ذكر فى [النور] أن فى قصة قس مايرشد إلى التعدد مرتين : مرة حفظ صلى الله عليه وسلم كلامه ، وكان قس على جمل أحمر . والثانية التى لم يحفظ صلى الله عليه وسلم فيها كلامه كان قس على جمل أورق . قال : لـكن لا أدرى أى المرتين كانت أوّلا ، هذا كلامه .

وقد يقال : النسيان جائز عليه صلى الله عليه وسلم ، فيجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم نسى كلام قس بعد الإخبار به أولا ، ويدل لذلك قوله « لا أظن أنى أحفظه الآن » أو قبل الإخبار به ، فيكون خبره صلى الله عليه وسلم متأخرا عن خبر أبى بكر ، فلا دلالة فى ذلك على التعدد ، ووصف الجمل بأنه أحمر ، ووصفه بأنه أورق لا يدل على التعدد ، لأنه يجوز أن يكون شديد الحمرة وشدة الحمرة تميل إلى السواد وهو الأورق ، فأخبر عنه مرة بأنه أحمر ، ومرة بأنه أورق . وهذا السياق يدل على تعدد مجىء وفد عبد القيس ، مرة جاءوا وحدهم ، ومرة جاءوا مع سيدهم الجارود ، وقد جاء « رحم الله قسا إنه كان على دين أبى إسمعيل بن إبراهيم » والله أعلم .

ومن ذلك خبر نافع الجرشى ، نسبة إلى جرش بضم الجيم وفتح الراء وبالشين المعجمة قبيلة من حمير تسمى به بلدهم : أن بطنا من اليمن كان لهم كاهن فى الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر فى العرب ، جاءوا إلى كاهنهم واجتمعوا

إليه فى أسفل جبل ، فنزل إليهم حين طلعت الشمس ، فوقف لهم قائما متكئا على قوس ، فرفع رأسه إلى السماء طويلا . ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم محمـــدا واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل .

وأما أخبار الكهان على ألسنة الجان فكثيرة أيضا :

منها خبر سواد بن قارب رضى الله تعالى عنه ، وكان يتكهن فى الجاهلية ، وكان شاعرا ثم أسلم . فعن محمد بن كعب القرظى قال : بينا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذات يوم جالسا إذ مرّ به رجل ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المارّ ؟ قال : ومن هذا ؟ قالوا سواد بن قارب الذى أتاه رئيه : أى تابعه من الجن ، الذى يتراءى له ، أتاه بظهور النبى صلى الله عليه وسلم أى بعد أن قال عمر رضى الله عنه على المنبر أى منبر النبى صلى الله عليه وسلم : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ فلم يجبه أحد ، فلما كان السنة المقبلة ولعل ذلك كان فى زمن المجىء للزيارة من الآفاق قال : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ قال بعضهم : يا أمير المؤمنين ما سواد بن قارب ؟ قال : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئا عجيبا . قال البراء : فبينا نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب ، فأرسل إليه عمر رضى الله تعالى عنه فقال له : أنت سواد بن قارب ؟ قال نعم ، قال : أنت الذى أتاك رئيك بظهور النبى صلى الله عليه وسلم؟قال نعم ، قال : فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ، فغضب سواد بن قارب وقال : ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال له : سبحان الله : ما كنا عليه من الشرك : أى من عبادة الأصنام أعظم مما كنت عليه من كهانتك : أى وفى رواية أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : اللهم غفرا ، قد كنا فى الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام والأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام .

أقول : وفيه أن المتبادر أن غضب سواد إنما هو بسبب ما فهمه من نسبته إلى الكهانة بعد الإسلام لا قبلها ، بدليل قوله ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت . وجواب سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه يدل على أنه فهم أن غضب سواد بسبب نسبته للكهانة قبل الإسلام ، فلذلك قال : سبحان الله متعجبا منه .

وفى كلام السهيلى أن عمر رضى الله تعالى عنه مازح سوادا رضى الله تعالى عنه فقال له : ما فعلت كهانتك ياسواد ؟ فغضب وقال له سواد رضى الله تعالى عنه : قد كنت أنا وأنت.

على شر من هذا من عبادة الأصنام وأكل الميتات ، أفتعيرنى بأمر قد تبت منه ؟ فقال عمر رضى الله تعالى عنه : اللهم غفرا فليتأمل والله أعلم . ثم قال لسواد : أخبرنى مانبأ رئيك بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية قال : ياسواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين . بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان : إذ أتانى رئيي ، فضربنى برجله وقال : قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها   وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى   ماصادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم   ليس قدماها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام فإنى أمسيت ناعسا ، فلما كانت الليلة الثانية أتانى ، فضربنى برجله وقال : قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتخبارها   وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى   مامؤمن الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم   بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى أنام فإنى أمسيت ناعسا ، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشا يقول :

عجبت للجن وتحساسها   وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى   ماخير الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم   وارم بعينيك إلى راسها

فقمت فقلت : قد امتحن الله قلبى ، فرحلت ناقتى ثم أتيت المدينة . وفى رواية : حتى أتيت مكة وهى كما قال البيهقى أقرب إلى الصحة من الأولى : أى لأن الجن إنما جاءت إليه صلى الله عليه وسلم للإيمان به فى مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حوله . وفى لفظ : والناس حوله . وفى لفظ : والناس عليه كعرف الفرس ، فلما

رآني قال : مرحبا بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ماجاء بك . قلت : يارسول الله ، قد قلت شعرا ، فاسمع مقالتي يارسول الله ، فقال : هات فأنشأت : أي ابتدأت أقول:

* أتاني نجيي بعد هدء ورقدة * وفي لفظ :

أتاني رئيي بعد ليل وهجعة ولم يك فيما قد تلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤي بن غالب

فشمرت من ذيل الإزار * وفي لفظ : عن ساقي الإزار

ووسطت بي الذعلب الوجناء بين السباسب

فأشهد أن الله لا رب غيره وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله ياابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل وإن كان فيما جاء شيب النوائب
وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

وفي رواية :

وكن لي شفيعا يوم لا ذو قرابة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

قال : ففرح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمقالتي فرحا شديدا حتى رؤي الفرح في وجوههم : أي وضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : أفلحت ياسواد ، فرأيت عمر رضي الله تعالى عنه التزمه وقال : لقد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ قال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن : أي وهذا السياق يدل على أن سيدنا عمر لم يكن حاضرا عند النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبره سواد .

ولما مات صلى الله عليه وسلم وخشي سواد على قومه الردة قام فيهم خطيبا فقال : يامعشر دوس ، من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم ، ومن شقائهم أن لايتعظوا إلا بأنفسهم ، وإنه من لم تنفعه التجارب ضربه ، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل ، وإنما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس . ولا ينبغي لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية ، ولست أدري لعله يكون للناس جولة ، فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة ، والله يحبها فأحبوها ، فأجابه القوم بالسمع والطاعة .

أي ومن ذلك أن امرأة كانت كاهنة بالمدينة يقال لها حطيمة ، كان لها تابع من الجن

فجاءها يوما فوقف على جدارها ، فقالت له : مالك لا تدخل تحدثنا ونحدثك ؟ فقال : إنه قد بعث نبى بمكة يحرم الزنا ، فحدثت بذلك ، فكان أول خبر تحدث به بالمدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما ما سمع من جوف الأصنام فكثير أيضا .

فنها أى غير ما تقدم فى ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم خبر عباس بن مرداس قال : كان لمرداس السلمى وثن يعبده يقال له ضمار بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدهـا ألف ثم راء مهملة ، فلما حضرت مرداسا الوفاة قال للعباس ولده أى بنى اعبد ضمارا فإنه ينفعك ويضرك ، فبينا عباس يوما عند ضمار إذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول :

من للقبائل من سليم كلها   أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى   بعد ابن مريم من قريش مهتد
أودى ضمار وكان يعبد مدة   قبل الكتاب إلى النبى محمد

فحرق عباس ضمارا ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ أن عباس بن مرداس كان فى لقاح له نصف النهار ، إذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب بيض فقال له : يا عباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها ، وأن الحرب قد حرقت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل عليه البر والتقوى صاحب الناقة القصواء ؟ فقال عباس : فراعنى ذلك ، فجئت وثنا لنا يقال له الضمار كنا نعبده وتكلم من جوفه فكنست ماحوله ثم تمسحت به ، فإذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبائل من قريش كلها   هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد مدة   قبل الصلاة على النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى   بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال عباس : فخرجت مع قومى بنى حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فدخلت المسجد ، فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم وقال : يا عباس كيف إسلامك ، فقصصت عليه القصة ، فقال : صدقت وأسلمت أنا وقومى .

ومن ذلك خبر مازن بن الغضوبة قال : كنت أسدن : أى أخدم صنما بقرية بعمان : أى بالتخفيف تدعى سمائل ، وسمال يقال له بادر . وفى لفظ باحر بالحاء المهملة ، فعترنا

ذات يوم عنده عتيرة وهى الذبيحة مطلقاً . وقيل فى رجب خاصـــة . فسمعنا صوتا من جوف الصنم يقول : يا مازن اسمع تسرّ ظهرخير وبطن شر ، بعث نبى من مضر بدين الله الـكبر ، فدع نحيتا من حجر ، تسلم من حرّ سقر . قال مازن : ففزعت لذلك وقلت : إن هذا لعجب ، ثم عترت بعد أيام عتيرة : أى ذبحت ذبيحة لذلك الصنم ، فسمعت صوتا من الصنم يقول :

أقبل إلىّ أقبل ... تسمع مالا تجهل
هذا نبى مرسل ... جاء بحق منزل
آمن به كى تعدل ... عن حرنار تشعل
وقودها بالجندل

فقلت : إن هذا لعجب ، وإنه لخير يراد بى .

أقول : ورأيت فى بعض السير تقديم هذه الأبيات على ماقبلها ، وأن مازنا قال : ثم سمعت صوتا أبين من الأول ، وهويقول : يامازن اسمع إلى آخره ، والله أعلم .

قال مازن : فبينا نحن كذلك ، إذ قدم رجل من أهل الحجاز قلناله : ما الخبر وراءك؟ قال : قد ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه أجيبوا داعى الله ، فقلت هـــذا نبأ ماسمعته ، فنزلت إلى الصنم فـكسرته جذاذا ، وركبت راحلتى وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرح لى الإسلام وأسلمت ، وقلت :

كسرت بادرا جذاذا وكان لنا ... ربا نطيف به ضلا بتضلال
بالهاشمى هدانا من ضلالتنا ... ولم يكن دينه شيئا على بالى
ياراكبا بلغن عمرا وإخوتها ... أنى لما قال ربى بادر قالى

عنى بعمرو وإخوتها بنى خطامة ، وهى بطن من طيىء ، وهذه الأبيات ساقطة فى [أسد الغابة] قال مازن . فقلت : يارسول الله إنى مولع بالطرب : أى مغرم به ، وبشرب الخمر وبالهلوك : أى الفاجرة من النساء التى تتمايل وتتثنى عند جماعها : وقيل الساقطة على الرجال أى لشدة شبقها ، وألحت : أى دامت علينا سنون : أى أعوام القحط والجدب فذهبن بالأموال ، وهزلن الذرارى والعيال ، وليس لى ولد فادع الله أن يذهب عنى ماأجد ، ويأتينى بالحيا ، ويهب لى ولدا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال ، وبالخمر ريا لاإثم فيه ، وبالعهر أى الزناعفة

الفرج ، وأته بالحيا : أى المطر ، وهب له ولدا ، قال مازن فأذهب الله عنى ما كنت أجده ، وتعلمت شطر القرآن ، وحججت حججا ، وأخصبت عمان يعنى قريته وما حولها من قرى عمـــان ، وتزوّجت أربع حرائر ، ووهب الله لى حيان : يعنى ولده وأنشأت أقول :

إليك رسول الله حنت مطيتى — تجوب الفيافى من عمان إلى العرج

لتشفع لى ياخير من وطئ الحصا — فيغفر لى ذنبى وأرجع بالفلج

أى بالفوز والظفر بالمطلوب :

إلى معشر خالفت فى الله دينهم — و لا رأيهم رأيى ولا شرجهم شرجى

أى بالشين والجيم : أى لا شكلهم شكلى ، ولا طريقهم طريقى :

وكنت أمرأ بالعهر والخمر مولعا — شبابى حتى آذن الجسم بالنهج

أى بالبلاء .

فبدلنى بالخمر خوفا وخشية — وبالعهر إحصانا فحصن لى فرجى

فأصبحت همى فى الجهاد ونيتى — فلله ماصومى ولله ماحجى

قال مازن : فلما رجعت إلى قومى أنبونى : أى عنفونى ، ولامونى وشتمونى وأمروا شاعرهم فهجانى ، فقلت : إن هجوتهم فإنما أهجو نفسى ، وتنحيت عنهم وأتيت مسجدا أتعبد فيه ، وكان لا يأتى هذا المسجد مظلوم فيتعبد فيه ثلاثا ويدعو على من ظلمه إلا استجيب له ولا دعا ذو عاهة من برص أو غيره إلا عوفى . ثم إن القوم ندموا وطلبوا منى الرجوع إليهم فأسلموا كلهم ، وضعف هذا الحديث .

وأما ما سمع من أجواف الذبائح . فمنه ما جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : كنا يوما فى حى من قريش يقال لهم آل ذريح بالحاء المهملة ، وقد ذبحوا عجلا لهم والجزار يعالجه ، إذ سمعنا صوتا من جوف العجل ولا نرى شيئا : يا آل ذريح ، أمر نجيح ، صائح يصيح ، بلسان فصيح . يشهد أن لا إله إلا الله : أى والمراد بالذريح : العجل الذى ذبح ، لأنه ملطخ بالدم الأحمر ، لقولهم : أحمر ذريحىّ : أى شديد الحمرة . والذى فى البخارى يقول : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله ، والمراد بالجليح : العجل المذبوح أيضا ، لأنه قد جلح : أى كشف عنه جلده .

وأما ماسمع من الهواتف ، ولم يجئ على ألسنة الكهان ، ولا سمع من جوف

الأصنام ، ولا من جوف الذبائح فكثير . من ذلك ما حدّث به بعضهم وذكره النبي صلى الله عليه وسلم قال : يارسول الله ، لقد رأيت من قس عجبا ، خرجت أطلب بعيرا لى حتى إذا عسعس الليل : أى أدبر ، وكادالصبح أن يتنفس ، هتف بى هاتف يقول :

* ياأيها الراقد فى الليل الأحم * أى بالحاء المهملة يعنى الأسود * قدبعث الله نبيا بالحرم *

من هاشم أهل الوفاء والكرم ‏ ‏ يجلو دجنات الليالى والبهم

أى الظلمات والأمور المشكلة ، فأدرت طرفى فما رأيت شخصا فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتف فى داجى الظلم ‏ ‏ أهلا وسهلا بك من طيف ألمّ

بين هداك الله فى لحن الكلم ‏ ‏ من ذا الذى تدعو إليه يغتنم

فإذا أنا بنحنحة وقائل يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، وبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحبور : أى السرور ، صاحب النجيب الأحمر : أى الكريم من الإبل ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر : أى الأبيض المشرب بالحمرة ، والحاجب : أى الجبين الأقمر : أى الأبيض ، والطرف الأحور : أى شديد سواده ، صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله ، فذاك محمد المبعوث إلى الأسود والأحمر ، أهل المدر والوبر : أى العجم والعرب ، ثم أنشأ يقول :

الحمد لله الذى ‏ ‏ لم يخلق الخلق عبث

أرسل فينا أحمدا ‏ ‏ خير نبي قد بعث

صلى عليه الله ما ‏ ‏ حج له ركب وحث

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

وتغنت بمدحه الجن حتى ‏ ‏ أطرب الإنس منه ذاك الغناء

أى أظهرت الجن أوصافه صلى الله عليه وسلم الجميلة فى صورة الغناء الذى تألفه النفس ، ولا تصبر منها عند سماعه ، فتسمع لغيره ، حتى أطرب الإنس ذاك الغناء : الذى سمعوه من الجن ، قال : فلاح الصباح ، وإذابالفنيق يشقشق . والفنيق : بفتح الفاء وكسر النون وسكون المثناة تحت ثم قاف : الفحل الكريم من الإبل ، ويشقشق بشينين معجمتين وقافين : أى يهدر إلى النوق ، فملكت خطامه ، وعلوت سنامه ، حتى إذا لغب بالغين المعجمة والموحدة : أى تعب ، فنزل فى روضة خضراء ؟ فإذا أنا بقسّ بن

ساعدة فى ظل شجرة وبيده قضيب من أراك ينكت به الأرض . والنكت بالمثناة فوق ، وهو يقول :

ياناعى الموت والملحود فى جدث (أى قـبر)
عليهم من بقايا بزهم خرق أى والـبز الثياب
دعهم فإن لهم يوما يصاح به فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
أى خافوا حتى يعودا بحال غير حالهم خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
منهم عـراة ومنهم فى ثيابهم منها الجديد ومنها المنهج الخلق

والمنهج من الثياب : الذى أخذ فى البلى ، قال : فدنوت منه ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام ، فإذا بعين خرارة : أى لمائها خرير : أى صوت فى الأرض ، خوارة : أى ضعيفة ، ومسجد بين قبرين وأسدين عظيمين يلوذان به ؛ وإذا بأحدهما قد سبق الآخر إلى الماء فتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربه بالقضيب الذى فى يده وقال : ارجع ، ثكلتك أمك : أى فقدتك حتى يشرب الذى قبلك فرجع ، ثم ورد بعده ، فقلت له : ماهذان القبران ؟ قال : هـذان قبرا أخوين كانا لى يعبدان الله عز وجل معى فى هـذا المكان لا يشركان بالله شيئا : أى اسم أحدهما سمعون والآخر سمعان ، فأدركهما الموت فقبرتهما ، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما ، ثم نظر إليهما وأنشد أبياتا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله قسا ؛ إنى أرجو أن يبعثه الله أمة وحده : أى واحدا يقوم مقام جماعة كما تقدم ، وقد أشار إلى ذلك صاحب الأصل بقوله :

وعنه أخبر قس قومه فلقد حلى مسامعهم من ذكره شنفا

ولما مات قس قبر عندهما ؛ وتلك القبور الثلاثة بقرية يقال لها روحين ؛ من أعمال حلب ؛ وعليها بناء والناس يزورونهم ؛ وعليهم وقف ولهم خدام .

ومن ذلك ما ذكره الواقدى بإسناد له قال : كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يحدث أن قوما من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوسا ، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم ؛ فبينا الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفا يهتف ويقول :

يا أيها الناس ذوو الأجسام ومسندو الحكم إلى الأصنام
أما ترون ما أرى أمامى من ساطع يجلو دجى الظلام
ذاك نبى سيد الأنام من هاشم فى ذروة السنام

مستعلن بالبلد الحرام جاء يهدّ الكفر بالإسلام
أكرمه الرحمن من إمام

قال أبو هريرة : فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا ، فلم يمض بهم ثالثهم حتى فجأهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة ، أى جاءهم ذلك بغتة ، فما أسلم الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عبرا عند أصنامهم .

وأما خبر زمل بن عمرو العذرى قال : كان لبنى عذرة ، وهى قبيلة من اليمن صنم يقال له خمام بالخاء المعجمة المضمومة وتخفيف الميم وكانوا يعظمونه ؛ وكان فى بنى هند بن حرام بالحاء المهملة المفتوحة والراء ، وكان سادنه : أى خادمه رجلا يقال له طارق ؛ قال فى النور : لا أعلم له ترجمة ولا إسلاما ؛ وكانوا يعترون ، أى يذبحون الذبائح عنده ، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم سمعنا صوتا يقول : يابنى هند بن حرام ، ظهر الحق وأودى خمام ، أى هلك ،ورفع الشرك الإسلام . قال زمل : ففزعنا لذلك ، وهالنا أى أفزعنا فمكثنا أياما ثم سمعنا صوتا يقول : ياطارق ياطارق ، بعث النبى الصادق ،بوحى ناطق ، صدع صدعة بأرض تهامة ، لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع منى إلى يوم القيامة ، فوقع الصنم لوجهه .

فإن كان ذلك الصوت من جوف الصنم ويرشد إليه قوله : هذا الوداع منى إلى يوم القيامة ، فهو من غير هذا النوع ، وإن لم يكن فهو من هذا النوع . قال زمل : فابتعت أى اشتريت راحلة ، ورحلت حتى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم مع نفر من قومى وأنشدته * إليك رسول الله أعلمت نصها * النص : هو الغاية فى السير

* أكلفها حزنا وقوزا من الرمل * والحزن ما ارتفع من الأرض ، والقوز بالقاف والزاى : التل الصغير .

* لأنصر خير الناس نصرا موزرا * (أى قويا) وأعقد حبلا من حبالك فى حبلى * والحبل العهد والميثاق .

وأشهد أن الله لاشىء غيره * أدين له (أى أخضع وأضيع) * ما أثقلت قدمى نعلى .

ومن هذا النوع خبر تميم الدارى : أى ويكنى أبارقية اسم ابنة له لم يولد له غيرها روى عنه صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة مع الدجال على المنبر . فقال : حدثنى تميم الدارى ، وذكر القصة ، قال بعضهم : وهذا أولى مايخرّجه المحدثون فى رواية الكبار على الصغار .

وقد يـكون من ذلك ما ذكر أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه مر يوما على ابنته عائشة رضى الله تعالى عنها ، فقال : هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء؟ فقالت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء كان يعلمناه ، وذكر أن عيسى ابن مريم كان يعلمه أصحابه ويقول : لو كان على أحدكم جبل دين فدعا قضاه الله عنه،قال نعم يقول « اللهم فارج الهم ، كاشف الغم ، مجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنى ، فارحمنى برحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك » وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال « كان علىّ دين وكنت له كارها فقلته ، فلم ألبث إلا يسيرا حتى قضيته » .

قال تميم الدارى رضى الله تعالى عنه : كنت بالشام حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إلى بعض حاجاتى فأدركنى الليل ، فقلت : أنا فى جوار عظيم هذا الوادى ، فلما أخذت مضجعى إذا مناد ينادى لا أراه ، عذ بالله ، فإن الجن لاتجير أحدا على الله ، فقلت أيم تقوله ؟ وأيم بتشديد الياء وباسكانها وفتح الميم فيهما : أى أيما شىء تقول ؟ فقال « قد خرج رسول الأميين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا خلفه بالحجون : أى وهو مقبرة مـكة التى يقال لها المعلاة كما تقدم وأسلمنا واتبعناه ، وذهب كيد الجن ، ورميت بالشهب ، فانطلق إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسألت راهبه وأخبرته ، فقال : صدقوك نجده يخرج من الحرم أى مكة ، ومهاجره الحرم : أى المدينة ، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه ، قال تميم : فطلبت الشخوص : أى الذهاب حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم.فأسلمت .

أقول : وهذا يدل ظاهرا على أن تميما الدارى أسلم بمـكة قبل الهجرة ، فهومماالـكلام فيه ، بل رأيت فى تتمة الخبر : فسرت إلى مكة ، فلقيت النبى صلى الله عليه وسلم وكان مستخفيا فآمنت به .

ورأيت بعضهم قال : وهذه الرواية غلط ، لأن تميما الدارى إنما أسلم سنة تسع من الهجرة ، والله أعلم .

قال : ومن ذلك ماحدّث به سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه أن رجلا من بنى تميم حدث عن بدء إسلامه قال : إنى لأسير برمل عالج ذات ليلة ، إذ غلبنى النوم ، فنزلت عن راحلتى ، وأنختها ونمت وتعوذت قبل نومى ، فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادى من الجن ، فرأيت فى منامى رجلا بيده حربة يريد أن يضعها فى نحر ناقتى ، فانتبهت فزعا

فنظرت يمينا وشمالا فلم أر شيئا ، فقلت : هذا حلم ، ثم عدت فتعوذت ، فرأيت مثل ذلك وإذا بناقتى ترعد . ثم غفوت ، فرأيت مثل ذلك ، فانتبهت ، فرأيت ناقتى تضطرب ، فالتفت فإذا أنا برجل شاب كالذى رأيته فى منامى بيده حربة ورجل شيخ يمسك بيده يرده عن ناقتى ، وبينهما نزاع :

فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش ، فقال الشيخ للفتى : قم فخذ أيها شئت فداء لناقة جارى الإنسى ، فقام الفتى وأخذ منها ثورا وانصرف ، ثم التفت إلى الشيخ وقال : يافتى إذا نزلت واديا من الأودية فخفت هوله ، فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادى ، ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها ، فقلت له : ومن محمد ؟ قال : نبى عربى لاشرقى ولا غربى ، فقلت : أين مسكنه ؟ قال : يثرب ذات النخل ، فركبت ناقتى ، وحثثت السير حتى أتيت المدينة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثنى قبل أن أذكر له منه شيئا ، ودعانى إلى الإسلام فأسلمت ، وهذا السياق يدل على أن هذه القصة بعد الهجرة لاعند المبعث الذى الكلام فيه .

ونظير هذا ماحدث به بعض الصحابة قال : خرجت فى طلب إبل لى وكنا إذا نزلنا بواد قلنا نعوذ بعزيز هذا الوادى ، فتوسدت ناقتى ، وقلت : أعوذ بعزيز هذا الوادى فإذا هاتف يهتف بى ويقول :

ويحك عذ بالله ذى الجلال ... منزل الحرام والحلال
ووحد الله ولا تبال ... ما كيد ذى الجن من الأهوال
إذ يذكر الله على الأحوال ... وفى سهول الأرض والجبال
وصار كيد الجن فى سفال ... إلا النبى وصالح الأعمال

فقلت له : يا أيها القائل ما تقول ... أرشد عندك أم تضليل؟

فقال : هذا رسول الله ذو الخيرات ... جاء بيس وحاميمات
وسور بعد مفصلات ... يأمر بالصلاة والزكاة
ويزجر الأقوام عن هنات ... قد كن فى الإسلام منكرات

فقلت : أما لو كان لى من يؤدى إبلى هذه إلى أهلى لأتيته حتى أسلم فقال : أنا أؤديها فركبت بعيرا منها ثم قدمت فإذا النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر . وفى رواية : فوافيت الناس يوم الجمعة وهم فى الصلاة ، فإنى أنيخ راحلتى ، إذ خرج إلى أبو ذر فقال لى :

يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل ، فدخلت ، فلما رآنى قال : مافعل الرجل . وفى لفظ : مافعل الشيخ الذى ضمن لك أن يؤدى إبلك ، أما إنه قد أداها سالمة ، وقد قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ما كان عليه الناس قبل بعثته ، من أن الإنسان إذا نزل منزلا مخوفا قال أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهائه بقوله سبحانه وتعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال) أى يستعيذون برجال (من الجن) أى حين ينزلون فى أسفارهم بمكان مخوف يقول كل رجل أعوذ بسيد هذا المكان من شر سفهائه (فزادوهم رهقا) أى زادوا الجن : أى ساداتهم باستعاذتهم بهم طغيانا ، فيقولون : سدنا الإنس والجن .

أى ومن ذلك ماحكاه وائل بن حجر الحضرمى ، ويكنى أبا هنيدة ، كان قيلا من أقيال حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم . قال : « وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بشر أصحابه بقدومى ، فقال : يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت راغبا فى الله عز وجل وفى رسوله ، وهو بقية أبناء الملوك . قال وائل فما لقينى أحد من الصحابة إلا قال : بشرنا بك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومك بثلاث ، فلما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحب بى وأدنانى من نفسه وقرب مجلسى وبسط لى رداءه فأجلسنى عليه وقال : اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده ؛ ثم صعد المنبر وأقامنى بين يديه ثم قال : أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت راغبا فى الإسلام فقلت : يارسول الله بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم ؛ فمن الله على أن رفضت ذلك كله ، وآثرت دين الله قال صدقت ، اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده » .

قال : وسبب وفودى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لى صنم من العقيق فبينما أنا نائم فى الظهيرة إذ سمعت صوتا منكرا من المخدع الذى به الصنم فأتيت الصنم وسجدت بين يديه ، وإذا قائل يقول :

واعجبا لوائل بن حجر ... يخال يدرى وهو ليس يدرى

ماذا يرجى من نحيت صخرى ... ليس بذى نفع ولا ذى ضر

« لو كان ذا حجر أطاع أمرى »

قال : فقلت : أسمعت أيها الهاتف الناصح ؛ فماذا تأمرنى ؟ فقال :

ارحل إلى يثرب ذات النخل تدين دين الصائم المصلى

محمد النبى خير الرسل

ثم خر الصنم لوجهه ، فاندقت عنقه فقمت إليه فجعلته رفاتا ؛ ثم سرت مسرعا ، حتى أتيت المدينة فدخلت المسجد الحديث .

وفيه أنه إن كان الصوت من جوف الصنم فهو من غير هذا النوع .ولوائل هذا حديثه مع معاوية تركناه لطوله .

وأما ماسمع من بعض الوحوش ، فمنه ماحدث به أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « بينا راع يرعى بالجزيرة إذ عرض الذئب لشاة من شياهه فحال الراعى بين الذئب وبين الشاة فأقعى الذئب على ذنبه فقال ألا تتق الله تحول بينى وبين رزق ساقه الله إلىّ ؟ فقال الراعى أعجب من ذئب يكلمنى بكلام الإنس ، فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب منى ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين » .

وفى رواية بيثرب يحدث الناس بأنباء ماقد سبق ،وفى لفظ : يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم ، فساق الراعى شياهه فأتى المدينة فغدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه بما قال الذئب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الراعى ، إن من أشراط الساعة كلام السباع للإنس ،والذى نفس محمد بيده لاتقوم الساعة حتى يكلم الرجل شراك نعله أى وهو أحد سيورها الذى يكون على وجهها كما تقدم ، وعذبة سوطه ، أى طرفه وقيل أحد سيوره ، ويخبره بما فعل أهله » أى وفى لفظ « فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى بالصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للأعرابى . أخبرهم فأخبرهم » .

وفى رواية أن راعى الغنم كان يهوديا . وفى رواية أن الذئب قال له . أنت أعجب منى واقفا على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط أعظم منه قدرا وقد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم ، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب ؛ فتصير فى جنود الله تعالى ؛ فقال له الراعى : من لى بغنمى ، فقال الذئب : أنا أرعاها حتى ترجع ، فأسلم إليه غنمه ومضى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « عد إلى غنمك تجدها بوفرها فوجدها كذلك ؛ وذبح للذئب شاة منها » وفيه أن هذا وما تقدم من خبر سعيد بن جبير كما علمت بعد الهجرة لاعند المبعث الذى الكلام فيه .

قال فى النور . هذا الراعى لا أعرف اسمه . قال وكلم الذئب غير واحد ، فانظرهم فى تعليقى على البخارى .

أقول : ذكر فى حياة الحيوان عن ابن عبد البر : كلم الذئب من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ثلاثة : رافع بن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، ووهبان بن أوس .

وأما ماسمع من بعض الأشجار ، فقد روى عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه قيل له : هل رأيت قبل الإسلام شيئا من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، بينا أنا قاعد فى ظل شجرة فى الجاهلية ، إذ تدلى على غصن من أغصانها حتى صار على رأسى فجعلت أنظر إليه وأقول : ماهذا ؟ فسمعت صوتا من الشجرة : هذا النبى يخرج فى وقت كذا وكذا فكن أنت من أسعد الناس به ، والله أعلم .

وأما تساقط النجوم ، وطرد الجن بها عن استراق السمع . فقد قال ابن إسحاق لما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد فيها فرموا بالنجوم فعرف الجن أن ذلك لأمر حدث من الله فى العباد ، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين بعثه يقص عليه خبرهم إذ حجبوا (وأنا لمسنا السماء) أى طلبنا استراق السمع منها [] (فوجدناها ملئت حرسا شديدا) أى ملائكة أقوياء يمنعون عنها (وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) لخلوها عن الحرس والشهب (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى أرصد له ليرمى به : أى ومن يخطف الخطفة منهم بخفة حركته يتبعه شهاب ثاقب يقتله : أى أو يحرق وجهه أو يخبله قبل أن يلقيها إلى الكاهن ، وذلك لئلا يلتبس أمر الوحى بشىء من خبر الشياطين مدة نزوله وبعد انقضائه وموته صلى الله عليه وسلم ، لئلا تدخل الشبهة على ضعفاء العقول ، فربما توهموا عود الكهانة التى سببها استراق السمع ، وأن أمر رسالته صلى الله عليه وسلم تم فاقتضت الحكمة حراسة السماء فى حياته صلى الله عليه وسلم وبعد موته ، ومن ثم قال « لا كهانة بعد اليوم » .

وقد حدث بعضهم قال : إن أول العرب فزع للرمى بالنجوم حين رمى بها ثقيف ، وإنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ، وكان أدهى العرب ، وأنكرها رأيا : أى أدهاها رأيا ، وكان ضريرا ، وكان يخبرهم بالحوادث فقالوا له : ياعمرو ألم تر : أى تعلم ماحدث فى السماء من الرمى بهذه النجوم ، فقال : بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم أى

النجوم المشهورة [ ] التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هى التى يرمى بها فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق : أى والنوء بالنون والهمز هنا : مايحصل عند سقوط نجم فى المغرب وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوما . وحقيقة النوء سقوط النجم وطلوع رقيبه فى المدة المذكورة .

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها أو إلى الطالع منها ، فتقول : مطرنا بنوء كذا ، وسيأتى الكلام على ذلك فى غزوة الحديبية .

وفى لفظ : فأمر أراد الله ونبى يبعث فى العرب فقد تحدث بذلك . لايقال : قد رجمت الشياطين بالنجوم قبل ذلك ، وذلك عند مولده صلى الله عليه وسلم . لأنا نقول : المراد رجمت الآن بأكثر مما كان قبل ذلك ، أو صارت تصيب ولا تخطئ .

ومن ثم حدث بعضهم ، قال : لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم أى قرب زمن بعثه رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد ياليل بن عمرو وهو بمثناتين تحتيتين وكسر اللام الأولى الثقفى وكان أعمى فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم ، فقال لهم :لاتعجلوا وانظروا ، فإن كانت النجوم التى تعرف أى وهى التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء فهى عند فناء الناس ، وإن كانت لاتعرف فهى من حدث ، فنظروا فإذا نجوم لاتعرف ، فقالوا : هذا من حدث .

أى وقد روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « النجوم أمنة السماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء مايوعدون ، وأنا أمنة لأصحابى ، فإذا ذهبت أتى أصحابى مايوعدون ، وأصحابى أمنة لأمتى ، فإذا ذهبت أصحابى أتى أمتى مايوعدون ، فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم» .

وفى لفظ : فما مكثوا إلا يسيرا حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال : ظهر محمد بن عبد الله يدعى أنه نبى مرسل .

وهذا قد يخالف مايأتى عن ابن عمر « لما كان اليوم الذى تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خبر السماء بالشهب » ولا مانع من تكرر سؤال ثقيف مرة لعمرو بن أمية ومرة لعبد ياليل بن عمرو ، وأن كلا منهما كان أعمى . ويحتمل اتحاد الواقعة .

ووقع الاختلاف فى اسم الذى سألوه ، فسماه بعضهم عمرو بن أمية ، وبعضهم سماه عبد ياليل بن عمرو ؛ هذا كما ترى إنما كان عند المبعث ، وبه يعلم مافى قول الماوردى الذى نقله عن شيخ بعض شيوخنا النجم الغيطى فى معراجه وأقره .

وسببه أى رمى النجوم أن الله تعالى لما أراد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ؛ ففزع أكثر العرب منها ؛ وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير وكان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها ، فقال : انظروا البروج الاثنى عشر ، فإن انقض منها شىء فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شىء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم ،فإنه يقتضى أن المراد ببعثه ولادته فكان يتعين إسقاط قوله قبل مولده ، لما علمت أن هذا : أى كثرة تساقط النجوم إنما كان عند بعثه ونبوته لاعند ولادته . ومنه خبر أبى لهب أو لهيب بن مالك أى من بنى لهب ، فإن بنى لهب فزعوا لفزع ثقيف . قال « حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبى وأمى، نحن أول من عرف حراسة السماء ومنع الجن من استراق السمع ، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن يقال له خطر . بالخاء المعجمة والطاء المهملة والراء ابن مالك . قال فى النور : لا أعرف له ترجمة ولا إسلاما ، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كهاننا،فقلنا له ياخطر هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها ؟ فإنا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها،فقال ائتونى بسحر أى قبيل الفجر أخبركم الخبر الخبر ، أم ضرر أم لأمن أو حذر . قال . فانصرفنا عنه يومنا فلما كان من الغد فى وجه السحر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه ، فناديناه : ياخطر ياخطر ، فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته أصابه أصابه ، جمع وصب كجمل وجمال ، فالهمزة بدل من الواو ، خامره عقابه ، عاجله عذابه ، أحرقه شهابه ، زايله جوابه : أى زال عنه جوابه ، ياويله ماحاله ، بلبله بلباله ، البلبال الغم ، عاوده خباله ، تقطعت حباله ، وغيرت أحواله ، ثم أمسك طويلا ، ثم قال : يامعشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسم بالكعبة والأركان ، والبلد المؤتمن السدان أى الخدام ، قد منع السمع عتاة الجان ، بثاقب يكون ذا سلطان ، من أجل مبعوث عظيم الشان ، يبعث بالتنزيل والفرقان ، وبالهدى

وفاضل القرآن ، تبطل به عبادة الأوثان ، قال فقلنا له : ويلك ياخطر إنك لتذكر أمراً عظيما ، فماذا ترى لقومك ؟ فقال :

أرى لقومى ماأرى لنفسى   أن يتبعوا خير نبى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس   يبعث فى مكة دارالحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

والحمس بضم الحاء المهملة وإسكان الميم والسين المهملة : هم قريش وما ولدت من غيرها فإنهم كانوا لايزوجون بناتهم لأحد من أشراف العرب إلا على شرط أن يتحمس أولادهم ، فإن قريشا من بين قبائل العرب دانوا بالتحمس ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فى ذلك من استحلال الأموال والفروج ومالوا للتجارة ؛ ومن ثم يقال : قريش الحمس ، سموا بذلك لتشددهم فى دينهم ، لأن الحماسة هى الشدة ، فقلنا له : ياخطر ومن هو ؟ فقال والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، مافى حكمه طيش . أى عدول عن الحق ، من قولهم طاش السهم عن الهدف: إذا عدل عنه ، ولا فى خلقه هيش . أى ليس فى طبيعته وسجيته قول قبيح ، يكون فى جيش ،وأى جيش،من آل قحطان ، وآل أيش ، وآل قحطان هم الأنصار ، قال صلى الله عليه وسلم « رحى الإيمان دائرة فى ولد قحطان » وآل أيش قبيلة من الجن المؤمنين ، ينسبون إلى أبيهم أيش ، شخص من كبير الجن . وقيل أراد بهم المهاجرين . أى ومن المهاجرين الذين يقال فيهم أيش ، لأنه يقال فى مقام المدح فلان أيش على معنى أى شىء هو ؟ أى شىء عظيم لايمكن أن يعبر عن عظمته وجلالته . وروى بدل أيش ريش . فقلنا له بين لنا من أى قريش ؟ فقال : والبيت ذى الدعائم ، يعنى الكعبة ، والركن يعنى الحجر الأسود والأحائم ، يعنى بئر زمزم لأن الأحائم جمع أحوام والأحوام جمع أحوم وهو الماء فى البئر ؟ وأراد بئر زمزم أو أن الأصل الحوائم ، ففيه قلب مكانى الأصل فواعل فصار أفاعل ، والحوائم: هى الطير التى تحوم على الماء ، والمراد حمام مكة لهو نجل أى نسل هاشم ، من معشر أكارم ، يبعث بالملاحم يعنى الحروب وقتل كل ظالم، ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان ، ثم قال الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ، ثم سكن وأغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام ، فقال لاإله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوة » أى وحى وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده :أى مقام جماعة كما تقدم فى نظيره .

قال : ومن ذلك مارواه مسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن نفر من الأنصار قالوا « بينا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بنجم فاستنار ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به فى الجاهلية؟ » أى قبل البعث « قالوا : يارسول الله كنا نقول إذا رأينا يرمى بها : مات ملك وولد مولود ، مات مولود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى فى خلقه أمرا سمعته حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم بتسبيحهم فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض لم سبحتم؟ فيقولون : قضى الله فى خلقه كذا وكذا له الأمر الذى كان » أى يكون فى الأرض « فيهبط به من سماء إلى سماء » أى تقوله أهل كل سماء لمن يليهم « حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاس ، ثم يأتون به إلى الكهان ، فيحدثونهم فيخطئون بعضا ويصيبون بعضا » .

أى وفى البخارى « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه » الحديث . وقولهم قال الحق : أى ثم يذكرونه ، لما تقدم من قولهم قضى الله فى خلقه كذا وكذا ، ولما يأتى . وقوله صلى الله عليه وسلم : يرمى بها فى الجاهلية صريح فى أنه كان يرمى بالنجوم للحراسة فى زمن الفترة بينه صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه الصلاة والسلام قبل مولده صلى الله عليه وسلم . ويخالفه ما يأتى عن أبىّ بن كعب رضى الله تعالى عنه « وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الكهان ؟ فقال : إنهم ليسوا بشىء ؛ فقالوا : يارسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بالشىء يكون حقا ، قال : تلك الكلمة من الجن يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التى يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة .

أى وفى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة تتحدث فى العنان — أى الغمام — بالأمر يكون فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن ، فيزيدونها مائة كذبة » .

وعن أبيّ بن كعب رضى الله تعالى عنه «لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها ، فلما رأت قريش أمرا لم تكن تراه فزعوا لعبد ياليل» الحديث .

أقول : وهذا يفيد أنه لم يرم بها قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم : أى قبل قربه الشامل لزمن الولادة ، فلا يخالف ماتقدم ، وأن النجوم كان يرمى بها قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وذلك صادق بزمن آدم فمن بعده من الرسل ، وهو الموافق لقول الزهرى : الحجب وتساقط النجوم كان موجودا قبل البعث فى سالف الأزمان : أى فى زمن الرسل لافى زمن الفترات بين الرسل ، لقول الكشاف : وقول بعضهم : ظاهر الأخبار يدل على أن الرجم للشياطين بالشهب كان فى زمن غيره صلى الله عليه وسلم من الرسل وهو كذلك، وعليه أكثر المفسرين — حراسة لما ينزل من الوحى على الرسل .وأما فى الزمن الذى ليس فيه رسول : أى وهو زمن الفترات بين الرسل ، فكانوا يسترقون السمع فى مقاعد لهم ، ويلقون مايسمعون للكهان : أى لأن الله تعالى ذكر فائدتين فى خلق النجوم، فقال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد) وكونها إنما جعلت رجوما وحفظا ليس إلا عند قرب مبعثه صلى الله عليه وسلم خاصة دون بقية الرسل من أبعد البعيد .

وحيث كان الغرض من الرمى بالنجوم منع الشياطين من استراق السمع اقتضى ذلك أنه لم يرم بها قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ومنه زمن ولادته .

ويوافق ذلك قول ابن إسحاق : لما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجبت الشياطين ، وقول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما «لما كان اليوم الذى تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خبر السماء ، رموا بالشهب فذكروا ذلك لإبليس ، فقال : بعث أى لعله بعث نبى ، عليكم بالأرض المقدسة أى لأنها محل الأنبياء ، وهذا يدل على أن عند إبليس أن الرمى بالنجوم علامة على بعث الأنبياء ، فذهبوا ثم رجعوا ، فقالوا ليس بها أحد ، فخرج إبليس يطلبه بمكة : أى لأنها مظنة ذلك بعد محل الأنبياء ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء منحدرا معه جبريل ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : بعث أحمد ومعه جبريل» . وفى رواية «إن إبليس قال لما أخبروه بأنهم منعوا من خبر السماء : إن هذا لحدث حدث فى الأرض ، فائتونى من تربة كل أرض

فأتوه بذلك ، فجعل يشمها ، فلما شم تربة مكة قال : من ههنا الحدث ، فمضوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث » .

أقول : قد يقال لا منافاة بين الروايتين ، لأنه يجوز أنهم لم يخبروه بمبعثه صلى الله عليه وسلم لما وجدوه ، فذهب أو ذهب بعد إخبارهم له بذلك للاستيقان ، وهذا يفيد أن الرمى بالنجوم إنما كان عند مبعثه : أى عند تقارب زمنه لاقبل ذلك الذى منه زمن ولادته . وحينئذ يشكل حصول مثل ذلك لإبليس وجنوده عند مولده صلى الله عليه وسلم . ومن ثم قدمنا أنه يجوز أن يكون من خلط بعض الرواة ، وهذه الرواية تدل على أن إبليس لم يكن عنده علم بأن سقوط النجم على الشياطين علامة على مبعث النبى صلى الله عليه وسلم والرواية التى قبلها تدل على ذلك كما علمت . وكلتا الروايتين يدل على أنه لم يعلم عينه ولا محله والله أعلم ، وقد أشار صاحب الهمزية إلى أن حجب الشياطين كان عند مبعثه صلى الله عليه وسلم بقوله :

بعث الله عند مبعثه الشهـــــب حراسا وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمـــع كما يطرد الذئاب الرعاء
فمحت آيـــة الكهانة آيا ت من الوحى مالهن انمحاء

أى أرسل الله زمن إرساله صلى الله عليه وسلم الشعل من النار على الجن لأجل حراسة السماء منهم ، ولكثرة تلك الشعل ضاقت عنها المفازات حال كون تلك الشهب تطرد الجن عن أمكنة قريبة يقعدون فيها لأجل أن يسمعوا شيئا من الملائكة المتكلمين بما سيقع فى الأرض من المغيبات ، وطرد تلك الشهب لأولئك الشياطين فى الشدة كطرد الرعاة للذئاب عن الغنم إذا أرادت أن تعدو عليها ، فبسبب ذلك الطرد البالغ للجن عن خبر السماء محت آيات من الوحى آية الكهانة التى هى الإخبار بالأمور المغيبة ، مالتلك الآيات من الوحى انمحاء : أى ذهاب ، بل هى باقية إلى يوم القيامة . وفيه أنه لزم على كون الغرض من الرمى بالنجوم حفظ الوحى أن ذلك لايكون إلا عند مبعثه صلى الله عليه وسلم ولا يكون قبل ذلك الذى منه وقت ولادته . وأيضا لو كان ذلك موجودا قبل مبعثه واستمر إلى مبعثه لم تفزع العرب منه عند مبعثه .

وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون الغرض الأصلى من الرمى بها حفظ الوحى ، فلا ينافى وجود ذلك قبل ذلك عند ولادته إرهاصا وتخويفا .

وكان هذا السؤال الثانى هو الحامل لأبىّ بن كعب على دعوى أنه لم يرم بالنجوم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها ، ومن ثم قال: فلما رأت قريش أمرا لم تكن تراه فزعوا لعبد ياليل . ويجاب بأنه يجوز أن يكون الرمى بالنجوم عند المبعث مخالفا للرمى بها قبله ، إما لفرط كثرتها وإما لأن الرمى بها بعد المبعث كان من كل جانب . وقيل كان من جانب واحد ؛ وإما لأن الرمى بها صار لا يخطىء أبدا ، وقبل ذلك كان يخطىء تارة ويصيب أخرى ؛ فمنهم من يقتله ، ومنهم من يحرق وجهه ، ومنهم من يخبله : أى يصيره غولا يضل الناس فى البرارى ، وكان ذلك سبب فزع العرب لأنه كان قبل ذلك لم يكن من كل جانب ، ولم يكثر ويخطىء فيعود الشيطان إلى مكانه فيسترق السمع ويلقى مايسترقه إلى كاهنه أى فلم تنقطع الكهانة قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم بالمرة ، بل كانت موجودة إلى زمن مبعثه صلى الله عليه وسلم ، وعند مبعثه انقطعت بالمرة ومن ثم قال « لاكهانة اليوم » وهذا كله على تسليم رواية ابن عباس أن النجوم رمى بها عند ولادته صلى الله عليه وسلم . وحفظ الوحى بالرمى بالشهب لا يخالف ما حكاه فى الإتقان عن سعيد بن جبير « ماجاء جبريل بالقرآن إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة » وسيأتى عن الينبوع عن ابن جرير « مانزل جبريل بوحى قط إلا ونزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبى الذى يوحى إليه يطردون الشياطين عنهما ، لئلا يسمعوا مايبلغه جبريل إلى ذلك النبى من الغيب الذى يوحيه إليه فيبلغوه إلى أوليائهم » ،

وعن بعضهم قال : سافرت عن زوجتى فخلفنى عليها شيطان على صورتى وكلامى وسائر حالاتى التى تعرفها منى ، فلما قدمت من السفر لم تفرح بى ولم تتهيأ لى ، وكانت إذا قدمت من سفر تتهيأ لى كما تتهيأ العروس فقلت لها فى ذلك ، فقالت : إنك لم تغب ، فبينما أنا كذلك ، وقد ظهر لى ذلك الشيطان وقال لى أنا رجل من الجن عشقت امرأتك وكنت آتيها فى صورتك فلا تنكر ذلك ، فاختر إما أن يكون لك الليل ولى النهار ، أولك النهار ولى الليل ، فراعنى ذلك ثم اخترت النهار ، فلما كان فى بعض الليالى جاءنى وقال : بت الليلة عند أهلك فقد حضرت نوبتى فى استراق السمع من السماء فقلت : أنت تسترق السمع ؟ فقال : نعم هل لك أن تكون معى ؟ قلت : نعم ، فلما جاء الليل أتانى ، وقال حوّل وجهك فحولت وجهى ، فإذا هو فى صورة خنزير له جناحان فحملنى على ظهره فإذا له معرفة كمعرفة الخنزير ، فقال لى : استمسك بها فإنك ترى أمورا وأهوالا فـلا

تفارقني تهلك ، ثم صعد حتى لصق بالسماء فسمعت قائلا يقول «لاحول ولا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن » فهوى بى ووقع من وراء العمران فحفظت الكلمات فلما أصبحت أتيت أهلي ، فلما كان الليل جاء فقلتهن ، فاضطرب ، فلم أزل أقولهن حتى صار رمادا ، وإن لم يحمل وقوع ذلك في زمن الجاهلية وإلا كان كذبا لأنهم أجابوا عن إيراد أن القول بقدرة الجن على التصور يلزمه رفع الثقة بشيء ، فإن من رأى نحو ولده وزوجته احتمل أنه جني فيشك بأن الله تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدى إلى مايترتب عليه ريبة في الدين فليتأمل .

وقد جاء في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله «من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ، والذى نفسي بيده إن لا حول ولا قوة إلا بالله شفاء من سبعين داء أدناها الهمّ والغم والحزن » وفرق بين الغم والهم ، بأن الغم يعرض منه السهر ، والهم يعرض منه النوم .

وفي حكمة آل داود : العافية ملك خفي ، وهمّ ساعة هرم سنة . وقال الأطباء : الهم يوهن القلب ، وفيه ذهاب الحياة ؛ كما أن في الحزن ذهاب البصر . وفي الحديث « من كثر همه سقم بدنه » فعلم أن النجوم على تسليم أنه كان يرمى بها قبل الولادة وبعدها إلى البعثة كانت قبل قرب زمن المبعث تصيب تارة ولا تصيب أخرى مع قلتها ، وعند البعثة تصيب ولابد مع كثرتها ، وإن الكثرة هي سبب الفزع لا دوام الإصابة ، وإلا فمجرد دوام الإصابة لايكون حاملا على الفزع لأنه لايظهر لكل أحد ، بخلاف الكثرة ، ومجرد الكثرة لا يكون سببا لقطع الكهانة ؛ أو أنها قبل البعث كانت ترمى من جانب دون آخر ، وبعد البعثة رميت من جميع الجوانب وإليه الإشارة بقوله تعالى (ويقذفون من كل جانب دحورا) فكان ذلك سببا للفزع ، والمراد وجود ذلك مع دوام الإصابة ليكون سببا لقطع الكهانة ، وإلا فمجرد الرمى من كل جانب مع قلة الإصابة لا يكون سببا لقطع الكهانة ، ولما انقطعت الكهانة بعدم إخبار الجن قالت العرب هلك من في السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة حتى أسرعوا في أموالهم أى في إتلافها ، فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب : أيها الناس أمسكوا على أموالكم ، فإنه لم يمت من في السماء ، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي ، والشمس والقمر ؟ كذا في كلام بعضهم ، ولعله لا يخالف ماتقدم من أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له

عمرو بن أمية ، ولرجل آخر يقال له عبد ياليل ، لجواز أن يكون ما ذكر هنا صدر من بعضهم لبعض ، ثم اجتمعوا على عمرو وعبد ياليل والله أعلم .

وظاهر القرآن والأخبار أن الذى يرمى به الشياطين المسترقون نفس النجم ، وإنه المعبر عنه بالكوكب وبالمصباح وبالشهاب . وقيل الشهاب عبارة عن شعلة نار تنفصل من النجم أى كما قلمنا فأطلق عليها لفظ النجم ، ولفظ المصباح ، ولفظ الكوكب ؛ ويكون معنى (وجعلناها رجوما) جعلنا منها رجوما وهى تلك الشهب ؛ ومعنى كونها حفظا باعتبار ماينشأ عنها من تلك الشهب .

وقالت الفلاسفة : إن الشهب إنما هى أجزاء نارية تحصل فى الجوّ عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التى دون الفلك . وقيل السحاب إذا اصطكت أجرامه تخرج نار لطيفة حديدة لا تمر بشىء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدّتها سريعة الخمود . فقد حكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت قاله فى الكشاف .

ومما يؤيد أن الشعل منفصلة من النجوم ، ماجاء عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه أن النجوم كلها كالقناديل معلقة فى السماء الدنيا كتعليق القناديل بالمساجد مخلوقة من نور . وقيل إنها معلقة بأيدى ملائكة ، ويعضد هذا القول قوله تعالى (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت) أن انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة . وقيل إن هذا ثقب فى السماء ، وقد وقع فى سنة تسع وتسعين من القرن السادس أن النجوم ماجت وتطايرت تطاير الجراد ، ودام ذلك إلى الفجر وأفزع الخلق ، فلجئوا إلى الله تعالى بالدعاء قال بعضهم : ولم يعهد ذلك إلا عند ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقول : قد وقع نظير ذلك فى سنة إحدى وأربعين من القرن الثالث : ماجت النجوم فى السماء ، وتناثرت الكواكب كالجراد أكثر الليل ، كان أمرا مزعجا لم ير مثله . ووقع فى سنة ثلثمائة تناثر النجوم تناثرا عجيبا إلى ناحية المشرق ، والله أعلم .

وأما ماجاء من ذكره صلى الله عليه وسلم : أى ذكر اسمه وصفته وصفة أمته فى الكتب القديمة : أى كالتوراة المنزلة على موسى عليه الصلاة والسلام لست ليال خلون من رمضان اتفاقا . والإنجيل المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام لثنتى عشرة خلت من رمضان ، وقيل لثلاث عشرة ، وقيل لثمان عشرة . والزبور المنزل على داود عليه الصلاة والسلام لثنتى عشرة ، وقيل لثلاث عشرة، وقيل لثمان عشرة ، وقيل فى ست خلت من رمضان .

وصحف شعياء ، ويقال له أشعياء أو مزامير داود . وصحف شيث ،فقد أنزلت عليه خمسون صحيفة ، وقيل ستون . وصحف إبراهيم ، فقد أنزل عليه عشرون صحيفة ، وقيل ثلاثون أول ليلة من رمضان اتفاقا . وفى كتاب شعيب : ولم يذكر صحف إدريس ، وقد أنزلت عليه ثلاثون صحيفة .

وذكر بعضهم أن موسى عليه الصلاة والسلام أنزل عليه قبل التوراة عشرون صحيفة ، وقيل عشر صحائف،وهذا كما لايخفى يزيد على ما اشتهر أن الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب .

وفى كلام بعضهم اتفقوا على أن القرآن أنزل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان . وعن أبى قلابة « أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان » وحينئذ يكون من حكى الاتفاق فى التوراة وصحف إبراهيم لم يطلع على هذا أو لم يعتد به، فقد أشار إلى ذكره صلى الله عليه وسلم فى جميع الكتب المنزلة الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته بقوله :

وفى كل كتب الله نعتك قد أتى يقص علينا ملة بعد ملة

وهذا كما لايخفى أبلغ من قول بعضهم :

ومن قبل مبعثه جاءت مبشرة به زبور وتوراة وإنجيل

وقد اعترض على هذا القائل بعض الأغبياء بأن التوراة والإنجيل قدصحت بشارتهما به صلى الله عليه وسلم . وأما الزبور فلا ندرى ولا نقول إلا ما نعلم . ويرده ما ذكره الإمام السبكى ، وسنده قوله تعالى (وإنه لفى زبر الأولين) أى كتبهم . فقدقال بعض المفسرين إن الضمير عائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإضافة حيث لاعهد تحمل على العموم ، وسيأتى أيضا التصريح بوجود اسمه فى الزبور وقد جاء « إن اسمه فى التوراة أحمد ، يحمده أهل السماء والأرض » كما تقدم .

وقد قيل فى سبب نزول قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة إنى باعث من ولد إسمعيل نبيا اسمه أحمد من آمن به فقد اهتدى ورشد،ومن لم يؤمن به فهو ملعون،فأسلم سلمة وأبى مهاجر ، فأنزل الله الآية ،وفيها أيضا محمد واسمه فيها أيضاحمياطا ،وقيل : أى يحمى الحرم من الحرام. واسمه فى التوراة أيضا قدمايا : أى الأول السابق ؛ واسمه فيها أيضا بنديند . واسمه أيضا أحيد وقيل أحيد : أى يمنع نار جهنم عن أمته ،واسمه فيها أيضاطاب طاب : أى طيب . واسمه فيها أيضا كما

فى الشفاء محمد حبيب الرحمن ، ووصف فيها بالضحوك : أى طيب النفس . وفيها محمد بن عبد الله ولده بمكة ، ومهاجره إلى طابة ، وملكه بالشام . والتوراة أى على فرض أن تكون اسما عربيا مأخوذة من التورية وهو كتمان السر بالتعريض ، لأن أكثرها معاريض من غير تصريح . واسمه فى الإنجيل المنحمنا ، والمنحمنا بالسريانية : محمد .

أى وما جاء عن سهل مولى خيثمة . قال : كنت يتيما فى حجر عمى فأخذت الإنجيل ، فقرأته حتى مرت لى ورقة ملصقة بغراء ففتقتها فوجدت فيها وصف محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاء عمى ، فلما رأى الورقة ضربنى . وقال : مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها ، فقلت فيها وصف النبى أحمد ، فقال : إنه لم يأت بعد : أى الآن .

أى وفى الإنجيل أيضا اسمه حبنطا : أى يفرق بين الحق والباطل ، ووصفه بأنه صاحب المدرعة وهى الدرع ، وفيه أيضا وصفه بأنه يركب الحمار والبعير ؛ وسيأتى أن راكب الحمار عيسى عليه الصلاة والسلام ، وراكب الجمل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وسيأتى الجواب . وفى الإنجيل إن أحببتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب إلى ربى فيعطيكم بارقليط ، والبارقليط لا يجيئكم مالم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه مايسمع يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب : أى وما جاء بذلك وأخبر بالحوادث والغيوب إلا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبارقليط أو الفارقليط : الحكيم والرسول . قيل والإنجيل : أى على فرض أن يكون اسما عربيا ، مأخوذ من النجل : وهو الخروج ، ومن ثم سمى الولد نجلا لخروجه ، أو مشتق من النجل : وهو الأصل ، يقال لعن الله أناجيله : أى أصوله ، فسمى هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك الدين . وقيل من النجلة وهى سعة العين لأنه أنزل وسعة لهم : أى لأن فيه تحليل بعض ماحرم عليهم .

ومن ذلك ما جاء عن عطاء بن يسار قال « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك بالمتوكل ، ليس بفظ : أى سيء الخلق ، ولا غليظ : أى شديد القول ، ولا صخاب بالسين والصاد فى الأسواق : أى لا يصيح فيها » وفى الحديث « أشد الناس عذابا كل جعار نعار سخاب

فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ـ أى ملة إبراهيم التى غيرتها العرب وأخرجتها عن استقامتها ، بأن يقول لا إله إلا الله : يفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » أى لا تفهم كأنها فى غلاف : قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه فسألته فما أخطأ فى حرف .

أقول : لكن فى رواية كعب : وأعطى المفاتيح ، ليبصرنّ الله به أعينا عورا ، وليسمع به آذانا صما ، ويقيم به ألسنة معوجة ، يعين المظلوم ، ويمنعه من أن يستضعف . وفيها وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدّة الجهل عليه إلا حلما .

وعن بعض أحبار اليهود أنه قال : على جميع ماوصف به صلى الله عليه وسلم فى التوراة وقفت إلا هذين الوصفين ، وكنت أشتهى الوقوف عليها ، فجاءه شخص يطلب منه ما يستعين به ، وذكر له أنه لم يكن عنده مايعينه به ، فقلت : هذه دنانير ندفعها له ، وتكون على كذا من التمر ليوم كذا ففعل ، فجئته قبل الأجل بيومين أو ثلاثة ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت : ألا تقضينى يا محمد حقى ؟ إنكم يا بنى عبد المطلب مطل ، فقال لى عمر : أى عدو الله : تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وهمّ بى ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : «أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة — أى المطالبة — اذهب وأوفه حقه ، وزده عشرين صاعا مكان مارعته أى خفته فأسلم اليهودىّ » وذكر القصة .

وفى التوراة : لا يزال الملك فى يهود إلى أن يجىء الذى إياه تنتظر الأمم : أى لا يزال أمرهم ظاهرا إلى أن يجىء الذى تنتظره الأمم . أى المرسل إليهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه المرسل لجميع الأمم .

ومما زعمه اليهود بأنه يوشع رد بنص التوراة فى محل آخر : إن الله ربكم يقيم نبيا من إخوتكم مثلى ، وقد قال لى : إنه سوف يقيم نبيا مثلك من إخوتهم ، وأجعل كلمتى فى فيه ، وأيما إنسان لم يطع كلامه أنتقم منه ، لأن قوله مثلى : أى رسولا بكتاب مشتمل على الأحكام والشرائع ، وذكر المبدإ والمعاد ، لأن يوشع لم يكن له كتاب ، بل كان متابعا لسنة موسى عليه الصلاة والسلام فى بنى إسرائيل خاصة ، وأيضا يوشع منهم لا من إخوتهم ، فلو كان يوشع لقال منكم .

وما زعمه النصارى إنه المسيح ردّ عليهم بنصوص الإنجيل التى منها : إن الله يقيم لكم نبيا من إخوتكم ، لأن المسيح ليس من إخوتهم بل منهم ، لأنه من نسل داود . فنى زبور داود : سيولد لك ولد أدعى له أبا ويدعى لى ابنا ، وإخوة بنى إسرائيل إنما هم أولاد إسمعيل الذى هو أخو إسحق وبنو إسرائيل منه . وأيضا لو كان المسيح لم يحسن أن يخاطب بهذا اللفظ .

وفى الإنجيل : جاء الله من طور سينا ، وظهر بساعير ، وأعلن بفاران : أى عرف الله بإرساله موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم ، لأن ظهور نبوّة موسى كان فى طور سينا ، وتقدم أنه جبل بالشام . قيل هو الذى بين مصر وإيليا ، وأنزلت التوراة عليه فيه . وظهور نبوّة عيسى كان فى ساعير وهو جبل القدس ، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسكن بقرية بأرض الخليل يقال لها ناصرة ، وباسمها سمى من اتبعه ، وأنزل عليه الإنجيل بها . وظهور نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كان فى فاران وهى مكة ، وأنزل عليه القرآن بها .

وفى التوراة أن إسمعيل أقام بقرية فاران ، وإنما عبر فى جانب موسى بالمجىء لأنه أول المشرعين ؛ لأن كتابه الذى هو التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع ، بخلاف ما قبله من الكتب فإنها لم تشتمل على ذلك ، وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده ، ومن ثم قيل لها صحف ، وإطلاق الكتب عليها مجاز . ولما حصل بعيسى وبكتابه الذى هو الإنجيل نوع ظهور عبر فى جانبه بالظهور الذى هو أقوى من المجىء ، ثم لما زاد الظهور بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم عبر عنه بالإعلان الذى هو أقوى من مجرد الظهور .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) إنهم يجدون نعته (يأمرهم بالمعروف) وهو مكارم الأخلاق وصلة الأرحام (وينهاهم عن المنكر) وهو الشرك (ويحلّ لهم الطيبات) وهى الشحوم التى حرمت على بنى إسرائيل ، والبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام التى حرمتها الجاهلية (ويحرم عليهم الخبائث) التى كانت تستحلها الجاهلية من الميتة والدم ولحم الخنزير (ويضع عنهم إصرهم) من تحريم العمل يوم السبت ، وعـدم قبول دية المقتول ، وأن يقطعوا ما أصابهم من البول والله أعلم .

ومن ذلك ماجاء عن النعمان السبائي رضي الله تعالى عنه وكان من أحبار يهود باليمن قال : لما سمعت بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه وسألته عن أشياء ، ثم قلت له : إن أبي كان يختم على سفر ويقول لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه . قال النعمان : فلما سمعت بك فتحت السفر ، فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة ، وإذا فيه ماتحل وما تحرم ؛ وإذا فيه أنت خير الأنبياء ؛ وأمتك خير الأمم ، واسمك أحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمتك الحمادون : أي يحمدون الله في السراء والضراء قربانهم دماؤهم : أي يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى باراقة دمائهم في الجهاد ، وأناجيلهم في صدورهم : أي يحفظون كتابهم ، لا يحضرون قتالا إلا وجبريل معهم ، يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على فراخه ، ثم قال لي : يعني أباه : إذا سمعت به فاخرج إليه وآمن به وصدقه ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه ، فأتاه يوما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يانعمان حدثنا ، فابتدأ النعمان الحديث من أوله ، فرؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، ثم قال : أشهد أني رسول الله » .

أقول : والنعمان هذا قتله الأسود العنسي الذي ادعى النبوة ، وقطعه عضوا عضوا وهو يقول : إن محمدا رسول الله ، وإنك كذاب مفتر على الله ، ثم حرقه بالنار : أي ولم يحترق كما وقع للخليل .

وقيل الذي أحرقه الأسود العنسي بالنار ولم يحترق ذؤيب بن كليب أو ابن وهب ، ولما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك قال لأصحابه ، فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في أمتنا مثل إبراهيم الخليل ، وهذا السفر يحتمل أن يكون ملخصا من التوراة ، وقوله إلا وجبريل معهم يدل على أن جبريل يحضر كل قتال صدر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم للكفار ، بل ظاهره كل قتال صدر حتى من جميع الأمة . وفي رواية بعضهم نقلا عن سفر من التوراة : لايلقون أي أمته ، عدوّا إلا وبين أيديهم ملائكة معهم رماح .

وفي التوراة في صفة أمته صلى الله عليه وسلم زيادة على ماسبق : يوضئون أطرافهم ، ويأتزرون في أوساطهم ، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم .

وقد جاء « ائتزوا كما رأيت الملائكة » أي ليلة الإسراء « تأتزر » أي مؤتزرة عند ربها إلى أنصاف سوقها .

وقد جاء « عليكم بالعمائم وأرخوها خلف ظهوركم فإنها سيما الملائكة » وكلاهما أى الاتزار وإرخاء العذبة من خصائص هذه الأمة .

وقد جاء « إن العمائم تيجان المسلمين » وفى رواية « من سيما المسلمين » أى علاماتهم المميزة لهم عن غيرهم .

ويؤخذ من وصفهم بأنهم يوضئون أطرافهم أن الأمم السابقة كانوا لايتوضئون ، ويوافقه قول الحافظ ابن حجر : إن الوضوء من خصائص الأنبياء دون أممهم إلا هذه الأمة ، ويوافقه مارواه ابن مسعود مرفوعا « يقول الله تبارك وتعالى : افترضت عليهم أن يتطهروا فى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء » أى أن يكونوا طاهرين ؛ أو أن هذا أى وجوب الطهر لكل صلاة كان فى صدر الإسلام ولم ينسخ إلا فى فتح مكة كما سيأتى .

ويخالف كون الوضوء من خصائص هذه الأمة مارواه الطبرانى فى الأوسط بسند فيه ابن لهيعة عن بريدة قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فتوضأ واحدة واحدة فقال : هذا الوضوء الذى لا يقبل الله الصلاة إلا به ، ثم توضأ ثنتين ثنتين فقال : هذا وضوء الأمم قبلكم ؛ ثم توضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال : هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى » فإن هذا يفيد أن الوضوء كان للأمم السابقة ؛ لكن مرتين ولأنبيائهم كان ثلاثا ، وعليه فالخاص بهذه الأمة التثليث كوضوء الأنبياء : أى كما اختصت هذه الأمة عمن عداها بالغرة والتحجيل .

وعلى هذا يحمل قول ابن حجر الهيتمى إن الوضوء من خصائص هذة الأمة بالنسبة لبقية الأمم لا لأنبيائهم.

وفى كلام ابن عبد البر قيل إن سائر الأمم كانوا يتوضئون، ولاأعرفه من وجه صحيح . وفى كلام ابن حجر : والذى من خصائصنا إما الكيفية المخصوصة أو الغرة والتحجيل ، هذا كلامه ، وهو يفيد أن كون الكيفية المخصوصة ومنها الترتيب من خصائصنا غير مقطوع به ، بل الأمر فيه على الاحتمال .

ولا يخفى أن الإشارة فى قوله صلى الله عليه وسلم « هذا وضوء الأمم » يدل على الترتيب ، فقد استدل أئمتنا على وجوب الترتيب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يتوضأ إلا مرتبا باتفاق أصحابه ، ولو كان جائزا لتركه فى بعض الأحايين . وما اعترض به على دعوى الاتفاق

بأنه جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه وصف وضوءه صلى الله عليه وسلم «فتوضأ فغسل وجهه ثم يديه ثم رجليه ثم مسح رأسه» أجيب عنه بضعف هذه الرواية .

وعلى تقدير صحتها يجوز أن يكون ابن عباس نسى مسح الرأس فذكره بعد غسل رجليه فمسحه ثم أعاد غسل رجليه . والراوى عن ابن عباس لم يقف على إعادة ابن عباس غسل رجليه .

وفى التوراة فى صفة أمته صلى الله عليه وسلم « دويهم فى مساجدهم كدوى النحل » وفى رواية : «أصواتهم بالليل فى جو السماء كأصوات النحل ، رهبان بالليل، ليوث بالنهار وإذاهم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذاهم أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالكتاب الأول: أى وهو التوراة أو جنس الكتب السابقة والكتاب الآخر : أى وهو القرآن .

وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح قال الله تعالى لعيسى : ياعيسى إنى باعث من بعدك نبيا أمته إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون صبروا واحتسبوا ولا حلم ولا علم . قال: كيف يكون ذلك لهم ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيهم من حلمى وعلمى . وحينئذ يكون المراد ولا حلم ولا علم لهم كامل ، وأن الله تعالى يكمل علمهم وحلمهم من علمه وحلمه ، ويدل لذلك ما ذكره بعضهم أن هذه الأمة آخر الأمم فكان العلم والحلم الذى قسم بين الأمم كما شهد به حديث « إن الله قسم بينكم أخلاقكم » قد دق جدا فلم يدرك هذه الأمة إلا يسير من ذلك مع قصر أعمارهم فأعطاهم الله من حلمه وعلمه . وجاء أنهم مسمون فى التوراة : صفوة الرحمن . وفى الإنجيل : حلماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء .

وفى الطبرانى أن عمر قال لكعب الأحبار : كيف تجدنى يعنى فى التوراة ؟ قال خليفة قرن من حديد ، أمير شديد ، لا تخاف فى الله لومة لائم . وزاد عن جواب السؤال قوله : ثم الخليفة من بعدك يقتله أمة ظالمون له ثم يقع البلاء بعده.

وفى صحف شعياء اسمه صلى الله عليه وسلم ركن المتواضعين . وفيها : إنى باعث ، نبيا أميا أفتح به آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأعينا عميا ، مولده بمكة ومهاجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، رحيما بالمؤمنين ، يبكى للبهيمة المثقلة ، ويبكى لليتيم فى حجر الأرملة ، لو يمر إلى

جنب السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القضيب الرعراع يعني اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، إلى آخر الرواية فإن فيها طولا ، وقد ساقها الجلال السيوطي في الخصائص الـــكبرى . وشعياء هذا كان بعد داود وسليمان ، وقبل زكريا ويحيي عليهم الصلاة والسلام .

ولما نهى بني إسرائيل عن ظلمهم وعتوهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له ودخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها .

وكان من جملة الرسل الذين عناهم الله تعالى بقوله (وقفينا من بعده) أي موسى (بالرسل) وهم سبعة ، وهو ثالث تلك الرسل السبعة : أي وهو المبشر بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما وسلم ، فقال يخاطب بيت المقدس لما شكا له الخراب وإلقاء الجيف فيه : أبشر يأتيك راكب الحمار ، يعني عيسى ، وبعده راكب الجمل يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتقدم في وصفه صلى الله عليه وسلم أنه يركب الحمار والبعير .

وقد يقال : لا مخالفة ، لأنه يجوز أن يكون عيسى اختص بركوب الحمار ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان يركبهما ، هذا تارة وهذا أخرى ، فليتأمل .

ومن جملتهم أرمياء ، قيل وهو الخضر ، والله أعلم .

واسمه صلى الله عليه وسلم في الزبور حاط حاط ، والفلاح الذي يمحق الله به الباطل وفارق وفاروق . أي يفرق بين الحق والباطل ، وهو كما تقدم معنى فارقليط أو بارقليط ، بالفاء في الأول والموحدة في الثاني .

وقيل معناه الذي يعلم الأشياء الخفية ، وفي [الينبوع] ومن الألفاظ التي رضوهـــا لأنفسهم ، يعني النصارى وترجموها على اختيارهم أن المسيح عليه الصــلاة والسلام قال : إني أسأل الله أن يبعث إليكم بارقلط آخر يكون معكم إلى الأبد ، وهو يعلمكم كل شيء ، ويفسر لكم الأسرار ، وهو يشهد لي كما شهدت له ، ويكون خاتم النبيين ، ولم يشهد له بالبراءة والصدق في النبوة بعده إلا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر صاحب الدر المنظم بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لعمر رضي الله تعالى عنه « ياعمر أتدرى من أنا ؟ أنا الذي بعثني الله في التوراة لموسى ، وفي الإنجيل لعيسى ، وفي الزبور لداود ولا فخر » أي لا أقول ذلك على سبيل الافتخار ، بل على

سبيل التحدث بالنعمة « يا عمر أتدرى من أنا ؟ أنا اسمى فى التوراة أحيد ، وفى الإنجيل البارقليط ، وفى الزبور حياطا ، وفى صحف إبراهيم طاب طاب ولا فخر » .

وذكر صاحب كتاب [شفاء الصدور] فى مختصره أن من فضائله صلى الله عليه وسلم ماروواه مقاتل بن سليمان قال: وجدت مكتوبا فى زبور داود. إنى أنا الله لاإله إلا أنا ومحمد رسولى . ووصف فى مزامير داود بأنه يقوى الضعيف الذى لاناصر له،ويرحم المساكين، ويبارك عليه فى كل وقت ، ويدوم ذكره إلى الأبد . وبالجبار ، ففيها تقلد أيها الجبار سيفك .

فإن قيل : قال الله تعالى (وما أنت عليهم بجبار) . أجيب بأن الأول هو الذى يجبر الخلق إلى الحق . والثانى هو المتكبر . وفيها: ياداود سيأتى من بعدك نبى اسمه أحمد ومحمد صادقا لا أغضب عليه أبدا ، ولا يعصينى أبدا ، وقد غفرت له قبل أن يعصينى ما تقدم من ذنبه وما تأخر : أى على فرض وقوع ذلك الذنب ، والمراد به خلاف الأولى من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين : أى ما يعد حسنة بالنسبة لمقام الأبرار قد يعدّ سيئة بالنسبة لمقام المقربين ، لعلوّ مقامهم وارتفاع شأنهم وأمته مرحومة ، يأتون يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء .

وفى بعض مزامير داود : إن الله أظهر من صهيون إكليلا محمودا، وصهيون : اسم مكة . والإكليل : الإمام الرئيس وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى صحف شيث : أخوناخ ؛ ومعناه صحيح الإسلام ، وهذا يدل على أن مزامير داود نسخة مختلفة بالزيادة والنقص .

وفى صحف إبراهيم اسمه يوذموذ . وقيل إن ذلك فى التوراة ، ولا مانع من وجوده فيهما . وتقدم أنه فى صحف إبراهيم اسمه طاب طاب ، ولا مانع من وجود الوصفين فى تلك الصحف .

وفى كتاب شعيب عليه السلام : عبدى الذى يثبت شأنه ، أنزل عليه وحيى فيظهر فى الأمم عدلى ، لا يضحك : أى مع رفع الصوت ، ومن ثم قال : ولا يسمع صوته فى الأصوات ، لأن ضحكه كان التبسم ، يفتح العيون العور والآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيته لا أعطيه أحدا . وفيه أيضا مشقح بالشين المعجمة والقاف والحاء المهملة : أى زاهى ، يحمد الله حمدا جديدا ، أى مخترعا لم يسبقه إليه أحد ، يأتى من أقصى

الأرض، لعل المراد بمكة، به تفرح البرية وسكانها، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، سلطانه على كتفه . وذكر البرية وسكانها إشارة لدولة العرب ، والمراد بسلطانه على كتفه خاتم النبوة لأنه علامة وبرهان على نبوته .

أى وذكر ابن ظفر أن فى بعض كتب الله المنزلة : إنى باعث رسولا من الأميين ، أسدده بكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل الحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعـــدل سيرته ، والإسلام ملته ، أرفع به من الوضيعة ، وأهدى به من الضلالة ، وأؤلف به بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة ، وأجعل أمته خير الأمم .

وأما ما جاء مما يدل على وجود اسمه الشريف أعنى لفظ محمد مكتوبا فى الأحجار والنبات والحيوان وغير ذلك بقلم القدرة فـكثير .

من ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله » قال : المراد فص خاتمه .

فعن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « إن فص خاتم سليمان بن داود كان سماويا : أى من السماء ، ألقى إليه فوضعه فى خاتمه » أى وكان به انتظام ملكه، وكان نقشه « أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى » وحينئذ يكون ما تقدم عن جابر وما يأتى يجوز أن يكون روى بالمعنى . وكان ينزعه إذا دخل الخلاء وإذا جامع ، وكان عند نزعـــه يتنكر عليه أمر الناس ولم يجد من نفسه ما كان يجده قبل نزعه .

وفى [أنس الجليل] « كان نقش خاتم سليمان لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله » ووجد على بعض الحجارة القديمة مكتوب : محمد تقى مصلح ، وسيد أمين . وفى جامع مدينة قرطبة بالمغرب عمود أحمر مكتوب فيه بقلم القدرة « محمد » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا غفرت لى ، قال . وكيف عرفت محمداً ، وفى لفظ كما فى [الوفاء] وما محمد ومن محمد ؟ قال : لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق

إليك ، قال : صدقت يا آدم ، ولولا محمد لما خلقتك » أى وفى لفظ كما فى [الشفاء] «قال آدم لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك ؛ فإذا فيه مكتوب : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتى وجلالى إنه لآخر النبيين من ذريتك ، ولولاه ماخلقتك » .

وفى الوفاء، عن ميسرة « قلت : يارسول الله متى كنت نبيا . قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش ، كتب على ساق العرش : محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء ، وكتب اسمى ، أى موصوفا بالنبوة أو بما هو أخص منها وهو الرسالة على ما هو المشهور ، على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد — أى قبل أن تدخل الروح جسده — فلما أحياه الله نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه » أى فقد وصف صلى الله عليه وسلم بالنبوة قبل وجود آدم .

وفيه أيضا عن سيعد بن جبير اختصم ولد آدم أىّ الخلق أكرم على الله تعالى ؟ فقال بعضهم : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته . وقال آخرون : بل الملائكة لأنهم لم يعصوا الله عز وجل ، فذكروا ذلك لآدم ، فقال : لما نفخ فى الروح لم تبلغ قدمىّ حتى استويت جالسا فبرق لى العرش فنظرت فيه محمد رسول الله فذاك أكرم الخلق على الله عز وجل . قيل وكان يكنى آدم بأبى محمد وبأبى البشر ، وظاهره أنه كان يكنى بذلك فى الدنيا ، وتقدم أنه يكنى بأبى محمد فى الجنة .

ومن ذلك ماجاء عن عمر بن الخطاب أيضا رضى الله تعالى عنه ، قال لكعب الأحبار رضى الله تعالى عنه : أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده ، قال : نعم يا أمير المؤمنين . قرأت أن إبراهيم الخليل وجد حجرا مكتوبا عليه أربعة أسطر الأول : أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . والثانى : أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولى ، طوبى لمن آمن به واتبعه . والثالث : أنا الله لا إله إلا أنا الحرم لى ، والكعبة بيتى من دخل بيتى أمن من عذابى ، ولينظر الرابع .

أى وذكر بعضهم أن فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة عصفت ريح شديدة بخراسان كريح عاد انقلب منها الجبال وفرت منها الوحوش ، فظن الناس أن القيامة قد قامت ، وابتهلوا إلى الله تعالى ، فنظروا فإذا نور عظيم قد نزل من السماء على جبل من تلك الجبال

ثم تأملوا الوحوش ؟ فإذا هى منصرفة إلى ذلك الجبل الذى سقط فيه ذلك النور ، فساروا معها إليه فوجدوا به صخرة طولها ذراع فى عرض ثلاثة أصابع وفيها ثلاثة أسطر . سطر فيه لاإله إلا أنا فاعبدون .وسطر فيه محمد رسول الله القرشى . وسطر ثالث ، فيه احذروا وقعة المغرب فإنها تكون من سبعة أو تسعة . والقيامة قد أزفت أى قربت .

وجاء أن آدم عليه الصلاة والسلام قال : طفت السموات فلم أر فى السموات موضعا إلا رأيت اسم محمدصلى الله عليه وسلم مكتوبا عليه ، ولم أر فى الجنة قصرا ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوب عليه ،ولقد رأيت اسمه صلى الله عليه وسلم على نحور الحور العين وورق آجام أى ورق قصب آجام الجنة ، وشجرة طوبى ، وسدرة المنتهى والحجب ، وبين أعين الملائكة ، وهذا الحديث قد حكم بعض الحفاظ بوضعه :

أى وقد قيل : إن أول شيء كتب القلم فى اللوح المحفوظ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنى أنا الله لاإله إلا أنا محمد رسولى ، من استسلم لقضائى ؛ وصبر على بلائى وشكر على نعمائى ، ورضى بحكمى ، كتبته صديقا ، وبعثته يوم القيامة من الصديقين . وفى رواية : مكتوب فى صدر اللوح المحفوظ : لاإله إلا الله ، دينه الإسلام محمد عبده ورسوله ، فمن آمن بهذا أدخله الله الجنة .

وفى رواية « لما أمر الله القلم أن يكتب ما كان وما يكون كتب على سرادق العرش : لاإله إلا الله محمد رسول الله » يتأمل هذا فإنه إن كان المراد كما هو المتبادر أن القلم لما أمر أن يكتب ماذكر كان أول شيء كتبه على سرادق العرش ماذكر ثم تمم كتابة ماأمر به على ذلك كما كتب أول ماذكر البسملة فى اللوح المحفوظ ثم تمم كتابة ماأمر به يلزم أن يكون القلم كتب ما كان وما يكون فى اللوح وعلى سرادق العرش .

ومن ذلك ماجاء عن عمر بن الخطاب أيضا رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن آدم عليه الصلاة والسلام قال : وجدت اسم محمد صلى الله عليه وسلم على ورق شجرة طوبى ، وعلى ورق سدرة المنتهى : أى وعلى ورق قصب آجام الجنة ، ومن ثم قال السيوطى فى الخصائص الكبرى : من خصائصه صلى الله عليه وسلم كتابة اسمه الشريف مع اسم الله تعالى على العرش . وفيها : ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لاإله إلا الله محمد رسول الله فسكن » ومكتوب اسمه صلى الله عليه وسلم على سائر مافى الملكوت : أى من السموات والجنان وما فيهن .

وفى [الخصائص الصغرى] له أيضا : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم كتابة اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر مافى الملكوت .

أقول : ولا يخالف هذا : أى ماتقدم عن آدم ماجاء على تقدير صحته أن آدم لما نزل إلى الأرض استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان : الله أكبر الله أكبر مرتين ، أشهد أن لاإله إلا الله مرتين ، أشهد أن محمدا رسول الله مرتين ، قال آدم : من محمد ؟قال جبريل : هو آخر ولدك من الأنبياء لجواز أن يكون آدم عليه السلام أراد أن يستثبت هل هو محمد الذى رأى اسمه مكتوبا وأخبر بأنه آخر الأنبياء من ذريته ، وأنه لولاه ماخلقه واستشفع به أو غيره فليتأمل . وإنما قلنا على تقدير صحته لأنه سيأتى فى بدء الأذان أن فى سند هذا الحديث مجاهيل .

وذكر صاحب كتاب [شفاء الصدور] فى مختصره عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال « يامحمد وعزتى وجلالى لولاك ماخلقت أرضى ولا سمائى ، ولا رفعت هذه الخضراء ، ولا بسطت هذه الغبراء» . وفى رواية عنه «ولا خلقت سماء ولا أرضا ولا طولا ولا عرضا» .

وبهذا يرد على من رد على القائل فى مدحه صلى الله علية وسلم :

لولاه ما كان لافلك ولا فلك   كلا ولا بان تحريم وتحليل

بأن قوله لولاه ما كان لافلك ولا فلك مثل هذا يحتاج إلى دليل ، ولم يرد فى الكتاب ولا فى السنة مايدل على ذلك ، فيقال له : بل جاء فى السنة مايدل على ذلك ، والله أعلم .

ومن ذلك ماحدث به بعضهم قال : غزونا الهند فوقعت فى غيضة فإذا فيها شجر عليه ورق أحمر مكتوب عليه بالبياض : لاإله إلا الله محمد رسول الله .

وعن بعضهم : رأيت فى جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة ، مكتوب عليه بالحمرة والبياض فى الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها الله تعالى بقدرته ، فى الورقة ثلاثة أسطر : الأول لاإله إلا الله ، والثانى محمد رسول الله ، والثالث إن الدين عند الله الإسلام .

وعن بعض آخر قال : دخلت بلاد الهند فرأيت فى بعض قراها شجر ورد أسود ينفتح عن وردة كبيرة سوداء طيبة الرائحة مكتوب عليها بخط أبيض : لاإله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق . عمر الفاروق ، فشككت فى ذلك وقلت إنه معمول ، فعمدت إلى وردة

كبيرة لم تفتح فرأيت فيها كما رأيت فى سائر الورق وفى البلد منها شىء كثير ، وأهل تلك البلد يعبدون الحجارة .

ونقل ابن مرزوق فى شرح البردة عن بعضهم قال : عصفت بنا ريح ونحن فى لجج بحر الهند فأرسينا فى جزيرة ، فرأينا فيها وردا أحمر ذكى الرائحة مكتوب عليه بالأصفر : براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات النعيم ، لاإله إلا الله محمد رسول الله .

أى ومن ذلك ماحكاه بعضهم قال : رأيت فى بلاد الهند شجرة تحمل ثمرا يشبه اللوز له قشران ، فإذا كسر خرج منه ورقة خضراء مطوية ، مكتوب عليها بالحمرة : لاإله إلا الله محمد رسول الله كتابة جلية ، وهم يتبركون بتلك الشجرة ، ويستسقون بها إذا منعوا الغيث . هذا وفى [مزيل الخفاء] الاقتصار على لاإله إلا الله : أى وحينئذ لايكون شاهدا على ماذكرنا .

أى ومن ذلك ماحكاه الحافظ السلفى عن بعضهم أن شجرة ببعض البلاد لها أوراق خضر ، وعلى كل ورقة مكتوب بخط أشد خضرة من لون الورق: لاإله إلا الله محمد رسول الله ، وكان أهل تلك البلاد أهل أوثان ، وكانوا يقطعونها ويبقون أثرها فترجع إلى ماكانت عليه فى أقرب وقت ، فأذابوا الرصاص وجعلوه فى أصلها . فخرج من حول الرصاص أربع فروع على كل فرع لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فصاروا يتبركون ويستشفون بها من المرض إذا اشتد ، ويخلقونها بالزعفران وأجل الطيب .

ومن ذلك أنه وجد فى سنة سبع أو تسع وثمانمائة حبة عنب ، فيها بخط بارع . بلون أسود « محمد » .

ومن ذلك ما ذكره بعضهم أنه اصطاد سمكة مكتوب على جنبها الأيمن: لا إله إلا الله، وعلى جنبها الأيسر: محمد رسول الله ، قال : فلما رأيتها ألقيتها فى النهر احتراما لها .

وعن بعض آخر قال : ركبت بحر الغرب ومعنا غلام معه سنارة فأدلاها فى البحر فاصطاد سمكة قدر شبر بيضاء ، فنظرنا فإذا مكتوب بالأسود على أذنها الواحدة : لا إله إلا الله ، وفى قفاها وخلف أذنها الأخرى: محمد رسول الله فقذفناها .

وعن بعضهم أنه ظهرت له سمكة بيضاء ، وإذا على قفاها مكتوب بالأسود : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا بطائر فى فه لوزة خضراء فألقاها فأخذها النبى صلى الله عليه وسلم فوجد فيها دودة.

خضراء مكتوب عليها بالأصفر : لا إله إلا الله محمد رســول الله » . ومن ذلك «احكاه بعضهم أنه كان بطبرستان قوم يقولون لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ولا يقرّون لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، وحصل منهم افتتان ؟ فنى يوم شديد الحر ظهرت سحابة شديدة البياض ، فلم تزل تنشأ حتى أخذت ما بين الخافقين ، وأحالت بين السماء والبلد، فلما كان وقت الزوال ظهر فى السحابة بخط واضح: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلم تزل كذلك إلى وقت العصر ، فتاب كل من كان افتتن ، وأسلم أكثر من كان بالبلد من اليهود والنصارى .

ومن ذلك ماجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . قال : بلغنى فى قول الله تعالى (وكان تحته كنز لهما) قال : كان لوحا من ذهب . وقيل لوح من رخام مكتوب فيه : عجبا لمن أيقن بالموت : أى بأنه يموت كيف يفرح،عجبا لمن أيقن بالحساب:أى أنه يحاسب كيف يغفل ، عجبا لمن أيقن بالقضاء : أى أن الأمور بالقضاء والقدر كيف يحزن ، عجبا لمن يرى الدنياو تقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وروى البيهقى وغيره عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن الكنز الذى ذكره الله تعالى فى كتابة لوح من ذهب ، فيه بسم الله الرحمن الرحيم : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب أى يتعب . عجبت لمن ذكر النار ثم يضحك. عجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفى لفظ: لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى .

وفى تفسير القاضى البيضاوى: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق: أى أن الله رازقه كيف ينصب أى يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

أقول : قد يقال يجوز أن يكون ماذكر أولا فى أحد وجهى ذلك اللوح ، وماذكر ثانيا فى الوجة الثانى ، أو أن بعض الرواة زاد ، وبعضهم نقص ، وبعضهم روى بالمعنى وحفظ ذلك الكنز لأجل صلاح أبيهما وكان تاسع أب لهما .

وقد قال محمد بن المنكدر : إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التى هو فيها والدويرات حوله ، فلا يزالون فى حفظ الله وستره .

ويذكر أن بعض العلوية همّ هرون الرشيد بقتله ، فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله

فقيل له : بماذا دعوت حتى نجاك الله ؟ فقال قلت : يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظنى منه لصلاح آبائى ، كذا فى العرائس ، والله أعلم .

ومن ذلك ما جاء عن جابر رضى الله تعالى عنه قال « مكتوب بين كتنى آدم محمد رسول الله خاتم النبيين » .

أى وذكر بعضهم أنه شاهد فى بعض بلاد خراسان مولودا، على أحد جنبيه مكتوب: لا إله إلا الله وعلى الآخر محمد رسـول الله أى ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال : ولد عندى فى عام أربعة وسبعين وستمائة جدى أسود غرته بيضاء على شكل الدائرة ، وفيها مكتوب « محمد » بخط فى غاية الحسن والبيان .

وما حكاه بعضهم قال : شاهدت ببلدة من بلاد إفريقية بالمغرب رجلا ببياض عينه اليمنى من أسفل ، مكتوب بعرق أحمر كتابة مليحة « محمد رسول الله » .

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله تعالى ببركته فى كتابه [لواقح الأنوار القدسية فى قواعد السادة الصوفية] ، وفى يوم كتابتى لهذا الموضع رأيت علما من أعلام النبوّة ؛ وذلك أن شخصا أتانى برأس خروف شواها وأكلها وأرانى فيها مكتوبا بخط إلهىّ على الجبين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، يهدى به من يشاء ، يهدى به من يشاء . قال الشيخ عبد الوهاب : وتكرير ذلك لحكمة ، فإن الله لا يسهو ، هذا كلامه . وقد يقال : لعل الحكمة التأكيد لعلوّ مقام الهداية ، كيف وهو المجانب لمقام الضلالة والغواية .

وعن الزهرى قال : شخصت إلى هشام بن عبد الملك ، فلما كنت بالبلقاء رأيت حجرا مكتوبا عليه بالعبرانية ، فأرشدت إلى شيخ يقرؤه ، فلما قرأه ضحك وقال : أمر عجيب ، مكتوب عليه : باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربى مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبه موسى بن عمران .

باب سلام الحجر والشجر عليه

صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه

عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبلى أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن » قال جاء فى بعض الروايات أن هـذا الحجر هو الحجر الأسود : أى وقيل غيره ، وأنه هو الذى فى زقاق بمكة يعرف بزقاق الحجر : أى ولعله غير الحجر الذى به أثر المرفق ، ذكر أنه صلى الله عليه وسـلم اتكأ عليه بمرفقه ، وهو الذى يقال له زقاق المرفق وغير الحجر الذى به أثر الأصابع .

وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله تعالى كرامته بالنبوّة ، كان إذا خرج لحاجة أى لحاجة الإنسان أبعد حتى لا يرى ببناء ، ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : الصـلاة والسلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا » اهـ وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله :

لم يبق من حجر صلب ولا شجر إلا وسـلم بل هنـاه ما وهبا

وإلى ذلك يشير أيضا صاحب الهمزية بقوله :

والجمادات أفصحت بالذى أخـ رس عنـه لأحمد الفصحاء

أى والجمادات التى لا روح فيها نطقت بكلام فصيح لا تلعثم فيـه : أى بالشهادة له صلى الله عليه وسـلم بالرسالة ، ولم تنطق به أهل الفصاحة والبلاغة وهم الكفار من قريش وغيرهم .

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه قال «كنت مع النبى صلى الله عليه وسـلم بمكة ، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يارسول الله » .

أقول : وإلى تسليم الحجر قبـل البعثة يشير الإمام السبكى رحمه الله تعـالى فى تائيته بقوله :

وما جزت بالأحجار إلا وسلمت عليك بنطق شاهد قبل بعثة

وأما حديث عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أوحى إلىّ جعلت لا أمرّ بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسـول الله » وماذكره بعضهم أن الجن قالوا له صلى الله عليه وسلم بمكة : من يشهد أنك رسول الله ؟ قال تلك الشجرة ، ثم قال لها من أنا ؟ فقالت: رسول الله» فليس من المترجم له .

وفى الخصائص الصغرى : وخص بتسليم الحجر ، وبكلام الشجر، وبشهادتهما له بالنبوة ، وإجابتهما دعوته .

وفى كلام السهيلى : يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاما مقرونا بحياة وعلم . ويحتمل أن يكون صوتا مجردا غير مقترن بحياة وعلم . وعلى كل هو علم من أعلام النبوة .

وفى كلام الشيخ محيي الدين ابن العربى : أكثر العقلاء ، بل كلهم يقولون عن الجمادات لا تعقل ، فوقفوا عند بصرهم . والأمر عندنا ليس كذلك ؟ فإذا جاءهم عن نبىّ أو ولىّ أن حجرا كلمه مثلا يقولون خلق الله فيه العلم والحياة فى ذلك الوقت . والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة سار فى جميع العالم .

وقد ورد « أن كل شىء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له ، ولا يشهد إلا من علم وأطال فى ذلك» وقال قد أخذ الله بأبصار الإنس والجن عن إدراك حياة الجماد إلا من شاء الله كنحن وأضرابنا، فإنا لا نحتاج إلى دليل فى ذلك، لكون الحق تعالى قد كشف لنا عن حياتها عينا وأسمعنا تسبيحها ونطقها ، وكذلك اندكاك الجبل لما وقع التجلى إنما كان ذلك منه لمعرفتـه بعظمة الله عز وجل ، ولولا ما عنده من العظمة لما تدكدك ، والله أعلم .

باب بيان حين المبعث وعموم بعثته صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين ، وكافة للناس أجمعين . وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبىّ بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر على من خالفه ، وأن يؤدّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم : أى فهم وأممهم من جملة أمته صلى الله عليه وسلم كما سيأتى عن السبكى .

فعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على رأس الأربعين» . قال : وهذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السير ، والعلم بالأثر . وقيل بزيادة يوم . وقيل بزيادة عشرة أيام . وقيل بزيادة شهرين . وقيل بزيادة سنتين ، وهو شاذ ، وأكثر منه شذوذا ماقيل إنه بزيادة ثلاث سنين ، وما قيل إنه بزيادة خمس سنين . قال بعضهم : والأربعون هى سن الكمال ، ونهاية بعث الرسل : أى لايرسلون دونها ، ومن ثم قال فى الكشاف : وروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة ، هذا كلام الكشاف . وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة : أى ومعلوم أنه دعا إلى الله قبل ذلك ، فهو قول شاذ حكاه وهب بن منبه عن النصارى اه : أى وعليه جرى غير واحد من المفسرين ، بل قال فى ينبوع الحياة : لم يبلغنى أن أحـــدا من المفسرين ذكر فى مبلغ سنه إذ رفع أكثر من ثلاث وثلاثين سنة هذا كلامه .

وفى الهدى : وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة ، فهذا لا يعرف به أثر متصل يجب المصير إليه ، هذا كلامه . ويوافق ما تقدم عن المفسرين وما فى [العرائس] : ولما تمت له يعنى عيسى عليه الصلاة والسلام ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس ، ويدعوهم ، ويضرب الأمثال لهم ، ويداوى المرضى والزمنى والعميان والمجانين ، ويقمع الشياطين ، ويذلهم ويدحرهم ، ففعل ما أمر به ، وأظهر المعجزات ، فأحيا ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة أيام من موته .

وعبارة الجلال المحلى فى قطعة التفسير : أحيا عيسى عليه الصلاة والسلام أربعة . عازر صديقا له ، وابن العجوز ، وابنة العاشر ، وسام بن نوح ، هذا كلامه . وذكر البغوى قصة كل واحد فراجعه . وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يمشى على الماء ، ومكث فى الرسالة ثلاث سنوات ثم رفع ، ويوافق ذلك أيضا قول ابن الجوزى : وأما حديث : وما من نبى إلا نبىّ بعد الأربعين فموضوع ، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام نبىّ ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين ســـنة : أى نبىّ وهو ابن ثلاثين سنة ، ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، بل قيل نبىّ وهو طفل ، فاشتراط الأربعين فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس بشىء ، هذا كلامه : أى وفيه أن هذا بمجرده لا يدل على وضع الحديث ، ويوافقه أيضا قول القاضى البيضاوى : ونبىّ نوح وهو ابن خمسين سنة ، وقيل

أربعين ، ويوافقه أيضا قول بعضهم : ومما يدل على أن بلوغ الأربعين ليس شرطا للنبوة، وقصة سيدنا يحيى صلوات الله وسلامه عليه بناء على أن الحكم فى قوله تعالى (وآتيناه الحكم صبيا) النبوة ، لا الحكمة وفهم التوراة كما قيل بذلك ، بل أحكم إليه عقله فى صباه واستنبأه ، قيل كان ابن سنتين أو ثلاث .

ولما ولى الخلافة المقتدر وهو غير بالغ صنف الإمام الصولى له كتابا فيمن ولى الأمر وهو غير بالغ ، واستدل على جواز ذلك بأن الله بعث يحيى بن زكريا نبيا وهو غير بالغ ، وذكر فيه كل من استعمله النبى صلى الله عليه وسلم من الصبيان . قال بعضهم : وهوكتاب حسن ، فيه فوائد كثيرة .

وكان ذبح يحيى قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بسنة ونصف سنة .

ومما يدل على ماتقدم عن الهدى : أى من إنكار أن عيسى عليه الصلاة والسلام رفع وله ثلاث وثلاثون سنة قول بعضهم : الأحاديث الصحيحة تدل على أنه إنما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة . من تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته لابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها « أخبرنى جبريل أنه لم يكن نبى إلا عاش نصف عمر الذى كان قبله ، وأخبرنى أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة ، ولا أرانى إلا ذاهبا على رأس الستين » وفى الجامع الصغير « مابعث الله نبيا إلا عاش نصف ماعاش الذى قبله » وعلى كون كل نبى عاش نصف ماعاش النبى الذى قبله يشكل أن نوحا كان أطول الأنبياء عمرا ، ومن ثم قيل له كبير الأنبياء ، وشيخ المرسلين . وهو أول من تنشق عنه الأرض بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت أن الحافظ الهيتمى ضعف حديث : مابعث الله نبيا إلا عاش نصف ماعاش النبى الذى قبله . وقال العماد بن كثير : إنه غريب جدا . وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك قام من الليل يصلى ، فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه : أى ينتظرون فراغه من الصلاة ، لأن نزول (والله يعصمك من الناس) كان قبل هذا ، حتى إذا صلى وانصرف إليهم قال لهم : لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلى » زاد فى رواية « لا أقولهن فخرا . أما أولاهن فأرسلت إلى الناس كلهم عامة » أى من فى زمنه وغيرهم ممن تقدم أو تأخر : أى وللشجر والحجر إلى آخر مايأتى « وكان من قبلى » وفى لفظ « وكان كل نبى إنما يرسل إلى قومه » أى جميع أهل زمنه أو جماعة منهم خاصة . ومن الأول نوح ، فإنه كان مرسلا لجميع من

كان فى زمنه من أهل الأرض ، ولما أخبر بأنه لا يؤمن منهم إلا من آمن معه وهم أهل السفينة وكانوا ثمانين : أربعين رجلا ، وأربعين امرأة .

وفى عوارف المعارف : أصحاب السفينة ، كانوا أربعمائة . وقد يقال من الآدميين وغيرهم فلا مخالفة ، دعا على من عدا من ذكر باستئصال العذاب لهم ، فكان الطوفان الذى كان به هلاك جميع أهل الأرض إلا من آمن ، ولو لم يكن مرسلا إليهم مادعا عليهم بسبب مخالفتهم له فى عبادة الأصنام ، لقوله تعالى (وما كنا معذبين) أى حتى فى الدنيا (حتى نبعث رسولا) .

وقد ثبت أن نوحا أول الرسل : أى لمن يعبد الأصنام ، لأن عبادة الأصنام أول ماحدثت فى قومه وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك ، وحينئذ لايخالف كون أول الرسل آدم أرسله الله تعالى إلى أولاده بالإيمان بالله تعالى وتعليم شرائعه . وذكر بعضهم أنه كان مرسلا لزوجته حواء فى الجنة ، لأن الله تعالى أمره أن يأمرها وينهاها فى ضمن أخباره بأمره ونهيه ، بقوله تعالى (ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة) وذلك عين الإرسال كما ادعاه بعضهم .

فعلم أن عموم رسالة نوح عليه الصلاة والسلام لجميع أهل الأرض فى زمنه لا يساوى عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ، لما علمت أن رسالته عامة حتى لمن يوجد بعد زمنه ، وحينئذ يسقط السؤال وهو لم يبق بعد الطوفان إلا مؤمن ، فصارت رسالة نوح عليه الصلاة والسلام عامة . ويسقط جواب الحافظ ابن حجر عنه بأن هذا العموم الذى حصل بعد الطوفان لم يكن من أصل بعثته بل طرأ بعد الطوفان ؛ بخلاف رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل كان بين الدعوة والطوفان مائة عام ، وقد حققنا فيما سبق أن آدم ومن بعده دعا إلى الإيمان بالله تعالى وعدم الإشراك به ، إلا أن الإشراك به وعبادة الأصنام اتفق أنه لم يقع إلا زمن نوح ومن بعده .

وأما قول اليهود أو بعضهم وهم العيسوية طائفة من اليهود أتباع عيسى الأصفهانى : إنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث للعرب خاصة دون بنى إسرائيل ، وإنه صادق ففاسد ، لأنهم إذا سلموا أنه رسول الله ، وأنه صادق لا يكذب لزمهم التناقض ، لأنه ثبت بالتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله لكل الناس .

أقول : قال بعضهم : ولا ينافيه قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)

لأنه لايدل على اقتصار رسالته عليهم ، بل على كونه متكلما بلغتهم ليفهموا عنه أولا ، ثم يبلغ الشاهد الغائب ، ويحصل الإفهام لغير أهل تلك اللغة من الأعاجم بالتراجم الذين أرسل إليهم ، فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الكافة وإن كان هو وكتابه عربيين كما كان موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام مبعوثين لبنى إسرائيل بكتابيهما العبرانى : أى وهو التوراة ، والسريانى وهو الإنجيل ، مع أن من جملتهم جماعة لايفهمون بالعبرانية ولا بالسريانية كالأروام ؛ فإن لغتهم اليونانية والله أعلم .

وأشار إلى الثانية من الخمس بقوله « ونصرت بالرعب على العدو ولو كان بينى وبينه مسيرة شهر » أى أمامه وخلفه « يملأ منى رعبا » أى يقذف الرعب فى قلوب أعدائه صلى الله عليه وسلم ، وجعل الغاية شهرا لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه : أى المحاربين له أكثر من شهر .

أى وجاء أن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ذهب هو وجنده من الإنس والجن وغيرهما إلى الحرم . وكان يذبح كل يوم خمسة آلاف ناقة ، وخمسة آلاف ثور ، وعشرين ألف شاة لأن مساحة جنده كانت مائة فرسخ ، قال لمن حضر من أشراف جنده : هـذا مكان يخرج منه نبى عربى يعطى النصر على جميع من ناوأه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء ، لاتأخذه فى الله لومة لائم . ثم قالوا : فبأى دين يانبى الله يدين ؟ قال : بدين الحنيفية ، فطوبى لمن آمن به ، قالوا : كم بين خروجه وزماننا ، قال مقدار ألف عام .

وأشار إلى الثالثة بقوله « وأحلت لى الغنائم كلها ، وكان من قبلى » أى من أمر بالجهاد منهم « يعطونها ويحرمونها » أى لأنهم كانوا يجمعونها : أى والمراد ماعدا الحيوانات من الأمتعة والأطعمة والأموال ، فإن الحيوانات تـكون ملكا للغانمين دون الأنبياء . ولا يجوز للأنبياء أخذ شىء من ذلك بسبب الغنيمة كذا فى الوفاء . وجاء فى بعض الروايات « وأطعمت أمتك الفىء ولم أحله لأمة قبلها » أى والمراد بالفىء مايعم الغنيمة ، كما أنه قد يراد بالغنيمة مايعم الفىء . هذا وفى بعض الروايات « وكانت الأنبياء يعزلون الخمس فتجىء النار » أى نار بيضاء من السماء فتأكله « أى حيث لاغلول « وأمرت أن أقسمه فى فقراء أمتى » وفى تكملة تفسير الجلال السيوطى لتفسـير الجلال المحلى أن ذلك لم يعهد فى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولعله لم يكن ممن أمر بالجهاد ، فلا يخالف ماسبق ؛

وأشار إلى الرابعة بقوله « وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، أينما أدركتنى الصلاة تمسحت » أى تيممت حيث لاماء « وصليت » فلا يختص السجود منها بموضع دون غيره « وكان من قبلى لايعطون ذلك » أى الصلاة فى أى محل أدركتهم فيه، إنما كانوا يصلون فى كنائسهم وبيعهم : أى ولم يكن أحد منهم يتيمم ، لأن التيمم من خصائصنا . وفى رواية جابر «ولم يكن أحد من الأنبياء يصلى حتى يبلغ محرابه» .

وجاء فى تفسير قوله تعالى (واختار موسى قومه) الآيات . من المأثور أن الله تعالى قال لموسى « أجعل لكم الأرض مسجدا ؟ فقال لهم موسى : إن الله قد جعل لكم الأرض مسجدا ، قالوا : لانريد أن نصلى إلا فى كنائسنا، فعند ذلك قال الله تعالى (سأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) إلى قوله (المفلحون) أى وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وفيه أنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسيح فى الأرض يصلى حيث أدركته الصلاة. ويحتاج إلى الجمع بين هذا وبين ماتقدم من قوله : لم يكن أحد من الأنبياء يصلى حتى يبلغ محرابه ، إلا أن يقال لايصلى مع أمته إلا فى محرابه .

وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فخص بأنه كان يصلى حيث أدركته الصلاة وسيأتى فى الخصائص الكلام على ذلك .

وأشار إلى الخامسة بقوله « قيل لى سل فإن كل نبى قد سأل ، فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لاإله إلا الله ، وهى لإخراج من فى قلبه ذرة من الإيمان ليس له عمل صالح إلا التوحيد» أى إخراج من ذكر من النار لأن شفاعة غيره صلى الله عليه وسلم تقع فيمن فى قلبه أكثر من ذلك قاله القاضى عياض .

أى وقد جاء فى بيان من يشفع بإذن الله له فى الشفاعة، فلا يبقى نبى ولا شهيد إلا شفع وفى رواية « ثم تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون والمؤمنون ، فيشفعهم الله عز وجل » وقد جاء « إن أول شافع جبريل ثم إبراهيم ، ثم موسى ثم يقوم نبيكم رابعا لايقوم بعد أحد فيما يشفع فيه» .

وفى الحديث « آتى تحت العرش فأخر ساجدا فيقال يامحمد ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأقول يارب أمتى يارب أمتى ، فيقال انطلق ، فمن كان فى قلبه مثقال حبة من بر أو شعير من إيمان » وفى لفظ « حبة من خردل » وفى لفظ « أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل فأخرجه » أى من النار « فأنطلق فأفعل » أى أخرجه من النار « وأدخله الجنة » .

وله صلى الله عليه وسلم شفاعة قبل هذه فى إدخال أهل الجنة الجنة بعد مجاوزة الصراط ، ففى الحديث « فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خررت ساجدا ، فيأذن الله لى فى حمده وتمجيده ، ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد واشفع تشفع واسأل تعطه ، فأقول : يارب شفعنى فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، فيأذن الله تعالى فى الشفاعة إلى آخر ماتقدم .

ومن هذا يعلم أن الشفاعة فى الإخراج من النار ، إنما تكون منه صلى الله عليه وسلم وهو فى الجنة ، فما تقدم من قوله « آتى تحت العرش فأخر ساجدا » إلى آخره ، إنما ذلك فى الشفاعة فى فصل القضاء ، فهذا خلط من بعض الرواة : أى خلط الشفاعة فى الموقف التى هى الشفاعة فى فصل القضاء بالشفاعة ، بعد مجاوزة الصراط فى دخول أهل الجنة الجنة وبالشفاعة بعد دخول الجنة فى إخراج أهل التوحيد من النار ، والشفاعة فى فصل القضاء هى المشار إليها فى قوله صلى الله عليه وسلم « وأعطيت الشفاعة » فقد قال ابن دقيق العيد : الأقرب أن اللام فيها للعهد ، والمراد الشفاعة العظمى فى إراحة الناس من هول الموقف : أى وهذا هو المقام المحمود الذى يحمده ويغبطه فيه الأولون والآخرون ، المعنى بقوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

وعن حذيفة رضى الله تعالى عنه « تجمع الناس فى صعيد واحد ، فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : لبيك وسعديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ولك وإليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ؛ سبحانك رب البيت » .

وقد هاجت فتنة كبيرة ببغداد بسبب هذه الآية ، أعنى (عسى أن يبعثك مقاما محمودا) فقالت الحنابلة : معناه يجلسه الله تعالى على عرشه . وقال غيرهم : بل هى الشفاعة العظمى فى فصل القضاء ، فدام الخصام إلى أن اقتتلوا فقتل كثيرون .

وهذه الشفاعة إحدى الشفاعات الثلاث المعنية بقوله صلى الله عليه وسلم « لى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن » .

وفى كلام بعضهم : له صلى الله عليه وسلم تسع شفاعات أخر غير فصل القضاء ، جرى فى اختصاصه ببعضها خلاف ، وهى : الشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عقاب . قال النووى وجماعة : هى مختصة به صلى الله عليه وسلم ، والشفاعة فى أناس استحقوا دخول النار فلا يدخلونها . قال القاضى عياض وغيره : ويشترك فيها من يشاء

الله تعالى . والشفاعة فى إخراج من أدخل النار من الموحدين وفى قلبه مثقال ذرة من إيمان وهى مختصة به صلى الله عليه وسلم . والشفاعة فى إخراج من أدخل منهم النار وفى قلبه أزيد من ذرة من إيمان ، ويشاركه فيها الأنبياء والملائكة والمؤمنون . وظاهر هذا السياق أن المراد بمن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلى آخره عام فى أمته وغيرهم من الأمم . وهو يخالف قول بعضهم : جاء فى الصحيح « فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله ـ أى ومات على ذلك ـ قال : ليس ذلك لك ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله » .

ولا يشكل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أتانى آت من عند ربى ، فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى » وفى رواية « ثلثى أمتى الجنة » أى بلا حساب ولا عذاب « وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئا ، فاخترت الشفاعة وعلمت أنها أوسع لهم » .

لأنا نقول : المراد بالذين تنالهم شفاعته صلى الله عليه وسلم ممن مات لا يشرك بالله شيئا خصوص أمته : وأما من قيل له فيه ليس ذلك لك فهم الموحدون من الأمم السابقة فليتأمل مع ما سبق من شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين . والشفاعة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها . وجوّز النووى اختصاصها به صلى الله عليه وسلم . والشفاعة فى تخفيف العذاب عن بعض الكفار كأبى طالب وأبى لهب فى كل يوم اثنين بالنسبة لأبى لهب ، والشفاعة لمن مات بالمدينة الشريفة ، ولعل المراد أنه لا يحاسب .

وقد أوصل ابن القيم شفاعاته صلى الله عليه وسلم إلى أكثر من عشرين شفاعة . وفى رواية « أعطيت مالم يعطه أحد من الأنبياء : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض » أى وفى لفظ « وبينا أنا نائم رأيتنى أوتيت مفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت بين يدىّ » ولا منافاة ، لأنه يجوز أنه أعطى ذلك يقظة بعد أن أعطيه مناما « وسميت أحمد » أى ومحمدا أى لأن أحدا من الأنبياء لم يسمّ بذلك ، فهو من خصائصه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأنبياء ، كذا فى الخصائص الصغرى ؛ وتقدم أن التسمية بأحمد من خصائصه صلى الله عليه وسلم على جميع الناس : وفى وصفه صلى الله عليه وسلم نفسه بما ذكر ؛ وقول عيسى عليه الصلاة والسلام (إنى عبد الله) الآية ، وقول سليمان عليه الصلاة والسلام (علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ) الآية هو الأصل فى ذكر العلماء مناقبهم فى كتبهم ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) ومن قوله صلى الله عليه وسلم

« التحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر » قال الله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) .

صعد سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه المنبر فقال : الحمد لله الذى صيرنى ليس فوقى أحد ثم نزل ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنما فعلت ذلك إظهارا للشكر .

وعن سفيان الثورى رحمه الله : من لم يتحدث بنعمة الله فقد عرّضها للزوال .

والحق فى ذلك التفصيل ، وهو أن من خاف من التحدث بالنعمة وإظهارها الرياء ، فعدم التحدث بها وعدم إظهارها أولى ، ومن لم يخف ذلك فالتحدث بها وإظهاوها أولى أى وفى الشفاء أنه أحمد المحمودين ، وأحمد الحامدين ، ويوم القيامة يحمده الأولون والآخرون لشفاعته لهم ، فحقيق أن يسمى محمدا وأحمد ، وتقدم أن هذا يوافق ماتقدم عن الهدى أن أحمد مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول .

وقد جاء « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعدى نبى ، وجعلت أمتى خير الأمم » .

قال القاضى البيضاوى ، وفى التسمية بالأسماء العربية تنويه إلى تعظيم المسمى ، هذا كلامه . وفى رواية « لما أسرى بى إلى السماء قرّبنى ربى حتى كان بينى وبينه كقاب قوسين أو أدنى ، قيل لى : قد جعلت أمتك آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم » أى بوقوفهم على أخبارهم « ولا أفضحهم عند الأمم » أى لتأخرها عنهم ، وعليه فالضمير فى (دنا) يعود إليه صلى الله عايه وسلم . وذكر بعضهم أن (دنا فتدلى) الآية ، عبارة عن تقريبه تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ، فالضمير فى دنا إلى آخره يعود إلى الله تعالى وهو معنى لطيف . وفى رواية « نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضىّ لهم قبل الخلائق » وفى رواية « نحن آخر الأمم ، وأول من يحاسب ، تنفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضى غرّا محجلين من أثر الطهور » وفى رواية « من آثار الوضوء ، فتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها » هذا ، وفى رواية « غرّا من أثر السجود محجلين من أثر الوضوء » وفى رواية « فضلت على الأنبياء بست » أى ولامخالفة بين ذكر الخمس أو الأربع وبين ذكر الست هنا ، لأنه يجوز أن يكون اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقى ؛ هذا على اعتبار مفهوم العدد ، ثم أشار إلى بيان الست بقوله صلى الله

عليه وسلم « أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة » والخلق يشمل الإنس والجن والملك والحيوانات والنبات والحجر .

قال الجلال السيوطى : وهذا القول ، أى إرساله للملائكة ، رجحته فى كتاب الخصائص وقد رجحه قبلى الشيخ تقى الدين السبكى ، وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم إلى قيام الساعة . ورجحه أيضا البارزى ، وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات ، وأزيد على ذلك أنه أرسل إلى نفسه .

وذهب جمع إلى أنه لم يرسل للملائكة منهم الحافظ العراقى فى نكته على ابن الصلاح والجلال المحلى فى شرح جمع الجوامع ، ومشيت عليه فى شرح التقريب . وحكى الفخر الرازى فى تفسيره والبرهان النسفى فى تفسيره فيه الإجماع هذا كلامه ، وبهذا الثانى أفتى والد شيخنا الرملى ، وعليه فيكون قوله صلى الله عليه وسلم « أرسلت للخلق كافة » وقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيرا) من العام المخصوص أو الذى أريد به الخصوص .

ولا يشكل عليه حديث سلمان « إذا كان الرجل فى أرض وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة مالا يرى طرفاه ، يركعون بركوعه ، ويسجدون بسجوده » لأنه يجوز أن لايكون ذلك صادرا عن بعثته إليهم .

ولا يشكل ما ررد « بعثت إلى الأحمر والأسود » لما تقدم أن المراد بذلك العرب والعجم . وفى الشفاء : وقيل الحمر الإنس ، والسود الجان ، واستدل للقول الأول القائل بأنه أرسل للملائكة بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أى من الملائكة (إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) فهى إنذار للملائكة على لسانه صلى الله عليه وسلم فى القرآن العظيم الذى أنزل عليه ، فثبت بذلك إرساله إليهم ودعوى الإجماع منازع فيها ، فهى دعوى غير مسموعة ، ثم رأيت الجلال السيوطى ذكر هذا الاستدلال وهو واضح ، وذكر تسعة أدلة أيضا ، وهى لاتثبت المدعى الذى هو أن الملائكة يكلفون بشرعه صلى الله عليه وسلم ، كما لايخفى على من رزق نوع فهم بالوقوف عليها .

فعلم أنه صلى الله عليه وسلم مرسل لجميع الأنبياء وأممهم على تقدير وجوده فى زمنهم ، لأن الله تعالى أخذ عليهم وعلى أممهم الميثاق على الإيمان به ونصرته مع بقائهم على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم ، فنبوته ورسالته أعم وأشمل ، وتكون شريعته فى تلك

الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم ، لأن الأحكام والشرائع تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات قاله السبكي : أى فجميع الأنبياء وأممهم من جملة أمته صلى الله عليه وسلم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « والذى نفسى بيده لو أن موسى عليه الصلاة والسلام كان حيا ماوسعه إلا أن يتبعنى » .

وأخرج أحمد وغيره عن عبد الله بن ثابت ، قال « جاء عمر رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة ، فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، فسرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : والذى نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم ،« إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وفى النهر لأبى حيان « إن عبد الله بن سلام استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت ، وأن يُقرأ من التوراة فى صلاته من الليل فلم يأذن له » وكون جميع الأنبياء وأممهم من أمته صلى الله عليه وسلم ،فالمراد أمة الدعوة لاأمة الإجابة لأنها مخصوصة بمن آمن به بعدالبعثة على ماتقدم ويأتى . وبعثته صلى الله عليه وسلم رحمة حتى للكفار بتأخير العذاب عنهم ، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة ، وحتى للملائكة ، قال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وقد ذكر فى الشفاء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل « هل أصابك من هذه الرحمة شىء ؟ قال : نعم ، كنت أخشى العاقبة ، فآمنت لثناء الله تعالى علىّ فى القرآن بقوله عز وجل ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ » .

قال الجلال السيوطى : إن هذا الحديث لم نقف له على إسناد ،فهو صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر المرسلين وجميع الملائكه المقربين ، وفى لفظ آخر « فضلت على الأنبياء بست لم يعطهن أحد كان قبلى : غفر لى ماتقدم من ذنبى وما تأخر ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت أمتى خير الأمم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الكوثر ، ونصرت بالرعب ؛ والذى نفسى بيده إن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة ، تحته آدم فمن دونه » وفى رواية « فما من أحد إلا وهو تحت لوائى يوم القيامة ينتظر الفرج ،وإن معى لواء الحمد ، أنا أمشى ويمشى الناس معى حتى آتى باب الجنة » الحديث.

أقول : قد سئلت عما حكاه الجلال السيوطى أنه ورد إلى مصر نصرانى من الفرنج وقال لى: شبهة إن أزلتموها أسلمت ، فعقد له مجلس بدار الحديث الكاملية ، ورأس العلماء إذ ذاك الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقال له النصرانى والناس يسمعون : أى أفضل عندكم المتفق عليه ، أو المختلف فيه ؟ فقال له الشيخ عز الدين : المتفق عليه ، فقال له النصرانى : قد اتفقنا نحن وأنتم على نبوة عيسى واختلفنا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون عيسى أفضل من محمد ، فأطرق الشيخ عز الدين ساكتا من أول النهار إلى الظهر حتى أرتج المجلس واضطرب أهله ، ثم رفع الشيخ رأسه وقال : عيسى قال لبنى إسرائيل (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) فيلزمك أن تتبعه فيما قال ، وتؤمن بأحمد الذى بشر به فأقام الحجة على النصرانى وأسلم بأنه كيف أقام الحجة على كون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من عيسى إذ غاية ما ذكر أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأجبت بأنه حيث ثبت أن محمدا رسول الله وجب الإيمان به وبما جاء به وبما جاء به ، وأخبر به أنه أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد سئل أبو الحسن الحمال بالحاء المهملة من فقهائنا معاشر الشافعية : محمد وموسى أيهما أفضل ؟ فقال محمد ، فقيل له : ما الدليل على ذلك ؟ فقال : إنه تعالى أدخل بينه وبين موسى لام الملك فقال تعالى (واصطنعتك لنفسى) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ففرق بين من أقام بوصفه وبين من أقامه مقام نفسه والله أعلم .

وفى رواية «إذا كان يوم القيامة كان لى لواء الحمد وكنت إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم » وفى لفظ «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة : أى حلق بابها ، فيفتح الله لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر » أى وفى رواية « آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، أى بتحريك حلقة الباب أو قرعه بها لا بصوت ، فيقول الخازن أى وهو رضوان : من أنت ؟ فأقول محمد » وفى رواية « أنا محمد ، فيقول : بك أمرت لا أفتح » وفى رواية « أن لا أفتح لأحد قبلك » زاد فى رواية « ولا أقوم لأحد بعدك لأفتح له » فمن خصائصه صلى

الله عليه وسلم أن رضوان لا يفتح إلا له ، ولا يفتح لغيره من الأنبياء وغيرهم ، وإنما يتولى ذلك غيره من الخزنة ، وهى خصوصية عظيمة نبه عليها القطب الخضرى ، وكون الفاتح له صلى الله عليه وسلم الخازن لا ينافى ما قبله من كون الفاتح له الحق سبحانه وتعالى لما علم أن الخازن إنما فتح بأمر الله فهو الفاتح الحقيقى .

وفى رواية «أنا أول من يفتح له باب الجنة ولا فخر فآتى فآخذ بحلقة الجنة ، فيقال من هذا ؟ فأقول محمد ، فيفتح لى ، فيستقبلنى الجبار جل جلاله فأخر له ساجداً » أى فالكلام فى يوم القيامة ، فلا يرد إدريس بناء على أن دخوله الجنة مترتب على فتح الباب غالبا ، لأن ذلك قبل يوم القيامة ، وفى يوم القيامة يخرج إلى الموقف ، فيكون مع أمته للحساب . ولا ينافيه ما جاء « أول من يقرع باب الجنة بلال بن حمامة » على تقدير صحته ، لأنه يجوز أن يكون يقرع الباب الأصلى لا حلقه ، أو الأول من الأمة والله أعلم .

وفى الأوسط للطبرانى بإسناد حسن « حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى » وسيأتى أن هذا من جملة ما أوحى إليه ليلة المعراج ، الذى أشار إليه قوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ولعل هذا هو المراد مما جاء فى المرفوع عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « حرمت الجنة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتى » وأن ظاهرها من أنه لا يدخلها أحد من الأنبياء إلا بعد دخول هذه الأمة ليس مرادا .

وفى هاتين الروايتين منقبة عظيمة لهذه الأمة المحمدية ، وهى أنه لا يدخل أحد الجنة من الأمم السابقة ولو من صلحائها وعلمائها وزهادها حتى يدخل من كان يعذب فى النار من عصاة هذه الأمة بناء على أنه لابد من تعذيب طائفة من هذه الأمة فى النار . ولا بعد فى ذلك ، لأنه تقدم أن أول من يحاسب من الأمم ، هذه الأمة . فيجوز أن الأمم لا يفرغ حسابهم ، ولا يأتون إلى باب الجنة إلا وقد خرج من كان يعذب من هذه الأمة فى النار ودخل الجنة .

وجاء « إنه يدخلها قبله من أمته سبعون ألفا مع كل واحد سبعون ألفا لا حساب عليهم » وذلك معارض لقوله صلى الله عليه وسلم «أنا أول من يدخل الجنة » إلا أن يقال : أول من يدخل الجنة من الباب ، وهؤلاء السبعون ألفا ورد أنهم يدخلون من أعلى حائط الجنة فلا معارضة .

ولا يعارض ذلك ما جاء « أول من يدخل الجنة أبو بكر » لأن المراد أول من يدخلها من رجال هذه الأمة غير الموالى .

ولا يعارض ذلك ماتقدم عن بلال رضى الله تعالى عنه «أنه أول من يقرع باب الجنة» لأنه لايلزم من القرع الدخول وعلى تسليم أن القرع كناية عن الدخول ، فالمراد من الموالى .

ولا يعارض ذلك أيضا ما جاء « أول من يدخل الجنة بنتى فاطمة » كما لا يخفى ، لأن المراد أول من يدخلها من نساء هذه الأمة فالأولية إضافية .

وجاء « لأشفعنّ يوم القيامة لأكثر مما فى الأرض من حجر وشجر » وعن أنس رضى الله تعالى عنه « فضلت على الناس بأربع : بالسخاء ، والشجاعة ، وقوة البطش ، وكثرة الجماع » أى فعن سلمى مولاته صلى الله عليه وسلم أنها قالت «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على نسائه التسع ليلته وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتى الأخرى وقال : هذا أطهر وأطيب » .

ومما يدل على قوة بطشه صلى الله عليه وسلم ماوقع له مع ركانة كما سيأتى . وفى الخصائص الصغرى : وكان أفرس العالمين ، فهو صلى الله عليه وسلم أجود بنى آدم على الإطلاق ، كما أنه أفضلهم وأشجعهم وأعلمهم وأكملهم فى جميع الأخلاق الجميلة والأوصاف الحميدة .

قال ابن عبد السلام : من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أخبره بالمغفرة : أى لما تقدم وتأخر ، ولم ينقل أنه أخبر أحدا من الأنبياء بمثل ذلك : أى ولأنه لو وقع لنقل لأنه مما تتوفر الدواعى على نقله ، بل ومما اختص به صلى الله عليه وسلم وقوع غفران نفس الذنب المتقدم والمتأخر ، كما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم فى بيان مااختص به عن الأنبياء « وغفر لى ماتقدم من ذنبى وما تأخر » أى ولا ينافى ذلك قوله تعالى فى حق داود (فغفرنا له ذلك) لأنه غفران لذنب واحد . قال ابن عبد السلام : بل الظاهر أنه لم يخبرهم أى بغفران ذنوبهم ، بدليل قولهم فى الموقف « نفسى نفسى ، لأنى » إلى آخره . وعن أبى موسى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سمع بى من يهودى أو نصرانى ثم لم يسلم دخل النار » أى لأنه يجب عليه أن يؤمن به .

أقول : والذى فى مسلم « والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى

أو نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » أى من سمع بنبينا صلى الله عليه وسلم ممن هو موجود فى زمنه وبعده إلى يوم القيامة ثم مات غير مؤمن بما أرسل به كان من أصحاب النار . أى ومن جملة ماأرسل به أنه أرسل إلى الخلق كافة لاالخصوص العرب تأمل ، وإنما خص اليهود والنصارى بالذكر تنبيها على غيرهما لأنه إذا كان حالهما ذلك مع أن لهم كتابا فغيرهم مما لا كتاب له كالمجوسى أولى ، لأن اليهود كتابهم التوراة ، والنصارى كتابهم الإنجيل لأن شريعة التوراة التى هى شريعة موسى يقال لها اليهودية أخذا من قول موسى عليه الصلاة والسلام (إنا هدنا إليك) أى رجعنا إليك ، فمن كان على دين موسى يسمى يهوديا ، وشريعة الإنجيل يقال لها النصرانية ، أخذا من قول عيسى عليه الصلاة والسلام (من أنصارى إلى الله) فمن كان على دين عيسى يسمى نصرانيا ، وكان القياس أن يقال له أنصارى . وقيل النصرانى نسبة إلى ناصرة قرية من قرى الشام نزل بها عيسى عليه السلام كما تقدم ، ولا مانع من رعاية الأمرين فى ذلك . وجاء فى رواية « وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة » أى والأمم السابقة كانوا يصلون متفرقين كل واحد على حدته ، وإن أمته صلى الله عليه وسلم حط عنها الخطأ والنسيان وحمل مالا تطيقه ، الذى أشارت إليه خواتيم سورة البقرة ، وإن شيطانه صلى الله عليه وسلم أسلم وفى الخصائص الصغرى « وأسلم قرينه » ومجموع تلك الخصال سبع عشرة خصلة . قال الحافظ ابن حجر : ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع .

وذكر أبو سعيد النيسابورى فى كتابه [شرف المصطفى] أنه عد الذى اختص به نبينا صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء فإذا هو ستون خصلة : أى ومن ذلك أى ممـــا اختص به صلى الله عليه وسلم فى أمته أن وصف الإسلام خاص بها لم يوصف به أحد من الأمم السابقة سوى الأنبياء فقط فقد شرفت هذه الأمة المحمدية بأن وصفت بالوصف الذى كان يوصف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ وهو الإسلام على القول الراجح نقلا ودليلا لماقام عليه من الأدلة الساطعة قاله الجلال السيوطى رحمه الله .

باب بدء الوحي له
صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضي الله تعالى عنها أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة « لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق » أى وفى لفظ «كفرق الصبح » أى كضيائه وإنارته ، فلا يشك فيها أحد كما لا يشك أحد فى وضوح ضياء الصبح ونوره. وفى لفظ «فكان لايرى شيئا فى المنام إلا كان » أى وجد فى اليقظة كما رأى ، فالمراد بالصالحة الصادقة . وقد جاءت فى رواية البخارى فى التفسير : أى ولا يخفى أن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم كلها صادقة وإن كانت شاقة كما فى رؤياه يوم أحد .

قال القاضى وغيره وإنما ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك الذى هو جبريل عليه السلام بالنبوة : أى الرسالة ، فلا تتحملها القوى البشرية : أى لأن القوى البشرية لاتتحمل رؤية الملك وإن لم يكن على صورته التى خلقه الله عليها ولا على سماع صورته ولا على مايخبر به لاسيما الرسالة ، فكانت الرؤيا تأنيسا له صلى الله عليه وسلم والمراد بالملك جبريل ، لكن ذكر بعضهم أن من لطف الله تعالى بنا عدم رؤيتنا للملائكة أى على الصورة التى خلقوا عليها لأنهم خلقوا على أحسن صورة فلو كنا نراهم لطارت أعيننا وأرواحنا لحسن صورهم .

وعن علقمة بن قيس « أول مايؤتى به الأنبياء فى المنام، أى مايكون فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى » اه : أى فى اليقظة لأن رؤيا الأنبياء وحى وصدق وحق ، لا أضغاث أحلام ولا تخيل من الشيطان ، إذ لا سبيل له عليهم ، لأن قلوبهم نورانية ، فما يرونه فى المنام له حكم اليقظة ، فجميع ما ينطبع فى عالم مثالهم لا يكون إلا حقا ، ومن ثم جاء « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » .

أقول : وحينئذ يكون فى القول بأن من خصوصياته صلى الله عليه وسلم اجتماع أنواع الوحى الثلاثة له وعد منها الرؤيا فى المنام ، وعد منها الكلام من غير واسطة ، وبواسطة جبريل نظر ، لما علمت أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم مشتركون فى الرؤيا ، وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له كل من الكلام بلا واسطة وبواسطة جبريل .

وذكر بعضهم أن مدة الرؤيا ستة أشهر قال فيكون ابتداء الرؤيا حصل فى شهر ربيع الأول ، وهو مولده صلى الله عليه وسلم ثم أوحى الله إليه فى اليقظه أى فى رمضان ذكره البيهقى وغيره .

وجاء فى الحديث : «الرؤيا الصادقة» وفى البخارى «الرؤيا الحسنة : أى الصادقةمن الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» . قال بعضهم : معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم حين بعث أقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ومدة الوحى إليه فى اليقظة ثلاث وعشرون سنة ، ومدة الوحى إليه فى المنام أى التى هى الرؤيا ستة أشهر ، فالمراد خصوص رؤيته وخصوص نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهذا القيل نقله فى الهدى وأقره حيث قال : كانت الرؤيا ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاثا وعشرين سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا ، هذا كلامه . وحينئذ يكون المعنى ورؤيتى جزء من ستة وأربعين جزءا من نبوتى ، ولا يخفى أن هذا لا يناسب «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح» إذ هو يقتضى أن مطلق الرؤيا الصالحة جزء من مطلق النبوة الشامل لنبوته صلى الله عليه وسلم ونبوة غيره فليتأمل . ولم أقف فى كلام أحد على مشاركة أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له صلى الله عليه وسلم فى هاتين المدتين . وحينئذ تحمل الخصوصية التى ادعاها بعضهم على هذا .

ومما يدل على أن المراد مطلق الرؤيا ومطلق النبوة لاخصوص رؤياه ونبوته صلى الله عليه وسلم ، ماجاء فى ذلك من الألفاظ التى بلغت خمسة عشر لفظا .

ففى رواية «أنها جزء من سبعين جزءا» وفى رواية «من أربعة وأربعين» وفى رواية «أنها جزء من خمسين جزءا من النبوة» وفى رواية «من تسعة وأربعين» وفى أخرى «أنها جزء من ستة وسبعين» وفى أخرى «من خمسة وعشرين جزءا» وفى أخرى «من ستة وعشرين جزءا» وفى أخرى «من أربعة وعشرين جزءا» فإن ذلك باعتبار الأشخاص لتفاوت مراتبهم فى الرؤيا .

وذكر الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات مطلقا رواية ستة وأربعين ، ويليها رواية أنها جزء من سبعين جزءا .

فعلم أن الرؤية المذكورة جزء من مطلق النبوة : أى كجزء منها من جهة الاطلاع على بعض الغيب ، فلا ينافى انقطاع النبوة بموته صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم جاء «ذهبت النبوة» أى لاتوجد بعدى . «وبقيت المبشرات» أى المرائى

التى كانت مبشرات للأنبياء بالنبوة ، بدليل مافى رواية «لم يبق بعدى من المبشرات» أى مبشرات النبوة «إلا الرؤيا» أى مجرد الرؤيا الخالية عن شىء من مبشرات النبوة ، بدليل مافى لفظ «لم يبق إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم» أى لنفسه «أو ترى له» .

لايقال : الرؤيا الصادقة تكون من الكافر أو ترى له ، وهو خارج بالرجل الصالح وبالمسلم . لأنا نقول : لو فرض وقوع ذلك كان استدراجا . وفيه أنها واقعة ، وظاهر سياق الحديث الحصر ، وكما تكون الرؤيا مبشرة بخير عاجل أو آجل تكون منذرة بشر كذلك قال بعضهم : وقد تطلق البشارة التى هى الخبر السار على مايشمل النذارة التى هى الخبر الضار بعموم المجاز ، بأن يراد بالبشارة مايعود إلى الخير ، لأن النذارة ربما قادت إلى الخير

وفى الاتقان : ومن المجاز تسمية الشىء باسم ضده نحو (فبشرهم بعذاب أليم) اه أى وهى فى هذه الآية للتهكم .

وجاء رجل أى وهو أبو قتادة الأنصارى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال «يارسول الله إنى أرى فى المنام الرؤيا تمرضنى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الحسنة من الله ، والسيئة من الشيطان ، فإذا رأيت الرؤيا تكرهها فاستعذ بالله من الشيطان واتفل عن يسارك ثلاث مرات فإنها لاتضرك» أى وحكمة التفل احتقار الشيطان واستقذاره.

وفى رواية «إذا رأى أحدكم ما يكره فليعذ بالله من شرها ومن الشيطان ، كأن يقول: أعوذ بالله من شر ما رأيت ومن شر الشيطان ، وليتفل ثلاثا ، ولا يحدّث بها أحدا فإنها لا تضره» زاد فى رواية «وأن يتحول عن جنبه الذى كان عليه» زاد فى أخرى «وليقم فليصلّ» أى ليكون فعل ذلك سببا للسلامة من المكروه الذى رآه .

وفى البخارى «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هى من الله فليحمد الله عليها وليتحدث بها : أى ولا يخبر بها إلا من يحب ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان» أى لا حقيقة لها ، وإنما هى تخيل يقصد به تخويف الإنسان والتهويل عليه «فليستعذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» وفى الأذكار «ثم ليقل: اللهم إنى أعوذ بك من عمل الشيطان وسيئات الأحلام» وفى الحديث «الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان» .

قيل فى معناه لأن صاحب الرؤيا يرى الشىء على ماهو عليه ؛ بخلاف صاحب الحلم

فإنه يراه على خلاف ماهو عليه ، فإن الحلم مأخوذ من حلم الجلد : إذا فسد . والرؤيا قيل إنها أمثلة يدركها الرائى بجزء من القلب لم تستول عليه آفة النوم ، وإذا ذهب النوم عن أكثر القلب كانت الرؤيا أصفى وذكر الفخر الرازى أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها ، أى أثرها عن قرب ، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين .

والسبب فيه أن حكمة الله تعالى تقتضى أن لايحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل .

وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذكر الخير أكثر ، وهذا جرى على ماهو الغالب ، وإلا فقد قيل لجعفر الصادق : كم تتأخر الرؤيا ؟ فقال « رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى منامه كأن كلبا أبقع يلغ فى دمه » فكان أى ذلك الكلب الأبقع شمرا قاتل الحسين وكان أبرص، فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة .

وجاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد » وفى رواية « أرى نورا » أى يقظة لامناما « وأسمع صوتا وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر » وفى رواية « والله ماأبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان ، وإنى لأخشى أن أكون كاهنا » أى فيكون الذى يناديني تابعا من الجن ، لأن الأصنام كانت الجن تدخل فيها ، وتخاطب سدنتها ، والكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء وفى رواية « وأخشى أن يكون بى جنون » أى لمة من الجن « فقالت : كلا يابن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث » وفى رواية « إن خلقك لكريم » أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل . استدلت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أنه لايفعل به إلا خيرا ، لأن من كان كذلك لايجزى إلا خيرا .

ونقل الماوردى عن الشعبي أن الله قرن إسرافيل عليه السلام بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ، يعلمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن ، فكان فى هذه المدة مبشرا بالنبوة ، وأمهله هذه المدة ليتأهب لوحيه .

وفيه أنه لو كان فى تلك المدة مبشرا بالنبوة ماقال لخديجة ماتقدم ، إلا أن يقال ماتقدم إنما قاله لخديجة فى أول الأمر ، ويدل لذلك ماقيل إنه صلى الله عليه وسلم مكث

خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا، وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك، وإن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنان وعشرون سنة ، وهذا الشيء الذي كان يعلمه له إسرافيل لم أقف على ماهو ، والله أعلم .

وبعد ذلك حبب الله إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة التي يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق فهي تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله تعالى ، فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده . وكان يخلو بغار حراء بالمد والقصر ، وهذا الجبل هو الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله إلى يارسول الله لما قال له ثبير وهو على ظهره : اهبط عني ، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب ، فكان صلى الله عليه وسلم يتحنث : أي يتعبد به أي بغار حراء الليالي ذوات العدد، ويروى أولات العدد : أي مع أيامها ، وإنما غلب الليالي لأنها أنسب بالخلوة . قال بعضهم: وأبهم العدد لاختلافه بالنسبة إلى المدد ، فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال ، وتارة شهر رمضان أو غيره .

وفي كلام بعضهم ماقد يدل على أنه لم يختل صلى الله عليه وسلم أقل من شهر ، وحينئذ يكون قوله في الحديث الليالي ذوات العدد محمول على القدر الذي كان يتزود له فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر ، وكذا قول بعضهم؟ فتارة كان ثلاث ليال ، وتارة سبع ليال، وتارة شهرا . ولم يصح أنه صلى الله عليه وسلم اختلى أكثر من شهر . قال السراج البلقيني في شرح البخاري : لم يجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام ، هذا كلامه وسيأتي بيان ذلك قريبا .

ثم إذا مكث صلى الله عليه وسلم تلك الليالي : أي وقد فرغ زاده يرجع إلى خديجة رضي الله تعالى عنها فيتزود لمثلها : أي قيل وكانت زوادته صلى الله عليه وسلم الكعك والزيت . وفيه أن الكعك والزيت يبقى المدة الطويلة ، فيمكث جميع الشهر الذي يختلي فيه ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر مدة الخلوة كانت شهرا ، فكان يتزود لبعض ليالي الشهر فإذا نفد ذلك الزاد رجع إلى أهله يتزود قدر ذلك ، ولم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب أدمهم اللبن واللحم ، وذلك لا يدخر منه لغاية شهر لئلا يسرع الفساد إليه ، ولا سيما وقد وصف بأنه صلى الله عليه وسلم كان يطعم من يرد عليه هذا كلامه .

وهو يشير فيه إلى ثلاثة أجوبة :

الأول: أنه لم يكن فى سعة بحيث يدخر مايكفيه شهرا من الكعك والزيت .

الثانى : أن غالب أدمهم كان اللحم واللبن وهو لايدخر شهرا .

الثالث: أنه على فرض أن يدخر مايكفيه شهرا أى من الكعك والزيت إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعم فربما نفدماادخره .

وإنما اختار الزيت للأدم لأن دسومته لاينفر منها الطبع ، بخلاف اللبن واللحم ، ومن ثم جاء « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » وقوله « ائتدموا من هذه الشجرة المباركة » أى من عصارة ثمرة هذه الشجرة المباركة التى هى الزيتونة وهو الزيت . وقيل لها مباركة لأنها لاتكاد تنبت إلا فى شريف البقاع التى بورك فيها كأرض بيت المقدس ، حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء : أى فى اليوم والشهر المتقدم ذكره .

وعن عبيد بن عمير رضى الله عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء فى كل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية » أى المتألهين منهم : أى وكان أول من تحنث فيه من قريش جده صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ، فقد قال ابن الأثير : أول من تحنث بحراء عبد المطلب ، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه على ذلك من كان يتأله : أى يتعبد [ ] كورقة بن نوفل وأبى أمية ابن المغيرة ، وقد أشار إلى تعبده صلى الله عليه وسلم صاحب الهمزية بقوله :

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلا وهكذا النجباء

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت فى العبادة الأعضاء

أى ألف صلى الله عليه وسلم العبادة والخلوة فى حال كونه طفلا ، ومثل هذا الشأن العلى شأن الكرام ، وإنما كان هذا شأن الكرام ، لأنه إذا حلت الهداية قلبا نشطت الأعضاء فى العبادة ، لأن القلب رئيس البدن المعول عليه فى صلاحه وفساده ولعل الخلوة فى كلام صاحب الهمزية المراد بها مطلق اعتزاله للناس ، وأراد بطفلا زمن رضاعه صلى الله عليه وسلم عند حليمة .

فقد تقدم عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لما ترعرع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم لاخصوص اعتزاله الناس فى غار حراء فلا ينافى قوله طفلا ظاهر ماتقدم من أن خلوته صلى الله عليه وسلم بغار حراء كانت فى زمن

تزوجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضى الله تعالى عنها ، فكان صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين : أى لأنه كان من نسك قريش فى الجاهلية : أى فى ذلك المحل أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين .

وقد قيل إن هذا كان تعبده فى غار حراء أى مع الانقطاع عن الناس ، وإلا فمجرد إطعام المساكين لايختص بذلك المحل: إلا إن كان ذلك المحل صار فى ذلك الشهر مقصودا للمساكين دون غيره .

وقيل كان تعبده صلى الله عليه وسلم التفكر مع الانقطاع عن الناس : أى لاسيما إن كانوا على باطل، لأن فى الخلوة يخشع القلبُ وينسى المألوف من مخالطة أبناء الجنس المؤثرة فى البنية البشرية ، ومن ثم قيل : الخلوة صفوة الصفوة .

وقول بعضهم : كان يتعبد بالتفكر : أى مع الانقطاع عما ذكرنا، وإلا فمجرد التفكر لايختص بذلك المحل ، إلا أن يدعى أن التفكر فيه أتم من التفكر فى غيره لعدم وجود شاغل به . وقيل تعبده صلى الله عليه وسلم كان بالذكر وصححه فى [سفر السعادة] وقيل بغير ذلك .

من ذلك الغير أنه قيل كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم . وقيل بشريعة موسى غير مانسخ منها فى شرعنا وقيل بكل ماصح أنه شريعة لمن قبله غير مانسخ من ذلك فى شرعنا .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى : تعبد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته بشريعة إبراهيم حتى فجأه الوحى وجاءته الرسالة ، فالولى الكامل يجب عليه متابعة العمل بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله له فى قلبه عين الفهم عنه فيلهم معانى القرآن ، ويكون من المحدثين بفتح الدال ثم يصير إلى إرشاد الخلق. وكان صلى الله عليه وسلم إذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول مايبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف بها سبعا أو ماشاء الله تعالى ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به ماأراد من كرامته صلى الله عليه وسلم وذلك شهر رمضان، وقيل شهر ربيع الأول، وقيل شهر رجب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله : أى عياله التى هى خديجة رضى الله تعالى عنها إما مع أولادها أو بدونهم ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بها ، وتلك الليلة ليلة سبع عشرة من ذلك الشهر ، وقيل رابع عشريه ، وقيل كان ذلك ليلة ثمان من ربيع الأول : أى وقيل ليلة ثالثه .

قال بعضهم : القول بأنه فى ربيع الأول يوافق القول بأنه بعث على رأس الأربعين لأن مولده صلى الله عليه وسلم كان فى ربيع الأول على الصحيح : أى وهو قول الأكثرين وقيل كان ذلك ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب .

فقد أورد الحافظ الدمياطى فى سيرته عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهرا » وهو اليوم الذى نزل فيه جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأول يوم هبط فيه جبريل هذا كلامه ، أى أول يوم هبط فيه على النبى صلى الله عليه وسلم ولم يهبط عليه قبل ذلك ، وسيأتى فى بعض الروايات أن جبريل عليه السلام نزل فى سحر تلك الليلة التى هى ليلة الإثنين . ويجوز أن يكون كل من تلك الليالى كانت ليلة الإثنين ، فقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال « لايفوتك صوم يوم الإثنين ، لأنى ولدت فيه ، وبعثت فيه » فلا مخالفة بين كونه نبىء فى الليل وبين كونه نبىء فى اليوم ، لأن السحر قد يلحق بالليل .

وفى كلام بعضهم أتاه صلى الله عليه وسلم جبريل ليلة السبت وليلة الأحد ، ثم ظهر له بالرسالة يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان فى حراء ، فجاء بأمر الله تعالى وهـــذا القول : أى أن البعث كان فى رمضان قال به جماعة ، منهم الإمام الصرصرى حيث قال :

وأتت عليه أربعون فأشرقت   شمس النبوة منه فى رمضان

واحتجوا بأن أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن . وأجيب بأن المراد بنزول القرآن فى رمضان نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فجاءنى وأنا نائم بنمط » وهو ضرب من البسط ، وفى رواية « جاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج ، فيه كتاب أى كتابة ، فقال اقرأ ، فقلت: ما أقرأ » أى أنا أمى لا أحسن القراءة أى قراءة المكتوب أو مطلقا « فغطنى ، أو فغتنى » بالتاء بدل من الطاء به : أى غمنى بذلك النمط ، بأن جعله على فمه وأنفه قال « حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ أى من غير هذا المكتوب ، فقلت : ماذا أقرأ وما أقول ذلك إلا افتداء منه : أى تخلصا منه أن يعود لى بمثل ماصنع أى إنما استفهمت عما أقرؤه ولم أنف خوفا أن يعود لى بمثل ماصنع عند النفى : أى وفى رواية « فقلت والله ماقرأت

شيئا قط ، وما أدرى شيئا أقرؤه» : أى لأنى ماقرأت شيئا فهو من عطف السبب على المسبب قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) فقرأتها فانصرف عنى، وهببت » أى استيقظت « من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا » .

أقول : أى استقر ذلك فى قلبى وحفظته . ثم لايخفى أن كلام هذا البعض ، وهو أنه جاءه ليلة السبت وليلة الأحد ، ثم ظهر له يوم الاثنين ، محتمل لأن يكون أتاه بذلك النمط فى ليلة السبت وليلة الأحــد وسحر يوم الاثنين وهو نائم لايقظة لقوله «ثم هببت من نومى» .

ولا ينافى ذلك قوله ، ثم ظهر له بالرسالة ، أى أعلن له بما يكون سببا للرسالة الذى هو اقرأ الحاصل فى اليقظة . وحينئذ يكون تـكرر مجيئه هو السبب فى استقرار ذلك فىقلبه صلى الله عليه وسلم . وحينئذ لايبعده قوله فى الليلة الثانية « ماقرأت شيئا » لأن المراد لم يتقدم لى قراءة قبل مجيئك إلى ، ولا يبعده أيضا قوله « ما أدرى ما أقرأ » لأنه لم يستقر ذلك فى قلبه لما علمت أن سبب الاستقرار التكرر ، فلم يستقر ذلك فى قلبه صلى الله عليه وسلم فى الليلة الأولى .

وفى سيرة الشامى أن مجىء جبريل عليه السلام له صلى الله عليه وسلم بالنمط لم يتكرر ، وأنه كان قبل دخوله صلى الله عليه وسلم غار حراء ، وهــذا السياق يدل على أنه كان بعده .

وفى [سفر السعادة] مايقتضى أنه جاء بالنمط يقظة فى حرا ، ونصه « فبينما هو فى بعض الأيام قائم على جبل حرا إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة ، ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها فىيده وقال : اقرأ ، قال والله ماأنا بقارئ ولا أدرى فى هــذه الرسالة كتابة » أى لاأعلم ولا أعرف المكتوب فيها ، قال : «فضمنى إليه وغطنى حتى بلغ منى الجهد ، فعل ذلك بى ثلاثا وهو يأمرنى بالقراءة ، ثم قال اقرأ باسم ربك» . هــذا كلامه فليتأمل ، والله أعلم « قال فخرجت» أى من الغار : أى وذلك قبل مجىء جبريل إليه صلى الله عليه وسلم باقرأ خلافا لما يقتضيه السياق « حتى إذا كنت فى شط من الجبل » أى فى جانب منه «سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه ، فإذا جبريل على

صورة رجل صافّ قدميه » أي وفى رواية « واضعا إحدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء » أى نواحيها « يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ؛ فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ، ماأتقدم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طابى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة : أى فى الغار ، فجلست إلى فخذها مضيفا إليها أى مستندا إليها ، فقالت : ياأبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلى» .

أقول : وهذا يدل على أن خديجة رضى الله تعالى عنها كانت معه بغار حرا ، وهو الموافق لما تقدم من قوله ومعه أهله أى خديجة رضى الله تعالى عنها على ماتقدم .

وقد يخالف ذلك ماروى أن خديجة رضى الله تعالى عنها صنعت طعاما ثم أرسلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجده بحراء ، فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشق ذلك عليها ، فبينما هى كذلك إذا أتاها فحدثها بما رأى وسمع ، فإن هذا يدل على أنها لم تكن معه صلى الله عليه وسلم بحرا .

وقد يقال : يجوز أن تكون خرجت معه أولا وأرسلت رسلها إليه صلى الله عليه وسلم وهى بحرا فلم تجده ، وأن الرسل أخطئوا محل وقوفه صلى الله عليه وسلم بالجبل الذى هو حرا ، ثم رجعت إلى مكة وأرسلت رسلها إليه صلى الله عليه وسلم بحراء ، لاحتمال عوده إليه ، ثم أرسلت إلى بيت أعمامه وأخواله لما لم تجده صلى الله عليه وسلم بحراء ، فإرسالها تكرر مرتين مع اختلاف محلها ، ويكون قوله «وانصرفت راجعا إلى أهلى» : أى بمكة لا بحراء ، لأنه يجوز أن يكون بلغه رجوع خديجة رضى الله تعالى عنها إلى مكة .

هذا على مقتضى الجمع . وأما على ظاهر الرواية الأولى يكون رجوعه إلى أهله بحراء كما ذكرنا ، وهو يدل على أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى شط الجبل كان من غار حراء كما ذكرنا لا من مكة الذى يدل عليه قول الشمس الشامى « فخرج مرة أخرى إلى حراء ، قال : فخرجت حتى أتيت الشط من الجبل سمعت صوتا » إلى آخره فليتأمل والله أعلم .

قال « ثم حدثتها بالذى رأيت» : أى من سماع الصوت ورؤية جبريل ، وقوله له :

يا محمد أنت رسول الله ، فقالت أبشر يا بن عمى واثبت ، فوالذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها : أى التى تتجمل بها عند الخروج .

ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع : أى رأى جبريل وسمع منه أنت رسول الله وأنا جبريل ، فقال ورقة : قدوس قدوس بالضم والفتح ، والذى نفسى بيده لئن كنت صدقت ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى الذى هو جبريل ، وإنه لنبيّ هذه الأمة ، فقولى له يثبت . والقدوس : الطاهر المنزه عن العيوب ، وهذا يقال للتعجب ، أى وجاء بدل قدوس سبوح سبوح ، وما لجبريل يذكر فى هذه الأرض التى تعبد فيها الأوثان ، جبريل أمين الله بينه وبين رسله : أى لأن هذا الاسم لم يكن معروفا بمكة ولا غيرها من بلاد العرب ، فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف : أى فرغ ما تزوّده وليس المراد انقضاء جواره بانقضاء الشهر ، لأن ذلك كان قبل أن يجىء إليه جبريل باقرأ باسم ربك يقظة كما تقدم . أى وذلك كان فى الشهر الذى أكرمه الله فيه برسالته .

فعند ذلك صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال له : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ، ولتقاتلنه ولتخرجنه بهاء السكت ، ولا تكون إلا ساكنة . ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى ورقة رأسه صلى الله عليه وسلم منه وقبل يأفوخه ، أى وسط رأسه ، لأن اليأفوخ بالهمزة وسط الرأس إذا استد وقبل استداده كما فى رأس الطفل يقال له الفادية بالفاء . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله أى ولا مانــع من تكرار مراجعة ورقة فتارة قال قدوس قدوس ، وتارة قال سبوح سبوح ، أو جمع بين ذلك فى وقت واحد . وبعض الرواة اقتصر على أحد اللفظين ، وقد جاء أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه دخل على خديجة أى وليس عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له : ياعتيق إذهب بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ورقة : أى بعد أن أخبرته بما

أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيذكر ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبوبكر بيده فقال : انطلق بنا إلى ورقة ، وذهب به إلى ورقة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يامحمد يامحمد فأنطلق هاربا إلى الأرض ، فقال له : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى : أى وهذا قبل أن يراه ويجتمع به ويجيء إليه بالقرآن . وحينئذ يكون تكرر سؤال ورقة ثلاث مرات ، الأولى على يد أبى بكر رضى الله تعالى عنه . وذلك قبل أن يرى جبريل . والثانية التى رأى فيها جبريل وسمع منه ولم يجتمع به ، وذلك عند اجتماعه صلى الله عليه وسلم به فى المطاف . والثالثة التى بعد مجيء جبريل له يقظة بالقرآن أى باقرأ باسم ربك على المشهور ، من أنه أوّل ما نزل ، وذلك على يد خديجة ، ولا ينافى ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر كما سيأتى أن القصة واحدة لم تتعدد ومخرجها متحد ، لأن مراده قصة مجيء جبريل له يقظة باقرأ باسم ربك وسيأتى مافيه .

وإنما قال ورقة له صلى الله عليه وسلم يا ابن أخى ، قيل لأنه يجتمع مع عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم فى قصىّ فكان عبد الله بمثابة الأخ له أو أنه قال ذلك توقيرا له وإنما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليهما الصلاة والسلام ، مع أن عيسى أقرب منه وهو على دينه لأنه كان على دين موسى ، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام أى كان يهوديا . ثم صار نصرانيا ، أى لأن نبوّة موسى عليه الصلاة والسلام مجمع عليها أى على أنها ناسخة لما قبلها ، وأن شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام ، قيل إنها متممة ومقررة لشريعة موسى عايه الصلاة والسلام لا ناسخة لها ، قيل ولأن ورقة كان ممن تنصر أى كما علمت ، والنصارى لايقولون بنزول جبريل على عيسى عليه الصلاة والسلام أى بل كان يعلم الغيب ، لأنهم يقولون فيه إنه أحد الأقانيم الثلاثة اللاهوتية وذلك الأقنوم هو أقنوم الكلمة التى هى العلم حل بناسوت المسيح واتحد به ، فلذلك كان يعلم علم الغيب ويخبر بما فى الغد .

أقول : وفيه أن فى رواية « وإنك على مثل ناموس موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام » أى فى بعض الروايات جمع وفى بعضها اقتصر على موسى . وفى الاقتصار على موسى دون الاقتصار على عيسى ما علمت ، ثم رأيت أنه جاء فى غير الصحيح

الاقتصار على عيسى فقال هذا الناموس الذى نزل على عيسى ، فهو كما جاء الجمع بينهما جاء الاقتصار على كل منهما .

ولا ينافى ذلك أى مجىء جبريل لعيسى ما تقدم عن النصارى من أنهم لايقولون بنزول جبريل على عيسى ، لجواز أن يكون المراد لاينزل عليه دائما وأبدا بالوحى ، بل فى بعض الأحيان ، وفى بعضها يعلم الغيب بغير واسطة . ثم رأيت فى فتح البارى أن عند إخبار خديجة لورقة بالقصة قال لها هذا ناموس عيسى بحسب ما هو فيه من النصرانية ، وعند إخبار النبى صلى الله عليه وسلم له بالقصة قال له هذا ناموس موسى للمناسبة بينهما لأن موسى أرسل بالنقمة على فرعون ، وقد وقعت النقمة على يد نبينا صلى الله عليه وسلم على فرعون هذه الأمة الذى هو أبوجهل ، هذا كلامه فليتأمل . وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حق أبى جهل فى يوم بدر « هذا فرعون هذه الأمة » والله أعلم .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « جاءه الملك سحرا » أى سحر يوم الاثنين يقظة لا مناما ، أى بغير نمط « فقال له اقرأ . قال : ما أنا بقارئ » أى لا أوجد القراءة ، قال : « فأخذنى فغطنى » أى ضمنى وعصرنى . وفى لفظ « فأخذ بحلقى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ » أى لا أحسن القراءة ، أى لا أحفظ شيئا أقرؤه « فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ » أى أىّ شىء أقرؤه .

وفيه أنه لو كان كذلك لقال ما أقرأ ، أو ماذا أقرأ . إلا أن يقال أطلق ذلك وأراد لازمه الذى هو الاستفهام ، خصوصا وقد قدمه قال « فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) » .

أقول : فقولنا : أى بغير نمط هو ظاهر الروايات ، ويجوز أن يكون لفظ النمط سقط فى هذه الرواية كغيرها من الروايات ، ويؤيده اقتصار السيرة الشامية على مجيئه بالنمط . وأيضا كيف الجمع بين قوله هنا ماذكر وبين قوله هناك « فكأنما كتب فى قلبى كتابا » « وما بالعهد من قدم » . إلا أن يقال يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جوز أن يكون جبريل يريد منه قراءة غير الذى قرأه وكتب فى قلبه . ولا يخفى أنه علم أن قول جبريل اقرأ أمر بالقراءة .

وفيه أنه من التكليف بما لايطاق ، أى فى الحال : أى ومن ثم ادعى بعضهم أنه لمجرد التنبيه واليقظة لما يلقى إليه .

وفيه أنه لو كان كذلك لم يحسن أن يقال فى جوابه : ماأنا بقارئ الذى معناه لا أوجد القراءة . إلا أن يقال جبريل عليه الصلاة والسلام أراد التنبيه لاالأمر ، وجوابه صلى الله عليه وسلم بناء على مقتضى ظاهر اللفظ .

وعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : ماأنا بقارئ فى المواضع الثلاثة معناه مختلف : ففى الأول معناه الإخبار بعدم إيجاد القراءة ، والثانى معناه الإخبار بأنه لايحسن شيئا يقرؤه وإن كان ذلك هو مستند الأول ، والثالث معناه الاستفهام عن أى شىء أن يقرؤه ، وفيه ماعلمت .

وبعضهم جعل قوله الأول لا أقرأ : لاأحسن القراءة بدليل أنه جاء فى بعض الروايات ماأحسن أن أقرأ . وحينئذ يكون بمعنى الثانى ، فيكون تأكيدا له : أى الغرض منهما شىء واحد .

قال بعضهم : وجه المناسبة بين الخلق من العلق والتعليم وتعليم العلم أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة ، وأعلاها كونه عالما ، فالله سبحانه وتعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهى العلقة إلى أعلاها ، وهى تعلم العلم .

وقد اشتملت هذه الآيات على براعة الاستهلال : وهو أن يشتمل أول الكلام على مايناسب الحال المتكلم فيه ، ويشير إلى ماسيق الكلام لأجله فإنها اشتملت على الأمر بالقراءة والبداءة فيها ببسم الله ، إلى غير ذلك مما ذكره فى الإتقان . قال فيه : من ثم قيل إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن ، لأن عنوان الكتاب مايجمع مقاصده بعبارة موجزة فى أوله ، وكرر جبريل الغط ثلاثا للمبالغة . وأخذ منه بعض التابعين وهو القاضى شريح أن المعلم لايضرب الصبى على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات .

وأورد الحافظ السيوطى عن الكامل لابن عدى بسند ضعيف عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يضرب المؤدب الصبى فوق ثلاث ضربات » .

وذكر السهيلى أن فى ذلك : أى الغط ثلاثا إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم يحصل له شدائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك فكانت الأولى إدخال قريش له صلى الله عليه

وسلم الشعب والتضييق عليه . والثانية اتفاقهم على الاجتماع على قتله صلى الله عليه وسلم . والثالثة خروجه من أحب البلاد إليه ، وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل : أى قبل قول جبريل له اقرأ فشق جبريل بطنه وقلبه ، إلى آخر ماتقدم فى الكلام على أمر الرضاع ثم قال له جبريل : اقرأ الحديث ، فعلم أن اقرأ باسم ربك نزلت من غير بسملة ، وقد صرح بذلك الإمام البخارى ، وما ورد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « بأن أول مانزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال : يامحمد استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ ثم قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قال : اقرأ باسم ربك » قال الحافظ ابن كثير . هذا الأثر غريب ، فى إسناده ضعف وانقطاع ، أى فلا يدل للقول بأن أول مانزل بسم الله الرحمن الرحيم ، حكاه ابن النقيب فى مقدمة تفسيره ، وبه يرد على الجلال السيوطى حيث قال: وعندى فيه أن هذا لايعد قولا برأسه ، فإن من ضرورة نزول السورة أى سورة اقرأ نزول البسملة معها ، فهى أول آية نزلت على الإطلاق ، هـذا كلامه والله أعلم .

قال الحافظ ابن حجر : هذا الذى وقع له صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الوحى من خصائصه ، إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه جرى له عند ابتداء الوحى مثل ذلك . « ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الآية رجع بها ترجف بوادره » والبادرة اللحمة التى بين المنكب والعنق ، تتحرك عند الفزع ويقال لها الفريصة والفرائص : أى وفى رواية « فؤاده » أى قلبه ، ولا مانع من اجتماع الأمرين ، لأن تحرك البادرة ينشأ عن فزع القلب « حتى دخل صلى الله عليه وسلم على خديجة فقال : زملونى زملونى » أى غطونى بالثياب « فزملوه حتى ذهب عنه الروع » بفتح الراء : أى الفزع « ثم أخبرها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسى » وفى رواية « على عقلى » كما فى [الإمتاع] « قالت له خديجة : كلا أبشر ، فوالله لايخزيك الله أبدا » أى لايفضحك « إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل » أى الشىء الذى يحصل منه التعب والإعياء لغيرك « وتكسب المعدوم » بضم التاء . والمعدوم الذى لامال له لأن من لامال له كالمعدوم : أى توصل إليه الخير الذى لايجده عند غيرك .

وبهذا يعلم سقوط قول الخطابى الصواب المعدم بلا واو ، لأن المعدوم : أى الشخص المعدوم لايكسب : أى لايعطى الكسب « وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » أى

على حوادثه « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، فقالت له خديجة رضى الله تعالى عنها : أى عم اسمع من ابن أخيك » أى وقولها أى عم صوابه ابن عم ، لأنه ابن عمها لاعمها كما وقع فى مسلم .

قال ابن حجر : وهو وهم لأنه وإن كان صحيحا لجواز إرادة التوقير ، لكن القصة لم تتعدد ومخرجها متحد : أى فلا يقال يجوز أنها جاءت إليه بعد نزول الآية مرتين ، قالت فى مرة أى عم،وفى مرة أى ابن عم « قال ورقة : ياابن أخى ماذا ترى : فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى » أى صاحب سر الوحى وهو جبريل « ياليتنى فيها جذعا » أى ياليتنى حينئذ أكون فى زمن الدعوى إلى الله : أى إظهاره الذى جاء به وأنذر ،أو أصل وجودها بناء على تأخر الدعوى التى هى الرسالة عن النبوة على مايأتى شاباً حتى أبالغ فى نصرتها « ياليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أو مخرجىّ هم؟ » بتشديد الياء المفتوحة لأنه جمع مخرج ، والأصل أو مخرجونى حذفت النون للإضافة فصار مخرجوى ، قلبت الواو ياء وأدغمت ، قال ورقة : « نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا عودى » أى فتكون المعاداة سببا لإخراجه .

وهذا يفيد بظاهره أن من تقدم من الأنبياء أخرجوا من أماكنهم لمعاداة قومهم لهم ، وإلا فمجرد المعاداة لايقتضى الإخراج ، فلا يحسن أن يكون علامة عليه ، وقد يؤيد ذلك ماتقدم عند الكلام على بناء الكعبة أن كل نبى إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت وتقدم مافيه .

وفى كونه صلى الله عليه وسلم لم يقل شيئا فى جواب قول ورقة إنه يكذب ويؤذى ويقاتل ، وقال فى جواب قوله : إنه يخرج أومخرجىّ هم ؟ استفهاما إنكاريا ، دليل على شدة حب الوطن وعسر مفارقته ، خصوصا وذلك الوطن حرم الله وجوار بيته ومسقط رأسه ، قال ورقة : «وإن أدركت يومك أنصرك نصرا مؤزرا»:أى شديدا قويا،من الأزر وهو الشدة . الذى فى الحديث الصحيح « وإن يدركنى يومك » وسيأتى فى بعض الروايات « وإن يدركنى ذلك » قال السهيلى : وهو القياس ، لأن ورقة سابق بالوجود ، والسابق : هو الذى يدركه مايأتى بعده كما جاء « أشقى الناس من أدركته الساعة وهو حى » هذا كلامه .

أى وفى بعض الروايات أنه قال لها « إن ابن عمك لصادق وإن هذا البدء نبوة » وفى لفظ « إنه لنبى هذه الأمة » أى وفى الشفاء أن قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة « لقد خشيت على نفسى » ليس معناه الشك فيما آتاه الله تعالى من النبوة ، ولكنه لعله خشى أن لاتحتمل قوته صلى الله عليه وسلم مقاومة الملك وأعباء الوحى ، بناء على أنه قال ذلك بعد لقاء الملك وإرساله إليه بالنبوة ، فإن للنبوة أثقالا لايستطيع حملها إلا أولوالعزم من الرسل.

وفى كلام الحافظ ابن حجر ، اختلف العلماء فى هذه الخشية على اثنى عشر قولا ، وأولاها بالصواب وأسلمها من الإرتياب أن المراد بها الموت أو المرض أو دوام المرض هذا كلامه ، فليتأمل مع رواية « خشيت على عقلى » .

قال : وفى بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب به إلى ورقة ذهبت به إلى عداس وكان نصرانيا من أهل نينوى : قرية سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام ، فقالت له : ياعداس أذكرك الله إلا ما أخبرتنى هل عندكم علم من جبريل : أى فإن هذا الاسم لم يكن معروفا بمكة ولا بغيرها من أرض العرب كما تقدم ، فقال عداس : قدوس قدوس ، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل أوثان ؟ أى والقدوس المنزه عن العيوب وأن هذا يقال للتعجب كما تقدم ، فقالت : أخبرنى بعلمك فيه ؟ قال : هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام اهـ .

وفيه أنه سيأتى عند الكلام على ذهابه صلى الله عليه وسلم للطائف بعد موت أبى طالب يلتمس إسلام ثقيف اجتماعه بعداس الموصوف بما ذكر ، لكن فى تلك القصة ما قد يبعد معه كل البعد أنه المذكور هنا فليتأمل ، ثم رأيت أن عداسا المذكور هنا كان راهبا وكان شيخا كبير السن ، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر ، وأن خديجة قالت له : أنعم صباحا ياعداس ، فقال : كأن هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش ، قالت أجل ، قال أدنى منى فقد ثقل سمعى ، فدنت منه ثم قالت له ما تقدم ، وهذا صريح فى أنه غير عداس الآتى ذكره ، وأنهما اشتركا فى الاسم والبلد والدين ، أى وكونهما غلامين لعتبة بن ربيعة .

فى كلام ابن دحية : عداس كان غلاما لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى ، عنده علم من الكتاب ، فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل ، فقال : قدوس قدوس الحديث ولا يخفى أن هذا اشتباه وقع من بعض الرواة بلا شك .

وفى رواية أن عداسا هذا قال لها : يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أمورا ، فخذى كتابى هذا فانطلقى به إلى صاحبك ، فإن كان مجنونا فإنه سيذهب عنه ، وإن كان من الله فلن يضره ، فانطلقت بالكتاب معها ، فلما دخلت منزلها إذا هى برسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل يقرئه هذه الآيات (نٓ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون) فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحا ثم قالت للنبى صلى الله عليه وسلم فداك أبى وأمى ، امض معى إلى عداس ، فلما رآه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه ، فلما نظر عداس إليه خر ساجدا يقول : قدوس قدوس ، أنت والله النبى الذى بشر بك موسى وعيسى الحديث .

وفيه إن كان هذا قبل أن تذهب به إلى ورقة اقتضى أن نزول سورة نٓ قبل اقرأ ، ولا يحسن ذلك مع قوله لجبريل ما أنا بقارىء ، إذ هو صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ قبل ذلك شيئا ؛ ومن ثم كان المشهور أن أول ما نزل اقرأ . وكون نٓ نزلت لهذا السبب مخالف لما ذكر فى أسباب النزول أنها نزلت لما وصفه المشركون بأنه مجنون ، إلا أن يقال لامانع من تعدد النزول .

وذكر ابن دحية أيضا أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرها بجبريل ولم تكن سمعت به قط ، كتبت إلى بحيرا الراهب فسألته عن جبريل ، فقال لها : قدوس قدوس ياسيدة نساء قريش ، أنى لك بهذا الاسم ؟ فقالت : بعلى وابن عمى أخبرنى بأنه يأتيه ، فقال : إنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وإن الشيطان لايجترىء أن يتمثل به ، ولا أن يتسمى باسمه . وهذه العبارة : أى كون جبريل هو السفير بين الله وبين أنبيائه صدرت من الحافظ السيوطى ، وزاد : ولا يعرف ذلك لغيره من الملائكة .

واعترض عليه بعضهم بأن إسرافيل كان سفيرا بين الله وبينه صلى الله عليه وسلم . فعن الشعبى أنه جاءته صلى الله عليه وسلم النبوة وهو ابن أربعين سنة ، وقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل ، وفى لفظ عنه : فلما مضت ثلاث سنين تولى عنه إسرافيل وقرن به جبريل : أى وقد تقدم أن إسرافيل قرن به صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ، يعلمه الشىء بعد الشىء إلى آخره ، وحينئذ يلزم أن يكون قرن به بعد النبوة ثلاث سنين أيضا ،

وسيأتى عن بحث بعض الحفاظ أنها مدة فترة الوحى فليتأمل . وأجاب الحافظ السيوطى عن ذلك بأن السفير هو المرصد لذلك ، وذلك لايعرف لغير جبريل ، ولا ينافى ذلك مجىء غيره من الملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحيان .

ولك أن تقول : إن كان المراد بالمجىء إليه بوحى من الله كما هو المتبادر فليس فى هذه الرواية أن إسرافيل كان يأتيه بوحى فى تلك المدة . وجواب الحافظ السيوطى يقتضى أن إسرافيل وغيره من الملائكة كان يأتيه بوحى من الله قبل مجىء جبريل له صلى الله عليه وسلم بوحى غير النبوة ، ولا يخرجه ذلك عن الاختصاص باسم السفير ، وبأن إسرافيل لم ينزل لغير النبى صلى الله عليه وسلم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما ثبت فى الحديث ، فلم يكن السفير بين الله وجميع أنبيائه .

قيل وإنما خص بذلك لأنه أول من سجد من الملائكة لآدم . ورأيته سئل هل عيسى بعد نزوله يوحى إليه ؟ فأجاب بنعم ، وأورد حديث النواس بن سمعان الذى أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفيه التصريح بأنه يوحى إليه . قال : والظاهر أن الجائى إليه بالوحى جبريل قال : بل هو الذى يقطع به ولا يتردد فيه ، لأن ذلك وظيفته وهو السفير بين الله تعالى وبين أنبيائه ، لايعرف ذلك لغيره من الملائكة ثم استدل على ذلك بما يطول .

قال : وما اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل لاينزل إلى الأرض بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فهو شىء لا أصل له ، وزعم زاعم أن عيسى إنما يوحى إليه وحى إلهام ساقط قال : وحديث « لاوحى بعدى » باطل ، أى ويدل له ما رأيته فى كلام بعضهم : جبريل ملك عظيم ورسول كريم ، مقرب عند الله ، أمين على وحيه ، وهو سفيره إلى أنبيائه كلهم ، وسماه روح القدس ، والروح الأمين ، واختصه بوحيه من بين الملائكة المقربين .

قال : ورأيت فى بعض التواريخ أن جبريل نزل عليه صلى الله عليه وسلم ستا وعشرين ألف مرة ولم يبلغ أحد من الأنبياء هذا العدد ، والله أعلم .

وفى أسباب النزول للواحدى عن على رضى الله تعالى عنه « لما سمع النداء : يا محمد قال : لبيك ، قال قل : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم قال قل (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) حتى فرغ من السورة» : أى فلما

بلغ « ولا الضالين ، فقال : قل آمين فقال آمين » كما فى رواية عن وكيع وابن أبى شيبة وجاء فى حديث قال بعضهم إسناده ليس بالقائم « إذا دعا أحدكم فليختم بآمين ، فإن آمين فى الدعاء مثل الطابع على الصحيفة » وفى الجامع الصغير « آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين » أى خاتم دعاء رب العالمين أى يمنع من أن يتطرق إليه ردّ وعدم قبول . ومن ثم « لما سمع صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، قال قد وجب إن ختم بآمين » .

فأتى صلى الله عليه وسلم ورقة فذكر له ذلك ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فإنى أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ، فإنك على مثل ناموس موسى ، وإنك نبى مرسل ، وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك .

أقول : هذا لايدل للقول بأن الفاتحة أول ما نزل ، وعليه كما قال فى الكشاف أكثر المفسرين ، إذ يبعد كل البعد أن تكون هذه الرواية قبل نزول (اقرأ باسم ربك) ثم رأيته عن البيهقى أنه قال فيما تقدم عن أسباب النزول ؛ هذا مرسل ورجاله ثقات ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر : أى والمدثر نزلت بعد يا أيها المزمل .

ثم رأيت ابن حجر اعترض ما تقدم عن الكشاف بقوله : الذى ذهب إليه أكثر الأمة هو الأول : أى القول بأنه اقرأ ، وأما الذى نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول ، هذا كلامه .

ثم رأيت الإمام النووى قال : القول بأن الفاتحة أول ما نزل بطلانه أظهر من أن يذكر : أى ومما يدل على ذلك ما جاء من طرق عن مجاهد أن الفاتحة نزلت بالمدينة . فنى تفسير وكيع عن مجاهد : فاتحة الكتاب مدنية ، وفيه أنه جاء عن قتادة أنها نزلت بمكة .

وعن على كرم الله وجهه كما فى أسباب النزول للواحدى أنها نزلت بمكة من كنز تحت العرش . وفيها عنه « لما قام النبى صلى الله عليه وسلم بمكة فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) قالت قريش رض الله فاك » . وفى الكشاف أن الفاتحة نزلت بمكة ، وقيل نزلت بالمدينة ، فهى مكية مدنية ، هذا كلامه وتبعه على ترجيح أنها مكية القاضى البيضاوى حيث قال : وقد صح أنها مكية . وفى الإتقان وذكر قوم منه أى مما تكرر نزوله الفاتحة ، فليتأمل فإنه لا يقال ذلك إلا بناء على أنها نزلت بهما : أى نزلت

بمكة ثم بالمدينة مبالغة فى شرفها . وقد أشار القاضى البيضاوى إلى أن تكرير نزولها ليس بمجزوم به . وقيل نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة .

قال فى الإتقان : والظاهر أن النصف الذى نزل بالمدينة النصف الثانى ، قال ولا دليل لهذا القول ، هذا كلامه .

واستدل بعضهم على أنها مكية بأنه لا خلاف أن سورة الحجر مكية ، وفيها (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) وهى الفاتحة . فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرىء عليه الفاتحة « والذى نفسى بيده ما أنزل الله تعالى فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، إنها لهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وقد حكى بعضهم الاتفاق على أن المراد بالسبع المثانى فى آية الحجر هى الفاتحة. ويرد دعوى الاتفاق قول الجلال السيوطى : وقد صح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تفسير السبع المثانى فى آية الحجر بالسبع الطوال .

ومما يدل على أن المراد بها الفاتحة ، ما ذكر فى سبب نزولها وهو أن عيرا لأبى جهل قدمت من الشام بمال عظيم وهى سبع قوافل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينظرون إليها وأكثر الصحابة بهم عرى وجوع ، فخطر ببال النبى صلى الله عليه وسلم شىء لحاجة أصحابه فنزل (ولقد آتيناك) أى أعطيناك (سبعا من المثانى) مكان سبع قوافل ، ولا تنظر إلى ما أعطيناه لأبى جهل وهو متاع الدنيا الدنية (ولا تحزن عليهم) أى على أصحابك (واخفض جناحك) لهم ، فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما تحب من أسباب الدنيا .

وفى زوائد الجامع الصغير « لو أن فاتحة الكتاب جعلت فى كفة الميزان وجعل القرآن فى الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات » . وفى لفظ « فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » وفى لفظ « فاتحة الكتاب تعدل ثلثى القرآن » فليتأمل ، ولها اثنان وعشرون اسما .

وذكر بعضهم أن لها ثلاثين اسما . وذكرها الأستاذ الشيخ أبو الحسن البكرى فى تفسيره الوسيط ، قال السهيلى : ويكره أن يقال لها أم الكتاب : أى لما ورد « لا يقولن أحدكم أم الكتاب وليقل فاتحة الكتاب » قال الحافظ السيوطى رحمه الله : ولا أصل له

فى شىء من كتب الحديث، وإنما أخرجه ابن الضريس بهذا اللفظ عن ابن سيرين . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة تسميتها بذلك هذا كلامه ، ولا يخفى أنه جاء فى تسمية الفاتحة ذكر المضاف تارة وهو سورة كذا وإسقاطه أخرى . وتارة جوّزوا الأمرين معا، وهو يشكل على أن تسمية السور توقيفى .

ثم رأيت فى الإتقان قال : قال الزركشى فى البرهان: ينبغى البحث عن تعداد الأسامى هل هو توقيفى أو بما يظهر من المناسبات ؟ فإن كان الثانى فيمكن الفطن أن يستخرج من كل سورة معانى كثيرة تقتضى اشتقاق أسمائها وهو بعيد هذا كلامه . ويلزم القول بأنها إنما نزلت فى المدينة أن مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة كان يصلى بغير الفاتحة . قال فى أسباب النزول : وهذا مما لا تقبله العقول : أى لأنه لم يحفظ أنه كان فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة : أى ويدل لذلك مارواه الشيخان « لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب » وفى رواية « لا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها الرجل بفاتحة الكتاب » والمراد فى كل ركعة ، لقوله صلى الله عليه وسلم للمسىء صلاته « إذا استقبلت القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن ثم اقرأ بما شئت » إلى أن قال « ثم اصنع ذلك — أى القراءة بأم القرآن — فى كل ركعة » وجاء على شرط الشيخين « أم القرآن عوض عن غيرها ، وليس غيرها منها عوضا » ويدل لذلك أيضا وصف القول بأنها إنما نزلت بالمدينة بأنه هفوة من قائله ، لأنه تفرد بهذا القول ، والعلماء على خلافه: أى لأن نزولها كان بعد فترة الوحى بعد نزول (ياأيها المدثر) ويلزم على كونها نزلت بعد المدثر أنه صلى الله عليه وسلم صلى بغير الفاتحة فى مدة فترة الوحى : أى لأن المدثر نزلت بعد فترة الوحى على ما سيأتى .

وقد يقال : لا ينافيه ما تقدم من أنه لم يحفظ أنه لم يكن فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة ، لجواز أن يراد صلاة من الصلوات الخمس ، وما تقدم مما يدل على تعين الفاتحة فى الصلاة يجوز أن يكون صدر منه صلى الله عليه وسلم بعد فرض الصلوات الخمس .

وفى الإمتاع إنزال الملك يبشره بالفاتحة وبالآيتين من سورة البقرة ، يدل على أنها نزلت بالمدينة .

فقد أخرج مسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال «بينما جبريل قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا أوصوتا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم،

فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما من قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة » هذا كلامه فليتأمل وجه الدلالة من هذا على أنه سيأتى عن الكامل للهذلى ما يصرح بأن خواتيم البقرة نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بقاب قوسين .

ومما يدل على أن البسملة آية منها نزولها معها أى كما فى بعض الروايات ، وإلا فالرواية المتقدمة تدل على أنها لم تنزل معها .

ويدل لكون البسملة آية من الفاتحة أيضا ما أخرجه الدارقطنى وصححه والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم : إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى ، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » .

وقد أخرج الدارقطنى عن على رضى الله تعالى عنه أنه سئل عن السبع المثانى فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقيل له إنما هى ست آيات ، فقال « بسم الله الرحمن الرحيم آية » وقيل لها السبع المثانى ، لأنها سبع آيات وتثنى فى الصلاة . وقيل المثانى كل القرآن ؛ لأنه يثنى فيه صفات المؤمنين والكفار والمنافقين وقصص الأنبياء والوعد والوعيد .

قال بعضهم : والوجه أن يقال المراد بالسبع المثانى السبع الطوال : أى كما أنها المراد بقوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) على ماتقدم ، وهى البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة يونس . وقيل براءة . وقيل الكهف .

وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم عدّ البسملة آية من الفاتحة » وبهذا يعلم مافى تفسير البيضاوى عن أم سلمة من « أنه صلى الله عليه وسلم عدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية » فقد ذكر بعض الحفاظ أن هذا اللفظ لم يرد عن أم سلمة ، والذى رواه جماعة من الحفاظ عن أم سلمة بألفاظ تدل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية وحدها .

منها أنها ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى بيتها ، فيقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) وفى رواية عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الصلوات بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » والاستدلال على أن البسملة آية من الفاتحة بكونها نزلت معها يقتضى أن البسملة ليست آية من (اقرأ باسم ربك)

ومن ثم قال الحافظ الدمياطى : نزول اقرأ بدون بسملة يدل على أن البسملة ليست آية من كل سورة ، واستدل به : أى بعدم نزولها فى أول سورة اقرأ أيضا كما قال الإمام النووى من يقول إن البسملة ليست بقرآن فى أوائل السور : أى وإنما أنزلت وكتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها ، وهذا القول ينسب لقول إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه فى القديم وهو قول قدماء الحنفية .

قال : وجواب المثبتين أى لقرآنيتها فى ذلك أنها نزلت فى وقت آخر كما نزل باقى السورة : أى سورة اقرأ .

وجوابهم أيضا بأن الإجماع من الصحابة والسلف على إثباتها فى مصاحفهم مع مبالغتهم فى تجريدها عن كتابة غير القرآن فيها حتى إنهم لم يكتبوا آمين فيها ، واستدل أيضا لعدم قرآنيتها فى أوائل السور بعدم تواترها فى محلها .

ورد بأن عدم تواترها فى محلها لايقتضى سلب القرآنية عنها. ورد هذا الرد بأن الإمام الكافيجى قال : المختار عند المحققين من علماء السنة وجوب التواتر : أى فى القرآن فى محله ووضعه وترتيبه أيضا كما يجب تواتره فى أصله : أى وفى الفتوحات : البسملة من القرآن بلا شك عند العلماء بالله ، وتكرارها فى السورة كتكرار ماتكرر فى القرآن من سائر الكلمات ، وهو بظاهره يؤيد ماذهب إليه إمامنا من أنها آية من أول كل سورة ، ويحتمل لما قاله السهيلى حيث قال : نقول إنها آية من كتاب الله مقترنة مع السورة .

وفى كلام أبى بكر بن العربى : وزعم الشافعى أنها آية من كل سورة وما سبقه إلى هذا القول أحد، فإنه لم يعدها أحد آية من سائر السور .

ونقل عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه أنها آية من أول الفاتحة دون بقية السور . فعن الربيع قال : سمعت الشافعى يقول : أول الحمد بسم الله الرحمن الرحيم ، وأول البقرة الم قال بعضهم: وهو يدل على أن البسملة آية من أول الفاتحة دون بقية السور ، فإنها ليست آية من أولها ، بل هى آية فى أولها إعادة لها وتكريرا لها ؛ وربما يوافق ذلك قول الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى: وخص صلى الله عليه وسلم بالبسملة والفاتحة هذا كلامه وكونه خص بالبسملة يخالف قوله فى الإتقان عن الدارقطنى « إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه لأعلمنك آية لم تنزل على نبى بعد سليمان غيرى: بسم الله الرحمن الرحيم » كما سيأتى ، وسأله مافيه .

قيل وإنما تركت البسملة أول براءة لعدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة ، والتبرى الذى يدل عليه أول براءة . ورده فى الفتوحات ، بأنها جاءت فى أوائل السور المبدوءة بويل قال : وأين الرحمة من الويل .

وذكر بعضهم أن الأنفال وبراءة سورة واحدة : أى فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : سألت عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لم لم يكتبوا بين براءة والأنفال سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ فقال : كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل بالمدينة ؛ وكانت قصتها شبيهة بالأخرى فظننت أنهما سورة واحدة .

وفى كلام بعض المفسرين عن طاوس وعمر بن عبد العزيز . أنهما كانا يقولان : إن الضحى وألم نشرح سورة واحدة ، فكانا يقرآنهما فى ركعة واحدة ولا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم ، وذلك لأنهما رأيا أن أولها مشبه لقوله (ألم يجدك يتيما) وليس كذلك ، لأن تلك حال اغتمامه صلى الله عليه وسلم بإيذاء الكفار ، فهى حال محنة وضيق ، وهذه حال انشراح الصدر وتطييب القلب فكيف يجتمعان ؟ هذا كلامه .

وذكر أئمتنا أنه يكفى فى وجوب الإتيان بالبسملة فى الفاتحة فى الصلاة الظن المفيد له خبر الآحاد ، ولعدم التواتر بذلك لا يكفر من نفى كونها آية من الفاتحة بإجماع المسلمين ، وقد جهر بها صلى الله عليه وسلم كما رواه جمع من الصحابة . قال ابن عبد البر بلغت عدتهم أحدا وعشرين صحابيا .

وأما ما رواه مسلم عن أنس قال « صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » أجيب عنه بأنه لم ينف إلا السماع ، ويجوز أنهم تركوا الجهر بها فى بعض الأوقات بيانا للجواز . ويؤيده قول بعضهم : كانوا يخفون البسملة .

وأما ما رواه البخارى وأبو داود والترمذى وغيرهم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين » فمعناه بسورة الحمد لا بغيرها من القرآن . ولا يبعد هذا الحمل ما فى رواية عبد الله بن مغفل أنه قال « سمعنى أبى وأنا اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فقال : أى بنى إياك والحدث ، فإنى صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع أبى بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقوله ، فإذا قرأت فقل الحمد لله رب العالمين ، فإنه لما لم يسمع فهم أنهم لم يأتوا بها رأسا ، فقال ذلك ؛ وكذا يقال فيما روى

« كانوا لايقرءون بسم الله الرحمن الرحيم » فعلى تقدير ثبوت تلك الرواية وصحتها يجوز أن يكون الراوى فهم مما تقدم ترك البسملة فروى بالمعنى فأخطأ .

ومما استدل به على أن البسملة ليست آية من الفاتحة ماجاء عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تبارك وتعالى : قسمت الصلاة : —أى الفاتحة— بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل فإذا قال : الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم قال مجدنى عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : فوّض إلىّ عبدى ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذه بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل ، فيقول عبدى : اهدنا الصراط المستقيم » إلى آخرها .

قال أبو بكر بن العربى المالكى : فانتفى بذلك أن تكون بسم الله الرحمن الرحيم آية منها من وجهين : أحدهما أنه لم يذكرها فى القسمة . والثانى أنها إن صارت فى القسمة لما كانت نصفين بل يكون مالله فيها أكثر مما للعبد ، لأن بسم الله ثناء على الله تعالى لاشىء للعبد فيه ، ثم ذكر أن التعبير بالصلاة عن الفاتحة يدل على أن الفاتحة من فروضها ، وأطال فى ذلك ، وسيأتى فى الحديبية أنه صلى الله عليه وسلم كان يكتب : باسمك اللهم موافقة للجاهلية . قيل كتب ذلك فى أربعة كتب . وأول من كتبها أمية بن أبى الصلت ، فلما نزل (بسم الله مجراها ومرساها) كتب (بسم الله) ثم لما نزل (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) كتب (بسم الله الرحمن) ثم نزلت (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) كذا نقل عن الشعبى وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى نزلت سورة النمل » وهذا يفيد أن البسملة لم تنزل قبل ذلك فى شىء من أوائل السور ، ويؤيده قول السهيلى : ثم كان بعد ذلك : أى بعد نزول (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام ببسم الله الرحمن الرحيم مع كل سورة : أى تمييزا لها عن غيرها . وقد ثبت فى سواد المصحف الإجماع من الصحابة رضى الله تعالى عنهم على ذلك ، هذا كلامه ، فليتأمل مافيه ، فإنه قد يدل للقول بأن البسملة ليست من أوائل السور ، وإنما هى للفصل . فقد علمت أن البسملة نزلت أول الفاتحة على مافى بعض الروايات .

ونقل أبو بكر التونسى إجماع علماء كل أمة على أن الله سبحانه وتعالى افتتح جميع كتبه ببسم الله الرحمن الرحيم .

وفى الإتقان عن الدارقطنى « أن النبى صلى الله عليه وسلم : قال لبعض الصحابة لأعلمنك آية لم تنزل على نبى بعد سليمان غيرى : بسم الله الرحمن الرحيم » وبهذا يعلم مافى الخصائص الصغرى أن البسملة من خصائصه صلى الله عليه وسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم «على نبى بعد سليمان غيرى» يشكل عليه أن عيسى بين سليمان وبينه صلى الله عليه وسلم وكتابه الإنجيل وهو من جملة كتب الله المنزلة .

وعن النقاش أن البسملة لما نزلت سبحت الجبال ، فقالت قريش : سحر محمد الجبال قال السهيلى : إن صح ماذكره فإنما سبحت الجبال خاصة لأن البسملة إنما نزلت على آل داود ، وقد كانت الجبال تسبح مع داود ، والله أعلم .

ثم لم يلبث ورقة أن توفى . قال سبط ابن الجوزى : وهو آخر من مات فى الفترة ، ودفن بالحجون فلم يكن مسلما ، ويؤيده ما جاء فى رواية فى سندها ضعف عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه مات على نصرانيته . وهذا يدل على أن من أدرك النبوّة وصدّق بنبوّته صلى الله عليه وسلم ولم يدرك الرسالة بناء على تأخرها لايكون مسلما بل من أهل الفترة ، فلما توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت القس يعنى ورقة فى الجنة وعليه ثياب الحرير » أى والقس بكسر القاف : رئيس النصارى ، وبفتحها : تتبع الشىء [ ] .

هذا ، وفى القاموس : القس مثلث القاف : تتبع الشىء وطلبه كالتقسس ، وبالفتح صاحب الإبل الذى لايفارقها ، ورئيس النصارى فى العلم . وفى رواية « أبصرته فى بطنان الجنة وعليه السندس » وفى رواية «قد رأيته ، فرأيت عليه ثيابا بيضا ، وأحسبه — أى أظنه — لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض ».

أقول : صريح الرواية الثالثة أنه لم يره فى الجنة ، فقد تعددت الرؤية . وأما الرواية الثانية فلا تخالف الرواية الأولى لأن السندس من أفراد الحرير ، فلا دلالة فى ذلك على التعدد ، والله أعلم . وفى رواية « لاتسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين [ ] لأنه آمن بى وصدقنى» : أى قبل الدعوة التى هى الرسالة ، وحينئذ يكون معنى قوله له «جنة أوجنتين» هيئت له جنة أوجنتان ، ولا مانع أن يكون بعض أهل الفترة من أهل الجنة ، إذ لو كان مسلما حقيقة بأن أدرك الدعوة وصدّق به لم يقل فيه صلى الله عليه وسلم «وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض » وجزم ابن كثير باسلامه .

قال بعضهم : وهو الراجح عند جهابذة الأئمة : أي بناء على أنه أدرك الدعوة إلى الله تعالى التي هي الرسالة .

فنى الإمتاع أن ورقة مات فى السنة الرابعة من المبعث ، ويوافقه ما يأتى عن سيرة ابن إسحاق ، وعن كتاب الخميس . وحينئذ يكون قوله صلى الله عليه وسلم « لأنه آمن بى وصدقنى» واضحا ، لكن ينازع فى ذلك قوله « وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض » وسيأتى عن الذهبى ما يخالفه .

ويخالفه أيضا ما تقدم عن سبط ابن الجوزى أنه من أهل الفترة . وعن يحيى بن بكير قال : سألت جابر بن عبد الله ، يعنى عن ابتداء الوحى ، فقال : لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، فنظرت عن يسارى فلم أر شيئا فنظرت من خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا بين السماء والأرض » أى وفى رواية « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى » زاد فى رواية « متربعا عليه » وفى لفظ « على عرش بين السماء والأرض فرعبت منه ، فأتيت خديجة ، فقلت : دثرونى دثرونى » أى وفى رواية « زملونى زملونى ، وصبوا على ماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا فنزلت هذه الآية (يا أيها المدثر) أى الملتف بثيابه (قم فأنذر وربك فكبر) » ، ولم يقل بعد فأنذر وبشر لأنه كما بعث بالنذارة بعث بالبشارة لأن البشارة ، إنما تكون لمن آمن ولم يكن أحد آمن قبل ، وهـــذا يدل على أن هذه الآية أول مانزل : أى قبل اقرأ وأن النبوة والرسالة مقترنان .

قال الإمام النووى : والقول بأن أول مانزل (يا أيها المدثر) ضعيف باطل ، وإنما نزلت بعد فترة الوحى : أى ومما يدل على ذلك قوله « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ومما يدل على ذلك أيضا مافى البخارى أن فى رواية جابر أنه صلى الله عليه وسلم حدث عن فترة الوحى أى لاعن ابتداء الوحى . فما تقدم من قول بعضهم يعنى عن ابتداء الوحى فيه نظر ، وكذا فى قول الراوى عن جابر « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت» لأن جواره بحراء كان قبل فترة الوحى ، إلا أن يقال جابر جاء عنه روايتان : واحدة فى ابتداء الوحى ، وأخرى فى فترة الوحى ، وبعض الرواة خلط ، فإن صدر الرواية يدل على أن ذلك كان عند ابتداء الوحى ، وعجزها يدل على أن ذلك كان فى فترة الوحى .

هذا، ويجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جاور بحراء فى مدة فترة الوحى . ويؤيد ذلك ما فى البيهقى عن مرسل عبيد بن عمير « أنه صلى الله عليه وسلم كان يجاور فى كل سنة شهرا وهو رمضان ، وكان ذلك فى مدة فترة الوحى » وسيأتى الجمع بين الروايات فى أول ما نزل . وعن إسماعيل بن أبى حكيم مولى الزبير « أنه حدث عن خديجة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال نعم » أى وذلك قبل أن يأتيه بالقرآن : أى بشىء منه ، وهو (اقرأ باسم ربك) بناء على أنه أول مانزل . ولا ينافى ذلك قولها « هذا الذى يأتيك إذا جاءك » لأن المعنى الذى يتراءى لك إذا رأيته ، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءنى : أى قد رأيته ، لكن سيأتى عن ابن حجر الهيتمى أن ذلك كان بعد البعثة ، « قالت : قم يا ابن عمى فاجلس على فخذى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها ، قالت : هل تراه ؟ قال نعم ، قالت ، فتحول فاجلس فى حجرى ، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فى حجرها ، قالت: هل تراه؟ قال نعم ، فألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال لا ، قالت : يا ابن عمى اثبت وأبشر فو الله إنه لملك ما هذا بشيطان » وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

وأتاه فى بيتها جبرئيل ... ولذى اللب فى الأمور ارتياء
فأماطت عنها الخمار لتدرى ... أهو الوحى أم هو الإغماء ؟
فاختفى عند كشفها الرأس جبري ... ل فما عاد أو أعيد الغطاء
فاستبانت خديجة أنه الكنـ ... ـز الذى حاولته والكيمياء

أى وأتاه . قال ابن حجر : أى بعد البعثة أى النبوة ،واجتماعه به فى بيتها حامل الوحى جبريل ، ولصاحب العقل الكامل فى الأحوال التى قد تشتبه استبصار ، فبسبب كمال استبصارها أزالت عن رأسها مايغطى به الرأس لتعلم عين اليقين أن هذا الذى يعرض له صلى الله عليه وسلم هل هو حامل الوحى الذى كان يأتى به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أو هو الإغماء الذى هو بعض الأمراض الجائزة عليهم ، عليهم الصلاة والسلام .

وفيه أنه ينبغى أن يكون المراد به الإغماء الناشىء عن لمة الجن ، فيكون من الكهان لامن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذى قال بسببه لخديجة لقد خشيت على نفسى ،وسيأتى

أنه كان يعتريه وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ماكان يعتريه عند نزول الوحى عليه : أى من الإغماء إلى آخره، فبسبب إزالتها ماتغطى به رأسها عنها اختفى فلم يعد إلى أن أعادت غطاء رأسها عليه ، فاستبانت : علمت علم اليقين أن مايعرض له صلى الله عليه وسلم هو الوحى : أى لا الجنى ، لأن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجنى . وشبه الناظم ذلك بالشيء النفيس والأمر العظيم، لأن كلا من الكنز والكيمياء لايظفر به إلا القليل من الناس لعزتهما .

أقول : وفى الخصائص الكبرى مايدل لما قلناه من أن أول مافعلته خديجة كان عند ترائيه له صلى الله عليه وسلم ، وقبل اجتماعه به .

وقول بعضهم إن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة؟ فإنه قال لها اذهبى إلى المكان الذى رأى فيه مارأى ، فإذا رآه فتحسرى ، فإن لم يكن من عند الله لا يراه : أى فتراءى له وهو فى بيت خديجة ففعلت ، قالت : فلما تحسرت تغيب جبريل فلم يره ، فرجعت فأخبرت ورقة ، فقال إنه ليأتيه الناموس الأكبر .

وفى فتح البارى أن فى سيرة ابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال رضى الله تعالى عنه وهو يعذب ، وذلك يقتضى أنه تأخر إلى زمن الدعوة ، وإلى أن دخل بعض الناس فى الإسلام: أى وفى كلام صاحب كتاب الخميس فى الصحيحين أن الوحى تتابع فى حياة ورقة وأنه آمن به ، وتقدم أنه الموافق لما فى الإمتاع من أنه مات فى السنة الرابعة من البعثة ، وتقدم أنه مخالف لما تقدم عن سبط ابن الجوزى ، ومخالف أيضا لقول الذهبى : الأظهر أنه مات بعد النبوة وقبل الرسالة ، أى بناء على تأخرها ، ويدل لتأخرها ما تقدم من قول ورقة « ياليتنى فيها جذع » فقد تقدم أن المراد ياليتنى أكون فى زمن الدعوة : أى ومن أدرك النبوة ولم يدرك البعثة لا يكون مسلما ، بل هو كما تقدم من أهل الفترة لأن الإيمان النافع عند الله تعالى الذى يصير به الشخص مستحقا لدخول الجنة ناجيا من الخلود فى النار التصديق بالقلب ، بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم أى بما أرسل به وإن لم يقر بالشهادتين مع التمكن من ذلك حيث لم يطلب منه ذلك ويمتنع .

وقيل لابد مع ذلك من الإقرار بالشهادتين للتمكن منه وحيث أدرك الرسالة فقد أسلم ، وحينئذ يكون صحابيا .

ونقل بعضهم عن الحافظ ابن حجر أنه فى الإصابة تردد فى ثبوت الصحبة لورقة ابن نوفل قال : لكن المفهوم من كلامه فى شرح النخبة ثبوتها ، وأنه يفرق بينه وبين بحيرا ، بأن ورقة أدرك البعثة ، وأنه لم يدرك الدعوة بخلاف بحيرا وهو ظاهر، والتعريف السابق يشمله هذا كلامه .

وتعريفه السابق للصحابى : هو من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا . وعبارة شرح النخبة : هل يخرج أى من تعريف الصحابى من لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا به من لقيه مؤمنا بأنه سيبعث ولم يدرك البعثة محل نظر .

ولا يخفى عليك أن مافى شرح النخبة لايدل لهذا البعض على أنه تقدم أن ابن حجر فى الإصابة قال فى بحيرا : ما أدرى أدرك البعثة أم لا ؟

ولا يخفى عليك ما تقدم عن ابن حجر من أن ورقة أدرك البعثة وأنه لم يدرك الدعوة، فإنه يقتضى أن البعثة عبارة عن النبوّة لا عن الرسالة ، وأن الرسالة هى الدعوة لا البعثة .

وروى ابن إسحاق عن شيوخه « أنه صلى الله عليه وسلم كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك » هذا يدل على « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة ، وتغميض عينيه ، وتربد وجهه ، ويغط كغطيط البكر ، فقالت له خديجة : أوجه إليك من يرقيك ؟ قال : أما الآن فلا» ولم أقف على من كان يرقيه ولا على ماكان يرقى به .

واشتهر على بعض الألسنة أن آمنة ، يعنى أمه صلى الله عليه وسلم رقت النبى من العين ، ولعل مستند ذلك ما تقدم عن أمه أنها لما كانت حاملا به جاءها الملك ، وقال لها قولى إذا ولدتيه : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد والظاهر أنها قالت ذلك.

وعن أسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها أنها قالت « يارسول الله إن ابنى جعفر أى ولديها من جعفر بن أبى طالب تصيبهما العين أفنسترقى لهما ؟ قال نعم ، لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » .

فإن قيل بهذه الأمور علم صلى الله عليه وسلم أن جبريل ملك لاجنى ، فمن أين علم أنه يتكلم عن الله تعالى؟ أجيب بأنه على تسليم أن قول ورقة المذكور وما تقدم عنه لايفيده العلم ، فقد يقال: خلق الله تعالى فيه صلى الله عليه وسلم علما ضروريا بعد ذلك علم به أنه

جبريل ، وأنه يتكلم عن الله تعالى ، كما خلق فى جبريل علما ضروريا بأن الموحى إليه هو الله .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه صلى الله عليه وسلم كان له عدوّ من شياطين الجن يقال له الأبيض، كان يأتيه فى صورة جبريل . واعترض بأنه يلزم عليه عدم الوثوق بالوحى .

وأجيب عنه بمثل ما هنا ، وهو أن الله تعالى جعل فى النبى صلى الله عليه وسلم علما ضروريا يميز به بين جبريل عليه السلام وبين هذا الشيطان ، ولعل هذا الشيطان غير قرينه الذى أسلم .

وفى كلام ابن العماد : وشيطان الأنبياء يسمى الأبيض ، والأنبياء معصومون منه ، وهذا الشيطان هو الذى أغوى به برصيصا الراهب العابد بعد عبادته خمسمائة سنة ، وهو المعنىّ بقوله تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك) هذا كلامه والله أعلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان من الأنبياء من يسمع الصوت : أى ولا يرى مصوّتا ، فيكون بذلك نبيا » قال بعضهم : يحتمل أن يكون صوتا خلقه الله تعالى فى الجوّ : أى ليس من جنس الكلام ، وخلق لذلك النبى فهم المراد منه عند سماعه .

ويحتمل أن يكون من جنس الكلام المعهود يتضمن كون ذلك الشخص صار نبيا . قال صلى الله عليه وسلم « وإن جبريل يأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه فيكلمه ويبصره من غير حجاب » أى وفى رواية « كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال » .

ولا يخفى أن هاتين الحالتين كل منهما حالة من حالات الوحى . وحينئذ إما أن يكون جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبى ، وهو بكسر الدال المهملة على المشهور وحكى فتحها ، أو على صورة غيره ، ومنه ماوقع فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » الحديث. ورواية البخارى تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يعرفه إلا فى آخر الأمر ، وورد « ماجاءنى — يعنى جبريل — فى صورة لم أعرفها إلا فى هذه المرة » .

وفى صحيح ابن حبان « والذى نفسى بيده ما اشتبه علىّ منذ أتانى قبل مرّته هذه ، وما عرفته حتى ولى » وبهذا يعلم ما فى كلام الإمام السبكى حيث قسم الوحى إلى ثلاثة أقسام ، حيث قال فى تائيته :

ولازمك الناموس إما بشكله وإما بنفث أو بحلية دحية فليتأمل

قيل وكان إذا أتاه على صورة الآدمى يأتيه بالوعد والبشارة .

فإن قيل إذا جاء جبريل عليه السلام على صورة الآدمى دحية أو غيره هل هى الروح تتشكل بذلك الشكل ؟ وعليه هل يصير جسده الأصلى حيا من غيرروح، أويصير ميتا ؟ .

أجيب بأن الجائى يجوز أن لا يكون هو الروح بل الجسد لأنه يجوز أن الله تعالى جعل فى الملائكة قدرة على التطور والتشكل بأى شكل أرادوه كالجن ، فيكون الجسد واحدا ، ومن ثم قال الحافظ ابن حجر : إن تمثل الملك رجلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلا، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن يخاطبه . والظاهر أن القدر الزائد لايزول ولايفنى ، بل يخفى على الرائى فقط .

وأخذ من ذلك بعض غلاة الشيعة أنه لامانع ولا بعد أن الحق سبحانه وتعالى يظهر فى صورة علىّ رضى الله تعالى عنه وأولاده : أى الأئمة الاثنى عشر ، وهم الحسن والحسين وابن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن محمد الباقر جعفر الصــادق وابن جعفر الصادق موسى الكاظم وابن موسى الكاظم علىّ الرضا وابن على الرضا محمد الجواد وابن محمد الجواد على التقى . والحادى عشر حسن العسكرى. والثانى عشر ولد حسن العسكرى وهو المهدى صاحب الزمان، وهو حى باق إلى أن يجتمع بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام على ما فيه . فقد قال عبد الله بن سبأ يوما لعلى رضى الله تعالى عنه : أنت أنت ، يعنى أنت الإله ، فنفاه علىّ إلى المدائن وقال : لاتساكنى فى بلد أبدا . وكان عبد الله بن سبأ هذا يهوديا ، كان من أهل صنعاء ، وأمه يهودية سوداء،ومن ثم كان يقال له ابن السوداء، وكان أوّل من أظهر سب الشيخين ونسبهما للافتيات على سيدنا على رضى الله تعالى عنه .

ولما قيل لسيدنا على لولا أنك تضمر ما أعلن به هذا ما اجترأ على ذلك ، فقال على : معاذ الله أنى أضمر لهما ذلك ، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل ، فأرسل إلى ابن سبأ فأظهر الإسلام فى أول خلافة عثمان ، وقيل فى أول خلافة عمر ، وكان قصده بإظهار الإسلام بوار الإسلام وخذلان أهله .

وكان يقول قبل إظهاره الإسلام فى يوشع بن نون بمثل ما قال فى علىّ. وكان يقول فى علىّ إنه حى لم يقتل، وإن فيه الجزء الإلهى، وإنه يجىء فى السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه، وإنه ينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا وظلما. وعبد الله هذا كان يظهر أمر الرجعة: أى أنه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الدنيا كما يرجع عيسى. وكان يقول: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع إلى الدنيا ويكذب برجعة محمد، وقد قال الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. وأظهر أمر الوصية: أى أن عليا رضى الله تعالى عنه أوصى له صلى الله عليه وسلم بالخلافة، وكان هو السبب فى إثارة الفتنة التى قتل فيها عثمان رضى الله تعالى عنه كما سيأتى.

ومن غلاة الشيعة من قال بألوهية أصحاب الكساء الخمسة: محمد صلى الله عليه وسلم وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهم.

ومنهم من قال بألوهية جعفر الصادق وألوهية آبائه، وهم الحسين وابنه زين العابدين وابن زين العابدين محمد الباقر، وهؤلاء الشيعة موافقون فى ذلك لمن يقول بالحلول، وهم الحلاجية أصحاب حسين بن منصور الحلاج. كانوا إذا رأوا صورة جميلة زعموا أن معبودهم حل فيها.

وممن زعم الحلول حتى ادعى الألوهية المقنع عطاء الخراسانى، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومائة ادعى أن الله عزوجل حل فى صورة آدم، ثم فى صورة نوح ثم إلى أن حل فى صورته هو، فافتتن به خلق كثير بسبب التمويهات التى أظهرها لهم، فإنه كان يعرف شيئا من السحر والنيرنجيات، فقد أظهر قمرا يراه الناس من مسافة شهرين من موضعه ثم يغيب. ولما اشتهر أمره ثار عليه الناس وقصدوه ليقتلوه، وجاءوا إلى القلعة التى كان متحصنا بها. فلما علم ذلك أسقى أهله سما فماتوا ومات، ودخل الناس تلك القلعة فقتلوا من بقى حيا بها من أتباعه.

والقول بالاتحاد كفر، فقد قال العز بن عبد السلام: من زعم أن الإله يحل فى شىء من أجسام الناس أو غيرهم فهو كافر، وأشار إلى أنه كافر إجماعا من غير خلاف. وأنه لا يجرى فيه الخلاف الذى جرى فى تكفير المجسمة، ومن ثم ذكر القاضى عياض فى الشفاء أن من ادعى حلول البارى فى أحد الأشخاص كان كافرا بإجماع المسلمين.

وقول بعض العارفين وهو أبو يزيد البسطامى : سبحانى ما أعظم شأنى ، وقوله: « إنى أنا الله لا إله إنا فاعبدون . وقوله : وأنا ربى الأعلى ، وقوله : أنا الحق وهو أنا وأنا هو : ليس من دعوى الحلول فى شىء، وإنما قوله: سبحانى إنى أنا الله، محمول على الحكاية : أى قال ذلك على لسان الحق من باب حديث « إن الله تعالى قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده » وقوله أنا ربى الأعلى وأنا الحق الخ . إنما قال ذلك لأنه انتهى سلوكه إلى الله تعالى ، بحيث استغرق فى بحر التوحيد ، بحيث غاب عن كل ما سواه سبحانه ، وصار لا يرى فى الوجود غيره سبحانه وتعالى ، الذى هو مقام الفناء ومحو النفس وتسليم الأمر كله له تعالى ، وترك الإرادة منه والاختيار .

فالعارف إذا وصل إلى هذا المقام ربما قصرت عبارته عن بيان ذلك الحال الذى نازله فصدرت عنه تلك العبارة الموهمة للحلول .

وقد اصطلحوا على تسمية هذا المقام الذى هو مقام الفناء بالاتحاد . ولا مشاحة فى الاصطلاح لأنه اتحد مراده بمراد محبوبه ، فصار المرادان واحدا لفناء إرادة المحب فى مراد المحبوب، فقد فنى عن هوى نفسه وحظوظها فصار لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ، ولا يوالى إلا لله ، ولا يعادى إلا لله ، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، ولا يرجو إلا لله ، ولا يستعين إلا بالله فيكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وفى كلام سيدى علىّ رضى الله تعالى عنه حيث أطلق القول بالاتحاد فى كلام القوم من الصوفية ، فرادهم فناء مرادهم فى مراد الحق جل وعلا ، كما يقول بين فلان وفلان اتحاد إذا عمل كل منهما على وفق مراد الآخر (ولله المثل الأعلى) هذا كلامه رضى الله تعالى عنه ورضى عنابه، وهذا مقام غير مقام الوحدة المطلقة الخارجة عن دائرة العقل التى ذكر السعد والسيد أن القول بها باطل وضلال : أى لأنه يلزم عليها القول بالجمع بين الضدين .

فقد قال بعض العلماء : حضرة الجمع عبارة عن شهود اجتماع الرب ، والعبد فى حال فناء العبد ، فيكون العبد معدوما موجودا فى آن واحد ، ولا يدرك ذلك إلا من أشهده الله الجمع بين الضدين، ومن لم يشهد ذلك أنكره . ويجوز أن يكون الجسد للملك متعددا، وعليه فمن الممكن أن يجعل الله لروح الملك قوة يقدر بها على التصرف فى جسد آخر غير جسدها المعهود مع تصرفها فى ذلك الجسد المعهود كما هو شأن الأبدال ، لأنهم يرحلون إلى مكان ويقيمون فى مكانهم شبحا آخر مشبها لشبحهم الأصلى بدلا عنه .

وقد ذكر ابن السبكى فى الطبقات أن كرامات الأولياء أنواع ، وعد منها أن يكون لهم أجساد متعددة ، قال : وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال ، ومنه قصة قضيب البان وغيره : أى كواقعة الشيخ عبد القادر الطحطوطى نفعنا الله تعالى به .

فقد ذكر الجلال السيوطى رحمه الله تعالى أنه رفع إليه سؤال فى رجل حلف بالطلاق أن ولىّ الله الشيخ عبد القادر الطحطوطى بات عنده ليلة كذا فحلف آخر بالطلاق أنه بات عنده تلك الليلة بعينها ، فهل يقع الطلاق على أحدهما ! قال : فأرسلت قاصدى إلى الشيخ عبد القادر فسأله عن ذلك ، فقال : ولو قال أربعة إنى بت عندهم لصدقوا فأفتيت أنه لاحنث على واحد منهما لأن تعدد الصور بالتخيل والتشكل ممكن كما يقع ذلك للجان ه

وقد قيل فى الأبدال : إنهم إنما سموا أبدالا لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون فى مكانهم الأول شبحا آخر شبيها بشبحهم الأصلى بدلا عنه ، ويقال عالم المثال كما تقدم ، فهو عالم متوسط بين عالم الأجساد وعالم الأرواح ، فهو ألطف من عالم الأجساد ، وأكثف من عالم الأرواح ، فالأرواح تتجسد وتظهر فى صور مختلفة من عالم المثال . قال : وهذا الجواب أولى مما تكلفه بعضهم فى الجواب عن جبريل ، بأنه كان يندمج بعضه فى بعض أى الذى أجاب به الحافظ ابن حجر .

ومما يدل على وجود المثال رؤيته صلى الله عليه وسلم للجنة والنار فى عرض الحائط وقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) بأنه مثل له يعقوب بمصر وهو بالشام .

ومن ذلك ما اشتهر أن الكعبة شوهدت تطوف ببعض الأولياء فى غير مكانها . وممن وقع له ذلك أبو يزيد البسطامى والشيخ عبد القادر الجيلى والشيخ إبراهيم المتبولى نفعنا الله تعالى ببركاتهم ، ولعل مجىء جبريل على صورة دحية كان فى المدينة بعد إسلام دحية وإسلامه كان بعد بدر ، فإنه لم يشهدها وشهد المشاهد بعدها ، إذ يبعد مجيئه على صورة دحية قبل إسلامه .

قال الشيخ الأكبر رضى الله تعالى عنه : دحية الكلبى كان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة ، فكان الغرض من نزول جبريل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى صورته إعلاما من الله تعالى أنه ما بينى وبينك يا محمد سفير إلا صورة الحسن والجمال ، وهى التى لك عندى ، فيكون ذلك بشرى له ولاسيا إذا أتى بأمر الوعيد والزجر ، فتكون

تلك الصورة الجميلة تسكن منه ما يحركه ذلك الوعيد والزجر هذا كلامه ، وهو واضح لو كان لايأتيه إلا على تلك الصورة الجميلة ، إلا أن يدعى أن من حين أتاه على صورة دحية لم يأته على صورة آدمى غيره ، وتكون واقعة سيدنا عمر سابقة على ذلك ، لكن تقدم أنه كان إذا أتاه على صورة الآدمى يأتيه بالوعد والبشارة : أى لا بالوعيد والزجر فليتأمل .

وفى البرهان للزركشى فى التنزيل أى تلقّى القرآن طريقان :

أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل : أى لأن الأنبياء يحصل لهم الانسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة الإلهية من غير اكتساب فيما هو أقرب من لمح البصر .

والثانى أن الملك انخلع من الملكية البشرية إلى حتى أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه هذا كلامه . والراجح أن المنزّل اللفظ ، والمعنى تلقفه جبريل من الله تعالى تلقفا روحانيا ، أو أن الله تعالى خلق تلك الألفاظ أى الأصوات الدالة عليها فى الجو وأسمعها جبريل ، وخلق فيه علما ضروريا أنها دالة على ذلك المعنى القديم القائم بذاته تعالى ، وأوحاه إليه صلى الله عليه وسلم كذلك ، أو حفظه جبريل من اللوح المحفوظ ونزل به .

واعلم أن من حالات الوحى النفث: أى أنه كان ينفث فى روعه الكلام نفثا قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس » أى المخلوق من الطهارة يعنى جبريل « نفث » أى ألقى . والنفث فى الأصل : النفخ اللطيف الذى لاريق معه « فى روعى » بضم الراء : أى قلبى « أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » أى عاملوا بالجميل فى طلبكم ، وتتمته « ولا يحلمنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله » أى كالكذب « فإن ماعند الله لن ينال إلا بطاعته » .

وفى كلام ابن عطاء الله: الإجمال فى الطلب يحتمل وجوها كثيرة :

منها أن لا يطلبه مكبا عليه مشتغلا عن الله تعالى به . ومنها أن يطلبه من الله تعالى ولا يعين قدرا ولا وقتا ، لأن من طلب وعين قدرا أو وقتا فقد تحكم على ربه وأحاطت الغفلة بقلبه . ومنها أن يطلب وهو شاكر لله إن أعطى ، وشاهد حسن اختياره إذا منع .

ومنها أن يطلب من الله تعالى مافيه رضاه ، ولا يطلب مافيه حظوظ دنياه .

ومنها أن يطلب ولا يستعجل الإجابة . وفى حديث ضعيف « اطلبوا الحوائج بعزة النفس ، فإن الأمور تجرى بالمقادير » .

ومن حالات الوحى أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس : وهى أشد الأحوال عليه صلى الله عليه وسلم : أى لما قيل إنه كان يأتيه فى هذه الحالة بالوعيد والنذارة .

أقول : روى الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها « أن الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه ، وهو أخو أبى جهل لأبويه ، وكان يضرب به المثل فى السودد حتى قال الشاعر :

أحسبت أن أباك حين تسبنى ... فى المجد كان الحارث بن هشام

أولى قريش بالمكارم والندى ... فى الجاهليــة كان والإسلام

أسلم يوم الفتح ، وسيأتى أنه استجار فى ذلك اليوم بأم هانئ أخت على بن أبى طالب وأراد علىّ قتله ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « قد أجرنا من أجرت ياأم هانئ » وحسن إسلامه ، وشهد حنينا ، وكان من المؤلفة كما سيأتى « سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ؟ أى حامله الذى هو جبريل ، قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ ، فيفصم ــ بالفاء ــ أى يقلع عنى وقد وعيت ماقال» وفى رواية « يأتينى أحيانا له صلصة كصلصلة الجرس ، وأحيانا يتمثل لى الملك الذى هو حامل الوحى رجلا » أى يتصور بصورة الرجل . وفى رواية « فى صورة الفتى ، فيكلمنى فأعى مايقول » وروى أنه فى الحالة الثانية ينفلت منه مايعيه بخلاف الحالة الأولى .

ونص هذه الرواية «كان الوحى يأتينى على نحوين ، يأتينى جبريل فيلقيه علىّ كما يلقى الرجل على الرجل ، فذلك ينفلت منى . ويأتينى فى شئ مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبى ، فذاك الذى لاينفلت منى » .

قيل وإنما كان ينفلت منه فى الحالة الأولى لشدة تأنسه بحامله ، لأنه يأتى إليه فى صورة يعهدها ويخاطبه بلسان يعهده ، فلا يثبت فيما ألقى إليه بخلافه فى الحالة الثانية ، لأن سماع مثل هذا الصوت الذى يفزع منه القلب مع عدم رؤية أحد يخاطبه إذا علم أنه وحى اضطر إلى التثبت فى ذلك ، وقولنا: أى حامله يخالف قول الحافظ ابن حجر حيث ذكر أن قوله مثل صلصة الجرس بين بها صفة الوحى لا صفة حامله .

وفيه أن ذلك لا يناسب قوله وقد وعيت ما قال ، وقول بعضهم : الصلصلة المذكورة

هي صوت الملك بالوحي، وقوله «يأتيني أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا» وكان صلى الله عليه وسلم يجد ثقلا عند نزول الوحي، ويتحدر جبينه عرقا في البرد كأنه الجمان، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه.

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه «كان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل لذلك. ومرة وقع فخذه على فخذي، فوالله ماوجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وربما أوحي إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم وربما بركت».

أي وجاء «أنه لما نزلت سورة المائدة عليه صلى الله عليه وسلم كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها».

وفي رواية «فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة» ولا يخالفه ما قبله لأنه جاز أن يكون حصل لها ذلك فكان سببا لنزوله ثم رأيت في رواية مايصرح بذلك.

وجاء «مامن مرة يوحي إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض منه» وعن أسماء بنت عميس «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه» وفي رواية «يصير كهيئة السكران».

أقول: أي يقرب من حال المغشي عليه لتغيره عن حالته المعهودة تغيرا شديدا حتى تصير صورته صورة السكران: أي مع بقاء عقله وتمييزه.

ولا ينافي ذلك قول بعضهم: ذكر العلماء أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤخذ عن الدنيا، لأنه يجوز أن يكون مع ذلك على عقله وتمييزه على خلاف العادة، وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم، وحينئذ لا ينتقض وضوؤه.

ثم رأيت صاحب الوفاء قال: فإن قال قائل ما كان يجري عليه صلى الله عليه وسلم من البرحاء حين نزول الوحي هل ينتقض وضوؤه؟

والجواب لا، لأنه صلى الله عليه وسلم كان محفوظا في منامه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، فإذا كان النوم الذي يسقط فيه الوكاء لا ينقض وضوءه فالحالة التي أكرم فيها بالمسارة والإلقاء المدى إلى قلبه أولى، لكون طباعه فيها معصومة من الأذى هذا كلامه. وما ذكرناه أولى، لما تقرر أن الإغماء أبلغ من النوم فليتأمل.

وفي كلام الشيخ محيي الدين مايدل على أنه صلى الله عليه وسلم وجميع من يأتيه الوحي

من الأنبياء كان إذا جاءه الوحى يستلقى على ظهره حيث قال : سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحى إليهم أن الوارد الإلهى الذى هو صفة القيومية إذا جاءهم اشتغل الروح الإنسانى عن تدبيره ، فلم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده ، فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى صدع فيغلف رأسه بالحناء » قيل وهو محمل قول بعض الصحابة إنه صلى الله عليه وسلم كان يخضب بالحناء ، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام لم يخضب ، لأنه لم يبلغ سنا يخضب فيه .

وفيه أنه أمر بالخضاب للشباب ، فقد جاء « اختضبوا بالحناء ، فإنه يزيد فى شبابكم وجمالكم ونكاحكم » وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضى الوحى » وفى لفظ « كان إذا نزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحى استقبلته الرعدة » وفى رواية « كرب لذلك وتربد له رجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر » .

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه « كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة ، وإذا أنزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل » .

وذكر الحافظ ابن حجر أن دوى النحل لا يعارض صلصلة الجرس : أى المتقدم ذكرها ، لأن سماع الدوى بالنسبة للحاضرين . والصلصلة بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فالراوى شبه بدوى النحل ، والنبى صلى الله عليه وسلم شبه بصلصلة الجرس : أى فالمراد بهما شيء واحد ، والله أعلم .

ومن حالاته : أى حالات الوحى أى حامله أنه كان يأتيه على صورته التى خلقه الله تعالى عليها له ستمائة جناح .

أقول : فيوحى إليه فى تلك الحالة كما هو المتبادر . وفيه أنه جاء عن عائشة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل على صورته التى خلقه الله

عليها إلا مرتين : حين سأله أن يريه نفسه ، فقال : وددت أنى رأيتك فى صورتك : أى وذلك بحراء أوائل البعثة بعد فترة الوحى بالأفق الأعلى من الأرض ، وهــذه المرة هى المعنية بقوله تعالى (ولقد رآه بالأفق المبين) وبقوله تعالى (فاستوى وهو بالأفق الأعلى) « طلع جبريل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب ، فخرّ النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه » الحديث . والأخرى ليلة الإسراء المعنية بقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) وسيأتى الكلام على ذلك .

وفى الخصائص الصغرى : خص صلى الله عليه وسلم برؤيته جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها : أى لم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

وذكر السهيلى أن المراد بالأجنحة فى حق الملائكة صفة الملكية وقوة روحانية ، وليست كأجنحة الطير . ولا ينافى ذلك وصف كل جناح منها بأنه يسدّ مابين المشرق والمغرب ، هذا كلامه فليتأمل .

ولعله لاينافيه ماتقدم عن الحافظ ابن حجر من أن تمثل الملك رجلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلا ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن يخاطبه .

والظاهر أن القدر الزائد لايزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائى فقط ؟ والله أعلم .

ومن حالات الوحى أى نفسه أى الموحى به لاحامله الذى هو جبريل أن الله تعالى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ملك ؟ بل من وراء حجاب يقظة أو من غير حجاب بل كفاحاً ، وذلك ليلة المعراج . واسم الإشارة يحتمل أن يكون لنوعين وقع كل منهما ليلة الإسراء .

ويحتمل أن يكون نوعاً واحداً ،وأن الأول بناءعلى القول بعدم الرؤية. والثانى بناء على القول بالرؤية . وحينئذ لايناسب عدّ ذلك نوعين كما فعل الشامى ، ومن ثم نسب ابن القيم هذا النوع الثانى لبعضهم كالمتبرئ منه حيث قال : وقد زاد بعضهم مرتبة ثانية ، وهى تكليم الله تعالى له صلى الله عليه وسلم كفاحاً بغير حجاب هذا كلامه ، لأن ابن القيم ممن لايقول بوجود الرؤية ؟ فما زاده بعضهم بناء على القول بوجود الرؤية كما علمت . وحينئذ يكون هذا ليلة المعراج، وعلى هذا جاء قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) .

وقول ابن القيم السادسة : أى من حالات الوحى ماأوحاه الله تعالى إليه ، وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها ، لأن ذلك إنما هو ليلة المعراج بغير واسطة ملك، وهذا محتمل لأن يكون من غير حجاب ، وأن يكون من وراء الحجاب ، فهى لم تخرج عما تقدم .

وكذا قوله السابعة : أى من حالات الوحى كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم موسى : أى من وراء حجاب ، فهى لم تخرج عما تقدم . وحينئذ يكون كلمه صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج بواسطة الملك وكلمه بغير واسطة الملك من وراء حجاب ومشافهة من غير حجاب . وصاحب المواهب نقل عن الولى العراقى كلاماً فيه الاعتراض على ابن القيم بغير ماذكر ، والجواب عنه ، وأقره مع مافى ذلك الكلام من النظر الظاهر الذى لايكاد يخفى ، والله أعلم .

قال الحافظ السيوطى : وليس فى القرآن من هذا النوع : أى مما شافهه به الحق تعالى من غير حجاب شىء فيما أعلم .

نعم يمكن أن يعدّ منه آخر سورة البقرة : أى آمن الرسول إلى آخر الآيات ، لأنها نزلت كما فى الكامل للهذلى بقاب قوسين .

وروى الديلمى « قيل يارسول الله أىّ آية فى كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال آخر سورة البقرة ، فإنها من كنز الرحمن من تحت العرش، ولم تترك خيرا فى الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه » ولعل هذا لايعارض ماجاء فى فضل آية الكرسى من قوله صلى الله عليه وسلم،وقد قيل له « يارسول الله أى آية فى كتاب الله تعالى أعظم ؟ قال آية الكرسى أعظم » وما جاء عن الحسن رضى الله تعالى عنه مرسلا . أفضل القرآن البقرة ، وأفضل آية فيه آية الكرسى » وفى رواية أعظم آية فيها آية الكرسى » وفى الجامع الصغير « آية الكرسى ربع القرآن » .

ونزل فى ذلك الموطن الذى هو قاب قوسين بعض سورة الضحى ، وبعض سورة ألم نشرح . قال صلى الله عليه وسلم « سألت ربى مسألة وودت أنى لم أكن سألته ؛ سألت ربى اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فقال : يامحمد ألم أجدك يتيما فآويتك ، وضالا فهديتك ، وعائلا فأغنيتك ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا وتذكر معى » انتهى .

أقول : قد يقال لا يلزم من النزول فى قاب قوسين أن يكون مشافهة من غير حجاب وقوله « فقال يامحمد ألم أجدك إلى آخره » ليس هذا نص التلاوة ، وإن هذا ظاهر فى أن المتلوّ الدال على ماذكر نزل قبل ذلك ، وأن هذا تذكير به ، والله أعلم .

ومن حالات الوحى أنه أوحى إليه بلا واسطة ملك مناما كما فى حديث معاذ « أتانى ربى » وفى لفظ « رأيت ربى فى أحسن صورة — أى خلقة — فقال : فيما يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ قلت : أنت أعلم أى رب ، فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى ، فعلمت ما فى السماء والأرض » أى وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه ، فهذا علم حاصل لا عن قوة من القوى الحسية أو المعنوية ، وهذا لايبعد أن يقع مثله للأولياء بطريق الإرث : أى تجلى له الحق بالتجلى الخاص الذى ما ذكر عبارة عنه . وفى رواية « فعلمت علم الأولين والآخرين » أى ومن حالات الوحى رؤيا النوم ، قال صلى الله عليه وسلم « رؤيا الأنبياء وحى » كما تقدم .

ومن حالاته العلم الذى يلقيه الله تعالى فى قلبه عند الاجتهاد فى الأحكام بناء على ثبوته لا بواسطة ملك ، وبذلك فارق النفث فى الروع .

وبذكر هذه الأنواع للوحى يعلم أن ما تقــدم من حصره فى الحالتين المذكورتين عنــد سؤال الحارث له صلى الله عليه وسلم أغلبىّ أو أن ما عداهما وقع بعد سؤال الحارث له .

وفى [ينبوع الحياة] عن ابن جرير « ما نزل جبريل بوحى قط إلا وينزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبى الذى يوحى إليه ، يطردون الشياطين عنهما ، لئلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، من الغيب الذى يوحيه إليه ، فيلقوه إلى أوليائهم » ثم رأيته فى [الإتقان] ذكر أن من القرآن ما نزل معه ملائكة مع جبريل تشيعه ، من ذلك سورة الأنعام ، شيعها سبعون ألف ملك ، وفاتحة الكتاب شيعها ثمانون ألف ملك ، وآية الكرسى شيعها ثمانون ألف ملك ، وسورة يس شيعها ثلاثون ألف ملك (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) شيعها عشرون ألف ملك ، ولعل هذا لاينافى ما تقدم من أن الغرض من تساقط النجوم عند البعثة حراسة السماء من استراق الشياطين لما يوحى ، لجواز أن يكون هذا لحفظ ما يوحى من استراقه فى الأرض وبين السماء والأرض .

وعن النخعي : إن أول سورة أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك) قال الإمام النووي: وهو الصواب الذى عليه الجماهير من السلف والخلف ، هذا كلامه . ولا يخفى أن مراد النخعي بالسورة هنا القطعة من القرآن : أى أوّل آيات أنزلت ، فلا ينافى ماتقدم من رواية عمرو بن شرحبيل مما يدل على أن أول سورة أنزلت فاتحة الكتاب ، لأن المراد أول سورة كاملة نزلت لافى شأن الإنذار ، فلا ينافى ماتقدم من رواية جابر مما يقتضى أن أوّل مانزل (يا أيها المدثر) لأن المراد بذلك أوّل سورة كاملة نزلت فى شأن الإنذار بعد فترة الوحي : أى فإنها نزلت قبل تمام نزول سورة اقرأ ، وهذا الجمع تقدم الوعد به ، أى لكن يشكل عليه مافى الكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مانزل علىّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ، ماخلا سورة براءة — وقل هو الله أحد — فإنهما أنزلتاعلىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة » فإن هذا السياق يدل على أنه لم ينزل عليه صلى الله عليه وسلم سورة كاملة إلا براءة (وقل هو الله أحد) ويخالفه مافى [الإتقان] أن مما نزل جملة سورة الفاتحة وسورة الكوثر ، وسورة تبت ، وسورة لم يكن ، وسورة النصر والمرسلات والأنعام . لكن ذكر ابن الصلاح أن هذا روى بسند فيه ضعف قال : ولم أر له إسناداً صحيحاً .

وقد روى مايخالفه ، ولم يذكر فى [الإتقان] مما نزل جملة سورة براءة ، وذكر أن المعوذتين نزلتا دفعة واحدة. وحينئذ يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إلا آية آية وحرفاً حرفا » أى كلمة ، والمراد بها ماقابل السورة ، وإلا فقد أنزل عليه ثلاث آيات وأربع آيات وعشر آيات كما أنزل عليه آية وبعض آية. فقدصح نزول (غير أولى الضرر) منفردة وهى بعض آية .

وفى الإتقان عن جابر بن زيد قال « أوّل ماأنزل الله تعالى من القرآن بمكة اقرأ (باسم ربك) ثم (نۤ والقلم) ثم (ياأيها المزمل) ثم (ياأيها المدثر) ثم الفاتحة ، إلى آخر ماذكر . ثم قال : قلت هذا السياق غريب ، وفى هذا الترتيب نظر ؛ وجابر بن زيد من علماء التابعين ، هذا كلامه . وذكر بعض المفسرين أن سورة والتين أول مانزل من القرآن، والله أعلم . وما تقدم من أن نزول (ياأيها المدثر) كان فى شأن الإنذار بعد فترة الوحي ، لأنه كان بعد نزول جبريل عليه باقرأ باسم ربك ، مكث مدة لايرى جبريل .

أى وإنما كان كذلك ليذهب ماكان يجده من الرعب، وليحصل له التشوف إلى العود ،

ومن ثم حزن لذلك حزنا شديدا حتى غدا مراراً كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما وافى بذروة كى يلقى نفسه منها تبدّى له جبريل عليه السلام ؟ فقال : يامحمد إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه : أى قلبه وتقرّ نفسه ويرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا وافى ذروة جبل تبدى له مثل ذلك . قال : وفى رواية « أنه لما فتر الوحى عنه صلى الله عليه وسلم حزن حزنا شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة أخرى يريد أن يلقى نفسه منه ؛ فكلما وافى ذروة جبل منهما كى يلقى نفسه تبدى له جبريل فقال : يامحمد أنت رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ويرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك ، وكانت تلك المدة أربعين يوما ، وقيل خمسة عشر يوما ، وقيل اثنى عشر يوما ، وقيل ثلاثة أيام. قال بعضهم وهو الأشبه بحاله عند الله تعالى انتهى .

أقول : ويبعد هذا الأشبه قوله فإذا طالت عليه فترة الوحى ، والله أعلم . وفى الأصل وهذه الفترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة .

أقول : فى فتح البارى أن ابن اسحاق جزم بأنها ثلاث سنين ، والله أعلم .

قال أبو القاسم السهيلى : وقد جاء فى بعض الأحاديث المسندة أن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصف سنة : أى وفى كلام الحافظ ابن حجر : وهذا الذى اعتمده السهيلى لايثبت . وقد عارضه ماجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنمدة الفترة كانت أياما أى وأقلها ثلاثة : أى وتقدم مافيه. قال:قال بعض الحفاظ :والظاهر —والله أعلم— أنها أى مدة الفترة كانت بين اقرأ و (ياأيها المدثر) هى المدة التى اقترن معه فيها إسرافيل كما قال الشعبى انتهى .

أقول : ويوافق ذلك مافى الاستيعاب لابن عبد البر أن الشعبى قال : أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين ، وقرن بنبوته إسرافيل عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين وقد تقدم ذلك .

وفى الأصل عن الشعبى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحى ولم ينزل القرآن » أى شيء منه على لسانه « ثم وكل بهجبريل فجاءه بالوحى والقرآن » وهو موافق فى ذلك لما فى سيرة شيخهالحافظ الدمياطى حيث قال : قال بعض العلماء : وقرن به إسرافيل ، ثم قرن به جبريل ، وهو

ظاهر فى أن اقتران إسرافيل به كان بعد النبوة ، ويؤيده قوله « ويأتيه بالكلمة من الوحى » ويحتمل لأن يكون ذلك قبلَ النبوة ، فيوافق ماتقدم عن الماوردى ، لكن تقدم أنه كان يسمع حسه ولا يرى شخصه ؟ إلا أن يقال : لايلزم من كونه يتراءى له أن يراه ، وقوله يأتيه بالكلمة من الوحى هو معنى قوله يأتيه بالشىء بعد الشىء ، ثم رأيت الواقدى أنكر على الشعبى كون إسرافيل قرن به أولا . وقال : لم يقترن به من الملائكة إلا جبريل : أى بعد النبوة ، ويحتمل مطلقا . قال بعضهم : ماقاله الشعبى هو الموافق لما هو المشهور المحفوظ الثابت فى الأحاديث الصحيحة ، وخبر الشعبى مرسل أو معضل ، فلا يعارض مافى الأحاديث الصحيحة هذا كلامه .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر نظر فى كلام الواقدى بأن المثبت مقدم على النافى إلا إن صحب النافى دليل نفيه فيقدم ، هذا كلامه .

لايقال : قد وجد الدليل ، فقد جاء « بينا النبى صلى الله عليه وسلم جالس وعنده جبريل إذ سمع نغيضا : أى هدة من السماء ، فرفع جبريل بصره إلى السماء ، فقال : يامحمد هذا ملك قدنزل لم ينزل إلى الأرض قط » قال جماعة من العلماء : إن هذا الملك إسرافيل . لأنا نقول هذا مجرد دعوى لا دليل عليها ؟ ولا يحسن أن يكون مستندهم فى ذلك مافى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لقد هبط على ملك من السماء ماهبط على نبى قبلى ، ولا يهبط على أحد بعدى وهو إسرافيل ، فقال أنا رسول ربك » الحديث .

ومن ثم عدّ السيوطى من خصائصه صلى الله عليه وسلم هبوط إسرافيل عليه ، إذ ليس فى ذلك دليل على أن إسرافيل لم يكن نزل إليه قبل ذلك حتى يكون دليلا على أن اقتران جبريل به سابق على اقتران إسرافيل به .

هذا ، وفى كلام الحافظ السيوطى أن مجىء إسرافيل كان بعد ابتداء الوحى بسنتين ، قال كما يعرف ذلك من سائر طرق الأحاديث ، وهو بظاهره يرد مافى [سفر السعادة] أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ تسع سنين أمر الله تعالى إسرافيل أن يقوم بملازمته .

ولما بلغ إحدى عشرة سنة أمر جبريل بملازمته صلى الله عليه وسلم فلازمه تسعا وعشرين سنة فليتأمل .

وعن يحيى بن بكير قال : ماخلق الله خلقا فى السموات أحسن صوتا من إسرافيل ، فإذا قرأ فى السماء يقطع على أهل السماء ذكرهم وتسبيحهم .

ثم رأيت فى فتح البارى : ليس المراد بفترة الوحى المقدرة بثلاث سنين : أى على ماتقدم مابين نزول اقرأ ويا أيها المدثر عدم مجىء جبريل إليه ، بل تأخر نزول القرآن عليه فقط هذا كلامه : أى فكان جبريل يأتى إليه بغير قرآن بعد مجيئه إليه باقرأ ، ولم يجئ إليه بالقرآن الذى هو يا أيها المدثر إلا بعد الثلاث سنين على ماتقدم ؛ ثم فى تلك المدة مكث أياما لايأتيه أصلا ، ثم جاءه بياأيها المدثر ، فكان قبل تلك الأيام يختلف إليه هو وإسرافيل ، وهذا السياق كما لايخفى يؤخذ منه عدم المنافاة بين كون مدة فترة الوحى ثلاث سنين كما يقول ابن اسحاق ، وسنتين ونصفا كما يقول السهيلى ، وسنتين كما يقول الحافظ السيوطى ، وبين كونها أياماً أقلها ثلاثة وأكثرها أربعون كما تقدم عن ابن عباس ، لأن تلك الأيام هى التى كانت لايرى فيها جبريل أصلا على ماتقدم : أى ولا يرى فيها إسرافيل أيضا . وفى غير تلك الأيام كان يأتيه بغير القرآن ، وحينئذ لايحسن رد الحافظ فيما سبق على السهيلى . وينبغى أن تكون تلك الأيام التى لايرى فيها جبريل وإسرافيل هى التى يريد فيها أن يلقى نفسه من رءوس شواهق الجبال ، وهذا السياق أيضا يدل على أن النبوة سابقة على الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بياأيها المدثر ، ويصرح به ماتقدم من قول بعضهم نبأه بقوله (اقرأ باسم ربك) وأرسله بقوله (ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) وأن بينهما فترة الوحى وعليه أكثر الروايات .

وقيل النبوة والرسالة مقترنان ، ولعل من يقول بتلك يقول ياأيها المدثر دلت على طلب الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا غير إظهار الدعوة والمفاجأة بها الذى دل عليه قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) فليتأمل .

وذكر السهيلى أن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التى هو عليها ، فلاطفه الحق سبحانه وتعالى بقوله (ياأيها المدثر) فبذلك علم رضاه الذى هو غاية مطلوبه ، وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد ، ومن هذه الملاطفة قوله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وقد نام وترب جنبه « قم ياأبا تراب » وقوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة فى غزوة أحد وقد نام إلى الإسفار « قم يانومان » .

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في قوله تعالى (ياأيها المدثر قم فأنذر) اعلم أن التدثر إنما يكون من البرودة التي تحصل عقب الوحي ، وذلك أن الملك إذا ورد على النبي صلى الله عليه وسلم بعلم أو حكم تلقى ذلك الروح الإنساني ، وعند ذلك تشتعل الحرارة الغريزية فيتغير الوجه لذلك ، وتنتقل الرطوبات إلى سطح البدن لاستيلاء الحرارة فيكون من ذلك العرق ، فإذا سرّى عنه ذلك سكن المزاج ، وانقشعت تلك الحرارة ، وانفتحت تلك المسام ، وقبل الجسم الهواء من خارج ،فيتحلل الجسم ،فيبرد المزاج ، فتأخذه القشعريرة فتزاد عليه الثياب ليسخن هذا ملخص كلامه .

وذكر بعضهم في تفسير قوله تعالى (وثيابك فطهر) أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي نفعنا الله تعالى ببركاته قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : ياأبا الحسن طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله تعالى في كل نفس ، فقلت : يارسول الله وما ثيابي ؟ قال : إن الله كساك حلة التوحيد وحلة المحبة وحلة المعرفة ، قال : ففهمت حينئذ قوله تعالى (وثيابك فطهر) .

وجاء في وصف إسرافيل في بعض الأحاديث « لا تفكروا في عظم ربكم ، ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة ، فان خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سموات ، وإنه ليتضاءل من عظمة الله تعالى حتى يصير كأنه الوصع » فهو عند نزوله يكون حاملا لزاوية العرش أو يخلفه غيره من الملائكة في ذلك .

باب ذكر وضوئه وصلاته

صلى الله عليه وسلم أول البعثة

أي أول الإرسال إليه باقرأ .

أقول : في المواهب « أنه روى أن جبريل عليه الصلاة والسلام بدا له صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة ،فقال له : يامحمد إن الله تعالى يقرئك السلام ،ويقول لك : أنت رسول الله إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله،ثم ضرب برجله

الأرض فنبعت عين ماء ، فتوضأ منها جبريل ، ثم أمره أن يتوضأ ، وقام جبريل يصلى ، وأمره أن يصلى معه ، فعلمه الوضوء والصلاة » الحديث .

وقوله « فعلمه الوضوء » يحتمل أن يكون بفعله المذكور . ويحتمل أن يكون علمه بقوله افعل كذا فى وضوئك وصلاتك ، ويدل للأول ماسيأتى .

وفيه أن قول جبريل المذكور إنما كان عند أمره بإظهار الدعوة والمفاجأة بها إلى الله تعالى بعد فترة الوحى كما سيأتى ، فالجمع بينه وبين قوله ثم ضرب برجله الأرض إلى آخره لايحسن، لأنه سيأتى أن ذلك كان فى يوم نزوله له (اقرأ باسم ربك) ولعله من تصرف بعض الرواة ، والله أعلم .

فعن ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم « أن الصلاة حين افترضت على النبى صلى الله عليه وسلم : أى قبل الإسراء أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ليريه كيف الطهور — أى الوضوء للصلاة — أى فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح برأسه وغسل رجليه إلى الكعبين» كما فى بعض الروايات [ ] أى وفى رواية « فغسل كفيه ثلاثا، ثم تمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ، ثم غسل يديه إلى المرفقين ، ثم مسح رأسه ، ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم فتوضأ مثل وضوئه » .

أقول : وبهذه الرواية ، يرد قول بعضهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم زاد فى الوضوء التسمية وغسل الكفين والمضمضة والاستنشاق ومسح جميع الرأس والتخليل ومسح الأذنين والتثليث ، إلا أن يقال مراد هذا البعض أن ماذكر زاده على مافى الآية . وفى كلام بعضهم : كانت العرب فى الجاهلية يغتسلون من الجنابة ، ويداومون على المضمضة والاستنشاق والسواك ، والله أعلم .

« ثم قام جبريل فصلى به صلى الله عليه وسلم ركعتين » يحتمل أن تلك الصلاة كانت بالغداة قبل طلوع الشمس . ويحتمل أنها كانت بالعشى : أى قبل غروب الشمس . وفى الإمتاع وإنما كانت الصلاة قبل الإسراء صلاة بالعشى : أى قبل غروب الشمس ، ثم صارت صلاة بالغداة ، وصلاة بالعشى ركعتين :أى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى، والعشى : هو العصر .

فنى كلام بعض أهل اللغة : العصر العشاء ، والعصران الغداة والعشى ، وكانت صلاته

صلى الله عليه وسلم نحو الكعبة ، واستقبل الحجر الأسود : أى جعل الحجر الأسود قبالته وهذا يدل على أنه لم يستقبل فى تلك الصلاة بيت المقدس ، لأنه لا يكون مستقبلا لبيت المقدس إلا إذا صلى بين الركنين الأسود واليمانى كما كان يفعل بعد فرض الصلوات الخمس وهو بمكة ؛ كما سيأتى « أنه كان يصلى بين الركنين الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام » [ ] أى بينه وبين بيت المقدس : أى صخرته ؛ إلا أن يقال يجوز أن يكون عند صلاته إلى الكعبة كان بينهما إلا أنه كان إلى الحجر الأسود أقرب منه إلى اليمانى ، فقيل استقبل الحجر الأسود فلا مخالفة ، لكن سيأتى ماقد يفيد أنه لم يستقبل بيت المقدس إلا فى الصلوات الخمس : أى بعد الإسراء وقبل ذلك كان يستقبل الكعبة إلى أى جهة من جهاتها « ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة جبريل ، قال جبريل : هكذا الصلاة يامحمد ، ثم انصرف جبريل ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وأخبرها ، فغشى عليها من الفرح ، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صلى به جبريل عليه الصلاة والسلام » .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى مايفيد أن ذلك كان فى يوم نزول جبريل عليه الصلاة والسلام له بـ (اقرأ باسم ربك) حيث قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وصلى فيه ، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين ، ويوافقه ظاهر ماجاء « أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلىّ فعلمنى الوضوء والصلاة ، فلما فرغ الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه » أى رش بها فرجه أى محل الفرج من الإنسان ؛ بناء على أنه لا فرج له ، وكون الملك لافرج له لو تصور بصورة الإنسان استدل عليه بأنه ليس ذكرا ولا أنثى ، وفيه نظر ؛ لأنه يجوز أن يكون له آلة ليست كآلة الذكر ولا كآلة الأنثى كما قيل بذلك فى الخنثى ويقال لذلك فرج .

وبعض شراح الحديث حمل الفرج على مايقابل الفرج من الإزار ، وبذلك استدل أئمتنا على أنه يستحب لمن استنجى بالماء أن يأخذ بعد الاستنجاء كفا من ماء ويرش فى ثيابه التى تحاذى فرجه ، حتى إذا خيل له أن شيئا خرج ووجد بللا قدّر أنه من ذلك الماء ، ولعل هذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « علمنى جبريل الوضوء ، وأمرنى أن أنضح تحت ثوبى مما يخرج من البول بعد الوضوء » أى دفعا لتوهم خروج شىء من البول بعد الوضوء لو وجد بلل بالمحل .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما «كان ينضح سراويله حتى يبلها» وما جاء «أنه لما أقرأه اقرأ باسم ربك ، قال له جبريل : انزل عن الجبل ، فنزل معه إلى قرار الأرض قال : فأجلسنى على درنوك — بالدال المهملة والراء والنون: أى وهو نوع من البسط ذو خمل — ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء ، فتوضأ منها جبريل» الحديث فمشروعية الوضوء كانت مع مشروعية الصلاة التى هى غير الخمس ، وإن ذلك كان فى يوم نزول جبريل باقرأ ، وهو مخالف لقول ابن حزم : لم يشرع الوضوء إلا بالمدينة .

ومما يرد ماقاله ابن حزم نقل ابن عبدالبر اتفاق أهل السير على أنه لم يصل صلى الله عليه وسلم قط إلا بوضوء ، قال : وهــذا مما لايجهله عالم ، هذا كلامه ، إلا أن يقال مراد ابن حزم أنه لم يشرع وجوبا إلا فى المدينة ، وهو الموافق لقول بعض المالكية إنه كان قبل الهجرة مندوبا : أى وإنما وجب بالمدينة بآية المائدة (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) الآية .

ويرده مافى الإتقان أن هذه الآية مما تأخر نزوله عن حكمه يعنى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إلى قوله (لعلـكم تشكرون) فالآية مدنية إجماعا ، وفرض الوضوء كان بمـكة مع فرض الصلاة : أى فالوضوء على هذا مـكى بالفرض ، مدنى بالتلاوة .

قال : والحكمة فى ذلك : أى فى نزول الآية بعد تقدم العمل لما يدل عليه أن تـكون قرآنيته متلوة هذا كلامه .

وقوله مع فرض الصلاة، يحتمل أن المراد صلاة الركعتين بناء على أنهما كانتا واجبتين عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو الموافق لما تقدم عن ابن إسحاق . ويحتمل أن المراد الصلاة الخمس : أى ليلة الإسراء ، وهو الموافق لما اقتصر عليه شيخنا الشمس الرملى حيث قال : وكان فرضه مع فرض الصلاة قبل الهجرة بسنة ، هذا كلامه . وحينئذ يكون قبل ذلك مندوبا حتى فى صلاة الليل .

وقول صاحب المواهب : ماذكر من أن جبريل عليه الصلاة والسلام علمه الوضوء وأمره به يدل على أن فرضية الوضوء كانت قبل الإسراء فيه نظر ظاهر ، إذ لا دلالة فى ذلك على الفرضية ، إذ يحتمل أن يكون اللفظ الصادر من جبريل له أمرتك أن تفعل كفعلى وصيغة أمره مشتركة بين الوجوب والندب .

وذكر بعضهم أن الغرض من نزول آية المائدة بيان أن من لم يقدر على الوضوء والغسل لمرض أو لعدم الماء يباح له التيمم : أى ففرضية الوضوء والغسل سابقة على نزولها ويؤيد ذلك قول عائشة رضى الله تعالى عنها فى الآية : فأنزل الله تعالى آية التيمم ؛ ولم تقل آية الوضوء وهى هى ، لأن الوضوء كان مفروضا قبل أن توجد تلك الآية ، ويوافقه ما ذكره ابن عبد البر من اتفاق أهل السير على أن الغسل من الجنابة فرض عليه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مايقتضى أن فرض الغسل كان مع فرض الصلوات ليلة الإسراء. فقد جاء عنه « كانت الصلاة خمسين ،والغسل من الجنابة سبع مرات ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل حتى جعل الصلاة خمسا والغسل من الجنابة مرة » . قال بعض فقهائنا : رواه أبو داود ولم يضعفه ، وهو إما صحيح أو حسن ، قال ذلك البعض . ويجوز أن يكون المراد بها : أى الغرض من نزولها فرض غسل الرجلين فى قراءة من قرأ « وأرجلكم بالنصب » فإن حديث جبريل ليس فيه إلا مسحهما : أى وهو أن جبريل أول ما جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالوحى توضأ فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين وسجد سجدتين : أى ركع ركعتين مواجهة البيت ، ففعل النبى صلى الله عليه وسلم كما يرى جبريل يفعله ، هذا كلامه ، وفيه نظر ، لأن أكثر الروايات « وغسل رجليه » كما تقدم فرجليه فى هذه الرواية معطوفة على وجهه كما أن أرجلكم فى الآية على قراءة الجر معطوفة على الوجوه ، وإنما جرّ للمجاورة وإن كان الجر للمجاورة فى غير النعت قليلا ، أو عبر عن الغسل الخفيف بالمسح .

وفى كلام الشيخ محيي الدين مسح الرجلين فى الوضوء بظاهر الكتاب ، وغسلهما بالسنة المبينة للكتاب . قال : ويحتمل العدول عن الظاهر بناء على أن المسح فيه يقال للغسل ، فيكون من الألفاظ المترادفة ، وفتح أرجلكم لايخرجها عن الممسوح ، فإن هذه الواو قد تكون واو المعية .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة » أى عملا بظاهر قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة) الآية « فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال له سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه : فعلت شيئا لم تكن تفعله ، فقال عمدا فعلته

ياعمر » أى للإشارة إلى جواز الاقتصار على وضوء واحد للصلوات الخمس ، وجواز ذلك ظاهر فى نسخ وجوب الوضوء عليه لـكل صلاة ، ويوافقه قول بعضهم: قيل كان ذلك الوضوء لـكل صلاة واجبا عليه ثم نسخ ، هذا كلامه : أى ويؤيد ذلك ظاهر ماجاء أنه أمر بالوضوء لـكل صلاة طاهرا كان أو غير طاهر ، فلما شق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم وضع عنه الوضوء إلا من حدث ، أى ويكون وقت المشقة يوم فتح مكة ، لما علمتَ أنه لم يترك الوضوء لـكل صلاة إلا حينئذ . وهذا السياق يدل على أن وجوب الوضوء لـكل صلاة كان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

ويدل لذلك ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ لـكل صلاة ، قيل لهم كيف تصنعون : أى هل كنتم تفعلون كفعله صلى الله عليه وسلم قال : يجزى أحدنا الوضوء مالم يحدث » أى فوجوب الوضوء لـكل صلاة كان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ثم نسخ .

وذكر فقهاؤنا أن الغسل كان واجبا عليه صلى الله عليه وسلم لـكل صلاة [ ] فنسخ بالنسبة للحدث الأصغر تخفيفا ، فصار الوضوء بدلا عنه ، ثم نسخ الوضوء لـكل صلاة فظاهر سياقهم يقتضى أن وجوب الغسل ثم الوضوء لـكل صلاة كان عاما فى حقه صلى الله عليه وسلم وحق أمته. ويحتاج إلى بيان وقت نسخ وجوب الغسل فى حقه صلى الله عليه وسلم وحق أمته وبيان وقت نسخ وجوب الوضوء، لـكل صلاة فى حق الأمة ، ومنه يعلم أن نسخ وجوب الوضوء لـكل صلاة يكون بالنسبة للأمة ثم بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم. وحينئذ لايشكل قول فقهائنا الآية تقتضى وجوب الطهر بالماء أو التراب لـكل صلاة ، خرج الوضوء بالسنة ، أى بما تقدم من فعله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، وبتجويزه صلى الله عليه وسلم للأمة أن يصلى الواحد منهم الصلوات بوضوء واحد ، وبقى التيمم على مقتضى الآية ، فقد وقع النسخ أولا بالنسبة للأمة ، ثم ثانيا بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ، ولعل وجوب الغسل لـكل صلاة كان بوحى غير قرآن أو باجتهاد .

ولا يخفى أن كون ظاهر الآية يقتضى وجوب الوضوء والتيمم لـكل صلاة إنما هو بقطع النظر عما نقله إمامنا رضى الله تعالى عنه عن زيد بن أسلم أن الآية فيها تقديم وحذف، وأن التقدير إذا قمتم إلى الصلاة من النوم أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فاغسلوا وجوهكم الآية ، والله أعلم .

وعن مقاتل بن سليمان: فرض الله تعالى فى أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة أى قبل طلوع الشمس وركعتين بالعشى أى قبل غروب الشمس .

أقول : إن كان المراد بأول الإسلام نزول جبريل عليه باقرأ يرد ما تقدم عن الإمتاع أن أول ماوجب ركعتان بالعشى ثم صارت صلاة بالغداة وصلاة بالعشى ركعتين إلا أن يراد الأولية الإضافية .

وفى بعض الأحاديث مايدل على أن وجوب الركعتين كان خاصا به صلى الله عليه وسلم دون أمته .

منها قوله صلى الله عليه وسلم « أول ما افترض الله على أمتى الصلوات الخمس » ، وفيه أنه افترض عليها قبل ذلك صلاة الليل ثم نسخ بالصلوات الخمس .

وفى الإمتاع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى ، وكانت صلاة لاتنكرها قريش ، وكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا فى الشعاب فرادى ومثنى : أى فيصلون صلاة العشى ، وكانوا يصلون الضحى والعصر ، ثم نزلت الصلوات الخمس » هــذا كلامه . وهو يفيد أن الركعتين الأولين كان يصليهما وقت الضحى لاقبل الشمس فليتأمل والله أعلم ، ثم فرضت الخمس ليلة المعراج .

وذهب جمع إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة : أى لاعليه ولا على أمته إلا ماوقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد : أى بقوله تعالى (فاقرءوا ماتيسر) أى صلوا .

أقول : وهو الناسخ لما وجب قبل ذلك من التحديد فى أول السورة الحاصل بقوله (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) وقد نسخ قيام الليل بالصلوات الخمس ليلة الإسراء ، ولم يذكر أئمتنا وجوب صلاة الركعتين عليه صلى الله عليه وسلم ، بل قالوا : أول مافرض عليه الإنذار والدعاء إلى التوحيد ، ثم فرض عليه قيام الليل المذكور فى أول سورة المزمل ، ثم نسخ بما فى آخرها ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وهو مخالف لما تقدم عن ابن إسحاق من وجوب صلاة الركعتين عليه ، ويوافقه قول ابن كثير فى قولهم ماتت خديجة قبل أن تفرض الصلوات : مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء .

قال بعضهم : وإنما قال ذلك ، لأن أصل الصلاة قد فرض فى حياة خديجة الركعتين بالغداة والركعتين بالعشى .

وفى كلام ابن حجر الهيتمى : لم يكلف الناس إلا بالتوحيد فقط ، ثم استمر على ذلك مدة مديدة ، ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر فى سورة المزمـــل ، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس ، ثم لم تـكثر الفرائض وتتابع إلا بالمدينة ، ولما ظهر الإسلام وتمكن فى القلوب ، وكان كلما زاد ظهورا وتمكن ازدادت الفرائض وتتابعت هذا كلامه .

ولم أقف على ما كان يقرأ فى صلاة الركعتين قبل فترة الوحى وبعدها وقبل نزول الفاتحة ، بناء على تأخر نزولها عن ذلك كما هو الراجح ، ثم رأيته فى الإتقان ذكر أن جبريل حين حولت القبلة أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة ، هذا كلامه . وينبغى حمله على الصلوات الخمس ، وحينئذ يكون ماتقدم من قول بعضهم لم يحفظ أنه كان فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة محمولا على ذلك أيضا ؛ وقد تقدم ذلك ، والله أعلم .

باب ذكر أول الناس إيمانا به
صلى الله عليه وسلم

أى بعد البعثة : أى الرسالة ، وهى المرادة عند الإطلاق بناء على أنها مقارنة للنبوة .

لايخفى أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث أخفى أمره وجعل يدعو إلى الله سرا ، واتبعه ناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء ، وإلى هذا الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين بدا غريبا وسيعود كما بدا ، فطوبى للغرباء » ولا يخفى أن أهل الأثر وعلماء السير على أن أول الناس إيماناً به صلى الله عليه وسلم على الإطلاق خديجة رضى الله عنها .

أقول : نقل الثعلبى المفسر اتفاق العلماء عليه . وقال النووى : إنه الصواب عند جماعة من المحققين . وقال ابن الأثير : خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين ، لم يتقدمها رجل ولا امرأة .

وفيه أن بناته الأربع كنّ موجودات عند البعثة ويبعد تأخر إيمانهن ، إلا أن يقال خديجة تقدم لها إشراك بخلافهن ، أخذاً مما يأتى .

وعن ابن إسحاق أن خديجة كانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ماجاء به عن الله تعالى، وكان لايسمع شيئاً يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به .

ثم عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. فني المرفوع عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أول هذه الأمة ورودا على الحوض أوّلها إسلاما عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه » وجاء « أنه لما زوجه فاطمة قال لها زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة ، وإنه لأول أصحابي إسلاما ، وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما » وكان لم يبلغ الحلم كما سيأتى حكاية الإجماع عليه ، كان سنه ثمان سنين ، وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره، لأن قريشا كان أصابهم قحط شديد وكان أبو طالب كثير العيال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس « إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله ، تأخذ واحداً وأنا واحداً فجاءآ إليه وقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه ، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا قيل وطالباً فاصنعا ماشئتما ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله تعالى عنه فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه وتركا له عقيلا وطالبا ، فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وفى خصائص العشرة للزمخشرى « أن النبي صلى الله عليه وسلم تولى تسميته بعليّ وتغذيته أياماً من ريقه المبارك بمصه لسانه » فعن فاطمة بنت أسد أم عليّ رضي الله تعالى عنها أنها قالت « لما ولدته سماه عليا وبصق فى فيه ، ثم إنه ألقمه لسانه ، فما زال يمصه حتى نام ، قالت : فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدى أحد ، فدعونا له محمدا صلى الله عليه وسلم فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ماشاء الله عز وجل » هذا كلامه فليتأمل .

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها فى الجاهلية أرادت أن تسجد لهبل وهى حامل بعليّ فتقوّس فى بطنها فمنعها من ذلك . وكان على رضي الله تعالى عنه أصغر إخوته، فكان بينه وبين أخيه جعفر عشر سنين، وبين جعفر وأخيه عقيل كذلك ، وبين عقيل وأخيه طالب ذلك أيضا ، فكل أكبر من الذى بعده بعشر سنين ، فأكبرهم طالب ثم عقيل ثم جعفر ثم عليّ : أى وكلهم أسلموا إلا طالبا فإنه اختطفته الجن فذهب ولم يعلم إسلامه .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لعقيل لما أسلم « ياأبا يزيد إنى أحبك حبين حبا لقرابتك منى ، وحباً لما كنت أعلم لحب عمى إياك » .

وكان عقيل أسرع الناس جواباً وأبلغهم فى ذلك . قال له معاوية يوما : أين ترى عمك أبا لهب من النار؟ فقال : إذا دخلتها يامعاوية فهو على يسارك مفترشاً عمتك حمالة الحطب ، والراكب خير من المركوب .

ولما وفد على معاوية وقد غضب من أخيه علىّ لما طلب منه عطاءه وقال له اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فأعطيك ، فقال له : لأذهبنّ إلى رجل هو أوصل إلىّ منك ، فذهب إلى معاوية فأعطاه معاوية مائة ألف درهم ، ثم قال له معاوية : اصعد المنبر فاذكر ما أولاك علىّ وما أوليتك ، فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنى أخبركم أنى أردت علياً على دينه فاختار دينه ، وإنى أردت معاوية على دينه فاختارنى على دينه . وفى رواية أن معاوية قال لجماعة يوماً بحضرة عقيل : هذا أبو يزيد يعنى عقيلا ، لولا علمه بأنى خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال عقيل : أخى خير لى فى دينى وأنت خير لى فى دنياى ، وأسأل الله تعالى خاتمة الخير . توفى عقيل فى خلافة معاوية .

قال : وسبب إسلام على كرم الله تعالى وجهه « أنه دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة وهما يصليان سراً ، فقال : ماهذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى ، فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرا حتى أحدّث أبا طالب ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : ياعلىّ إذا لم تسلم فاكتم هذا ، فمكث ليلته . ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام ، فأصبح غاديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم » اهـ.

أقول : وذلك فى اليوم الثانى من صلاته صلى الله عليه وسلم هو وخديجة ، وهو يوم الثلاثاء كما فى سيرة الدمياطى : أى لأنه تقدم أن صلاته صلى الله عليه وسلم مع خديجة كانت آخر يوم الاثنين ، وهـــذا إنما يأتى على القول بأن النبوة والرسالة تقارنتا لا على أن الرسالة تأخرت عن النبوة ، وأن بينهما فترة الوحى على ماتقدم .

وفى أسد الغابة « أن أبا طالب رأى النبى صلى الله عليه وسلم وعليا يصليان وعلىّ على يمينه ، فقال لجعفر رضى الله تعالى عنه : صل جناح ابن عمك ، فصلى عن يساره ، وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه علىّ بقليل. قال بعضهم : وإنما صح إسلام على : أى مع أنهم أجمعوا على أنه لم يكن بلغ الحلم : أى ومن ثم نقل عنه أنه قال :

سبقتكمو إلى الإسلام طرًّا صغيرا مابلغت أوان حلمى

أى كان عمره ثمان سنين على ماسبق ، لأن الصبيان كانوا إذ ذاك مكلفين ، لأن القلم إنما رفع عن الصبى عام خيبر .

.وعن البيهقى أن الأحكام إنما تعلقت بالبلوغ فى عام الخندق . وفى لفظ فى عام الحديبية وكانت قبل ذلك منوطة بالتمييز .

هذا ، وقد ذكر أنه لم يحفظ عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال شعرا . وقيل لم يقل إلا بيتين : أى ولعل أحدهما ماتقدم ، ثم رأيت عن القاموس أن البيتين هما قوله :

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى فلا وربك مابرّوا ولا ظفروا

فإن هلكت فرهن مهجتى لهمو بذات ودقين لا تبقى ولا تذر

وذات ودقين : هى الداهية .

وقد ذكر أن الزبير بن العوام أسلم وهو ابن ثمان سنين ، وقيل ابن خمس عشرة سنة ، وقيل ابن اثنتى عشرة سنة ، وقيل ابن ست عشرة سنة .

ومما يدل للأول ماجاء عن بعضهم : كان على والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص ولدوا فى عام واحد .

ومن العجب أن الزمخشرى فى خصائص العشرة اقتصر على أن سنّ الزبير حين أسلم ست عشرة سنة ،وذكر بعد ذلك بأسطر أنه أول من سلّ سيفا فى سبيل الله وهو ابن اثنتى عشرة سنة مقتصرا على ذلك .

ومما يدل للأول أيضا ماجاء فى كلام بعض آخر : أسلم على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وهما ابنا ثمان سنين ، وإجماعهم على أن عليا لم يكن بلغ الحلم يرد القول بأن عمره كان إذ ذاك عشر سنين : أى بناء على أن سن إمكان الاحتلام تسع سنين كما تقول به أئمتنا .

ويوافقه ماحكاه بعضهم أن الراشد بالله وهو الحادى والثلاثون من خلفاء بنى العباس لما كان عمره تسع سنين وطئ جارية حبشية فحملت منه ، فولدت ولدا حسنا . ويردّ القول بأن سنه إذ ذاك كان ثلاث عشرة أو خمس عشرة أو ست عشرة سنة .

أقول : قال بعض متأخرى أصحابنا : وإنما صحت عبادة الصبى المميز ولم يصح إسلامه ، لأن عبادته نفل والإسلام لايتنفل به . وعلى هذا مع ماتقدم يشكل مافى الإمتاع : وأما

على بن أبي طالب فلم يكن مشركا بالله أبداً ، لأنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كفالته كأحد أولاده ، يتبعه فى جميع أموره ، فلم يحتج أن يدعى للإسلام فيقال أسلم ، هذا كلامه فليتأمل ؛ فإن عليا كان تابعا لأبيه فى دينه ولم يكن تابعا له صلى الله عليه وسلم كأولاده .

وقوله فلم يحتج أن يدعى للإسلام يرده ماتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم له : أدعوك إلى الله وحده إلى آخره .

ثم رأيت فى الحديث مايدل لما فى [الإمتاع] وهو « ثلاثة ما كفروا بالله قط : مؤمن آل يس ، وعلى بن أبي طالب ، وآسية امرأة فرعون » .

والذى فى العرائس : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار صاحب يس ، وعلى بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم وهو أفضلهم » إلا أن يراد بعدم كفرهم أنهم لم يسجدوا لصنم . وفيه أنه قد يخالف ذلك قوله صلى الله عليه وسلم له « وأدعوك إلى الكفر باللات والعزى » وأنه قيل أيضا إن أبا بكر لم يسجد لصنم قط .

وقد عد ابن الجوزى من رفض عبادة الأصنام الجاهلية : أى لم يأت بها : أبا بكر الصديق ، وزيدبن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، ورباب بن البراء ، وأسعد بن كريب الحميرى ، وقس بن ساعدة الإيادى ، وأبا قيس ابن صرمة . ولا يخفى أن عدم السجود للأصنام لاينافى الحكم بالكفر على من لم يسجد لها ، لكن فى كلام السبكى : الصواب أن يقال الصديق لم يثبت عنه حال كفر بالله تعالى ، فلعل حاله قبل البعث كحال زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه ، فلذلك خص الصديق بالذكر عن غيره من الصحابة ، هـــذا كلامه ، وهو واضح إذا لم يكن أحد من جميع من ذكر أسلم .

وفى كلام الحافظ ابن كثير : الظاهر أن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا قبل كل أحد : خديجة وزيد وزوجة زيد أم أيمن وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فليتأمل قوله آمنوا قبل كل أحد ؛ وكذا يتأمل قول ابن إسحاق : أما بناته صلى الله عليه وسلم فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن .

وعن ابن إسحاق : ذكر بعض أهل العلم «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا

حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فإذا أمسيا رجعا كذلك ، ثم إن أبا طالب عثر : أى اطلع عليهما يوما وهما يصليان : أى بنخلة ، المحل المعروف ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ما هذا الذى أراك تدين به ؟ فقال : هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعاننى عليه ، فقال أبو طالب : إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه» . وفى رواية «أنه قال له: ما بالذى تقول من بأس ، ولكن والله لاتعلونى استى أبدا » وهذا كما لايخفى ينبغى أن يكون صدر منه قبل ماتقدم من قوله لابنه جعفر : صل جناح ابن عمك وصلّ على يساره لما رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى وعليا على يمينه ، لكن يروى أن عليا رضى الله تعالى عنه ضحك يوما وهو على المنبر فسئل عن ذلك ؟ فقال : تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة ورآنى أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة ، فقال : ما هذا الفعل الذى أرى ؟ فلما أخبرناه قال : هذا حسن ولكن لا أفعله أبدا ، إنى لا أحب أن تعلونى استى ، فلما تذكرت الآن قوله ضحكت . وقوله حين فرضت الصلاة يعنى الركعتين بالغداة والركعتين بالعشى ، وهذا يؤيد القول بأن ذلك كان واجبا .

وذكر أن أبا طالب قال لعلى : أى بنى ، ماهذا الذى أنت عليه ؟ فقال : يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ماجاء به ، ودخلت معه واتبعته ، فقال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

أى ويذكر عنه أنه كان يقول : إنى لأعلم أن ما يقوله ابن أخى لحق ، ولولا أنى أخاف أن تعيرنى نساء قريش لاتبعته .

وعن عفيف الكندى رضى الله تعالى عنه قال : كنت امرأ تاجرا قدمت للحج ، وأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان العباس لى صديقا ، وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر ويبيعه أيام الموسم ، فبينما أنا عند العباس بمنى : أى وفى لفظ بمكة فى المسجد إذا رجل مجتمع : أى بلغ أشده خرج من خباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها مالت توضأ فأسبغ الوضوء : أى أكمله ثم قام يصلى: أى إلى الكعبة كما فى بعض الروايات ، ثم خرج غلام مراهق : أى قارب البلوغ فتوضأ ثم قام إلى جنبه

يصلى ، ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ، ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة ، فقلت: ويحك ياعباس ما هذا الدين؟ فقال : هذا دين محمد بن عبد الله أخى ، يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب ، وهذه امرأته خديجة ، قال عفيف بعد أن أسلم : يا ليتنى كنت رابعا » أى ولعل زيد بن حارثة لم يكن موجودا عندهم فى ذلك الوقت ، فلا ينافى أنه كان يصلى معهم أو أن ذلك كان قبل إسلامه ، لأنه سيأتى قريبا أن إسلامه كان بعد إسلام علىّ ، وكذا أبو بكر لم يكن موجودا عندهم ، بناء على أن إسلامه كان قبل إسلام على ، ويؤيده ما قيل : أول من صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، لكن فى الاستيعاب لابن عبد البر أن العباس قال لعفيف الكندى لما قال له ماهذا الذى يصنع ؟ قال : يصلى ، وهو يزعم أنه نبى ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام .

وفيه أن عليا قال : لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين ، أى ولعل المراد أنه عبده بغير الصلاة .

وقوله فى هذا الحديث : فنظر إلى الشمس ، فلما رآها مالت توضأ وصلى قد يخالف ما تقدم من أن فرض الصلاة كان ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى قبل غروب الشمس فقط .

أقول : قد يقال لا مخالفة ، لأنه يجوز أن تكون صلاته فى الوقت ليست مما فرض عليه ، والجماعة فى ذلك جائزة ، وقد فعلها صلى الله عليه وسلم فى النفل المطلق ، وهذا يدل على أن الجماعة كانت مشروعة بمكة حتى فى صدر الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس .

وفى كلام بعض فقهائنا أنها لم تشرع إلا فى المدينة دون مكة لقهر الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، إلا أن يقال المراد بمشروعيتها طلبها ، فكانت فى المدينة مطلوبة استحبابا أو وجوبا ، كفاية أو عينا على الخلاف عندنا فى ذلك ، وفى مكة كانت مباحة ، لكن فى كلام بعض آخر من فقهائنا أن الجماعة لم تفعل بمكة لقهر الصحابة . وفيه أن القهر إنما ينافى إظهار الجماعة لا فعلها ، إلا أن يقال تركت حسما للباب . وفيه أنه يبعد تركها وهم مستخفون فى دار الأرقم فليتأمل ، والله أعلم .

ثم بعد إسلام على رضى الله تعالى عنه أسلم من الصحابة رضى الله تعالى عنهم زيد بن حارثة بن شرحبيل .

وقال ابن هشام : شرحبيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له خديجة ، أى لما تزوجها صلى الله عليه وسلم ، أى وكان اشتراه لها ابن أخيها حكيم بن حزام ممن سباه من الجاهلية ، أى فإن عمته خديجة أمرته أن يبتاع لها غلاما ظريفا عربيا ، فلما قدم سوق عكاظ وجد زيدا يباع ، أى وعمره ثمان سنين ، فإنه أسر من عند أخواله طى ، وعليه اقتصر السهيلى .

فإن أمه لما خرجت به لتزيره أهلها فأصابته خيل فباعوه فاشتراه ، أى وقيل اشتراه من سوق حباشة بأربعمائة درهم ، ويقال بستمائة درهم ، فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته أى ولعل هذا مراد مع قال فباعه من عمته خديجة أى اشتراه لها ، فلما تزوّجها صلى الله عليه وسلم وهو عندها أعجب به فاستوهبه منها فوهبته له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه قبل الوحى [ ] .

أى وقيل اشتراه صلى الله عليه وسلم لها فإنه جاء إلى خديجة ، فقال « رأيت غلاما بالبطحاء قد أوقفوه ليبيعوه ، ولو كان لى ثمنه لاشتريته ، قالت وكم ثمنه ؟ قال سبعمائة درهم ، قالت : خذ سبعمائة درهم فاذهب فاشتره ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء به إليها ، وقال : إنه لو كان لى لأعتقته ، قالت : هو لك فأعتقه » وقيل بل اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشام لخديجة حيث توجه مع ميسرة فوهبته له فليتأمل ذلك .

وزعم أبو عبيدة أن زيد بن حارثة لم يكن اسمه زيدا ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه بذلك باسم جدّه قصىّ حين تبناه .

ثم إنه خرج فى إبل لأبى طالب إلى الشام ، فمرّ بأرض قومه ، فعرفه عمه فقام إليه وقال : من أنت ياغلام ؟ قال : غلام من أهل مكة ، قال : من أنفسهم ؟ قال لا ، قال : فحر أنت أم مملوك ؟ قال : مملوك ، قال : عربىّ أنت أم أعجمى ؟ قال : بل عربىّ ، قال : ممن أهلك ؟ قال من كلب ؛ قال : من أى كلب ؟ قال : من بنى عبد ود ، قال : ويحك ابن من أنت ؟ قال ابن حارثة بن شرحبيل ، قال : وأين أصبت ؟ قال : فى أخوالى قال : ومن أخوالك؟ قال : طىّ ، قال : ما اسم أمك؟ قال : سعدى، فالتزمه وقال ابن حارثة

ودعا أباه ، فقال : ياحارثة هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال : كيف صنع مولاك إليك ؟ قال : يؤثرنى على أهله وولده ، ورزقت منه حبا فلا أصنع إلا ماشئت ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه .

وفى رواية أن ناسا من قومه حجوا فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم فانطلقوا وأعلموا أباه ووصفوا له مكانه ، فجاء أبوه وعمه .

وقد يقال : لا مخالفة ، لجواز أن يكون اجتماعه بعمه وأبيه كان بعد إخبار أولئك الناس ، فلما جاء أهله فى طلبه ليفدوه خيره النبي صلى الله عليه وسلم بين المكث عنده والرجوع إلى أهله ، فاختار المكث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد ذكر أنهم لما جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : يابن عبد المطلب يابن سيد قومه [ ] : أى وفى لفظ ، لما قدم أبوه وعمه فى فدائه سألا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل : هو فى المسجد ، فدخلا عليه ، فقالا : يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون الأسير العانى ، وتطعمون الجائع جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنا سندفع لك ، فقال : وما ذاك ؟ قال : زيد بن حارثة ، فقال : أو غير ذلك ؟ قالوا : وما هو ؟ قال ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على الذى اختارنى فداء ، فقالوا ، زدت على النصف . وفى لفظ زدتنا على النصف وأحسنت ، فدعاه فقال : تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم أبى وعمى ، ولعل سكوته عن أخيه لاستصغاره بالنسبة لأبيه وعمه ، على أن أكثر الروايات الاقتصار على مجيء أبيه وعمه .

وفى كلام السهيلى « أن زيدا لما جاء قال صلى الله عليه وسلم له من هذان ؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شرحبيل ، وهذا كعب بن شرحبيل عمى . فعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم له : أنا من علمت ، وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما ، فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم ، فقالا ، ويحك يا زيد تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال نعم ، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه مارأى أخرجه إلى الحجر : أى الذى هو محل جلوس قريش ، فقال إن زيدا ابنى أرثه ويرثنى فطابت أنفسهما وانصرفا » .

وفى كلام ابن عبد البر أنه حين تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سنه ثمان

سنين ، وأنه حين تبناه طاف به على حلق قريش يقول : هذا ابنى وارثا وموروثا ، ويشهدهم على ذلك ، وكان الرجل فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول ، دمى دمك ، وهدمى هدمك ، وثأرى ثأرك ، وحربى حربك ، وسلمى سلمك ، ترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف : أى من حالفه ، فنسخ ذلك ، وهذا الذى ذكره ابن عبد البر من أنه صلى الله عليه وسلم حين تبناه كان عمره ثمان سنين يدل على أن ذلك كان عقب ملكه صلى الله عليه وسلم له قبل الوحى ، وأن ذلك كان قبل مجيء أبيه وعمه ، وحينئذ يكون عتقه وتبنيه بعد مجيء أبيه وعمه إظهارا لما تقدم فليتأمل .

وفى أسد الغابة أن حارثة أسلم. وفى كلام بعضهم: لم يثبت إسلام حارثة إلا المنذرى .

ولما تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا كان يقال له زيد بن محمد ، ولم يذكر فى القرآن من الصحابة أحد باسمه إلا هو كما سيأتى . قال ابن الجوزى : إلا ما يروى فى بعض التفاسير أن السجلّ الذى فى قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتب) اسم رجل كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم [ ] .

أى وقد أبدى السهيلى حكمة لذكر زيد باسمه فى القرآن ، وهى أنه لما نزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) وصار يقال له زيد بن حارثة ولا يقال له زيد بن محمد ، ونزع منه هذا التشريف شرفه الله تعالى بذكر اسمه فى القرآن دون غيره من الصحابة ، فصار اسمه يتلى فى المحاريب .

ولا يخفى أنه يأتى فى زيد ما تقدم فى على ، ولم تذكر فى القرآن امرأة باسمها إلا مريم ولزيد أخ اسمه جبلة أسنّ منه .

سئل جبلة : من أكبر أنت أم زيد ؟ فقال زيد: أكبر منى وأنا ولدت قبله : أى لأن زيدا أفضل منه لسبقه للإسلام .

ثم أسلم من الصحابة أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه . قال بعضهم فى سبب إسلامه ، إنه كان صديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر غشيانه فى منزله ومحادثته ، وكان سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه كما تقدم ، فكان متوقعا لذلك ، فهو مع حكيم بن حزام فى بعض الأيام إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له : إن عمتك خديجة تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبىّ مرسل مثل موسى ، فانسل أبو بكر حتى أتى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن خبره ، فقص عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحي له بالرسالة ، فقال صدقت، بأبي أنت وأمي وأهل الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فيقال إنه سماه يومئذ الصديق ، وهذا السياق ربما يدل على أن إسلام أبي بكر تأخر إلى نزول (يا أيها المدثر) بعد فترة الوحي ، بناء على ما تقدم ، وكونه سماه يومئذ الصديق لاينافى ما سيأتي أنه سمى بذلك صبيحة الإسراء لما صدقه وقد كذبته قريش ، لجواز أنه لم يشتهر بذلك إلا حينئذ . .

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى (والذى جاءبالصدق وصدق به) أن الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى صدق به أبو بكر . قال : ولما سمعت خديجة مقالة أبي بكر ، خرجت وعليها خمار أحمر فقالت : الحمد لله الذى هداك يابن أبي قحافة ، واسمه عبد الله : أى سماه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسمه قبل ذلك عبد الكعبة ، فأبو بكر رضى الله تعالى عنه أول من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه، ولقبه عتيق لحسن وجهه ، أو لأنه عتق من الذم والعيب [ ] أى أو نظر إليه صلى الله عليه وسلم فقال هذا عتيق من النار ، فهو أول لقب وجد فى الإسلام .

وقيل سمته بذلك أمه لأنه كان لايعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به الكعبة ثم قالت اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لى فعاش . قيل ويدل له ماذكر بعضهم أن أمه كانت إذا هزته تقول: عتيق وما عتيق ، ذو المنظر الأنيق .

وفى كلام ابن حجر الهيتمى: وصح أن الملقب له به النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه فى بيت عائشة ، وأنه غلب عليه من يومئذ . قال : وبه يندفع أن الملقب له أبوه وزعم أنه أمه هذا كلامه ، وليتأمل قوله فى بيت عائشة مع ماتقدم وما فى كلام السهيلى .

قيل وسمى عتيقا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أسلم أنت عتيق من النار .

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه صدرا معظما فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من رؤساء قريش ومحط مشورتهم ، وكان من أعف الناس. كان رئيسا مكرما سخيا يبذل المال ، محببا فى قومه ، حسن المجالسة ، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، ومن ثم قال ابن سيرين وهو المقدم فى هذا العلم اتفاقا كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أعلم الناس بأنساب العرب .

فقد جاء عن جبير بن مطعم البالغ النهاية فى ذلك أنه قال : إنما أخذت النسب من أبى بكر لاسيما أنساب قريش ، فإنه كان أعلم قريش بأنسابها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان لايعدّ مساويهم ، فمن ثم كان محببا فيهم ، بخلاف عقيل بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان بعد أبى بكر ، أعلم قريش بأنسابها وبآبائها وما فيها من خير وشر لكن كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم ، وكان عقيل يجلس إليه فى المسجد النبوى لأخذ علم الأنساب وأيام العرب ووقائعهم .

وفى كلام بعضهم : كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم ، يستعينون به فيما يأتيهم وكانت له بمكة ضيافات لايفعلها أحد .

قال الزمخشرى : ولعله كنى بأبى بكر ، لابتكاره الخصال الحميدة ، وكان نقش خاتمه « نعم القادر الله » وكان نقش خاتم عمر رضى الله تعالى عنه « كنى بالموت واعظا ياعمر » وكان نقش خاتم عثمان « آمنت بالله مخلصا » وكان نقش خاتم علىّ « الملك لله » وكان نقش خاتم أبى عبيدة بن الجراح « الحمد لله » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة — أى وقفة وتأخر وتردد — إلا ماكان م أبى بكر » .

وفى رواية « ما كلمت أحدا فى الإسلام إلا أبى علىّ وراجعنى فى الكلام ، إلا ابن أبى قحافة فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله واستقام عليه » [ ] أى ومن ثم كان أسدّ الصحابة رأياً ، وأكملهم عقلا ، لخبر تمام « أتانى جبريل فقال لى إن الله أمرك أن تستشير أبا بكر » ونزل فيه وفى عمر (وشاورهم فى الأمر) كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه بمكان الوزير من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يشاوره فى أموره كلها .

وقد جاء « إن الله تعالى أيدنى بأربعة وزراء : اثنين من أهل السماء جبريل ومكائيل ، واثنين من أهل الأرض أبى بكر وعمر » وفى حديث رواته ثقات « إن الله يكره أن يخطأ أبو بكر » وفى رواية « إن الله يكره فى السماء أن يخطأ أبو بكر الصديق فى الأرض » .

وجاء الحسن بن على وهو صغير إلى أبى بكر وهو يخطب على المنبر ، فقال له : انزل عن مجلس أبى ، فقال : مجلس أبيك والله لامجلس أبى ، فأجلسه فى حجره وبكى ، فقال على : والله ماهذا عن رأيى ، فقال : والله ما اتهمتك .

ووقع نظير ذلك لسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه مع سيدنا الحسين ، فإنه قال له

وهو يخطب: انزل عن منبر أبي ، فقال له: منبر أبيك لامنبر أبي ، من أمرك بهذا ؟ فقام عليّ فقال له : ماأمره بهذا أحد ، ثم قال للحسين : لأوجعنك ياغدر ، فقال : لاتوجع ابن أخي ، صدق منبر أبيه .

قال : وسبب مبادرته إلى التصديق ماعلمه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، وبراهين صدق دعوته قبل دعوته ، ولرؤيا رآها قبل ذلك . رأى القمر نزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، فقصها على بعض أهل الكتاب ، فعبرها له بأنه يتبع النبي المنتظر الذى قد ظل زمانه ، وأنه يكون أسعد الناس به ، ولعل هذا الذى من أهل الكتاب هو بحيرا . فقد رأيت أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى رؤيا فقصها على بحيرا ، فقال له : إن صدقت رؤياك فإنه سيبعث نبى من قومك تكون أنت وزيره فى حياته ، وخليفته بعد مماته .

أى وأخرج أبو نعيم عن بعض الصحابة أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة : أى علم أنه النبي المنتظر ، لما مر عن بحيرا الراهب ، ولما سمعه من شيخ عالم من الأزد قد قرأ الكتب نزل به فى اليمن ، فقال له أحسبك حرميا ، فقال أبو بكر نعم ، فقال له أحسبك قرشيا ، قال نعم ، فقال له أحسبك تيميا ، قال نعم قال له : بقيت لى فيك واحدة ، قال وما هى ؟ قال له : تكشف لى عن بطنك ، فقال له لاأفعل أو تخبرنى لم ذلك ؟ فقال : أجد فى العلم النجيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم يعاون على أمره فتى وكهل . فأما الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات ، وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة : أى مع كونه حرميا قرشيا تيميا ، بدليل قوله أحسبك حرميا أحسبك قرشيا أحسبك تيميا ، وما عليك أن ترينى ماسألتك ، فقد تكاملت فيك الصفة : أى كونه حرميا قرشيا تيميا أبيض نحيفا إلا ماخفى علىّ ، فقال أبو بكر فكشفت له عن بطنى فرأى شامة بيضاء أو سوداء فوق سرتى ، أى ورأى العلامة على الفخذ الأيسر ، فقال أنت هو ورب الكعبة ، قال أبو بكر : فلما قضيت أربى من اليمن أتيته لأودعه ، فقال : أحافظ عنى أبياتاً من الشعر قلتها فى ذلك النبى ؟ قلت نعم ، فذكر له أبياتاً ، قال أبو بكر : فقدمت مكة وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم فجاءنى صناديد قريش كعقبة بن أبى معيط وشيبة بن ربيعة وأبى جهل وأبى البخترى ، فقالوا ياأبا بكر يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى ، ولولا انتظارك ماانتظرنا به ، فإذا قد جئت فأنت الغاية

والكفاية : أى لأن أبا بكر كما تقدم كان صديقا له صلى الله عليه وسلم ؛ قال أبو بكر : فضرفتهم على أحسن شىء ثم جئته صلى الله عليه وسلم فقرعت عليه الباب فخرج إلىّ وقال لى : ياأبا بكر إنى رسول الله إليك وإلى الناس كلهم ، فآمن بالله ، فقلت : وما دليلك على ذلك ؟ قال : الشيخ الذى أفادك الأبيات ، فقلت : ومن أخبرك بهذا ياحبيبى ؟قال : الملك العظيم الذى يأتى الأنبياء قبلى ، قلت مدّ يدك فأنا أشهد أن لاإله إلا الله وأنك رسول الله ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : فانصرفت وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى. وفى لفظ :أشد سرورا منى بإسلامى، ولا مانع من صدور الأمرين منه رضى الله تعالى عنه .

ويحتاج للجمع بين هذا وبين ماتقدم من أنه كان مع حكيم بن حزام يوما إلى آخره على تقدير صحة الروايتين ، وما جاء من شعر حسان رضى الله تعالى عنه من أن أبا بكر أول الناس إسلاما حيث يقول فيه «وأول الناس منهم صدق الرسلا» وأنه صلى الله عليه وسلم سمع ذلك منه ولم ينكره، بل قال: صدقت ياحسان كما سيأتى عند الكلام على الهجرة .

وقول بعض الحفاظ إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه أول الناس إسلاما هو المشهور عند الجمهور من أهل السنة لاينافى ماتقدم من أن عليا أول الناس إسلاما بعد خديجة ، ثم مولاه زيد بن حارثة ، لأن المراد أول رجل بالغ ليس من الموالى أسلم أبو بكر .

أى وعبارة ابن الصلاح والأورع أن يقال : أول من أسلم من الرجال الأحرار . أى غير الموالى أبو بكر ، ومن الصبيان علىّ ومن النساء خديجة ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، وهذا وما قبله يدل على أن إسلام زيد بن حارثة كان بعد البلوغ ، وإلا فلاحاجة لزيادة «ليس من الموالى» تأمل .

أو أن مراد من قال إن أبا بكر سبق عليا فى الإسلام : أى فى إظهار الإسلام ، لأنه حين أسلم أظهر إسلامه بخلاف علىّ ، فقد جاء عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : إن أبا بكر رضى الله عنه سبقنى إلى أربع وعدّ منها إظهار الإسلام وقال وأنا أخفيته ، ولعله لاينافى ذلك ما جاء بسند حسن أن أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب ، لأن ذلك كان عند اختفائه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه فى دار الأرقم كما سيأتى ، فالأولية فى إظهار الإسلام إضافية .

قال ابن كثير : وورد عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : أنا أول من أسلم ،

ولا يصح إسناد ذلك إليه . قال وقد روى فى هذا المعنى أحاديث أوردها ابن عساكر كثيرة منكرة كلها لايصح شيء منها هذا كلامه . وعلى تقدير صحتها مراده أول من أسلم من الصبيان ؟ فالأولية إضافية .

ومما يؤثر عن على رضى الله تعالى عنه : لاتـكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم . البشاشة فخ المودة ، والصبر قبر العيوب ، والغالب بالظلم مغلوب ، العجب ممن يدعو ويستبطىء الإجابة وقد سد طرقها بالمعاصى .

وأول من أسلم من النساء بعد خديجة رضى الله تعالى عنها أم الفضل زوج العباس ؛ وأسماء بنت أبى بكر ، وأم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب .

وينبغى أن تـكون أم أيمن سابقة فى الإسلام على أم الفضل على ماتقدم . وقول السراج البلقينى موافقة للزين العراقى : إن أول رجل أسلم ورقة بن نوفل ، لقوله للنبى صلى الله عليه وسلم أنا أشهد أنك الذى بشر بك عيسى ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل قد علمت مافيه ، وأنه إنما كان من أهل الفترة كما صرح به الحافظ الذهبى ، وهو يرد القول المتقدم بأن وفاة ورقة تأخرت عن البعثة ، فورقة ونحوه كبحيرا ونسطورا من أهل الفترة لامن أهل الإسلام . ويؤيده ماتقدم أنه بإجماع المسلمين لم يتقدم خديجة فى الإسلام لارجل ولا امرأة ، لكن هؤلاء من القسم الذى تمسك بدين قبل نسخه وآمن وصدق بأنه صلى الله عليه وسلم الرسول المنتظر ، وذلك نافع له فى الآخرة . ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لما توفى ورقة « لقد رأيت القس — يعنى ورقة — فى الجنة وعليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى » إلى آخر ماتقدم .

وعلى تسليم أنه لايشترط فى المسلم : أن يؤمن ويصدق برسالته صلى الله عليه وسلم بعد وجودها ، بل يكفى ولو قبل ذلك ، فليس ورقة بصحابى لأن الصحابى من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة مؤمنا بما جاء به عن الله تعالى : أى محكوما بإيمانه .

ومن ثم رد الحافظ الذهبى على ابن منده أى ومن وافقه كالزين العراقى فى عده له من الصحابة : أى كما عد منهم بحيرا ونسطورا بقوله : الأظهر أن من مات بعد النبوة وقبل الرسالة فهو من أهل الفترة هـــذا كلام الحافظ الذهبى . والمراد بالرسالة نزول (ياأيها المدثر) لالإظهارها ، ونزول قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) بناء على تأخر الرسالة عن النبوة .

وحين أسلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه دعا إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من وثق به من قومه . فأسلم بدعائه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس .

أى ولما أسلم عثمان رضى الله تعالى عنه أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية والد مروان فأوثقه كتافا وقال : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ماأنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه ؛ وقيل عذبه بالدخان ليرجع فما رجع .

وفى كلام ابن الجوزى أن المعذب بالدخان ليرجع عن الإسلام الزبير بن العوام هذا كلامه ، ولا مانع من تعدد ذلك . وجاء « لكل نبى رفيق فى الجنة ، ورفيقى فيها عثمان ابن عفان » .

وأسلم بدعاء أبى بكر أيضا الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه وكان عمره ثمان سنين على ماتقدم . وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه : أى وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبد الكعبة ، وقيل عبد الحارث ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن قال : وكان أمية بن خلف لى صديقا ، فقال لى يوما : أرغبت عن اسم سماك به أبواك ؟ فقلت نعم ، فقال لى : إنى لاأعرف الرحمن ولكن أسميك بعبد الإله ، فكان ينادينى بذلك .

قال : وسبب إسلام عبد الرحمن بن عوف ماحدث به قال : سافرت إلى اليمن غير مرة وكنت إذا قدمت نزلت على عسكلان بن عواكف الحميرى ، فكان يسألنى هل ظهر فيكم رجل له نبأ له ذكر ؟ هل خالف أحد منكم عليكم فى دينكم؟ فأقول لاحتى كانت السنة التى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت اليمن فنزلت عليه إلى آخر القصة .

وعن على رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعبد الرحمن بن عوف « أنت أمين فى أهل الأرض أمين فى أهل السماء » وجاء « أنه وصفه بالصادق الصالح البار » .

وأسلم بدعاية أبى بكر رضى الله تعالى عنه أيضا سعد بن أبى وقاص : أى فإن أبا بكر لما دعاه إلى الإسلام لم يبعد ، وأتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن أمره فأخبر به [ ] فأسلم وكان عمره تسع عشرة سنة ، وهو رضى الله تعالى عنه من بنى زهرة ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليه « سعد خالى فليرنى امرؤ خاله » .

وفى كلام السهيلى أنه عم آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرهت أمه إسلامه وكان بارا بها ، فقالت له : ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الولدين؟ قال : فقلت نعم ، فقالت : والله لا أكلت طعاما ولا شربت شراباً حتى تكفر بما جاء به محمد : أى وتمس إسافاً ونائلة ، فكانوا يفتحون فاها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فأنزل الله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) الآية ، وفى رواية أنها مكثت يوما وليلة لاتأكل ، فأصبحت وقد خمدت ثم مكثت يوما وليلة لاتأكل ولا تشرب . قال سعد: فلما رأيت ذلك قلت لها: تعلمين والله ياأمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ماتركت دين هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلى إن شئت أو لاتأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت .

وفى الأنساب للبلاذرى عن سعد قال : أخبرت أمى أنى كنت أصلى العصر : أى الركعتين اللتين كانوا يصلونهما بالعشى فجئت فوجدتها على بابها تصيح: ألا أعوان يعينونى عليه من عشيرتى أوعشيرتى فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟ فرجعت من حيث جئت ، وقلت : لاأعود إليك ولا أقرب منزلك فهجرتها حينا ، ثم أرسلت إلىّ أن عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار فرجعت إلى منزلى ، فمرة تلقانى بالبشر ومرة تلقانى بالشر وتعيرنى بأخى عامر وتقول : هو البر لايفارق دينه ، ولا يكون تابعا ، فلما أسلم عامر لقى منها مالم يلق أحد من الصياح والأذى حتى هاجر إلى الحبشة، ولقد جئت والناس مجتمعون على أمى وعلى أخى عامر فقلت : ماشأن الناس ؟ فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامرا ، وهى تعطى الله عهدا لا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شراباً حتى يدع صبأته ؛ فقلت لها : والله ياأمه لاتستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن أبى وقاص أن يأتى الحارث بن كلدة طبيب العرب ليستوصفه فى مرض نزل بسعد وكان ذلك فى حجه الوداع ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود عبدالرحمن بن عوف لمرض نزل به فوجد عند الحارث ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : إنى لأرجو أن يشفيك الله حتى يضرّ بك قوم وينتفع بك آخرون ، ثم قال للحارث بن كلدة عالج سعدا مما به وكان سعد بالمجلس ، فقال : والله إنى لأرجو شفاءه فيما ينفعه من رجله ، هل معك من هذه الثمرة العجوة شىء ؟ قال نعم ، فخلط ذلك الثمر بحلبة ثم أوسعها سمنا ثم أحساه إياها فكأنما نشط من عقال » وهذا استدل

به على إسلام الحارث بن كلدة ، لأن حجة الوداع لم يحج فيها مشرك ، فهو معدود من الصحابة . وأنكر بعضهم إسلامه وجعله دليلا على جواز استشارة أهل الكفر فى الطب إذا كانوا من أهله .

وممن أسلم بدعاية أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أيضا طلحة بن عبدالله التيمى فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجاب له فأسلم .

أى ولما تظاهر أبو بكر وطلحة بالإسلام أخذهما نوفل بن العدوية ، وكان يدعى أسد قريش فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم ، ولذلك سمى أبوبكر وطلحة القرينين ولشدة ابن العدوية وقوة شكيمته كان صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم اكفنا شر ابن العدوية » .

أقول : سبب إسلام طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه ما تقدم أنه قال : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم هل ثم من أهل الحرم أحد ؟ فقلت : نعم أنا ، قال : هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى أرض ذات نخل وسباخ ، فإياك أن تسبق إليه ؛ قال طلحة : فوقع فى قلبى ما قال ، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث؟ قالوا : نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله ، وقد تبعه ابن أبى قحافة ، فخرجت حتى دخلت على أبى بكر رضى الله تعالى عنه فأخبرته بما قال الراهب ، فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فسرّ بذلك وأسلم طلحة .

وطلحة هذا هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقد شاركه رجل آخر فى اسمه واسم أبيه ونسبه ؛ وهو طلحة بن عبيد الله التيمى ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه) الآية ، لأنه قال لئن مات محمد رسول الله لأتزوّجن عائشة . وفى لفظ يتزوّج محمد بنات عمنا ويحجبهنّ عنا ، لئن مات لأتزوجن عائشة من بعده ، فنزلت الآية .

قال الحافظ السيوطى : وقد كنت فى وقفة شديدة من صحة هذا الخبر ، لأن طلحة أحد العشرة أجلّ مقاما من أن يصدر عنه ذلك ، حتى رأيت أنه رجل آخر شاركه فى اسمه واسم أبيه ونسبه هذا كلامه .

والحاصل أن أبا بكر أسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنة ، وهم : عثمان وطلحة بن عبيد الله ، ويقال له طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وزاد بعضهم سادسا ، وهو أبو عبيدة بن الجراح وكان كل من أبي بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بزازا ، وكان الزبير جزارا ، وكان سعد بن أبي وقاص يصنع النبل ، والله أعلم ، ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء .

وذكر فى الأصل جماعة من السابقين للإسلام منهم عبد الله بن مسعود وأن سبب إسلامه ماحدث به ، قال « كنت فى غنم لآل عقبة بن أبي معيط ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر بن أبي قحافة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل عندك لبن ؟ فقلت نعم ولكنى مؤتمن ، قال : هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل ؟ قلت نعم فأتيته بشاة شصوص لاضرع لها فسح النبى صلى الله عليه وسلم مكان الضرع فإذا ضرع حافل مملوء لبنا » كذا فى الأصل . وفى الصحاح كما فى النهاية الشصوص التى ذهب لبنها ، وحينئذ يكون قول الأصل لاضرع لها ، أى لا لبن لها ، ويدل لذلك قول ابن حجر الهيتمى فى شرح الأربعين « فسح ضرعها » وقول ابن مسعود فسح مكان الضرع ، أى محل اللبن « فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم بصخرة منقورة فاحتلب النبى صلى الله عليه وسلم فسقى أبا بكر وسقانى ، ثم شرب ، ثم قال للضرع : اقلص فرجع كما كان » أى لا وجود له على ظاهر ما فى الأصل ، أو لا لبن فيه على ما فى النهاية كالصحاح ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

ورب عناق مانزا الفحل فوقها مسحت عليها باليمين فدرّت

قال ابن مسعود : فلما رأيت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يارسول الله علمنى ، فسح رأسى وقال : «بارك الله فيك فإنك غلام معلم » .

أقول : فإن قيل قول ابن مسعود ولكنى مؤتمن ، وعدوله صلى الله عليه وسلم عن ذات اللبن إلى غيرها يخالف ما سيأتى فى حديث المعراج والهجرة أن العادة كانت جارية بإباحة مثل ذلك اللبن لابن السبيل إذا احتاج إلى ذلك ، فكان كل راع مأذونا له فى ذلك وإذا كان ذلك أمرا متعارفا مشهورا يبعد خفاؤه .

قلنا : قد يقال لامخالفة لأن ابن السبيل المسافر ، وجاز أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم

وأبو بكر رضى الله تعالى عنه لم يكونا مسافرين ، لجواز أن تكون تلك الغنم التى كان فيها ابن مسعود ببعض نواحى مكة القريبة منها ، التى لا يعدّ قاصدها مسافرا ، ولعله لا ينافى ذلك ما سيأتى أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أبيح له أخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج صلى الله عليه وسلم إليهما ، وأنه يجب على مالكهما بذل ذلك له .

وكان عبد الله بن مسعود يعرف بأمه وهى أم عبد ، وكان قصيرا جدا طوله نحو ذراع خفيف اللحم ، ولما ضحكت الصحابة رضى الله تعالى عنهم من دقة رجليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لرجل عبد الله فى الميزان أثقل من أحد » وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه « رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد ، وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد »

وقوله « لرجل عبد الله فى الميزان » يدل للقول بأن الموزون الإنسان نفسه لا عمله ، وكان صلى الله عليه وسلم يكرمه ويدنيه ولا يحجبه ، فلذلك كان كثير الولوج عليه صلى الله عليه وسلم ، وكان يمشى أمامه صلى الله عليه وسلم ومعه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ، فإذا جلس أدخلهما فى ذراعيه ، ولذلك كان مشهورا بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم بأنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولم أقف على أنه أسلم حين أجفلت الشاة ؛ لكن قول العلامة ابن حجر الهيتمى فى شرح الأربعين : أسلم قديما بمكة لما مرّ به صلى الله عليه وسلم وهو يرعى غنما إلى آخره ، يدل على أنه أسلم حينئذ . ومما يؤثر عنه : الدنيا كلها هموم ، فما كان فيها من سرور فهو ربح ، والله أعلم .

وذكر فى الأصل أن من السابقين أباذر الغفارى ، واسمه جندب بن جنادة بضم الجيم فيهما قال : وسبب إسلامه ما حدث به قال : صليت قبل أن ألقى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين لله أتوجه حيث يوجهنى ربى ، فبلغنا أن رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبى فقلت لأخى أنيس انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتنى بخبره ، فلما جاء أنيس قلت له : ما عندك فقال : والله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن الشر ، وفى رواية : رأيتك على دينه يزعم أن الله أرسله ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، قلت فما يقول الناس فيه ؟ قال : يقولون شاعر كاهن ساحر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ، فقلت اكفنى حتى أذهب فأنظر ، قال نعم وكن على حذر من أهل مكة ، فحملت جرابا وعصا ثم

أقبلت حتى أتيت مكة ، فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه ، فمكثت فى المسجد ثلاثين ليلة ويوما ، وما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى ، وما وجدت على بطنى سخنة جوع . والسخنة : بالتحريك ، قيل حرارة يجدها الإنسان من الجوع ، فنى ليلة لم يطف بالبيت أحد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه جاءا فطافا بالبيت ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى صلاته أتيته ، فقلت : السلام عليك يارسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار فى وجهه ثم قال من الرجل ؟ قلت من غفار بكسر المعجمة قال : متى كنت ؟ قال : كنت من ثلاثين ليلة ويوما ههنا ، قال : فمن كان يطعمك قلت ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى ، وما أجد على بطنى سخنة جوع قال « مبارك ، إنها طعام طعم وشفاء سقم » أى وجاء « ماء زمزم لما شرب له ، إن شربته لتشفى شفاك الله ، وإن شربته لتشبع أشبعك الله ، وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه الله ، وهى هزمة جبريل ، وسقيا الله إسمعيل » وجاء « التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق » وجاء « آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لايتضلعون من ماء زمزم » .

وذكر أن أبا ذر أول من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك التى هى تحية الإسلام ، فهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام ، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يأخذه فى الله لومة لائم ، وعلى أن يقول الحق ولوكان مرا ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ماأظلت الخضراء » أى السماء «ولاأقلت الغبراء » أى الأرض « أصدق من أبى ذر » وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه « أبو ذر يمشى فى الأرض على زهد عيسى ابن مريم » وفى الحديث « أبو ذر أزهد أمتى وأصدقها » وقد هاجر أبو ذر إلى الشام بعد وفاة أبى بكر ، واستمر بها إلى أن ولى عثمان ، فاستقدمه من الشام لشكوى معاوية منه وأسكنه الربذة ، فكان بها حتى مات ، فإن أبا ذر صار يغلظ القول لمعاوية ويكلمه بالكلام الخشن .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن لقيا أبى ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان بدلالة علىّ رضى الله تعالى عنه ، وأنه قال له : ماأقدمك هذه البلدة ، فقال له أبو ذر : إن كتمت علىّ أخبرتك » وفى رواية « إن أعطيتنى عهدا وميثاقا أن ترشدنى أخبرتك ، ففعل قال أبو ذر : فأخبرته فأرشدنى وأوصلنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلمت » .

وفى الإمتاع « أن عليا استضاف أبا ذر ثلاثة أيام لا يسأله عن شيء وهو لا يخبره ، ثم فى الثالث قال له : ماأمرك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال له : إن كتمت على أخبرتك قال : فإنى أفعل ، قال له : بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبى، فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردت أن ألقاه فقال له : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهى أى خروجى إليه فاتبعنى ، أدخل حيث أدخل فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى « وفى لفظ » كأنى أريق الماء فامض أنت ، قال أبو ذر : فمضى ومضيت حتى دخل ودخلت معه على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له : أعرض على الإسلام فعرضه علي فأسلمت مكانى » الحديث .

وماتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم له « من كان يطعمك » وجواب أبى ذر له صلى الله عليه وسلم بقوله : ماكان لى طعام إلا ماء زمزم يبعد أن يكون علىّ رضى الله تعالى عنه أضاف أبا ذر ولم يأكل عنده ، وكذا يبعده ماجاء أن أبا بكر قال : يارسول الله ائذن لى فى إطعامه الليلة ،قال أبو ذر : فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فانطلقت معهما ، ففتح أبو بكر بابا ، فجعل يفيض لنا من زبيب الطائف ، فكان ذلك أول طعام أكلته ، إلا أن يحمل الطعام على خصوص الزبيب .

ويمكن التوفيق بين الروايتين : أى رواية دخوله على النبى صلى الله عليه وسلم مع على فأسلم ، ورواية اجتماعه به فى الطواف فأسلم ، بأن يكون أبو ذر دخل عليه أولا مع علىّ ثم لقيه فى الطواف ، ويكون المراد حينئذ بإسلامه الثانى الثبات عليه بتكرير الشهادتين ، وعذره فى عدم اجتماعه به فى المسجد مدة ثلاثين يوما عدم خلو المطاف ، كما يرشد لذلك قوله : فى ليلة لم يطف بالبيت أحد إلى آخره ، وإلا فيبعد أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يدخل المسجد للطواف مدة ثلاثين يوما .

ويبعد هذا الجمع قوله صلى الله عليه وسلم له « من الرجل إلى آخره» ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر « ياأبا ذر اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتونى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل ، فقلت : والذى بعثك بالحق لأصرخنّ بهذا بين ظهرانيهم ، قال : وكنت فى أول الإسلام خامسا » وفى رواية « رابعا » ولعل المراد من الإعراب فلا ينافى ماياتى فى وصف خالد بن سعيد « فلما اجتمعت قريش بالمسجد ناديت بأعلى صوتى : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فضربت

لأموت » وفى لفظ « فمال علىّ أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا على فأكب علىّ العباس ، ثم قال لهم : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم عليهم ، فخلوا عنى ، قال : فجئت زمزم فغسلت عنى الدماء ، فلما أصبحت الغداة رجعت لمثل ذلك ، فصنع بي مثل ماصنع ، وأدركنى العباس ،وكان منه كالأمس ، فخرجت وأتيت أنيسا فقال ماصنعت ؟ فقلت : قد أسلمت وصدقت ،فقال : مالى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت فأتينا أمنا ، فقالت : مالى رغبة عن دينكما ، فإنى أسلمت وصدقت ثم أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلمنا ، فلما جاء المدينة أسلم نصفهم الثانى » أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر « إنى وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم، وجاءت أسلم: القبيلة المعروفة فقالوا يارسول الله نسلم على الذى أسلم عليه إخواننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » .

أى وقد ذكر أن أبا ذر وقف يوما عند الكعبة: أى فى حجة حجها أو عمرة اعتمرها فاكتنفه الناس فقال لهم : لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يعد زادا ؟ فقالوا بلى،فقال سفر القيامة أبعد مما تريدون ، فخذوا مايصلحكم ، قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصوموا يوما شديدا حره ليوم النشور ، وصلوا فى ظلمة الليل لوحشة القبور .

وممن أسلم خالد بن سعيد بن العاص رضى الله تعالى عنه . قيل كان حين أسلم رابعا وقيل ثالثا وقيل خامسا . وهو أول من أسلم من إخوته . ويمكن أن يكون ذلك محمل قول ابنته أم خالد : أول من أسلم أبى : أى من إخوته .

وسبب إسلامه أنه رأى فى النوم النار ورأى من فظاعتها وأهوالها أمرا مهولا ، ورأى أنه على شفيرها ، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بحجزته يمنعه من الوقوع فيها ، فقام من نومه فزعا وقال : أحلف بالله أن هذه الرؤيا حق وعلم أن نجاته من النار تكون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى أبا بكر فذكر له ذلك ، فقال له : أريد بك خير ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه ، فأتاه فقال يامحمد إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمدا عبده

ورسوله ، وتخلع ماأنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، فأسلم خالد .

وفى الوفاء عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت : كان خالد بن سعيد ذات ليلة نائما ، قبيل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : رأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لايبصر امرؤ كفه ، فبينما هو كذلك إذ خرج نور أى من زمزم ، ثم علا فى السماء فأضاء فى البيت ، ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى أنى لأنظر إلى اليسر فى النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد وكان جزل الرأى ، فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون فى بنى عبد المطلب ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم ثم إنه ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى بعد مبعثه ، فقال : ياخالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله ، وقص عليه ما بعثه الله به فأسلم خالد ، وعلم أبوه بذلك ؛ أبوه وهوسعيد أبوأجيحة وكان من عظماء قريش، كان إذا اعتم لم يعتم قرشى إعظاما له ، ومن ثم قال فيه القائل :

أبا أجيحة من يغتم عمته ... يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

وعند إسلام ولده خالد أرسل فى طلبه فانتهره وضربه : أى بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه ، ثم قال : اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه ، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ، فقال : والله تبعته على ما جاء به ، فغضب أبوه وقال : اذهب يالكع حيث شئت ، وقال : والله لأمنعنك القوت ، قال إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به ؛ فأخرجه وقال لبنيه ولم يكونوا أسلموا : لايكلمه أحد منكم إلا صنعت به ، فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فكان يلزمه ويعيش معه ، ويغيب عن أبيه فى نواحى مكة ، حتى خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، فكان خالد أول من هاجر إليها .

وذكر عن والده سعيد أنه مرض فقال إن رفعنى الله من مرضى هذا لايعبد إله ابن أبى كبشة بمكة أبدا ، فقال خالد عند ذلك : اللهم لاترفعه ، فتوفى فى مرضه ذلك . وخالد هذا أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم ، وأسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص رضى الله تعالى عنه .

قيل وسبب إسلامه أنه رأى نورا خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة حتى

رأى اليسر فيها ، فقص رؤياه ، فقيل له هذه بئر بنى عبد المطلب ، وهذا النور منهم يكون فكان سببا لإسلامه ، وتقدم قريبا أن هذه الرؤيا وقعت لخالد ؛ فكانت سبب إسلامه ؛ وأنه قصها على أخيه عمرو المذكور ، فهو من خلط بعض الرواة ، إلا أن يقال لا مانع من تعدد هذه الرؤية لخالد ولأخيه عمرو ، وأنها كانت سببا لإسلامهما ، وأسلم من بنى سعيد أيضا أبان والحكم الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

أى ومن السابقين للإسلام صهيب ، كان أبوه عاملا لكسرى ، أغارت الروم عليهم فسبت صهيبا وهو غلام صغير ، فنشأ فى الروم حتى كبر ، ثم ابتاعه جماعة من العرب وجاءوا به إلى سوق عكاظ ، فابتاعه منهم بعض أهل مكة ، أى وهو عبد الله بن جدعان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ صهيب على دار رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عمار بن ياسر ، فقال له عمار بن ياسر : أين تريد ياصهيب ؟ قال : أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه ، قال عمار : وأنا أريد ذلك ، فدخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام ، وتلا عليهما ما حفظ من القرآن ، فتشهدا ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى أمسيا خرجا مستخفيين ، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه أين كان ؟ فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن فى يومه ذلك ، فأعجبهما فأسلما على يده فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه الطيب المطيب .

وأسلم أيضا حصين والد عمران بن حصين رضى الله تعالى عنهما بعد إسلام والده عمران .

وسبب إسلامه أن قريشا جاءت إليه وكانت تعظمه وتجله ، فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل ، فإنه يذكر آلهتنا ويسبها ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى صلى الله عليه وسلم ودخل حصين ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أوسعوا للشيخ ، وعمران ولده فى الصحابة ، فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟ فقال : ياحصين كم تعبد من إله ؟ قال سبعة فى الأرض وواحد فى السماء ، فقال : فإذا أصابك الضرّ لمن تدعو ؟ قال الذى فى السماء ، قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال الذى فى السماء ، قال : فيستجيب لك وحده وتشرك معه ، أرضيته فى الشرك ؟ يا حصين أسلم تسلم فأسلم ، فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فبكى

صلى الله عليه وسلم وقال : بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفى حقه فدخلنى من ذلك الرقة ، فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: شيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب : أى عتبته رأته قريش، قالوا : قد صبا وتفرقوا عنه» .

باب استخفائه صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم رضى الله تعالى عنهما ودعائه صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام جهرة وكلام قريش لأبى طالب فى أن يخلى بينهم وبينه ، وما لقى هو وأصحابه من الأذى وإسلام عمه حمزة رضى الله تعالى عنه

عن ابن اسحاق أن مدة ماأخفى صلى الله عليه وسلم أمره : أى المدة التى صار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول (ياأيها المدثر) ثلاث سنين : أى فكان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفى بصلاته من المشركين : أى كما تقدم ، فبينما سعد ابن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجه ، فهو أول دم أهريق فى الإسلام ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم وأصحابه مستخفين فى دار الأرقم : أى بعد هذه الواقعة ، فإن جماعة أسلموا قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، ودار الأرقم هى المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا ، اشتراها الخليفة المنصور وأعطاها ولده المهدى ، ثم أعطاها المهدى للخيزران أم ولديه موسى الهادى وهرون الرشيد ، ولا يعرف امرأة ولدت خليفتين إلا هذه ، وولادة جارية عبد الملك بن مروان ، فإنها [أم الوليد وسليمان] .

وقد روت الخيزران عن زوجها المهدى عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضى الله

تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اتقى الله وقاه كل شىء » .

فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقيمون الصلاة بدار الأرقم، ويعبدون الله تعالى فيها إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين :

أى وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم استمر مستخفيا هو وأصحابه فى دار الأرقم إلى أن أظهر الدعوة ، وأعلن صلى الله عليه وسلم فى السنة الرابعة : أى وقيل مدة استخفائه صلى الله عليه وسلم أربع سنين وأعلن فى الخامسة . وقيل أقاموا فى تلك الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون . وقد يقال الإقامة شهرا مخصوصة بالعدد المذكور ، فلا منافاة ، وإعلانه صلى الله عليه وسلم كان فى الرابعة أو الخامسة بقوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وبقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى أظهر ماتؤمر به من الشرائع ، وادع إلى الله تعالى ، ولاتبال بالمشركين ، وخوّف بالعقوبة عشيرتك الأقربين وهم بنو هاشم وبنو المطلب : أى وبنو عبد شمس وبنو نوفل أولاد عبد المطلب بدليل مايأتى . قال بعضهم : آية (فاصدع بما تؤمر) اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها .

وقال بعضهم : إنما أمر بالصدع لغلبة الرحمة عليه صلى الله عليه وسلم . قال : ذكر بعضهم أنه لما نزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) اشتدّ ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وضاق به ذرعا : أى عجز عن احتماله [ ] فمكث شهرا أو نحوه جالساً فى بيته حتى ظن عماته أنه شاك : أى مريض،فدخلن عليه عائدات ، فقال صلى الله عليه وسلم « ماشتكيت شيئا لكن الله أمرنى بقوله (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى،قلن : فادعهم ولا تجعل عبد العزى فيهم،يعنين عمه أبا لهب ، فإنه غير مجيبك إلى ماتدعوه إليه، وخرجن من عنده صلى الله عليه وسلم : أى وكنى عبد العزى بأبى لهب لجمال وجهه ونضارة لونه كأن وجهه وجبينه ووجنتيه لهب النار : أى خلافا لما زعمه بعضهم أن ولده عقير الأسد أو ولد آخر غيره كان اسمه لهبا.

قال فى الإتقان: ليس فى القرآن من الكنى غير أبى لهب ولم يذكر اسمه وهو عبد العزى أى الصنم ، لأنه حرام شرعا، هذا كلامه وفيه أن الحرام وضع ذلك لا استعماله .

وفى كلام بعضهم مايفيد أن الاستعمال حرام أيضا إلا أن يشتهر بذلك كما فى الأوصاف المنقصة كالأعمش .

وفى كلام القاضى : وإنما كناه والكنية تكرمة أى بالعدول عن الاسم إليها لاشتهاره بكنيته ، ولأن اسمه عبد العزى الذى هو الصنم فاستكره ذكره ، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله فى الآخرة ، فهى كنية تفيد الذم .

فاندفع مايقال هذا يخالف قولهم ولا يكنى كافر وفاسق ومبتدع إلا لخوف فتنة أو تعريف ، لأن ذلك خاص بالكنية التى تفيد المدح لا الذم ولم يشتهر بها صاحبها .

قال : فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بنى عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب ، فلما أخبرهم بما أنزل الله عليه أسمعه مايكره ، قال : تبا لك ، ألهذا جمعتنا : أى وأخذ حجرا ليرميه به ، وقال له : مارأيت أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بأشرّ ماجئتهم به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فى ذلك المجلس انتهى .

أى وفى الامتاع : أن أبا لهب ظن أنه صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزع عما يكرهون إلى مايحبون ، فقال له هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك ، فتكلم بما تريد واترك الصبأة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك ، فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فما رأيت ياابن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر ماجئتهم به ، وعند ذلك أنزل الله تعالى (تبت) أى خسرت وهلكت (يدا أبى لهب وتب) أى خسر وهلك بجملته : أى والمراد بالأول جملته ، عبر عنها باليدين مجازا ، والمراد به الدعاء ، وبالثانى الخبر على حد قولهم : أهلكه الله وقد هلك .

أى ولما قال أبو لهب عند نزول (تبت يدا أبى لهب وتب) إن كان مايقوله محمد حقا افتديت منه بمالى وولدى نزل (ماأغنى عنه ماله وما كسب) أى وأولاده ، لأن الولد من كسب أبيه : أى وفى رواية وهى فى الصحيحين « أنه دعا قريشا فاجتمعوا ، فخص وعم فقال : يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار : أى وفيه أنه إنما أمر بالإنذار لعشيرته الأقربين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى زهرة أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة أنقذى نفسك من النار ، ياصفية عمة محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا » وفى لفظ « لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من

الآخرة نصيبا ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله : أى لا تبقوا على كفركم إتكالا على قرابتكم منى » فهو حث لهم على صالح الأعمال ، وترك الاتكال « غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها» أى أصلها بالدعاء : أى والبلال بالفتح كقطام مايبل الحلق من الماء أو اللبن ، وبل رحمه إذا وصلها. وبلوا أرحامكم : ندّوها بالصلة ، وفى الحديث « بلوا أرحامكم ولو بالسلام » أى صلوها : أى وقد ذكر أئمتنا ضابط الصلة .

وفى تخصيصه صلى الله عليه وسلم فاطمة من بين بناته مع أنها أصغرهن ، وقيل أصغر بناته رقية . وتخصيصه صلى الله عليه وسلم صفية من بين عماته حكمة لا تخفى . ومن الغريب مافى الكشاف من زيادة « ياعائشة بنت أبى بكر ، ياحفصة بنت عمر » .

وعندى أن ذكر عائشة وحفصة بل وفاطمة هنا من خلط بعض الرواة ، وأن هذا ذكره صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فذكره بعض الرواة هنا ، فإن المراد بالإنقاذ من النار الإتيان بالإسلام ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « إلى أن تقولوا لا إله إلا الله » مع أنه تقدم أن بناته عليه الصلاة والسلام لم يكن كفارا فليتأمل .

ثم مكث صلى الله عليه وسلم أياما ونزول عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى ، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وخطبهم ثم قال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا ؛ والله يابنى عبد المطلب ماأعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ؟ إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » فتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب ، فإنه قال : يابنى عبد المطلب هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم ، فقالت له أخته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله تعالى عنها : أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ — أى أصل — عبد المطلب نبى فهو هو ، قال : هذا والله الباطل والأمانى ، وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ، فوالله مانحن عندهم إلا أكلة رأس ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنه مابقينا ثم دعا النبى صلى الله عليه وسلم جميع قريش وهو قائم على الصفا ، وقال : « إن أخبرتكم

أن خيلا تخرج من سنح — بالنون والحاء المهملة — أى أصل، وفى لفظ: سفح بالفاء والحاء المهملة — هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبونى؟ قالوا: ماجر بنا عليك كذبا، فقال: يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، إنى لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد»، أى وفى لفظ «إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف ياصباحاه ياصباحاه أتيتم أتيتم».

ومن أمثاله صلى الله عليه وسلم «أنا النذير العريان» أى الذى ظهر صدقه، من قولهم: عرى الأمر، إذا ظهر، وقولهم: الحق عار: أى ظاهر، وقيل الذى جرده العدو فأقبل عريانا ينذر بالعدو، وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل.

واختلفت الروايات فى محل وقوفه. ففى رواية «وقف على الصفا» كما تقدم، وفى رواية «وقف على أضمة من جبل فعلا أعلاها حجرا يهتف: ياصباحاه، فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا محمد فاجتمعوا إليه، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا» الحديث وفى رواية «صاح على أبى قبيس: ياآل عبدمناف إنى نذير» وروى أنه لما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع بنى عبد المطلب فى دار أبى طالب وهم أربعون» وفى الإمتاع خمسة وأربعون رجلا وامرأتان، فصنع لهم علىّ طعاما: أى رجل شاة مع مدّ من البر وصاعا من لبن، فقدّمت لهم الجفنة، وقال كلوا بسم الله، فأكلوا حتّى شبعوا، وشربوا حتى نهلوا. وفى رواية «حتّى رووا» وفى رواية «قال ادنوا عشرة عشرة فدنا القوم عشرة عشرة، ثم تناول القعب الذى فيه اللبن فجرع منه ثم ناولهم، وكان الرجل منهم يأكل الجذعة» وفى رواية «يشرب العس من الشراب فى مقعد واحد» فقهرهم ذلك، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم بدره أبو لهب بالكلام، فقال: لقد سحركم صاحبكم سحرا عظيما. وفى رواية: محمد، وفى رواية: مارأينا كالسحر اليوم، فتفرقوا ولم يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان الغد قال: «ياعلىّ عد لنا بمثل ماصنعت بالأمس من الطعام والشراب، قال علىّ: ففعلت، ثم جمعتهم له صلى الله عليه وسلم فأكلوا حتّى شبعوا وشربوا حتى نهلوا، ثم قال لهم: يابنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة، وبعثنى إليكم خاصة، فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين) وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان، شهادة أن لا إله

إلا الله وأنى رسول الله ، فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويوازرنى — أى يعاونى — على القيام به؟ قال علىّ: أنا يارسول الله، وأنا أحدثهم سنا وسكت القوم » زاد بعضهم فى الرواية «يكن أخى ووزيرا ووارثى وخليفتى من بعدى، فلم يجبه أحد منهم ، فقام علىّ وقال أنا يارسول الله ، قال اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا ، فقام علىّ وقال أنا يارسول الله ؛ فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم ، فقام علىّ فقال: أنا يارسول الله ، فقال اجلس فأنت أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى » .

قال الإمام أبو العباس بن تيمية أى فى الزيادة المذكورة أنها كذب وحديث موضوع من له أدنى معرفة فى الحديث يعلم ذلك ، وقد رواه : أى الحديث مع زيادته المذكورة ابن جرير والبغوى باسناد فيه أبو مريم الكوفى وهو مجمع على تركه . وقال أحمد: إنه ليس بثقة ، عامة أحاديثه بواطيل وقال ابن المدينى : كان يضع الحديث ، وفى رواية عن علىّ رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خديجة فصنعت له طعاما ، ثم قال لى ادع لىْ بنى عبد المطلب ، فدعوت أربعين رجلا » الحديث ، ولا مانع من تكرر فعل ذلك ويجوز أن يكون علىّ فعل ذلك عند خديجة وجاء به إلى بيت أبى طالب ،ولعل جمعهم هذا كان متأخرا عن جمعهم مع غيرهم المتقدم ذكره ويشهد له السياق ، فعل ذلك حرصا على إسلام أهل بيته ، فلما دعا قومه ولم يردوا عليه ولم يجيبوه: أى وفى رواية: صار كفار قريش غير منكرين لما يقول فكان صلى الله عليه وسلم إذ مرّ عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه إن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء ، وكان ذلك دأبهم حتى عاب آلهتهم : أى وسفه عقولهم وضلل آباءهم : أى حتى أنه مر يوما وهم فى المسجد الحرام يسجدون للأصنام ، فقال « يامعشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم ، فقالوا إنما نعبد الأصنام حبا لله لتقربنا إلى الله فأنزل الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)» فتناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم ، وجاءوا إلى أبى طالب وقالوا: ياأبا طالب إن ابن أخيك قدسبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا أى عقولنا ، ينسبنا إلى قلة العقل ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر دين الله ويدعو إليه لايرده عن ذلك شيء ، وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

ثم قام النبي يدعو إلى الله　　وفى الكفر شـدة وإباء

أمما أشربت قلوبهم الكفـ　　ر فداء الضلال فيهم عياء

أى ثم قام صلى الله عليه وسلم يدعو جماعاتهم إلى الله تعالى بأن يقولوا لاإله إلا الله حسبما أمر ، فقد جاء أن جبريل تبدى له صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وأطيب رائحة وقال : يامحمد إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أنت رسول الله إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول لاإله إلا الله فدعاهم والحال أن فى أهل الكفر قوة تامة وامتناعا عن اتباعه ، اختلط الكفر بقلوبهم وتمكن فيها حبه حتى صارت لاتقبل غيره ، وبسبب ذلك صار داء الضلال : أى داء هو الضلال فيهم عضال يعيي الأطباء مداواته وحصول شفائه ، ثم شرى الأمر — أى بالشين المعجمة وكسر الراء وفتح المثناة تحت — كثر وتزايد وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وتضاغنوا: أى أضمروا العداوة والحقد وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وتذامروا عليه — بالذال المعجمة — وحض أى حث بعضهم بعضا عليه أى على حربه وعداوته ومقاطعته ، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : ياأبا طالب إن لك سنا وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا : أى عقولنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بأن يخذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ياابن أخي ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ماتركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى حصلت له العبرة التى هى دمع العين فبكى، ثم قام » فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخي ، فأقبل عليه ، فقال اذهب ياابن أخي فقل ماأحببت ، فوالله لاأسلمك وأنشد أبياتاً منها :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم　　حتى أوسد فى التراب دفينا

وحكمة تخصيص الشمس والقمر بالذكر وجعل الشمس فى اليمين والقمر فى اليسار لاتخفى ؛ لأن الشمس النير الأعظم واليمين أليق به ، والقمر النير الممحو واليسار أليق به

وخص النيرين حيث ضرب المثل بهما لأن الذى جاء به نور ، قال تعالى (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره) .

ومن غريب التعبير أن رجلا كان عاملا لسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فقال لسيدنا عمر : إنى رأيت فى المنام كأن الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما نجوم فقال له عمر : مع أيهما كنت ؟ قال مع القمر ، قال : كنت مع الآية الممحوة ، اذهب فلا تعمل لى عملا ؟ فاتفق أن هذا الرجل كان مع معاوية يوم صفين وقتل ذلك اليوم .

فلما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد — أى أشد — وأقوى فتى فى قريش وأجمله ، فخذه لك ولدا : أى بأن تتبناه وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل كرجل ، فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ماتسوموننى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لايكون أبدا : أى وقال أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها [ ] قال المطعم بن عدى : والله ياأبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقال له أبو طالب : والله ماأنصفونى ، ولكن قد أجمعت : أى قصدت خذلانى ومظاهرة القوم : أى معاونتهم علىّ فاصنع مابدالك : أى وقد مات عمارة بن الوليد هذا على كفره بأرض الحبشة بعد أن سحر وتوحش وسار فى البرارى والقفار كما سيأتى . ومات المطعم بن عدى المذكور على كفره أيضا فعند عدم قبول أبى طالب ماأرادوه اشتد الأمر .

ولما رأى أبو طالب من قريش مارأى دعا بنى هاشم ، وبنى المطلب إلى ماهو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك ، غير أبى لهب فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من آمن به ، وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من أسلم معه .

فما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ماحدث به عمه العباس رضى الله تعالى عنه قال : كنت يوما فى المسجد فأقبل أبو جهل فقال : لله علىّ إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ عنقه ، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول أبى جهل فخرج غضبان حتى دخل المسجد ، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط ، وقرأ (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق) حتى بلغ شأن أبى جهل (كلا

إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) إلى أن بلغ آخر السورة سجد، فقال إنسان لأبى جهل ياأبا الحكم ، هذا محمد قد سجد ، فأقبل إليه ثم نكص راجعا ، فقيل له ذلك ، فقال أبو جهل : ألا ترون ما أرى ، لقد سد أفق السماء علىّ . وفى رواية : رأيت بينى وبينه خندقا من نار » وسيأتى أن قوله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) إلى آخر السورة نزل فى أبى جهل .

ومن ذلك ماحدث به بعضهم قال : ذكر أن أباجهل بن هشام قال يوما لقريش : يامعشر قريش إن محمدا قد أتى إلى ماترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنى أعاهد الله لأجلس له يعنى النبى صلى الله عليه وسلم غدا بحجر لاأطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف مابدالهم ، قالوا والله لانسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو إلى الصلاة : أى وكانت قبلته صلى الله عليه وسلم إلى الشام إلى صخرة بيت المقدس ، فكان يصلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ويجعل الكعبة بينه وبين الشام على ماتقدم ، وقريش جلوس فى أنديتهم وهم ينتظرون ماأبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه : أى متغيرا بالصفرة مع الكدرة من الفزع وقد يبست يداه على حجره حتى قذفه من يده : أى بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدروا كما سيأتى ،وقامت إليه رجال من قريش وقالوا: مالك ياأبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله مارأيت مثله قط ، همّ بى أن يأكلنى ، فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال وذاك جبريل لودنا لأخذه » وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله:

وأبوجهل إذ رأى عنق الفحـ ـل إليـه كأنه العنقاء

أى وأبو جهل الذى هو أشد الأعداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت أن همّ أن يلقى الحجر عليه صلى الله عليه وسلم وهو ساجد أبصر عنق الفحل وقد برزت إليه كأنه الداهية العظيمة : أى فرجع عن ذلك الرمى بذلك الحجر : أى وفى رواية أن أبا جهل قال : أتت بينى وبينه كخندق من نار . ولا مانع أن يكون وجد الأمرين معا .

وذكر فى سبب نزول قوله تعالى (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) أى إنا جعلنا أيديهم متصلة بأعناقهم واصلة إلى أذقانهم ملصقة بها ، رافعون رءوسهم لايستطيعون خفضها من أقمح البعير رفع رأسه (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) أن الآية الأولى نزلت فى أبى جهل لما حمل الحجر ليرضخ به رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه أثبتت يداه إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد . والآية الثانية نزلت فى آخر لما رأى ماوقع لأبى جهل قال أنا ألقى هذا الحجر عليه ، فذهب إليه صلى الله عليه وسلم ، فلما قرب منه عمى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إليهم فأخبرهم بذلك .

وعن الحكم بن أبى العاص : أى ابن مروان بن الحكم ، أن ابنته قالت له : مارأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم يابنى أمية ، فقال لها : لاتلومينا يابنية إنى لا أحدثك إلا مارأيت ، لقد أجمعنا ليلة على اغتياله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيناه يصلى ليلا جئنا خلفه فسمعنا صوتا ظننا أنه مابقى بتهامة جبل إلا تفتت علينا : أى ظننا أنه يتفتت ، وأنه يقع علينا ، فما عقلنا حتى قضى صلاته صلى الله عليه وسلم ورجع إلى أهله ، ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فلما جاء نهضنا إليه فرأينا الصفا والمروة التصقتا إحداهما على الأخرى ، فحالتا بيننا وبينه ، ويتأمل هذا لأن صلاته صلى الله عليه وسلم إنما تكون عند الكعبة وليست بين الصفا والمروة .

وفى رواية « كان صلى الله عليه وسلم يصلى فجاءه أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا فأنزل الله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) إلى آخر السورة » .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم لما انصرف من صلاته زأره أبو جهل أى انتهره وقال : إنك لتعلم مابها ناد أكثر منى ، فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لودعا ناديه لأخذته زبانية الله : أى وقال يوما : ولقد لقى النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، فأنزل الله تعالى فيه (ذق إنك أنت العزيز الكريم) كذا قاله الواحدى : أى تقول له الزبانية عند إلقائه فى النار ماذكر توبيخا له .

ومن ذلك ماحدث به بعضهم قال : لما أنزل الله تعالى سورة (تبت يدا أبى لهب)

جاءت امرأة أبي لهب وهي أم جميل واسمها العوراء ، وقيل اسمها أروى بنت حرب أخته أبي سفيان بن حرب ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر : أي بكسر الفاء وسكون الهاء حجر يملأ الكف ، فيه طول يدق به في الهاون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فلما رآها قال : يارسول الله إنها امرأة بذية : أي تأتي بالفحش من القول ، فلو قمت لتؤذيك ، فقال صلى الله عليه وسلم «إنها لن تراني» فجاءت فقالت : يا أبا بكر صاحبك هجاني : أي وفي لفظ : ماشأن صاحبك ينشد فيّ الشعر ؟ قال لا وما يقول الشعر أي ينشئه . وفي لفظ : لاورب هذا البيت ماهجاك ، والله ماصاحبي بشاعر وما يدري ماالشعر : أي لايحسن إنشاءه ؛ قالت له : أنت عندي تصدق ، وانصرفت : أي وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها : أي تعني عبد مناف جدّ أبيها ، ومن كان عبد مناف أباه لاينبغي لأحد أن يتجاسر على ذمه ، قلت : يارسول الله لم لم ترك ؟ قال : «لم يزل ملك يسترني بجناحه» أي فقد جاء في رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر «قل لها : هل ترين عندي أحدا ، فسألها أبو بكر ، فقالت أتهزأ بي ، والله ماأرى عندك أحدا» .

أقول : وفي الإمتاع أنها جاءت وهو صلى الله عليه وسلم في المسجد معه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وفي يدها فهر ، فلما وقفت على النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الله على بصرها فلم تره ورأت أبا بكر وعمر ، فأقبلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فقالت : أين صاحبك ؟ قال وما تصنعين به ؟ قالت بلغني أنه هجاني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فمه ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : ويحك إنه ليس بشاعر ، فقالت إني لاأكلمك يابن الخطاب : أي لما تعلمه من شدته ، ثم أقبلت على أبي بكر لما تعلمه من لينه وتواضعه ، فقالت : والثواقب أي النجوم إنه لشاعر وإني لشاعرة : أي فكما هجاني لأهجونه وانصرفت ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لم تراك ؛ فقال إنها لن تراني ، جعل بيني وبينها حجاب : أي لأنه قرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا) وفي رواية أقبلت ومعها فهران وهي تقول :

مذمما أبينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا

فقالت : أين الذى هجاني وهجا زوجي ؛ والله لئن رأيته لأضربن أنثييه بهذين

الفهرين . قال أبو بكر : فقلت لها ياأم جميل والله ماهجاك ولا هجا زوجك ، قالت : والله ماأنت بكذاب ؛ وإن الناس ليقولون ذلك ، ثم ولت ذاهبة ، فقلت : يارسول الله إنها لم ترك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم «حال بيني وبينها جبريل » ولعل مجيئها قد تكرر فلا منافاة بين ماذكر وكذا مايأتى ، وكما يقال فى الحمد محمد يقال فى الذم مذمم ، لأنه لايقال ذلك إلا لمن ذم مرة بعد أخرى ، كما أن محمدا لايقال إلا لمن حمد مرة بعد أخرى كما تقدم . وقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال : ألا تعجبون كيف يصرف الله تعالى عنى شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما وأنا محمد » .

وفى الدر المنثور « أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى الملأ ، فقالت : يامحمد علام تهجونى ؟ قال : إنى والله ماهجوتك ، ماهجاك إلا الله . قالت : رأيتنى أحمل حطباً أو رأيت فى جيدى حبلا من مسد » وهذا مما يؤيد ماقاله بعض المفسرين أن الحطب عبارة عن النميمة ، يقال : فلان يحطب على : أى ينم ، لأنها كانت تمشى بين الناس بالنميمة ، وتغرى زوجها وغيره بعداوته صلى الله عليه وسلم ، وتبلغهم عنه أحاديث لتحثهم بها على عداوته صلى الله عليه وسلم ، وأن الحبل عبارة عن حبل من نار محكم .

وعن عروة بن الزبير : مسد النار سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعا ، والله أعلم وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

وأعدت حمالة الحطب الفهـــــر وجاءت كأنها الورقاء
ثم جاءت غضبى تقول أفى مثـــــلى من أحمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أيـــــن ترى الشمس مقلة عمياء

أى وهيأت حمالة الحطب الفهر ؟ ولقبت بذلك ، لأنها كانت تحتطب : أى تجمع الحطب وتحمله لبخلها ودناءة نفسها ، أو كانت تحمل الشوك والحسك وتطرحه فى طريقه صلى الله عليه وسلم . ولا مانع من اجتماع الأوصاف الثلاثة ، لكن استفهامها يبعد الوصفين الأخيرين . والفهر الحجر الذى يملأ الكف كما تقدم ، لتضرب به النبى صلى الله عليه وسلم والحال أنها جاءت فى غاية السرعة والعجلة كأنها فى شدة السرعة الحمامة الشديدة الإسراع ، حالة كونها غضبى من شدة ماسمعت من ذمها فى سورة تبت يدا أبى لهب ، تقول : أفى مثلى وأنا بنت سيد بنى عبد شمس يقال الهجاء والسب حالة كونه من أحمد وتولت والحال أنها مارأته ، وكيف ترى الشمس عين عمياء .

أقول: فى ينبوع الحياة أنها لما بلغها سورة (تبت يدا أبى لهب) جاءت إلى أخيها أبى سفيان فى بيته وهى مضطرمة : أى منحرقة غضبى ، فقالت له : ويحك ياأخنس : أى ياشجاع أما تغضب أن هجانى محمد ، فقال سأكفيك إياه ، ثم أخذ سيفه وخرج ثم عاد سريعا فقالت : هــل قتلته ؟ فقال لها : ياأخية أيسرك أن رأس أخيك فى فم ثعبان ؟ قالت : لاوالله ، قال: فقد كان ذلك يكون الساعة . أى فإنه رأى ثعباناً لو قرب منه صلى الله عليه وسلم لالتقم رأسه .

ولما نزلت هذه السورة التى هى (تبت يدا أبى لهب) قال أبو لهب لابنه عتبة أى بالتكبير رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم يوم الفتح كما سيأتى : رأسى من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد ، يعنى رقية رضى الله تعالى عنها فإنه كان تزوّجها ولم يدخل بها ففارقها ووقع فى كلام بعضهم طلقها لما أسلم فليتأمل .

وكان أخوه عتيبة بالتصغير متزوّجا ابنته صلى الله عليه وسلم أم كلثوم ، ولم يدخل بها . فقال :-أى وقد أراد الذهاب إلى الشام: لآتين محمدا فلأوذينه فى ربه ، فأتاه فقال : يامحمد هو كافر بالنجم : أى وفى لفظ برب النجم إذا هوى ، وبالذى دنا فتدلى ؛ ثم بصق فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «اللهم سلط» وفى رواية « اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها أبو طالب . وقال : ما كان أغناك ياابن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتيبة إلى أبيه أبى لهب فأخبره بذلك ، ثم خرج هو وأبوه إلى الشام فى جماعة ، فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير . فقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه إنكم قد عرفتم نسبى وحقى ، فقالوا أجل ياأبا لهب . فقال أعينونا يامعشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد ، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا لابنى عليه ثم افرشوا حوله ، ففعلوا ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتيبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتيبة فقتله . وفى رواية « فضخ رأسه » وفى رواية « ثنى ذنبه ووثب وضربه بذنبه ضربة واحدة فخدشه فمات مكانه » وفى رواية « فضغمه ضغمة فكانت إياها » فقال وهو بآخر رمق ألم أقل لكم إن محمدا أصدق الناس لهجة ومات ، فقال أبوه : قد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة محمد . أقول : وحلفه بالنجم فى آخره يدل على أن ذلك كان بعد الإسراء والمعراج .

ووقع مثل ذلك لجعفر الصادق ، قيل له : هـــذا فلان ينشد الناس هجاءكم يعنى أهـل البيت بالـكوفة ، فقال لذلك القائل : هل علقت من قوله شيء ؟ قال نعم قال فأنشد :

صلبنا لكم زيدا على رأس نخلة ولم أر مهديا على الجذع يصلب
وقســتم بعثمان عليا ســفاهة وعثمان خير من علىّ وأطيب

فعند ذلك رفع جعفر يديه ، وقال اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج ذلك الرجل فافترسه الأسد ، وإنما سمى الأسد كلبا لأنه يشبه الكلب فى أنه إذا بال رفع رجله . ومن ثم قيل : إن كلب أهل الكهف كان أسدا . وقيل كان رجلا منهم جلس عند الباب طليعة لهم ، فسمى باسم الكلب لملازمته للحراسة ، ووصف ببسط الذراعين لأن ذلك من صفة الكلب الذى هو الحيوان .

وقد جاء «أنه ليس فى الجنة من الحيوان إلا كلب أهل الكهف ، وحمار العزير ، وناقة صالح » والله أعلم .

ومما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ماحدّث به عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وســلم فى المسجد وهو يصلى ، وقد نحر بجزور وبقى فرثه : أى روثه فى كرشه . فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد » أى وفى رواية « قال : قائل : ألا تنظرون إلى هذا المرائى أيكم يقوم إلى جزور بنى فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه » وفى رواية : «أيـكم يأخذ سلي جزور بنى فلان لجزور ذبحت من يومين أو ثلاثة فيضعه بين كتفيه إذا سجد ، فقام شخص من المشركين » وفى لفظ « أشقى القوم وهو عقبة بن أبى معيط . وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد : أى فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض أى من شدة الضحك . قال ابن مسعود : فهبنا أى خفنا أن نلقيه عنه صلى الله عليه وسلم » وفى لفظ « وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءت فاطمة رضى الله تعالى عنها أى بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها بذلك واستمر صلى الله عليه وسلم ساجدا حتى ألقته عنه ، واستمراره فى الصلاة عند فقهائنا لعدم علمه بنجاسة ماألقى عليه ، ولما ألقته عنه أقبلت عليهم تشتمهم ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم

فسمعته يقول وهو قائم يصلى: اللهم اشدد وطأتك : أى عقابك الشديد، على مضر سنين كسنى يوسف . اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام ، يعنى أبا جهل ، وعتبة بن ربيعة وعقبة «ابن أبى معيط وأمية بن خلف . زاد بعضهم : وشيبة بن أبى ربيعة ، والوليد بن عتبة» بالمثناة فوق لا بالقاف كما وقع فى رواية مسلم .

فقد اتفق العلماء على أنه غلط ، لأنه لم يكن ذلك الوقت موجودا أو كان صغيرا جدّا وعمارة بن الوليد : أى وهو المتقدم ذكره الذى أرادوا أن يجعلوه عوضا عنه صلى الله عليه وسلم .

أقول : والذى فى المواهب « فلما قضى رسول صلى الله عليه وسلم الصلاة قال : «اللهم عليك بقريش، ثم سمى ، اللهم عليك بعمرو بن هشام» إلى آخر ماتقدم ذكره . وفى الإمتاع : «فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم صلاته رفع يديه ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثا ثم قال : اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش فلما سمعوا صوته ذهب منهم الضحك وهابوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبى جهل بن هشام» الحديث، وإن ابن مسعود قال : والله لقد رأيتهم، وفى رواية: رأيت الذى سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر .

واعترض بأن عمارة بن الوليد مات بالحبشة كافرا كما تقدم ويأتى ، وبأن عقبة بن أبى معيط لم يقتل ببدر وإنما أخذ أسيرا منها وقتل بعرق الظبية كما سيأتى ، وبأن أمية بن خلف لم يطرح بالقليب وأجيب بأن قول ابن مسعود : رأيتهم أى رأيت أكثرهم .

وقد يقال : لامانع أن يكون صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الدعاء وهو قائم يصلى ، وبعد الفراغ من الصلاة فلا منافاة والله أعلم .

والمراد بسنى يوسف بتخفيف الياء، ويروى سنين باثبات النون مع الإضافة: القحط والجدب : أى فاستجاب الله دعاءه ، فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام والعلهز وهو الوبر والدم ، أى يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع ، وجاءه صلى الله عليه وسلم جمع من المشركين فيهم أبو سفيان ، قالوا : يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم « فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث ، فأطبقت عليهم سبعا ؛ فشكا الناس كثرة المطر فقال : اللهم حوالينا ولا علينا . فانحدرت السحابة »

وجاء أنهم (قالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى لا نعود لما كنا عليه ، فلما كشف عنهم ذلك عادوا : أى وفيه أن هذا إنما كان بعد الهجرة فسيأتى « أنه صلى الله عليه وسلم مكث شهرا إذا رفع رأسه من ركوع الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء ، وسيأتى مافيه .

وقد يقال : لامانع أن يكون حصل لهم ذلك قبل الهجرة وبعد الهجرة مرة أخرى سيأتى الكلام عليها .

ثم رأيت فى الخصائص الكبرى ما يوافق ذلك حيث قال : قال البيهقى : قد روى فى قصة أبى سفيان ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة ، ولعله كان مرتين ، أى وسيأتى فى السرايا أن ثمامة لما منع عن قريش الميره أن تأتى من اليمن حصل لهم مثل ذلك وكتبوا فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى البخارى « لما استعصت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فبقيت السماء سبع سنين لاتمطر » وفى رواية فيه أيضا : « لما أبطئوا على النبى صلى الله عليه وسلم بالإسلام قال : اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة حصت كل شىء » الحديث . وفى رواية « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) فأتى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله استسق لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى صلى الله عليه وسلم فسقوا ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) » يعنى يوم بدر .

ومن ذلك ماحدث به عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر وفى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة ابن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعرف ذلك فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، فدنوت منه حتى وسطته : أى جعلته وسطا ، فكان صلى الله عليه وسلم بينى وبين أبى بكر وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعا ، فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لانصالحك ما بلّ بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا ذلك ، ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه ، أى قاموا له صلى الله عليه وسلم ، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه صلى الله عليه وسلم ، فدفعت فى صدره فوقع على استه ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبى معيط ثم انفرجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف . ثم قال : أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه أى ينزل عليكم عاجلا . قال عثمان : فو الله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بئس القوم أنتم لنبيكم ، ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم أقبل علينا بوجهه . فقال : أبشروا ، فإن الله عز وجل مظهر دينه ، ومتمم كلمته ، وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا ، ثم انصرفنا إلى بيوتنا ، فو الله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر » .

أقول : ولا يخالف ذلك كون عقبة بن أبى معيط حمل أسيرا من بدر وقتل بعرق الظبية صبرا وهم راجعون من بدر ، ولا كون عثمان بن عفان لم يحضر بدرا والله أعلم .

وفى رواية « أن عتبة بن أبى معيط وطىء على رقبته صلى الله عليه وسلم الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان » .

أى وفى رواية « دخل عقبة بن أبى معيط الحجر فوجده صلى الله عليه وسلم يصلى فيه فوضع ثوبه على عنقه صلى الله عليه وسلم وخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله تعالى عنه حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) » .

أى وفى البخارى عن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال « قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ

بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث ، ولعل أشدية ذلك باعتبار ما بلغ عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما أو ما رآه .

وعنه رضى الله تعالى عنه قال « ما رأيت قريشا أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حضرتهم يوما وقد اجتمع ساداتهم وكبراؤهم فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط ولقد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى ، حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت ، فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فعرفنا ذلك فى وجهه ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فعرفنا ذلك فى وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فلمزوه ، فوقف عليهم وقال : أتسمعون يامعشر قريش أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح ، فارتعبوا لكلمته صلى الله عليه وسلم تلك ، وما بقى رجل منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، فصاروا يقولون ، ياأباالقاسم انصرف ، فو الله ما كنت جهولا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا — يعنى عيب آلهتهم ودينهم — فقال نعم : أنا الذى أقول ذلك ، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه عليه الصلاة والسلام ، فقام أبوبكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، فأطلقه الرجل ووقعت الهيبة فى قلوبهم فانصرفوا عنه » فذلك أشد مارأيتهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية « ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال بلى ، فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر ، فقيل له أدرك صاحبك ، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه ، فقال : ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، فكفوا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأقبلوا على أبي بكر يضربونه ، قالت بنته أسماء : فرجع إلينا فجعل لايمس شيئا من غدائره إلا أجابه وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

وجاء « أنهم جذبوا رأسه صلى الله عليه وسلم ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله : أى وهو يبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعهم يا أبا بكر ، فوالذى نفسى بيده إنى بعثت إليهم بالذبح ففرجوا عنه صلى الله عليه وسلم » .

وعن فاطمة رضى الله تعالى عنها قالت « اجتمعت مشركو قريش فى الحجر ، فقالوا إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة فسمعت فدخلت على أبى فذكرت ذلك له : أى قالت له وهى تبكى ، تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا فى الحجر ، فحلفوا باللات والعزى ومناة وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيافهم فيقتلونك فقال صلى الله عليه وسلم : يابنية اسكتى ، وفى لفظ: لاتبكى ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم أى بعد أن توضأ فدخل عليهم المسجد ، فرفعوا رءوسهم ثم نكسوا فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ، ثم قال : شاهت الوجوه فما أصاب رجلا منهم إلا قتل ببدر »

أى وكان بجواره صلى الله عليه وسلم جماعة منهم أبو لهب والحكم بن أبى العاص ابن أمية والد مروان وعقبة بن أبى معيط فكانوا يطرحون عليه صلى الله عليه وسلم الأذى فإذا طرحوه عليه أخذه وخرج به ووقف على بابه ويقول : يا بنى عبد مناف أىّ جوار هذا ثم يلقيه فى الطريق ، ولم يسلم ممن ذكر إلا الحكم وكان فى إسلامه شىء . وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم نفاه إلى وج الطائف ، وأنه سيأتى السبب فى نفيه ، وأشار صاحب الهمزية إلى أن هذه الأذية له صلى الله عليه وسلم لايظن ظانّ أنها منقصة له صلى الله عليه وسلم ، بل هى رفعة له ؛ ودليل على فخامة قدره وعلو مرتبته وعظيم رفعته ومكانته عند ربه ، لكثرة صبره وحلمه واحتماله مع علمه باستجابة دعائه ونفوذ كلمته عند الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء » وذلك سنة من سنن النبيين السابقين عليهم الصلاة والسلام بقوله :

لا تخل جانب النبي مضاما ... حين مسته منهم الأسواء
كل أمر ناب النبيين فالشـــدة فيه محمودة والرخاء
لو يمس النضار هون من النا ... ر لما اختير للنضار الصلاء

أى لاتظن أن النبي صلى الله عليه وسلم حصل له الضيم وقت مسته الأذيات حالة كونها صادرة منهم ، لأن كل أمر من الأمور العظيمة أصاب النبيين فالشدة التى تحصل لهم منه محمودة ، لأنها لرفع الدرجات ، والضيقة التى تحصل لهم أيضا محمودة ، لأنه لو كان يمس الذهب هوان من إدخاله النار لما اختير له العرض على النار ؛ فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالذهب والشدائد التى تصيبهم كالنار التى يعرض عليها الذهب ، فإن ذلك لايزيد الذهب إلا حسنا ، فكذلك الشدائد لاتزيد الأنبياء إلا رفعة .

قال : ومما وقع لأبى بكر رضى الله تعالى عنه من الأذية ، ما ذكره بعضهم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم ليعبد الله تعالى ومن معه من أصحابه فيها سرا أى كما تقدم ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألحّ أبو بكر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظهور — أى الخروج إلى المسجد — فقال : يا أبا بكر إنا قليل ، فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه إلى المسجد ، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ودعا إلى الله ورسوله ، فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين يضربونهم فضربوهم ضربا شديدا ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ، أى مطبقتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لايعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر وحملوه فى ثوب إلى أن أدخلوه منزله ، ولا يشكون فى موته ، أى ثم رجعوا فدخلوا المسجد ، فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ؛ ثم رجعوا إلى أبى بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ؛ حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعذلوه ، فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه والله مالى علم بصاحبك ، فقال اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب أخت عمر ابن الخطاب : أى فإنها كانت أسلمت رضى الله تعالى عنها كما تقدم ، وهى تخفى إسلامها فاسأليها عنه ؛ فخرجت إليها وقالت لها ، إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لا أعرف محمدا ولا أبا بكر ، ثم قالت لها : تريدين أن أخرج معك ؟ قالت نعم ، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر رضى الله تعالى عنه فوجدته صريعا ، فصاحت وقالت إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله

منهم ؛ فقال لها أبو بكر ، مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت له : هذه أملك تسمع ؛ قال : فلا عين عليك منها ، أى أنها لاتفشى سرك ، قالت سالم ، فقال : أين هو ؟ فقالت فى دار الأرقم ، فقال والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت أمه : فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس فخرجنا به يتكىء علىّ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال : بأبى وأمى أنت يا رسول الله ، مابى من بأس إلا مانال الناس من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، فعسى الله أن ينقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الإسلام فأسلمت انتهى .

هذا ، وذكر الزمخشرى فى كتابه خصائص العشرة أن هذه الواقعة حصلت لأبى بكر لما أسلم وأخبر قريشا بإسلامه فليتأمل ؛ فإنّ تعدد الواقعة بعيد .

ومما وقع لابن مسعود رضى الله تعالى عنه من الأذية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا يوما ، فقال : والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن فيكم يسمعهم القرآن جهرا ؟ فقال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، أنا فقالوا نخشى عليك منهم ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ، فقال : دعونى فإن الله سيمنعنى منهم . ثم إنه قام عند المقام وقت الشمس وقريش فى أنديتهم فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعا صوته (الرحمن علم القرآن) واستمر فيها فتأملته قريش ، وقالوا ما بال ابن أم عبد ، فقال بعضهم : يتلو بعض ما جاء به محمد ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءته حتى قرأ غالب السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه ، فقال له أصحابه : هذا الذى خشينا عليك منه فقال : والله مارأيت أعداء الله أهون علىّ مثل اليوم ، ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غدا ، قالوا لاقد أسمعتهم مايكرهون .

ومما وقع له صلى الله عليه وسلم من الأذية ، أنه كان إذا قرأ القرآن تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار ، لأنهم تواصوا (وقالوا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) حتى كان من أراد منهم سماع القرآن أتى خفية واسترق السمع خوفا منهم .

ومما وقع له صلى الله عليه وسلم من الأذية ما كان سببا لإسلام عمه حمزة رضى الله تعالى عنه ، وهو ماحدث به ابن إسحاق قال : حدثنى به رجل من أسلم أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا : أى وقيل عند الحجون ، فآذاه وشتمه ونال منه مايكرهه : أى وقيل إنه صب التراب على رأسه : أى وقيل ألقى عليه فرثا ووطىء برجله على عاتقه ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان فى سكن لها تسمع ذلك وتبصره ، ثم انصرف أبو جهل إلى نادى قريش : أى محل تحدثهم فى المسجد فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحا بسيفه راجعا من قنصه : أى من صيده ، وكان من عادته إذا رجع من قنصه لايدخل إلى أهله إلا بعد أن يطوف بالبيت ، فمر على تلك المولاة ، فأخبرته الخبر : أى فقالت له : ياأبا عمارة ، لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد صلى الله عليه وسلم آنفا من أبى الحكم بن هشام ، تعنى أبا جهل ، وجده ههنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه مايكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم : أى وقيل الذى أخبرته مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب ، قالت له : إنه صب التراب على رأسه ، وألقى عليه فرثا ، ووطىء برجله على عاتقه . وعلى إلقاء الفرث عليه اقتصر أبو حيان فى النهر ، فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذى تقولين ؟ قالت نعم .

وفى رواية : فلما رجع حمزة من صيده إذا امرأتان تمشيان خلفه ، فقالت إحداهما : لو علم ماذا صنع أبو جهل بابن أخيه أقصر عن مشيته ، فالتفت إليهما فقال : ماذاك ؟ قالت أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا . ولا مانع من تعدد الأخبار من المرأتين والمولاتين فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد ، فرأى أبا جهل جالساً فى القوم فأقبل نحوه حتى قام على رأسه رفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول مايقول ، فرد على ذلك إن استطعت .

أى وفى لفظ : أن حمزة لما قام على رأس أبى جهل بالقوس صار أبو جهل يتضرع إليه ويقول : سفه عقولنا وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا قال ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لاإله إلا الله ؛ وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقامت رجال من بنى مخزوم : أى من عشيرة أبى جهل إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقالوا : مانراك إلا قد صبأت ، فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ، أنا أشهد أنه رسول الله

وأن الذى يقوله حق، والله لاأنزع فامنعونى إن كنتم صادقين . فقال لهم أبوجهل : دعوا أبا عمارة: أى ويكنى أيضا بأبى يعلى اسم ولد له أيضا فإنى والله لقد أسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا ، وتم حمزة على إسلامه : أى استمر ،أى بعد أن وسوس له الشيطان ، فقال لنفسه لما رجع إلى بيته أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابي وتركت دين آبائك؟ الموت خير لك مما صنعت،ثم قال : اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه فى قلبي وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا فبات بليلة ، ثم لم يبت بمثلها من وسوســة الشيطان حتى أصبح ، فغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : ياابن أخى إنى قد وقعت فى أمر لاأعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على مالا أدرى أرشد هو أم غىّ شديد فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ووعظه وخوفه وبشره ، فألقى الله تعالى فى قلبه الإيمان بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أشـهد أنك لصادق ، فأظهر يابن أخى دينك [ ] ..

وقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن هذه الواقعة سبب لنزول قوله تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) يعنى حمزة (كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) يعنى أبا جهل ، وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلام حمزة سرورا كبيرا لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة : أى أعظمهم فى عزة النفس وشهامتها ؛ ومن ثمّ لما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه صلى الله عليه وسلم ، وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذية سيما المستضعفين منهم الذين لاجوار لهم : أى لاناصر لهم ، فإن كل قبيلة غدت على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه [ ] بالحبس والضرب ؛ والجوع ، والعطش، وغير ذلك : أى حتى إن الواحد منهم مايقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذى به ، وكان أبو جهل يحرضهم على ذلك ، وكان إذا سمع بأن رجلا أسلم وله شرف ومنعة جاء إليه ووبخه وقال له : ليغلبن رأيك وليضعفن شرفك ، وإن كان تاجرا قال: والله لتكسدنّ تجارتك ويهلك مالك ، وإن كان ضعيفا أغرى به [؟] حتى أن منهم من فتن عن دينه ورجع إلى الشرك ، كالحارث بن ربيعة بن الأسود ؛ وأبى قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج ، وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم بدر .

وممن فتن عن دينه وثبت عليه ولم يرجع للكفر بلال رضى الله تعالى عنه وكان مملوكا

لأمية بن خلف ، فعن بعضهم أن بلالا كان يجعل فى عنقه حبل يدفع إلى الصبيان يلعبون به ويطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول « أحد، أحد » بالرفع والتنوين أو بغير تنوين : أى الله أحد أو ياأحد ، فهو إشارة لعدم الإشراك ، وقد أثر الحبل فى عنقه .

وعن ابن إسحاق أن أمية بن خلف كان يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوما وليلة فيطرحه على ظهره فى الرمضاء أى الرمل إذا اشتدت حرارته لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ؛ ثم يقول له لاتزال هكذا ، حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول أحد أحد : أى أنا لاأشرك بالله شيئا ، أنا كافر باللات والعزى .

أى وقيل كان بلال مولدا من مولدى مكة ، وكان لعبد الله بن جدعان التيمى وكان من جملة مائة مملوك مولدة له ، فلما بعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أمر بهم فأخرجوا من مكة : أى خوف إسلامهم ، فأخرجوا إلا بلالا فإنه كان يرعى غنمه ، فأسلم بلال وكتم إسلامه فسلح بلال يوما على الأصنام التى حول الكعبة .

ويقال إنه صار يبصق عليها ويقول خاب وخسر من عبدكن ، فشعرت به قريش فشكوه إلى عبدالله وقالوا له أصبوت ؟ قال ومثلى يقال له هذا ، فقالوا له إن أسودك صنع كذا وكذا فأعطاهم مائة من الإبل ينحرونها للأصنام ومكنهم من تعذيب بلال ، فكانوا يعذبونه بماتقدم ،أى ويجوز أن يكون ابن جدعان بعدذلك ملكه لأمية بن خلف . فلا يخالفه ماتقدم من أن أمية بن خلف كان يتولى تعذيبه ، وما يأتى من أن أبا بكر رضى الله عنه اشتراه منه . ويقال إنه صلى الله عليه وسلم مر عليه وهو يعذب فقال سينجيك أحد أحد .

أى وقيل مر عليه ورقة بن نوفل ، وهو يقول أحد أحد فقال نعم أحد أحد والله يابلال ، ثم أتى إلى أمية ؛ وقال له : والله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا أى لأتخذن قبره منسكا ومسترحما ، لأنه من أهل الجنة ، وتقدم أن هذا يدل على أن ورقة أدرك البعثة التى هى الرسالة ، وتقدم مافيه ، فكان بلال بقوله أحد أحد يمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان .

وقد وقع له رضى الله تعالى عنه أنه لما احتضر وسمع امرأته تقول واحزناه صار يقول : واطرباه ، غدا ألقى الأحبة محمدا وحزبه ، فكان بلال يمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ؛ وقد ذكر بعضهم أن هذا قاله أبو موسى الأشعرى ، ومن معه لما وفدوا عليه صلى الله

عليه وسلم وهو فى خيبر : أى صاروا يقولون : غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .

ومر به أبو بكر رضى الله تعالى عنه يوما وهو ملقى على ظهره فى الرمضاء ، وعلى ظهره تلك الصخرة ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين ؟ حتى متى تعذبه ؟ قال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، قال أبو بكر : عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى : أى على دينك ، أعطيكه به ؟ قال : قبلت ، قال : هو لك ، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه .

وفى تفسير البغوى قال سعيد بن المسيب: بلغنى أن أمية بن خلف قال لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى بلال حين قال أتبيعنيه ؟ قال : نعم أبيعه بقسطاس ؛ يعنى عبدا لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش ، وكان مشركاً يأبى الإسلام ، فاشتراه أبو بكر به ، هذا كلامه .

وفى الإمتاع : لما ساوم أبو بكر أمية بن خلف فى بلال ، قال أمية لأصحابه : لألعبن بأبى بكر لعبة مالعبها أحد بأحد ، ثم تضاحك وقال له : أعطنى عبدك قسطاس ، فقال أبو بكر : إن فعلت تفعل ؟ قال نعم . قال : قد فعلت ، فتضاحك ، وقال لا والله حتى تعطينى معه امرأته ، قال : إن فعلت تفعل ؟ قال نعم ، قال : قد فعلت ذلك ، فتضاحك وقال : لا والله حتى تعطينى ابنته مع امرأته ، قال : إن فعلت تفعل ؟ قال نعم ، قال : قد فعلت ذلك ، فتضاحك وقال : لا والله حتى تزيدنى معه مائتى دينار ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أنت رجل لاتستحى من الكذب ، قال : لا واللات والعزى لأن أعطيتنى لأفعلن ، فقال : هى لك ، فأخذه ، هذا كلامه .

وقيل اشتراه بتسع . وقيل بخمس أواق ، أى ذهبا : أى وقيل ببردة وعشرة أواق من فضة ، وفى رواية برطل من ذهب .

ويروى أن سيده قال لأبى بكر : لو أبيت إلا أوقية أى لو قلت لا أشتريه إلا بأوقية لبعناكه ، فقال : لو طلبت مائة أوقية لأخذته بها .

ولما قال المشركون : إنما أعتق أبو بكر بلالا ليد كانت له عنده فيكافئه بها أنزل الله تعالى (والليل إذا يغشى) السورة ؛ فالأتقى أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، والأشقى أمية ابن خلف .

قال الإمام فخر الدين ، أجمع المفسرون هنا على أن المراد بالأتقى أبو بكر . وذهب

الشيعة إلى أن المراد به علىّ رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه . ويرده وصف الأتقى بقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) لأن هذا الوصف لايصدق على علىّ رضى الله تعالى عنه ، لأنه كان فى تربية النبي صلى الله عليه وسلم أى كما تقدم ، فكان صلى الله عليه وسلم منعما عليه نعمة يجب عليه جزاؤها : أى نعمة دنيوية ، لأنها التى يجازى عليها ، بخلاف أبى بكر فانه لم يكن له صلى الله عليه وسلم عليه نعمة دنيوية ، وإنما كان له نعمة الهداية وهى نعمة لايجازى عليها . قال الله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا) فتعين حمل الآية على أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فيلزم من ذلك أن يكون أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل الخلق ، لأن الله تعالى يقول (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والأكرم هو الأفضل ، وبين ذلك الفخر الرازى بأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد النبى صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما على ، فلا يمكن حمل الآية على علىّ لما تقدم ، فتعين حملها على أبى بكر .

وذكر بعض أهل المعانى : أى المبينين لمعانى القرآن كالزجاج والفراء والأخفش أن المراد بالأشقى والأتقى الشقى والتقى ، فأوقع أفعل التفضيل موضع فعيل ، فهو عام فى أمية ابن خلف وأبى بكر وغيرهما وإن كان السبب خاصا ، والذى بخل واستغنى المراد به أبو سفيان ، لأنه كان عاتب أبا بكر فى إنعامه وإعتاقه وقال له أضعت مالك والله لاتصيبه أبدا، وقيل المراد به أمية بن خلف .

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر اشترى بلالا قال له الشركة يا أبا بكر، فقال : قد أعتقته يا رسول الله : أى لأن بلالا قال لأبى بكر حين اشتراه: إن كنت اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت إنما اشتريتنى لله عز وجل فدعنى لله فأعتقه .

هذا ، وذكر « أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال لو كان عندنا مال اشتريت بلالا ، فانطلق العباس رضى الله تعالى عنه فاشتراه فبعث به إلى أبى بكر : أى ملكه له فأعتقه » فليتأمل الجمع بين هذا وما تقدم .

وقد اشترى أبو بكر رضى الله تعالى عنه جماعة آخرين ممن كان يعذب فى الله ، منهم حمامة أم بلال . ومنهم عامر بن فهيرة ، فإنه كان يعذب فى الله تعالى حتى لايدرى مايقول، وكان لرجل من بنى تيم من ذوى قرابة أبى بكر رضى الله تعالى عنه . ومنهم أبو فكيهة كان عبدا لصفوان بن أمية ، أسلم حين أسلم بلال ، فمر به أبوبكر رضى الله تعالى عنه وقد

أخذه أمية أبو صفوان وأخرجه نصف النهار فى شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء ، فوضع على بطنه صخرة ، فخرج لسانه وأخو أمية يقول له زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره فاشتراه أبو بكر رضى الله تعالى عنه . ومنهم امرأة وهى زنيرة بزاى فنون مشددة مكسورتين فمثناة تحتية ساكنة ، وهى فى اللغة الحصاة الصغيرة ، عذبت فى الله تعالى حتى عميت ، قال لها يوما أبو جهل : إن اللات والعزى فعلا بك ماترين ، فقالت له : كلا والله لاتملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا ، هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد علىّ بصرى ، فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها ، فقالت قريش : إن هذا من سحر محمد صلى الله عليه وسلم ، فاشتراها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأعتقها ، أى وكذا ابنتها .

وفى السيرة الشامية أم عنيس بالنون أو الباء الموحدة فمثناة تحتية فسين مهملة ، أمة لبنى زهرة ، كان الأسود بن عبد يغوث يعذبها ولم يصفها بأنها بنت زنيرة ، فاشتراها أبوبكر رضى الله تعالى عنه وأعتقها . وكذا النهدية وابنتها ، وكانتا للوليد بن المغيرة . وكذا امرأة يقال لها لطيفة . وكذا أخت عامر بن فهيرة أو أمه ، كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يسلم .

فقد جاء أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه مر على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو يعذب جارية أسلمت استمر يضربها حتى ملّ قبل أن يسلم ، ثم قال لها : إنى أعتذر إليك فإنى لم أتركك حتى مليت ، فقالت له كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم ، فاشتراها منه وأعتقها .

وفى السيرة الشامية وصفها بأنها جارية بنى المؤمل بن حبيب ، وكان يقال لها لبينة ، فجملة هؤلاء تسعة .

وممن فتن عن دينه فثبت عليه خباب بن الأرتّ بالمثناة فوق ، فإنه سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار أى وكان قينا أى حدادا ، وكان صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه ، فلما أسلم وأخبرت بذلك مولاته صارت تأخذ الحديدة وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه ؛ فشكا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم انصر خبابا » ، فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوى مع الكلاب ، فقيل لها اكتوى ، فكان خباب يأخذ الحديدة وقد أحماها فيكوى رأسها » .

وفى البخارى عن خباب قال «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده فى ظل الكعبة» ولقد لقينا يعنى معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة ، فقلت : يارسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه ، فقال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » .

قال: وعن خباب رضى الله تعالى عنه أنه حكى عن نفسه ، قال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدوا لى نارا ووضعوها على ظهرى فما أطفأها إلا ودك ظهرى : أى دهنه .

وممن فتن عن دينه فثبت عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه ، كان يعذب بالنار .

وفى كلام ابن الجوزى « كان صلى الله عليه وسلم يمرّ به وهو يعذب بالنار فيمرّ يده على رأسه ، ويقول : يانار كونى بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم » هذا كلامه .

ثم إن عمارا كشف عن ظهره فإذا هو قد برص، أى صار أثر النار أبيض كالبرص، ولعل حصول ذلك كان قبل دعائه صلى الله عليه وسلم بأن النار تكون بردا وسلاما عليه.

وعن أم هانئ رضى الله تعالى عنها أن عمار بن ياسر وأباه ياسرا وأخاه عبد الله ، وسمية أم عمار رضى الله تعالى عنهم كانوا يعذبون فى الله تعالى ، فمرّ بهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر ، صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » أى وفى رواية « صبرا يا آل ياسر ، اللهم اغفر لآل ياسر ، وقد فعلت » فمات ياسر فى العذاب ، وأعطيت سمية لأبى جهل : أى أعطاها له عمه أبو حذيفة بن المغيرة ، فإنها كانت مولاته فطعنها فى قبلها فماتت : أى بعد أن قال لها : إن آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا لأنك عشقتيه لجماله، ثم طعنها بالحربة فى قُبُلِها حتى قتلها، فهى أول شهيدة فى الإسلام اهـ.

أى ومن بعضهم كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ، ويجعل لعمار درعا من حديد فى اليوم الصائف ، فنزل قوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .

وجاء « أن عمار بن ياسر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد بلغ منا العذاب

كل مبلغ ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صبرا أبا اليقظان ، ثم قال : اللهم لاتعذب أحدا من آل عمار بالنار » .

قال بعضهم : وحضر عمار بدرا ولم يحضرها من أبواه مؤمنان إلا هو : أى من المهاجرين . فلا ينافى أن بشر بن البراء بن معرور الأنصارى حضر بدرا وأبواه مؤمنان .

ومما أوذى به أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت « لما ابتلى المسلمون بأذى المشركين : أى وحصروا بنى هاشم والمطلب فى شعب أبى طالب ، وأذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة وهى الهجرة الثانية ، خرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه مهاجرا نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد» [] بالغين المعجمة موضع بأقاصى هجر ، وقيل موضع وراء مكة بخمسة أميال ، أى وفى رواية « حتى إذا سار يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة — بفتح الدال وكسر الغين المعجمة وتخفيف النون — وهو سيد القارة : أى وهو اسمه الحارث» والقارة : قبيلة مشهورة كان يضرب بهم المثل فى قوّة الرمى ، ومن ثم قيل لهم : رماة الحدق لا سيما ابن الدغنة . والقارة : أكمة سوداء نزلوا عندها فسموا بها «قال له: أين تريد يا أبا بكر ؟ قال أبو بكر: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى، قال ابن الدغنة : فإن مثلك ياأبابكر لا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق،وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع مع ابن الدغنة . فطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش ، وقال لهم: إن أبا بكر لايخرج مثله ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق وهو فى جوارى ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة » أى لم يردّ جواره « وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ابن الدغنة ذلك لأبى بكر رضى الله تعالى عنه،فمكث أبو بكر يعبد ربه فى داره ولايستعلن بصلاته ، ولايقرأ فى غير داره ، ثم ابتنى مسجدا بفناء داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فكانت نساء قريش يزدحمن عليه، فأفزع ذلك كثيرا من أشراف قريش» أى مع المشركين « فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا : إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة

والقراءة ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساونا وأبناءنا بهذا ، فإن أحب أن يقتصر على عبادة ربه في داره فعل ، وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد إليك ذمتك ، فانا قد كرهنا أن نخفرك — أي نزيل خفارتك — أي ننقض جوارك ونبطل عهـدك ، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي قد عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت : أي أزيلت خفارتي في رجل عقدت له ، فقال له أبو بكر : فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى ، قال : ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة فحثى على رأسه ترابا ، فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين ، فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه : ألا ترى ماصنع هذا السفيه ؟ فقال له : أنت فعلت بنفسك ، فصار أبو بكر يقول : رب ما أحلمك ، قال ذلك ثلاثا انتهى » .

أي وفي كلام بعضهم : وينبغي لك أن تتأمل فيما وصف به ابن الدغنة ، أبا بكر بين أشراف قريش بتلك الأوصاف الجليلة المساوية لما وصفت به خديجة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يطعنوا فيها مع ماهم متلبسون به من عظيم بغضه ومعاداته بسبب إسلامه ، فإن هذا منهم اعتراف : أي اعتراف بأن أبا بكر كان مشهورا بينهم بتلك الأوصاف شهرة تامة ، بحيث لا يمكن أحد أن ينازع فيها ، ولا أن يجحد شيئا منها ، وإلا لبادروا إلى جحدها بكل طريق أمكنهم ، لما تحلوا به من قبيح العداوة له بسبب ما كانوا يرون منه من صدق موالاته لرسول الله صلى الله عليه وسـلم وعظيم محبته له .

ومما يؤثر عنه رضي الله تعالى عنه : صنائع المعروف تقي مصارع السوء . ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي ، والنكث ، والمكر .

باب عرض قريش عليه صلى الله عليه وسلم أشياء من خوارق العادات وغير العادات ليكف عنهم لما رأوا المسلمين يزيدون و يكثرون ، وسؤالهم له أشياء من خوارق العادات معينات وغير معينات ، وبعثهم إلى أحبار يهود بالمدينة يسألونهم عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وعما جاء به ، وحديث الزبيدى ؛ وحديث المستهزئين به صلى الله عليه وسلم ، ومن حديثهم حديث الأراشي ومن قصد أذيته صلى الله عليه وسلم فردّ خائبا

حدث محمد بن كعب القرظى قال: حدثت وأن عتبة بن ربيعة . وكان سيدا مطاعا فى قريش ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش : أى متحدثهم والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ قالوا : يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه . قال : وفى رواية « أن نفرا من قريش اجتمعوا » وفى أخرى وأشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا وقالوا ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيــه ، فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يريد ؟ فقالوا لانعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة » انتهى . «فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب ــ أى من الوسط أى الخيار حسبا ونسبا ــ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم » قال زاد بعضهم أنه قال أيضا «أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أى فسكت ، إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خيرمنهم فقل يسمع لقولك ، لقد أفضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ،

ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى» انتهى «فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هـذا الأمر مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا » أى فيصير لك الأمر والنهى ، فهو أخص مما قبله « وإن كان هـذا الذى يأتيك رئيا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم ، قال : فاسمع منى ، قال أفعل ، قال (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقرأها عليه وقد أنصت عتبة لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد . ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : يحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم ، قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » قال : وفى رواية « أن عتبة لما قام من عند النبى صلى الله عليه وسلم أبعد عنهم ولم يعد عليهم ، فقال أبو جهل : والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأعجبه كلامه فانطلقوا بنا إليه ، فأتوه فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأعجبك أمره ، فقص عليهم القصة ، فقال : والله الذى

نصبها بنية يعني الكعبة ما فهمت شيئا مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فأمسكت بفيه فأنشدته الرحم أن يكف ، وقد علمت أن محمدا صلى الله عليه وسلم إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل عليكم العذاب ، فقالوا له : ويلك يكلمك الرجل بالعربية لاتدرى ماقال؟ قال : والله ماسمعت مثله ، والله ماهو بالشعر » إلى آخر ماتقدم « فقالوا : والله سحرك يا أبا الوليد ، قال : هذا رأيي فيكم ، فاصنعوا مابدا لكم اه .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قريشا : أي أشرافهم وشيختهم ، منهم الأسود بن زمعة ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبو جهل .

وفي الينبوع « أتى الوليد بن المغيرة في أربعين رجلا من الملأ : أي من السادات منزل أبي طالب وسألوه أن يحضر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمره باشكائهم مايشكون منه » أي أن يزيل شكواهم منه « ويجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح ، فأحضره وقال : يابن أخي هؤلاء الملأ من قومك فأشكهم وتألفهم ، فعاتبوا النبي صلى الله عليه وسلم على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم » الحديث : أي قالوا له « ياعمد إنا بعثنا إليك لنكلمك ، فإنا والله لانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ماأدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعيبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، ولم يبق أمر قبيح إلا أتيته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينافنحن نسودك ونشرفك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك تابعا من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبك » .

وفي رواية « أنهم لما اجتمعوا ودعوه صلى الله عليه وسلم ، فجاءهم مسرعا طمعا في هدايتهم حتى جلس إليهم وعرضوا عليه الأموال والشرف والملك ، فقال صلى الله عليه وسلم : ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، وأن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما « دعت قريش النبي صلى الله

عليه وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون به أغنى رجل بمكة ، ويزوّجوه ماأراد من النساء ، ويكف عن شتم آلهتهم ولا يذكرها بسوء » فقد ذكر « أن عتبة بن ربيعة قال له : إن كان أنّ مابك الباءة ، فاختر أى نساء قريش فنزوجك عشرا ، وقالوا له : ارجع إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل ماتحتاج إليه فى دنياك وآخرتك ، وقالو له : إن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال : وما هى ؟ قال : تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونعبد إلهك سنة ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبده خيرا مما نعبد كنت أخذت منه بحظك ، وإن كان الذى نعبد خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا ، فقال لهم : حتى أنظر مايأتى من ربى ، فجاء الوحى بقوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم) السورة » .

وعن جعفر الصادق أن المشركين قالوا له : اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا نعبد معك إلهك سنة ، فنزلت « أى لا أعبد ما تعبدون يوما ، ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة ، ولا أنا عابد ماعبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة ،روى ذلك التقدير جعفر ردا على بعض الزنادقة حيث قالوا له طعنا فى القرآن: لو قال امرؤا القيس * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * وكرر ذلك أربع مرات فى نسق أما كان عيبا ؟ فكيف وقع فى القرآن (قل يا أيها الكافرون) السورة وهى مثل ذلك وقوله (لكم دينكم ولى دين) نسخ بآية القتال ، وبقوله تعالى (أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .ولما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أنزل لما كرهتموه القرآن ، قالوا ائت بقرآن غير هذا ، فأنزل الله تعالى (ولو تقول علينا) الآيات .

وقد يقال : المناسب للرد عليهم قوله تعالى (قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) الآية ، ثم رأيت فى الكشاف ما يوافق ذلك . وهو لما غاظهم مافى القرآن من ذم عبادة الأصنام والوعيد الشديد قالوا ائت بقرآن آخر ليس فيه مايغيظنا من ذلك تتبعك ،أو بدله بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها ، نزل قوله تعالى (قل مايكون لى أن أبدله) الآية .

قال « وجلس أى صلى الله عليه وسلم مجلسا فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل

ابن هشام وعتبة بن ربيعة ، أى وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ، فقال لهم : أليس حسنا ماجئت به ؟ فيقولون بلى والله » وفى لفظ « هل ترون بما أقول بأسا ؟ فيقولون لا ، فجاء عبد الله بن أم مكتوم — وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين ، وهو ممن أسلم بمكة قديما — والنبى صلى الله عليه وسلم مشتغل بأولئك القوم وقد رأى منهم مؤانسة وطمع فى إسلامهم ، فصار يقول : يارسول الله علمنى مما علمك الله وأكثر عليه ، فشق عليه صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأعرض عن ابن أم مكتوم ولم يكلمه » انتهى .

أى وفى رواية « أشار صلى الله عليه وسلم إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه ، فكفه القائد ، فدفعه ابن أم مكتوم ، فعبس صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه مقبلا على من كان يكلمه ، فعاتبه الله تعالى فى ذلك بقوله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك) السورة » أى والمجىء مع العمى ينشأ عن مزيد الرغبة وتجشم الكلفة والمشقة فى المجىء ، ومن كان هذا شأنه فحقه الإقبال عليه لا الإعراض عنه « فكان بعد ذلك إذاجاءه يقول مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويبسط له رداءه » قال : وبهذا يسقط ماللقاضى أبى بكر ابن العربى هنا انتهى .

أقول : لعل الذى له هو ما ذكره تلميذه السهيلى ، وهو أن ابن أم مكتوم لم يكن أسلم حينئذ ، وإلا لم يسمه بالاسم المشتق من العمى دون الاسم المشتق من الإيمان لو كان دخل فى الإيمان قبل ذلك ، وإنما دخل فيه بعد نزول الآية ، ويدل على ذلك قوله للنبى صلى الله عليه وسلم استدننى يامحمد ، ولم يقل استدننى يارسول الله ، ولعل فى قوله تعالى (لعله يزكى) ، ما يعطى الترجى والانتظار ، ولوكان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حد الترجى والانتظار للتزكى ، هذا كلامه .

وعن الشعبى قال : دخل رجل على عائشة رضى الله تعالى عنها وعندها ابن أم مكتوم وهى تقطع له الأترج وتجعله فى العسل وتطعمه ، فقيل لها فى ذلك ؛ فقالت : مازال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عز وجل فيه نبيه صلى الله علية وسلم ؛ والله أعلم .

وفى فتاوى الجلال السيوطى من جملة أسئلة رفعت إليه ، فأجاب عنها بأنها باطلة : أن أبا جهل قال : يامحمد إن أخرجت لنا طاوسا من صخرة فى دارى آمنت بك ، فدعا ربه عز وجل فصارت الصخرة تئن كأنين المرأة الحبلى ثم انشقت عن طاوس صدره من ذهب

ورأسه من زبرجد ، وجناحاه من ياقوتة ، ورجلاه من جوهر ، فلما رأى ذلك أبو جهل أعرض ولم يؤمن .

وه' سألوه صلى الله عليه وسلم من الآيات غير المعينات على مارواه الشيخان أو معينة كما فى رواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وسيأتى مايعلم منه أنهم سألوه صلى الله عليه وسلم أولا آية غير معينة ثم عينوها فلا مخالفة .

فقد ذكر ابن عباس أن قريشا سألت النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية :

أى وفى رواية عن ابن عباس « اجتمع المشركون أى بمنى ، منهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، نصفا على أبى قبيس ، ونصفا على قعيقعان ، وقيل يكون نصفه بالمشرق ونصفه الآخر بالمغرب ، وكانت ليلة أربعة عشر : أى ليلة البدر ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا نعم ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا ، فانشق القمر نصفا على أبى قبيس ونصفا على قعيقعان » وفى لفظ « فانشق القمر فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه » ولعل الفرقة التى كانت فوق الجبل كانت جهة المشرق ، والتى كانت دون الجبل كانت جهة المغرب « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا اشهدوا » ولا منافاة بين الروايتين ، ولا بينهما وبين ما جاء فى رواية « فانشق القمر نصفين : نصفا على الصفا ، ونصفا على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظر إليه ثم غاب » أى ثم إن كان الانشقاق قبل الفجر فواضح وإلا فمعجزة أخرى ، لأن القمر ليلة أربعة عشر يستمر جميع الليل ، وسيأتى عن زين المعمر « أنه عاد بعد غروبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا » والفرقتان هما المرادتان بالمرتين فى بعض الروايات التى أخذ بظاهرها بعضهم كالزين العراقى « فقال إنه انشق مرتين » لأن المرة قد تستعمل فى الأعيان وإن كان أصل وضعها الأفعال . فقد قال ابن القيم : كون القمر انشق مرتين مرة بعد مرة فى زمانين من له خبرة بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته يعلم أنه غلط وأنه لم يقع الانشقاق إلا مرة واحدة « وعند ذلك قال كفار قريش سحركم ابن أبى كبشة » أى وهو أبو كبشة أحد أجداده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، لأن وهب بن عبد مناف

ابن زهرة جد أبى آمنة أمه يكنى أبا كبشة ، أو هو من قبل مرضعته حليمة ، لأن والدها أو جدها كان يكنى بذلك ، أو كان لها بنت تسمى كبشة فكان زوجها الذى هو أبوه من الرضاعة يكنى بتلك البنت كما تقدم فى الرضاع .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم فقال : « حدثنى حاضنى أبو كبشة أنهم لما أرادوا دفن سلول وكان سيدا معظما حفروا له فوقعوا على باب مغلق ففتحوه ، فإذا سرير وعليه رجل وعليه حلل عدة وعند رأسه كتاب : أنا أبو شهر ذو النون مأوى المساكين ، ومستفاد الغارمين ، أخذنى الموت غصبا ، وقد أعيى الجبابرة » قيل : قال صلى الله عليه وسلم « كان ذو النون هذا هو سيف بن ذى يزن الحميرى » وقيل أبو كبشة جده صلى الله عليه وسلم لأبيه ، لأن أبا أم جده عبد المطلب كان يدعى أبا كبشة ، وكان يعبد النجم الذى يقال له الشعرى ، وترك عبادة الأصنام مخالفة لقريش ، فهم يشيرون بذلك إلى أن له فى مخالفته سلفا .

وقيل الذى عبد الشعرى وترك عبادة الأصنام رجل من خزاعة ، فشبهوه صلى الله عليه وسلم به فى مخالفته لهم فى عبادة الأصنام : أى ومما قد يؤيد هذا الأخير مافى الإتقان حيث مثل بهذه الآية للنوع المسمى بالتنكيت ، وهو أن يخص المتكلم شيئا من بين الأشياء بالذكر لأجل نكتة كقوله تعالى (وأنه هو رب الشعرى) خص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم وهو سبحانه وتعالى رب كل شئ ، لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كبشة ، عبد الشعرى ودعا خلقا إلى عبادتها ، فأنزل الله تعالى (وأنه هو رب الشعرى) التى ادعيت فيها الربوبية هذا كلامه . وكبشة ليس مؤنث كبش ، لأن مؤنث الكبش ليس من لفظه ، فقال رجل منهم : إن محمدا إن كان سحر القمر أى بالنسبة إليكم فإنه لايبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها : أى جميع أهل الأرض . وفى رواية « لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك » . وفى رواية « أن أبا جهل قال هذا سحر ، فاسألوا أهل الآفاق » وفى لفظ « انظروا ما يأتيكم به السفار حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا ، فأخبروا أهل الآفاق » وفى لفظ « فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه فأخبروهم أنهم رأوه منشقا ، فعند ذلك قالوا هذا سحر مستمر » أى مطرد ، فهو إشارة إلى ذلك وإلى ما قبله من الآيات . وفى لفظ « قالوا هذا سحر ، أسحر

السحرة ، فأنزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى مطرد كما تقدم ، أو محكم أو قوى شديد ، أو مارّ ذاهب لايبقى ، وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقا أهل مكة ؛ بل جميع أهل الآفاق . وبه يرد قول بعض الملاحدة : لو وقع انشقاق القمر لاشترك أهل الأرض كلهم فى معرفته ، ولم يختص بها أهل مكة . ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة خاصة ، فاختصت رؤيته بمن اقترح وقوعه ، ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ فى بعض المنازل التى تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض ، ولا بقول بعضهم إن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع طائفة فى جنح ليلة ومعظم الناس نيام .

وفى فتح البارى حنين الجذع وانشقاق القمر ، نقل كل منهما نقلا مستفيضا يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث .

أقول : وإلى انشقاق القمر أشار صاحب الهمزية بقوله :

شق عن صدره وشق له البد ... ر ومن شرط كل شرط جزاء

أى شق عن صدره صلى الله عليه وسلم . وفى نسخة قلبه وكل منهما صحيح ، لأنه شق صدره أولا ثم شق قلبه ثانياً ، وشق لأجله القمر ليلة أربعة عشر ، وإنما شق له صلى الله عليه وسلم ، لأن من شرط كل شرط جزاء ، لأنه لما شق صدره صلى الله عليه وسلم جوزى على ذلك بأعظم مشابه له فى الصورة ، وهو شق القمر الذى هو من أظهر المعجزات بل أعظمها بعد القرآن ، وقد أشار إلى ذلك أيضا الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وبدر الدياجى انشق نصفين عندما ... أرادت قريش منك إظهار آية

أى فإنهم ائتمروا فيما بينهم ، فاتفقوا على أن يقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم انشقاق القمر الذى هو بعيد عن الأطماع فى غاية الامتناع : أى فقد سألوه أولا آية غير معينة ثم عينوها .

وفى الإصابة عن بعضهم قال « وأنا ابن تسع عشرة سنة سافرت مع أبى وعمى من خراسان إلى الهند فى تجارة ، فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى شيعة من الضياع ، فعرج أهل القافلة نحوها فسألناهم عن ذلك ، فقالوا هذه ضيعة الشيخ زين الدين المعمر ، فرأينا شجرة خارج الضيعة تظل خلقاً كثيرا وتحتها جمع عظيم من أهل تلك الضيعة ، فلما رأونا رحبوا بنا ، فرأينا زنبيلا معلقا فى بعض أغصان تلك الشجرة ، فسألناهم فقالوا فى هذا

الزنبيل الشيخ زين الدين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بطول العمر ست مرات، فبلغ ستمائة سنة كل دعوة بمائة سنة ، فسألناهم أن ينزلوا الشيخ لنسمع كلامه وحديثه ، فتقدم شيخ منهم فأنزل الزنبيل، فإذا هو مملوء بالقطن والشيخ فى وسط القطن وهو كالفرخ فوضع فمه على أذنه وقال : ياجداه هؤلاء قوم قد قدموا من خراسان وقد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وماذا قال لك ؟ فعند ذلك تنفس الشيخ وتكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية ونحن نسمع ، فقال: سافرت مع أبى وأنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز فى تجارة ، فلما بلغنا بعض أودية مكة وكان المطر قد ملأ الأودية فرأيت غلاماً حسن الشمائل يرعى إبلا فى تلك الأودية وقد حالت السيل بينه وبين إبله وهو يخشى من خوض الماء لقوة السيل ، فعلمت حاله ، فأتيت إليه وحملته وخضت به السيل إلى عند إبله من غير معرفة سابقة ، فلما وضعته عند إبله نظر إلىّ ودعا لى ، ثم عدنا إلى بلادنا وتطاولت المدة ، فى ليلة ونحن جلوس فى ضيعتنا هذه فى ليلة مقمرة ليلة البدر والبدر فى كبد السماء،إذ نظرنا إليه قد انشق نصفين، فغرب نصف فى المشرق ونصف فى المغرب وأظلم الليل ساعة ، ثم طلع النصف من المشرق والثانى من المغرب إلى أن التقيا فى وسط السماء كما كان أول مرة ، فتعجبنا من ذلك غاية العجب ، ولم نعرف لذلك سببا ، فسألنا الركبان عن سببه فأخبرونا أن رجلا هاشميا ظهر بمكة وادعى أنه رسول الله إلى كافة العالم وأن أهل مكة سألوه معجزة ، واقترحوا عليه أن يأمر لهم القمر فينشق فى السماء ويغرب نصفه فى المشرق ونصفه فى المغرب ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، ففعل لهم ذلك، فاشتقت إلى رؤياه ، فذهبت إلى مكة وسألت عنه فدلونى على موضعه ، وأتيت إلى منزله ، واستأذنت فأذن لى فى الدخول فدخلت عليه ، فلما سلمت عليه نظر إلىّ وتبسم وقال : ادن منى وبين يديه طبق فيه رطب ، فتقدمت وجلست وأكلت من الرطب ، وصار يناولنى، إلى أن ناولنى ست رطبات ، ثم نظر إلىّ وتبسم وقال لى : ألم تعرفنى ؟ قلت لا ، فقال : ألم تحملنى فى عام كذا فى السيل ؟ ثم قال : امدد يدك فصافحنى وقال : قل أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقلت ذلك، فسرّ أىّ وقال عند خروجى من عنده بارك الله فى عمرك ، قال ذلك ست مرات ، فبارك الله لى فى عمرى بكل دعــوة مائة سنة ، فعمرى اليوم ستمائة سنة : أى فى المائة السادسة مشرف على تمامها تأمل .

وسئل الحافظ السيوطى عن مثل هذا الحديث ، وهو الحديث الذى رواه معمر ، الذى يزعم أنه صحابى ، وأنه يوم الخندق صار ينقل التراب بغلقين : وبقية الصحابة بغلق واحد ، ضرب النبى صلى الله عليه وسلم بكفه الشريف بين كتفيه أربع ضربات ، وقال له : عمرك الله يا معمر ، فعاش بعد ذلك أربعمائة سنة ببركة الضربات التى ضربها بين كتفيه كل ضربة مائة سنة ، وقال له بعد أن صافحه : من صافحك إلى ست أو سبع لم تمسه النار ، هل هو صحيح أم هو كذب وافتراء لا تجوز روايته ؟ فأجاب بأنه باطل وأن معمرا هذا كذاب دجال ، لأنه ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال قبل موته بشهر « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » وقد قال أهل الحديث وغيرهم : إن من ادعى الصحبة بعد مائة سنة من وفاته صلى الله عليه وسلم فهو كذاب ، ومعلوم أن آخر الصحابة مطلقا موتا أبو الطفيل ، مات سنة عشر ومائة من الهجرة ثبت ذلك فى صحيح مسلم » واتفق عليه العلماء ، فمن ادعى الصحبة بعد أبى الطفيل فهو كذاب .

ومما سألوه صلى الله عليه وسلم من الآيات المعينات ماحدث به بعضهم ، قال « إن قريشا قالت له صلى الله عليه وسلم : سل ربك يسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، ويبسط لنا بلادنا ، وليخرق فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن بعث لنا قصى بن كلاب ؛ فإنه كان شيخ صدق ، فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل . قال : زاد فى رواية : فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك إلينا رسولا كما تقول ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابهذا بعثت لكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به » ا هـ .

ثم قالوا له « واسأل ربك يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك » أى وفى لفظ « قالوا له لم لا ينزل علينا الملائكة ، فتخبرنا بأن الله أرسلك أو نرى ربنا فيخبرنا بأنه أرسلك فنؤمن حينئذ بك . وقال آخر : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه » أى فلابد أن تتميز عنا حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا : أى وفى لفظ «قالوا إن محمدا يأكل الطعام كما نحن نأكل ، ويمشى فى الأسواق ؛ ويلتمس المعاش كما نلتمس نحن ، فلا يجوز

أن يمتاز عنا بالنبوة . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وأنزل الله تعالى (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) ولما قالوا الله أعظم أن يكون رسوله بشرا منا أنزل الله تعالى (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) ثم قالوا : وأسقط السماء علينا كسفا : أى قطعا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، وقد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبدا : أى وقد عنوا بالرحمن مسيلمة ، وقيل عنوا كاهنا كان لليهود باليمامة ، وقد رد الله تعالى عليهم بأن الرحمن المعلم له هو الله تعالى بقوله (قل هو) أى الرحمن (ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) أى توبتى ورجوعى [ ] وعند ذلك قام صلى الله عليه وسلم حزينا آسفا على ما فاته من هدايتهم التى طمع فيها ، وقال له عبد الله بن عمته عاتكة بنت عبد المطلب قبل أن يسلم رضى الله تعالى عنه : يا محمد قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل ، ثم سألوك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، والله لن نؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك : أى كتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول ، وايم الله إنك لو فعلت ذلك ، ما ظننت أنى أصدقك ، فأنزل الله تعالى عليه الآيات التى فيها شرح هذه المقالات فى سورة الإسراء ، وفيها الإشارة إلى أنه تعالى خيره بين أن يعطيه جميع ما سألوا ، وأنهم إن كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب كالأمم السابقة ، وبين أن يفتح لهم باب الرحمة والتوبة لعلهم يتوبون وإليه يرجعون ، فاختار الثانى ، لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم من كثير منهم العناد ، وأنهم لا يؤمنون ، وإن حصل ما سألوا فيستأصلوا بالعذاب ، لأن الله تعالى يقول (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

وعن محمد بن كعب ما حاصله « أن الملأ من قريش أقسموا للنبى صلى الله عليه وسلم بالله عز وجل أنهم يؤمنون به إذا صار الصفا ذهبا ، فقام يدعو الله تعالى أن يعطيهم ماسألوه فأتاه جبريل : فقال له : إن شئت كان ذلك ولكنى لم آت قوما بآية اقترحوها فلم يؤمنوا بها إلا أمرت بتعذيبهم » وفيه أنه حينئذ يشكل رواية سؤالهم انشقاق القمر .

وفى رواية « أتاه جبريل ، فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول : إن شئت

أن يصبح لهم الصفا ذهبا ، فإن لم يؤمنوا أنزلت عليهم العذاب ، عذابا لا أعذبه أحـــدا من العالمين ؛ وإن شئت أن لاتصير الصفا ذهبا وفتحت لهم باب الرحمة والتوبة ، فقال : لا ، بل أن تفتح لهم باب الرحمة والتوبة » .

وفى رواية «وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وسلم، بل حتى يتوب تائبهم»

وأيضا وافق على فتح باب الرحمة والتوبة ، لأنه صلى الله عليه وسلم علم أن سؤالهم لذلك جهل ، لأنه خفيت عليهم حكمة إرسال الرســـل ، وهى امتحان الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل ، ليكون إيمانهم عن نظر واستدلال ، فيحصل الثواب لمن فعـــل ذلك ، ويحصل العقاب لمن أعرض عنه ، إذ مع كشف الغطاء يحصل العلم الضرورى ، فلا يحتاج إلى إرسال الرسل ، ويفوت الإيمان بالغيب .

وأيضا لم يسألوا ما سألوا من تلك الآيات إلا تعنتا واستهزاء ، لا على جهة الاسترشاد ودفع الشك، وإلى سؤالهم تلك الآيات وارتيابهم فى القرآن ، وقولهم فيه إنه سحر وافتراء: أى سحر يأثره : أى يأخذه عن مثله وعن أهل بابل، يفرّق به بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته (إن هو إلا قول البشر) من قول أبى اليسر ، وهو عبد لبنى الحضرمى كان النبى صلى الله عليه وسلم يجالسه وإلى قول أبى جهل أيضا : تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلب الشرف ، حتى صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى إليه ، والله لانرضى به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فنزل قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله) وإلى هذا أشار صاحب الهمزية بقوله :

عجبا للـــكفار زادوا ضلالا ... بالذى فيه للعقول اهتـــداء
والذى يسألون منـــه كتاب ... منزل قـــد أتاهم وارتقاء

أى أعجب عجبا من حال الكفار حالة كونهم زادوا ضلالا بالقرآن الذى فيه اهتداء للعقول ، وأعجب عجبا أيضا من الأمر الذى يطلبونه منه صلى الله عليه وسلم ، وهو كثير من جملته كتاب منزل معه عليهم من السماء وهو القرآن :

أو لم يكفهم من الله ذكر ... فيه للناس رحمة وشفاء
أعجز الإنس آية منه والجن ... فهلا يأتى بـــه البلغاء
كل يوم يهدى إلى سامعيه ... معجزات من لفظه القراء
تتحلى به المسامع والأفـــــواه ... فهو الحـــلى والحلواء

رقّ لفظا وراق معنى فجاءت ... فى حلاها وحليها الخنساء
وأرتنا فيه غوامض فضل ... رقة من زلاله وصفاء
إنما تجتلى الوجوه إذا ما ... جليت عن مرآتها الأصداء
سور منه أشبهت صورا منـــا ... ومثل النظائر النظراء
والأقاويل عندهم كالتماثيـــل ... فلا يوهمنك الخطباء
كم أبانت آياته عن علوم ... من حروف أبان عنها الهجاء
فهى كالحب والنوى أعجب الزرا ... ع منها سنابل وزكاء
فأطالوا فيه التردد والريـــب ... فقالوا سحر وقالوا افتراء
وإذا البينات لم تغن شيئا ... فالتماس الهدى بهن عناء
وإذا ضلت العقول على علـــم ... فماذا تقوله الفصحاء

أى أو لم يكفهم عما سألوه عنادا ذكر واصل إليهم ، حالة كونه من الله تعالى رحمة وشفاء للناس والجن والملائكة ، أعجز الإنس والجن آية منه ، فهلا يأتى بتلك الآية أهل البلاغة ، كل وقت يهدى قراؤه إلى سامعيه معجزات من لفظه ، ولذلك تتحلى بسماعه المسامع ، من التحلية التى هى لبس الحلى ، وتتحلى بألفاظه الأفواه من الحلواء فهو الحلى ، والحلواء حسن من جهة اللفظ ، وتصفى من شوائب النقص من جهة المعنى ، فأرتنا رقة من زلاله ، وصفاء من ذلك الزلال ، خبايا فضل فيه وهى العلوم المستنبطة منه ، وإنما تظهر الوجوه ظهورا واضحا لاخفاء معه بوجه إذا قوبلت بمرآة ، وقت جلاء الأصداء عن تلك المرآة سور منه أشبهت صورا منا ، من حيث اشتمال كل صورة منا على عقل وفهم ، وخلق لا يشاركه فيه غيره ، والأقاويل الصادرة من الكفار فى القرآن كالصور التى يصورها المصورون فإنه لا وجود لها فى الحقيقة ؛ فما قالوه فى القرآن باطل قطعى البطلان ، فاحذر الخطباء أن توقع فى وهمك أن ما تأتى به يقارب القرآن ، كم أوضحت آياته علوما حالة كونها متولدة من حروف قليلة كشف عنها التهجى ، كالحب الذى يلقيه الزارع ، والنوى الذى يلقيه الغارس ، أعجب الزراع والغراس منها : أى من تلك الحبوب والنوى ســنابل وثمار وتمر فاق الحصر ؛ فأطالوا فى تلك السور الشك فقالوا سحر وتمويه لا حقيقة له ، وقالوا مرة أخرى أساطير الأولين ، وإذا كانت الحجج والبراهين لم تفدهم شيئا من الهدى ، فطلب الهدى منهم بتلك الحجج تعب لا يفيد شيئا ؛ وإذا ضلت العقول

عن طرق الحق مع علم منها بتلك الطرق فأى قول يقوله الفصحاء : أى وقال الوليد ابن المغيرة يوما : أينزل القرآن على محمد ، وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود الثقفى سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين : أى مكة والطائف ؟ فأنزل الله تعالى (وقالوا لولا) أى هلا (أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى أعظم وأشرف من محمد صلى الله عليه وسلم ، فرد الله تعالى عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) الآية .

وفى لفظ قال بعضهم «كان الأحق بالرسالة الوليد بن المغيرة من أهل مكة أو عروة ابن مسعود الثقفى من أهل الطائف» . ثم لايخفى أن كفار قريش بعثوا مع النضر بن الحارث عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما : اسألاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول : أى التوراة ، لأنه قبل الإنجيل وعندهم علم ليس عندنا ، فخرجا ، حتى قدما المدينة وسألا أحبار يهود : أى قالا لهم : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم حقير يقول قولا عظيما ، يزعم أنه رسول الله. وفى لفظ «رسول الرحمن ، قالوا صفوا لنا صفته ، فوصفوا ، قالوا فمن يتبعه منكم ؟ قالوا سفلتنا ، فضحك حبر منهم وقالوا : هذا النبي الذى نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

قالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإنه لم يفعل فالرجل متقول . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : أى وهم أهل الكهف ماكان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : أى وهو ذو القرنين ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهى ؟ فإذا أخبركم بذلك : أى بحقيقة الأولين وبعارض من عوارض الثالث ، وهو كونها من أمر الله فاتبعوه فانه نبي ، فرجع النضر وعقبة إلى قريش وقالا لهم : قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد وأخبراهم الخبر ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن ذلك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: أخبركم غدا، ولم يستثن : أى لم يقل إن شاء الله تعالى وانصرفوا ، فمكث صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوما ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعة أيام لايأتيه الوحى، وتكلمت قريش فى ذلك بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن محمدا قلاه ربه وتركه : أى ومن جملة من قال ذلك له صلى الله عليه وسلم أم جميل امرأة عمه أبي لهب ، قالت له : ماأرى صاحبك إلا وقد ودعك وقلاك : أى تركك

وبغضك . وفى رواية قالت : امرأة من قريش : أبطأ عليه شيطانه، وشقّ عليه صلى الله عليه وسلم ذلك منهم . ثم جاءه جبريل بسورة الكهف وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا وهم أهل الكهف » .

ويروى « أنهم يكونون مع عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إذا نزل ، ويحجون البيت. وخبر الرجل الطواف وهو ذو القرنين: أى وهو إسكندر ذو القرنين كان له قرنان صغيران من لحم تواريهما العمامة » .

وفى لفظ : كان له شبه القرنين فى رأسه ، وقيل غديرتان من شعر ، وقيل لأنه قرن مابين طلوع الشمس ومغربها : أى بلغ قطرى المشرق والمغرب ، وقيل ضرب على قرن رأسه فمات ثم أحيي ، ثم ضرب على قرنه الآخر فمات ثم أحيي . وقيل لأنه ملك الروم وفارس ، وقيل لأنه انقرض فى زمنه قرنان من الناس ، والقرن زمان مائة سنة ، وكان ذو القرنين رجلا صالحا من أهل مصر من ولد يونن . وفى لفظ يونان بن يافث بن نوح ، وكان من الملوك العادلة ، وكان الخضر صاحب لوائه الأكبر . وقيـــل كان نبيا قاله الضحاك .

وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل بالجواب عن الروح المذكور ذلك فى سورة الإسراء، وهو أن الروح من أمر الله : أى قل لهم الروح من أمر ربى : أى من علمه لايعلمه إلا هو : أى وكان فى كتبهم أن الروح من أمر الله : أى مما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه ، ومن ثم جاء فى بعض الروايات ماتقدم « إن أجابكم عن حقيقة الروح فليس بنبى ، وإلا بأن أجابكم عنها بأنها من أمر الله فهو نبى » ولعل هـذا هو المراد كما جاء فى بعض الروايات « سلوه عن الروح ، فإن أخبركم به فليس بنبى ، وإن لم يخبركم فهو نبى » .

أقول : إذا كان فى كتبهم أن حقيقة الروح ممـا استأثر الله تعالى بعلمه كيف يسألونه فيخبرهم بذلك ؟ إلا أن يقال : المراد إن أجابكم بغـير قوله من أمر ربى فاعلموا أنه غير نبى ، فإنه يحاول أن يخبركم عن حقيقتها، وحقيقتها لا يعلمها إلا الله تعالى .

ويوافقه مافى مأثور التفسير « من أمر ربى » من علـم ربى لا علـم لى به . وفى بعض الروايات عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم، فإن قال لكم من الله تعالى ، فقولوا له كيف يعذب الله فى النار شيئا هو منه » .

وحاصل الجواب الذى أشارت إليـه الآية أن الروح أمر بمعنى مأموز : أى مأمور

من مأموراته ، وخلق من خلقه ، لا أنها جزء منه ، والله أعلم : أى وهـذا يدل على أن المسئول عنه روح الإنسان التى هى سبب فى إفادة الحياة للجسد .

وفى كلام الإمام الغزالى رحمه الله تعالى أن الروح روحان : حيوانى ، وهى التى تسميه الأطباء المزاج ، وهو جسم لطيف بخارىّ معتدل ، سار فى البدن الحامل لقواه من الحواس الظاهرة والقوى الجسمانية ، وهذه الروح تفنى بفناء البدن وتنعدم بالموت . وروح روحانى وهى التى يقال لها النفس الناطقة ، ويقال لها اللطيفة الربانية ، ويقال لها العقل ، ويقال لها الروح ويقال لها القلب ؛ من الألفاظ الدالة على معنى واحد ، لها تعلق بقوى النفس الحيوانى ، وهـذه الروح لا تفنى بفناء البدن ، وتبقى بعد الموت ، هذا كلامه .

وفى كلام بعضهم : والروح عند أكثر أهل السنة جسم لطيف ، مغاير للأجسام ماهية وهيئة ، متصرف فى البدن، حالّ فيه حلول الدهن فى الزيتون يعبر عنه بأنا وأنت . وإذا فارق البدن مات .

وذهب جمع منهم الغزالى والإمام الرازى وفاقا للحكماء والصوفية إلى أنه جوهر مجرّد غير حالّ بالبـدن ، يتعلق به تعلق العاشق بالمعشوق ، يدبر أمره على وجه لا يعلمه إلا الله اهـ .

ورأيت فى كلام الشيخ الأكبر أن الإمام ركن الدين السمرقندى لما فتح المسلمون بلاد الهند ، خرج بعض علمائها ليناظر المسلمين ، فسأل عن العلماء ، فأشاروا إلى الإمام ركن الدين السمرقندى ، فقال له الهندى : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد الله بالغيب ، قال : من أنبأكم ؟ قالوا : محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : فما الذى قال فى الروح ؟ قال : هو من أمر ربى ، فقال صدقتم فأسلم ، وليس المراد بالروح خلق من الملائكة على صورة بنى آدم ، أو ملك عظيم عرض شحمة أذنه خمسمائة عام إلى غير ذلك مما قيل . قال بعضهم : قلت كذا فى هذه الرواية أنهم سألوه : أى مشركو مكة عن الروح . وحديث ابن مسعود يدل على أن السؤال عن الروح ونزول الآية كان بالمدينة : أى من اليهود ، هذا كلامه .

وفيه أنه سيأتى جواز تكرار السؤال وتكرر نزول الآية إلى آخر ما يأتى ، وبه يعلم ما فى الإتقان حيث تعقب قول بعضهم : إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم سألوه عن الروح وعن ذى القرنين بقوله : قلت : السائل عن الروح وذى القرنين مشركو مكة أو اليهود كما فى أسباب النزول لا الصحابة .

وفى الإتقان : قد يعدل عن الجواب أصلا إذا كان السائل قصده التعنت نحو ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ قال صاحب الإفصاح : إنما سأل اليهود تعجيزا وتغليطا إذا كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان والقرآن وعيسى وجبريل وملك آخر وصنف من الملائكة ؛ فقصد اليهود أن يسألوه صلى الله عليه وسلم ، فبأىّ مسمى أجابهم ؟ قالوا : ليس هو ، فجاءهم الجواب مجملا . وكان هذا الإجمال كيدا يردّ به كيدهم ، وفى سورة الكهف أيضا آية ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أى إذا أردت أن تقول سأفعل شيئا فيما يستقبل من الزمان تقول إن شاء الله ، فإن نسيت التعليق بذلك ثم تذكرت تأتى بها ، فذكرها بعد النسيان كذكرها بعد القول . قال جمع منهم الحسن : مادام فى المجلس : أى وظاهره وإن طال الفصل .

وفى الخصائص الكبرى أن هذا : أى الإتيان بالمشيئة بعد التذكر من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحد منا أن يستثنى : أى يأتى بالمشيئة إلا فى صلة يمينه .

أقول : كان ينبغى أن يقول فى صلة إخباره ، لأن مساق الآية فى الإخبار لا فى الحلف .

فإن قيل : هى عامة فى الخبر والحلف . قلنا كان ينبغى أن يقول حينئذ فى صلة كلامه وحينئذ يقتضى كلامه أنا نشاركه فى الخبر دون الحلف والله أعلم .

ثم لا يخفى أنه قيل سبب احتباس الوحى أنه لم يقل إن شاء الله تعالى وهو المشهور ؛ وقيل لأنه كان فى بيته كلب . وفى لفظ : كان تحت سريره جرو ميت ؛ فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما عاتب جبريل فى احتباسه ، قال : أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب : أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال لخادمته خولة : ياخولة ما حدث فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ جبريل لا يأتينى ، قالت : فقلت فى نفسى : لو كنست البيت ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو ميتا » .

أقول : قال ابن كثير : قد ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة ، ولا كلب ، ولا جنب » وقد أورد بعض الزنادقة سؤالا ، وهو

إذا كانت الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب أو صورة : أى صورة التماثيل التى فيها الأرواح ، يلزم أن لا يموت من عنده كلب أو صورة ، وأن لا يكتب عمله .

وأجيب عنه بأن المراد لا تدخل ذلك البيت دخول إكرام لصاحبه وتحصيل بركة ، فلا ينافى دخولهم لكتابة الأعمال وقبض الأرواح ، والله أعلم .

وقيل لأنه صلى الله عليه وسلم زجر سائلا ملحا ، وقد كان قبل ذلك يرد السائل بقوله « آتاكم الله من فضله » أى وربما سكت ، فقد روى الشيخان « ماسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقال لا » قال الحافظ ابن حجر : المراد بذلك أنه لا ينطق بالرد ، بل إن كان عنده شيء أعطاه وإلا سكت ، وهـذا هو المراد بما جاء أنه صلى الله عليه وسلم ما ردّ سائلا قط : أى ما شافهه بالرد .

وقد حكى بعضهم قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يارسول الله استغفرلى ، فسكت ، فقلت : يا رسول الله إن ابن عيينة حدثنا عن جابر أنك ما سئلت شيئا قط فقلت لا ، فتبسم صلى الله عليه وسلم واستغفرلى ، أى فكان يأتى بالأول حيث لايكون المقام يقتضى الاقتصار على السكوت ، ولعل هذا فى غير رمضان .

فلا يخالف مارواه البزار عن أنس رضى الله تعالى عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل » وبين الشيخ ابن الجوزى فى النشر سبب إلحاح هذا السائل ، فقال « إن النبى صلى الله عليه وسلم أهدى إليه قطف عنب قبل أوانه ، فهمّ أن يأكل منه ، فجاءه سائل فقال : أطعمونى مما رزقكم الله ، فسلم إليه ذلك القطف ، فلقيه بعض الصحابة فاشتراه منه وأهداه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فعاد السائل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه إياه ، فلقيه رجل آخر من الصحابة فاشتراه منه وأهداه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فعاد السائل فسأله فانتهره وقال : إنك ملحّ » قال : وهذا سياق غريب جدا ، وهو معضل .

وقيل سبب ذلك غير ذلك ، من ذلك الغير « أن جبريل عليه السلام لما قال له صلى الله عليه وسلم : ما حبسك عنى ؟ قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شعوركم ، ولا تستاكون » .

أقول : واختلاف هذه الأسباب ظاهر فى أن الواقعة متعددة . ولا ينافيه قوله : ونزلت : أى آية سورة الضحى ردّا عليهم فى قولهم إن محمدا قلاه ربه وتركه ، وهى

(ماودّعك ربك وما قلى) أى ماقطعك قطع المودع ، وما أبغضك ، لأنه يجوز أن يكون مما تكرر نزوله لاختلاف سببه .

ويمكن أن يقال : يجوز أن تكون الواقعة واحدة وتعددت أسبابها . ولا ينافيه إخبار جبريل عليه السلام تارة بأن سبب احتباسه عدم قص الأظفار وما ذكر معه، وتارة بأن الملائكة لاتدخل بيتاً فيه كلب ، وتارة بقوله (وما نتنزل إلا بأمر ربك) كما يأتى قريباً ، وكما سيأتى فى قصة الإفك ، لكن قال الحافظ ابن حجر : قصة إبطال جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية أى (ماودعك ربك وما قلى) غريب فالمعتمد مافى الصحيح هذا كلامه .

أقول : ومما يدل على أن واقعة الجرو كانت بالمدينة مافى بعض التفاسير أن هذا الجرو كان للحسن والحسين رضى الله عنهما، وما رواه مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: « واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى ساعة أن يأتيه ، فجاء تلك الساعة ولم يأته فيها ، قالت : وكان بيده عصا فطرحها من يده وهو يقول : مايخلف الله وعده ولا رسله ، ثم التفت فإذا كلب تحت السرير ، فقال : متى دخل هذا الكلب ؟ فقلت : والله مادريت به ، فأمر به فأخرج ، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعدتنى فجلست لك ولم تأت ؟ فقال : منعنى الكلب الذى كان فى بيتك ، إنا لاندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » .

وفى زيادة الجامع الصغير « أتانى جبريل فقال لى : إنى كنت أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت عليك البيت الذى كنت فيه إلا أنه كان على الباب تماثيل ، وكان فى البيت ستر فيه تماثيل ، وكان فى البيت كلب ، فأمر صلى الله عليه وسلم برأس التمثال الذى فى البيت فليقطع فيصير كهيئة الشجرة ، وأمر بالستر فليقطع فيجعل منه وسادتين منبوذتين توطآن ، وأمر بالكلب فأخرج » ومعلوم أن مجىء جبريل له صلى الله عليه وسلم إكرام وتشريف له صلى الله عليه وسلم ، فلا ينافى ماتقدم فليتأمل .

ولما نزلت السورة المذكورة كبر صلى الله عليه وسلم فرحاً بنزول الوحى ، واستمر صلى الله عليه وسلم لايجاهر قومه بالدعوة حتى نزل (وأما بنعمة ربك فحدث) فعند ذلك كبر صلى الله عليه وسلم أيضاً ، وكان ذلك سبباً للتكبير فى افتتاح السورة التى بعدها وفى ختمها إلى آخر القرآن .

وعن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه « أنه قرأ كذلك على النبى صلى الله عليه وسلم بعد أمره له بذلك ، وأنه كان كلما ختم سورة وقف وقفة ثم قال : الله أكبر » .

هذا ، وقيل ابتداء التكبير من أول ألم نشرح لامن أول والضحى . وقيل إن التكبير إنما هو لآخر السورة ، وابتداؤه من آخر سورة الضحى إلى آخر (قل أعوذ برب الناس) والإتيان بالتكبير فى الأول والآخر جمع بين الروايتين والرواية التى جاءت بأنه كبر فى أول السورة المذكورة والرواية الأخرى أنه كبر فى آخرها .

ومما يدل على أن التكبير أول سورة الضحى ، ماجاء عن عكرمة بن سليمان قال « قرأت على إسمعيل بن عبد ربه ، فلما بلغت الضحى قال : كبر ؛ فإنى قرأت على عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة ، فلما بلغت (والضحى) قال لى : كبر حتى تختم . وأخبرنى ابن كثير أنه قرأ على مجاهد ، فأمره بذلك ، وأخبره أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبى بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أبى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بذلك » قال بعضهم : حديث غريب .

ونقل عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال لآخر : إذا تركت التكبير : أى من الضحى إلى الحمد فى الصلاة وخارجها فقد تركت سنة من سنن نبيك صلى الله عليه وسلم ، لكن فى كلام الحافظ ابن كثير : ولم يرد ذلك أى التكبير عند نزول سورة الضحى بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف .

وقد ذكر الشيخ أبو المواهب الشاذلى رضى الله تعالى عنه عن شيخه أبى عثمان أنه قال : إنما نزلت سورة ألم نشرح عقب قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) إشارة إلى أن من حدث بنعمة الله فقد شرح الله صدره قال : كأنه تعالى يقول إذا حدثت بنعمتى ونشرتها بين عبادى فقد شرحت صدرك .

وعن ابن إسحاق : ذكر لى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : لقد احتبست عنى ياجبريل حتى سؤت ظنا » وفى لفظ « مامنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فقال له جبريل (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) أى لاننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته على مقتضى حكمته ، وما كان ربك تاركا لك كما زعم الكفار ، بل كان ذلك لحكمة رآها .

وأما حديث الزبيدى ، فقد حدث بعضهم قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد ومن معه من الصحابة إذا رجل من زبيد يطوف على حلق قريش حلقة بعد أخرى وهو يقول : يامعشر قريش كيف تدخل عليكم المارة أو يجلب إليكم جلب ، أو يحل بضم الحاء أى ينزل بساحتكم تاجر وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حرمكم ؟حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ومن ظلمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال خيرة إبله أى أحسنها فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها ، ثم لم يسمه بها لأجله سائم ، قال : فأكسد علىّ سلعتى فظلمنى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأين جمالك ؟ قال : هذه هى بالحزورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه فنظروا إلى الجمال فرأى جمالا حسانا ، فساوم ذلك الرجل حتى ألحقه برضاه ؛ وأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن ،وأفضل بعيرا باعه وأعطى أرامل بنى عبد المطلب ثمنه ، وكل ذلك وأبو جهل جالس فى ناحية من السوق ولم يتكلم ، ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إياك ياعمرو أن تعود لمثل ماصنعت بهذا الرجل فترى منى ماتكره ؛ فجعل يقول : لاأعود يامحمد لاأعود يامحمد ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أبى جهل أمية بن خلف ومن معه من القوم ، فقالوا له : ذللت فى يد محمد ، فإما أن تكون تريد أن تتبعه ، وإما رعب دخلك منه ، فقال لهم : لاأتبعه أبدا ، إن الذى رأيتم منى لما رأيته ، رأيت معه رجالا عن يمينه ورجالا عن شماله معهم رماح يشرعونها إلىّ ، لو خالفته لكانت إياها أى لأتوا على نفسى » .

ونظير ذلك « أن أبا جهل كان وصيا على يتيم فأكل ماله وطرده ، فاستغاث اليتيم بالنبى صلى الله عليه وسلم على أبى جهل ، فمشى معه إليه ورد عليه ماله ، فقيل له فى ذلك فقال : خفت من حربة عن يمينه وحربة عن شماله لو امتنعت أن أعطيه لطعنتى » .

وأما حديث المستهزئين . فمما استهزئ به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحدث به بعضهم « أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له الإراشى بكسر الهمزة نسبة إلى إراشة بطن من خثعم أجمالا فمطله بأثمانها ، فدلته قريش على النبى صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبى جهل استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلمهم بأنه لاقدرة له على أبى جهل : أى بعد أن وقف على ناديهم فقال : يامعشر قريش من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام فإنى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ، فقالوا له أترى ذلك

الرجل ؟ يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذهب إليه فهو يعينك عليه ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له حاله مع أبي جهل — أي قال له : يا أبا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لى قبله وأنا غريب وابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذلى بحقى منه فأشاروا إليك ، فخذ حقى منه يرحمك الله — فخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال محمد ، فخرج إليه وقد انتقع لونه : أي تغير وصار كلون النقع — الذى هو التراب ، وهو الصفرة مع كدرة كما تقدم — فقال له : أعط هذا حقه ، قال نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدفعه إليه . قال : ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيرا يعني النبي صلى الله عليه وسلم — فقد والله أخذ لى بحقي ، وقد كانوا أرسلوا رجلا ممن كان معهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له انظر ماذا يصنع ؟ فقالوا لذلك الرجل ما ذا رأيت ؟ قال : رأيت عجبا من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال : أعط هـذا حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إليـه ، فعند ذلك قالوا لأبي جهل : ويلك ما رأينا مثل ما صنعت ، قال : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته فملئت رعبا ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي فحلا من الإبل ما رأيت مثله قط ، لو أبيت أو تأخرت لأكلني » وإلى هذه القصة أشار صاحب الهمزية بقوله :

واقتضاه النبي دين الإراشي　　وقد ساء بيعـه والشراء
ورأى المصطفى أتاه بما لم　　ينج منه دون الوفاء النجاء
هو ما قد رآه من قبل لكن　　ما على مثله يعد الخطاء

أي وطلب صلى الله عليه وسلم من أبي جهـل أن يؤدى دين الإراشي وقد ساء بيعه وشراؤه مع ذلك الرجل ورأى المصطفى صلى الله عليه وسلم وقد أتاه بفحل من الإبل لم ينج منه دون الوفاء لذلك الدين . كثير النجاء ، وذلك الذى أتاه به هو الفحل الذى قد رآه من قبل : أي لما أراد عدو الله أن يلقى عليه صلى الله عليه وسلم الحجر وهو ساجد كما تقدم ، لكن ما على مثله فضلا عنه يعدّ الخطأ لأن خطأه لا ينحصر .

أي ومن استهزاء أبي جهل بالنبي صلى الله عليه وسلم « أنه في بعض الأوقات سار

خلف النبي صلى الله عليه وسلم يخلج بأنفه وفمه يسخر به ، فاطلع عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال له : كن كذلك ، فكان كذلك إلى أن مات » .

قال ابن عبد البر : وكان من المستهزئين الذين قال الله تعالى فيهم (إنا كفيناك المستهزئين) أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص بن أمية وهو والد مروان بن الحكم عم عثمان بن عفان ، والعاص بن وائل ، فمن استهزاء أبي جهل ماتقدم .

ومن استهزاء أبي لهب به صلى الله عليه وسلم أنه كان يطرح القذر على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، ومرّ يوما من الأيام فرآه أخوه حمزة رضى الله تعالى عنه قد فعل ذلك ، فأخذه وطرحه على رأسه ، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول صابئ أحمق .

ومن استهزاء عقبة بن أبي معيط به صلى الله عليه وسلم أنه كان يلقى القذر أيضا على بابه صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كنت بين شرّ جارين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي » كما تقدم .

ومن استهزائه « أنه بصق في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فعاد بصاقه على وجهه وصار برصا : أي فإنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر مجالسة عقبة بن أبي معيط ، فقدم عقبة يوما من سفر فصنع طعاما ودعا الناس من أشراف قريش ودعا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قرب إليهم الطعام أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل ، فقال : ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وانصرف الناس ، وكان عقبة صديقا لأبيّ بن خلف ، فأخبر الناس أبيا بمقالة عقبة ، فأتى إليه وقال : ياعقبة صبوت ؟ قال : والله ماصبوت ، ولكن دخل منزلي رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي ، فقال له أبيّ : وجهي ووجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأه وتبزق في وجهه وتلطم عينه ، فقال له عقبة : لك ذلك ، ثم إن عقبة لقي النبي صلى الله عليه وسلم ففعل به ذلك » قال الضحاك : لما بزق عقبة لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق مكانها ، وكان أثر الحرق في وجهه إلى الموت . وحينئذ يكون المراد بقوله فيما تقدم « فعاد بصاقه برصا في وجهه » أي صار

كالبرص » وأنزل الله تعالى فى حقه (ويوم يعضّ الظالم على يديه) أى فى النار يأكل إحدى يديه إلى المرفق ثم يأكل الأخرى ، فتنبت الأولى فيأكلها وهكذا » .

ومن استهزاء الحكم بن العاص « أنه كان صلى الله عليه وسلم يمشى ذات يوم وهو خلفه يخلج بفمه وأنفه، يسخر بالنبى صلى الله عليه وسلم، فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : كن كذلك فكان كذلك » أى كما تقدم نظير ذلك لأبى جهل « واستمر الحكم بن العاص يخلج بأنفه وفمه بعد أن مكث شهرا مغشيا عليه حتى مات » أسلم يوم فتح مكة وكان فى فى إسلامه شئ « اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بيته وهو عند بعض نسائه بالمدينة ، فخرج إليه صلى الله عليه وسلم بالعنزة — أى وقيل بمدرى فى يده — والمدرى كالمسلة يفرق به شعر الرأس — وقال : من عذيرى من هذه الوزغة ، لو أدركته لفقأت عينه، ولعنه وماولد، وغربه عن المدينة إلى وجّ الطائف،فلم يزل حتى ولى ابن أخيه عثمان رضى الله تعالى عنه الخلافة ، فدخل المدينة بعد أن سأل عثمان أبا بكر فى ذلك ، فقال : لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأل عمر لما ولى الخلافة فقال له مثل ذلك ، ولما أدخله عثمان نقم عليه الصحابة بسبب ذلك ، فقال : أنا كنت شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدنى برده : أى أنى أردّه » ولا ينافى ذلك سؤال عثمان لأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهم فى ذلك كما لا يخفى ، لأنه يحتمل أن يرده عثمان إما بنفسه أو بسؤاله ، وسيأتى ذلك فى جملة أمور نقمها عليه الصحابة .

وعن هند ابن خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنهما «أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحكم ، فجعل يغمز بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فرآه فقال : اللهم اجعل به وزغا فرجف وارتعش مكانه » والوزغ : الارتعاش . وفى رواية « فما قام حتى ارتعش » .

وعن الواقدى « استأذن الحكم بن العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف صوته ، فقال : ائذنوا له ، لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منهم وقليل ماهم ، ذو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق » « وكان لايولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتى إليه بمروان لما ولد ، فقال : هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون ابن الملعون » وعلى هذا فهو صحابى إن ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه ، لأنه يحتمل أنه أتى به إليه صلى الله عليه وسلم فلم يأذن بإدخاله عليه، وربما يدل لذلك قوله هو الوزغ إلى آخره .

وفى كلام بعضهم أن مروان ولد بمكة . وفى كلام بعض آخر أنه ولد بالطائف بعد أن نفى أبوه إلى الطائف : أى ولم يجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم فهو ليس بصحابى ، ومن ثم قال البخارى : مروان بن الحكم لم ير النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، أنها قالت لمروان « نزل فى أبيك (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) » وقالت له « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك الذى هو العاص بن أمية : إنهم الشجرة الملعونة فى القرآن » ولى مروان الخلافة تسعة أشهر .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لمروان بن الحكم ، حيث قال لأخيها عبد الرحمن ابن أبى بكر لما بايع معاوية لولده ، قال مروان: سنة أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، فقال عبد الرحمن : بل سنة هرقل وقيصر ، وامتنع من البيعة ليزيد بن معاوية ، فقال له مروان: أنت الذى أنزل الله فيك (والذى قال لو الديه أف لكما) فبلغ ذلك عائشة ، فقالت كذب والله ما هو به ، ثم قالت له : أما أنت يامروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صلبه .

وعن جبير بن مطعم « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر الحكم بن العاص ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ويل لأمتى مما فى صلب هذا » قال بعضهم : وكون النبى صلى الله عليه وسلم مع ما هو عليه من الحلم والإغضاء على ما يكره فعل بالحكم ذلك ، يدل على أمر عظيم ظهر له فى الحكم وأولاده .

وعن حمران بن جابر الجعفى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ويل لبنى أمية ثلاث مرات » أى وقد ولى منهم الخلافة أربعة عشر رجلا ، أولهم معاوية بن أبى سفيان ، وآخرهم مروان بن محمد ، وكانت مدة ولايتهم ثنتين وثمانين سنة ، وهى ألف شهر . وقال بعضهم : لا يزيد ذلك يوما ولا ينقص يوما . قال ابن كثير : وهـذا غريب جدا ، وفيه نظر ، لأن معاوية حين تسلم الخلافة من الحسن كان ذلك سنة أربعين أو إحدى وأربعين ، واستمر الأمر فى بنى أمية إلى أن انتقل إلى بنى العباس سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ومجموع ذلك ثنتان وتسعون سنة ، وألف شهر تعدل ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر هذا كلامه .

ومن استهزاء العاص بن وائل أنه كان يقول : غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت ، والله مايهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث .

أى ومن استهزائه . أن خباب بن الأرت رضى الله تعالى عنه كان قينا بمكة : أى حدادا يعمل السيوف ، وقدكان باع للعاص سيوفا فجاءه يتقاضى ثمنها،فقال له : ياخباب أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة مايبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم أو ولد ؟ قال خباب بلى ، قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك، ووالله لا تكونن أنت وصاحبك آثر عند الله منى ولا أعظم حظا فى ذلك .

وفى لفظ أن العاص قال له : لاأعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقال : والله لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يبعثك ، قال : فذرنى حتى أموت ثم أبعث فسوف أوتى مالا وولدا فأقضيك ، فأنزل الله تعالى فيه (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه مايقول ويأتينا فردا) .

وفى كلام ابن حجر الهيتمى،وفى البخارى من عدة طرق : أن خبابا رضى الله تعالى عنه طلب من العاص بن وائل السهمى دينا له عليه ، قال : لاأعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقال : لا أكفر به حتى يميتك الله ثم يبعثك .

وفيه أن هذا تعليق للكفر بممكن :أى وتعليق الكفر ولو بمحال عادى ، وكذا شرعى أو عقلى على احتمال كفر ، لأنه ينافى عقد التصميم الذى هو شرط فى الإسلام ..

وأجيب بأنه لم يقصد التعليق قطعا ، وإنما أراد تكذيب ذلك اللعين فى إنكار البعث ، ولا ينافيه قوله « حتى »،لأنها تأتى بمعنى إلا المنقطعة فتكون بمعنى لكن الذى صرحوا بأن مابعدها كلام مستأنف ، وعليه خرج ابن هشام الخضراوى حديث « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه » أى لكن أبواه .

وعد بعضهم من المستهزئين الحارث بن عيطلة ، ويقال ابن عيطل ينسب إلى أمه ، وكان من استهزائه ماتقدم عن العاص بن وائل وأبى جهل من الاختلاج خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعد منهم الأسود بن عبد يغوث ، وهو ابن خال النبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى

وقيصر : أى لأن الصحابة كانوا متقشفين ، ثيابهم رثة ، وعيشهم خشن ، ويقول للنبى صلى الله عليه وسلم : أما كلمت اليوم من السماء يامحمد ، وماأشبه هذا القول .

وعد منهم الأسود بن عبد المطلب . ومن استهزائه أنه كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويصفرون إذا رأوهم .

وعد منهم النضر بن الحارث ، فهلك غالبهم قبيل الهجرة بضروب من البلاء .

أقول : والذى ينبغى أن يكون المراد بالمستهزئين فى الآية وهى (إنا كفيناك المستهزئين) الوليد بن المغيرة والدخالد وعم أبى جهل ، فإنه كان من عظماء قريش ، وكان فى سعة من العيش ومكنة من السيادة، كان يطعم الناس أيام منى حيسا، وينهى أن توقد نار لأجل طعام غير ناره ، وينفق على الحاج نفقة واسعة ، وكانت الأعراب تثنى عليه ، كانت له البساتين من مكة إلى الطائف ، وكان من جملتها بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، وببركته صلى الله عليه وسلم أصابته الجوائح والآفات فى أمواله حتى ذهبت بأسرها ولم يبق له فى أيام الحج ذكر . وكان المقدم فى قريش فصاحة ، وكان يقال له ريحانة قريش ، ويقال له الوحيد أى فى الشرف والسودد والجاه والرياسة . قال بعضهم : بل هو وحيد فى الكفر والخبث والعناد .

والعاص بن وائل والد عمرو بن العاص والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن عيطلة . وفى لفظ : ابن الطلاطلة . والطلاطلة فى اللغة : الداهية ؛ قال بعضهم وهو اشتباه ، لأن ابن الطلاطلة اسمه مالك لا حارث .

والحارث بن العيطلة كان أحد أشراف قريش فى الجاهلية ، وإليه كانت الحكومة والأموال التى تجعل للآلهة، وذكره ابن عبد البر فى الصحابة . قال فى أسد الغابة : لم أر أحدا ذكره فى الصحابة إلا أبا عمرو يعنى ابن عبد البر . والصحيح أنه كان من المستهزئين ، وهؤلاء الخمسة هم الذين اقتصر عليهم القاضى البيضاوى ، لما يروى «أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد : أى يطوف بالبيت — وقال له أمرت أن أكفيكهم ، فلما مر الوليد بن المغيرة قال له : يامحمد كيف تجد هذا ؟ فقال : بئس عبد الله ، فأومأ إلى ساق الوليد وقال كفيته ، ومرّ العاص بن وائل ، فقال : كيف تجد هذا يامحمد ؟ قال عبد سوء، فأشار إلى أخمصه وقال كفيته ،ثم مرّ الأسود بن المطلب فقال كيف تجد هذا يا محمد ؟ قال : عبد سوء ، فأومأ إلى عينه ، وقال كفيته ، ثم مر الأسود بن عبد يغوث

فقال . كيف تجد هـــذا يامحمد ؟ قال عبد سوء ، فأومأ إلى رأسه وقال كفيته ، ثم مر الحارث بن عيطلة فقال : كيف تجد هذا يامحمد ؟ قال : عبد سوء ، فأومأ إلى بطنه وقال كفيته » وحينئذ يكون معنى كفاية هذا له صلى الله عليه وسلم أنه لم يسع ولم يتكلف فى تحصيل ذلك ، وإلى هذا أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وجبريل لما استهزأت فرقة الردى أشار إلى كل بأقبح ميتة والله أعلم

قال : وروى الزهرى « أن الأسود بن عبد يغوث خرج من عند أهله فأصابته السموم فاسودّ وجهه ، فأتى أهله فلم يعرفوه وأقفلوا دونه الباب ، وسلط عليه العطش فلا زال يشرب الماء حتى انشق بطنه » وهذا يناسب ماسيأتى عن الهمزية ، ولا يناسب أن جبريل عليه الصلاة والسلام أشار إلى رأسه . وفى كلام البلاذرى عن عكرمة « أن جبريل أخذ بعنق الأسود بن عبد يغوث فحنى ظهره حتى احقوقف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خالى خالى » أى لأنه كما تقدم ابن خاله ، فهو إما على حذف المضاف ، أو لأجل مراعاة أبيه : أى يراعى لأجل أبيه الذى هو خالى « فقال جبريل : يامحمد دعه » وفى رواية « قال له جبريل : خلّ عنك ، ثم حثاه حتّى قتله » وهـــذا لايناسب كون جبريل أشار إلى رأسه .

والمناسب لذلك ماذكره بعضهم أنه امتخض رأسه قيحا ، ثم لم يزل يضرب برأسه أصل شجرة حتى مات ، وكذا الحارث بن عيطلة : أى وفى كلام القاضى وحارثه ابن قيس .

وفى تـكملة الجلال السيوطى عدى بن قيس ، فقد أكل حوتا مملحا فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقدّ بطنه ، وهذا المناسب لما ذكر هنا أن جبريل أشار إلى بطنه ، لـكن لايناسب ماقاله القاضى البيضاوى أنه أشار إلى أنفه فامتخض قيحا .

وأما الأسود بن المطلب فقد عمى بصره . فقد ذكر «أنه خرج ليستقبل ولده، وقد قدم من الشام ؛ فلما كان ببعض الطريق جلس فى ظل شجرة ، فجعل جبريل يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها حتى عمى ، فجعل يستغيث بغلامه ، فقال له غلامه : لاأحد يصنع بك شيئا : أى وقيل ضربه بغصن فيه شوك ، فسالت حدقتاه ، وصار يقول : هاهو ذا طعن بالشوك فى عينى ، فيقال له مانرى شيئا، وقيل أتى شجرة فجعل ينطح رأسه بها حتّى خرجت عيناه » أى وفعل ذلك لاينافى ماورد « فأشار أى جبريل إلى وجهه فعمى بصره

فى الحال ، لجواز أن يراد بالحال الزمن القريب ، وفى رواية : أنه كان يقول « دعا على محمد بالعمى فاستجيب له ، ودعوت عليه بأن يكون طريدا شريدا فاستجيب لى » وسيأتى عن بعضهم فى غزوة بدر « أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الأسود بن المطلب بالعمى وفقد أولاده ، فعجل له العمى وفقد أولاده ببدر . وأما الوليد بن المغيرة فمر بشخص يعمل النبل فتعلق بثوبه سهم فلم ينقلب لينحيه تعاظما، فعدا فأصاب السهم عرقا فى ساقه فقطعه فمات . وأما العاص بن وائل ، فدخلت شوكة فى أخمصه فانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات » وإلى الخمسة الذين ذكرنا أنهم المرادون بقوله تعالى (إنا كفيناك المستهزئين) أشار صاحب الهمزية بقوله :

وكفاه المستهزئين وكم سا ء نبيا من قومه استهزاء
خمسة كلهم أصيبوا بداء والردى من جنوده الأدواء
فدهى الأسود بن مطلب أى عمى ميت به الأحياء
ودهى الأسود بن عبد يغوث أن سقاه كأس الردى استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم قصرت عنها الحية الرقطاء
وقضت شوكة على مهجة العا ص فلله النقعة الشوكاء
وعلى الحارث القيوح وقد سا ل بها رأسه وسال الوعاء
خمسة طهرت بقطعهم الأر ض فكف الأذى بهم شلاء

أى وكفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم المستهزئين به ، ومرات كثيرة أحزن نبينا صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء استهزاء قومه به ، وهؤلاء المستهزئون به صلى الله عليه وسلم خمسة كلهم أصيبوا بداء عظيم ؛ والهلاك من جملة جنوده الأمراض .

فأهلك الأسود بن المطلب عمى عظيم الأحياء أموات بسببه ، وهو المناسب لكون جبريل أشار الى عينيه . ودهى أيضا الأسود بن عبد يغوث استسقاء سقاه كأس الموت ، وهذا لايناسب كون جبريل أشار إلى رأسه . وأصاب الوليد أثر سهم فى ساقه قصرت عنه الحية الرقطاء : أى سمها . وقضت شوكة على مهجة العاص دخلت فى رجله ، فلله هذه النقعة الخشنة اللمس . وقضت على الحارث القيوح والحال أنه قد سال رأسه ، وفسد ذلك الوعاء لتلك القيوح ، وهذا هو المناسب لكون جبريل أشار إلى أنفه ،

لا لقول بعضهم إنه أشار إلى بطنه . خمسة طهرت بهلاكهم الأرض ، فكف الأذى بهم شلاء : فاقدة الحركة .

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن هؤلاء الخمسة هلكوا فى ليلة واحدة ، فعلم أن هؤلاء هم المرادون بقوله تعالى (إنا كفيناك المستهزئين) كما ذكرنا ، وإن كان المستهزئون غير منحصرين فيهم فلا ينافى عدّ منبه ونبيه ابنى الحجاج منهم .

فقد قيل : كانا ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكانا يلقيانه فيقولان له أما وجد الله من يبعثه غيرك ؟ إن هاهنا من هو أسن منك وأيسر ، فإن كنت صادقا فأتنا بملك ليشهد لك ويكون معك ، وإذا ذكر لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا معلم مجنون يعلمه أهل الكتاب ما يأتى به . ولاينافى عدّ أبى جهل وغيره منهم كما تقدم .

وفى سيرة ابن المحدث قال عليه الصلاة والسلام « من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه » .

ومن استهزاء أبى جهل أيضا بالنبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوما لقريش : يامعشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يقذفونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، فيعجز كل مائة رجل منكم عن واحد منهم ؟ .

أى وفى رواية « أن بعض قريش وكان شديدا قوىّ البأس ، بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال له : أنا أكفيك سبعة عشر ، واكفونى أنتم اثنين ، ويقال إن هذا دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى المصارعة ، وقال له : يا محمد إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم مرارا فلم يؤمن » .

أى وفى رواية أن أبا جهل قال : أنا أكفيكم عشرة فاكفونى تسعة ، فأنزل الله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أى لايطاقون كما تتوهمون (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة) ضلالا (للذين كفروا) الآيات : أى بأن يقولوا ما ذكر ، أو يقولوا لم كانوا تسعة عشر ؟ وماذا أراد الله بهذا العدد : أى وهذا العدد لحكمة استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد أبدى بعض المفسرين لذلك حكما تراجع .

وقد جاء فى وصف تلك الملائكة « أن أعينهم كالبرق الخاطف ، وأنيابهم كالصياصى »

أى القرون « ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة » وفى رواية « ما بين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب ، لأحدهم قوة مثل قوة الثقلين ، نزعت الرحمة منهم » .

وأخرج العتبى فى [عيون الأخبار] عن طاوس: إن الله خلق مالكا وخلق له أصابع على عدد أهل النار ؛ فما من أهل النار معذب إلا ومالك يعذبه بأصبع من أصابعه ، فوالله لو وضع مالك أصبعا من أصابعه على السماء لأذابها ، وهؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء ، ولكل واحد أتباع لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى . قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أى وهؤلاء الأتباع منهم .

وأخرج هناد عن كعب قال : يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك : أى والمتبادر أن هؤلاء من خزنتها .

وفى كلام بعضهم : لم يثبت لملائكة النار عدد معين سوى ما فى قوله تعالى (عليها تسعة عشر) وإنما ذلك لسقر التى هى إحدى دركات النار ، لقوله تعالى قبل ذلك (سأصليه سقر) وقد يكون على كل واحدة منها مثل هذا العدد أو أكثر . قيل و « بسم الله الرحمن الرحيم» عدد حروفها على عدد هؤلاء الزبانية التسعة عشر ،فمن قرأها وهو مؤمن دفع الله تعالى عنه بكل حرف منها واحدا منهم .

أقول : ومن استهزاء أبى جهل أيضا أنه قال يوما لقريش وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الحق : يا معشر قريش يخوّفنا محمد بشجرة الزقوم ؛ يزعم أنها شجرة فى النار يقال لها شجرة الزقوم ، والنار تأكل الشجر ، إنما الزقوم التمر والزبد .

وفى لفظ : العجوة تترب بالزبد ، هاتوا تمرا وزبدا وتزقموا ، فأنزل الله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) أى منبتها فى أصل جهنم ولا تسلط لجهنم عليها ، أما علموا أن من قدر على خلق من يعيش فى النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الإحراق بها ؟

وقد قال ابن سلام رضى الله تعالى عنه : إنها تحيا باللهب كما يحيا شجر الدنيا بالمطر ، وثمر تلك الشجرة مرّ له زفرة . وأخرج الترمذى وصححه النسائى والبيهقى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن تكون

طعامه ؟ » أى وقال : يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى تعبد ، فأنزل الله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) فكف عن سب آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله عز وجل .

ثم رأيت فى الدر المنثور فى تفسير (إنا كفيناك المستهزئين) قيل نزلت فى جماعة مر النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، فجعلوا يغمزون فى قفاه ويقولون . هذا الذى يزعم أنه نبى ومعه جبريل ، فغمز جبريل عليه الصلاة والسلام بأصبعه فى أجسادهم فصارت جروحا وأنتنت ، فلم يستطع أحد يدنو منهم حتى ماتوا فلينظر الجمع على تقدير الصحة .

وقد يدعى أنهم طائفة آخرون غير من ذكر ،لأنهم المستهزئون ذلك الوقت ، أى فقد تكرر نزول الآية ، والله أعلم .

قال : ومن استهزاء النضر بن الحارث أنه كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا يحدث فيه قومه ويحذرهم ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله تعالى خلفه فى مجلسه ويقول لقريش : هلموا فإنى والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، يعنى النبى صلى الله عليه وسلم « ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، لأنه كان يعلم أحاديثهم ويقول : ماحديث محمد إلا أساطير الأولين .

ويقال إنه الذى (قال سأنزل مثل ما أنزل الله) انتهى : أى لأنه ذهب إلى الحيرة واشترى منها أحاديث الأعاجم ثم قدم بها مكة فكان يحدث بها ويقول : هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود وغيرهم . ويقال إن ذلك كان سببا لنزول قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) .

قال فى الينبوع : والمشهور أنها نزلت فى شراء المغنيات . وقال : ولا بعد فى أن تكون الآية نزلت فيهما ليتحقق العطف فى قوله تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) أى فإن هذا الوصف الثانى إنما يناسب النضر ، فليتأمل ، ولما تلا عليهم صلى الله عليه وسلم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث : لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ، فأنزل الله تعالى تكذيبا له (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى معيناً له .

وجاء « أن جماعة من بنى مخزوم منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة تواصوا على قتله صلى الله عليه وسلم ، فبينما النبى صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى سمعوا قراءته ، فأرسلوا

الوليد ليقتله ، فانطلق حتى أتى المكان الذى يصلى فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه ، فانصرف إليهم وأعلمهم بذلك فأتوه ، فلما سمعوا قراءته قصدوا الصوت ، فإذا الصوت من خلفهم ، فذهبوا إليه فسمعوه من أمامهم ولا زالوا كذلك حتى انصرفوا خائبين ، فأنزل الله تعالى قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وتقدم فى سبب نزولها غير ذلك . ويمكن أن يدعى أنها نزلت لوجود الأمرين فليتأمل .

وجاء «أن النضر بن الحارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم منفردا أسفل ثنية الحجون فقال : لا أجده أبدا أخلى منه الساعة فأغتاله ، فدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتاله ، فرأى أسـ.ـد تضرب بأذنابها على رأسه فاتحـة أفواهها فرجع على عقبه مرعوباً فلقى أباجهل فقال : من أين ؟ فأخبره النضر الخبر ، فقال أبوجهل : هذا بعض سحره » .

ومما تعنتوا به أنه لما نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) أى وقودها . وحصب بالزنجية حطب : أى حطب جهنم . وقد قرأتها عائشة رضى الله تعالى عنها (كذلك أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) شق على كفار قريش وقالوا لعبد الله بن الزبعرى : قد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا حصب جهنم ، فقال ابن الزبعرى : أنا أخصم لكم محمدا ادعوه لى ، فدعوه له ، فقال : يامحمد هذا شىء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله ؟ فقال : بل لكل من عبد من دون الله ، فقال ابن الزبعرى : أخصمت ورب هذه البنية — يعنى الكعبة — ألست تزعم يامحمد أن عيسى عبد من دون الله وكذا عزير والملائكة ، عبدت النصارى عيسى واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة ، فضج الكفار وفرحوا فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) يعنى عيسى وعزيرا والملائكة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بعون الله الجـزء الأول

ويليه الجزء الثانى وأوله :

باب الهجرة الأولى

فهرست

الجزء الأول من كتاب إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون

صحيفة

صحيفة